التَّدبُّر والبَيان

في

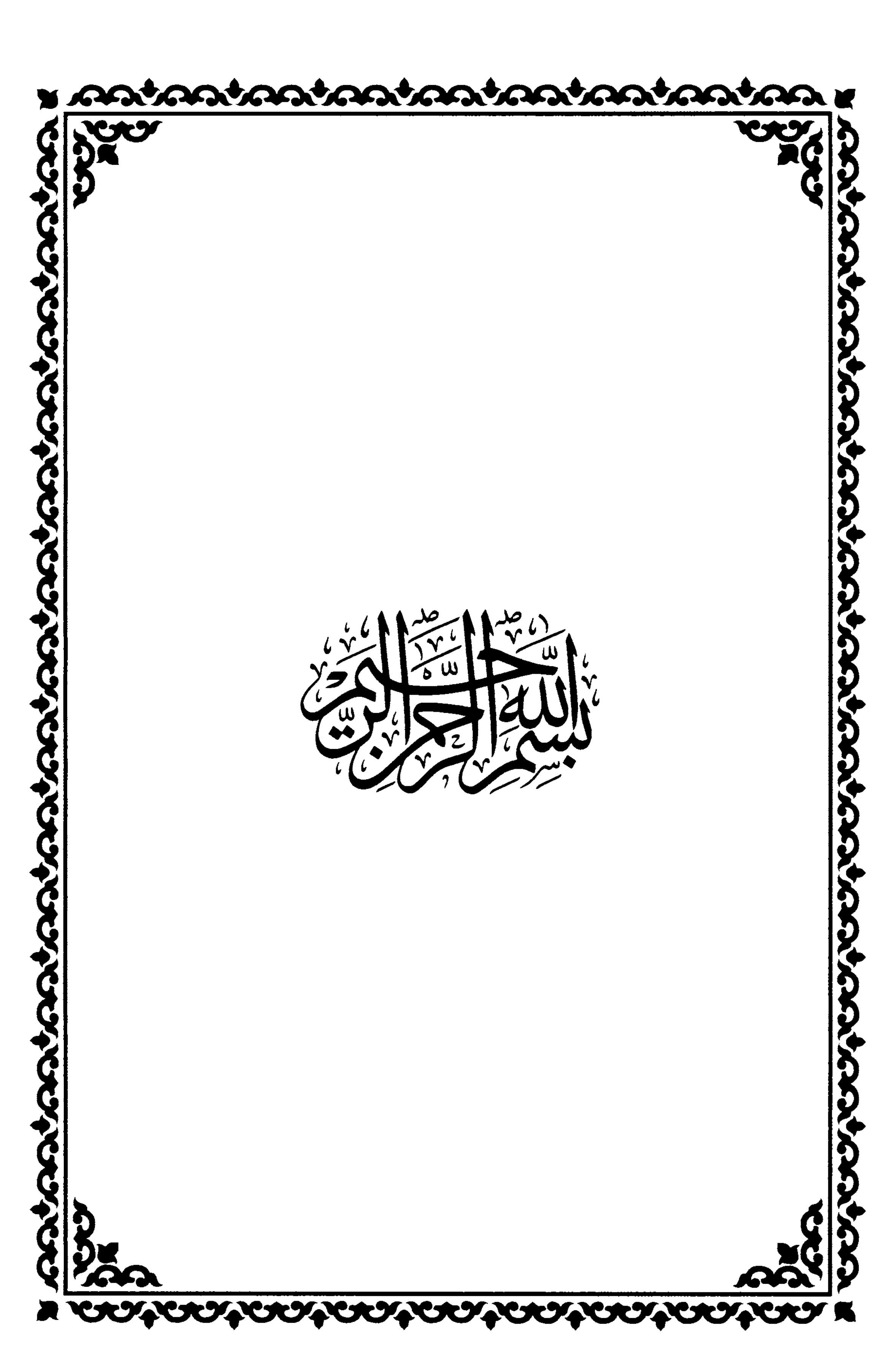
تفسير القرآن بصحيح السُّنن

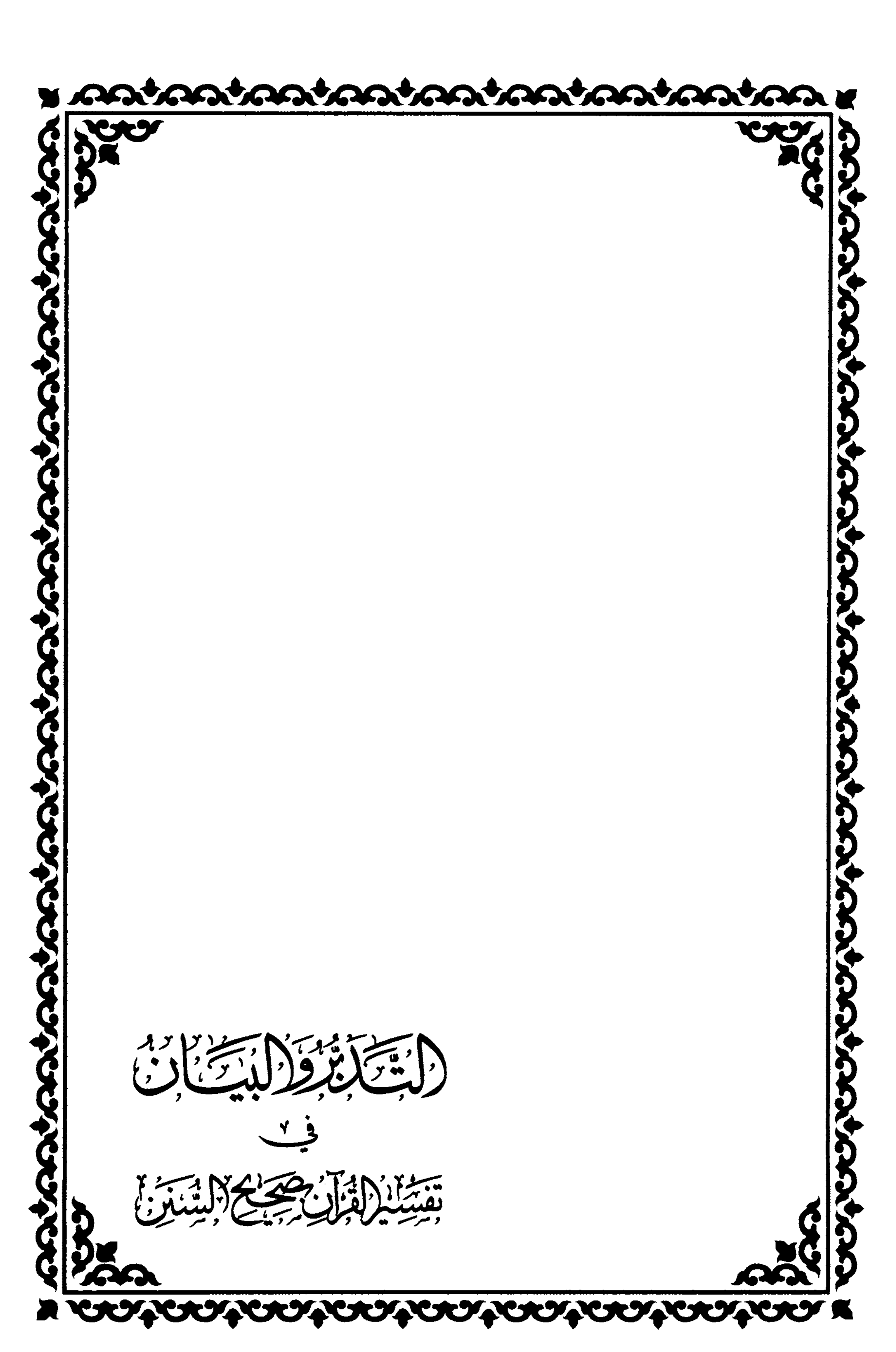
تأليف الأستاذ الدكتور

أبي سهل محمد بن عبد الرحمن المغراوي

المجلد السادس عشر

سورة يوسف


بسم الله الرحمن الرحيم


التدبر والبيان
في
تفسير القرآن بصحيح السنن



الطّبعَة الأولى

١٤٣٥ هـ - ٢٠١٤ م

الكتاب : التدبر والبيان
في تفسير القرآن بصحيح السنن

Title : AT-TADABBUR WAL-BAYÂN
FÎ TAFSÎR AL-QUR'ÂN BI ṢAḤÎḤ AS-SUNAN

التصنيف : تفسير

Classification: Exegesis

المؤلف : أبو سهل محمد بن عبد الرحمن المغراوي

Author : Abu Sahl Muhammad ben Abdur-Rahman Al-Maghrawi.

Pages (40 Volumes) 22072 عدد الصفحات (40 مجلداً)

Size 17x24 cm قياس الصفحات

Year 2014 A.D - 1435 H. سنة الطباعة

Printed in : Lebanon بلد الطباعة : لبنان

Edition : 1st الطبعة : الأولى

رقم الإيداع القانوني : ٢٠١٤ MO ٠٤٢٨

ردمك : ٧ - ١٤٧ - ٣٣ - ٩٩٥٤ - ٩٧٨






سورة يوسف

قوله تعالى: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٢ نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ۝٣﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة (البقرة). وقوله: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي هذه آيات الكتاب، وهو القرآن المبين، أي الواضح الجلي الذي يفصح عن الأشياء المبهمة، ويفسرها ويبينها ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ وذلك لأن لغة العرب أفصح اللغات وأبينها وأوسعها وأكثرها تأدية للمعاني التي تقوم بالنفوس، فلهذا أنزل أشرف الكتب بأشرف اللغات، على أشرف الرسل بسفارة أشرف الملائكة، وكان ذلك في أشرف بقاع الأرض، وابتدئ إنزاله في أشرف شهور السنة، وهو رمضان، فكمل من كل الوجوه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ بسبب إيحائنا إليك هذا القرآن»[1].

وقال شيخ الإسلام: «و﴿أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ﴾ قيل إنه مصدر، وقيل إنه مفعول به.

---

(١) التفسير (٤/ ٥-٦).

قيل: المعنى نحن نقص عليك أحسن الاقتصاص، كما يقال: نكلمك أحسن التكليم، ونبين لك أحسن البيان. قال الزجاج: نحن نبين لك أحسن البيان. والقاص الذي يأتي بالقصة على حقيقتها. قال وقوله: ﴿بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ أي بوحينا إليك هذا القرآن، ومن قال هذا قال بما أوحينا إليك هذا القرآن، وعلى هذا القول فهو كقوله: نقرأ عليك أحسن القراءة، ونتلوا عليك أحسن التلاوة. والثاني أن المعنى: نقص عليك أحسن ما يقص؛ أي: أحسن الأخبار المقصوصات. كما قال في السورة الأخرى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ﴾[1] وقال: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا﴾[2]. ويدل على ذلك قوله في قصة موسى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ﴾[3]، وقوله: ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ﴾[4] المراد خبرهم ونبؤهم وحديثهم، ليس المراد مجرد المصدر.

والقولان متلازمان في المعنى كما سنبينه، ولهذا يجوز أن يكون هذا المنصوب قد جمع معنى المصدر ومعنى المفعول به؛ لأن فيه كلا المعنيين، بخلاف المواضع التي يباين فيها الفعل المفعول به، فإنه إذا انتصب بهذا المعنى امتنع المعنى الآخر.

ومن رجح الأول من النحاة -كالزجاج وغيره- قالوا: القصص مصدر، يقال قص أثره يقصه قصصا، ومنه قوله تعالى: ﴿فَٱرۡتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصٗا﴾[5]. وكذلك اقتص أثره وتقصص، وقد اقتصصت الحديث: رويته على وجهه، وقد اقتص عليه الخبر قصصا. وليس القصص بالفتح جمع قصة كما يظنه بعض العامة. فإن ذلك يقال في قصص بالكسر واحده قصة، والقصة هي الأمر والحديث الذي يقص، فعلة بمعنى مفعول وجمعه قصص بالكسر. وقوله: ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ﴾ بالفتح لم يقل أحسن القصص بالكسر. ولكن بعض الناس ظنوا أن المراد أحسن القصص بالكسر، وأن تلك القصة قصة يوسف، وذكر هذا طائفة من المفسرين.

ثم ذكروا: لم سميت أحسن القصص؟ فقيل: لأنه ليس في القرآن قصة تتضمن من العبر والحكم والنكت ما تتضمن هذه القصة. وقيل: لامتداد الأوقات بين مبتداها ومنتهاها. وقيل لحسن محاورة يوسف وإخوته، وصبره على أذاهم،

---

(١) الزمر: الآية (٢٣).
(٢) النساء: الآية (١٢٢).
(٣) القصص: الآية (٢٥).
(٤) يوسف: الآية (١١١).
(٥) الكهف: الآية (٦٤).

وإغضائه عن ذكر ما تعاطوه عند اللقاء، وكرمه في العفو . . والذين يجعلون قصة يوسف أحسن القصص منهم من يعلم أن (القصص) بالفتح هو النبأ والخبر، ويقولون هي أحسن الأخبار والأنباء، وكثير منهم يظن أن المراد أحسن القصص بالكسر، وهؤلاء جهال بالعربية. وكلا القولين خطأ، وليس المراد بقوله: ﴿أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ قصة يوسف وحدها، بل هي مما قصه اللَّه، ومما يدخل في أحسن القصص، ولهذا قال تعالى في آخر السورة: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[١] فبين أن العبرة في قصص المرسلين وأمر بالنظر في عاقبة من كذبهم وعاقبتهم بالنصر.

ومن المعلوم أن قصة موسى وما جرى له مع فرعون وغيره أعظم وأشرف من قصة يوسف بكثير كثير، ولهذا هي أعظم قصص الأنبياء التي تذكر في القرآن، ثناها اللَّه أكثر من غيرها، وبسطها وطولها أكثر من غيرها؛ بل قصص سائر الأنبياء - كنوح وهود وصالح وشعيب وغيرهم من المرسلين- أعظم من قصة يوسف، ولهذا ثنى اللَّه تلك القصص في القرآن ولم يثن قصة يوسف، وذلك لأن الذين عادوا يوسف لم يعادوه على الدين بل عادوه عداوة دنيوية، وحسدوه على محبة أبيه له وظلموه فصبر واتقى اللَّه، وابتلي صلوات اللَّه عليه بمن ظلمه وبمن دعاه إلى الفاحشة فصبر واتقى اللَّه في هذا وفي هذا، وابتلي أيضًا بالملك فابتلي بالسراء والضراء فصبر واتقى اللَّه في هذا وهذا، فكانت قصته من أحسن القصص، وهي أحسن من القصص التي لم تقص في القرآن، فإن الناس قد يظلمون ويحسدون ويدعون إلى الفاحشة ويبتلون بالملك، لكن ليس من لم يذكر في القرآن ممن اتقى اللَّه وصبر مثل يوسف، ولا فيهم من كانت عاقبته أحسن العواقب في الدنيا والآخرة مثل يوسف.

---

(١) يوسف: الآيات (١٠٩-١١١).

وهذا كما أن قصة أهل الكهف وقصة ذي القرنين كل منهما هي في جنسها أحسن من غيرها. فقصة ذي القرنين أحسن قصص الملوك، وقصة أهل الكهف أحسن قصص أولياء اللَّه الذين كانوا في زمن الفترة.

فقوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ يتناول كل ما قصه في كتابه، فهو أحسن مما لم يقصه، ليس المراد أن قصة يوسف أحسن ما قص في القرآن. وأين ما جرى ليوسف مما جرى لموسى ونوح وإبراهيم وغيرهم من الرسل؟! وأين ما عودي أولئك مما عودي فيه يوسف؟! وأين فضل أولئك عند اللَّه وعلو درجتهم من يوسف صلوات اللَّه عليهم أجمعين؟ وأين نصر أولئك من نصر يوسف؟ فإن يوسف كما قال اللَّه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ وأذل اللَّه الذين ظلموه ثم تابوا، فكان فيها من العبرة أن المظلوم المحسود إذا صبر واتقى اللَّه كانت له العاقبة، وأن الظالم الحاسد قد يتوب اللَّه عليه ويعفو عنه، وأن المظلوم ينبغي له العفو عن ظالمه إذا قدر عليه.

وبهذا اعتبر النبي ﷺ يوم فتح مكة لما قام على باب الكعبة وقد أذل اللَّه به الذين عادوه وحاربوه من الطلقاء فقال: «ماذا أنتم قائلون؟. فقالوا: نقول: أخ كريم، وابن عم كريم. فقال: «إني قائل لكم كما قال يوسف لإخوته: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾»[1]. وكذلك عائشة لما ظلمت وافتري عليها وقيل لها: «إن كنت ألممت بذنب فاستغفري اللَّه وتوبي إليه»، فقالت في كلامها: أقول كما قال أبو يوسف: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾[2].

ففي قصة يوسف أنواع من العبرة للمظلوم والمحسود والمبتلى بدواعي الفواحش والذنوب وغير ذلك.

لكن أين قصة نوح وإبراهيم وموسى والمسيح ونحوهم ممن كانت قصته أنه دعا الخلق إلى عبادة اللَّه وحده لا شريك له فكذبوه وآذوه وآذوا من آمن به؟ فإن هؤلاء أوذوا اختيارا منهم لعبادة اللَّه فعودوا، وأوذوا في محبة اللَّه وعبادته باختيارهم. فإنهم لولا إيمانهم ودعوتهم الخلق إلى عبادة اللَّه لما أوذوا، وهذا بخلاف من

---

(١) سيأتي تخريجه تحت: الآية (٩٢) مطولا.

(٢) سيأتي تخريجه تحت: الآية (١٨).

أوذي بغير اختياره كما أخذ يوسف من أبيه بغير اختياره، ولهذا كانت محنة يوسف بالنسوة وامرأة العزيز، واختياره السجن على معصية اللَّه، أعظم من إيمانه، ودرجته عند اللَّه وأجره من صبره على ظلم إخوته له؛ ولهذا يعظم يوسف بهذا أعظم مما يعظم بذلك، ولهذا قال تعالى فيه: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾»[1].

وقال: «والمقصود هنا أن قوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ المراد الكلام الذي هو أحسن القصص، وهو عام في كل ما قصه اللَّه، لم يخص به سورة يوسف؛ ولهذا قال: ﴿بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ ولم يقل بما أوحينا إليك هذه السورة، والآثار المأثورة في ذلك عن السلف تدل كلها على ذلك، وعلى أنهم كانوا يعتقدون أن القرآن أفضل من سائر الكتب، وهو المراد. والمراد من هذا حاصل على كل تقدير فسواء كان أحسن القصص مصدرا أو مفعولا أو جامعا للأمرين، فهو يدل على أن القرآن وما في القرآن من القصص أحسن من غيره، فإنا قد ذكرنا أنهما متلازمان فأيهما كان أحسن كان الآخر أحسن، فتبين أن قوله تعالى: ﴿أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ كقوله: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾[2] والآثار السلفية تدل على ذلك.

والسلف كانوا مقرين بأن القرآن أحسن الحديث، وأحسن القصص، كما أنه المهيمن على ما بين يديه من كتب السماء، فكيف يقال: إن كلام اللَّه كله لا فضل لبعضه على بعض!»[3].

قال الشيخ محمد رضا رحمه الله: «وهي أطول قصة في القرآن افتتحت بثلاث آيات تمهيدية في ذكر القرآن وحسن قصصه، ثم كانت إلى تمام المئة في تاريخ يوسف، وختمت بإحدى عشرة آية في الاستدلال بها على ما أنزلها اللَّه لأجله من إثبات رسالة خاتم النبيين وإعجاز كتابه، والعبرة العامة بقصص الرسل عليهم الصلاة والسلام»[4].

---

(١) مجموع الفتاوى (١٧/ ١٨-٢٤).
(٢) الزمر: الآية (٢٣).
(٣) مجموع الفتاوى (١٧/ ٣٩).
(٤) تفسير المنار (١٢/ ٢٥٠).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان عربية القرآن ومشاهدة نزول الوحي

* عن أنس بن مالك ﷺ أنه قال في قصة جمع القرآن: «فأمر عثمان زيد بن ثابت وسعيد بن العاص وعبداللَّه بن الزبير وعبدالرحمن ابن الحارث بن هشام أن ينسخوها في المصاحف، وقال لهم: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في عربية من عربية القرآن، فاكتبوها بلسان قريش، فإن القرآن أنزل بلسانهم، ففعلوا»(١).

★ فوائد الحديث:

قال ابن بطال: «ودل قول عثمان: (إذا اختلفتم في عربية من عربية القرآن فاكتبوها بلسان قريش، فإنه نزل بلسانهم) على تشريف قريش على سائر الناس، وتخصيصهم بالفضيلة الباقية إلى الأبد، حين اختار اللَّه إثبات وحيه الذي هدى به من الضلالة بلغتهم (تعبيره) بلسانهم، وحسبك بهذا من شرف باق.

قال أبو بكر بن الطيب: ومعنى قول عثمان: (فإنه نزل بلسان قريش)، يريد معظمه وأكثره، ولم تقم دلالة قاطعة على أن القرآن بأسره منزل بلغة قريش فقط، وأنه لا شيء فيه من لغة غيرهم؛ فإنه قد ثبت أن في القرآن همزا كثيرًا وثبت أن قريشا لا تهمز، وثبت فيه كلمات وحروف هي خلاف لغة قريش، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾(٢). ولم يقل قرشيا، وهذا يدل أنه منزل بجميع لسان العرب؛ وليس لأحد أن يقول: أراد قريشا من العرب دون غيرها، كما أنه ليس له أن يقول: أراد لغة عدنان دون قحطان، أو ربيعة دون مضر؛ لأن اسم العرب يتناول جميع هذه القبائل تناولا واحدا.

ولو ساغ لمدع أن يدعي أنه أراد قبيلة من قبائل العرب؛ لساغ لآخر أن يقول: إن قوله: (أنه منزل بلسان قريش) أنه أريد به قبيلة من قريش دون غيرها، ومن قال هذا فقد ظهر تخليطه»(٣).

---

(١) أخرجه: البخاري (٩/ ١٠/ ٤٩٨٤) واللفظ له، والترمذي (٥/ ٢٦٥-٢٦٦/ ٣١٠٤)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٦/ ٧٩٨٨).

(٢) الزخرف: الآية (٣).

(٣) شرح البخاري (١٠/ ٢١٨-٢١٩).

قال الرافعي: «نزل القرآن الكريم بهذه اللغة على نمط يعجز قليله وكثيره معا: فكان أشبه شيء بالنور في جملة نسقه، إذ النور جملة واحدة، وإنما يتجزأ باعتبار لا يخرجه من طبيعته، وهو في كل جزء من أجزائه وفي أجزائه جملة لا يعارض بشيء إلا إذا خلقت سماء غير السماء، وبدلت الأرض غير الأرض، وإنما كان ذلك لأنه صفى اللغة من أكدارها، وأجراها في ظاهرها على بواطن أسرارها. فجاء بها في ماء الجمال أملأ من السحاب، وفي طراءة الخلق أجمل من الشباب، ثم هو بما تناول بها من المعاني الدقيقة التي أبرزها في جلال الإعجاز، وصورها بالحقيقة وأنطقها بالمجاز، وما ركبها به من المطاوعة في تقلب الأساليب، وتحول التراكيب إلى التراكيب؛ قد أظهرها مظهرا لا يقضى العجب منه؛ لأنه جلاها على التاريخ كله لا على جيل العرب بخاصته، ولهذا بهتوا لها حتى لم يتبينوا أكانوا يسمعون بها صوت الحاضر أم صوت المستقبل أم صوت الخلود؟ لأنها هي لغتهم التي يعرفونها، ولكن في جزالة لم يمضغ لها شيح ولا قيصوم، ورقة غير ما انتهى إليهم من أمر الحاضرة. وهذا معنى ليس أظهر منه في إعجاز القرآن، فإن اللغة لا تشب عن أطوار أهلها متى كانت من غرائزهم، وإنما تكون على مقدارهم ضعفا وقوة؛ لأنها صورتهم المتكلمة وهم صورتها المفكرة، فهي ألفاظ معانيهم، وهم في الحقيقة معاني ألفاظها؛ ولذلك لا تزيد عليهم ولا ينقصون عنها ما دام رسمهم لم يتغير، وما دامت عادتهم لم تنتقل، فإن سنح لامرئ من أهل النظر أن يستدل في لغة من اللغات على آثار أمتها بنوع من القيافة المعنوية؛ كما يستدل صاحب القيافة النظرية من الأثر في الطريق على مذهب صاحبه لا يخطئه، وعلى بعض صفاته لا يتعداها؛ فذلك ممكن لا تهن فيه القوة ولا يبلغ به الإعياء، متى هو تقدم فيه بالذهن الثاقب، وتعاطاه بالقريحة النافذة؛ لأنه يستظهر من اللغة الصفات على الموصوف، ويجعل المعروف قياسا لغير المعروف.

وأنت إذا صبغت يدك بهذا الفن من القيافة اللغوية، وحاولت أن تستخرج من لغة القرآن ما يصف لك العرب على أخلاقهم وطباعهم ومبلغهم من العلم؛ فإنك تحاول محالا، وتكابر فيما يأبى عليك وما ليس في الحيلة إليه غير المكابرة، حتى إن الذي لا يعتقد مستبصرا أن هذا القرآن من عند الله إذا هو نظر فيه، وأثبت حقيقته وقوي على تمييزها، وكان ممن ينزلون على حكم النظر والمعرفة؛ فإنه لا يجد

مناصا من رد التاريخ والتكذيب به، ثم الإقرار بأن هذا القرآن إنما هو أثر من لغة قوم جاوزوا في الحضارة حد أهلها من سائر الأجيال، وبلغوا من أحوال المدنية أرقى هذه الأحوال، وكانوا من العلوم في مقام معلوم، لأن هذا الماء الصافي الذي يترقرق في عبارته، وهذا النظم الجيد الوثيق، وما اشتمل عليه من بدائع الأوصاف، وما فيه من روائع الحكمة، ثم ما احتوى عليه من إشارات السماء إلى الأرض، وضراعة الأرض للسماء، إلى ما حله من معضلات الاجتماع، وكشفه من وجوه السياستين النفسية والقومية؛ لا يكون ألبتة في لغة أمة قد أناخت بها أخلاق البداوة في ساقة الأمم حتى عبدت الأصنام، ولم تعرف من الشرائع غير شريعة الإلهام، وما ملكها من ملوك الدهر غير سلطان الأوهام»[١].

قال الزركشي: «اعلم أن القرآن أنزله اللَّه بلغة العرب، فلا يجوز قراءته وتلاوته إلا بها، لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾[٢]، وقوله: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا﴾[٣] الآية، يدل على أنه ليس فيه غير العربي؛ لأن اللَّه تعالى جعله معجزة شاهدة لنبيه عليه الصلاة والسلام، ودلالة قاطعة لصدقه، وليتحدى العرب العرباء به، ويحاضر البلغاء والفصحاء والشعراء بآياته؛ فلو اشتمل على غير لغة العرب لم تكن له فائدة؛ هذا مذهب الشافعي وهو قول جمهور العلماء؛ منهم أبو عبيدة، ومحمد بن جرير الطبري، والقاضي أبو بكر ابن الطيب في كتاب (التقريب)، وأبو الحسين بن فارس اللغوي وغيرهم.

وقال الشافعي في (الرسالة) في باب البيان الخامس ما نصه: «وقد تكلم في العلم من لو أمسك عن بعض ما تكلم فيه لكان الإمساك أولى به، وأقرب من السلامة له، فقال قائل منهم: إن في القرآن عربيا وأعجميا، والقرآن يدل على أنه ليس في كتاب اللَّه شيء إلا بلسان العرب، ووجد قائل هذا القول من قبل ذلك منه تقليدا له، وتركا للمسألة له عن حجته ومسألة غيره ممن خالفه؛ وبالتقليد أغفل من أغفل منهم، واللَّه يغفر لنا ولهم». هذا كلامه.

وقال أبو عبيدة فيما حكاه ابن فارس: إنما أنزل القرآن بلسان عربي مبين، فمن

---

(١) إعجاز القرآن (ص: ٧٤-٧٦).
(٢) يوسف: الآية (٣).
(٣) فصلت: الآية (٤٤).

زعم أن فيه غير العربية فقد أعظم القول، ومن زعم أن كذا بالنبطية فقد أكبر القول. قال: ومعناه أتى بأمر عظيم؛ وذلك أن القرآن لو كان فيه من غير لغة العرب شيء لتوهم متوهم أن العرب إنما عجزت عن الإتيان بمثله؛ لأنه أتى بلغات لايعرفونها، وفي ذلك ما فيه. وإن كان كذلك فلا وجه لقول من يجيز القراءة في الصلاة بالفارسية؛ لأنها ترجمة غير معجزة، وإذا جاز ذلك لجازت الصلاة بكتب التفسير، وهذا لا يقول به أحد. انتهى

وممن نقل عنه جواز القراءة بالفارسية أبو حنيفة؛ لكن صح رجوعه عن ذلك. ومذهب ابن عباس وعكرمة وغيرهما أنه وقع في القرآن ما ليس من لغتهم.

فمن ذلك (الطور): جبل بالسريانية. و(طفقا) أي: قصدا بالرومية. والقسط والقسطاس: العدل بالرومية. ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾[1]: تبنا بالعبرانية. والسجل: الكتاب بالفارسية. والرقيم: اللوح بالرومية. والمهل: عكر الزيت بلسان أهل المغرب. والسندس: الرقيق من الستر بالهندية. والاستبرق: الغليظ بالفارسية بحذف القاف. السريّ: النهر الصغير باليونانية. طه: أي طأ يا رجل بالعبرانية. يصهر: أي ينضج بلسان أهل المغرب. سينين: الحسن بالنبطية. المشكاة: الكوة بالحبشية وقيل الزجاجة تسرج. الدرّيّ: المضيء بالحبشية. الأليم: المؤلم بالعبرانية. ﴿نَاظِرِينَ إِنَاهُ﴾[2]: أي نضجه بلسان أهل المغرب. ﴿الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ﴾[3]: أي الأولى بالقبطية، والقبط يسمون الآخرة الأولى، والأولى الآخرة. ﴿وَرَآءَهُم مَّلِكٌ﴾[4]: أي أمامهم بالقبطية. اليم: البحر بالقبطية. بطائنها: ظواهرها بالقبطية. الأبّ: الحشيش، بلغة أهل المغرب. ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ الَّيْلِ﴾[5] قال ابن عباس: نشأ بلغة الحبشة: قام من الليل. ﴿كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾[6] قال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه: (ضعفين) بلغة الحبشة. القسورة: الأسد بلغة الحبشة.

واختار الزمخشري أن التوراة والإنجيل أعجميان، ورجح ذلك بقراءة (الأنجيل) بالفتح، ثم اختلفوا، فقال الطبري: هذه الأمثلة المنسوبة إلى سائر اللغات إنما اتفق فيها أن تتوارد اللغات، فتكلمت بها العرب والفرس والحبشة

---

(١) الأعراف: الآية (١٥٦).
(٢) الأحزاب: الآية (٥٣).
(٣) ص: الآية (٧).
(٤) الكهف: الآية (٧٩).
(٥) المزمل: الآية (٦).
(٦) الحديد: الآية (٢٨).

بلفظ واحد. وحكاه ابن فارس عن أبي عبيد.

وقال ابن عطية: «بل كان للعرب العاربة التي نزل القرآن بلغتهم بعض مخالطة لسائر الألسن بتجارات، وبرحلتي قريش، وبسفر مسافرين، كسفر أبي عمرو إلى الشام، وسفر عمر بن الخطاب، وكسفر عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد إلى أرض الحبشة، وكسفر الأعشى إلى الحيرة، وصحبته لنصاراها مع كونه حجة في اللغة، فعلقت العرب بهذا كله ألفاظا أعجمية، غيرت بعضا بالنقص من حروفها، وجرت في تخفيف ثقل العجمة، واستعملتها في أشعارها ومحاوراتها، حتى جرت مجرى العربي الفصيح، ووقع بها البيان. وعلى هذا الحد نزل بها القرآن، فإن جهلها عربي فكجهله الصريح بها في لغة غيره، وكما لم يعرف ابن عباس معنى (فاطر)، إلى غير ذلك. قال: فحقيقة العبارة عن هذه الألفاظ أنها في الأصل أعجمية، لكن استعملتها العرب وعربتها فهي عربية بهذا الوجه».

وقال: «وما ذهب إليه الطبري من أن اللغتين اتفقتا في لفظه فذلك بعيد؛ بل إحداهما أصل والأخرى فرع في الأكثر، لأنا لا ندفع أيضًا جواز الاتفاقات إلا قليلا شاذا.

وقال القاضي أبو المعالي عزيزي بن عبدالملك: إنما وجدت هذه في كلام العرب؛ لأنها أوسع اللغات وأكثرها ألفاظا، ويجوز أن يكون العرب قد سبقها غيرهم إلى هذه الألفاظ، وقد ثبت أن النبي ﷺ مبعوث إلى كافة الخلق، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾[1].

وحكى ابن فارس عن أبي عبيد القاسم بن سلام أنه حكى الخلاف في ذلك، ونسب القول بوقوعه إلى الفقهاء، والمنع إلى أهل العربية. ثم قال أبو عبيد: «والصواب عندي مذهب فيه تصديق القولين جميعًا؛ وذلك أن هذه الأحرف أصولها أعجمية كما قال الفقهاء، إلا أنها سقطت إلى العرب فعربتها بألسنتها، وحولتها عن ألفاظ العجم إلى ألفاظها فصارت عربية، ثم نزل القرآن، وقد اختلطت هذه الحروف بكلام العرب، فمن قال إنها عربية فهو صادق، ومن قال أعجمية فصادق». قال: وإنما فسر هذا لئلا يقدم أحد على الفقهاء فينسبهم إلى الجهل،

---

(١) إبراهيم: الآية (٤).

ويتوهم عليهم أنهم أقدموا على كتاب اللَّه بغير ما أراده اللَّه جل وعز، فهم كانوا أعلم بالتأويل وأشد تعظيما للقرآن. قال ابن فارس: «وليس كل من خالف قائلا في مقالته ينسبه إلى الجهل؛ فقد اختلف الصدر الأول في تأويل آي من القرآن».

وقال: «فالقول إذن ما قاله أبو عبيد، وإن كان قوم من الأوائل قد ذهبوا إلى غيره»[١].

* عن صفوان بن يعلى بن أمية؛ أن يعلى كان يقول: ليتني أرى رسول اللَّه ﷺ حين ينزل عليه الوحي، فلما كان النبي ﷺ بالجعرانة، وعليه ثوب قد أظل عليه، ومعه الناس من أصحابه، إذ جاءه رجل متضمخ بطيب فقال: يا رسول الله! كيف ترى في رجل أحرم في جبة بعد ما تضمخ بطيب؟ فنظر النبي ﷺ ساعة فجاءه الوحي، فأشار عمر إلى يعلى أي تعال، فجاء يعلى فأدخل رأسه، فإذا هو محمر الوجه يغط كذلك ساعة، ثم سري عنه فقال: **«أين الذي يسألني عن العمرة آنفا؟»** فالتمس الرجل فجيء به إلى النبي ﷺ فقال: **«أما الطيب الذي بك فاغسله ثلاث مرات، وأما الجبة فانزعها، ثم اصنع في عمرتك كما تصنع في حجك»**[٢].

★ غريب الحديث:

متضمخ: التضمخ بالطيب وغيره: التلطخ به والإكثار منه.

الجبة: ثوب طويل الكمين يلبس كالدرع والقميص.

يغط: غط في نومه يغِط غطا وغطيطا: صوت وردّد النفس في خياشيمه.

★ فوائد الحديث:

قال ابن بطال: «معناه أن الوحي كله من قرآن وسنة نزل بلسان العرب قريش وغيرهم من طوائف العرب كلها، وأنه ﷺ لم يخاطب من الوحي كله إلا بلسان العرب، وبه تكلم النبي للسائل له عن الطيب للمحرم وبين هذا قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ﴾[٣].

---

(١) البرهان في علوم القرآن (١/ ٢٨٧-٢٩٠).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٢٢)، والبخاري (٩/ ١٠-١١/ ٤٩٨٥)، ومسلم (٢/ ٨٣٦/ ١١٨٠)، وأبو داود (٢/ ٤٠٧-٤٠٨/ ١٨١٩)، والترمذي (٣/ ١٩٦-١٩٧/ ٨٣٦)، والنسائي (٥/ ١٣٩-١٤٠/ ٢٦٦٧).

(٣) إبراهيم: الآية (٤).

فهذا حتم من اللَّه تعالى لكل أمة بعث إليها رسولا ليبين لهم ما أنزل إليهم من ربهم، فإن عزب معناه على بعض من سمعه؛ بينه الرسول له بما يفهمه المبين له»[١].

وقال ابن حجر: «ولا يرد على هذا كونه ﷺ بعث إلى الناس كافة عربا وعجما وغيرهم؛ لأن اللسان الذي نزل عليه به الوحي عربي، وهو يبلغه إلى طوائف العرب، وهم يترجمونه لغير العرب بألسنتهم»[٢].

* عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: «أنزل القرآن على رسول اللَّه ﷺ، فتلا عليهم زمانا، فقالوا: يا رسول الله! لو قصصت علينا، فأنزل الله: ﴿الٓر تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾ إلى قوله: ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ﴾ فتلاها عليهم رسول اللَّه ﷺ زمانا، فقالوا: يا رسول الله! لو حدثتنا، فأنزل الله: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ الآية. كل ذلك يؤمرون بالقرآن. قال خلاد: وزاد فيه حين قالوا: يا رسول الله! ذكرنا، فأنزل الله: ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾[٣]»[٤].

* قال عبد الله: «لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء، فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا؛ فتكذبوا بحق وتصدقوا الباطل، وإنه ليس من أحد من أهل الكتاب إلا في قلبه تالية، تدعوه إلى اللَّه وكتابه، كتالية المال. والتالية: البقية»[٥].

* عن جابر بن عبد اللَّه رضي الله عنهما: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب فقال: يا رسول الله! إني أصبت كتابا حسنا من بعض أهل الكتاب. قال: فغضب، قال: **«أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب؟ والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شيء فيخبرونكم بحق فتكذبوا به، أو بباطل**

---

(١) شرح البخاري (١٠/ ٢١٨).

(٢) الفتح (٩/ ١٢).

(٣) الحديد: الآية (١٦).

(٤) أخرجه: ابن جرير (شاكر ١٥/ ٥٥٣) والبزار (الكشف ٤/ ٦٩/ ٣٢١٨) وأبو يعلى (٢/ ٨٧-٨٨/ ٧٤٠) وذكره الهيثمي في المجمع (١٠/ ٢١٩) وقال: «رواه أبو يعلى والبزار نحوه وفيه الحسين بن عمرو العنقزي ووثقه ابن حبان وضعفه غيره، وبقية رجاله رجال الصحيح وهو غير خلاد هذا أقدم»، وحسنه الحافظ في المطالب العالية (٣/ ٣٤٣) وصححه ابن حبان (الاحسان ١٤/ ٩٢/ ٦٢٠٩) والحاكم (٢/ ٣٤٥) ووافقه الذهبي.

(٥) أخرجه: عبد الرزاق (٦/ ١١١-١١٢/ ١٠١٦٢) وحسنه الحافظ في الفتح (١٣/ ٤١٢). وله شاهد من حديث جابر بن عبد اللَّه.

فتصدقوا به، والذي نفسي بيده لو أن موسى كان حيًّا ما وسعه إلا أن يتبعني»[١].

★ **فوائد الأحاديث:**

قال ابن كثير: «ومما يناسب ذكره عند هذه الآية الكريمة المشتملة على مدح القرآن، وأنه كاف عن كل ما سواه من الكتب؛ ما رواه الإمام أحمد»[٢]. فذكر حديث عمر.

وقال شيخ الإسلام: «ليس لنا أن نتعبد في ديننا بشيء من الإسرائيليات المخالفة لشرعنا -فذكر حديث جابر- وقال: فنحن لا يجوز لنا اتباع موسى ولا عيسى فيما علمنا أنه أنزل عليهما من عند اللّه إذا خالف شرعنا، وإنما علينا أن نتبع ما أنزل علينا من ربنا ونتبع الشرعة والمنهاج الذي بعث اللّه به إلينا رسولنا. كما قال تعالى: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ﴾[٣]. فكيف يجوز لنا أن نتبع عباد بني إسرائيل في حكاية لا تعلم صحتها؟! وما علينا من عباد بني إسرائيل؟! ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[٤]»[٥].

وقال: «فأما الاعتماد على نقل أهل الكتاب، أو نقل من نقل عنهم؛ فهذا لايجوز باتفاق المسلمين؛ لأن في الصحيح عنه أنه قال: «**إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم، فإما أن يحدثوكم بحق فتكذبوه، وإما أن يحدثوكم بباطل فتصدقوه**»[٦]»[٧].

وقال: «فعلماء الدين أكثر ما يحررون النقل فيما ينقل عن النبي ﷺ لأنه واجب

---

(١) أخرجه: عبد الرزاق (٦/ ١١٣/ ١٠١٦٤) وابن أبي شيبة (٥/ ٣١٢/ ٢٦٤٦١) وأحمد (٣/ ٣٨٧) والبزار (١/ ٧٨-٧٩/ ١٢٤) والدارمي (١/ ١١٥) وأبو يعلى (٤/ ١٠٢/ ٢١٣٥) دون ذكر عمر في السند، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ٥٠/ ٢٧) وقال في الفتح (١٣/ ٤١٢): «رواه أحمد وابن أبي شيبة والبزار، ورجاله موثقون إلا أن في مجالد ضعفا». وكذا الهيثمي في المجمع (١/ ١٧٤)، وللحديث طرق وشواهد ذكرها الشيخ الألباني في الإرواء (٦/ ٣٤-٣٥) فحسنه.

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٦).

(٣) المائدة: الآية (٤٨).

(٤) البقرة: الآية (١٤١).

(٥) الفتاوى (١١/ ٤٦٣).

(٦) أخرجه: البخاري (٨/ ٢١٥-٢١٦/ ٤٤٨٥) من حديث أبي هريرة ﷺ. وأخرجه أحمد (٤/ ١٣٦) وأبو داود (٤/ ٥٩-٦٠/ ٣٦٤٤) وصححه ابن حبان (١٤/ ١٥١/ ٦٢٥٧)، من حديث أبي نملة ﷺ.

(٧) كتاب الاستغاثة (١/ ١٥٩).

القبول، أو فيما ينقل عن الصحابة، وأما ما ينقل من الإسرائيليات ونحوها؛ فهم لا يكترثون بضبطها ولا بأحوال نقلها؛ لأن أصلها غير معلوم، وغايتها أن تكون عن واحد من علماء أهل الكتاب، أو من أخذه عن أهل الكتاب»[1].

وقال ابن القيم: «فإذا كان اتباع موسى مع وجود محمد صلوات اللَّه وسلامه عليه ضلالا؛ فكيف باتباع أرسطو وابن سينا ورؤوس الجهمية والمعطلة»[2].

قلت: ما أشار إليه العلامة ابن القيم من النهي عن اتباع موسى ﷺ مع وجود محمد ﷺ، مع أن موسى ﷺ من أولي العزم، وبيانه أن أشد منه اتباع أرسطو وابن سينا ورؤوس الجهمية والمعطلة هو واقع الأمة اليوم، وغالبهم يتبعون الفلاسفة القدامى والمعاصرين الشرقيين والغربيين، ويفتخرون بذلك، ويعتبرون المستشرقين الكفرة الذين ندبوا أنفسهم لتحريف الإسلام والطعن فيه النموذج الأعلى، وهكذا جعلوا لأنفسهم التبعية لهم في كل شيء؛ في العقيدة والمنهج والسلوك، وفرح عدوهم بهذه التبعية ومدحهم عليها وشكرهم عليها وجازاهم بأن دخل بلادهم لترويج فكره ومعتقده، وصادر خيراتهم وأخذ أبناءهم، فاجتال عقولهم، وشحنهم بأفكاره، فأصبحوا معاول هدم في بلادهم، وما سلم من شرهم إلا نزر يسير، نرجو اللَّه أن يسلمنا من شرهم ومن شر كل ذي شر.

* * *

(١) كتاب الاستغاثة (١/ ٨٠).

(٢) الصواعق (٤/ ١٣٥١).

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ۝٤﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «لم يبين هنا تأويل هذه الرؤيا، ولكنه بينه في هذه السورة الكريمة في قوله: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ۝٩٩ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾[1]. ومن المعلوم أن رؤيا الأنبياء وحي»[2].

قال القاسمي: «﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ﴾ يعني يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام.. ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾ إنما ناجى يوسف أباه بهذه الرؤيا، لاعتقاده كمال علمه، وشفقته عليه، بحيث لو كانت رؤياه تسوؤه لأمكنه صرفها عنه.

قال القاشاني: هذه من المنامات التي تحتاج إلى تعبير، لانتقال المتخيلة من النفوس الشريفة التي عرض على النفس من الغيب سجودها له، إلى الكواكب والشمس والقمر، وما كانت في نفس الأمر إلا أبويه وإخوته.. وقوله: ﴿رَأَيْتُهُمْ﴾ استئناف لبيان حالهم التي رآهم عليها، فلا تكرير: أو تأكيد للأولى تطرية لطول العهد، كما في قوله: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾[3]. وإنما أجريت مجرى العقلاء في ضميرهم وجمع صفتهم جمعا سالما، لوصفها بوصفهم، وهو السجود.

قال المهايمي: ولو صح كونها ناطقة فلا إشكال. قال: ولم أر من تعرض لهيئة السجود، ولعله تحريك جانبها الأعلى إلى الأسفل، مستديرة ظهرت أو مستطيلة اهـ»[4].

---

(١) يوسف: الآيتان (٩٩-١٠٠).

(٢) أضواء البيان (٣/ ٥١).

(٣) المؤمنون: الآية (٣٥).

(٤) محاسن التأويل (٩/ ١٨٧-١٨٨).

قال ابن العربي: «وقد رأى النائم في زمان يوسف بقرا فأولها يوسف السنين، ورأى أحد عشر كوكبا والشمس والقمر فأول الشمس والقمر أبويه، وأول الكواكب الأحد عشر إخوته الأحد عشر، وفهم يعقوب مزية حاله، وظهور خلاله؛ فخاف عليه حسد الإخوة الذي ابتدأه ابنا آدم، فأشار عليه بالكتمان.

فإن قيل: فقد كان يوسف في وقت رؤياه صغيرا، والصغير لا حكم لفعله، فكيف يكون لرؤياه حكم؟

فالجواب من ثلاثة أوجه:

الأول: أن الصغير يكون الفعل منه بالقصد، فينسب إلى التقصير، والرؤيا لا قصد فيها، فلا ينسب تقصير إليها.

الثاني: أن الرؤيا إدراك حقيقة كما بيناه، فيكون من الصغير كما يكون منه الإدراك الحقيقي في اليقظة، وإذا أخبر عما رأى صدق، فكذلك إذا أخبر عما رأى في المنام تأول.

الثالث: أن خبره يقبل في كثير من الأحكام، منها الاستئذان فكذلك في الرؤيا»[(١)].

وقال ابن عاشور: «وابتداء قصة يوسف ﷺ بذكر رؤياه إشارة إلى أن اللّه هيأ نفسه للنبوءة فابتدأه بالرؤيا الصادقة كما جاء في حديث عائشة: «أن أول ما ابتدئ رسول اللّه ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح»[(٢)]. وفي ذلك تمهيد للمقصود من القصة وهو تقرير فضل يوسف ﷺ من طهارة وزكاء نفس وصبر. فذكر هذه الرؤيا في صدر القصة كالمقدمة والتمهيد للقصة المقصودة.

وجعل اللّه تلك الرؤيا تنبيها ليوسف ﷺ بعلو شأنه ليتذكرها كلما حلت به ضائقة فتطمئن بها نفسه أن عاقبته طيبة. . وكانوا يعدون الرؤيا من طرق الإنباء بالغيب، إذا سلمت من الاختلاط وكان مزاج الرائي غير منحرف ولا مضطرب،

---

(١) أحكام القرآن (٣/ ١٠٧٤-١٠٧٥).

(٢) سيأتي تخريجه ضمن أحاديث الباب.

وكان الرائي قد اعتاد وقوع تأويل رؤياه، وهو شيء ورثوه من صفاء نفوس أسلافهم إبراهيم وإسحاق ﷺ، فقد كانوا آل بيت نبوءة وصفاء سريرة»[١].

وقال محمد أحمد العدوي: «ومنه نعلم أن يعقوب ﷺ لم يك مؤمنا بعصمة أولاده من حسد أخيهم، وتدبير المكايد له، بل كان مشفقا على يوسف أن تحسده إخوته، وأن يدبروا له ما يودي بحياته، ويقضي عليه، وذلك وحده كافٍ في أن إخوة يوسف لم يكونوا أنبياء ولا رسلا، لأن ذلك الحسد الذي ظهر على إخوة يوسف مرض قلبي من شأنه أن لا يفارق صاحبه ما دام في هذه الحياة، ولو كان ذنب إخوة يوسف معه شيئًا وراء الحسد لقلنا إنه ذنب وقع قبل النبوة وفارقهم بعدها، والأنبياء ليسوا معصومين في ذلك الحين، أما وهو مرض نفسي يتعلق بالقلب، ثم هو حقد على أخيهم يوسف لأنه سيكون له شأن من ناحية الرسالة والملك، فمن الصعب أن نوفق بين ذلك المرض وبين النبوة أو الرسالة بحال من الأحوال، وكان ذلك وحده كافيا في أن لا يفهم الناس أنهم أنبياء، بل هم من عامة القوم يجري عليهم ما يجري على بقية الناس، فكيف إذا كانت النبوة أو الرسالة لا تثبت إلا بنص قاطع!! وأولئك الإخوة لم يرد فيهم نص من الكتاب ولا من السنة الصحيحة يدل على أنهم أنبياء أو رسل، وإنما ورد النص القاطع بأنهم دبروا ليوسف ما دبروا، وكادوا له ما كادوا. وكذبوا على أبيهم ما شاء لهم الهوى، فكيف يكون أولئك الإخوة أنبياء أو رسلا.

وقد دل تحذير يعقوب ليوسف عليهما السلام أن يقص رؤيته على إخوته أنهم كانوا مستعدين لفهم هذه الرؤيا، وأنهم في نهاية أمرهم سيكونون تبعا ليوسف خاضعين له، وكذلك أبواه سيخضعون له، وهي من الرؤى الواضحة التي يفهمها كثير من الناس، ولاسيما إخوة يوسف الذين هم أحد عشر، وتأويل الشمس والقمر، وهما أعظم الكواكب بالأبوين واضح جلي من شأنه أن يفهمه إخوة يوسف»[٢].

---

(١) التحرير والتنوير (١٢/٢٠٨-٢٠٩).

(٢) دعوة الرسل (ص: ٧٤-٧٥).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في التعريف بيوسف عليه السلام وأن رؤى الأنبياء وحي

* عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم: يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام**»[(١)].

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سئل رسول الله ﷺ: أي الناس أكرم؟ قال: «**أكرمهم عند الله أتقاهم**». قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: «**فأكرم الناس يوسف نبي الله، ابن نبي الله ابن نبي الله، ابن خليل الله**». قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: «**فعن معادن العرب تسألوني؟**». قالوا: نعم. قال: «**فخياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا**»[(٢)].

★ غريب الحديث:

معادن: جمع معدن؛ وهو مكان كل شيء فيه أصله ومركزه. يقال: فلان معدن الخير والكرم؛ أي: مجبول عليهما.

★ فوائد الحديثين:

قال القاضي أبو بكر بن العربي: «هذا -أي: حديث ابن عمر- حديث صحيح مليح يتضمن قواعد عظاما، الإشارة إلى جملتها في ثمان مسائل:

الأولى: قوله: «الكريم بن الكريم» بيان لشرف يوسف، وأن ليس في الأنبياء -صلوات الله عليهم- من له مثل هذا الشرف في عموده، فإنهم أربعة أنبياء؛ كابرا عن كابر، وأنبوب على أنبوب، وما من نبي إلا وهو حسيب شريف منجد في سلفه إلا أن هذا زاد بشرف الزيانة شرف المكانة، فكانت تلك خصيصة له..»[(٣)].

قال القاضي عياض: «وهذا يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، فهم أربعة أنبياء على نسق، وأصل الكرم الجمع وكثرة الخير، فيوسف عليه السلام قد جمع كل

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٩٦)، والبخاري (٨/ ٤٦١/ ٤٦٨٨).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٣١)، والبخاري (٨/ ٤٦١/ ٤٦٨٩)، ومسلم (٤/ ١٨٤٦/ ٢٣٧٨)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٦٧/ ١١٢٤٩).

(٣) العارضة (١١/ ٢٨١).

مكارم الأخلاق التي تفضل بها الأنبياء إلى شرف النبوة، وشرف النسب، وعلم الرؤيا وغيرها، وشرف رئاسة الدنيا، وكونه على خزائن الأرض وحياطته، وعمارتها بما أمر به من جمعه الطعام، وادخاره لنفقتهم، وكونه على خزائنهم وأرزاقهم. ومن كثرة خيره ونفعه عظم قدره، فلما سئل ﷺ عن أكرم الناس قدرا وفهم النبي عليه الصلاة والسلام منهم العموم التفت إلى الكرم الصحيح الصادق ورفعة القدر العلية بالتقوى المؤدية باتصال الرفعة الأبدية في الآخرة في الدرجات العلا فقال: أتقاهم ثم لما راجعوه فهم التعيين فقال لهم: يوسف؛ لتردد رفعة القدر فيه وفي آبائه في أربعة قرون بالنبوة، التي هي غاية رفعة البشر، وأرفع درجات الرفعة في الدنيا والآخرة، وكثرة الخير، وجماع منافع العاجلة والآجلة. ويجمع يوسف خصال الشرف الدنيوية والأخروية التي قدمناها»[١].

قال القرطبي: «ولما كان تقوى اللَّه تعالى هو الذي حصل به خير الدنيا والآخرة مطلقا كان المتصف به أحق؛ فإنه أكرم الناس، لكن هذه قضية عامة، فلما نظر النبي ﷺ فيمن تعين في الوجود بهذه الصفة، ظهر له أن الأنبياء أحق بهذا المعنى؛ إذ لا يبلغ أحد درجتهم، وإن أحقهم بذلك من كان مُعْرِقا في النبوة، وليس ذلك إلا ليوسف كما ذكر.

ويخرج منه الرد على من قال: إن إخوة يوسف كانوا أنبياء؛ إذ لو كانوا كذلك لشاركوا يوسف في ذلك المعنى»[٢].

قال الأبي: «لا يلزم من اختصاص يوسف ﷺ بتلك الفضيلة أن يكون أفضل من النبي ﷺ لما تقدم من أن المفضول قد يختص بفضيلة ولا يلزم أن يكون بسببها أفضل»[٣].

قال ابن العربي: «قال علماؤنا رحمة اللَّه عليهم: هذا من النبي ﷺ تواضع على رسم قوله لمن قال له: يا خير البرية! فقال له: **«ذلك إبراهيم»**[٤]. ويحتمل أن يكون

---

(١) الإكمال (٧/ ٣٦١-٣٦٢).

(٢) المفهم (٦/ ٢٢٧).

(٣) إكمال الإكمال (٨/ ١٤١).

(٤) أخرجه: أحمد (٣/ ١٧٨)، ومسلم (٤/ ١٨٣٩/ ٢٣٦٩)، وأبو داود (٥/ ٥٤/ ٤٦٧٢)، والترمذي (٥/ ٤١٥-٤١٦/ ٣٣٥٢)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٥٢٠/ ١١٦٩٢) من حديث أنس بن مالك ﷺ.

ذلك منه قبل أن يعرف بعلا مرتبته، فقال: «**أنا سيد الناس**»[١][٢].

* عن عائشة رضي الله عنها قالت: «أول ما بدئ به رسول اللَّه ﷺ من الوحي: الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح»[٣].

★ غريب الحديث:

فلق: فلق الصبح: وضوحه وانشقاقه.

★ فوائد الحديث:

قولها: «أول ما بدئ به رسول اللَّه ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة»:

قال القاضي: «في هذا حكمة من اللَّه تعالى، وتدريج لنبيه ﷺ لما أراده اللَّه جل اسمه به لئلا يفجأه الملك، ويأتيه صريح النبوة بغتة فلا تحتملها قوى البشرية، فبدأ أمره بأوائل خصال النبوة وتباشير الكرامة، من صدق الرؤيا.. حتى استشعر عظيم ما يراد به، واستعد لما ينتظره، فلم يأته الملك إلا لأمر عنده مقدماته وبشاراته. وفيه أن الرؤيا الصادقة أحد خصال النبوة، وتباشير الكرامة، وجزء منها، وأول منازل الوحي، وأن رؤيا الأنبياء وحي، وحق صدق، لا أضغاث فيها، ولا سبيل للشيطان إليها»[٤].

وقال ابن بطال: «وأما قول عائشة: «أول ما بدئ به رسول اللَّه ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح». قال المهلب: هي تباشير النبوة وكيفية بدئها؛ لأنه لم يقع فيها ضغث فيتساوى مع الناس في ذلك، بل خص بصدقها كلها. وكذلك قال ابن عباس: رؤيا الأنبياء وحي، وقرأ: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ﴾[٥] فتمم اللَّه عليه النبوة، بأن أرسل إليه الملك في اليقظة،

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٣٥)، والبخاري (٦/ ٤٥٧/ ٣٣٤٠)، ومسلم (١/ ١٨٤/ ١٩٤)، والترمذي (٤/ ٥٣٧-٥٣٨/ ٢٤٣٤)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٧٨/ ١١٢٨٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) العارضة (١١/ ٢٨٢).

(٣) أخرجه: أحمد (٦/ ٢٣٢-٢٣٣)، والبخاري (١/ ٢٨-٢٩/ ٣)، ومسلم (١/ ١٣٩-١٤٢/ ١٦٠)، والترمذي (٥/ ٥٥٦-٥٥٧/ ٣٦٣٢).

(٤) الإكمال (١/ ٤٧٩).

(٥) الصافات: الآية (١٠٢).

وكشف له عن الحقيقة، فكانت الأولى في النوم، وصحة ما يوحى إليه فيه توشيحا للنبوة وابتدائها حتى أكملها اللَّه له في اليقظة تفضلا من اللَّه تعالى وموهبة خصه بها، واللَّه يعلم حيث يجعل رسالاته واللَّه ذو الفضل العظيم»[١].

وقال ابن أبي جمرة: «قولها: «مثل فلق الصبح» تريد بذلك صدق الرؤيا، وكيف كانت تخرج في الحين من غير تراخ ولا مهلة على قدر ما رآه ﷺ سواء بسواء. ولقائل أن يقول: لم عبرت عن صدق الرؤيا بفلق الصبح ولم تعبر بغيره؟ والجواب: أن شمس النبوة كانت مبادئ أنوارها صحة المرائي وصدقها، فما زال النور يتشعشع ويتسع ويبين حتى بدا شمسها، وهو ما أنزل عليه من الهدى والفرقان، فمن كان باطنه نوريا كان في التصديق بما أنزل بكريا آمن وصدق، ومن كان أعمى البصيرة كان خفاش زمان الرسالة، الشمس تسطع وهو لا يرى شيئًا؛ فإن الخفاش يخرج بالليل ويتخبأ بالنهار؛ لأنه لا يبصر مع ضوء الشمس شيئًا، وبقي الناس بين هاتين المنزلتين يترددون، كل منهم يبصر بقدر ما أعطي من النور. جعلنا اللَّه ممن أجزل له من هذا النور وحسن الاتباع أوفر نصيب بمنه، ولأجل هذه النسبة التي بين ابتداء النبوة وظهورها مع فلق الصبح؛ وقعت العبارة به ولم تقع بغيره»[٢].

* * *

(١) شرح صحيح البخاري (١/ ٣٦-٣٧).
(٢) بهجة النفوس (١/ ٨-٩).

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبرا عن قول يعقوب لابنه يوسف حين قص عليه ما رأى من هذه الرؤيا التي تعبيرها خضوع إخوته له، وتعظيمهم إياه تعظيما زائدا بحيث يخرون له ساجدين إجلالا واحتراما وإكراما، فخشي يعقوب عليه السلام أن يحدث بهذا المنام أحدا من إخوته فيحسدونه على ذلك، فيبغون له الغوائل حسدا منهم له، ولهذا قال له: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا﴾ أي يحتالوا لك حيلة يردونك فيها»[١].

وقال الشوكاني: «نهى يعقوب عليه السلام ابنه يوسف عن أن يقص رؤياه على إخوته، لأنه قد علم تأويلها وخاف أن يقصها على إخوته فيفهمون تأويلها ويحصل منهم الحسد له، ولهذا قال: ﴿فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا﴾ وهذا جواب النهي وهو منصوب بإضمار أن: أي فيفعلوا لك: أي لأجلك كيدا مثبتا راسخا لا تقدر على الخلوص منه، أو كيدا خفيا عن فهمك؛ وهذا المعنى الحاصل بزيادة اللام آكد من أن يقال: فيكيدوا كيدا؛ وقيل: إنما جيء باللام لتضمينه معنى الاحتيال المتعدي باللام، فيفيد هذا التضمين معنى الفعلين جميعًا: الكيد والاحتيال، كما هو القاعدة في التضمين أن يقدر أحدهما أصلا والآخر حالا، وجملة ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ مستأنفة، كأن يوسف عليه السلام قال: كيف يقع منهم؟! فنبهه بأن الشيطان يحملهم على ذلك، لأنه عدو للإنسان مظهر للعداوة مجاهر بها»[٢].

قال ابن العربي: «قال علماؤنا: هذا يدل على معرفة يعقوب بتأويل الرؤيا؛ لأن نهيه لابنه عن ذكرها، وخوفه على إخوته من الكيد له من أجلها؛ علم بأنها تقتضي

---

(١) التفسير (٤/ ١٠).

(٢) فتح القدير (٣/ ٨).

ظهوره عليهم وتقدمه فيهم، ولم يبال بذلك يعقوب؛ فإن الرجل يود أن يكون ولده خيرا منه، والأخ لا يود ذلك لأخيه»[1].

وقال القرطبي: «هذه الآية أصل في ألا تقص الرؤيا على غير شفيق ولا ناصح، ولا على من لا يحسن التأويل فيها؛ روى أبو رزين العقيلي أن النبي ﷺ قال: «**الرؤيا جزء من أربعين جزءًا من النبوة**». و«**الرؤيا معلقة برجل طائر ما لم يحدث بها صاحبها فإذا حدث بها وقعت فلا تحدثوا بها إلا عاقلا أو محبا أو ناصحا**»[2] أخرجه الترمذي وقال فيه: حديث حسن صحيح؛ وأبو رزين اسمه لقيط بن عامر. وقيل لمالك: أيعبر الرؤيا كل أحد؟ فقال: أبالنبوة يلعب؟ وقال مالك: لا يعبر الرؤيا إلا من يحسنها، فإن رأى خيرا أخبر به، وإن رأى مكروها فليقل خيرا أو ليصمت؛ قيل: فهل يعبرها على الخير وهي عنده على المكروه لقول من قال: إنها على ما تأولت عليه؟ فقال: لا! ثم قال: الرؤيا جزء من النبوة فلا يتلاعب بالنبوة»[3].

وقال: «وفي هذه الآية دليل على أن مباحا أن يحذر المسلم أخاه المسلم ممن يخافه عليه، ولا يكون داخلا في معنى الغيبة؛ لأن يعقوب ﷺ قد حذر يوسف أن يقص رؤياه على إخوته فيكيدوا له كيدا، وفيها أيضًا ما يدل على جواز ترك إظهار النعمة عند من تخشى غائلته حسدا وكيدا؛ قال النبي ﷺ: «**استعينوا على إنجاح حوائجكم بالكتمان، فإن كل ذي نعمة محسود**»[4]. وفيها أيضًا دليل واضح على معرفة يعقوب ﷺ بتأويل الرؤيا؛ فإنه علم من تأويلها أنه سيظهر عليهم، ولم يبال بذلك من نفسه؛ فإن الرجل يود أن يكون ولده خيرا منه، والأخ لا يود ذلك لأخيه. ويدل أيضًا على أن يعقوب ﷺ كان أحس من بنيه حسد يوسف وبغضه؛ فنهاه عن قص الرؤيا عليهم خوف أن تغل بذلك صدورهم، فيعملوا الحيلة في هلاكه؛ ومن

---

(١) أحكام القرآن (٣/ ١٠٧٥).
(٢) سيأتي تخريجه.
(٣) الجامع (٩/ ١٢٦).
(٤) أخرجه من حديث معاذ رضي الله عنه الطبراني في الكبير (٢٠/ ٩٤/ ١٨٣) والأوسط (٣/ ٢٢٦/ ٢٤٧٦) والصغير (٢/ ٤١٦/ ١١٥٢)، والبيهقي في الشعب (٥/ ٢٧٧/ ٦٦٥٥) وأبو نعيم في الحلية (٥/ ٢١٥)، وذكره الهيثمي في المجمع (٨/ ١٩٥) وقال: «رواه الطبراني في الثلاثة، وفيه سعيد بن سلام العطار قال العجلي: لا بأس به. وكذبه أحمد وغيره، وبقية رجاله ثقات، إلا أن خالد بن معدان لم يسمع من معاذ»، وجود إسناده الشيخ الألباني انظر الصحيحة (١٤٥٣).

هذا ومن فعلهم بيوسف يدل على أنهم كانوا غير أنبياء في ذلك الوقت، ووقع في كتاب الطبري لابن زيد أنهم كانوا أنبياء، وهذا يرده القطع بعصمة الأنبياء عن الحسد الدنيوي، وعن عقوق الآباء، وتعريض مؤمن للهلاك، والتآمر في قتله، ولا التفات لقول من قال إنهم كانوا أنبياء، ولا يستحيل في العقل زلة نبي، إلا أن هذه الزلة قد جمعت أنواعا من الكبائر، وقد أجمع المسلمون على عصمتهم منها، وإنما اختلفوا في الصغائر على ما تقدم ويأتي»[(١)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الرؤيا وآدابها

* عن جابر ﵁ عن رسول اللَّه ﷺ أنه قال: **«إذا رأى أحدكم الرؤيا يكرهها فليبصق عن يساره ثلاثا. وليستعذ باللَّه من الشيطان ثلاثا وليتحول عن جنبه الذي كان عليه»**[(٢)].

★ **غريب الحديث:**

فليبصق: من بصق، والبصاق: الريق إذا لفظ.

* عن أبي سعيد الخدري ﵁: أنه سمع النبي ﷺ يقول: **«إذا رأى أحدكم رؤيا يحبها، فإنما هي من الله؛ فليحمد اللَّه عليها، وليحدث بها. وإذا رأى غير ذلك مما يكره؛ فإنما هي من الشيطان، فليستعذ من شرها، ولا يذكرها لأحد؛ فإنها لا تضره»**[(٣)].

* عن أبي رزين ﵁ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«الرؤيا على رجل طائر، ما لم تعبر، فإذا عبرت وقعت» قال: وأحسبه قال: «ولا تقصها إلا على واد، أو ذي رأي»**[(٤)].

---

(١) الجامع (٩/ ١٢٦-١٢٧).

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ٣٥٠)، ومسلم (٤/ ١٧٧٢-١٧٧٣/ ٢٢٦٢)، وأبو داود (٥/ ٢٨٤/ ٥٠٢٢)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٢٢٦/ ١٠٧٤٧)، وابن ماجه (٢/ ١٢٨٦/ ٣٩٠٨).

(٣) أخرجه: أحمد (٣/ ٨)، والبخاري (١٢/ ٤٥٧/ ٦٩٨٥)، والترمذي (٥/ ٤٧١/ ٣٤٥٣)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٢٢٣/ ١٠٧٢٩).

(٤) أخرجه: أحمد (٤/ ١٠)، وأبو داود (٥/ ٢٨٣-٢٨٤/ ٥٠٢٠)، والترمذي (٤/ ٤٦٤/ ٢٢٧٩) وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجه (٢/ ١٢٨٨/ ٣٩١٤).

★ **غريب الحديث:**

ما لم تعبر: بصيغة المجهول وبتخفيف الباء وتشديدها؛ أي ما لم تفسر.

* عن محمد بن سيرين أنه سمع أبا هريرة ﷺ يقول: قال رسول الله ﷺ: «**إذا اقترب الزمان لم تكد رؤيا المؤمن تكذب، ورؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة، وما كان من النبوة فإنه لا يكذب**» -قال محمد: وأنا أقول هذه- قال: (وكان يقال الرؤيا ثلاث: حديث النفس، وتخويف الشيطان، وبشرى من الله. فمن رأى شيئًا يكرهه فلا يقصه على أحد، وليقم فليصل. قال: وكان يكره الغل في النوم، وكان يعجبهم القيد، ويقال: القيد ثبات في الدين)[(١)].

* عن عبادة بن الصامت ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**رؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة**»[(٢)].

* عن ابن عمر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**الرؤيا الصالحة جزء من سبعين جزءا من النبوة**»[(٣)].

* عن أبي قتادة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**الرؤيا الصالحة من الله، والحلم من الشيطان، فإذا حلم أحدكم فليتعوذ منه، وليبصق عن شماله فإنها لا تضره**»[(٤)].

★ **غريب الحديث:**

الحلم: بضم اللام وسكونها: ما يراه النائم في منامه، وهو من حلَم يحلُم حُلْما وحُلُمًا.

* عن مسلم بن مشكم عن عوف بن مالك: أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الرؤيا ثلاث، منها أهاويل من الشيطان ليحزن بها ابن آدم، ومنها ما يهم به الرجل في**

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٦٩) والبخاري (١٢/ ٥٠٠/ ٧٠١٧) ومسلم (٤/ ١٧٧٣/ ٢٢٦٣) وأبو داود (٥/ ٢٨٢/ ٥٠١٩) والترمذي (٤/ ٤٦١/ ٢٢٧٠) وابن ماجه (٢/ ١٢٨٩/ ٣٩١٧) مختصرا.

(٢) أخرجه: البخاري (١٢/ ٤٦١/ ٦٩٨٧) ومسلم (٤/ ١٧٧٤/ ٢٢٦٤) وأبو داود (٥/ ٢٨١-٢٨٢/ ٥٠١٨) والترمذي (٤/ ٤٦١-٤٦٢/ ٢٢٧١) والنسائي في الكبرى (٤/ ٣٨٣/ ٧٦٢٥).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ١٨) ومسلم (٤/ ١٧٧٥/ ٢٢٦٥) وابن ماجه (٢/ ١٢٨٣/ ٣٨٩٧).

(٤) رواه أحمد (٥/ ٢٩٦) والبخاري (١٢/ ٤٦١/ ٦٩٨٦) ومسلم (٤/ ١٧٧١-١٧٧٢/ ٢٢٦١) والنسائي في الكبرى (٦/ ٢٢٤/ ١٠٧٣٥).

يقظته فيراه في منامه، ومنها جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة». قال: قلت له: أنت سمعت هذا من رسول اللَّه ﷺ؟ قال: نعم. أنا سمعته من رسول اللَّه ﷺ. أنا سمعته من رسول اللَّه ﷺ.[١]

★ فوائد الأحاديث:

قال القرطبي: «الرؤيا حالة شريفة، ومنزلة رفيعة؛ قال ﷺ: «**لم يبق بعدي من المبشرات إلا الرؤيا الصالحة والصادقة يراها الرجل الصالح أو ترى له**»[٢]. وقال: «**أصدقكم رؤيا أصدقكم حديثًا**»[٣]. وحكم ﷺ بأنها جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة[٤]، وروي «**من سبعين جزءا من النبوة**»[٥]. وروي من حديث ابن عباس ﷺ: «**جزء من أربعين جزءا من النبوة**»[٦]. ومن حديث ابن عمرو: «**جزء من تسعة وأربعين جزءا**»[٧]. ومن حديث العباس: «**جزء من خمسين جزءا من النبوة**»[٨]. ومن حديث أنس: «**من ستة وعشرين**»[٩]، وعن عبادة بن الصامت: «**من أربعة**

(١) أخرجه: ابن ماجه (٢/ ١٢٨٥-١٢٨٦/ ٣٩٠٧) قال البوصيري: «إسناده صحيح رجاله ثقات».
(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٢١٩) ومسلم (١/ ٣٤٨/ ٤٧٩) وأبو داود (١/ ٥٤٥-٥٤٦/ ٨٧٦) والنسائي (٢/ ٥٣٤/ ١٠٤٤) وابن ماجه (٢/ ١٢٨٣/ ٣٨٩٩) من حديث ابن عباس ﷺ.
(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٦٩) والبخاري (١٢/ ٥٠٠/ ٧٠١٧) دون محل الشاهد. ومسلم (٤/ ١٧٧٣/ ٢٢٦٣) وأبو داود (٥/ ٢٨٢/ ٥٠١٩) والترمذي (٤/ ٤٦١/ ٢٢٧٠) وابن ماجه (٢/ ١٢٨٩/ ٣٩١٧) عن أبي هريرة ﷺ.
(٤) أخرجه: أحمد (٣/ ١٢٦) والبخاري (١٢/ ٤٤٨/ ٦٩٨٣) ومسلم (٤/ ١٧٧٤/ ٢٢٦٤) والنسائي في الكبرى (٤/ ٣٨٣/ ٧٦٢٤) وابن ماجه (٢/ ١٢٨٢/ ٣٨٩٣) من حديث أنس ﷺ.
(٥) تقدم تخريجه ضمن أحاديث الباب.
(٦) ذكره الحافظ في الفتح (١٢/ ٤٥٠) ونسبه للطبري من حديث ابن عباس ﷺ. وأخرجه: أحمد (٤/ ١٢) والترمذي (٤/ ٤٦٤-٤٦٥/ ٢٢٧٨) وقال: «حسن صحيح» وابن ماجه (٢/ ١٢٨٨/ ٣٩١٤) وصححه ابن حبان (١٣/ ٤١٣/ ٦٠٤٩) والحاكم (٤/ ٣٩٠) ووافقه الذهبي من حديث أبي رزين العقيلي ﷺ.
(٧) أخرجه: أحمد (٢/ ٢١٩) وابن جرير في التفسير (شاكر ١٥/ ١٣١/ ١٧٧٢٩). وقال الهيثمي (٧/ ١٧٥): «رواه أحمد من طريق ابن لهيعة عن دراج، وحديثهما حسن وفيهما ضعف، وبقية رجاله ثقات من حديث عبد اللَّه بن عمرو بن العاص ﷺ».
(٨) أخرجه: الطبراني في الأوسط (٦/ ٣٨٠/ ٥٨٠٨) والبزار (الكشف ٣/ ١٢/ ٢١٢٤) بلفظ: (خمسين). وأبو يعلى (٢/ ٦٤/ ٦٧٠٧) بلفظ: (ستين). وقال الهيثمي (٧/ ١٧٣): «وفيه ابن إسحاق وهو مدلس وبقية رجاله ثقات» من حديث العباس ﷺ.
(٩) أخرجه: ابن عبد البر في التمهيد (فتح البر ١/ ٦٦) وذكره الحافظ في الفتح (١٢/ ٤٥٠) من حديث أنس ﷺ.

وأربعين من النبوة»[1]. والصحيح منها حديث الستة والأربعين، ويتلوه في الصحة حديث السبعين، ولم يخرج مسلم في صحيحه غير هذين الحديثين، أما سائرها فمن أحاديث الشيوخ؛ قاله ابن بطال. قال أبو عبدالله المازري: والأكثر والأصح عند أهل الحديث: «من ستة وأربعين». قال الطبري: والصواب أن يقال: إن عامة هذه الأحاديث أو أكثرها صحاح، ولكل حديث منها مخرج معقول؛ فأما قوله: «إنها جزء من سبعين جزءا من النبوة» فإن ذلك قول عام في كل رؤيا صالحة صادقة، ولكل مسلم رآها في منامه على أي أحواله كان؛ وأما قوله: «إنها من أربعين -أو- ستة وأربعين» فإنه يريد بذلك من كان صاحبها بالحال التي ذكرت عن الصديق ﷺ أنه كان بها؛ فمن كان من أهل إسباغ الوضوء في السبرات، والصبر في الله على المكروهات، وانتظار الصلاة بعد الصلاة؛ فرؤياه الصالحة -إن شاء الله- جزء من أربعين جزءا من النبوة، ومن كانت حاله في ذاته بين ذلك فرؤياه الصادقة بين جزءين؛ ما بين الأربعين إلى الستين، لا تنقص عن سبعين، وتزيد على الأربعين؛ وإلى هذا المعنى أشار أبو عمر ابن عبدالبر فقال: اختلاف الآثار في هذا الباب في عدد أجزاء الرؤيا ليس ذلك عندي اختلاف متضاد متدافع -والله أعلم- لأنه يحتمل أن تكون الرؤيا الصالحة من بعض من يراها على حسب ما يكون من صدق الحديث، وأداء الأمانة، والدين المتين، وحسن اليقين؛ فعلى قدر اختلاف الناس فيما وصفنا تكون الرؤيا منهم على الأجزاء المختلفة العدد؛ فمن خلصت نيته في عبادة ربه ويقينه وصدق حديثه، كانت رؤياه أصدق، وإلى النبوة أقرب: كما أن الأنبياء يتفاضلون؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾[2].

قلت: فهذا التأويل يجمع شتات الأحاديث، وهو أولى من تفسير بعضها دون بعض وطرحه»[3].

قال ابن القيم: «والرؤيا: مبدأ الوحي، وصدقها بحسب صدق الرائي. وأصدق الناس رؤيا أصدقهم حديثا. وهي عند اقتراب الزمان لا تكاد تخطئ، كما قال النبي ﷺ. وذلك لبعد العهد بالنبوة وآثارها. فيتعوض المؤمنون بالرؤيا. وأما

(١) ذكره ابن عبد البر (فتح البر ١/ ٦٤) وقال: «بإسناد فيه لين»، ونسبه الحافظ (١٢/ ٤٥٠) للطبري من حديث عبادة.
(٢) الإسراء: الآية (٥٥).
(٣) الجامع (٩/ ١٢٢-١٢٣).

في زمن قوة نور النبوة: ففي ظهور نورها وقوته ما يغني عن الرؤيا.

ونظير هذا: الكرامات التي ظهرت بعد عصر الصحابة. ولم تظهر عليهم، لاستغنائهم عنها بقوة إيمانهم، واحتياج من بعدهم إليها لضعف إيمانهم. وقد نص أحمد على هذا المعنى. وقال عبادة بن الصامت: (رؤيا المؤمن كلام يكلم به الرب عبده في المنام) وقد قال النبي ﷺ: «**لم يبق من النبوة إلا المبشرات**». قيل: وما المبشرات يا رسول الله؟ قال: «**الرؤيا الصالحة، يراها المؤمن أو ترى له**» وإذا تواطأت رؤيا المسلمين لم تكذب. وقد قال النبي ﷺ لأصحابه لما أروا ليلة القدر في العشر الأواخر قال: «**أرى رؤياكم قد تواطأت في العشر الأواخر. فمن كان منكم متحريها فليتحرها في العشر الأواخر من رمضان**»[1]. . وقال النبي ﷺ: «**الرؤيا ثلاثة: رؤيا من الله، ورؤيا تحزين من الشيطان، ورؤيا مما يحدث به الرجل نفسه في اليقظة، فيراه في المنام**»[2].

والذي هو من أسباب الهداية: هو الرؤيا التي من الله خاصة.

ورؤيا الأنبياء وحي، فإنها معصومة من الشيطان، وهذا باتفاق الأمة، ولهذا أقدم الخليل على ذبح ابنه إسماعيل عليهما السلام بالرؤيا.

وأما رؤيا غيرهم: فتعرض على الوحي الصريح، فإن وافقته، وإلا لم يعمل بها، فإن قيل: فما تقولون إذا كانت رؤيا صادقة، أو تواطأت؟.

قلنا: متى كانت كذلك استحال مخالفتها للوحي، بل لا تكون إلا مطابقة له، منبهة عليه، أو منبهة على اندراج قضية خاصة في حكمه، لم يعرف الرائي اندراجها فيه، فيتنبه بالرؤيا على ذلك، ومن أراد أن تصدق رؤياه فليتحر الصدق وأكل الحلال، والمحافظة على الأمر والنهي، ولينم على طهارة كاملة مستقبل القبلة. ويذكر الله حتى تغلبه عيناه، فإن رؤياه لا تكاد تكذب ألبتة.

وأصدق الرؤيا: رؤيا الأسحار، فإنه وقت النزول الإلاهي، واقتراب الرحمة والمغفرة، وسكون الشياطين، وعكسه رؤيا العتمة، عند انتشار الشياطين والأرواح الشيطانية. وقال عبادة بن الصامت رضي الله عنه: (رؤيا المؤمن كلام يكلم به

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٦-٨)، والبخاري (٣/ ٥٠/ ١١٥٨)، ومسلم (٢/ ٨٢٢-٨٢٤/ ١١٦٥) عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) تقدم تخريجه.

الرب عبده في المنام).

وللرؤيا ملك موكل بها، يريها العبد في أمثال تناسبه وتشاكله، فيضربها لكل أحد بحسبه. وقال مالك: (الرؤيا من الوحي وحي) وزجر عن تفسيرها بلا علم. وقال: (أتتلاعب بوحي الله؟))»[1].

قال العيني: «قوله «الرؤيا من الله» الرؤيا كالرؤية، جعل ألف التأنيث فيها مكان تاء التأنيث للتفريق بين ما يراه في المنام، وبين ما يراه في اليقظة، والحلم عند العرب يستعمل استعمال الرؤيا، يدل عليه قول القائل:

رأيت رؤيا ثم عبرتها وكنت للأحلام عبارا

ولكن النبي ﷺ فرق بينهما، فجعل الرؤيا من الله، والحلم من الشيطان، كأنه كره أن يسمى ما كان من الله، وما كان من الشيطان باسم واحد، فجعل الرؤيا عبارة عن القسم الصالح، لما في صيغة لفظها من الدلالة على مشاهدة الشيء بالبصر، أو البصيرة، وجعل الحلم عبارة عما كان من الشيطان، لأن أصل الكلمة لم تستعمل إلا فيما يخيل إلى الحالم في منامه، ولهذا خص الاحتلام بما يخيل إلى المحتلم في منامه من قضاء الشهوة، وذلك بما لا حقيقة له.. واستفيد من هذا الحديث فوائد:

الأولى: أن الرؤيا تدل على حصول الخير، والحلم على عدمه.

الثانية: أن المستحب للذي رأى الرؤيا المكروهة أن ينفث عن يساره ثلاثا، ويتعوذ بالله من شرها حين يستيقظ.

الثالثة: أن ترك هذا يضره.

الرابعة: أنه ينبغي أن لا يحدث بالرؤيا المكروهة بل يفعل ما قلنا، ويسكت.

الخامسة: فيه دليل على أن يتكلم بالرؤيا الصالحة.

السادسة: لا يتكلم بها إلا لمن يحبه هو، ولا يتكلم لمن يبغضه»[2].

قال ابن القيم: «فأمره بخمسة أشياء: أن ينفث عن يساره، وأن يستعيذ بالله من الشيطان، وأن لا يخبر بها أحدا، وأن يتحول عن جنبه الذي كان عليه، وأن يقوم

---

(١) المدارج (١/ ٥٠-٥٢).

(٢) العلم الهيب (ص: ٢٠١-٢٠٢).

يصلي، ومتى فعل ذلك؛ لم تضره الرؤيا المكروهة؛ بل هذا يدفع شرها»[١].

قال ابن الأثير: «"إن الرؤيا لأول عابر، وهي على رجل طائر" أي: أنها على رجل قدر جار، وقضاء ماض من خير أو شر، وأن ذلك هو الذي قسمه اللَّه لصاحبها.. والمراد أن الرؤيا هي التي يعبرها المعبر الأول، فكأنها كانت على رجل طائر فسقطت ووقعت حيث عبرت؛ كما يسقط الذي يكون على رجل الطائر بأدنى حركة»[٢].

قال الشيخ الألباني: «والحديث صريح بأن الرؤيا تقع على مثل ما تعبر، ولذلك أرشدنا رسول اللَّه ﷺ إلى أن لا نقصها إلى على ناصح أو عالم؛ لأن المفروض فيهما أن يختارا أحسن المعاني في تأويلها فتقع على وفق ذلك، لكن مما لا ريب فيه أن ذلك مقيد بما إذا كان التعبير مما تحتمله الرؤيا، ولو على وجه، وليس خطأ محضا، وإلا فلا تأثير له حينئذ. واللَّه أعلم. وقد أشار إلى هذا المعنى الإمام البخاري في كتاب التعبير من صحيحه بقوله: باب من لم ير الرؤيا لأول عابر إذا لم يصب»[٣].

قال النووي: «وأما قوله: "فإنها لا تضره" معناه أن اللَّه تعالى جعل هذا سببا لسلامته من مكروه يترتب عليهما كما جعل الصدقة وقاية للمال، وسببا لدفع البلاء»[٤].

قال القرطبي: «الرؤيا المضافة إلى اللَّه تعالى هي التي خلصت من الأضغاث والأوهام، وكان تأويلها موافقا لما في اللوح المحفوظ، والتي هي من خبر الأضغاث؛ هي الحلم وهي المضافة إلى الشيطان، وإنما سميت ضغثا لأن فيها أشياء متضادة»[٥].

قال شيخ الإسلام: «والرؤيا قد تكون من اللَّه، وقد تكون من حديث النفس، وقد تكون من الشيطان، فإذا تواطأت رؤيا المؤمنين على أمر كان حقا، كما إذا تواطأت رواياتهم أو رأيهم، فإن الواحد قد يغلط أو يكذب، وقد يخطئ في الرأي،

---

(١) الزاد (٢/ ٤٥٨-٤٥٩).
(٢) النهاية لابن الأثير (٢/ ٢٠٤).
(٣) الصحيحة (١/ ٢٣٩).
(٤) شرح مسلم (١٥/ ١٥).
(٥) الجامع (٩/ ١٢٥).

أو يتعمد الباطل، فإذا اجتمعوا لم يجتمعوا على ضلالة، وإذا تواترت الروايات أورثت العلم، وكذلك الرؤيا.

قال النبي ﷺ: «**أرى رؤياكم قد تواطأت على أنها في السبع الأواخر**»[١].

قوله: «الرؤيا الصالحة»:

قال الحافظ: «قال المهلب: المراد غالب رؤيا الصالحين، وإلا فالصالح قد يرى الأضغاث، ولكنه نادر؛ لقلة تمكن الشيطان منهم، بخلاف عكسهم؛ فإن الصدق فيها نادر لغلبة تسلط الشيطان عليهم، قال: فالناس على هذا ثلاث درجات: الأنبياء، ورؤياهم كلها صدق، وقد يقع فيها ما يحتاج إلى تعبير. والصالحون، والأغلب على رؤياهم الصدق، وقد يقع فيها ما لا يحتاج إلى تعبير. ومن عداهم، يقع في رؤياهم الصدق والأضغاث، وهي على ثلاثة أقسام: مستورون، فالغالب استواء الحال في حقهم. وفسقة، والغالب على رؤياهم الأضغاث، ويقل فيها الصدق. وكفار، ويندر في رؤياهم الصدق جدا. ويشير إلى ذلك قوله ﷺ: «**وأصدقهم رؤيا أصدقهم حديثا**»[٢]»[٣].

قال القرطبي: «إنما كانت الرؤيا جزءا من النبوة؛ لأن فيها ما يعجز ويمتنع كالطيران، وقلب الأعيان، والاطلاع على شيء من علم الغيب، كما قال ﷺ: «إنه لم يبق من مبشرات النبوة إلا الرؤيا الصادقة في النوم» الحديث. وعلى الجملة فإن الرؤيا الصادقة من الله، وأنها من النبوة، قال ﷺ: «الرؤيا من الله والحلم من الشيطان» وأن التصديق بها حق، ولها التأويل الحسن، وربما أغنى بعضها عن التأويل، وفيها من بديع الله ولطفه ما يزيد المؤمن في إيمانه، ولا خلاف في هذا بين أهل الدين والحق، من أهل الرأي والأثر، ولا ينكر الرؤيا إلا أهل الإلحاد، وشرذمة من المعتزلة»[٤].

قال الحافظ: «وحاصل ما ذكر من أدب الرؤيا المكروهة أربعة أشياء: أن يتعوذ بالله من شرها، ومن شر الشيطان، وأن يتفل حين يهب من نومه عن يساره ثلاثا،

---

(١) منهاج السنة (٣/ ٥٠٠).
(٢) تقدم تخريجه قريبا.
(٣) الفتح (١٢/ ٤٤٩).
(٤) التفسير (٩/ ١٢٤).

ولا يذكرها لأحد أصلا . ووقع عند المصنف في باب القيد في المنام عن أبي هريرة، خامسة، وهي : الصلاة، ولفظه : «**فمن رأى شيئًا يكرهه فلا يقصه على أحد، وليقم فليصل**»[١] . . وزاد مسلم سادسة وهي التحول عن جنبه الذي عليه . . عن جابر رفعه : «**إذا رأى أحدكم الرؤيا يكرهها ؛ فليبصق عن يساره ثلاثا ، وليستعذ بالله من الشيطان ثلاثا ، وليتحول عن جنبه الذي كان عليه**» . . وفي الجملة : فتكمل الآداب ستة ؛ عن الأربعة الماضية، والصلاة والتحول»[٢] .

قال القرطبي : «وإنما الأمر بالصلاة زيادة، فينبغي أن تزاد على ما في هذه الرواية فيفعل الجميع، ويحتمل أن يقال : إنما اقتصر في هذا الموضع على ذكر الصلاة وحدها ؛ لأنه إذا صلى تحول عن جنبه، وإذا تمضمض نفث وبصق، وإذا قام إلى الصلاة تعوذ ودعا، وتفرغ لله تعالى في حال هي أقرب أحوال الإجابة»[٣] .

قال النووي رَحِمَهُ اللهُ : «فينبغي أن يجمع بين هذه الروايات ويعمل بها كلها فإذا رأى ما يكرهه نفث عن يساره ثلاثا قائلا أعوذ بالله من الشيطان ومن شرها وليتحول إلى جنبه الآخر وليصل ركعتين فيكون قد عمل بجميع الروايات وان اقتصر على بعضها أجزأه في دفع ضررها بإذن الله تعالى كما صرحت به الأحاديث»[٤] .

وقال الحافظ : «لم أر في شيء من الأحاديث الاقتصار على واحدة، نعم أشار المهلب إلى أن الاستعاذة كافية في دفع شرها ؛ وكأنه أخذه من قوله : ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[٥] . فيحتاج مع الاستعاذة الى صحة التوجه ولا يكفي إمرار الاستعاذة باللسان»[٦] .

قلت : لا شك أن الرؤيا هي من الأمور الغيبية التي لا دخل للإنسان فيها، فإذا

---

(١) أخرجه : أحمد (٢/ ٢٦٩)، والبخاري (١٢/ ٥٠٠/ ٧٠١٧)، ومسلم (٤/ ١٧٧٣/ ٢٢٦٣)، وأبو داود (٥/ ٢٨٢-٢٨٣/ ٥٠١٩)، والترمذي (٤/ ٤٦٥/ ٢٢٨٠)، والنسائي في الكبرى (٤/ ٣٩٠/ ٧٦٥٤)، وابن ماجه (٢/ ١٢٩٤/ ٣٩٢٦) مختصراً.

(٢) الفتح (١٢/ ٤٥٨-٤٥٩).

(٣) المفهم (٦/ ١٩).

(٤) شرح مسلم (١٥/ ١٥).

(٥) النحل : الآيتان (٩٨ و ٩٩).

(٦) الفتح (١٢/ ٤٦٠).

وقعت للإنسان رؤيا فعليه أن يتأدب بآداب النبي ﷺ فيها، فإذا كان مما يسُرُّه فليتفاءل بها، وليؤولها بنفسه إن كان ممن يتأول الرؤيا وله قدم راسخ في العلم ومعرفة بنصوص الرؤيا التي صحت عن النبي ﷺ، وإلا عرضها على أهل العلم الأخيار الناصحين للَّه ولرسوله ﷺ ولأئمة المسلمين وعامتهم، وإذا رأى ما يسوءه فليستعذ باللَّه من شرها ثلاثًا، وليتفل عن يساره ثلاثًا، وليتحول عن جنبه، وإن استطاع قام فصلى، ولا يحدث بها أحدًا ويتركها حتى تنسى من ذاكرته.

وأما ما اشتهر عند الصوفية وأذنابهم من الاهتمام بهذا الموضوع وجعله أساسًا في التصوف؛ فإنه متفرع عن أصلهم الفاسد الذي يسمى بالكشف، والتصوف من أوله إلى آخره نصب واحتيال، وهو يدور على هذا الأصل الفاسد وهو زعمهم الاطلاع على الغيب، وغالبًا ما تتعامل معهم الشياطين والكفرة من الجن كما تتعامل مع السحرة الذين يتحايلون عليهم فيخبرونهم ببعض الغيبيات، وأحيانًا قد تَصدُق، كما أخبر الرسول ﷺ في الكاهن حين يَصْدُقُ في واحدة ويكذب في مائة، فكذلك هؤلاء الصوفية أحيانًا يصدقهم إبليس ظَنَّه في بعض الأمور فتكون كما قال، فيصيّرون أنفسهم أولياء للَّه باطلاعهم -في زعمهم- على الغيب، فهم يحتالون على الناس بعدة حيل، ومن حيلهم اشتغالهم بالرؤيا في جماعاتهم المبتدعة، وإذا كان العلماء كما سبق يقولون: إن شرط الرؤيا الصالحة أن يكون صاحبها صالحًا مستقيمًا على السنة، آكلًا للحلال، صادقًا في حديثه، مخلصًا في عمله، فإن هؤلاء ليس لهم من هذه الصفات شيء، فهم مبتدعة ضالون، يأكلون أموال الناس بالباطل من كل وجوهه، فلا حظ لهم من الرؤيا الصالحة، و إنما يصطنعون الرؤى ويكذبون على مريديهم، ومريدوهم يكذبون عليهم، فلله ما أبعدهم عن الحق! ألا ساء ما كانوا يعملون.

* * *

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾

★ **غريب الآية:**

يجتبيك: الاجتباء الاصطفاء.

تأويل: أي: تفسير الرؤيا، وهو ما تؤول إليه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبرا عن قول يعقوب لولده يوسف: إنه كما اختارك ربك وأراك هذه الكواكب مع الشمس والقمر ساجدة لك ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ أي: يختارك ويصطفيك لنبوته ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ قال مجاهد وغير واحد: يعني تعبير الرؤيا ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ أي: بإرسالك والإيحاء إليك؛ ولهذا قال: ﴿كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ وهو الخليل: ﴿وَإِسْحَٰقَ﴾ ولده وهو الذبيح في قول، وليس بالرجيح ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي: هو أعلم حيث يجعل رسالته، كما قال في الآية الأخرى»[1].

وقال الشوكاني: «قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ أي: مثل ذلك الاجتباء البديع الذي رأيته في النوم من سجود الكواكب والشمس والقمر يجتبيك ربك. ويحقق فيك تأويل تلك الرؤيا، فيجعلك نبيا ويصطفيك على سائر العباد، ويسخرهم لك كما تسخرت لك تلك الأجرام التي رأيتها في منامك فصارت ساجدة لك... وهذا يتضمن الثناء على يوسف وتعديد نعم اللّه عليه، ومنها: ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ أي: تأويل الرؤيا. قال القرطبي: وأجمعوا أن ذلك في تأويل الرؤيا، وقد كان يوسف ﷺ أعلم الناس بتأويلها؛ وقيل المراد: ويعلمك من تأويل

(١) التفسير (٤/ ١٠-١١).

أحاديث الأمم والكتب؛ وقيل المراد به: إحواج إخوته إليه؛ وقيل: إنجاؤه من كل مكروه؛ وقيل: إنجاؤه من القتل خاصة ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ فيجمع لك بين النبوة والملك كما تدل عليه هذه الرؤيا التي أراك اللّٰه، أو يجمع لك بين خيري الدنيا والآخرة ﴿وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ وهم قرابته من إخوته وأولاده ومن بعدهم، وذلك أن اللّٰه سبحانه أعطاهم النبوة كما قاله جماعة من المفسرين، ولا يبعد أن يكون إشارة إلى ما حصل لهم بعد دخولهم مصر من النعم، التي من جملتها كون الملك فيهم مع كونهم أنبياء. ﴿كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ﴾ أي: إتماما مثل إتمامها على أبويك: وهي نعمة النبوة عليهما.. وصار لهما الذرية الطيبة: وهم يعقوب، ويوسف، وسائر الأسباط؛ ومعنى ﴿مِن قَبْلُ﴾ من قبل هذا الوقت الذي أنت فيه، أو من قبلك، وإبراهيم وإسحاق عطف بيان لأبويك، وعبر عنهما بالأبوين مع كون أحدهما جدا[1]: وهو إبراهيم، لأن الجد أب ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ﴾ بكل شيء ﴿حَكِيمٌ﴾ في كل أفعاله، والجملة مستأنفة مقررة لمضمون ما قبلها تعليلا له: أي فعل ذلك لأنه عليم حكيم، وكان هذا الكلام من يعقوب مع ولده يوسف تعبيرا لرؤياه على طريق الإجمال، أو علم ذلك من طريق الوحي، أو عرفه بطريق الفراسة وما تقتضيه المخايل اليوسفية»[2].

قوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ قال أبو السعود: «فكأنه -أي: يعقوب- عليه الصلاة والسلام أشار بذلك إلى ما سيقع من يوسف ﷺ، من تعبيره لرؤيا صاحبي السجن، ورؤيا الملك، وكون ذلك ذريعة إلى ما يبلغه اللّٰه تعالى إليه من الرياسة العظمى التي عبر عنها بإتمام النعمة. وإنما عرف يعقوب ﷺ ذلك منه من جهة الوحي. أو أراد كون هذه الخصلة سببا لظهور أمره ﷺ على الإطلاق، فيجوز حينئذ أن تكون معرفته ﷺ بطريق الفراسة والاستدلال من الشواهد والدلائل والأمارات والمخايل، بأن من وفقه اللّٰه تعالى لمثل هذه الرؤيا، لابد من توفيقه لتعبيرها، وتأويل أمثالها، وتمييز ما هو آفاقي منها، مما هو أنفسي، كيف لا، وهي تدل على كمال تمكن نفسه ﷺ في عالم المثال، وقوة تصرفاتها فيه،

(١) بل هما معا جدّان.

(٢) فتح القدير (٣/ ٨-٩).

فيكون أقبل لفيضان المعارف المتعلقة بذلك العالم، وبما يحاكيه من الأمور الواقعة بحسبها في عالم الشهادة، وأقوى وقوفا على النسب الواقعة بين الصور المعاينة في أحد ذينك العالمين، وبين الكائنات الظاهرة على وفقها في العالم الآخر. وأن هذا الشأن البديع، لابد أن يكون أنموذجا لظهور أمر من اتصف به، ومدارا لجريان أحكامه، فإن لكل نبي من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام معجزة، بها تظهر آثاره، وتجري أحكامه»[1].

قال محمد رشيد رضا: «﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي: عليم بمن يصطفيه حكيم باصطفائه، وبإعداد الأسباب وتسخيرها له، وكان هذا العلم من يعقوب بما بشر اللَّه به أبويه لهما ولذريتهما، وبدلالة رؤيا يوسف على أنه هو حلقة السلسلة الذهبية لهم، هو السبب كما قلنا لزيادة حبه له وعطفه وحرصه عليه، الذي هاج ما كان يحذره من حسد إخوته وكيدهم له، ولكونه لم يصدق ما زعموه من أكل الذئب له، ولم ينقطع أمله منه، بل لم ينقص إيمانه بما أعده اللَّه له ولهم به، ولكن علمه بذلك كان إجماليا لا تفصيليا، وقد جاءت قصته من أولها إلى آخرها مفصلة لهذا الإجمال، تفصيلا هو من أبدع بلاغة القرآن، وزاد بعض المفسرين في التشبيه إنجاء إبراهيم من النار وإنجاء إسحاق من الذبح، ولكن التحقيق أن الذبيح إسماعيل لا إسحاق كما يدل عليه قوله تعالى بعد قصته من سورة الصافات ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا﴾ ولكون القصة كانت في الحجاز وهي الأصل في أضاحي منى هناك، وإنما الذي نشأ في الحجاز إسماعيل لا إسحاق كما هو معلوم بالتواتر»[2].

قال الشنقيطي: «بين اللَّه جل وعلا أنه علم نبيه يوسف من تأويل الأحاديث، وصرح بذلك أيضًا في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾.

وقوله: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ واختلف العلماء في المراد بتأويل الأحاديث؛ فذهب جماعة من أهل العلم إلى أن المراد بذلك: تعبير الرؤيا، فالأحاديث على هذا القول هي الرؤيا، قالوا: إنها إما حديث نفس أو ملك

(١) تفسير أبي السعود (٤/ ٢٥٤).
(٢) تفسير المنار (١٢/ ٢٥٧).

أو شيطان.

وكان يوسف أعبر الناس للرؤيا. ويدل لهذا الوجه الآيات الدالة على خبرته بتأويل الرؤيا، كقوله: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ﴾ وقوله: ﴿تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا فَمَا حَصَدتُّمۡ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ﴾ إلى قوله: ﴿يَعۡصِرُونَ﴾.

وقال بعض العلماء: المراد بتأويل الأحاديث معرفة معاني كتب الله وسنن الأنبياء، وما غمض وما اشتبه على الناس من أغراضها ومقاصدها، يفسرها لهم ويشرحها، ويدلهم على مودعات حكمها.

وسميت أحاديث، لأنها يحدث بها عن الله ورسله، فيقال: قال الله كذا، وقال رسوله كذا، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَهُۥ يُؤۡمِنُونَ﴾[1]. وقوله: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ﴾[2] الآية.

ويدل لهذا الوجه قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ﴾[3] وقوله: ﴿قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ﴾ الآية.

قال مقيده عفا الله عنه: الظاهر أن الآيات المذكورة تشمل ذلك كله من تأويل الرؤيا، وعلوم كتب الله وسنن الأنبياء. والعلم عند الله تعالى»[4].

* * *

(١) المرسلات: الآية (٥٠).

(٢) الزمر: الآية (٢٣).

(٣) يوسف: الآية (٢٢).

(٤) الأضواء (٣/ ٥١-٥٢).

قوله تعالى: ﴿ ۞ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ ﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال محمد رضا: «هذا شروع في القصة بعد مقدمتين أولاهما: في صفة القرآن، وكونه تنزيلا من الله دالا على رسالة من أنزل عليه، وكونه عربيا تقوم به الحجة على العرب الذين يعقلونه، وكون النبي ﷺ كان من قبله غافلا عما جاءه فيه لا يدري منه شيئًا، ونتيجة هاتين القضيتين تأتي بعد تمام القصة في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾.

والمقدمة الثانية رؤيا يوسف، وما فهمه منها أبوه فهما إجماليا كليا كما بيناه آنفا، وبنى عليه أن حذره وأنذره ما يستهدف له قبله من كيد إخوته، وبشره بحسن عاقبته، ونتيجة هاتين القضيتين ما قاله لأبيه بعد دخولهم عليه وسجودهم له ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا﴾ إلخ.

فمثل هذا الترتيب المنطقي العقلي البديع يتوقف نظمه وسرده على سبق العلم بالقصة وتتبع حوادثها والإحاطة بدقائقها، ثم على وضع ترتيب ينسق عليه الكلام كالقصص الفنية المتكلفة، ثم توضع له المقدمة والخاتمة في الغاية التي ألفت القصة لأجلها، فتجعل الأولى براعة مطلع، والآخرة براعة مقطع، فقل لمن جهل سيرة محمد ﷺ وتاريخه: إن محمدا لم يكن قارئا ولا كاتبا، ولا خطيبا ولا شاعرا، ولا مؤرخا، ولا راويا، ولا حافظا للشعر ولا ناثرا؛ بل كان كما قال الله تعالى غافلا عن هذه القصة وكل ما جاء في القرآن، وكانت تنزل عليه السورة القصيرة فيعجل بقراءتها لئلا ينسى منها شيئًا، فنهي عن ذلك عندما عرض له في أثناء نزول سورة القيامة بقوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾[1] وبقوله: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ

---

(١) القيامة: الآيات (١٦-١٩).

مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾[١] وقوله: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾[٢] وقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[٣] فلما ضمن ربه له أمن ضياع شيء منه بعدم حفظه عند تلقيه، أو نسيانه بعده؛ زال خوفه، وترك الاستعجال بقراءته»[٤].

قال العدوي: «أي: لقد كان في قصة يوسف وإخوته علامات ودلائل على قدرة الله تعالى وحكمته في كل شيء ﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾ أي المفكرين الذين من شأنهم أن يسألوا عن الأمور ويفكروا فيها، وفيها من العبر ما يتسلى به رسول الله ﷺ على إيذاء قريش له، لأنه إذا عرف ما فعله إخوة يوسف به -ويجمعهم به أب واحد-، وأنهم دبروا له ما دبروا لمجرد أن يعقوب ﷺ كان يختص ولده يوسف وأخاه بشيء من العطف والحنان، إذا عرف الرسول ما فعله أولئك الإخوة بأخيهم مرضاة لعامل الحسد في قلوبهم، فإنه لا يحزن من عمل قريش الذين ناصبوه العداوة، وصنعوا معه من صنوف الإيذاء ما لا يليق ولا ينبغي.

﴿إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾﴾.

فهم المفسرون أن ذلك الأخ كان أخا من الأم ليوسف، أما هم فكانوا إخوة من الأب فقط؛ والآية ترينا السبب الذي حمل إخوة يوسف على حسده، وقولهم: ﴿لَيُوسُفُ﴾ بلام القسم إشارة إلى أنهم تأكدوا من أبيهم ذلك الإيثار ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ جماعة أقوياء فينا الكفاية والمنفعة، فنحن أولى بهذه المحبة من صغيرين لا كفاية فيهما ولا نفع، وفاتهم ما قاله بعض فصحاء العرب لكسرى حين سأله: أي بنيك أحب إليك؟. قال: الصغير حتى يكبر، والغائب حتى يؤوب، والمريض حتى يبرأ.

ويوسف كان صغيرا، وفوق ذلك كانت تظهر عليه مخايل النجابة والذكاء، وقوى ذلك الرؤيا العجيبة الدالة على مستقبل باهر، كما نسوا أن مسألة المحبة قد لا يكون للإنسان كسب فيها، فقد يكون للرجل ولدان، ولكنه يشعر بمحبة لأحد الولدين فوق محبته للآخر، وإن كان الغالب أن المحبة للأولاد في الكبر تعتمد الخصائص والمزايا، فمن كان مطيعا لوالديه كانت محبتهما له أكثر، ومن كان فيه نجابة وذكاء وحرص على مصلحته ومصلحة أبويه وما إلى ذلك؛ كان إقبال أبويه

---

(١) طه: الآية (١١٤).

(٢) الأعلى: الآية (٦).

(٣) الحجر: الآية (٩).

(٤) تفسير المنار (١٢/ ٢٥٧-٢٥٨).

عليه أكثر لهذه الأسباب، ولابد أن يكون يعقوب كان حبه ليوسف إلهاما من اللَّه تعالى، أو لما رأى فيه من الخصائص ما لم ير في غيره من بقية إخوته، فلا ذنب له في هذه المحبة، وعلى فرض أن له ذنبا فما ذنب يوسف وأخيه في أن يحبهما أبوهما يعقوب؟ وهل يستطيع أن يقول لأبيه: انزع من قلبك حبي وإشفاقك علي، وسوني بإخوتي في المحبة؟ هذا ما لا يستطيعه يوسف ولا سبيل إليه، ولا ذنب له فيه، ولكن الحسد وحب الإيثار يحملان إخوة يوسف على أن يكيدا ليوسف وأخيه ذلك الكيد، ويدبرا لهما ذلك التدبير.

وقد أوجد اللَّه في الإنسان غريزة الحسد لطلب المجد والرفعة وعلو الشأن، وليسابق الإنسان غيره في المفاخر والفضائل والمجد، فيكثر العمل ويزداد العمران، وهو الذي يسمى (بالغبطة) ولكن الإنسان أساء في استعمال ذلك الخلق، وطغى في تصريفه والانتفاع به، فأخذ يعمل على إزالة النعمة والفضل عن المحسود، وبذلك لحقه من الذم وعقاب اللَّه ما لحقه، ويظهر أن الحاسد الذي يتمنى زوال نعمة الغير، ويعمل لذلك، يحس من نفسه انحطاطا عن المحسود، وأنه لا قبل له بمجاراته في وسائل النعمة، وطرائق الفضل، وأن الطريق المألوف لتلك المجاراة يكلفه من الجهد والمشقات ما لا قبل له به، وأنه لذلك أراد أن يختصر على نفسه الطريق، ويصل إلى غايته بدون أن يكلف نفسه مشقة أو عناء، فعمل على أن يفتك بالمحسود، ويحول بينه وبين الحياة، وبذلك يصل إلى أمنيته من طريق يراها سهلة، ولكنها محفوفة بالأخطار والمخاوف.

فقد كانت عاقبة الحسد من إخوة يوسف إقدامهم على الكذب، وإلقاء أخيهم يوسف في ذل العبودية، وإبعاده عن أبيه المشفق، وإلقاء أبيهم في الحزن الدائم والأسف العظيم.

والشأن في الحسد أن لا يكون إلا بين المتشاركين في حال: كالجار والعبد والقريب، والمشارك لك في صناعة أو تجارة أو زراعة أو إمارة أو علم أو سن، أو المقيم معك في مدرسة أو منزل أو شارع، وكلما ارتفع صيت الإنسان حسده من يشاركه في ذلك الصيت، وترى العالم لا يود أن يشاركه في ذلك المجد أحد، ويزداد الحسد كلما ازداد الصيت وحسن الذكر ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ خطأ بين في تدبير أمر الدنيا وكيف يؤثر حب يوسف علينا مع صغره وعدم نفعه ونحن عصبة

نقوم بمصالحه من أمر دنياه ومواشيه»[١].

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ﴾ الأحد عشر ﴿ءَايَٰتٌ﴾؛ يعني: عبر وذكر ﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾؛ يعني: السائلين عن أخبارهم وقصصهم. وإنما أراد جل ثناؤه بذلك نبيه محمدا ﷺ.

وذلك أنه يقال: إن اللَّه تبارك وتعالى إنما أنزل هذه السورة على نبيه، يعلمه فيها ما لقي يوسف من أدانيه وإخوته من الحسد، مع تكرمة اللَّه إياه، تسلية له بذلك مما يلقى من أدانيه وأقاربه من مشركي قريش. كذلك كان ابن إسحق يقول: .. إنما قص اللَّه تبارك وتعالى على محمد خبر يوسف، وبغي إخوته عليه، وحسدهم إياه، حين ذكر رؤياه، لما رأى رسول اللَّه ﷺ من بغي قومه وحسده حين أكرمه اللَّه ﷻ بنبوته، ليأتسي به»[٢].

وقال ابن كثير: «يقول تعالى: لقد كان في قصة يوسف وخبره مع إخوته آيات، أي عبرة ومواعظ للسائلين عن ذلك المستخبرين عنه، فإنه خبر عجيب يستحق أن يخبر عنه»[٣].

وقال محمد رضا: «أي: لقد كان في قصة يوسف وإخوته لأبيه أنواع من الدلائل على أنواع من قدرة اللَّه وحكمته، وتوفيق أقداره ولطفه بمن اصطفى من عباده، وتربيته لهم، وحسن عنايته بهم، للسائلين عنها، من الراغبين في معرفة الحقائق والاعتبار بها، لأنهم هم الذين يعقلون الآيات ويستفيدون منها، ومن فاته العلم بشيء أو بحكمته أو بوجه العبرة فيه؛ سأل عنه من هو أعلم به منه، فإن للظواهر غايات لا تعلم حقائقها إلا منها، فإخوة يوسف لو لم يحسدوه لما ألقوه في غيابة الجب، ولو لم يلقوه لما وصل إلى عزيز مصر، ولو لم يعتقد العزيز بفراسته أمانته وصدقه لما أمنه على بيته ورزقه وأهله، ولو لم تراوده امرأة العزيز عن نفسه ويستعصم لما ظهرت نزاهته وعرف أمرها، ولو لم تخب في كيدها وكيد صواحبها من النسوة لما ألقي في السجن لإخفاء هذا الأمر، ولو لم يسجن لما عرفه ساقي ملك مصر، وعرف براعته وصدقه في تعبير الرؤيا، ولو لم يعلم الساقي منه هذا لما

---

(١) دعوة الرسل (ص: ٩٠-٩١).

(٢) جامع البيان (١٥/ ٥٦١-٥٦٢ شاكر).

(٣) التفسير (٤/ ١١).

عرفه ملك مصر وآمن به وله، وجعله على خزائن الأرض، ولو لم يتبوأ هذا المنصب لما أمكنه أن ينقذ أبويه وإخوته وأهلهم أجمعين من المخمصة، ويأتي بهم إلى مصر فيشاركوه في رياسته ومجده، بل لما تم قول أبيه له: ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ فما من حلقة من هذه السلسلة إلا وكان ظاهرها محرقا، وباطنها مشرقا، وبدايتها شرا وخسرا، وعاقبتها خيرا وفوزا، وصدق قول اللَّه ﷻ ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[1].

فهذه أنواع من آيات اللَّه في القصة للسائلين عن وقائعها الحسية الظاهرة، وما هو أعلى منها من علومها وحكمها الباطنة، كعلم يعقوب بتأويل رؤيا يوسف، وعلمه بكذبهم بدعوى أكل الذئب له، ومن شهادة اللَّه له بالعلم بقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ الآية، ومن شمه لريح يوسف منذ فصلت العير من أرض مصر قاصدة أرض كنعان. ومن علم يوسف بتأويل الأحاديث، ومن رؤيته لبرهان ربه، ومن كيد اللَّه له ليأخذ أخاه بشرع الملك، ثم من علمه بأن إلقاء قميصه على أبيه يعيده بصيرا بعد عمي سنين كثيرة، في القصة مجال لسؤال السائلين عن كل هذه المعاني من العلم الروحاني، وهي أخفى مما قبلها، وأحق بالسؤال عنها»[2].

وقال القاسمي: «وقال القاشاني: أي آيات معظمات لمن يسأل عن قصتهم ويعرفها، تدلهم أولًا: على أن الاصطفاء المحض أمر مخصوص بمشيئة اللَّه تعالى، لا يتعلق بسعي ساع، ولا إرادة مريد، فيعلمون مراتب الاستعدادات في الأزل.

وثانيًا: على أن من أراد اللَّه به خيرا، لم يمكن لأحد دفعه، ومن عصمه اللَّه، لم يمكن لأحد رميه بسوء، ولا قصده بشر، فيقوى يقينهم وتوكلهم.

وثالثًا: على أن كيد الشيطان وإغواءه أمر لا يأمن منه أحد، حتى الأنبياء، فيكونون منه على حذر. وأقوى من ذلك كله أنها تطلعهم من طريق الفهم، الذي هو الانتقال الذهني، على أحوالهم في البداية والنهاية، وما بينهما، وكيفية سلوكهم إلى اللَّه، فتثير شوقهم وإرادتهم، وتشحذ بصيرتهم، وتقوي عزيمتهم»[3].

---

(١) الأعراف: الآية (١٢٨).
(٢) تفسير المنار (١٢/ ٢٥٩-٢٦٠).
(٣) محاسن التأويل (٩/ ١٩٧).

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٨ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ۝٩ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ۝١٠﴾

★ **غريب الآية:**

عصبة: أي جماعة لا واحد له من لفظه كالنفر والرهط، وهي ما بين الواحد إلى العشرة. وقيل: إلى الخمسة عشر. وقيل: من العشرة إلى الأربعين.

غيابات: والغيابة كل شيء غَيَّبَ عنك شيئًا، والمراد هنا غور البئر الذي لا يقع عليه البصر، أو طاقة فيه.

الجب: البئر التي لم تطو، فإذا طويت قيل لها بئر.

يلتقطه: الالتقاط تناول الشيء من الطريق، ومنه اللقيط واللقطة.

السيارة: الجمع الذين يسيرون في الطريق للسفر.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أي: حلفوا فيما يظنون والله ليوسف وأخوه، يعنون بنيامين وكان شقيقه لأمه ﴿أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ أي: جماعة، فكيف أحب ذينك الاثنين أكثر من الجماعة ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ يعنون في تقديمهما علينا، ومحبته إياهما أكثر منا.

واعلم أنه لم يقم دليل على نبوة إخوة يوسف، وظاهر هذا السياق يدل على خلاف ذلك، ومن الناس من يزعم أنهم أوحي إليهم بعد ذلك، وفي هذا نظر، ويحتاج مدعي ذلك إلى دليل، ولم يذكروا سوى قوله تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ

أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾[١] وهذا فيه احتمال لأن بطون بني إسرائيل يقال لهم الأسباط، كما يقال للعرب قبائل وللعجم شعوب، يذكر تعالى أنه أوحى إلى الأنبياء من أسباط بني إسرائيل فذكرهم إجمالا لأنهم كثيرون، ولكن كل سبط من نسل رجل من إخوة يوسف، ولم يقم دليل على أعيان هؤلاء أنهم أوحي إليهم، والله أعلم: ﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ يقولون هذا الذي يزاحمكم في محبة أبيكم لكم؛ أعدموه من وجه أبيكم، ليخلوَ لكم وحدكم، إما بأن تقتلوه، أو تلقوه في أرض من الأراضي تستريحوا منه، وتخلوا أنتم بأبيكم ﴿وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ﴾ فأضمروا التوبة قبل الذنب ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ﴾ قال قتادة ومحمد بن إسحاق: وكان أكبرهم واسمه روبيل. وقال السدي: الذي قال ذلك: يهوذا. وقال مجاهد هو شمعون الصفا ﴿لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ﴾ أي: لا تصلوا في عداوته وبغضه إلى قتله، ولم يكن لهم سبيل إلى قتله؛ لأن الله تعالى كان يريد منه أمرا لا بد من إمضائه وإتمامه من الإيحاء إليه بالنبوة، ومن التمكين له ببلاد مصر والحكم بها، فصرفهم الله عنه بمقالة روبيل فيه وإشارته عليهم بأن يلقوه في غيابة الجب وهو أسفله. قال قتادة وهي بئر بيت المقدس ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾ أي: المارة من المسافرين فتستريحوا منه بهذا، ولا حاجة إلى قتله: ﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ أي: إن كنتم عازمين على ما تقولون. قال محمد بن إسحق بن يسار: لقد اجتمعوا على أمر عظيم من قطيعة الرحم، وعقوق الوالد، وقلة الرأفة بالصغير الضرع الذي لا ذنب له، وبالكبير الفاني ذي الحق والحرمة والفضل، وخطره عند الله مع حق الوالد على ولده، ليفرقوا بينه وبين أبيه وحبيبه على كبر سنه ورقة عظمه، مع مكانه من الله ممن أحبه طفلا صغيرا، وبين ابنه على ضعف قوته وصغر سنه وحاجته إلى لطف والده وسكونه إليه، يغفر الله لهم وهو أرحم الراحمين، فقد احتملوا أمرا عظيما»[٢].

قال الشيخ محمد رضا: «﴿إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا﴾ أي: إن في قصتهم لآيات في الوقت الذي ابتدؤا فيه بقولهم جازمين مقسمين: ليوسف وأخوه

---

(١) البقرة: الآية (١٣٦). (٢) التفسير (٤/ ١١-١٢).

الشقيق له واسمه بنيامين، أحب إلى أبينا منا كلنا ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ أي: يفضلهما علينا بمزيد المحبة على صغرهما وقلة غنائهما والحال أننا نحن عصبة عشرة رجال أقوياء أشداء معتصبون نقوم له بكل ما يحتاج إليه من أسباب الرزق والحماية والكفاية ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ إنه لفي تيه من المحاباة لهما ضل فيه طريق العدل والمساواة ضلالا بينا لا يخفى على أحد، إذ يفضل غلامين ضعيفين من ولده لا يقومان له بخدمة نافعة، على العصبة أولي القوة والكسب والنجدة. وهذا الحكم منهم على أبيهم جهل مبين وخطأ كبير، لعل سببه اتهامهم إياه بإفراطه في حب أمهما من قبل، فيكون مثاره الأول اختلاف الأمهات بتعدد الزوجات، ولا سيما الإماء منهن وهو الذي أضلهم عن غريزة الوالدين في زيادة العطف على صغار الأولاد وضعافهم وكانا أصغر أولاده، فقد سئل والد بليغ: أي ولدك أحب إليك؟ قال صغيرهم حتى يكبر، وغائبهم حتى يحضر، ومريضهم حتى يشفى، وفقيرهم حتى يغنى (وأشك في هذه الأخيرة).

ومن فوائد القصة: وجوب عناية الوالدين بمداراة الأولاد وتربيتهم على المحبة والعدل واتقاء وقوع التحاسد والتباغض بينهم، ومنه اجتناب تفضيل بعضهم على بعض بما يعده المفضول إهانة له ومحاباة لأخيه بالهوى، وقد نهى عنه النبي ﷺ مطلقا، ومنه سلوك سبيل الحكمة في تفضيل من فضل اللّه تعالى بالمواهب الفطرية؛ كمكارم الأخلاق والتقوى والعلم والذكاء. وما كان يعقوب بالذي يخفى عليه هذا، وما نهى يوسف عن قص رؤياه عليهم إلا من علمه بما يجب فيه. ولكن ما يفعل الإنسان بغريزته وقلبه وروحه؟ أيستطيع أن يحول دون سلطانها على جوارحه؟ كلا

دلائل العشق لا تخفى على أحد   كحامل المسك لا يخلو من العبق

﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ أي: اقتلوه قتلا لا مطمع بعده ولا أمل في لقائه، أو انبذوه كالشيء اللقا الذي لا قيمة له في أرض مجهولة بعيدة عن مساكننا، أو عن العمران بحيث لا يهتدي إلى العودة إلى أبيه سبيلا إن هو سلم فيها من الهلاك ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ فيكن كل توجهه إليكم، وكل إقباله عليكم، يخلو الديار ممن يشغله عنكم أو يشارككم في عطفه وحبه، وهذه الجملة من فرائد درر الكلام البليغ بتصويرها حصر الحب وتوجه الإقبال والعطف بصورة الضروريات التي لا اختيار

للرأي ولا للإرادة فيها، لا من ظاهر الحس، ولا من وجدان النفس، بعد وقوع هذه الجناية التي تقتضي إعراض الوجه، وإعراض الكراهة والمقت ﴿وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ أي: من بعد يوسف أو بعد قتله وتغريبه ﴿قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ﴾ تائبين إلى اللَّه من هذه الجريمة، مصلحين لأعمالكم بما يكفر إثمها، وعدم التصدي لمثلها، فيرضى عنكم أبوكم ويرضى ربكم، هكذا يزين الشيطان للمؤمن المتدين معصية اللَّه تعالى ولا يزال ينزغ له ويسول، ويعد ويمني ويؤول، حتى يرجح داعي الإيمان، أو يجيب داعي الشيطان، وهذا الذي غلب على إخوة يوسف فكان، ولكن بعد رأفة مخففة لحكم الانتقام، وهو مقتضى الحكمة التي أرادها الله. ﴿قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ﴾ أبهمه القرآن لأن تعيينه بتسميته لا فائدة منها في عبرة ولا حكمة، وإنما الفائدة في وصفه بأنه منهم، وهي أنهم لم يجمعوا على جناية قتله، وقال السدي: إنه يهوذا، وفي سفر التكوين أنه رأوبين ﴿لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ﴾ الجب: البئر غير المطوية؛ أي: غير المبنية من داخلها بالحجارة وهو مذكر والبئر مؤنثة وتسمى المطوية منها طويًا، وغيابته بالفتح ما يغيب عن رؤية البصر من قعره أو حفرة بجانبه تكون فوق سطح الماء يدخلها من يدلّى فيه لإخراج شيء وقع فيه أو إصلاح خلل عرض له، وعلم من التعريف أنه جب معروف كان هنالك حيث يرعون، وجواب ألقوه ﴿يَلۡتَقِطۡهُ بَعۡضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾ وهم جماعة المسافرين الذين يسيرون في الأرض يقطعون الأرض من مكان إلى آخر؛ لأجل التجارة فيأخذوه إلى حيث ساروا من الأقطار البعيدة فيتم لكم الشق الثاني مما اقترحتم وهو إبعاده عن أبيه ﴿إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ﴾ ما هو الصواب المقصود لكم بالذات فهذا هو الصواب، وجناية قتله غير مقصودة لذاتها، فعلام إسخاط اللَّه باقترافها والغرض يتم بما دونها؟»[1].

قال الشنقيطي: «الظاهر أن مراد أولاد يعقوب بهذا الضلال الذي وصفوا به أباهم -عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام في هذه الآية الكريمة- إنما هو الذهاب عن علم حقيقة الأمر كما ينبغي.

ويدل لهذا ورود الضلال بهذا المعنى في القرآن وفي كلام العرب. فمنه بهذا المعنى قوله تعالى عنهم مخاطبين أباهم: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ﴾

---

(١) تفسير المنار (١٢/ ٢٦٠-٢٦٢).

وقوله تعالى في نبينا ﷺ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾[١] أي: لست عالما بهذه العلوم التي لا تعرف إلا بالوحي، فهداك إليها وعلمكها بما أوحى إليك من هذا القرآن العظيم.

وليس مراد أولاد يعقوب الضلال في الدين، إذ لو أرادوا ذلك لكانوا كفارا، وإنما مرادهم أن أباهم في زعمهم في ذهاب عن إدراك الحقيقة، وإنزال الأمر منزلته اللائقة به، حيث آثر اثنين على عشرة، مع أن العشرة أكثر نفعا له، وأقدر على القيام بشئونه وتدبير أموره.

واعلم أن الضلال أطلق في القرآن إطلاقين آخرين:

أحدهما: الضلال في الدين؛ أي: الذهاب عن طريق الحق التي جاءت بها الرسل صلوات الله عليهم وسلامه. وهذا أشهر معانيه في القرآن؛ ومنه بهذا المعنى ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾[٢]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[٣]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾[٤] إلى غير ذلك من الآيات.

الثاني: إطلاق الضلال بمعنى الهلاك والغيبة؛ من قول العرب: ضل السمن في الطعام، إذا غاب فيه وهلك فيه، تسمي العرب الدفن إضلالا؛ لأنه تغييب في الأرض يؤول إلى استهلاك عظام الميت فيها، لأنها تصير رميما وتمتزج بالأرض. ومنه بهذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾[٥] الآية.

ومن إطلاق الضلال على الغيبة قوله تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾[٦] أي: غاب واضمحل»[٧].

فصل في اللقطة:

قال القرطبي: «ونحن نذكر من أحكامها ما دلت عليه الآية والسنة، وما قال في ذلك أهل العلم واللغة؛ قال ابن عرفة: الالتقاط وجود الشيء على غير طلب؛ ومنه قوله تعالى: ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾ أي: يجده من غير أن يحتسبه. وقد اختلف العلماء في اللقيط؛ فقيل: أصله الحرية لغلبة الأحرار على العبيد؛ وروي عن

(١) الضحى: الآية (٧).
(٢) الفاتحة: الآية (٧).
(٣) الصافات: الآية (٧١).
(٤) يس: الآية (٦٢).
(٥) السجدة: الآية (١٠).
(٦) الأنعام: الآية (٢٤).
(٧) أضواء البيان (٣/ ٥٢-٥٤).

الحسن بن علي أنه قضى بأن اللقيط حر، وتلا: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ وإلى هذا ذهب أشهب صاحب مالك؛ وهو قول عمر بن الخطاب، وكذلك روي عن علي وجماعة. وقال إبراهيم النخعي: إن نوى رقه فهو مملوك، وإن نوى الحسبة فهو حر. وقال مالك في موطئه: الأمر عندنا في المنبوذ أنه حر، وأن ولاءه لجماعة المسلمين، هم يرثونه ويعقلون عنه، وبه قال الشافعي؛ واحتج بقوله ﷺ: «**وإنما الولاء لمن أعتق**»[1] قال: فنفى الولاء عن غير المعتق. واتفق مالك والشافعي وأصحابهما على أن اللقيط لا يوالي أحدا، ولا يرثه أحد بالولاء. وقال أبو حنيفة وأصحابه وأكثر الكوفيين: اللقيط يوالي من شاء، فمن ولاه فهو يرثه ويعقل عنه؛ وعند أبي حنيفة له أن ينتقل بولائه حيث شاء، ما لم يعقل عنه الذي ولاه، فإن عقل عنه جناية لم يكن له أن ينتقل عنه بولائه أبدا. وذكر أبو بكر بن أبي شيبة عن علي ﷺ: (المنبوذ حر، فإن أحب أن يوالي الذي التقطه والاه، وإن أحب أن يوالي غيره والاه)؛ ونحوه عن عطاء، وهو قول ابن شهاب وطائفة من أهل المدينة، وهو حر»[2].

وقال: «وأما اللقطة والضوالّ فقد اختلف العلماء في حكمهما؛ فقالت طائفة من أهل العلم: اللقطة والضوالّ سواء في المعنى، والحكم فيهما سواء؛ وإلى هذا ذهب أبو جعفر الطحاوي، وأنكر قول أبي عبيد القاسم بن سلام: أن الضالة لا تكون إلا في الحيوان واللقطة في غير الحيوان، وقال: هذا غلط. واحتج بقوله ﷺ في حديث الإفك للمسلمين: «**إن أمكم ضلت قلادتها**»[3] فأطلق ذلك على القلادة».

وقال: «أجمع العلماء على أن اللقطة ما لم تكن تافهًا يسيرًا أو شيئًا لا بقاء لها؛ فإنها تعرف حولًا كاملًا. وأجمعوا أن صاحبها إن جاء فهو أحق بها من ملتقطها؛ إذا ثبت له أنه صاحبها. وأجمعوا أن ملتقطها إن أكلها بعد الحول وأراد صاحبها أن

---

(١) أخرجه: أحمد (٦/ ٤٥-٤٦) والبخاري (٩/ ١٧٢/ ٥٠٩٧) ومسلم (٢/ ١١٤١-١١٤٢/ ١٥٠٤) والنسائي (٦/ ٤٧٤/ ٣٤٤٧) وابن ماجه (١/ ٦٧١/ ٢٠٧٦) عن عائشة ﵂.

(٢) الجامع (٩/ ١٣٤).

(٣) أخرجه: الطحاوي في شرح المعاني (١/ ١١١)، وأبو داود (١/ ٢٢٣-٢٢٤/ ٣١٧) بنحوه، وأصله في الصحيحين وهو حديث الإفك المعروف.

يضمنه فإن ذلك له، وإن تصدق بها فصاحبها مخير بين التضمين وبين أن ينزل على أجرها، فأي ذلك تخير كان ذلك له بإجماع؛ ولا تنطلق يد ملتقطها عليها بصدقة، ولا تصرف قبل الحول. وأجمعوا أن ضالة الغنم المخوف عليها له أكلها».

وقال: «واختلف الفقهاء في الأفضل من تركها أو أخذها؛ فمن ذلك أن في الحديث دليلا على إباحة التقاط اللقطة وأخذ الضالة ما لم تكن إبلا. وقال في الشاة: «لك أو لأخيك أو للذئب»[1] يحضه على أخذها، ولم يقل في شيء: دعوه حتى يضيع أو يأتيه ربه. ولو كان ترك اللقطة أفضل لأمر به رسول اللَّه ﷺ كما قال في ضالة الإبل، واللَّه أعلم. وجملة مذهب أصحاب مالك أنه في سعة، إن شاء أخذها وإن شاء تركها؛ هذا قول إسماعيل بن إسحاق رحمه الله. وقال المزني عن الشافعي: لا أحب لأحد ترك اللقطة إن وجدها، إذا كان أمينا عليها. قال: وسواء قليل اللقطة وكثيرها».

وقال: «روى الأئمة: مالك وغيره عن زيد بن خالد الجهني قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فسأله عن اللقطة فقال: «**اعرف عفاصها ووكاءها**[2] **ثم عرفها سنة فإن جاء صاحبها وإلا فشأنك بها**» قال: فضالة الغنم يا رسول الله؟ قال: «**لك أو لأخيك أو للذئب**»، قال: فضالة الإبل؟ قال: «**ما لك ولها؟ معها سقاؤها وحذاؤها، ترد الماء وتأكل الشجر حتى يلقاها ربها**»[3]. وفي حديث أبي قال: «**احفظ عددها ووعاءها ووكاءها، فإن جاء صاحبها؛ وإلا فاستمتع بها**»[4] ففي هذا الحديث زيادة العدد؛ خرجه مسلم وغيره.

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ١٨٠) وأبو داود (٢/ ٣٣٧/ ١٧١٣) وحسن إسناده الشيخ الألباني في صحيح أبي داود (٥/ ٣٩٧/ ١٥٠٧) من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضي الله عنه.

(٢) عفاصها: أي الوعاء من جلد أو ثوب يحمل الراعي فيه زاده. الوكاء: الخيط الذي تشد به الصرة ونحوها.

(٣) أخرجه: أحمد (٤/ ١١٦) والبخاري (٥/ ١٠٠-١٠١/ ٢٤٢٧) ومسلم (٣/ ١٣٤٦-١٣٤٨/ ١٧٢٢) وأبو داود (٢/ ٣٣١-٣٣٢/ ١٧٠٤) والترمذي (٣/ ٦٥٥-٦٥٦/ ١٣٧٢) والنسائي في الكبرى (٣/ ٤١٩/ ٥٨١١) وابن ماجه (٢/ ٨٣٨/ ٢٥٠٧) عن زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه.

(٤) أخرجه: أحمد (٥/ ١٢٦) والبخاري (٥/ ٩٨/ ٢٤٢٦) ومسلم (٣/ ١٣٥٠/ ١٧٢٣) وأبو داود (٢/ ٣٢٨-٣٣٠/ ١٧٠١) والترمذي (٣/ ٦٥٨/ ١٣٧٤) والنسائي في الكبرى (٣/ ٤٢١/ ٥٨٢٠) وابن ماجه (٢/ ٨٣٧-٨٣٨/ ٢٥٠٦) عن أبي رضي الله عنه.

وأجمع العلماء أن عفاص اللقطة ووكاءها من إحدى علاماتها وأدلها عليها؛ إذا أتى صاحب اللقطة بجميع أوصافها دفعت له. قال ابن القاسم: يجبر على دفعها؛ فإن جاء مستحق يستحقها ببينة أنها كانت له لم يضمن الملتقط شيئًا، وهل يحلف مع الأوصاف أو لا؟ قولان: الأول لأشهب، والثاني لابن القاسم. ولا تلزمه بينة عند مالك وأصحابه وأحمد بن حنبل وغيرهم. وقال أبو حنيفة والشافعي: لا تدفع له إلا إذا أقام بينة أنها له؛ وهو بخلاف نص الحديث؛ ولو كانت البينة شرطا في الدفع لما كان لذكر العفاص والوكاء والعدد معنى؛ فإنه يستحقها بالبينة على كل حال؛ ولما جاز سكوت النبي ﷺ عن ذلك، فإنه تأخير البيان عن وقت الحاجة. والله أعلم».

وقال: «نص الحديث على الإبل والغنم وبين حكمهما، وسكت عما عداهما من الحيوان. وقد اختلف علماؤنا في البقر هل تلحق بالإبل أو بالغنم؟ قولان؛ وكذلك اختلف أئمتنا في التقاط الخيل والبغال والحمير، وظاهر قول ابن القاسم أنها تلتقط، وقال أشهب وابن كنانة: لا تلتقط؛ وقول ابن القاسم أصح؛ لقوله ﷺ: «**احفظ على أخيك المؤمن ضالته**»[1]»[2].

وقال: «ليس في قوله ﷺ في اللقطة بعد التعريف: «فاستمتع بها» أو: «فشأنك بها» أو: «فهي لك» أو: «فاستنفقها» أو: «ثم كلها» أو: «فهو مال الله يؤتيه من يشاء» على ما في صحيح مسلم وغيره، ما يدل على التمليك، وسقوط الضمان عن الملتقط إذا جاء ربها؛ فإن في حديث زيد بن خالد الجهني عن النبي ﷺ: «فإن لم تعرف فاستنفقها ولتكن وديعة عندك فإن جاء صاحبها يوما من الدهر فأدها إليه» وفي رواية: «ثم كلها فإن جاء صاحبها فأدها إليه» خرجه البخاري ومسلم. وأجمع العلماء على أن صاحبها متى جاء فهو أحق بها، إلا ما ذهب إليه داود من أن الملتقط يملك اللقطة بعد التعريف؛ لتلك الظواهر، ولا التفات لقوله؛ لمخالفة الناس، ولقوله ﷺ: «**فأدها إليه**»»[3].

وقال الشوكاني: «من وجد لقطة فليعرف عفاصها ووكاءها؛ فإن جاء صاحبها دفعها إليه وإلا عرف بها حولا، وبعد ذلك يجوز له صرفها ولو في نفسه، ويضمن

(١) تقدم قريبا من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ﷺ.
(٢) الجامع لأحكام القرآن (٩/ ١٣٥-١٣٧).
(٣) الجامع لأحكام القرآن (٩/ ١٣٧-١٣٨).

مع مجيء صاحبها، ولقطة مكة أشد تعريفا من غيرها، ولا بأس بأن ينتفع الملتقط بالشيء الحقير كالعصا والسوط ونحوهما بعد التعريف به ثلاثا، وتلتقط ضالة الدواب إلا الإبل»[1].

* * *

(١) الدراري المضية (٢/ ٢٠٥).

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿١٢﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «لما تواطأوا على أخذه وطرحه في البئر كما أشار به عليهم أخوهم الكبير روبيل، جاءوا أباهم يعقوب عليه السلام فقالوا: ما بالك ﴿لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ﴾ وهذه توطئة ودعوى، وهم يريدون خلاف ذلك لما له في قلوبهم من الحسد لحب أبيه له ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا﴾ أي: ابعثه معنا ﴿غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ وقرأ بعضهم بالياء ﴿يَرْتَعِي وَيَلْعَبْ﴾ قال ابن عباس: يسعى وينشط، وكذا قال قتادة والضحاك والسدي وغيرهم ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ يقولون: ونحن نحفظه ونحوطه من أجلك»[١].

وقال القرطبي: «قيل للحسن: أيحسد المؤمن؟ قال: ما أنساك ببني يعقوب! ولهذا قيل: الأب جلاب والأخ سلاب؛ فعند ذلك أجمعوا على التفريق بينه وبين ولده بضرب من الاحتيال. وقالوا ليعقوب: ﴿يَـٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ وقيل: لما تفاوضوا وافترقوا على رأي المتكلم الثاني عادوا إلى يعقوب عليه السلام وقالوا هذا القول. وفيه دليل على أنهم سألوه قبل ذلك أن يخرج معهم يوسف فأبى على ما يأتي»[٢].

قوله: ﴿يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ قال: «المراد باللعب المباح من الانبساط، لا اللعب المحظور الذي هو ضد الحق، ولذلك لم ينكر يعقوب قولهم ﴿وَيَلْعَبْ﴾. ومنه قوله عليه السلام: «**فهلا بكرا تلاعبها وتلاعبك**»[٣]»[٤].

---

(١) التفسير (٤/ ١٢).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٩/ ١٣٨).

(٣) أخرجه: أحمد (٣/ ٣٠٨) والبخاري (٩/ ٦٤١/ ٥٣٦٧) ومسلم (٢/ ١٠٨٧/ ٧١٥) وأبو داود (٢/ ٥٤٠-٥٤١/ ٢٠٤٨) والترمذي (٣/ ٤٠٦/ ١١٠٠) والنسائي (٦/ ٣٦٩-٣٧٠/ ٣٢١٩) وابن ماجه (١/ ٥٩٨/ ١٨٦٠) من حديث جابر رضي الله عنه.

(٤) الجامع لأحكام القرآن (٩/ ١٣٩).

قال الشيخ محمد رضا : «وقد توسع بعض المفسرين في هذه المسألة وعدوها مشكلة لظنهم أن اللعب غير جائز وقوعه من الأنبياء. والتحقيق أن من اللعب ما هو نافع فهو مباح أو مستحب، ومنه ملاعبة الرجل لزوجه وملاعبتها له كما ورد في الحديث الصحيح، وأن إخوة يوسف لم يكونوا أنبياء يومئذ ولا بعده كما حققناه في محله، وإن من التنطع والغفلة استشكال اللعب المباح في نفسه ممن شهد اللّٰه عليهم بالكيد لأخيهم، والائتمار بقتله، وتعمد إيذائه، وفجيعة أبيهم به، وكذبهم عليه وغير ذلك من كبائر المعاصي!!»[1].

* * *

(١) تفسير المنار (١٢/ ٢٦٤).

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبرًا عن نبيه يعقوب أنه قال لبنيه في جواب ما سألوا من إرسال يوسف معهم إلى الرعي في الصحراء ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ﴾ أي: يشق علي مفارقته مدة ذهابكم به إلى أن يرجع، وذلك لفرط محبته له لما يتوسم فيه من الخير العظيم، وشمائل النبوة والكمال في الخلق والخلق، صلوات اللَّه وسلامه عليه. وقوله: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ﴾ يقول: وأخشى أن تشتغلوا عنه برميكم ورعيكم؛ فيأتيه ذئب فيأكله وأنتم لا تشعرون، فأخذوا من فمه هذه الكلمة، وجعلوها عذرهم فيما فعلوه، وقالوا مجيبين له عنها في الساعة الراهنة: ﴿لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ يقولون: لئن عدا عليه الذئب فأكله من بيننا ونحن جماعة؛ إنا إذا لهالكون عاجزون»[١].

قال الزمخشري: «اعتذر إليهم بشيئين:

أحدهما: أن ذهابهم به ومفارقته إياه مما يحزنه؛ لأنه كان لا يصبر عنه ساعة.

والثاني: خوفه عليه من عدوة الذئب إذا غفلوا عنه برعيهم ولعبهم، أو قَلَّ به اهتمامهم، ولم تصدق بحفظه عنايتهم»[٢].

قال القاسمي: «قال الناصر: وكان أشغل الأمرين لقلبه خوف الذئب عليه، لأنه مظنة هلاكه، وأما حزنه لمفارقته ريثما يرتع ويلعب ويعود سالما إليه عما قليل؛ فأمر سهل، فكأنهم لم يشتغلوا إلا بتأمينه وتطمينه من أشد الأمرين عليه»[٣].

---

(١) التفسير (٤/ ١٣).
(٢) الكشاف (٢/ ٣٠٦).
(٣) محاسن التأويل (٩/ ٢٠١).

وقال العدوي: «أراهم أن ذهابهم بيوسف محزن له، ويخشى من تركه معهم أن يأكله الذئب في وقت يغفلون عنه فيه.

ومنه نعلم أن يوسف كان صغيرًا في ذلك الوقت، لأن الذي يخشى عليه من الذئب هو الصغير، والذي يغفل عنه إخوته ويكون معرضا للخطر لهذه الغفلة هو الصغير. أما تحديد سنه في ذلك الوقت فلا سبيل إليه إلا بوحي عن المعصوم. وهنا تتجلى شفقة الآباء على أبنائهم الصغار وحنانهم عليهم في وقت الضعف، ولو علم الأبناء ما تقاسيه الآباء في سبيل حرصهم على حياتهم؛ ما فكر ولد في عقوق والديه، وما تأفف منهما عند الكبر والضعف عن الكسب، وهذه الشفقة التي يضعها اللَّه تعالى في قلوب الوالدين؛ هي لحكمة بالغة وغايات سامية، وهي بقاء النسل وعمارة هذه الحياة، ولولا تلك الشفقة، وذلك العطف البالغ لمات الأبناء جوعا. وتركوا للطوارئ تفعل بهم ما تفعل، وتعرضوا لأخطار لا قبل لهم بها، وهلكوا من الجهل وسوء التربية، ولكن حكمة اللَّه تعالى قضت بأن يجعل في قلوب الآباء ذلك الحنان والعطف، وتحت تأثير هذه العوامل تعيش الأبناء، وتربى التربية الصالحة، ويضحى في سبيل حياتهم الصالحة ومستقبلهم المرجو من شقاء الأبوين ما يضحى، ولولا أن هذه العاطفة التي أودعها اللَّه في الأبوين قد يكون معها جهل الأبوين بوسائل السعادة للأبناء، لآتت هذه العاطفة أكلها كل حين بإذن ربها، وأثمرت ثمرتها الصالحة، ولكن الجهل في كثير من الآباء يجعل هذه العاطفة شرا مستطيرا على الأبناء، وخطرا على أخلاقهم وحياتهم»[1].

وقال الشيخ محمد رضا: «﴿قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ أي: واللَّه لئن اختطفه الذئب من بيننا وأكله والحال أننا جماعة شديدة القوى تعصب بنا الأمور، وتكفى ببأسنا الخطوب ﴿إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ وخائبون في اعتصابنا، أو لهالكون لا يصح أن نعد من الأحياء الذين يعتد بهم ويركن إليهم، وهذه الجملة جواب للقسم أغنى عن جواب الشرط، أجابوه عما يخافه بما يرجون أن يطمئنه، وأما حزنه فلا جواب عنه لأنه في حد ذاته لا بد منه، وليس في استطاعتهم منعه، إذ

---

(١) دعوة الرسل (ص: ٩٤-٩٥).

هو لازم لفراقه له ولو فراقا قليلا فيه منفعة ليوسف في صحته، بترويض جسمه في ضحى الشمس وهبوب الرياح وحركة الأعضاء، في زمن قصير يعود بعده فيزول حزنه، ويكون سروره مضاعفا لو صدقوا»[١].

* * *

(١) تفسير المنار (١٢/ ٢٦٥).

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «أخبر الله تعالى في هذه الآية الكريمة أنه أوحى إلى يوسف عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام أنه سينبئ إخوته بهذا الأمر الذي فعلوا به في حال كونهم لا يشعرون.

ثم صرح في هذه السورة الكريمة بأنه جل وعلا؛ أنجز ذلك الوعد في قوله: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾﴾.

وصرح بعدم شعورهم بأنه يوسف في قوله: ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

وهذا الذي ذكرنا أن العامل في الجملة الحالية هو قوله: ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم﴾ أي: لتخبرنهم ﴿بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا﴾ في حال كونهم ﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾ بأنك يوسف؛ هو الظاهر.

وقيل: إن عامل الحال هو قوله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ﴾ وعليه فالمعنى: أن ذلك الإيحاء وقع في حال كونهم لا يشعرون بأنه أوحى إليه ذلك»[1].

وقال ابن كثير: «يقول تعالى: فلما ذهب به إخوته من عند أبيه بعد مراجعتهم له في ذلك ﴿وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ هذا فيه تعظيم لما فعلوه، أنهم اتفقوا كلهم على إلقائه في أسفل ذلك الجب، وقد أخذوه من عند أبيه فيما يظهرونه له إكراما له، وبسطا وشرحا لصدره، وإدخالا للسرور عليه، فيقال: إن يعقوب عليه السلام لما بعثه معهم ضمه إليه وقبله ودعا له..

وقوله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، يقول تعالى ذاكرا لطفه ورحمته وعائدته وإنزاله اليسر في حال العسر: إنه أوحى إلى يوسف في ذلك

(١) أضواء البيان (٣/ ٥٤-٥٥).

الحال الضيق تطييبا لقلبه وتثبيتا له؛ إنك لا تحزن مما أنت فيه، فإن لك من ذلك فرجا ومخرجا حسنا، وسينصرك اللَّه عليهم ويعليك ويرفع درجتك، وستخبرهم بما فعلوا معك من هذا الصنيع. وقوله: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ قال مجاهد وقتادة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾: بإيحاء اللَّه إليه. وقال ابن عباس: ستنبئهم بصنيعهم هذا في حقك، وهم لا يعرفونك ولا يستشعرون بك»[1].

وقال محمد العدوي: «﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ﴾ الخ جواب لما محذوف تقديره أقدموا على فعلهم، وقد أكثر المفسرون فيما حصل من يوسف عند إلقائه في الجب من أحاديث البكاء والامتناع وغيرهما، ونحن نمسك عنها لأنه لا طريق لإثباتها إلا خبر المعصوم، وليس عندنا خبر صحيح فيها. ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: ألهم اللَّه يوسف ليخبرن إخوته بصنيعهم هذا به بعد اليوم، وهم لا يشعرون عند إخبارهم بأنك يوسف، أو وهم لا يشعرون بما أوحيناه إليك، والقصد من هذا الإلهام تأنيس يوسف وتقوية قلبه وهو في ظلمة الجب، وبشارته بما يئول إليه أمره من الخلاص من هذه الشدائد والمحن، وأنه سيتولى عليهم ويصيرون تحت قهره وسلطانه، ولله هذه البشارة في ذلك الوقت العصيب، ما أبردها على قلب يوسف، وما أحوج يوسف إليها، إنها بشارة تهون عليه المصاعب، وتشد قلبه على الصبر، وتعطيه قوة معنوية تجعل الصعب أمامه سهلا، وتتحول به الظلمة نورا، والشدة رخاء، والوحشة أنسا، كيف وهي بشارة من خالق يوسف ورب يوسف وإخوته، يريه فيها أنه سيأتي عليه وقت يطلع فيه إخوته على ما كان منهم مع أخيهم، وأنه سيخلصه من هذه الشدائد مرموقا بعناية اللَّه، مكنوفا بحياطته. ومن ظفر بهذه البشارة فهو جدير بأن يرضى بكل ما يلقى من شدائد، وما يعمل به من مكروه.

وإن عظماء الرجال ليستعذبون الموت، ويستهينون بالتغريب والنفي في سبيل آمال عظيمة، قد استولت على نفوسهم، وتملكت مشاعرهم، وفي هذه الآمال يتسلون على المصائب، وتشتد العزائم، وتقوى الرغائب، وأن هذه الآمال أيا كانت درجتها لم تصل إلى حد الوحي الإلهي، فكيف إذا كانت وحيا من اللَّه،

---

(١) التفسير (٤/ ١٣-١٤).

وبشارة صادقة، يشعر صاحبها بعلم ضروري أن ما فيها حق لا باطل فيه، وصدق لا كذب معه، لا شك أن القلب إذا بشر بأمثال هذه البشارة؛ يكون موقف صاحبها من الشدائد فوق موقف صاحب الآمال، ومنزلته من المصائب التي تحل به منزلة المستهين المستخف.

وجملة القول: أن بشارة يوسف ﷺ بمآل أمره عناية عظمى من اللّه به في ذلك الوقت العصيب، ورعاية كبيرة من علام الغيوب في وقت من شأنه أن تتزلزل فيه القلوب، وتضطرب له الأفئدة، ودرس من دروس التربية يتقدم الرسالة التي تتطلب من صاحبها جدا وعزما»[1].

وقال أبو حيان: «والذي يظهر من سياق الأخبار والقصص أن يوسف كان صغيرا، فقيل: كان عمره إذ ذاك سبع سنين، وقيل: ست. قاله الضحاك. وأبعد من ذهب إلى أنه اثنتا عشرة سنة، وثمان عشرة سنة، وكلاهما عن الحسن، أو سبع عشرة سنة. قاله ابن السائب. ويدل على أنه كان صغيرا بحيث لا يدفع نفسه؛ قوله: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾: ﴿يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾، ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾، وأخذ السيارة له، وقول الوارد هذا غلام، وقول العزيز: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾.. ومن هو ابن ثمان عشرة سنة لا يخاف عليه من الذئب، ولا سيما إن كان في رفقة، ولا يقال فيه ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ لأنه إذ ذاك قادر على التحيل في نجاة نفسه»[2].

وقال الشيخ محمد رضا: «﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ﴾ في الغد من ليلتهم التي استنزلوا فيها أباه عن إمساكه عنده ﴿وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ أي: أزمعوه وعزموا عليه عزما إجماعيا لا تردد فيه، بعد ما كان من اختلافهم قبل في قتله أو تغريبه، وجواب (لما) محذوف للعلم به مما قبله ومما بعده، وتقديره نفذوه بأن ألقوه في غيابة ذلك الجب بالفعل ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ﴾ عند إلقائه فيه وحيا إلهاميا علم أنه منا مضمونه: وربك ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا﴾ معك إذ يظهرك اللّه عليهم ويذلهم لك، ويجعل رؤياك حقًّا ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ يومئذ بما آتاك اللّه، أو الآن بما يؤتيك في عاقبة هذه الفعلة التي فعلوها بك، أو بهذا الوحي في الجب، وهو المرتبة الأولى

---

(١) دعوة الرسل (ص: ٩٦).
(٢) البحر المحيط (٥/ ٢٨٨).

من مراتب التكليم الإلهي للأنبياء بعد التمهيد له بالرؤيا الصادقة. وقد هون اللَّه تعالى على يوسف مصيبته به فعلم أنها مصيبة في الظاهر نعمة في الباطن، وقد نقلوا عن السدي أن إخوة يوسف طغوا في القسوة عليه والتنكيل به فقالوا وفعلوا ما لا يصدر مثله إلا عن رعاع الناس وأراذل المجرمين الظالمين، وما هي إلا الإسرائيليات المنفرة من الإسلام والمسلمين»[1].

* * *

(١) تفسير المنار (١٢/ ٢٦٥-٢٦٦).

قوله تعالى: ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ۝١٦ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ۝١٧﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبرا عن الذي اعتمده إخوة يوسف بعد ما ألقوه في غيابة الجب: أنهم رجعوا إلى أبيهم في ظلمة الليل يبكون، ويظهرون الأسف والجزع على يوسف، ويتغممون لأبيهم، وقالوا معتذرين عما وقع فيما زعموا: ﴿إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾ أي: نترامى، ﴿وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا﴾ أي: ثيابنا وأمتعتنا، ﴿فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾، وهو الذي كان قد جزع منه وحذر عليه. وقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ تلطف عظيم في تقرير ما يحاولونه، يقولون: ونحن نعلم أنك لا تصدقنا -والحالة هذه- لو كنا عندك صادقين، فكيف وأنت تتهمنا في ذلك؟! لأنك خشيت أن يأكله الذئب، فأكله الذئب، فأنت معذور في تكذيبك لنا لغرابة ما وقع، وعجيب ما اتفق لنا في أمرنا هذا»[1].

قال القرطبي: «وإنما جاءوا عشاء ليكونوا أقدر على الاعتذار في الظلمة؛ ولذا قيل: لا تطلب الحاجة بالليل، فإن الحياء في العينين، ولا تعتذر بالنهار من ذنب، فتتلجلج في الاعتذار»[2].

قال ابن عاشور: «والبكاء: خروج الدموع من العينين عند الحزن والأسف والقهر.. وقد أطلق هنا على البكاء المصطنع وهو التباكي. وإنما اصطنعوا البكاء تمويها على أبيهم لئلا يظن بهم أنهم اغتالوا يوسف عليه السلام، ولعلهم كانت لهم مقدرة على البكاء مع عدم وجدان موجبه، وفي الناس عجائب من التمويه والكيد. ومن

(١) التفسير (٤/ ١٤).
(٢) الجامع لأحكام القرآن (٩/ ١٤٤).

الناس من تتأثر أعصابهم بتخيل الشيء ومحاكاته، فيعتريهم ما يعتري الناس بالحقيقة.

وبعض المتظلمين بالباطل يفعلون ذلك، وفطنة الحاكم لا تنخدع لمثل هذه الحيل، ولا تنوط بها حكما، وإنما يناط الحكم بالبينة.

جاءت امرأة إلى شريح تخاصم في شيء، وكانت مبطلة فجعلت تبكي، وأظهر شريح عدم الاطمئنان لدعواها، فقيل له: أما تراها تبكي؟! فقال: قد جاء إخوة يوسف ﷺ أباهم عشاء يبكون وهم ظلمة كذبة، لا ينبغي لأحد أن يقضي إلا بالحق.. ومن الأمثال (دموع الفاجر بيديه) وهذه عبرة في هذه العبرة»[1].

وقال ابن العربي: «قال علماؤنا: هذا يدل على أن بكاء المرء لا يدل على صدق مقاله؛ لاحتمال أن يكون تصنعا، ومن الخلق من يقدر على ذلك، ومنهم من لا يقدر. وقد قيل: إن الدمع المصنوع لا يخفى، كما قال حكيم:

إذا اشتبكت دموع في خدود ... تبين من بكى ممن تباكى

والأصح عندي أن الأمر مشتبه، وأن من الخلق في الأكثر من يقدر من التطبع على ما يشبه الطبع»[2].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الاستباق وبيان أحكامه

* عن عائشة ﵂ قالت: سابقني رسول الله ﷺ فسبقته، فلبثنا حتى إذا رهقني اللحم، سابقني فسبقني، فقال: «**هذه بتيك**»[3].

* عن عبدالله بن عمر ﵄ «أن رسول الله ﷺ سابق بين الخيل التي أضمرت من الحفياء، وأمدها ثنية الوداع. وسابق بين الخيل التي لم تضمر من الثنية إلى مسجد بني زريق، وأن عبدالله بن عمر كان فيمن سابق بها»[4].

(١) التحرير والتنوير (١٢/ ٢٣٦). (٢) أحكام القرآن (٣/ ١٠٧٥).

(٣) أخرجه: أحمد (٦/ ٣٩) وأبو داود (٣/ ٦٥-٦٦/ ٢٥٧٨) والنسائي في الكبرى (٥/ ٣٠٣/ ٨٩٤٢) وابن ماجه (١/ ٦٣٦/ ١٩٧٩) قال البوصيري: «إسناده صحيح على شرط البخاري»، وصححه ابن حبان (١٠/ ٥٤٥/ ٤٦٩١).

(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٥) والبخاري (١/ ٦٧٨/ ٤٢٠) ومسلم (٣/ ١٤٩١/ ١٨٧٠) وأبو داود (٣/ ٦٤/ ٢٥٧٥) والترمذي (٤/ ١٧٧-١٧٨/ ١٦٩٩) والنسائي (٦/ ٥٣٥/ ٣٥٨٦) وابن ماجه (٢/ ٩٦٠/ ٢٨٧٧).

★ **غريب الحديث:**

أضمرت: «بضم أوله، وقوله لم تضمر، بسكون الضاد المعجمة، والمراد به: أن تعلف الخيل حتى تسمن وتقوى، ثم يقلل علفها بقدر القوت، وتدخل بيتا وتغشى بالجلال حتى تحمى فتعرق، فإذا جف عرقها خف لحمها وقويت على الجري»(١).

* عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«لا سبق إلا في خف أو حافر أو نصل»**(٢).

★ **غريب الحديث:**

الخف: المراد بالخف الإبل. والخف للبعير كالحافر للفرس.

الحافر: هو للدواب كالخف للإبل، وكالقدم للإنسان.

النصل: حديدة السهم والرمح والسكين.

* عن سلمة بن الأكوع -في حديثه الطويل في غزوة ذي قَرَد- «.. ثم أردفني ﷺ وراءه على العضباء راجعين إلى المدينة، فلما كان بيننا وبينها قريبا من ضحوة، وفي القوم رجل من الأنصار كان لا يسبق، جعل ينادي: هل من مسابق؟ ألا رجل يسابق إلى المدينة؟ فأعاد ذلك مرارا، وأنا وراء رسول اللَّه ﷺ مردفي، قلت له: أما تكرم كريما، ولا تهاب شريفا؟ قال: لا، إلا رسول اللَّه ﷺ. قال: قلت: يا رسول اللَّه، بأبي أنت وأمي، خلني لأسابق الرجل. قال: **«إن شئت»**. قلت: اذهب إليك. فطفر عن راحلته، وثنيت رجلي فطفرت عن الناقة، ثم إني ربطت عليها شرفا أو شرفين، يعني استبقيت نَفَسي، ثم إني عدوت حتى ألحقه، فأصك بين كتفيه بيدي، قلت: سبقتك واللَّه أو كلمة نحوها. قال: فضحك وقال: إن أظن، حتى قدمنا المدينة»(٣).

---

(١) الفتح (٦/ ٩٠).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٥٦) وأبو داود (٣/ ٦٣-٦٤/ ٢٥٧٤) والترمذي (٤/ ١٧٨/ ١٧٠٠) وقال: «حسن»، والنسائي (٦/ ٥٣٥/ ٣٥٨٧) وابن ماجه (٢/ ٩٦٠/ ٢٨٧٨) وصححه ابن حبان (١٠/ ٥٤٤/ ٤٦٩٠).

(٣) أخرجه: أحمد (٤/ ٥٢-٥٤) واللفظ له، ومسلم (٣/ ١٤٣٣-١٤٤١/ ١٨٠٧) مطولا. وأخرجه أحمد (٤/ ٤٨) والبخاري (٦/ ٢٠١/ ٣٠٤١) ومسلم (٣/ ١٤٣٢-١٤٣٣/ ١٨٠٦) وأبو داود (٣/ ١٨٥-١٨٧/ ٢٧٥٢) والنسائي في الكبرى (٦/ ٢٤٣/ ١٠٨١٤).

* عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما قال: «كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فنزلنا منزلا، فمنا من يصلح خباءه، ومنا من ينتضل، ومنا من هو في جشره؛ إذ نادى منادي رسول الله ﷺ: الصلاة جامعة. .» الحديث[1].

★ **غريب الحديث:**

ينتضل: الانتضال: الرمي بالسهام، وانتضل القوم: أي رموا للسبق، وناضله إذا راماه.

جشره: الجشر -بفتحتين-: الدواب التي ترعى وتبيت مكانها.

★ **فوائد الأحاديث:**

قال ابن العربي: «اعلموا وفقكم الله أن المسابقة شرعة في الشريعة، وخصلة بديعة، وعون على الحرب، وقد فعله النبي ﷺ بنفسه وبخيله»[2].

وقال القرطبي عن حديث ابن عمر: «تضمن ثلاثة شروط، فلا تجوز المسابقة بدونها، وهي:

أن المسافة لابد أن تكون معلومة.

الثاني: أن تكون الخيل متساوية الأحوال.

الثالث: ألا يسابق المضمر مع غير المضمر في أمد واحد وغاية واحدة. والخيل التي يجب أن تضمر ويسابق عليها وتقام هذه السنة فيها؛ هي الخيل المعدة لجهاد العدو، لا لقتال المسلمين في الفتن»[3].

وقال: «أجمع المسلمون على أن السبق لا يجوز على وجه الرهان إلا في الخف والحافر والنصل؛ قال الشافعي: ما عدا هذه الثلاثة فالسبق فيها قمار. .

وقد روي عن مالك أنه قال: لا سبق إلا في الخيل والرمي، لأنه قوة على أهل الحرب؛ قال: وسبق الخيل أحب إلينا من سبق الرمي. وظاهر الحديث يسوي بين

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ١٦١) ومسلم (٣/ ١٤٧٢-١٤٧٣/ ١٨٤٤) والنسائي (٧/ ١٧٢-١٧٣/ ٤٢٠٢) وابن ماجه (٢/ ١٣٠٦-١٣٠٧/ ٣٩٥٦).

(٢) أحكام القرآن (٣/ ١٠٧٥).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٩/ ١٤٦).

السبق على النجب والسبق على الخيل. وقد منع بعض العلماء الرهان في كل شيء إلا في الخيل؛ لأنها التي كانت عادة العرب المراهنة عليها. وروي عن عطاء أن المراهنة في كل شيء جائزة؛ وقد تؤول قوله؛ لأن حمله على العموم في كل شيء؛ يؤدي إلى إجازة القمار، وهو محرم باتفاق».

وقال: «لا يجوز السبق في الخيل والإبل إلا في غاية معلومة وأمد معلوم، كما ذكرنا، وكذلك الرمي لا يجوز السبق فيه إلا بغاية معلومة ورشق معلوم، ونوع من الإصابة؛ مشترك خسقا[1] أو إصابة بغير شرط. والأسباق ثلاثة: سبق يعطيه الوالي أو الرجل غير الوالي من ماله متطوعا فيجعل للسابق شيئًا معلوما؛ فمن سبق أخذه. وسبق يخرجه أحد المتسابقين دون صاحبه، فإن سبقه صاحبه أخذه، وإن سبق هو صاحبه أخذه؛ وحسن أن يمضيه في الوجه الذي أخرجه له، ولا يرجع إلى ماله؛ وهذا مما لا خلاف فيه.

والسبق الثالث: اختلف فيه؛ وهو أن يخرج كل واحد منهما شيئًا مثل ما يخرجه صاحبه، فأيهما سبق أحرز سبقه وسبق صاحبه؛ وهذا الوجه لا يجوز حتى يدخلا بينهما محللا لا يأمنا أن يسبقهما؛ فإن سبق المحلل أحرز السبقين جميعًا وأخذهما وحده، وإن سبق أحد المتسابقين أحرز سبقه وأخذ سبق صاحبه، ولا شيء للمحلل فيه، ولا شيء عليه. وإن سبق الثاني منهما الثالث كان كمن لم يسبق واحد منهما. وقال أبو علي بن خيران -من أصحاب الشافعي-: وحكم الفرس المحلل أن يكون مجهولا جريه؛ وسمي محللا لأنه يحلل السبق للمتسابقين أو له. واتفق العلماء على أنه إن لم يكن بينهما محلل واشترط كل واحد من المتسابقين أنه إن سبق أخذ سبقه وسبق صاحبه أنه قمار، ولا يجوز.. وفي الموطأ عن سعيد بن المسيب قال: ليس برهان الخيل بأس إذا دخل فيها محلل، فإن سَبَقَ أخذ السبق، وإن سُبِقَ لم يكن عليه شيء؛ وبهذا قال الشافعي وجمهور أهل العلم. واختلف في ذلك قول مالك؛ فقال مرة لا يجب المحلل في الخيل، ولا نأخذ فيه بقول سعيد، ثم قال: لا يجوز إلا بالمحلل؛ وهو الأجود من قوله»[2].

(١) خسق السهم وخزق: إذا أصاب الرمية ونفذ فيها.

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٩/ ١٤٦-١٤٨).

قال الخطابي: «الفرس الثالث الذي يدخل بينهما يسمى المحلل، ومعناه أنه يحلل للسابق ما يأخذه من السبق، فيخرج به عقد التراهن عن معنى القمار الذي إنما هو مواضعة بين اثنين على مال يدور بينهما في الشقين، فيكون كل واحد منهما إما غانما أو غارما، ومعنى المحلل ودخوله بين الفرسين المتسابقين: هو لأن يكون أمارة لقصدهما إلى الجري والركض، لا إلى المال، فيشبه حينئذ القمار، وإذا كان فرس المحلل كفئا لفرسيهما يخافان أن يسبقهما فيحرز السبق؛ اجتهدا في الركض، وارتاضا به، ومرنا عليه، وإذا كان المحلل بليدا أو كؤودا مأمونا أن يسبق، غير مخوف أن يتقدم فيحرز السبق؛ لم يحصل به معنى التحليل، وصار إدخاله بينهما لغوا لا معنى له، وحصل الأمر على رهان بين فرسين لا محلل معهما، وهو عين القمار المحرم.

وصورة الرهان والمسابقة في الخيل: أن يتسابق الرجلان بفرسيهما، فيعمدا إلى فرس ثالث كفء لفرسيهما يدخلانه بينهما، ويتواضعان على مال معلوم يكون للسابق منهما، فمن سبق أحرز سبقه وأخذ سبق صاحبه، ولم يكن على المحلل شيء، فإن سبقهما المحلل أحرز السبقين معا.

وإنما يحتاج إلى المحلل فيما كان الرهن فيه دائرا بين اثنين، فأما إذا سبق الأمير بين الخيل وجعل للسابق منهما جعلا، أو قال الرجل لصاحبه: إن سبقت فلانا فلك عشرة دراهم؛ فهذا جائز من غير محلل، والله أعلم»[١].

قال النووي: «وفي هذا دليل لجواز المسابقة على الأقدام، وهو جائز بلا خلاف إذا تسابقا بلا عوض، فإن تسابقا على عوض ففي صحتها خلاف، الأصح عند أصحابنا لا تصح»[٢].

وقال: «وفيه -حديث ابن عمر- جواز المسابقة بين الخيل، وجواز تضميرها، وهما مجمع عليهما للمصلحة في ذلك وتدريب الخيل ورياضتها وتمرنها على الجري، وإعدادها لذلك لينتفع بها عند الحاجة في القتال كرا وفرا، واختلف العلماء في أن المسابقة بينها مباحة أم مستحبة، ومذهب أصحابنا أنها مستحبة لما

---

(١) معالم السنن (٢/ ٢٢١-٢٢٢).

(٢) شرح مسلم (١٢/ ١٥٢).

ذكرناه، وأجمع العلماء على جواز المسابقة بغير عوض بين جميع أنواع الخيل؛ قويها مع ضعيفها وسابقها مع غيره سواء كان معها ثالث أم لا، فأما المسابقة بعوض فجائزة بالإجماع، لكن يشترط أن يكون العوض من غير المتسابقين، أو يكون بينهما ويكون معهما محلل وهو ثالث على فرس مكافئ لفرسيهما ولا يخرج المحلل من عنده شيئًا ليخرج هذا العقد عن صورة القمار، وليس في هذا الحديث ذكر عوض في المسابقة»[1].

وقال ابن القيم: «وأما المسابقة بين الخيل وهي الحافر المذكور في حديث أبي هريرة فقصرها أصحاب مالك وأحمد على الخيل. وجوزها أصحاب أبي حنيفة في البغال، والحمير، والبقر. وللشافعي في البغال والحمير قولان. ثم اختلف أصحابه في مسائل فرعوها على هذين القولين، وهي المسابقة على الفيل، والحمام، والسفن، ولهم في جواز السباق عليها بالرهن وجهان: قال من جوز السباق على البغال والحمير: اسم الحافر يتناولهما كتناوله للفرس. وقال الآخرون: لم يرد الشارع بلفظ الحافر الحمار والبغل، وإنما أراد حافر ما سوبق عليه، وجعل السباق عليه من إعداد القوة لجهاد أعداء اللّه، فما لحافر البغال والحمير والبقر دخول في ذلك البتة. ولم يسابق أحد من السلف قط بحمار ولا بغل. قالوا: والحافر وقع في سياق الإثبات فلا عموم له. قالوا: ولا يصح قياس الحمار والبغل على الخيل لما بينها من الفروق شرعا وحسا ومنفعة، وما سوّى اللّه بين الخيل والحمير قط؛ لا في سهم الغنيمة، ولا في الغزو، ولا جعل الخير معقودا إلا في نواصيها[2] بالأجر والغنيمة، فما أفسد قياسهما على الخيل التي ظهورها عز، ومعاقل، وحصون. والخير معقود بنواصيها، والغنائم ثلثاها لها، وأرواثها، وأبوالها في ميزان صاحبها إذا ارتبطها في سبيل اللّه.

فصل: وأما المسابقة بين الإبل فهي الخف المذكور في حديث أبي هريرة، والجمهور على اختصاصها بالبعير. وجوز بعض الشافعية المسابقة على الفيل بالجعل، قالوا: لأنه ذو خف فيدخل في الحديث. وقول الجمهور أصح لما تقدم.

---

(١) شرح مسلم (١٣/ ١٤).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ١٣) والبخاري (٦/ ٧٨٥/ ٣٦٤٤) ومسلم (٣/ ١٤٩٢/ ١٨٧١) والنسائي (٦/ ٥٣١/ ٣٥٧٥) وابن ماجه (٢/ ٩٣٢/ ٢٧٨٧) من حديث ابن عمر ﷺ.

ولذلك لا يسهم للفيل عند الأئمة الأربعة، وشذ القاضي أبو يعلى من أصحاب أحمد فقال: يسهم للفيل سهم الهجين. فيكون على الروايتين فيه، هل له سهم أو سهمان؟»[1].

وقال شيخ الإسلام: «ليس كل ما جاز فعله جاز إعطاء العوض عليه. ألا ترى أن في الحديث المشهور عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا سبق إلا في خف، أو حافر، أو نصل**» فقد نهى عن السبق في غير هذه الثلاثة. ومع هذا فالمصارعة قد تجوز، كما صارع النبي ﷺ ركانة بن عبد يزيد، وتجوز المسابقة بالأقدام، كما سابق النبي ﷺ عائشة، وكما أذن لسلمة بن الأكوع في المسابقة في غزوة الغابة، وذي قرد. وقد قال النبي ﷺ: «**كل لهو يلهو به الرجل فهو باطل، إلا رميه بقوسه، وتأديبه فرسه وملاعبة امرأته فإنهن من الحق**»[2] وهذا اللهو الباطل من أكل المال به كان أكلا بالباطل، ومع هذا فيرخص فيه كما يرخص للصغار في اللعب، وكما كان صغيرتان من الأنصار تغنيان أيام العيد في بيت عائشة، والنبي ﷺ لا يستمع إليهن، ولا ينهاهن. ولما قال أبو بكر: أمزمار الشيطان في بيت رسول اللَّه ﷺ؟ قال النبي ﷺ: «**دعهما يا أبا بكر، فإن لكل قوم عيدا، وإن هذا عيدنا**»[3] فدل بذلك على أنه يرخص لمن يصلح له اللعب أن يلعب في الأعياد، وإن كان الرجال لا يفعلون ذلك. ولا يبذل المال في الباطل»[4].

وقال: «المغالبات ثلاثة أنواع: فما كان معينا على ما أمر اللَّه به كما في قوله:

---

(١) الفروسية (ص: ١٣).

(٢) أخرجه: أبو داود (٣/ ٢٨-٢٩/ ٢٥١٣) والترمذي (٤/ ١٤٩/ ١٦٣٧) وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجه (٢/ ٩٤٠/ ٢٨١١) وضعفه الشيخ الألباني في ضعيف أبي داود (١٠/ ٣٠٤-٣٠٦/ ٤٣٣) وهو من حديث عقبة بن عامر الجهني ﷺ. ويغني عنه حديث جابر بن عبد اللَّه وجابر بن عمير الأنصاريين ﷺ «أن رسول اللَّه ﷺ قال: «كل شيء ليس من ذكر اللَّه فهو لعب لا يكون أربعة: ملاعبة الرجل امرأته وتأديب الرجل فرسه، ومشي الرجل بين الغرضين، وتعلم الرجل السباحة». أخرجه النسائي في الكبرى (٥/ ٣٠٢-٣٠٣/ ٨٩٣٨) والبزار (الكشف ٢/ ٢٧٩-٢٨٠/ ١٧٠٤) والطبراني في الكبير (٢/ ١٩٣/ ١٧٨٥) قال الهيثمي (٥/ ٢٦٩): «ورجال الطبراني رجال الصحيح خلا عبد الوهاب بن بخت وهو ثقة»، وانظر الصحيحة (٣١٥).

(٣) أخرجه: أحمد (٦/ ٣٣) والبخاري (٢/ ٥٥٩/ ٩٤٩) ومسلم (٢/ ٦٠٧-٦١٠/ ٨٩٢) والنسائي (٣/ ٢١٦/ ١٥٩٢) من حديث عائشة ﷺ.

(٤) مجموع الفتاوى (٣٠/ ٢١٥-٢١٦).

﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾[١]؛ جاز بجعل وبغير جعل. وما كان مفضيا إلى ما نهى اللَّه عنه كالنرد والشطرنج؛ فمنهي عنه بجعل وبغير جعل. وما قد يكون فيه منفعة بلا مضرة راجحة كالمسابقة والمصارعة؛ جاز بلا جعل»[٢].

وقال: «ويجوز اللعب بما قد يكون فيه مصلحة بلا مضرة، (وظاهر كلام أبي العباس لا يجوز المعروف بالطاب والمنقلة، وكلما أفضى كثيرًا إلى حرمة إذا لم يكن فيه مصلحة بل حجة؛ لأنه يكون سببًا للشر والفساد، وما ألهى وشغل عن ما أمر اللَّه به فهو منهي عنه، وإن لم يحرم جنسه؛ كالبيع والتجارة، أما سائر ما يتلهى به الباطلون من أنواع اللهو وسائر ضروب اللعب مما لا يستعان به في حق شرعي؛ فكله حرام.

وروى الإمام أحمد والبخاري ومسلم أن عائشة ﵂ وجواري كن معها يلعبن بالبنات[٣] وهو اللعب، والنبي ﷺ يراهن فيرخص فيه للصغار ما لا يرخص فيه للكبار»[٤].

* * *

(١) الأنفال: الآية (٦٠).

(٢) الفتاوى الكبرى (٢/ ١٤).

(٣) أخرجه: أحمد (٦/ ٥٧) والبخاري (١٠/ ٦٤٥/ ٦١٣٠) ومسلم (٤/ ١٨٩٠-١٨٩١/ ٢٤٤٠) وأبو داود (٥/ ٢٢٦/ ٤٩٣١) والنسائي (٦/ ٤٤١/ ٣٣٧١) وابن ماجه (١/ ٦٣٧-٦٣٨/ ١٩٨٢) من حديث عائشة ﵂.

(٤) الفتاوى الكبرى (٤/ ٤٩٧).

قوله تعالى: ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًاۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍۚ﴾ أي: مكذوب مفترى، وهذا من الأفعال التي يؤكدون بها ما تمالئوا عليه من المكيدة، وهو أنهم عمدوا إلى سخلة فيما ذكره مجاهد والسدي وغير واحد، فذبحوها ولطخوا ثوب يوسف بدمها، موهمين أن هذا قميصه الذي أكله فيه الذئب وقد أصابه من دمه، ولكنهم نسوا أن يخرقوه، فلهذا لم يرج هذا الصنيع على نبي اللّه يعقوب، بل قال لهم معرضا عن كلامهم إلى ما وقع في نفسه من لبسهم عليه: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًاۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌۖ﴾ أي: فسأصبر صبرا جميلا على هذا الأمر الذي اتفقتم عليه حتى يفرجه اللّه بعونه ولطفه ﴿وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ أي: على ما تذكرون من الكذب والمحال»[(١)].

قال أبو حيان: «كان في قميص يوسف ثلاث آيات: كان دليلا ليعقوب على أن يوسف لم يأكله الذئب، وألقاه على وجهه فارتد بصيرا، ودليلا على براءة يوسف حين قُدَّ من دُبُر»[(٢)].

قال ابن عاشور: «ولا شك في أنهم لم يتركوا كيفية من كيفيات تمويه الدم، وحالة القميص بحال قميص من يأكله الذئب من آثار تخريق وتمزيق، مما لا تخلو عنه حالة افتراس الذئب، وأنهم أفطن من أن يفوتهم ذلك، وهم عصبة لا يعزب عن مجموعهم مثل ذلك. فما قاله بعض أصحاب التفسير من أن يعقوب عليه السلام قال لأبنائه: ما رأيت كاليوم ذئبا أحلم من هذا، أكل ابني ولم يمزق قميصه، فذلك من تظرفات القصص»[(٣)].

---

(١) التفسير (٤/ ١٤-١٥).
(٢) البحر المحيط (٥/ ٢٨٩).
(٣) التحرير والتنوير (١٢/ ٢٣٨).

وقال محمد رضا: «﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ المراد من هذه الجملة الفذة في بلاغتها؛ أنهم جاؤوا بقميصه ملطخا ظاهره بدم غير دم يوسف، يدعون أنه دمه ليشهد لهم بصدقهم، فكان دليلا على كذبهم، فنكر الدم ووصفه باسم الكذب مبالغة في ظهور كذبهم؛ في دعوى أنه دمه حتى كأنه هو الكذب بعينه، فالعرب تضع المصدر موضع الصفة للمبالغة كما يقولون شاهد عدل، ومنه (فهن به جود وأنتم به بخل). وقال: ﴿عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ﴾ ليصور للقارئ والسامع أنه موضوع على ظاهره وضعا متكلفا ولو كان من أثر افتراس الذئب له لكان القميص ممزقا والدم متغلغلا في كل قطعة منه، ولهذا كله لم يصدقهم ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ هذا إضراب عن تكذيب صريح تقديره: إن الذئب لم يأكله بل سهلت لكم الأمارة بالسوء أمرا إمرا، وكيدا نكرا، وزينته في قلوبكم فطوعته لكم حتى اقترفتموه، أي هذا أمركم، وأما أمري معكم ومع ربي؛ ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أو فصبري صبر جميل لا يشوه جماله جزع اليائسين من روح اللَّه، القانطين من رحمة اللَّه، ولا الشكوى إلى غير اللَّه ﴿وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ من هذه المصيبة، لا أستعين على احتمالها غيره أحدا منكم ولا من غيركم.

هذا هو الفصل الأول من قصة يوسف وهو صفوة الحق من أحسن القصص بما فيه من الدقة والعبرة، وقد شوهه رواة الأساطير والمفتريات الإسرائيلية بما ظنوا أنه من أخبار التوراة وما هو منها»[1].

وقال القاسمي: «قال المهايمي: في الآية من الفوائد أن الجاه يدعو إلى الحسد كالمال، وهو يمنع من المحبة الأصلية من القرابة ونحوها، بل يجعل عداوتهم أشد من عداوة الأجانب. وأن الحسد يدعو إلى المكر بالمحسود، وبمن يراعيه، وأنه إنما يكون برؤية الماكر نفسه أكمل عقلا من الممكور به. وأن الحاسد إذا ادعى النصح والحفظ والمحبة، بل أظهره فعلا؛ لم يعتمد عليه.

وكذا من أظهر الأمانة قولا وفعلا يفعل الخيانة. وأن الإذلال والإعزاز بيد اللَّه، لا الخلق. وأن من طلب مراده بمعصية اللَّه بعد عنه. وأن الخوف من الخلق يورث البلاء، وأن الإنسان وإن كان نبيا، يخلق أولا على طبع البشرية. وأن اتباع

(١) تفسير المنار (١٢/ ٢٦٧).

الشهوات يورث الحزن الطويل . وأن القدر كائن، وأن الحذر لا يغني من القدر»[١] .

وقال العدوي : «﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ أي : قال يعقوب ليس الأمر كما تدعون، بل زينت لكم أنفسكم أمرا عظيما ارتكبتموه مع يوسف ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أي : فأمري صبر جميل، أو فصبر جميل أمثل من الشكوى، وإذا لم يكن الصبر من نبي اللّه يعقوب على مصيبته في ابنه وفلذة كبده جميلا ؛ فممن يكون؟ ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ أي : على احتمال ما تصفون من هلاك يوسف، ونبي اللّه يعقوب قدوة صالحة في الصبر على المصائب، واحتمال المكاره، والرجوع إلى اللّه تعالى في أن يربط قلبه على الحق، فلا يجد السخط إليه سبيلا . وما أجدرنا بالتأسي به في مثل ذلك المصاب، والرجوع إلى اللّه تعالى كما رجع يعقوب عليه السلام . والصبر الجميل هو الذي ليس معه شكوى للمخلوق وبث حزن إليه، ونبي اللّه يعقوب كان على ذلك الحال، فقد قال حينما اشتد به الحزن وأفزعه الأسى : ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ لأنه رسول، ومن شأن الرسول ذلك، فلا بد أن يكون صبره جميلا ، وأن الصبر على أمثال هذه المصائب هو جهاد للنفس ومحاربة للهوى، وإرغام للشيطان، وما أحوج صاحبه إلى أن يستعين بربه على ذلك الجهاد المر، والعمل الشاق، ولا عجب أن يجعل الصبر نصف الإيمان لهذه الاعتبارات»[٢] .

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في وجوب الاستسلام لقضاء اللّه وقدره

* عن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ حين قال لها أهل الإفك ما قالوا فبرأها اللّه، قالت : قال النبي ﷺ : «**إن كنت بريئة فسيبرئك اللّه، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري اللّه وتوبي إليه**»، قلت : إني واللّه لا أجد مثلًا إلا أبا يوسف : ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾[٣] .

---

(١) محاسن التأويل (٩/ ٢٠٤).

(٢) دعوة الرسل (ص: ٩٧-٩٨).

(٣) هذا جزء من حديث الإفك الطويل، أخرجه: أحمد (٦/ ١٩٤-١٩٧) والبخاري (٨/ ٤٦٢/ ٤٦٩٠) ومسلم (٤/ ٢١٢٩/ ٢١٣٦ إلى ٢٧٧٠) وأبو داود (٥/ ١٠٣-١٠٤/ ٤٧٣٥) مختصرا، والترمذي (٥/ ٣١٠ إلى ٣١٣/ ٣١٨٠) والنسائي في الكبرى (٢٩٥-٣٠٠/ ٨٩٣١).

★ **غريب الحديث:**

ألممت: من الإلمام وهو النزول غير المتكرر كما قال:

متى تأتنا تلمم في ديارنا تجد حطبا جزلا ونارا تأججا

أي: متى يقع منك هذا النادر وهو أصل اللمم. وألمَّ: باشر اللمم، واللمم: الجنون، وصغار الذنوب.

* عن أم رومان وهي أم عائشة رضي الله عنهما قالت: بينما أنا وعائشة أخذتها الحمى، فقال النبي ﷺ: «**لعل في حديث تحدث؟**» قالت: نعم. وقعدت عائشة قالت: مثلي ومثلكم كيعقوب وبنيه؛ ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾[1].

★ **فوائد الحديثين:**

قال الحافظ: «وفيه أن الشدة إذا اشتدت أعقبها الفرج، وفضل من يفوض الأمر لربه، وأن من قوي على ذلك خف عنه الهم والغم، كما وقع في حالتي عائشة قبل استفسارها عن حالها، وبعد جوابها بقولها: والله المستعان.. وأن الصبر تحمد عاقبته ويغبط صاحبه»[2].

وقال القاضي: «وفيه: جواز النزوع بالقرآن والاحتجاج به في النوازل، والتأسي بالأنبياء والصالحين، لقول عائشة: (ما أجد لي ولكم إلا كما قال أبو يوسف: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾»[3].

وقال شيخ الإسلام: «عائشة رضي الله عنها لما ظلمت وافتري عليها وقيل لها: إن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه، فقالت في كلامها: أقول كما قال أبو يوسف: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾. ففي قصة يوسف أنواع من العبرة للمظلوم والمحسود والمبتلى بدواعي الفواحش والذنوب وغير ذلك»[4].

---

(١) أخرجه: أحمد (٦/ ٣٦٧)، البخاري (٨/ ٤٦٢/ ٤٦٩١).

(٢) الفتح (٨/ ٦١٦).

(٣) إكمال المعلم (٨/ ٢٩١).

(٤) مجموع الفتاوى (١٧/ ٢٣).

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن الصبر الجميل، فأجاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الحمد لله، أما بعد: فإن اللَّه أمر نبيه بالهجر الجميل، والصفح الجميل، والصبر الجميل (فالهجر الجميل) هجر بلا أذى، و(الصفح الجميل) صفح بلا عتاب، و (الصبر الجميل) صبر بلا شكوى. قال يعقوب عليه الصلاة والسلام: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ مع قوله: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ فالشكوى إلى اللَّه لا تنافي الصبر الجميل»[1].

* * *

(١) مجموع الفتاوى (١٠/٦٦٦).

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ قَالَ يَـٰبُشْرَىٰ هَـٰذَا غُلَـٰمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَـٰعَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ١٩﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبرا عما جرى ليوسف عليه السلام في الجب حين ألقاه إخوته وتركوه في ذلك الجب وحيدا فريدا، فمكث عليه السلام في البئر ثلاثة أيام فيما قاله أبو بكر بن عياش، وقال محمد بن إسحاق: لما ألقاه إخوته في البئر جلسوا حول البئر يومهم ذلك، ينظرون ماذا يصنع وما يصنع به، فساق اللَّه له سيارة، فنزلوا قريبًا من تلك البئر، وأرسلوا واردهم وهو الذي يتطلب لهم الماء، فلما جاء ذلك البئر وأدلى دلوه فيها، تشبث يوسف عليه السلام فيها فأخرجه واستبشر به، وقال: ﴿يَـٰبُشْرَىٰ هَـٰذَا غُلَـٰمٌ﴾»[1].

وقال محمد العدوي: «جاء رفقة يسيرون من مدين إلى مصر فنزلوا قريبًا من الجب ﴿فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ﴾ الذي يتقدم الرفقة إلى الماء فيهيئ الأرشية والدلاء، يقال أدليت الدلو إذا أرسلتها في البئر، ودلوتها إذا أخرجتها، فرأى يوسف معلقًا بالدلاء، أو رآه في قعر البئر وهو ينزع الماء، أو على صخرة في البئر، كل محتمل، وقوله: ﴿يَـٰبُشْرَىٰ﴾ نداء لها: أي هذا أوانك فاحضري، كأنه يقول لأصحابه أبشروا، وقرئ يا بشراي بالياء ﴿هَـٰذَا غُلَـٰمٌ﴾ ولم ينزعج الوارد من تعلق يوسف بحبال الدلاء أو رؤيته في قعر الجب بل استبشر، لأن يوسف كان حسن الطلعة جميل الوجه، ومن يراه لا يستطيع أن يجد الحزن إليه سبيلا، فانطلق لسانه بالبشرى ونداء الأصحاب، وقوله لهم: هذا غلام، ولو كان المرئي غير يوسف لفزع الوارد من رؤيته في ذلك المكان الذي لم يؤلف فيه وجود غلمان. ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَـٰعَةً﴾ أي: أخفى الوارد وأصحابه أمر يوسف عن بقية الرفقة خيفة أن يطلبوا منهم الشركة فيه،

---

(١) التفسير (٤/ ١٥).

بل يختص به الوارد وأصحابه دون بقية السيارة، والبضاعة ما بضع: أي قطع من المال للتجارة، أو الضمير للسيارة جميعها، لا لطائفة منها؛ أي: أن هذه السيارة أخفت أمر يوسف فلم تذعه على أنه لقيط، بل أخفت أمره وادعت أنه بضاعة وصلت إليهم كبقية الأموال، ولعل حكمة ذلك خوفهم أن يكون تبعا لقوم ضل الطريق منهم فوقع في البئر، فلو أذاعوا أمره على أنه لقيط لوصلهم أذى من قومه ومتبوعيه، ولذلك أخفوه على أنه مال كبقية الأموال.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ وعيد للسيارة بأن اللّٰه يعلم عملها وسيحاسبها عليه؛ لأنه ما كان لهم أن يستبضعوا ما ليس لهم، أو الضمير لإخوة يوسف، فهو وعيد لهم على ما صنعوا مع أخيهم يوسف ومع أبيه يعقوب عليه السلام»[1].

وقال الشيخ محمد رضا رحمه الله: «أي: أخفوه من الناس لئلا يدعيه أحد من أهل ذلك المكان لأجل أن يكون بضاعة لهم من جملة تجارتهم، والبضاعة ما يقطع من المال ويفرز للاتجار به.. وما قيل من أن الذين أسروه هم الوارد الذي استخرجه ومن كان معه دون سائر السيارة، أو أن الضمير في أسروه لإخوة يوسف؛ فهو خلاف الظاهر ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ أي: بما يعمله هؤلاء السيارة، وما يعمله إخوة يوسف، فلكل منهم أرب في يوسف: السيارة يدعون بالباطل أنه عبد لهم فيتجرون به، وإخوة يوسف أمرهم مع أبيهم في إخفائه وتغريبه ودعوى أكل الذئب إياه معلوم، وأنه كيد باطل، وحكمة اللّٰه تعالى فيه فوق كل ذلك»[2].

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ أي: عليم بما يفعله إخوة يوسف ومشتروه، وهو قادر على تغيير ذلك ودفعه، ولكن له حكمة وقدر سابق، فترك ذلك ليمضي ما قدره وقضاه ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[3] وفي هذا تعريض لرسوله محمد ﷺ، وإعلام له بأني عالم بأذى قومك لك، وأنا قادر على الإنكار عليهم، ولكني سأملي لهم ثم أجعل لك العاقبة والحكم عليهم، كما جعلت ليوسف الحكم والعاقبة على إخوته»[4].

وقال الشوكاني: «وفي قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ وعيد شديد لمن كان

---

(١) دعوة الرسل (ص: ٩٨).
(٢) تفسير المنار (١٢/ ٢٧٠).
(٣) الأعراف: الآية (٥٤).
(٤) التفسير (٤/ ١٦).

فعله سببا لما وقع فيه يوسف من المحن، وما صار فيه من الابتذال يجري البيع والشراء فيه، وهو الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم: يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم، كما قال نبينا ﷺ في وصفه بذلك[١]»[٢].

* * *

(١) تقدم قريبا تحت: الآية (٤) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.
(٢) فتح القدير (٣/ ١٩).

قوله تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى: وباعه إخوته بثمن قليل. قاله مجاهد وعكرمة، والبخس: هو النقص، كما قال تعالى: ﴿فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ أي: اعتاض عنه إخوته بثمن دونٍ قليل، ومع ذلك كانوا فيه من الزاهدين أي: ليس لهم رغبة فيه، بل لو سألوه بلا شيء لأجابوا. قال ابن عباس ومجاهد والضحاك: إن الضمير في قوله: ﴿وَشَرَوْهُ﴾ عائد على إخوة يوسف. وقال قتادة: بل هو عائد على السيارة. والأول أقوى، لأن قوله: ﴿وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ إنما أراد إخوته لا أولئك السيارة، لأن السيارة استبشروا به وأسروه بضاعة، ولو كانوا فيه زاهدين لما اشتروه، فترجح من هذا أن الضمير في (شروه) إنما هو لإخوته»(١).

قال ابن جرير: «وأولى القولين في ذلك بالصواب، قول من قال: تأويل ذلك: (وشرى إخوة يوسف يوسف بثمن بخس). وذلك أن اللَّه ﷻ قد أخبر عن الذين اشتروه أنهم أسروا شراء يوسف من أصحابهم، خيفة أن يستشركوهم، بادعائهم أنه بضاعة. ولم يقولوا ذلك، إلا رغبة فيه أن يخلص لهم دونهم، واسترخاصا لثمنه الذي ابتاعوا به، لأنهم ابتاعوه كما قال جل ثناؤه: ﴿بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾ ولو كان مبتاعوه من إخوته فيه من الزاهدين، لم يكن لقيلهم لرفقائهم: (هو بضاعة) معنى؛ ولا كان لشرائهم إياه وهم فيه من الزاهدين وجه، إلا أن يكونوا كانوا مغلوبا على عقولهم، لأنه محال أن يشتري صحيح العقل ما هو فيه زاهد من غير إكراه مكره له عليه، ثم يكذب في أمره الناس بأن يقول: (هو بضاعة لم أشتره)، مع زهده فيه. بل هذا القول من قول من هو بسلعته ضنين لنفاستها عنده، ولما يرجو من نفيس الثمن

(١) التفسير (٤/ ١٦).

لها وفضل الربح»(١).

وقال ابن العربي: «وقيل في بخس إنه بمعنى حرام، ولا وجه له، وإنما الإشارة فيه إلى أنه لم يستوف ثمنه بالقيمة، لأن إخوته إن كانوا باعوه فلم يكن قصدهم ما يستفيدون من ثمنه، وإنما كان قصدهم ما يستفيدون من خلو وجه أبيهم عنه. وإن كان الذين باعوه هم الواردة فإنهم أخفوه مقتطعا، أو قالوا لأصحابهم: أرسل معنا بضاعة، فرأوا أنه لم يعطوا عنه ثمنا، وأن ما أخذوا فيه ربح كله»(٢).

وقال ابن جرير: «والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن اللّه تعالى ذكره أخبر أنهم باعوه بدراهم معدودة غير موزونة، ولم يحد مبلغ ذلك بوزن ولا عدد، ولا وضع عليه دلالة في كتاب ولا خبر من الرسول ﷺ. وقد يحتمل أن يكون كان عشرين؛ ويحتمل أن يكون كان اثنين وعشرين، وأن يكون كان أربعين، وأقل من ذلك وأكثر. وأي ذلك كان، فإنها كانت معدودة غير موزونة، وليس في العلم بمبلغ وزن ذلك فائدة تقع في دين، ولا في الجهل به دخول ضر فيه. والإيمان بظاهر التنزيل فرض. وما عداه فموضوع عنا تكلف علمه»(٣).

وقال محمد العدوي: «ولقد كان زهد السيارة في يوسف على جماله وحسن طلعته لحكمة عالية، وهي بيعهم له من عزيز مصر، وكان من أمره مع ذلك العزيز ما كان مما سيشرحه القرآن الكريم في الآيات الآتية، ورب مزهود فيه عند قوم مرغوب فيه عند آخرين، وقد يعثر الطفل أو الجاهل على الدرة فيظنها حجرا عاديا، فيلقيها إلى من يعرف قيمتها، ويعلم مقدارها»(٤).

* * *

(١) تفسير الطبري (شاكر ١٦/ ١٠).
(٢) أحكام القرآن (٣/ ١٠٧٩).
(٣) تفسير الطبري (شاكر ١٦/ ١٥-١٦).
(٤) دعوة الرسل (ص: ٩٨).

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًاۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يخبر تعالى بألطافه بيوسف ﷺ؛ أنه قيض له الذي اشتراه من مصر حتى اعتنى به وأكرمه، وأوصى أهله به، وتوسم فيه الخير والصلاح؛ فقال لامرأته: ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًاۚ﴾ وكان الذي اشتراه من مصر عزيزها وهو الوزير بها»[(١)].

قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، قال القرطبي: «أي: وكما أنقذناه من إخوته ومن الجب فكذلك مكنا له؛ أي: عطفنا عليه قلب الملك الذي اشتراه حتى تمكن من الأمر والنهي في البلد الذي الملك مستول عليه. ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ﴾ أي: فعلنا ذلك تصديقا لقول يعقوب: ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾. وقيل: المعنى مكناه لنوحي إليه بكلام منا، ونعلمه تأويله وتفسيره، وتأويل الرؤيا، وتم الكلام. ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ الهاء راجعة إلى اللّه تعالى؛ أي: لا يغلب اللّه شيء، بل هو الغالب على أمر نفسه فيما يريده أن يقول له: كن فيكون. وقيل: ترجع إلى يوسف؛ أي: اللّه غالب على أمر يوسف يدبره ويحوطه ولا يكله إلى غيره، حتى لا يصل إليه كيد كائد. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لا يطلعون على غيبه. وقيل: المراد بالأكثر الجميع؛ لأن أحدا لا يعلم الغيب. وقيل: هو مجرى على ظاهره؛ إذ قد يطلع من يريد على بعض غيبه. وقيل: المعنى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن اللّه غالب على أمره، وهم المشركون ومن لا يؤمن بالقدر.

---

(١) التفسير (٤/ ١٧).

وقالت الحكماء في هذه الآية: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾ حيث أمره يعقوب ألا يقص رؤياه على إخوته فغلب أمر اللَّه حتى قص، ثم أراد إخوته قتله فغلب أمر اللَّه حتى صار ملكا وسجدوا بين يديه، ثم أراد الإخوة أن يخلو لهم وجه أبيهم فغلب أمر اللَّه حتى ضاق عليهم قلب أبيهم، وافتكره بعد سبعين سنة أو ثمانين سنة، فقال: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾[1] ثم تدبروا أن يكونوا من بعده قوما صالحين؛ أي: تائبين فغلب أمر اللَّه حتى نسوا الذنب وأصروا عليه حتى أقروا بين يدي يوسف في آخر الأمر بعد سبعين سنة، وقالوا لأبيهم: ﴿إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ﴾[2] ثم أرادوا أن يخدعوا أباهم بالبكاء والقميص (فغلب أمر الله) فلم ينخدع، وقال: ﴿بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ﴾ ثم احتالوا في أن تزول محبته من قلب أبيهم فغلب أمر اللَّه فازدادت المحبة والشوق في قلبه، ثم دبرت امرأة العزيز أنها إن ابتدرته بالكلام غلبته، فغلب أمر اللَّه حتى قال العزيز: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ﴾[3]، ثم دبر يوسف أن يتخلص من السجن بذكر الساقي فغلب أمر اللَّه فنسي الساقي، ولبث يوسف في السجن بضع سنين»[4].

قوله: ﴿أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ﴾، قال ابن العربي: «هذا يدلك على أن التبني كان أمرا معتادا عند الأمم»[5].

قال الشيخ محمد رضا: «لم يبين القرآن اسم الذي اشتراه من السيارة في مصر ولا منصبه ولا اسم امرأته لأن القرآن ليس كتاب حوادث وتاريخ، وإنما قصصه حكم ومواعظ وعبر وتهذيب، ولكن وصفه النسوة فيما يأتي بلقب العزيز، وهو اللقب الذي صار لقب يوسف بعد أن تولى إدارة الملك في مصر، فالظاهر أنه لقب أكبر وزراء الملك، وللمفسرين أقوال في اسمه واسمها واسم ملك مصر؛ ليس للقرآن شأن فيها.. وقد تفرس هذا الوزير الكبير في يوسف أصدق الفراسة إذ أوصى امرأته بإكرام مثواه.. فتضمنت هذه الوصية إكرامه وحسن معاملته في كل ما يختص بإقامته؛ بحيث يكون كواحد منهم، ولا يكون كالعبيد والخدم، وعلل ذلك

(١) يوسف: الآية (٨٤). (٢) يوسف: الآية (٩٧).
(٣) يوسف: الآية (٢٩).
(٤) الجامع لأحكام القرآن (٩/ ١٦٠-١٦١).
(٥) أحكام القرآن (٣/ ١٠٨٠).

بما يدل على أمله ورجائه فيه، وهو ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ بالقيام ببعض شئوننا الخاصة، أو شئون الدولة العامة؛ لما يلوح عليه من مخايل الذكاء والنباهة ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًاۚ﴾ فيكون قرة عين لنا، ووارثنا لمجدنا ومالنا، إذا تم رشده وصدقت فراستي في نجابته. وفهم من هذا الرجاء أن العزيز لم يكن له ولد، وما كان يرجو أن يكون له، وروي أنه كان عقيما. وكان رجاؤه هذا كرجاء امرأة فرعون موسى فيه من بعده، وكانت صالحة ملهمة. وأما العزيز فكان ذكيًّا صادق الفراسة، فاستدل من كمال خلق يوسف وخلقه، وذكائه وحسن خلاله؛ على أن حسن عشرته وكرم وفادته وشرف تربيته؛ خير متمم لحسن استعداده الفطري، إذ لا يفسد أخلاق الأذكياء إلا البيئة الفاسدة وسوء القدوة، وما كان إلا صادق الفراسة ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: وعلى هذا النحو من التدبير والتسخير جعلنا ليوسف مكانة عالية في أرض مصر، كان هذا العطف عليه والرجاء فيه من هذا العزيز مبدأها؛ ليقع له في بيته ثم في السجن ما يقع من التجارب والاتصال بساقي الملك، فيكون وسيلة للوصول إليه ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ﴾ كتعبير الرؤيا، ومعرفة حقائق الأمور ما ينتهي به إلى الغاية من هذا التمكين، وقوله للملك ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾[1] وقول الملك له: ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾[2] ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ أي: على كل أمر يريده ويقدره، فلا يغلب على شيء منه؛ بل يقع كما أراد، فكل ما وقع ليوسف من إخوته، ومن مسترقيه وبائعيه، ومن توصية الذي اشتراه لامرأته بإكرام مثواه، ومما وقع له مع هذه المرأة، وفي السجن؛ قد كان من أسباب ما أراده تعالى له من تمكينه في الأرض، وإن كان ظاهره على خلاف ذلك، ويجوز أن يكون المعنى والله غالب على أمر يوسف، فهو يدبره ويلهمه الخير ولا يكله إلى تدبير نفسه واتباع هواه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنه تعالى غالب على أمره، بل يأخذون بظواهر الأمور، كما استدل إخوة يوسف بإبعاده على أن يخلو لهم وجه أبيهم ويكونوا من بعد بعده عنهم قوما صالحين. ويقابل الأكثر في هذا المقام يعقوب ﷺ، فقد كان يعلم أن الله غالب على أمره، وأقواله صريحة في الدلالة على علمه ما تقدم منها وما تأخر في هذه القصة، ولكن علمه كلي إجمالي لا يحيط

---

(١) يوسف: الآية (٥٥).

(٢) يوسف: الآية (٥٤).

بتفصيل الجزئيات المخبوءة في مطاوي الأقدار»[١].

وقال محمد العدوي: «ويظهر أن كلمة (ملك) التي جرت في عبارة المفسرين يريدون بها صاحب السلطان والنفوذ، فهي ترادف كلمة (سلطان) ولذلك جاء في هذه السورة: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فالتمكين في الأرض في هذه الآيات هو التمكين في تلك، وإنما يراد به أن يكون وزيرا نافذ الكلمة صاحب حول وطول، ولم يرد بقوله: ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ﴾ أن يتنازل له عن ملكه، لأن ذلك غير معهود طلبه من الملوك، وكذلك لم يعهد أن الملوك تجيب إليه على فرض طلبه منها، فالملك لما أحبه وطلب أن يحضروه ليستخلصه لنفسه، وشهد له بالأمانة والمنزلة؛ طلب منه يوسف لذلك أن يوليه خزائن الأرض لأنه حفيظ عليم، وقد أجابه إلى ذلك، فأصبح بهذه التولية صاحب أمر ونهي، وصار وزيرا له مكان العزيز»[٢].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الفراسة

* عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «أفرس الناس ثلاثة: العزيز حين قال لامرأته: ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ﴾، والتي قالت: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾[٣]، وأبو بكر حين تفرس في عمر رضي الله عنهما»[٤].

★ غريب الحديث:

أفرس الناس: أي أصدقهم فراسة.

★ فوائد الحديث:

قال ابن العربي: «عجبا للمفسرين في اتفاقهم على جلب هذا الخبر، والفراسة

(١) تفسير المنار (١٢/ ٢٧٢-٢٧٣).

(٢) دعوة الرسل (ص: ٩٩).

(٣) القصص: الآية (٢٦).

(٤) أخرجه: الطبراني (٩/ ١٦٧-١٦٨/ ٨٨٢٩، ٨٨٣٠)، وذكره الهيثمي في المجمع (١٠/ ٢٦٨) وقال: «رواه الطبراني بإسنادين ورجال أحدهما رجال الصحيح إن كان محمد بن كثير هو العبدي وإن كان هو الثقفي فقد وثق على ضعف كثير فيه»، وابن أبي شيبة (٧/ ٤٣٥/ ٣٧٠٥٨)، وصححه الحاكم (٢/ ٣٤٥) ووافقه الذهبي.

هي علم غريب حده وحقيقته -كما بيناه في غير موضع- الاستدلال بالخلق على الخلق فيما لا يتعدى المتفطنون إلى غير ذلك من الصيغ والأغراض، فأما أمر العزيز فيمكن أن يجعل فراسة؛ لأنه لم يكن معه علامة ظاهرة. وأما بنت شعيب فكانت معها العلامة البينة. أما القوة فعلامتها رفع الحجر الثقيل الذي لا يستطيع أحد أن يرفعه، وأما الأمانة فبقوله لها -وكان يومًا رياحًا: امشي خلفي لئلا تصفك الريح بضم ثوبك لك، وأنا عبراني لا أنظر في أدبار النساء. وأما أبو بكر في ولاية عمر فبالتجربة في الأعمال، والمواظبة على الصحبة وطولها، والاطلاع على ما شاهد منه من العلم والمنة وليس ذلك من طريق الفراسة والله أعلم»[١].

قال ابن القيم وهو يتحدث عن الفراسة: «وسببها نور يقذفه اللّه في قلب عبده يفرق به بين الحق والباطل والحالي والعاطل والصادق والكاذب وحقيقتها أنها خاطر يهجم على القلب ينفي ما يضاده يثب على القلب كوثوب الأسد على الفريسة لكن الفريسة فعيلة بمعنى مفعولة، وبناء الفراسة كبناء الولاية والإمارة والسياسة، وهذه الفراسة على حسب قوة الإيمان، فمن كان أقوى إيمانا فهو أحدُّ فراسةً»[٢].

وقال أيضًا: «وفراسة الصحابة رضي اللّه عنهم أصدق الفراسة، وأصل هذا النوع من الفراسة من الحياة والنور اللذين يهبهما اللّه تعالى لمن يشاء من عباده، فيحيا القلب بذلك ويستنير، فلا تكاد فراسته تخطئ، قال الله: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾[٣] كان ميتا بالكفر والجهل فأحياه اللّه بالإيمان والعلم، وجعل له بالقرآن والإيمان نورا يستضيء به في الناس على قصد السبيل، ويمشي به في الظلم واللّه أعلم»[٤].

وقال أيضًا: «وفراسة المتفرس تتعلق بثلاثة أشياء بعينه وأذنه وقلبه، فعينه للسيماء والعلامات، وأذنه للكلام، وتصريحِه وتعريضِه ومنطوقِه ومفهومِه وفحواه وإشاراتِه ولحنِه وإيمائِه ونحو ذلك، وقلبه للعبور والاستدلال من المنظور والمسموع إلى باطنه وخفيه، فيعبر إلى ما وراء ظاهره كعبور النقاد من ظاهر النقش والسكة إلى باطن النقد، والاطلاع عليه هل هو صحيح أو زغل، وكذلك عبور

---

(١) أحكام القرآن (٣/ ١٠٨٠-١٠٨١).

(٢) مدارج السالكين (٢/ ٤٨٤).

(٣) الأنعام: الآية (١٢٢).

(٤) مدارج السالكين (٢/ ٤٨٦).

المتفرس من ظاهر الهيئة والدل إلى باطن الروح والقلب، فنسبة نقده للأرواح من الأشباح كنسبة نقد الصيرفي، ينظر للجوهر من ظاهر السكة والنقد، وكذلك نقد أهل الحديث، فإنه يمر إسناد ظاهر كالشمس على متن مكذوب فيخرجه ناقدهم، كما يخرج الصيرفي الزغل من تحت الظاهر من الفضة، وكذلك فراسة التمييز بين الصادق والكاذب في أقواله وأفعاله وأحواله.

وللفراسة سببان: أحدهما جودة ذهن المتفرس، وحدة قلبه، وحسن فطنته، والثاني: ظهور العلامات والأدلة على المتفرس فيه، فإذا اجتمع السببان لم تكد تخطىء للعبد فراسة، وإذا انتفيا لم تكد تصح له فراسة، وإذا قوي أحدهما وضعف الآخر كانت فراسته بين بين»(١).

* * *

(١) مدارج السالكين (٢/ ٤٨٨-٤٨٩).

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٢٢﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال القاسمي: «هذه الآية كالتي قبلها، تخللت تضاعيف نظم القصة لمعنى بديع، وهو البدار إلى الإعلام بنتائج صبر يوسف، وثمرات مجاهداته، وعجائب صنع اللَّه تعالى في مراداته، إذ طوى له المنح في تلك المحن، وذخر له السيادة في تلك العبودية. ومعنى ﴿بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ﴾ أي: زمان اشتداد جسمه وقوته.

قال أبو عبيدة: العرب تقول: بلغ فلان أشده، إذا انتهى منتهاه في شبابه وقوته قبل أن يأخذ في النقصان»[1].

قال ابن كثير: «قوله: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ﴾ أي: يوسف عليه السلام ﴿أَشُدَّهُۥٓ﴾ أي: استكمل عقله وتم خلقه ﴿ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ﴾ يعني النبوة أنه حباه بها بين أولئك الأقوام ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ أي: أنه كان محسنا في عمله عاملا بطاعة اللَّه تعالى، وقد اختلف في مقدار المدة التي بلغ فيها أشده»[2].

قال ابن جرير: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن اللَّه أخبر أنه آتى يوسف لما بلغ أشده حكما وعلما و(الأشد) هو انتهاء قوته وشبابه، وجائز أن يكون آتاه ذلك وهو ابن ثماني عشرة سنة، وجائز أن يكون آتاه وهو ابن عشرين سنة، وجائز أن يكون آتاه وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، ولا دلالة له في كتاب اللَّه، ولا أثر عن الرسول ﷺ، ولا في إجماع الأمة، على أي ذلك كان. وإذا لم يكن ذلك موجودا من الوجه الذي ذكرت؛ فالصواب أن يقال فيه كما قال عز وجل، حتى تثبت حجة بصحة ما قيل في ذلك من الوجه الذي يجب التسليم له، فيسلم لها حينئذ.

---

(١) محاسن التأويل (٩/ ٢٠٩).

(٢) التفسير (٤/ ١٨).

وقوله: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾، يقول تعالى ذكره: أعطيناه حينئذ الفهم والعلم»[1].

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾؛ قال الشيخ محمد رضا: «أي: وكذلك شأننا وسنتنا في جزاء المتحلين بصفة الإحسان، الثابتين عليه بالأعمال، الذين لم يدنسوا فطرتهم ولم يدسوا أنفسهم بالإساءة في أعمالهم، نؤتيهم نصيبا من الحكم بالحق والعدل، والعلم الذي يزينه ويظهره القول الفصل، فيكون لكل محسن حظه من الحكم الصحيح والعلم النافع بقدر إحسانه، وبما يكون له من حسن التأثير في صفاء عقله، وجودة فهمه وفقهه، غير ما يستفيده بالكسب من غيره، لا يؤتى مثله المسيئون باتباع أهوائهم وطاعة شهواتهم، وقال ابن جرير الطبري: وهذا وإن كان مخرج ظاهره على كل محسن؛ فالمراد به محمد ﷺ يقول له ﷻ: كما فعلت هذا بيوسف من بعد ما لقي من إخوته ما لقي . . ؛ فكذلك أفعل بك فأنجيك من مشركي قومك الذين يقصدونك بالعداوة وأمكن لك في الأرض الخ. وأقول: لا شك أن هذه السنة في جزاء المحسنين عامة، ولكل محسن منها بقدر إحسانه، وإذن يكون حظ محمد ﷺ أعظم من حظ يوسف وغيره من الأنبياء ﷺ»[2].

قال ابن العربي: «الحكم هو العمل بالعلم. . والعمل بمقتضى العلم إنما يكون بعد البلوغ، وما قبله في زمان عدم التكليف؛ فإنه فيه معدوم إلا في النادر. قال اللَّه تعالى في يحيى بن زكريا: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾.

قال المفسرون: قيل له، وهو صغير: ألا تذهب تلعب؟ قال: ما خلقت للعب. وهذا إنما بين اللَّه به حال يوسف من حين بلوغه بأنه آتاه العلم، وآتاه العمل بما علم؛ وخبر اللَّه صادق، ووصفه صحيح، وكلامه حق، فقد عمل يوسف بما علمه اللَّه من تحريم الزنا وتحريم خيانة السيد أو الجار أو الأجنبي في أهله، فما تعرض لامرأة العزيز، ولا أناب إلى المراودة بحكم المراودة؛ بل أدبر عنها، وفر منها؛ حكمة خص بها، وعملا بمقتضى ما علمه اللَّه سبحانه؛ هذا يطمس وجوه الجهلة من الناس والغفلة من العلماء في نسبتهم إليه ما لا يليق به، وأقل ما اقتحموا من ذلك أنه

(١) جامع البيان (١٦/ ٢٣).
(٢) تفسير المنار (١٢/ ٢٧٤).

هتك السراويل، وهم بالفتك فيما رأوه من تأويل، وحاش لله ما علمت عليه من سوء، بل أبرئه مما برأه اللَّه منه، فقال: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًاۚ﴾، ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا﴾ الذين استخلصناهم. والفحشاء هي الزنا والسوء هو المراودة والمغازلة، فما ألم بشيء ولا أتى بفاحشة»[1].

* * *

(١) أحكام القرآن (٣/ ١٠٨٢).

قوله تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾

★ غريب الآية:

وراودته: المراودة المطالبة برفق، من راد يرود إذا ذهب وجاء. وهي مفاعلة من جانب؛ كداويت المريض.

هيت لك: هَيَّتَ به: صاح ودعاه. وهيت لك مثلثة الآخر، وقد يكسر أوله؛ أي: هلم. وهي اسم فعل بمعنى أسرع.

معاذ الله: أي أعوذ الله؛ من عاذ به يعوذ عوذا وعياذا ومعاذا: لجأ إليه واعتصم به.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يخبر تعالى عن امرأة العزيز التي كان يوسف في بيتها بمصر، وقد أوصاها زوجها به وبإكرامه، فراودته عن نفسه، أي حاولته على نفسه ودعته إليها، وذلك أنها أحبته حبا شديدا لجماله وحسنه وبهائه، فحملها ذلك على أن تجملت له وغلقت عليه الأبواب ودعته إلى نفسها، ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ﴾ فامتنع من ذلك أشد الامتناع، ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَ ۖ﴾ وكانوا يطلقون الرب على السيد الكبير؛ أي: أن بعلك ﴿رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَ ۖ﴾ أي: منزلي، وأحسن إلي فلا أقابله بالفاحشة في أهله ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾؛ قال ذلك مجاهد والسدي ومحمد بن إسحق وغيرهم»[1].

قال الشوكاني: «المعنى: أنها فعلت في مراودتها له فعل المخادع.. وهي مفاعلة، وأصلها أن تكون من الجانبين، فجعل السبب هنا في أحد الجانبين قائما

(١) التفسير (٤/ ١٨).

مقام المسبب، فكأن يوسف عليه السلام لما كان ما أعطيه من كمال الخلق والزيادة في الحسن سببا لمراودة امرأة العزيز له مراود. وإنما قال: ﴿ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا﴾ ولم يقل: امرأة العزيز، وزليخا قصدا إلى زيادة التقرير مع استهجان التصريح باسم المرأة والمحافظة على الستر عليها: ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ﴾ قيل: في هذه الصيغة ما يدل على التكثير، فيقال: غلق الأبواب، ولا يقال: غلق الباب، بل يقال: أغلق الباب»[1].

قوله: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾

قال أبو حيان: «وما أحسن هذا التنصل من الوقوع في السوء، استعاذ أولا بالله الذي بيده العصمة وملكوت كل شيء، ثم نبه على أن إحسان الله، أو إحسان العزيز الذي سبق منه؛ لا يناسب أن يجازى بالإساءة، ثم نفى الفلاح عن الظالمين، وهو الظفر والفوز بالبغية، فلا يناسب أن أكون ظالما أضع الشيء غير موضعه، وأتعدى ما حده الله تعالى لي»[2].

قال أبو السعود: «أي: أعوذ بالله معاذا مما تدعينني إليه، وهذا اجتناب منه على أتم الوجوه، وإشارة إلى التعليل بأنه منكر هائل؛ يجب أن يعاذ بالله تعالى للخلاص منه، وما ذاك إلا لأنه عليه السلام قد شاهده بما أراه الله تعالى من البرهان النير، على ما هو عليه في حد ذاته من غاية القبح ونهاية السوء»[3].

وقال محمد العدوي: «ليس المراد أن يوسف عليه السلام وقع له ذلك الحادث بعد أن آتاه الله حكما وعلما كما هو الظاهر من ذكره بعده؛ لأن القرآن كما قلنا غير مرة ليس من أغراضه أن يذكر الحوادث مرتبة على حسب أزمنتها، كما هو الشأن في كتب التاريخ؛ بل مهمة القرآن مهمة هداية وعبرة، فقد يذكر القصة ويبدأ فيها بالحادثة قبل حادثة تسبقها في الزمن لأنها أهم منها، ولحكمة قضت بذلك، والله تعالى أراد أن يرينا قصة يوسف في صغره وعطف أبيه عليه، والمنام الذي رآه وقصه على أبيه، وتحذير أبيه له أن يقصه على إخوته فيكيدوا له كيدا.

ثم انتقل إلى حسد إخوته له على هذه المحبة، وتدبير مكيدة له.

---

(١) فتح القدير (٣/ ٢٣-٢٤). (٢) البحر المحيط (٥/ ٢٩٤).

(٣) تفسير أبي السعود (٤/ ٢٦٥).

ثم عقب ذلك بمطالبة أبيهم أن يتركه ليشترك معهم في السباق والتمتع، وخوف أبيه عليه، ثم حادث إلقائه في البئر والتقاط بعض السيارة له، ثم بيعه إلى رجل من مصر، ثم تمكينه في الأرض وإعطائه حكما وعلما، ثم تعليل ذلك بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: كما جزى يوسف على إحسانه يجزى كل محسن.

ثم شرح لنا حادثًا من حوادث إحسان يوسف الذي جازاه اللَّه عليه فقال: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ﴾ الخ الآيات فقصة المراودة، وسجن يوسف، وظهور براءته؛ كل ذلك من إحسانه الذي كافأه عليه بالحكم والعلم؛ وكل ذلك كان قبل أن يسلطه اللَّه على مصر، ويختاره الملك على خزائن أرضها. والذي جرأ امرأة العزيز على مراودته؛ أنه كان خادما عندها في البيت، فطمعت فيه كما يطمع النساء المخدومات في خدمهن، بل كانت تظن أنها ستجاب إلى ما طلبت، وهي صاحبة الفضل عليه؛ شأن سائر النساء اللائي يكن مثلها في الغنى والجاه والسلطان الذي سرى إليها من زوجها العزيز، ولكن يوسف ﷺ، أراها أنه لم يكن خادما عاديا، بل هو فتى ذو خطر كبير، وشأن عظيم، وأن اللَّه تعالى سيختاره لخدمته قبل أن تصطفيه امرأة العزيز لقضاء لبانتها، وأنه أجل وأعظم من أن يكون خادما لامرأة شهوانية ترضى عنه إذا هو خالف ربه ومولاه، وتغضب عليه إذا هو اعتصم وحافظ على أخلاقه ودينه.. ولعل في عفة يوسف ﷺ، وقوله في شأن العزيز ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾؛ عبرة لقوم انحطت نفوسهم، وتدنست أخلاقهم، وفقدوا معنى كرم الطبع وشرف النفس، فلم يتعففوا أن يفسقوا بامرأة جار أو قريب أو صاحب فضل، لعل هناك عبرة لهؤلاء الذين أغضبوا ربهم، وقطعوا حقوق جيرانهم وأقربائهم، ونسوا قول الرسول ﷺ: **«ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه»**[1] كما نسوا حق القرابة، وأن الزنا بامرأة الجار عذابه مضاعف، وكذلك الزنا بامرأة القريب فاحشة وقطيعة رحم، لأن الشأن في الزنا أن يورث عداوة في القلوب، ويترك أثرا غير محمود، فإذا قال نبي اللَّه يوسف: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ فليقل الرجل إذا سولت له نفسه أن يفسق بحليلة جاره (إنه جاري أحسن جواري) وإذا سولت له نفسه

(١) أخرجه: أحمد (٦/ ٥٢) والبخاري (١٠/ ٥٤٠/ ٦٠١٤) ومسلم (٤/ ٢٠٢٥/ ٢٦٢٤) وأبو داود (٥/ ٣٥٦-٣٥٧/ ٥١٥١) والترمذي (٤/ ٢٩٣/ ١٩٤٢) وابن ماجه (٢/ ١٢١١/ ٣٦٧٣) من حديث عائشة ﵂.

أن يفجر بامرأة قريبه يقول: (إنه قريبي قد وصل رحمي) وكذلك إذا زينت له نفسه أن يواقع امرأة صاحبه يقول: (إنه صاحبي أحسن الصحبة).

وجملة القول: أن نبي اللَّه يوسف كان مثالا صالحا في الوفاء، ورعاية حق المحسنين، ومقابلة الإحسان بإحسان مثله، فليكن لنا عبرة في ذلك الرسول، واتعاظ بسيرته وأخلاقه»[1].

وقال الشيخ محمد رضا: «﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ هذه الجملة معطوفة على جملة وصية العزيز لامرأته بإكرام مثواه، وما عللها به من حسن الرجاء فيه، وما بينه اللَّه تعالى من عنايته به، وتمهيد سبيل الكمال له بتمكينه في الأرض، يقول: إن هذه المرأة التي هو في بيتها نظرت إليه بغير العين التي نظر إليه بها زوجها، وأرادت منه غير ما أراده هو، وما أراده اللَّه من فوقهما، هو أراد أن يكون قهرمانا أو ولدا لهما، واللَّه أراد أن يمكن له في الأرض ويجعله سيد البلاد كلها، وهي أرادت أن يكون عشيقا لها، وراودته عن نفسه؛ أي: خادعته عنها وراوغته لأجل أن يرود أو يريد منها ما تريد هي منه؛ مخالفا لإرادته هو وإرادة ربه، واللَّه غالب على أمره.. وقال في الكشاف: (المراودة مفاعلة من راد يرود إذا جاء وذهب، كأن المعنى خادعته عن نفسه أي: فعلت ما يفعل المخادع عن الشيء الذي لا يريد أن يخرجه من يده، يحتال أن يغلبه عليه ويأخذ منه، وهي عبارة عن التحيل لمواقعته إياها اهـ)[2] ولو رأت منه أدنى ميل إليها وهي تخلو به في مخادع بيتها؛ لما احتاجت إلى مخادعته بالمراودة، ولما خابت في التعريض له بالمغازلة والمهازلة، تنزلت إلى المكاشفة والمصارحة، إذ كان كل ما سبقه منها وحدها لم يشاركها فيه، ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ﴾ أي: أحكمت إغلاق باب المخدع الذي كانا فيه، وباب البهو الذي يكون أمام الحجرات والغرف في بيوت الكبراء، وباب الدار الخارجي، وقد يكون في أمثال هذه القصور أبواب أخرى متداخلة ﴿وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ﴾ أي: هلم أقبل وبادر، وزيادة (لك) بيان للمخاطب كما يقولون هلم لك وسقيا لك. واقتصر على هذا في التنزيل، وهو منتهى النزاهة في التعبير، واللَّه أعلم بما زادته من

(١) دعوة الرسل (ص: ١٠١-١٠٣).
(٢) الكشاف (٢/ ٣١٠).

الإغراء والتهييج الذي تقتضيه الحال. ونقل رواة الإسرائيليات عنها وكذا عنه من الوقاحة ما يعلم بالضرورة أنه كذب، فإن مثله لا يعلم إلا من اللَّه تعالى، أو بالرواية الصحيحة عنها أو عنه، ولا يستطيع أن يدعي هذا أحد كما يأتي قريبا. وهيت اسم فعل قرئ بفتح الهاء وكسرها مع فتح التاء وبضمها كحيث، وروي أنها لغة عرب حوران، وكان سبب اختيارها أنها أخصر ما يؤدي المراد بأكمل النزاهة اللائقة بالذكر الحكيم، وهو ما لم يعقله أولئك الرواة لما يخالفه ويناقضه ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ أي: أعوذ باللَّه معاذا، وأتحصن به، فهو يعيذني أن أكون من الجاهلين الفاسقين، كما قال بعد أن استعانت عليه بكيد صواحبها من النسوة ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾.

وجملة: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ الخ بيان مستأنف لجواب يوسف مبني على سؤال تقديره: وماذا قال بعد تسفل المرأة وهي سيدته إلى هذه الدركة من التذلل له؟ وهو كما قالت مريم ابنة عمران للملك الذي تمثل لها بشرا سويا ﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾[1] وعلل هذه الاستعاذة بقوله: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ أي: إنه تعالى ولي أمري كله، أحسن مقامي عندكم وسخركم لي بما وفقني له من الأمانة والصيانة، فهو يعيذني ويعصمني من عصيانه وخيانتكم، ويحتمل أنه أراد بربه مالكه العزيز في الصورة، وإن كان حرا مظلوما في الحقيقة، كما يقال: رب الدار، وكان من عرفهم إطلاقه على الملوك والعظماء، كما يأتي في قوله ﷺ لساقي الملك في السجن ﴿ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ ولكن اللَّه عاقبه أنه لم يذكر حينئذ ربه، فكان نسيانه له سببا لطول مكثه في السجن كما يأتي، ثم إنه قال لرسول الملك، إذ جاءه يطلبه لأجله ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ وعلى هذا القول، وقد جرى عليه الجمهور، يكون الضمير في (أنه) ما يسمونه ضمير الشأن والقصة؛ أي: إن الشأن الذي أنا فيه هو أن سيدي المالك لرقبتي قد أحسن معاملتي في إقامتي عندكم، وأوصاك بإكرام مثواي، فلن أجزيه على إحسانه بشر الإساءة، وهو خيانته في أهله، وهذا التفسير تعليل لرد مراودتها بعد الاستعاذة باللَّه منها، لا تعليل للاستعاذة نفسها كالأول، والفرق بينهما دقيق

(١) مريم: الآية (١٨).

لما بينهما من العموم في الأول والخصوص في الثاني . ثم علل امتناعه بما هو خاص بنزاهة نفسه فقال : ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ لأنفسهم وللناس ؛ كالخيانة لهم، والتعدي على أعراضهم وشرفهم، لا يفلحون في الدنيا ببلوغ مقام الإمامة الصالحة والرياسة العادلة، ولا في الآخرة بجوار اللَّه ونعيمه ورضوانه . . وفي جملة الجواب من الاعتصام والاعتزاز بالإيمان باللَّه والأمانة للسيد صاحب الدار والتعريض بخيانة امرأته له المتضمن لاحتقارها ؛ ما أضرم في صدرها نار الغيظ والانتقام، مضاعفة لنار الغرام»[1] .

قال ابن القيم: «فأخبر عن عشق امرأة العزيز ليوسف وما راودته وكادته به، وأخبر عن الحال التي صار إليها يوسف بصبره وعفته وتقواه، مع أن الذي ابتلي به أمر لا يصبر عليه إلا من صبره اللَّه، فإن مواقعة الفعل بحسب قوة الداعي وزوال المانع، وكان الداعي ها هنا في غاية القوة، وذلك لوجوه :

أحدها: ما ركبه اللَّه سبحانه في طبع الرجل من ميله إلى المرأة، كما يميل العطشان إلى الماء، والجائع إلى الطعام، حتى إن كثيرًا من الناس يصبر عن الطعام والشراب ولا يصبر عن النساء، وهذا لا يذم إذا صادف حلا ، بل يحمد . .

الثاني: أن يوسف ﷺ كان شابا ، وشهوة الشاب وحدته أقوى .

الثالث: أنه كان عزبا ليس له زوجة ولا سرية تكسر ثورة الشهوة .

الرابع: أنه كان في بلاد غربة يتأتى للغريب فيها من قضاء الوطر ما لا يتأتى له في وطنه، وبين أهله ومعارفه .

الخامس: أن المرأة كانت ذات منصب وجمال، بحيث إن كل واحد من هذين الأمرين يدعو إلى مواقعتها .

السادس: أنها غير ممتنعة ولا أبية ؛ فإن كثيرًا من الناس يزيل رغبته في المرأة إباؤها وامتناعها ؛ لما يجد في نفسه من ذل الخضوع والسؤال لها ، وكثير من الناس يزيده الإباء والامتناع إرادة وحبا ، كما قال الشاعر :

وزادني كلفا في الحب أن منعت ... أحب شيء إلى الإنسان ما منعا

(١) تفسير المنار (١٢/ ٢٧٥-٢٧٧).

فطباع النفس مختلفة؛ فمنهم من يتضاعف حبه عند بذل المرأة ورغبتها ويضمحل عند إبائها وامتناعها .

وأخبرني بعض القضاة أن إرادته وشهوته تضمحل عند امتناع امرأته أو سريته وإبائها ، بحيث لا يعاودها ، ومنهم من يتضاعف حبه وإرادته بالمنع فيشتد شوقه كلما منع ، ويحصل له من اللذة بالظفر نظير ما يحصل له من اللذة بالظفر بالضد بعد امتناعه ونفاره ، واللذة بإدراك المسألة بعد استصعابها وشدة الحرص على إدراكها .

السابع : أنها طلبت وأرادت وراودت وبذلت الجهد؛ فكفته مؤنة الطلب وذل الرغبة إليها ، بل كانت هي الراغبة الذليلة ، وهو العزيز المرغوب إليه .

الثامن : أنه في دارها وتحت سلطانها وقهرها؛ بحيث يخشى إن لم يطاوعها من أذاها له؛ فاجتمع داعي الرغبة والرهبة .

التاسع : أنه لا يخشى أن تنم عليه هي ولا أحد من جهتها ، فإنها هي المطالبة الراغبة ، وقد غلقت الأبواب وغيبت الرقباء .

العاشر : أنه كان في الظاهر مملوكا لها في الدار ، بحيث يدخل ويخرج ويحضر معها ولا ينكر عليه ، وكان الأنس سابقا على الطلب ، وهو من أقوى الدواعي ، كما قيل لامرأة شريفة من أشراف العرب : ما حملك على الزنى؟ قالت : (قرب الوساد وطول السواد) ، تعني قرب وساد الرجل من وسادتي ، وطول السواد بيننا .

الحادي عشر : أنها استعانت عليه بأئمة المكر والاحتيال؛ فأرته إياهن وشكت حالها إليهن لتستعين بهن عليه ، فاستعان هو بالله عليهن فقال : ﴿وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ .

الثاني عشر : أنها توعدته بالسجن والصغار ، وهذا نوع إكراه؛ إذ هو تهديد من يغلب على الظن ما هدد به ، فيجتمع داعي الشهوة وداعي السلامة من ضيق السجن والصغار .

الثالث عشر : أن الزوج لم يظهر من الغيرة والنخوة ما يفرق به بينهما ، ويبعد كلا منهما عن صاحبه ، بل كان غاية ما قابلها به أن قال ليوسف : ﴿أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ﴾ ، وللمرأة : ﴿وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ﴾ ، وشدة الغيرة للرجل من أقوى الموانع ، وهذا لم يظهر منه غيرة .

ومع هذه الدواعي كلها؛ فآثر مرضاة اللَّه وخوفه، وحمله حبه لله على أن اختار السجن على الزنى ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾، وعلم أنه لا يطيق صرف ذلك عن نفسه، وأن ربه تعالى إن لم يعصمه ويصرف عنه كيدهن صبا إليهن بطبعه، وكان من الجاهلين، وهذا من كمال معرفته بربه وبنفسه.

وفي هذه القصة من العبر والفوائد والحكم ما يزيد على ألف فائدة»[١].

وقال: «ومحبة الصور المحرمة وعشقها من موجبات الشرك، وكلما كان العبد أقرب إلى الشرك وأبعد من الإخلاص كانت محبته بعشق الصور أشد، وكلما كان أكثر إخلاصا وأشد توحيدا، كان أبعد من عشق الصور، ولهذا أصاب امرأة العزيز ما أصابها من العشق، لشركها. ونجا منه يوسف الصديق بإخلاصه، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ فالسوء: العشق، والفحشاء: الزنا، فالمخلص قد خلص حبه لله، فخلصه اللَّه من فتنة عشق الصور. والمشرك قلبه متعلق بغير اللَّه، لم يخلص توحيده وحبه لله»[٢].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان فضيلة العفاف وأن يوسف عليه السلام القدوة في ذلك

* عن أبي وائل عن عبداللَّه بن مسعود رضي الله عنه قال: ﴿هَيْتَ لَكَۚ﴾ قال: «وإنما نقرؤها كما علمناها»[٣].

وفي لفظ: قال ابن مسعود رضي الله عنه: «قد سمعت القرأة، فسمعتهم متقاربين: فاقرأوا كما علمتم، وإياكم والتنطع والاختلاف، فإنما هو كقول أحدكم: (هلم)، و(تعال)». ثم قرأ عبدالله: ﴿هَيْتَ لَكَۚ﴾ فقلت: يا أبا عبدالرحمن، إن ناسا يقرؤونها: (هَيْتُ لك)، فقال عبدالله: «إني أقرؤها كما علمت، أحب إلي»[٤].

* عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**سبعة يظلهم اللَّه في ظله يوم لا ظل**

---

(١) الداء والدواء (ص: ٣٥٠-٣٥٣).

(٢) إغاثة اللهفان (٢/ ١٩٧-١٩٨).

(٣) أخرجه: البخاري (٨/ ٤٦٣/ ٤٦٩٢) وأبو داود (٤/ ٢٩٥-٢٩٦/ ٤٠٠٤ و٤٠٠٥).

(٤) ابن جرير (١٦/ ٣٠/ ١٨٩٩٨).

إلا ظله: الإمام العادل، وشاب نشأ في عبادة ربه، ورجل قلبه معلق في المساجد، ورجلان تحابا في اللَّه اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل طلبته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف اللَّه، ورجل تصدق أخفى حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر اللَّه خاليا ففاضت عيناه»[١].

★ **غريب الحديث:**

الإمام العادل: «والمراد به صاحب الولاية العظمى، ويلتحق به كل من ولي شيئًا من أمور المسلمين فعدل فيه».

معلق في المساجد: «ظاهره أنه من التعليق، كأنه شبهه بالشيء المعلق في المسجد كالقنديل مثلا، إشارة إلى طول الملازمة بقلبه وإن كان جسده خارجا عنه.

ويحتمل أن يكون من العلاقة وهي شدة الحب».

مَنصِب: أي مقام كريم، يقال: لفلان منصب أي: علوّ ورفعة.

وجمال: أي حسن وزينة وبهاء.

★ **فوائد الحديثين:**

قال النووي: «وخص ذات المنصب والجمال لكثرة الرغبة فيها وعسر حصولها، وهي جامعة للمنصب والجمال؛ لا سيما وهي داعية إلى نفسها طالبة لذلك، قد أغنت عن مشاق التوصل إلى مراودة ونحوها، فالصبر عنها لخوف اللَّه تعالى، وقد دعت إلى نفسها مع جمعها المنصب والجمال؛ من أكمل المراتب وأعظم الطاعات، فرتب اللَّه تعالى عليه أن يظله في ظله»[٢].

قال القرطبي: «وقول المدعو في مثل هذا: إني أخاف اللَّه، وامتناعه لذلك؛ دليل على عظيم معرفته باللَّه تعالى، وشدة خوفه من عقابه، ومتين تقواه وحيائه من اللَّه تعالى، وهذا هو المقام اليوسفي»[٣].

* * *

---

(١) رواه: أحمد (٢/ ٤٣٩) والبخاري (٢/ ١٨٢/ ٦٦٠) ومسلم (٢/ ٧١٥/ ١٠٣١) والترمذي (٤/ ٥١٦/ ٢٣٩١) والنسائي (٨/ ٦١٣-٦١٤/ ٥٣٩٥).

(٢) شرح مسلم (٧/ ١٠٩).

(٣) المفهم (٣/ ٧٦).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾

★ **غريب الآية:**

الهم: يكون بمعنى القصد والإرادة، ويكون فوق الإرادة ودون العزم؛ إذا أريد به اجتماع النفس على الأمر والإزماع عليه وبالعزم: القصد إلى إمضاءه فهو أول العزيمة.

البرهان: الحجة.

السوء: القبيح.

الفحشاء: القبيح المتناهي في القبح.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «ظاهر هذه الآية الكريمة قد يفهم منه أن يوسف عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام؛ هم بأن يفعل مع تلك المرأة مثل ما همت هي به منه؛ ولكن القرآن العظيم بين براءته عليه الصلاة والسلام من الوقوع فيما لا ينبغي، حيث بين شهادة كل من له تعلق بالمسألة ببراءته، وشهادة اللّٰه له بذلك واعتراف إبليس به.

أما الذين لهم تعلق بتلك الواقعة فهم: يوسف والمرأة وزوجها والنسوة والشهود.

أما جزم يوسف بأنه بريء من تلك المعصية، فذكره تعالى في قوله: ﴿هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ﴾ وقوله: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ﴾ الآية.

وأما اعتراف المرأة بذلك ففي قولها للنسوة: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ﴾ وقولها: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾.

وأما اعتراف زوج المرأة ففي قوله: ﴿قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾.

وأما اعتراف الشهود بذلك ففي قوله: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ الآية.

وأما شهادة اللَّه جل وعلا ببراءته ففي قوله: ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾.

قال الفخر الرازي في تفسيره: قد شهد اللَّه تعالى في هذه الآية الكريمة على طهارته أربع مرات:

أولها: ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ﴾ واللام للتأكيد والمبالغة.

والثاني: قوله: ﴿وَٱلْفَحْشَآءَ﴾ أي: وكذلك لنصرف عنه الفحشاء.

والثالث: قوله: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا﴾ مع أنه تعالى قال: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾[١].

والرابع: قوله: ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ وفيه قراءتان: قراءة باسم الفاعل وأخرى باسم المفعول. فوروده باسم الفاعل يدل على كونه آتيا بالطاعات والقربات مع صفة الإخلاص. ووروده باسم المفعول يدل على أن اللَّه تعالى استخلصه لنفسه، واصطفاه لحضرته.

وعلى كلا الوجهين: فإنه من أدل الألفاظ على كونه منزها عما أضافوه إليه. اهـ من تفسير الرازي.

ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

وأما إقرار إبليس بطهارة يوسف ونزاهته ففي قوله تعالى: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[٢] فأقر بأنه لا يمكنه إغواء المخلصين، ولا شك أن يوسف من المخلصين، كما صرح تعالى به في قوله: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ فظهرت دلالة القرآن من جهات متعددة على براءته مما لا ينبغي»[٣].

وقال القاسمي: «فالآية حينئذ ناطقة بأنه لم يهم أصلا. وقيل: جواب (لولا) لغشيها ونحوه. فمعنى (الهم) حينئذ ما قاله الإمام الرازي: من أنه خطور الشيء

---

(١) الفرقان: الآية (٦٣).
(٢) ص: الآيتان (٨٢ و٨٣).
(٣) أضواء البيان (٣/ ٥٦-٥٧).

بالبال، أو ميل الطبع، كالصائم في الصيف، يرى الماء البارد، فتحمله نفسه على الميل إليه، وطلب شربه، ولكن يمنعه دينه عنه. وكالمرأة الفائقة حسنا وجمالا، تتهيأ للشاب النامي القوى، فتقع بين الشهوة والعفة، وبين النفس والعقل، مجاذبة ومنازعة. (فالهم) هنا عبارة عن جواذب الطبيعة، ورؤية البرهان جواذب الحكمة. وهذا لا يدل على حصول الذنب، بل كلما كانت هذه الحال أشد، كانت القوة على لوازم العبودية أكمل. انتهى.

وكذا قال أبو السعود: إن همه بها بمعنى ميله إليها، بمقتضى الطبيعة البشرية، وشهوة الشباب وقرمه، ميلا جبليا، لا يكاد يدخل تحت التكليف، لا أنه قصدها قصدا اختياريا. ألا يرى إلى ما سبق من استعصامه المنبئ عن كمال كراهيته له، ونفرته عنه، وحكمه بعدم إفلاح الظالمين؟ وهل هو إلا تسجيل باستحالة صدور الهم منه عليه السلام تسجيلا محكما؟ وإنما عبر عنه بالهم، لمجرد وقوعه في صحبة همها في الذكر، بطريق المشاكلة، لا لشبهه به كما قيل. ولقد أشير إلى تباينهما، حيث لم يلزا في قرن واحد من التعبير، بأن قيل: ولقد هما بالمخالطة، أو هم كل منهما بالآخر. وصدر الأول بما يقرر وجوده من التوكيد القسمي، وعقب الثاني بما يعفو أثره من قوله عز وجل: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾، أي حجته الباهرة، الدالة على كمال قبح الزنى، وسوء سبيله. والمراد برؤيته لها كمال إيقانه بها، ومشاهدته لها مشاهدة واصلة إلى مرتبة عين اليقين. وكأنه عليه السلام قد شاهد الزنى بموجب ذلك البرهان النير، على ما هو عليه في حد ذاته أقبح ما يكون، وأوجب ما يجب أن يحذر منه، ولذلك فعل ما فعل من الاستعصام، والحكم بعدم إفلاح من يرتكبه.

وجواب (لولا) محذوف، يدل عليه الكلام؛ أي: لولا مشاهدة برهان ربه في شأن الزنى لجرى على موجب ميله الجبلي، ولكن حيث كان مشاهدا له من قبل؛ استمر على ما هو عليه من قضية البرهان. وفائدة هذه الشرطية بيان أن امتناعه عليه السلام، لم يكن لعدم مساعدة من جهة الطبيعة، بل لمحض العفة والنزاهة، مع وفور الدواعي الداخلية، وترتيب المقدمات الخارجية، الموجبة لظهور الأحكام الطبيعية. انتهى.

فاتضح أن لا شبهة فيها على عصمة يوسف عليه السلام، فإن الأنبياء ليسوا بمعصومين من حديث النفس، وخواطر الشهوة الجبلية، ولكنهم معصومون من طاعتها،

والانقياد إليها. ولو لم توجد عندهم دواع جبلية؛ لكانوا إما ملائكة أو عالما آخر. ولما كانوا مأجورين على ترك المناهي، لأنهم يكونون مقهورين على تركها طبعا. والعنين لا يؤجر ويثاب على ترك الزنى، لأن الأجر لا يكون إلا على عمل، والترك بغير داعية ليس عملا، وأما الترك مع الداعية، فهو كف النفس عما تتشوف إليه، فهو عمل نفسي.

وحقيقة عصمة الأنبياء هي نزاهتهم، وبعدهم عن ارتكاب الفواحش والمنكرات التي بعثوا لتزكية الناس منها، لئلا يكونوا قدوة سيئة، مفسدين للأخلاق والآداب، وحجة للسفهاء على انتهاك حرمات الشرائع، وليس معناها أنهم آلهة منزهون عن جميع ما يقتضيه الطبع البشري.

هذا، وقد ألصق هنا بعض المفسرين الولعين بسرد الروايات، ما تلقفوه من أهل الكتاب، ومن المتصولحين، من تلك الأقاصيص المختلقة على يوسف ﷺ في همه، التي أنزه تأليفي عن نقلها، بردها، وكلها -كما قال العلامة أبو السعود- خرافات وأباطيل، تمجها الآذان، وتردها العقول والأذهان، ويل لمن لاكها ولفقها، أو سمعها وصدقها»[1].

قال الشيخ محمد رضا: «﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ﴾ أي: وتاللّه لقد همت المرأة بالبطش به لعصيانه أمرها، وهي في نظرها سيدته وهو عبدها، وقد أذلت نفسها له بدعوته الصريحة إلى نفسها بعد الاحتيال عليه بمراودته عن نفسه، ومن شأن المرأة أن تكون مطلوبة لا طالبة، ومراوَدة عن نفسها لا مراوِدة، حتى إن حماة الأنوف من كبراء الرجال، ليطئطؤن الرءوس لفقيرات الحسان ربات الجمال، ويبذلون لهن ما يعتزون به من الجاه والمال، بل إن الملوك ليذلون أنفسهم لمملوكاتهم وأزواجهم، ولا يأبون أن يسموا أنفسهم عبيدا لهن.. ولكن هذا العبد العبراني الخارق للطبيعة البشرية في حسنه وجماله، وفي جلاله وكماله، وفي إبائه وتألهه؛ قد عكس القضية، وخرق نظام الطبيعة والعوائد بين الجنسين، فأخرج المرأة من طبع أنوثتها في إدلالها وتمنعها، وهبط بالسيدة المالكة من عزة سيادتها وسلطانها، ودهور الأميرة (الارستقراطية) من عرش عظمتها وتكبرها، وأذلها لعبدها وخادمها، بما

---

(١) محاسن التأويل (٩/ ٢١٣-٢١٤).

هونه عليها: قرب الوساد وطول السواد والخلوة من وراء الأستار والأبواب، حتى إنها لتراوده عن نفسه في مخدع دارها، فيصد عنها علوا ونفارا، ثم تصارحه بالدعوة إلى نفسها فيزداد عتوا واستكبارا، معتزا عليها بالديانة والأمانة، والترفع عن الخيانة، وحفظ شرف سيده، وهو سيدها وزوجها وحقه عليها أعظم، إن هذا الاحتقار لا يطاق، ولا علاج لهذا الفاتن المتمرد إلا تذليله بالانتقام، هذا ما ثار في نفس هذه المرأة المفتونة بطبيعة الحال (كما يقال) وشرعت في تنفيذه أو كادت، بأن همت بالبطش به في ثورة غضبها، وهو انتقام معهود من مثلها وممن دونها في كل زمان ومكان، وأكثر بما ترويه لنا منه قضايا المحاكم وصحف الأخبار، وكاد يرد صيالها ويدفعه بمثله وهو قوله تعالى ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ ولكنه رأى من برهان ربه في سريرة نفسه، ما هو مصداق قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ وهو إما النبوة التي تلي الحكم والعلم اللذين آتاه اللّٰه إياهما بعد بلوغ الأشد، وشاهده قوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم بُرْهَـٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾[1] وإما معجزتها كما قال تعالى لموسى في آيتي العصا واليد ﴿فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ﴾[2] وإما مقدمتها من مقام الصديقية العليا وهي مراقبته لله تعالى ورؤية ربه متجليا له ناظرا إليه، وفاقا لما قاله أخوه محمد خاتم النبيين في تفسير الإحسان: «**أن تعبد اللّٰه كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[3] فيوسف قد رأى هذا البرهان في نفسه، لا صورة أبيه متمثلة في سقف الدار، ولا صورة سيده العزيز في الجدار، ولا صورة ملك يعظه بآيات من القرآن، وأمثال هذه الصور التي رسمتها أخيلة بعض رواة التفسير المأثور بما لا يدل عليه دليل من اللغة ولا العقل ولا الطبع ولا الشرع، ولم يرو في خبر مرفوع إلى النبي ﷺ في الصحاح ولا فيما دونها، وما قلناه هو المتبادر من اللغة ووقائع القصة، ومقتضى ما وصف اللّٰه به يوسف في هذا السياق وغيره من السورة، ولا سيما قوله في أوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ وما فسر النبي ﷺ به الإحسان، وقوله في تعليله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾ أي: كذلك فعلنا وتصرفنا في أمره لنصرف عنه دواعي ما أرادته به أخيرا من السوء،

(١) النساء: الآية (١٧٤). (٢) القصص: الآية (٣٢).

(٣) أخرجه: أحمد (١/ ٢٧) ومسلم (١/ ٣٦/ ١) وأبو داود (٥/ ٦٩/ ٤٦٨٥) والترمذي (٥/ ٨/ ٢٦١٠) والنسائي (٨/ ٤٧٢/ ٥٠٠٥) وابن ماجه (١/ ٢٤/ ٦٣) من حديث عمر رضي الله عنه.

وما راودته عليه قبله من الفحشاء، بحصانة أو عصمة منا تحول دون تأثير دواعيهما الطبيعية في نفسه، فلا يصيبه شيء يخرجه من جماعة المحسنين الذين شهدنا له بأنه منهم، إلى جماعة الظالمين الذين ذمهم وشهد هو في رده عليها بأنهم لا يفلحون، وشهادته حق ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ بفتح اللام وهم آباؤه الذين أخلصهم ربهم وصفاهم من الشوائب، وقال فيهم: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾[1] وقد قلنا في أول القصة، إن يوسف هو الحلقة الرابعة في سلسلتهم الذهبية، وإن أباه بشره بذلك بعد أن قص عليه رؤياه، إذ قال له: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ فالاجتباء هو الاصطفاء، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر (المخلصين) بكسر اللام. والقراءتان متفقتان متلازمتان فهم مخلصون لله في إيمانهم به وحبهم وعبادتهم له، ومخلصون عنده بالولاية والنبوة والعناية والوقاية من كل ما يبعدهم عنه ويسخطه عليهم، والجملة تعليل لصرف الله السوء والفحشاء عنه، ولم يقل لنصرفه عن السوء والفحشاء؛ فإنه لم يعزم عليهما، بل لم يتوجه إليهما فيصرف عنهما، وهمه لأول وهلة بدفع صيالها هم بأمر مشروع وجد مقتضيه مقترنا بالمانع منه، وهو رؤيته برهان ربه فلم ينفذه، فكان الفرق بين همها وهمه أنها أرادت الانتقام منه شفاء لغيظها من خيبتها وإهانته لها، فلما رأى أمارة وثوبها عليه استعد للدفاع عن نفسه وهم به، فكان موقفهما موقف المواثبة، والاستعداد للمضاربة، ولكنه رأى من برهان ربه وعصمته ما لم تر هي مثله، فألهمه أن الفرار من هذا الموقف هو الخير الذي تتم به حكمته ﷻ فيما أعده له، فلجأ إلى الفرار ترجيحا للمانع على المقتضي، وتبعته هي مرجحة للمقتضي على المانع حتى صار جزما، واستبقا باب الدار، وكان من أمرهما ما يأتي بيانه في الآية التالية».

وقال: «ذهب الجمهور المخدوعون بالروايات إلى أن المعنى: أنها همت بفعل الفاحشة ولم يكن لها معارض ولا مانع منها، وهم هو بمثل ذلك، ولولا أنه رأى برهان ربه لاقترفها، ولم يستح بعضهم أن يروي من أخبار اهتياجه وتهوكه فيه، ووصف انهماكه وإسرافه في تنفيذه، وتهتك المرأة في تبذلها بين يديه، ما لا يقع مثله إلا من أوقح الفساق المسرفين المستهترين، الذين طال عليهم عهد استباحة

---

(١) ص: الآيتان (٤٥ و ٤٦).

الفواحش، وألفتها حتى خلعوا العذار، وتجردوا من جلابيب الحياء، وأمسوا عراة من لباس التقوى وحلل الآداب، كأهل مدنية هذا العصر من الرجال والنساء في مواخير البغاء السرية، وما يقرب منه في حمامات البحر الجهرية، حتى كادوا يعيدون للعالم فجور مدينة (بومباي) الرومانية، التي خسف اللَّه بها، وأمطر عليها من براكين النار مثلما أمطر على قرية قوم لوط من قبلها، فإن مثل هذا الذي افتروه في قصة هذا النبي الكريم لا يقع مثله ممن ابتلي بالمعصية أول مرة من سليمي الفطرة، ولا من سذج الأعراب الذين لم تغلبهم سورة الشهوة الجامحة على حيائهم الفطري، وإيمانهم وحيائهم من نظر ربهم إليهم، فضلا عن نبي عصمه اللَّه ووصفه بما وصف وشهد له بما شهد»[١].

وقال: «رد قول الجمهور في تفسير همها وهمه عليه السلام:

فأنا أرد على جميع من فسروا هم المرأة بغير ما اخترته لا همه وحده، وأقول: لولا الغرور بالروايات الباطلة لم يخطر لأحد منهم غيره، أرد عليهم بعبارة القرآن في مدلولها اللغوي فهو حجة عليهم، فأقول:

أجمع أهل اللغة على أن الهم إنما يكون بالأعمال، لا بالشخوص والأعيان، وتحقيق معناه: أنه مقاربة فعل تعارض فيه المانع والمقتضي، فلم يقع لرجحان المانع، وهو الموافق لقول علماء الأصول في التعارض الأعم، ولكن رجحان المانع هنا قد يكون بإرادة صاحب الهم ومنه هم يوسف، وقد يكون من غيره ومنه هم هذه المرأة؛ كان همهما واحدا وهو البطش بالضرب أو ما في معناه، وكان المانع منه إرادته هو وعجزها هي بهربه، وهاك الشواهد على القسمين:

حكى اللَّه عن المشركين في سورتي الأنفال والتوبة أنهم ﴿هَمُّوا بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ﴾[٢] من بلده مكة، ولكنهم لم يفعلوا لأنهم خافوا أن يستجيب له غيرهم من العرب فيقوى أمره، فرجحوا المانع بإرادتهم، وحكى عن المنافقين أنهم ﴿هَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟﴾[٣] إذ حاولوا أن يشردوا به بعيره في العقبة منصرفه من غزوة تبوك، فلم ينالوا مرادهم عجزا منهم وحفظا من ربه له ﷺ، وفي معناه قوله تعالى له: ﴿وَلَوْلَا

---

(١) تفسير المنار (١٢/ ٢٨٠-٢٨١).
(٢) التوبة: الآية (١٣).
(٣) التوبة: الآية (٧٤).

﴿فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ﴾[١] ولكنه قدم هنا لولا ؛ فكان دليلا على أنهم فكروا في ذلك وما قاربوا . وقال في بعض المؤمنين : ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾[٢] أي : تتركا المضي مع الرسول للقتال يوم أحد؛ جبنا واتباعا لعبدالله بن أبي ومن معه من المنافقين ، ولكن غلب عليهما داعي الإيمان فلم تفشلا ، وهو المعبر عنه بقوله تعالى ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ فرجحتا المانع من الفشل بالمقتضي للجهاد . .

إذا علم هذا ؛ فمن الجلي أنه لا يصح تفسير ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ﴾ بهذا المعنى الذي أثبتناه بشواهد الكتاب والسنة إلا بما قررناه ، وأن ما قاله الجمهور باطل لمخالفته له ، بل للغة القرآن وهدايته ، وإنما خدعتهم به الروايات الباطلة ، وبيانه من وجوه :

أولها : أن الهم لا يكون إلا بفعل للهام ، والوقاع ليس من أفعال المرأة فتهم به ، وإنما نصيبها منه قبوله ممن يطلبه منها بتمكينه منه ، وهذا التمكين هو الذي يثبت به دخول الزوجية الذي تستحق فيه المرأة النفقة من زوجها كما هو مقرر في الفقه .

ثانيها : أن يوسف ﷺ لم يطلب من امرأة العزيز هذا الفعل ، فيسمي قبولها لطلبه ورضاها بتمكينه منه هما لها ، فإن نصوص الآيات قبل هذه الآية وبعدها تبرئه من ذلك ، بل من وسائله ومقدماته أيضًا .

ثالثها : لو أن ذلك وقع لكان الواجب في التعبير عنه أن يقال : (ولقد هم بها وهمت به) لأن الأول هو المقدم بالطبع والوضع وهو الهم الحقيقي ، والهم الثاني متوقف عليه لا يتحقق بدونه .

رابعها : أنه قد علم من القصة أن هذه المرأة كانت عازمة على ما طلبته طلبا جازما ، مصرة عليه ليس عندها أدنى تردد فيه ولا مانع منه يعارض المقتضي له ، فإذن لا يصح أن يقال : إنها همت به مطلقا حتى لو فرض جدلا أنه كان قبولا لطلبه ومواتاة له ، إذ الهم مقاربة الفعل المتردد فيه ، وهو الذي يصح فيما حققناه من إرادة تأديبه بالضرب على أهون تقدير ، فهذا هو المتبادر من نص اللغة ومن السياق»[٣] .

---

(١) النساء : الآية (١١٣). (٢) آل عمران : الآية (١٢٢).

(٣) تفسير المنار (١٢/ ٢٨٤-٢٨٦).

قلت: والصحيح في هذه المسألة ما قرره شيوخ العلم المعتبرون من أن نبي اللَّه يوسف عليه السلام إنما وقعت له خاطرة بشرية ليس إلا، ويبيّن هذا القول ما صح عن النبي ﷺ في صحيح السنن من أن الإنسان قد يهم بالأمر؛ فإن فعله فله عشر حسنات، وإن تركه فله حسنة، وأيضًا ما صح عن جابر بن عبد اللَّه رضي الله عنه أن النبي ﷺ رأى امرأة فدخل على زينب فقضى حاجته، وخرج وقال: «**إن المرأة إذا أقبلت أقبلت في صورة شيطان، فإذا رأى أحدكم امرأة فأعجبته فليأت أهله، فإن معها مثل الذي معها**»[1]، والحكمة التي تستفاد من قصة نبي اللَّه يوسف هي نزاهته وبراءته من هذه الفتنة فمُدِح بذلك، فلا تصدّق تلك الروايات التي ساقها بعض المفسرين، ولا نقول ما قال الشيخ محمد رشيد رضا من أن الهم هو الضرب والاعتداء والدفاع عن النفس، ويكفي يوسف عليه السلام شرفًا أن اللَّه مدحه وأثنى عليه، ليس فوق هذا من مدح، فنرجو اللَّه أن يخلصنا من الرذائل، وأن يعصمنا من الفواحش والمناكير، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

وقال ابن القيم: «إن التوحيد الخالص الذي لا يشوبه شرك؛ لا يبقى معه ذنب. فإنه يتضمن من محبة اللَّه وإجلاله، وتعظيمه، وخوفه، ورجائه وحده؛ ما يوجب غسل الذنوب، ولو كانت قراب الأرض، فالنجاسة عارضة، والدافع لها قوي، فلا تثبت معه، ولكن نجاسة الزنا واللواطة أغلظ من غيرها من النجاسات، من جهة أنها تفسد القلب، وتضعف توحيده جدا، ولهذا أحظى الناس بهذه النجاسة أكثرهم شركا؛ فكلما كان الشرك في العبد أغلب؛ كانت هذه النجاسة والخبائث فيه أكثر، وكلما كان أعظم إخلاصا كان منها أبعد، كما قال تعالى عن يوسف الصديق: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾»[2].

قلت: ما قاله العلامة ابن القيم من أن أهل التوحيد أبعد الناس عن الفاحشة والوقوع فيها، وأن أهل الشرك هم أكثر الناس وقوعًا فيها هو واقع عملي؛ فالبلاد التي تعقد فيها المواسم الشركية باسم الأضرحة والأولياء والصالحين يكثر فيها

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ٣٣٠)، ومسلم (٢/ ١٠٢١/ ١٤٠٣)، وأبو داود (٢/ ٦١١/ ٢١٥١)، والترمذي (٣/ ٤٦٤/ ١١٥٨).

(٢) إغاثة اللهفان (١/ ١٠٦).

الزنا والشذوذ، وهؤلاء المقبورون إن كانوا أولياء وصالحين فسيتبرؤون من الأقوال والأفعال الشركية التي تفعل عند قبورهم . وقد نشرت بعض الجرائد عن بعض البلاد التي فيها المواسم؛ أن سدن الضريح عقد لأكثر من ألف شاب بعضهم على بعض، أي: الذكر على الذكر! وقد حدثني بعض من كان يذهب إلى تلك المواسم أنه كان يختار أحسن النساء فيفعل بها ما يشاء بدون تمنّع منها! بل بعض المواسم تعقد لهذا الغرض، فمن أراد امرأة للفاحشة حضر ذلك الموسم! وأما الحسينيات التي في بعض البلاد؛ فإن ما يجري فيها من الزنا أكثر من لغط الرافضة الذي يكون باسم سب الصحابة ولعنهم، وهكذا ما يجري في الزوايا التابعة لكثير من الطوائف الصوفية لاسيما النقشبندية؛ فإن كثيرًا من الطوائف الصوفية يعتبرون الشذوذ الجنسي مما يتقرب به!! وقد حدثني بعض أقطابهم بحديث أستحيي من ذكره وكتابته وخطه، يُظْهِرُ لي فيه أن هذا مما يَرى فيه جمال الله!! ولو تتبعت طبقات الشعراني لوجدت من مناقب كثير من الشيوخ مزاولة الفاحشة حتى مع الحيوانات!! والله المستعان. فهذا منهاج يدعو إلى الفاحشة والمنكر، وأكبرها الشرك بالله، فما هو الخير الذي سيكون فيه؟!! فيا حسرة على العباد! ما يأتيهم من داعية إلى السنة إلا كانوا به يستهزئون.

وقال السعدي: «والحاصل: أنه جعل الموانع له من هذا الفعل، تقوى الله، ومراعاة حق سيده، الذي أكرمه، وصيانة نفسه عن الظلم، الذي لا يفلح من تعاطاه. وكذلك ما من الله عليه، من برهان الإيمان، الذي في قلبه يقتضي منه امتثال الأوامر واجتناب الزواجر.

والجامع لذلك كله: أن الله صرف عنه السوء والفحشاء؛ لأنه من عباده المخلصين له في عباداتهم، الذين أخلصهم الله، واختارهم واختصهم لنفسه، وأسدى عليهم من النعم وصرف عنهم المكاره، ما كانوا به من خيار خلقه»[1].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٤/ ١٨).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان أن العبد إذا هم بالحسنة كتبت وإذا هم بالسيئة لم تكتب

* عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**قال اللَّه ﷻ: إذا هم عبدي بسيئة فلا تكتبوها عليه، فإن عملها فاكتبوها سيئة، وإذا هم بحسنة فلم يعملها فاكتبوها حسنة. فإن عملها فاكتبوها عشرا**»[١].

★ **فوائد الحديث:**

قال القرطبي: «قال القاضي: إن الهم ههنا: ما يمر بالفكر من غير استقرار ولا توطين، فلو استمر ووطن نفسه عليه لكان ذلك هو العزم المؤاخذ به، أو المثاب عليه، بدليل قوله عليه الصلاة والسلام: «**إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار**». قالوا: يا رسول الله! هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: «**إنه كان حريصا على قتل صاحبه**»[٢]. لا يقال هذه المؤاخذة هنا إنما كانت لأنه قد عمل بما استقر في قلبه من حمله السلاح عليه لا بمجرد حرص القلب، لأنا نقول: هذا فاسد؛ لأنه عليه الصلاة والسلام قد نص على ما وقعت المؤاخذة به، وأعرض عن غيره، فقال: إنه كان حريصا على قتل صاحبه، فلو كان حمل السلاح هو العلة للمؤاخذة أو جزأها؛ لما سكت عنه وعلق المؤاخذة على غيره، لأن ذلك خلاف البيان الواجب عند الحاجة إليه، وهذا الذي صار إليه القاضي هو الذي عليه عامة السلف وأهل العلم من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين، ولا يلتفت إلى من خالفهم في ذلك، فزعم: أن ما يهم به الإنسان وإن وطن نفسه عليه لا يؤاخذ به. متمسكا في ذلك بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا﴾، وبقوله عليه الصلاة والسلام: «**ما لم يعمل أو يتكلم به**»[٣]، ومن لم يعمل بما عزم عليه، ولا نطق به،

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٣٤) ومسلم (١/ ١١٧/ ١٢٨) والترمذي (٥/ ٢٤٧/ ٣٠٧٣) والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٤٤-٣٤٥/ ١١١٨١).

(٢) أخرجه: أحمد (٥/ ٤٣) والبخاري (١/ ١١٥/ ٣١) ومسلم (٤/ ٢٢١٣-٢٢١٤/ ٢٨٨٨) وأبو داود (٤/ ٤٦٢/ ٤٢٦٨) والنسائي (٧/ ١٤٢/ ٤١٣٣) وابن ماجه (٢/ ١٣١١/ ٣٩٦٥) من حديث أبي بكرة ﷺ.

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٥٥) والبخاري (٥/ ٢٠٠-٢٠١/ ٢٥٢٨) ومسلم (١/ ١١٦-١١٧/ ١٢٧) وأبو داود (٢/ ٦٥٧-٦٥٨/ ٢٢٠٩) والترمذي (٣/ ٤٨٩/ ١١٨٣) والنسائي (٦/ ٤٦٩/ ٣٤٣٤) وابن ماجه (١/ ٦٥٩/ ٢٠٤٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.

فلا يؤاخذ به، وهو متجاوز عنه، والجواب عن الآية: أن من الهم ما يؤاخذ به، وهو ما استقر واستوطن، ومنه ما يكون أحاديث لا تستقر، فلا يؤاخذ بها، كما شهد به الحديث وما في الآية من القسم الثاني لا الأول. وفي الآية تأويلات: هذا أحدها، وبه يحصل الانفصال»[1].

* * *

(١) المفهم (١/ ٣٤٠-٣٤١).

قوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٥﴾﴾

★ **غريب الآية:**

قدت: القد القطع المستأصل، أو الشق طولا.

دبر: بضم فسكون وبضمتين: الخلف ضد القبل.

ألفيا: أي: وجدا.

سيدها: أي: بعلها وهو زوجها.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يخبر تعالى عن حالهما حين خرجا يستبقان إلى الباب: يوسف هارب، والمرأة تطلبه ليرجع إلى البيت، فلحقته في أثناء ذلك فأمسكت بقميصه من ورائه، فقدته قدا فظيعا، يقال: إنه سقط عنه، واستمر يوسف هاربا ذاهبا، وهي في أثره، فألفيا سيدها وهو زوجها عند الباب، فعند ذلك خرجت مما هي فيه بمكرها وكيدها، وقالت لزوجها متنصلة وقاذفة يوسف بدائها: ﴿مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا﴾ أي: فاحشة، ﴿إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ﴾ أي: يحبس، ﴿أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ أي: يضرب ضربا شديدا موجعا»[1].

وقال الشوكاني: «ووجه تسابقهما: أن يوسف يريد الفرار والخروج من الباب، وامرأة العزيز تريد أن تسبقه إليه لتمنعه، ووحد الباب هنا وجمعه فيما تقدم؛ لأن تسابقهما كان إلى الباب الذي يخلص منه إلى خارج الدار ﴿وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ﴾ أي: جذبت قميصه من ورائه فانشق إلى أسفله، والقد: القطع، وأكثر ما يستعمل فيما كان طولا، والقط بالطاء يستعمل فيما كان عرضا، وقع منها ذلك عند أن فر يوسف لما رأى برهان ربه، فأرادت أن تمنعه من الخروج بجذبها لقميصه ﴿وَأَلۡفَيَا

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢١).

سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِۚ﴾ أي: وجدا العزيز هنالك، وعنى بالسيد: الزوج؛ لأن القبط يسمون الزوج سيدا، وإنما لم يقل: سيدهما، لأن ملكه ليوسف لم يكن صحيحا، فلم يكن سيدا له، وجملة ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر كأنه قيل: فما كان منهما عند أن ألفيا سيدها لدى الباب، وما استفهامية، والمراد بالسوء هنا الزنا؛ قالت هذه المقالة طلبا منها للحيلة وللستر على نفسها، فنسبت ما كان منها إلى يوسف: أيّ جزاء يستحقه من فعل مثل فعل هذا؟ ثم أجابت عن استفهامها بقولها: ﴿إِلَّآ أَن يُسْجَنَ﴾ أي: ما جزاؤه إلا أن يسجن، ويحتمل أن تكون ما نافية: أي ليس جزاؤه إلا السجن أو العذاب الأليم؛ قيل: والعذاب الأليم هو الضرب بالسياط، والظاهر أنه ما يصدق عليه العذاب الأليم من ضرب أو غيره، وفي الإبهام للعذاب زيادة تهويل»(١).

قال محمد العدوي: «وفي الأمثال (ضربني وبكى وشتمني واشتكى) كذلك امرأة العزيز مع يوسف لما رأت سيدها عند الباب يريد الدخول، وقد يكون أحس وهو لدى الباب بشيء مما دار بين يوسف وامرأته من نزاع، أرادت أن تشفي غل صدرها وحنقها على يوسف لما فاتها من التمتع به، وتوقعه في الشر جزاء إبائه عن مطاوعتها -تقدمت إلى زوجها شاكية باكية قائلة ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ تريد أن تفهمه بذلك أنه هو الذي راودها، وأنه لم يكن منها سوى الإباء. وفي قولها: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ﴾ بصيغة الماضي، وتحديدها الجزاء بسجن أو عذاب؛ تمويه على العزيز، ومحاولة إفهامه أن ذلك أمر وقع من يوسف، وأن جزاءه على ذلك أمر لا يصح أن يكون موضع مناقشة أو جدل، بل هو أمر مفروغ منه، وقولها ﴿بِأَهْلِكَ﴾ استفزاز للعزيز، وإشعال لنار الغيرة في نفسه، لأن فتاه أراد سوءا بأهله، ولو قالت: (ما جزاء من أراد بي سوءا) لفات ذلك الغرض، وهو محاولة إلهاب العزيز والتأثير عليه، وتلفتنا الآية من جهة أخرى إلى أن امرأة العزيز كانت صاحبة سلطان عليه ودلال، حتى اجترأت أن تحدد الجزاء وتقترح على زوجها أحد أمرين: السجن، أو العذاب الأليم.

ولو أن امرأة العزيز كانت امرأة عادية لأبلغته الحادث مجردا عن تحديد

---

(١) فتح القدير (٣/ ٢٦-٢٧).

العقوبة، فبادرت إلى ذلك القول لتري العزيز أنها غاضبة للشرف والكرامة اللذين يحميهما ويذود عنهما، ولتشفي صدرها باقتراح عقوبة في اعتقادها: أن العزيز ينزل على رأيها فيها، وفي اعتقادها أن أمثال هذه التهمة لا تحتاج إلى بحث وتحقيق، لأنها تتعلق بشرف العزيز وأهله، فليس بعد البلاغ إلا العقوبة، وفاتها أن هناك إلها يرقبها، وربا هو لها بالمرصاد، وأن ذلك الإله ادخر لمن أطاعه في وقت الشدة، وجاهد في سبيل دينه وخلقه ما شاء اللّه أن يجاهد ما يخلصه منها، وضاء الجبين، أبيض الصحيفة وأنه سيقيض له من أقاربها ما يشهد ببراءة يوسف من ذلك الجرم الذي حاولت إلصاقه به، وسيقيض لها من النسوة كذلك من يشهد هذه الشهادة، وستعترف هي ببراءة يوسف مما نسبته إليه من إرادة السوء بها، وستقول هي للنسوة ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾ وهكذا ينتصر حق يوسف على باطل امرأة العزيز، ويبوء بالعزة والكرامة، وتبوء هي بالخزي وسوء السيرة ﴿قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾ أي: بعد أن قالت فيه ما قالت، واتهمته عند زوجها بأنه أراد بها سوءا، واقترحت على العزيز عقوبة، وحاولت إلهاب نفسه بذلك الأسلوب الذي بيناه، عند ذلك لم يجد بدا من أن يقول الحق، وهي أنه راودته عن نفسه، وهي كلمة جريئة من خادم لسيده أمام مخدومته من شأنها أن تصدر من قلب مؤمن مطمئن، ومن شأنها أن تدل على صدق قائلها، ولو كان يوسف على ريبة من جهة نفسه؛ ما استطاع أن يواجه امرأة العزيز في حضرة زوجها بذلك القول، وأن يبهتها ذلك البهت، ولكنه الحق لا يخشى باطلا، ولا يعمل حسابا لشيء، ولا يحابي ولا يداجي، ظهر على لسان فتى خادم ضد سيدة مخدومة مطاعة في بيتها وأبهتها وعظمتها، تستطيع أن تدبر لذلك الخادم من أنواع التنكيل والعذاب ما شاء لها الهوى، وسولت لها النفس.

لم يبال يوسف بكل ذلك، بل قال الحق -والحق أحق أن يقال- ولو أن امرأة العزيز لم تبادر يوسف بتلك التهمة أمام زوجها؛ لاستحيا يوسف أن يقول ما قال لزوجها، ولكتم عليها تلك الفعلة، ولكنها بدأت (والبادئ أظلم) بدأت فقالت فيه الباطل، فاضطر أن يقول فيها الحق»[١].

---

(١) دعوة الرسل (ص: ١٠٤-١٠٦).

وقال القرطبي: «في الآية دليل على القياس والاعتبار، والعمل بالعرف والعادة؛ لما ذكر من قد القميص مقبلا ومدبرا، وهذا أمر انفرد به المالكية في كتبهم؛ وذلك أن القميص إذا جبذ من خلف تمزق من تلك الجهة، وإذا جبذ من قدام تمزق من تلك الجهة، وهذا هو الأغلب»[1].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في نهي العبد أن يقول ربي ومولاي

* عن أبي هريرة ﷺ يحدث عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا يقل أحدكم: أطعم ربك، وضئ ربك. وليقل: سيدي ومولاي. ولا يقل أحدكم: عبدي، أمتي. وليقل: فتاي وفتاتي وغلامي**»[2].

★ **فوائد الحديث:**

قال الحافظ: «وفيه نهي العبد أن يقول لسيده ربي، كذلك نهي غيره، فلا يقول له أحد ربك، ويدخل في ذلك أن يقول السيد ذلك عن نفسه، فإنه قد يقول لعبده: اسق ربك، فيضع الظاهر موضع الضمير على سبيل التعظيم لنفسه. والسبب في النهي أن حقيقة الربوبية لله تعالى، لأن الرب هو المالك والقائم بالشيء، فلا توجد حقيقة ذلك إلا لله تعالى»[3].

قال ابن مفلح: «ظاهر النهي للتحريم، وقد يحتمل أنه للكراهة، وجزم به غير واحد من العلماء»[4].

قال النووي: «قال العلماء: مقصود الأحاديث شيئان أحدهما: نهي المملوك أن يقول لسيده ربي؛ لأن الربوبية إنما حقيقتها لله تعالى؛ لأن الرب هو المالك أو القائم بالشيء، ولا يوجد حقيقة هذا إلا في اللّٰه تعالى. فإن قيل: فقد قال النبي ﷺ في أشراط الساعة: «**أن تلد الأمة ربتها**»[5] -أو ربها-؛ فالجواب من وجهين:

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٩/ ١٧١).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٣١٦) والبخاري (٥/ ٢٢٢/ ٢٥٥٢) ومسلم (٤/ ١٧٦٥/ ٢٢٤٩[١٥]) وأبو داود (٥/ ٢٥٧/ ٤٩٧٦) مختصرا.

(٣) الفتح (٥/ ٢٢٤).

(٤) الفروع (٦/ ١١٥).

(٥) أخرجه: أحمد (١/ ٢٧) ومسلم (١/ ٣٦/ ٨) وأبو داود (٥/ ٦٩-٧٣/ ٤٦٩٥) والترمذي (٥/ ٨-٩/ ٢٦١٠) والنسائي (٨/ ٤٧٢-٤٧٥/ ٥٠٠٥) وابن ماجه (١/ ٢٤/ ٦٣) من حديث عمر ﷺ.

أحدهما: أن الحديث الثاني لبيان الجواز، وأن النهي في الأول للأدب، والكراهة للتنزيه لا للتحريم.

والثاني: أن المراد النهي عن الإكثار من استعمال هذه اللفظة واتخاذها عادة شائعة، ولم ينه عن إطلاقها في نادر من الأحوال، واختار القاضي هذا الجواب، ولا نهي في قول المملوك سيدي لقوله ﷺ: «سيدي»؛ لأن لفظة السيد غير مختصة بالله تعالى اختصاص الرب، ولا مستعملة فيه كاستعمالها»[١].

قال القرطبي: «إن هذا كله من باب الإرشاد إلى إطلاق اسم الأولى؛ لا أن إطلاق ذلك الاسم محرم. ألا ترى قول يوسف عليه السلام: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾، و﴿ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ و﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾، وقول النبي ﷺ: «**أن تلد الأمة ربها وربتها**» فكان محل النهي في هذا الباب ألا تتخذ هذه الأسماء عادة، فيترك الأولى والأحسن. . وقد تقدم: أنه يقال المالك والسيد: رب. وأن أصله من: رب الشيء والولد، يربه، ورباه، يربيه: إذا قام عليه بما يصلحه، ويكمله، فهو: رب، ورابّ. ولما كان ابتداء التربية وكمالها من الله تعالى بالحقيقة، لا من غيره؛ كان الأولى بالإنسان ألا ينسب تربية نفسه إلا إلى من إليه الربوبية الحقيقية، وهو الله تعالى، فإن فعل ذلك؛ كان متجوزا في اللفظ، مخالفا للأولى كما تقدم»[٢].

قال شيخ الإسلام: «وهذا كله مما يبين عجز كل مخلوق عن الاستقلال بمفعول ما، فلا يكون شيء من المخلوقات ربا لشيء من المخلوقات ربوبية مطلقة أصلا، إذ رب الشيء من يَرُبُّهُ مطلقا من جميع جهاته، وليس هذا إلا لله رب العالمين.

ولهذا منع في شريعتنا من إضافة الرب إلى المكلفين، كما قال ﷺ: «**لا يقل أحدكم: اسق ربك أطعم ربك**». بخلاف إضافته إلى غير المكلفين، كقول النبي ﷺ لمالك بن عوف الجشمي: «**أرب إبل أنت أم رب شاء؟**»[٣]. وقولهم: رب الثوب والدار.

فإنه ليس في هذه الإضافة ما يقتضي عبادة هذه الأمور لغير الله، فإن هذا

---

(١) شرح مسلم (١٥/ ٥-٦).

(٢) المفهم (٥/ ٥٥٢-٥٥٣).

(٣) أخرجه: أحمد (٤/ ١٣٦-١٣٧) مطولا، والنسائي (٧/ ١١/ ٣٧٩٧) وفي الكبرى (٦/ ٣٣٨/ ١١١٥٨) وابن ماجه (١/ ٦٨١/ ٢١٠٩) مختصرا، قال الألباني في الإرواء (٧/ ١٦٨): «إسناده صحيح».

لا يمكن فيها، فإن اللّه فطرها على أمر لا يتغير، بخلاف المكلفين، فإنهم يمكن أن يعبدوا غير اللّه، كما عبد المشركون به من الجن والإنس غيره، فمنع من الإضافة في حقهم تحقيقا للتوحيد الذي بعث اللّه به رسله، وأنزل به كتبه. ولهذا لم يكن شيء يستلزم وجود المفعولات إلا مشيئة اللّه وحده، فما شاء اللّه كان، وإن لم يشأ ذلك غيره، وما لم يشأ لا يكون، ولو شاءه جميع الخلق.

وإذا عرف أنه ليس في المخلوقات ما هو مستقل بمفعول ولا معلول؛ فليس في المخلوقات ما هو رب لغيره أصلا، بل فعل كل مخلوق له فيه شريك، وقد يكون له مانع، وهذا مما يدل على إثبات الصانع تعالى ووحدانيته»[1].

قال الخطابي: «إنما منع ﷺ أن يقال: «أطعم ربك، اسق ربك»، لأن الإنسان مربوب متعبد بإخلاص التوحيد لله ﷻ، وترك الإشراك معه، فكره له المضاهاة بالاسم؛ لئلا يدخل في معنى الشرك، والحر والعبد في هذا بمنزلة واحدة. فأما مالا تعبد عليه من سائر الحيوان والجماد؛ فلا بأس بإطلاق هذا الاسم عليه عند الإضافة، كقولك: رب الدابة، ورب الدار والثوب ونحوها. ولم يمنع العبد أن يقول سيدي ومولاي لأن مرجع السيادة إلى معنى الرئاسة على من تحت يده، والسياسة له وحسن التدبير لأمره ولذلك سمي الزوج سيدا، قال اللّه ﷻ: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾. وأما المولى فكثير التصرف في الوجوه المختلفة من ولي، وناصر، وابن عم، وحليف، ومعتق، وجماع ذلك كله في معني الاشتقاق: ولاية أمر وإصلاحه، فلم يمنع أن يوصف بها الإنسان، ويضاف إليها، ولكن لا يقال السيد على الإطلاق، ولا المولى من غير إضافة إلا في صفة اللّه ﷻ.

وكذلك العبد يكره لمالك الرقبة أن يقول: عبدي، لأن هذا الاسم من باب المضاف ومقتضاه العبودية له، وصاحبه الذي هو مالكه عبداللّه، متعبد بأمره ونهيه، فإدخال مملوكه تحت هذا الاسم يوهم الشرك، ويوجب معنى المضاهاة.

والمعنى في ذلك كله راجع إلى البراءة من الكبر والتزام الذل والخشوع، وهو الذي يليق بسمة العبيد وبصفات المربوبين، ولا يحسن بعبد أن يقول: فلان عبدي، وإن كان قد ملك قياده في الاستخدام له، والاستحذاء لطاعته، امتحانا وابتلاء من

---

(١) درء التعارض (٩/ ٣٤١-٣٤٢).

اللَّه لخلقه. وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾[(١)]»[(٢)].

قال القرطبي: «واختلف في السيد؛ هل هو من أسماء اللَّه تعالى أم لا؟ فإذا قلنا: ليس من أسمائه فالفرق واضح؛ إذ لا التباس، ولا إشكال يلزم من إطلاقه، كما يلزم من إطلاق الرب. وإذا قلنا: إنه من أسمائه؛ فليس في الشهرة والاستعمال كلفظ: الرب؛ فيحصل الفرق بذلك. وأما من حيث اللغة: فالرب مأخوذ مما ذكرناه، والسيد من السؤدد، وهو التقدم. يقال: ساد قومه: إذا تقدمهم؛ ولا شك في تقدم السيد على غلامه، فلما حصل الافتراق جاز الإطلاق»[(٣)].

روى عبداللَّه بن الشخير مرفوعا: «**السيد الله**»[(٤)] قال الخطابي: «قوله «السيد الله»: يريد أن السؤدد حقيقة لله عَجَّلَ، وأن الخلق كلهم عبيد له»[(٥)].

وقال في تيسير العزيز الحميد: «وحديث ابن الشخير لا ينفي إطلاق لفظ (السيد) على غير اللَّه، بل المراد أن اللَّه هو الأحق بهذا الاسم بأنواع العبارات، كما أن غيره لا يسمى به»[(٦)].

قال القاضي عياض: «وكذلك مولاي فإن المولى الناصر.. وهي لفظة مستعملة في القرآن والحديث في هذه المعاني، فأبيح هنا ذكرها في حق العبد لسيده؛ لكثرة استعماله في المخلوقين في معنى الولاية والقيام بالأمر والإنعام، واللَّه تعالى مولى الذين آمنوا، ونعم المولى ونعم النصير، فهو أيضًا المولى حقيقة والمالك يقينا، والمنعم عموما، وناصر أوليائه خصوصا»[(٧)].

قال الحافظ: «وأما ما أخرجه مسلم والنسائي من طريق الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة في هذا الحديث نحوه وزاد: «**ولا يقل أحدكم: مولاي؛ فإن مولاكم اللَّه، ولكن ليقل: سيدي**»؛ فقد بين مسلم الاختلاف في ذلك على الأعمش، وأن

---

(١) الفرقان: الآية (٢٠).

(٢) أعلام الحديث (٢/ ١٢٧١-١٢٧٢). (٣) المفهم (٥/ ٥٥٤-٥٥٥).

(٤) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٤-٢٥) والبخاري في الأدب المفرد (٢١١) وأبو داود (٥/ ١٥٤-١٥٥/ ٤٨٠٦) والنسائي في الكبرى (٦/ ٧٠/ ١٠٠٧٦).

(٥) معالم السنن (٤/ ١٠٤).

(٦) تيسير العزيز الحميد (ص: ٦٧٥).

(٧) الإكمال (٧/ ١٨٩).

منهم من ذكر هذه الزيادة ومنهم من حذفها»[١].

كالقاضي عياض فإنه قال بعد أن ساق الرواية الموافقة لحديث الباب: «وهذا والله أعلم أصح للاختلاف فيه عن الأعمش»[٢].

وقال القرطبي: «وقد رواه عن الأعمش جرير ولم يذكر ذلك. وقد روي من طرق متعددة مشهورة، وليس ذلك مذكورا فيها، بل: اللفظ الأول؛ فظهر بهذا: أن اللفظ الأول أرجح. وإنما صرنا للترجيح للتعارض بين الحديثين؛ فإن الأول يقتضي إباحة قول العبد: مولاي. والثاني يقتضي منعه من ذلك، والجمع متعذر، والعلم بالتاريخ مفقود، فلم يبق إلى الترجيح، كما ذكرناه والله أعلم»[٣].

قال الحافظ: «ومقتضى ظاهر هذه الزيادة أن إطلاق السيد أسهل من إطلاق المولى، وهو خلاف المتعارف، فإن المولى يطلق على أوجه متعددة، منها: الأسفل، والأعلى، والسيد لا يطلق إلا على الأعلى، فكان إطلاق المولى أسهل وأقرب إلى عدم الكراهة. والله أعلم»[٤].

قال ابن بطال: «وما جاء في هذا الباب من النهي عن التسمية، فإن ذلك من باب التواضع، وجائز أن يقول الرجل: عبدي، وأمتي؛ لأن القرآن قد نطق بذلك في قوله: ﴿وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡۚ﴾[٥] وإنما نهى ﷺ عن ذلك على سبيل التطاول والغلظة، لا على سبيل التحريم، واتباع ما حض عليه النبي ﷺ أولى وأجل، فإن في ذلك تواضعا لله تعالى؛ لأن قول الرجل: عبدي وأمتي يشترك فيهما الخالق والمخلوق، فيقال: عبدالله، وأمةالله، فكره ذلك لاشتراك اللفظ»[٦].

قال النووي: «وأما غلامي وجاريتي وفتاي وفتاتي فليست دالة على الملك كدلالة عبدي، مع أنها تطلق على الحر والمملوك، وإنما هي للاختصاص، قال الله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ﴾[٧]، ﴿وَقَالَ لِفِتۡيَٰنِهِ﴾[٨]، وقال لفتيته، ﴿قَالُواْ سَمِعۡنَا فَتًى يَذۡكُرُهُمۡ﴾[٩]. وأما استعمال الجارية في الحرة الصغيرة فمشهور معروف

---

(١) الفتح (٥/ ٢٢٥).
(٢) الإكمال (٧/ ١٩٠).
(٣) المفهم (٥/ ٥٥٤).
(٤) الفتح (٥/ ٢٢٥).
(٥) النور: الآية (٣٢).
(٦) شرح البخاري (٧/ ٦٨).
(٧) الكهف: الآية (٦٠).
(٨) يوسف: الآية (٦٢).
(٩) الأنبياء: الآية (٦٠).

في الجاهلية والإسلام، والظاهر أن المراد بالنهي من استعمله على جهة التعاظم والارتفاع لا للوصف والتعريف. والله أعلم»[١].

قال القرطبي: «ومقصود الشرع الإرشاد إلى تعرف مواقع الألفاظ واستعمال الأولى منها والأحسن ما أمكن، من غير إيجاب ذلك، واجتناب المشترك من الألفاظ وما يستكره منها، وما لا تواضع فيه كعبدي وأمتي من غير تحريم ذلك ولا تحريجه. والله أعلم»[٢].

* عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «**إذا نصح العبد سيده وأحسن عبادة ربه؛ كان له أجره مرتين**»[٣].

* عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ قال: «**ثلاثة لهم أجران: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بمحمد ﷺ، والعبد المملوك إذا أدى حق الله وحق مواليه، ورجل كانت عنده أمة فأدبها فأحسن تأديبها، وعلمها فأحسن تعليمها، ثم أعتقها فتزوجها، فله أجران**»[٤].

★ فوائد الحديثين:

قال ابن بطال: «قال المهلب: لما كان للعبد في عبادة ربه أجر، وكان له في طاعة سيده ونصحه له أجر أيضًا، لكن لا يقال: إن الأجرين متساويان، لأن طاعة الله أوجب من طاعة المخلوقين، وفيه حض المملوك على نصح سيده؛ لأنه راع في ماله، وهو مسؤول عما استرعي، فبان أن أثر نصحه طاعة الله، فلهذا تبين فضل أجره في طاعة الله على طاعة مولاه»[٥].

قال النووي: «وفيه فضيلة من أعتق مملوكته وتزوجها، وليس هذا من الرجوع في الصدقة في شيء، بل هو إحسان إليها بعد إحسان»[٦].

---

(١) شرح مسلم (١٥/ ٧). (٢) المفهم (٥/ ٥٥٥).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٠) والبخاري (٥/ ٢٢٢/ ٢٥٥٠) ومسلم (٣/ ١٢٨٤/ ١٦٦٤) وأبو داود (٥/ ٣٦٥/ ٥١٦٩).

(٤) أخرجه: أحمد (٤/ ٤٠٢) والبخاري (١/ ٢٥٢/ ٩٧) ومسلم (١/ ١٣٤-١٣٥/ ١٥٤) والترمذي (٣/ ٤٢٤/ ١١١٦) والنسائي (٦/ ٤٢٥/ ٣٣٤٤) وابن ماجه (١/ ٦٢٩/ ١٩٥٦).

(٥) شرح البخاري (٧/ ٦٦). (٦) شرح مسلم (٢/ ١٦٢).

قال أبو عمر: «معنى هذا الحديث -عندي والله أعلم- أن العبد لما اجتمع عليه أمران واجبان: طاعة سيده في المعروف، وطاعة ربه، فقام بهما جميعًا، كان له ضعفا أجر الحر المطيع لربه مثل طاعته، لأنه قد أطاع الله في ما أمره به من طاعة سيده، ونصحه وأطاعه أيضًا فيما افترض عليه، ومن هذا المعنى عندهم أنه من اجتمع عليه فرضان فأداهما جميعًا وقام بهما؛ كان أفضل ممن ليس عليه إلا فرض واحد فأداه، والله أعلم.

فمن وجبت عليه زكاة وصلاة، فقام بهما على حسبما يجب فيهما؛ كان له أجران، ومن لم يجب عليه زكاة وأدى صلاته، كان له أجر واحد، إلا أن الله يوفق من يشاء، ويتفضل على من يشاء، وعلى حسب هذا يعصي الله تعالى من اجتمعت عليه فروض من وجوه، فلم يؤد شيئًا منها. وعصيانه له أكثر من عصيان من لم يجب عليه إلا بعض تلك الفروض، وقد سئل عبدالله بن العباس ﷺ عن رجل كثير الحسنات، كثير السيئات، أهو أحب إليك، أم رجل قليل الحسنات قليل السيئات؟ فقال ما أعدل بالسلامة شيئًا.

وفي هذا الحديث أيضًا ما يدل على أن العبد المتقي لله، المؤدي لحق الله وحق سيده، أفضل من الحر»[1].

وقال الحافظ: «والذي يظهر أن مزيد الفضل للعبد الموصوف بالصفة لما يدخل عليه من مشقة الرق، وإلا فلو كان التضعيف بسبب اختلاف جهة العمل لم يختص العبد بذلك. وقال ابن التين: المراد أن كل عمل يعمله يضاعف له، قال: وقيل سبب التضعيف أنه زاد لسيده نصحا وفي عبادة ربه إحسانا، فكان له أجر الواجبين، وأجر الزيادة عليهما. قال: والظاهر خلاف هذا، وأنه بين ذلك لئلا يظن أنه غير مأجور على العبادة اهـ. وما ادعى أنه الظاهر لا ينافي ما نقله قبل ذلك، فإن قيل: يلزم أن يكون أجر المماليك ضعف أجر السادات؛ أجاب الكرماني بأن لا محذور في ذلك، أو يكون أجره مضاعفا من هذه الجهة، وقد يكون للسيد جهات أخرى يستحق بها أضعاف أجر العبد، أو المراد ترجيح العبد المؤدي للحقين على العبد المؤدي لأحدهما اهـ. ويحتمل أن يكون تضعيف الأجر مختصا بالعمل الذي يتحد

---

(١) فتح البر (١٠/ ٣٩٢).

فيه طاعة اللَّه وطاعة السيد، فيعمل عملا واحدا، ويؤجر عليه أجرين بالاعتبارين، وأما العمل المختلف الجهة فلا اختصاص له بتضعيف الأجر فيه على غيره من الأحرار واللَّه أعلم»[١].

* * *

(١) الفتح (٥/ ٢٢١).

قوله تعالى: ﴿قَالَ هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره: قال يوسف، لما قذفته امرأة العزيز بما قذفته من إرادته الفاحشة منها، مكذبا لها فيما قذفته به. ودفعا لما نسب إليه: ما أنا راودتها عن نفسها، بل هي راودتني عن نفسي.

وقد قيل: إن يوسف لم يرد ذكر ذلك، لو لم تقذفه عند سيدها بما قذفته به»[1].

قال أبو حيان: «ولما أغرت بيوسف وأظهرت تهمته؛ احتاج إلى إزالة التهمة عن نفسه، فقال: ﴿هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ۚ﴾ ولم يسبق إلى القول أولا سترا عليها، فلما خاف على نفسه، وعلى عرضه الطاهر (قال هي) وأتى بضمير الغيبة، إذ كان غلب عليه الحياء أن يشير إليها، ويعينها بالإشارة، فيقول: هذه راودتني، أو تلك راودتني، لأن في المواجهة بالقبيح ما ليس في الغيبة، ولما تعارض قولاهما عند العزيز، وكان رجلا فيه أناة ونصفة؛ طلب الشاهد من كل منهما فشهد شاهد من أهلها»[2].

قال ابن كثير: «فعند ذلك انتصر يوسف ﷺ بالحق، وتبرأ مما رمته به من الخيانة، و(قال) بارا صادقا: ﴿هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ۚ﴾ وذكر أنها اتبعته تجذبه إليها حتى قدت قميصه ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ﴾ أي: من قدامه ﴿فَصَدَقَتْ﴾ أي في قولها: إنه راودها على نفسها، لأنه يكون لما دعاها وأبت

---

(١) تفسير الطبري (١٣/ ٥٣ تحقيق شاكر).

(٢) البحر المحيط (٥/ ٢٩٧).

عليه دفعته في صدره، فقدت قميصه فيصح ما قالت، ﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ وذلك يكون كما وقع لما هرب منها وتطلبته، أمسكت بقميصه من ورائه لترده إليها فقدت قميصه من ورائه؛ وقد اختلفوا في هذا الشاهد: هل هو صغير أو كبير؟ على قولين لعلماء السلف»[1].

قال أبو جعفر النحاس: «والأشبه بالمعنى -واللَّه أعلم- أن يكون رجلا عاقلا حكيما شاوره الملك فجاء بهذه الدلالة، ولو كان طفلا لكان شهادته ليوسف ﷺ يغني أن يأتي بدليل من العادة؛ لأن كلام الطفل آية معجزة، فكانت أوضح من الاستدلال بالعادة»[2].

وقال العدوي: «كثر كلام المفسرين في ذلك الشاهد؛ أكان رجلا أم صبيا؟ ورجح الرازي في تفسيره الكبير أنه كان رجلا لوجوه:

الأول: أن اللَّه تعالى لو أنطق الطفل بذلك الكلام؛ لكان مجرد قوله: إنها كاذبة برهانا على كذبها، أما الاستدلال بما في قوله من المنطق من قد القميص من قبل ومن دبر؛ فلم يكن محتاجا إليه.

الثاني: قوله: ﴿مِّنْ أَهْلِهَآ﴾، فإنها سيقت لتقوية الشهادة، ولا يصار إلى هذه التقوية إلا حيث كان الشاهد رجلا، ولو كان صبيا في المهد لكان قوله حجة، ولم يبق لهذا القيد فائدة.

الثالث: أن لفظ الشاهد لا يقع إلا لمن تقدمت له معرفة بالواقعة، وإحاطة بها، وذلك لا يكون إلا من رجل.

والذي حمل المفسرين على ذلك ولوعهم بالغريب، وورود حديث ينسبه المفسر أبو السعود للحاكم، وفيه: «**تكلم أربعة وهم صغار: ابن ماشطة بنت فرعون، وشاهد يوسف، وصاحب جريج وعيسى عليه السلام**»[3] وتصحيح الحاكم إذا

(١) التفسير (٤/ ٢١-٢٢).
(٢) إعراب القرآن (٢/ ٣٢٤).
(٣) أخرجه الحاكم (٢/ ٤٩٦-٤٩٧) وصححه. قال الشيخ الألباني: «ووافقه الذهبي مع أنه قال في عطاء في الضعفاء: مختلف فيه من سمع منه قديماً فهو صحيح. وقد علمت مما سبق أن حماد بن سلمة سمع منه في اختلاطه أيضاً، ولا يمكن تمييز ما سمعه في هذه الحال عن ما سمعه قبلها، فلذا يتوقف عن تصحيح روايته عنه». (الضعيفة ٢/ ٢٧٢-٢٧٣).

تفرد به لا يوثق به عند المحدثين. فإن من عادته أن يتساهل في التصحيح فيصحح الضعيف.

وعندي أن ذلك الشاهد هو رجل كما رأى الفخر نقلا عن جماعة من المفسرين، وأن الحجة في منطق الشاهد وتحكيمه العقل في شهادته، وفراسته في تحقيق الحق من قولهما، إذ يقول: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ الخ لأن الهاجم على المرأة وهي تدافعه إنما يظهر أثر دفاعها في مقدم قميصه، والهارب من المرأة العالقة بثوبه إنما يظهر أثر ذلك في ثوبه من الخلف، لأنه يكون مستدبرا لها وهي تجاذبه من خلف، فظهر صدق يوسف وكذب امرأة العزيز حينما رأوا قميصه قد من دبر، فعاد العزيز على امرأته باللوم وقال: ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ وأمر يوسف بكتمان الخبر، وأمرها بالاستغفار لذنبها، وجزم بأنها مخطئة فيما صنعت.

ذلك هو المنطق الذي امتازت به شهادة ذلك الشاهد، وتبين به الحق للعزيز، أما كونه من أهلها؛ فلأن الشأن في أمثال هذه الحوادث أن يطلع عليها أهل المرأة أولا، وتكون محصورة فيهم؛ لأنها مسألة تتعلق بالأعراض، ومن شأن الأهل أن يحرصوا على كتمانها جهد المستطاع. ويروى: أن ذلك الشاهد كان مع العزيز عند وصوله إلى الباب. وقيل: إنه كان بالبيت مختفيا لم يشعر به أحد. وسواء صح ذلك أم لم يصح؛ فإن المهم شهادته وما فيها من حجة ومنطق، وأن ما شهد به ذلك الشاهد على حادث امرأة العزيز مع يوسف؛ يصلح أساسا للتحقيقات الجنائية التي يقوم بها ضباط المباحث، ورجال النيابات، عندما يريدون أن يقفوا على حقيقة واقعة من الوقائع، ويتبينوا وجه الصواب في المسألة والأخذ بالقرائن، وتحكيم العقل في الحوادث والجنايات هو شأن الناس في كل زمان، وقد تقدم ذلك النوع من تحكيم القرائن، وأصبح له شأن كبير حتى أنشأوا له في مصر وغيرها وظائف، وأعدوا له ما يلزم من معدات، وكم كشف ذلك النوع عن مخبآت، وفضح من أستار جنايات، وأعان القضاء على أداء مهمته، وسهل له المضيّ في عمله.

وإنك لترى للمحققين أساليب باهرة عند شروعهم في تحقيق قضية، وترى رجال المحاماة قد برعوا في توجيه أسئلة للشهود؛ تكشف من القضية كل غامض، وتزيل منها كل لبس، مما يجعل الحق واضحا أبلج، والباطل كاسفا لجلج. ولو

أنك ذهبت إلى قاعات المحاكم الجنائية لرأيت من ذلك النوع ما يثلج صدرك، ويطمئن نفسك.

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ﴾ الضمير فيه لما حصل من امرأة العزيز مع يوسف حيث خانت زوجها، واتهمت يوسف بأنه طلب منها الفاحشة ﴿إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ﴾ أي: معاشر النساء؛ لأنكن ألطف حيلة، وأعظم كيدا.

قال بعض العلماء: (إني أخاف من النساء أكثر مما أخاف من الشيطان، لأن اللَّه تعالى قال: ﴿إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ﴾ وقال: ﴿إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾[1].

وعندي أن اللَّه تعالى وصف كيد الشيطان بالضعف؛ لأن من استولى عليه الشيطان أو طاف حوله طائف منه؛ يذهب عنه الشيطان عند تذكره لربه ورجوعه إليه، ولذلك يوصف الشيطان بالخناس الذي يخنس وينقبض كلما ذكر اسم اللَّه تعالى، ولذلك يقول في شأنه: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾[2] فالشيطان ضعيف في كيده، لا يسلط إلا على ضعيف الإيمان الذي لم يعتصم بربه وخالقه، وأن ذلك الكيد عظيم في ذاته، باعتبار أثره وعاقبته.

أما كيد النساء فهو عظيم في ذاته، وهو لم يصل إليهن إلا بواسطة تسويل الشيطان لهن، ولولا أنه ينفخ في أوداجهن ويغريهن بالفاحشة؛ ما فعلن فعلهن، وكل امرأة فاسقة معها شيطان أو شياطين، يزين لها الفاحشة، ويتلمس لها طريق الخلاص منها، فالشيطان هو الذي أغراها حتى طلبت من يوسف الفاحشة، والشيطان هو الذي عظم في عينها امتناع يوسف وتأبيه عليها، وقال لها: كيف يكون خادما لك ثم يمتنع عليك ذلك الامتناع، ولولا شيطانها ما ألصقت بيوسف أنه أراد بها سوءا، ولشكرته على عفته، واستخلصته لنفسها لأمانته كما طلبه الملك بعد ظهور براءته، وقال: ﴿ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ﴾ وقال له: ﴿إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ﴾»[3].

وقال ابن عاشور: «وسمي قوله شهادة لأنه يؤول إلى إظهار الحق في إثبات

---

(١) النساء: الآية (٧٦).

(٢) النحل: الآية (٩٩).

(٣) دعوة الرسل (ص: ١٠٦-١٠٧).

اعتداء يوسف ﷺ على سيدته أو دحضه. وهذا من القضاء بالقرينة البينة؛ لأنها لو كانت أمسكت ثوبه لأجل القبض عليه لعقابه؛ لكان ذلك في حال استقباله له إياها، فإذا أراد الانفلات منها تخرق قميصه من قبل، وبالعكس إن كان إمساكه في حال فرار وإعراض. ولا شك أن الاستدلال بكيفية تمزيق القميص؛ نشأ عن ذكر امرأة العزيز وقوع تمزيق القميص، تحاول أن تجعله حجة على أنها أمسكته لتعاقبه، ولولا ذلك ما خطر ببال الشاهد أن تمزيقا وقع، وإلا فمن أين علم الشاهد تمزيق القميص. والظاهر أن الشاهد كان يظن صدقها، فأراد أن يقيم دليلا على صدقها؛ فوقع عكس ذلك كرامة ليوسف ﷺ..

والذي رأى قميصه قد من دبر وقال: إنه من كيدكن، هو العزيز لا محالة. وقد استبان لديه براءة يوسف ﷺ من الاعتداء على المرأة، فاكتفى بلوم زوجه بأن ادعاءها عليه من كيد النساء؛ فضمير جمع الإناث خطاب لها، فدخل فيه من هن من صنفها بتنزيلهن منزلة الحواضر»[1].

قال الشيخ رشيد رضا: «وأما هذه الشهادة -وفسرها بعضهم بالحكم- فهي قوله: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ﴾ أي: من قدام ﴿فَصَدَقَتْ﴾ في دعواها أنه أراد بها سوءا، فإنه لما وثب عليها أخذت بتلابيبه، فجاذبها فانقد قميصه، وهما يتنازعان ويتصارعان ﴿وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ في دعواه: أنها راودته فامتنع، وفر فتبعته وجذبته تريد إرجاعه ﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ﴾ أي: من خلف ﴿فَكَذَبَتْ﴾ في دعواها أنه هجم عليها يريد ضربها ﴿وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في قوله: إنه فر منها هاربا، وهذه الشهادة ظاهرة على التفسير المختار الذي قررناه، ومشكلة على قول الجمهور كما صرح به بعض المدققين.

﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ﴾ أي: إن هذا العمل ومحاولة التنصل منه بالاتهام؛ من كيدكن المعهود منكن معشر النساء، فهو لم يخص الكيد بزوجه فيقال: إنه أمر شاذ منها يجب التروي في تحقيقه بأكثر مما شهد به أحد أهلها، وهو لا يتهم في التحامل عليها وظلمها، بل هو سنة عامة فيهن في التفصي من خطيئاتهن، فقد أثبت خطيئتها مستدلا عليها بالسنة العامة لهن في أمثالها ﴿إِنَّ

---

(١) التحرير والتنوير (١٢/ ٢٥٧-٢٥٨).

﴿كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ لا قبل للرجال به، ولا يفطنون لحيلكن في دقائقه.

قال بعض المفسرين: ولربات القصور منهن القدح المعلى من ذلك؛ لأنهن أكثر تفرغا له من غيرهن، مع كثرة اختلاف الكيادات إليهن. وههنا يذكرون قوله تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ يستدلون به على أن كيد النساء أعظم من كيد الشيطان، ولا دلالة فيه، وإن فرضنا أن حكاية قول هذا إقرار له؛ فالمقام مختلف وإنما كيد النسوان بعض كيد الشيطان»[1].

وقال القاسمي: «ومن اللطائف ما قيل: إن هذا الشاهد أراد ألا يكون هو الفاضح لها، ووثق بأن انقطاع قميصه إنما كان من دبر، فنصبه أمارة لصدقه وكذبها، ثم ذكر القسم الآخر، وهو قده من قبل، على علم بأنه لم ينقد من قبل حتى ينفي عن نفسه التهمة في الشهادة، وقصد الفضيحة، وينصفهما جميعًا، فيذكر أمارة على صدقها المعلوم نفيه، كما ذكر أمارة على صدقه المعلوم وجوده. ومن ثم قدم أمارة على صدقها، على أمارة صدقه في الذكر، إزاحة للتهمة، ووثوقا بأن الأمارة الثانية هي الواقعة، فلا يضره تأخيرها. وهذه اللطيفة بعينها -والله أعلم- هي التي راعاها مؤمن آل فرعون في قوله: ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾[2]. فقد قسم الكذب على قسم الصدق، إزاحة للتهمة التي خشي أن تتطرق إليه في حق موسى عليه السلام، ووثوقا بأن القسم الثاني وهو صدقه، هو الواقع، فلا يضره تأخيره في الذكر لهذه الفائدة. ومن ثم قال: ﴿بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾، ولم يقل: كل ما يعدكم، تعريضا بأنه معهم عليه، وأنه حريص على أن يبخسه حقه. وينحو هذا النحو تأخير يوسف عليه السلام، لكشف وعاء أخيه الآتي ذكره، لأنه لو بدأ به لفطنوا أنه هو الذي أمر بوضع السقاية فيه -والله أعلم-»[3].

تفسير الشاهد:

* عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ قال: «كان رجلا ذا لحية»[4].

---

(١) تفسير المنار (٩/ ٢٨٧-٢٨٨).
(٢) غافر: الآية (٢٨).
(٣) محاسن التأويل (٩/ ٢١٦-٢١٧).
(٤) أخرجه: عبد الرزاق (٢/ ٣٢٢) وابن جرير (١٦/ ٥٧/ ١٩١١٩). قال الشيخ الألباني في الضعيفة (٢/ ٢٧٣): «رجاله ثقات».

★ **فوائد الحديث:**

قال الشيخ الألباني: «ثم إن ظاهر القرآن في قصة الشاهد أنه كان رجلا لا صبيا في المهد، إذ لو كان طفلا لكان مجرد قوله إنها كاذبة كافيا وبرهانا قاطعا، لأنه من المعجزات، ولما احتيج أن يقول ﴿مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ ولا أن يأتي بدليل حتى على براءة يوسف ﷺ وهو قوله ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ﴾ الآية، وقد روى ابن جرير بإسناد رجاله ثقات عن ابن عباس: (أن الشاهد كان رجلا ذا لحية) وهذا هو الأرجح والله أعلم»[1].

* * *

(١) السلسلة الضعيفة (٢/ ٢٧٣).

قوله تعالى: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٩﴾﴾

★ **غريب الآية:**

الخاطئين: أي المتعمدين للذنب، من خطئ فهو خاطئ: إذا أذنب عمدا. والخطأ ضد الصواب.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «ثم قال -أي: العزيز- آمرًا ليوسف ﷺ بكتمان ما وقع ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾ أي: اضرب عن هذا صفحًا؛ أي: فلا تذكره لأحد ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ﴾ يقول لامرأته، وقد كان لين العريكة سهلًا، أو أنه عذرها لأنها رأت ما لا صبر لها عنه؛ فقال لها: ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ﴾؛ أي الذي وقع منك من إرادة السوء بهذا الشاب، ثم قَذْفِهِ بما هو بريء منه ﴿إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾»[(١)].

وقال ابن عاشور: «وجملة ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾ من قول العزيز صاحب الحكم. وجملة ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ﴾ عطف على جملة ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ﴾ في كلام العزيز عطف أمر على أمر، والمأمور مختلف. وكاف المؤنثة المخاطبة متعين أنه خطاب لامرأة العزيز، فالعزيز بعد أن خاطبها بأن ما دبرته هو من كيد النساء وجه الخطاب إلى يوسف ﷺ بالنداء ثم أعاد الخطاب إلى المرأة.

وهذا الأسلوب من الخطاب يسمى بالإقبال، وقد يسمى بالالتفات بالمعنى اللغوي عند الالتفات البلاغي، وهو عزيز في الكلام البليغ»[(٢)].

قال شيخ الإسلام: «وذلك أن زوجها كان قليل الغيرة، أو عديمها، وكان يحب امرأته ويطيعها؛ ولهذا لما اطلع على مراودتها قال: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَاسْتَغْفِرِي

---

(١) التفسير (٤/ ٢٢).

(٢) التحرير والتنوير (١٢/ ٢٥٩).

لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ﴾ فلم يعاقبها، ولم يفرق بينها وبين يوسف، حتى لا تتمكن من مراودته، وأمر يوسف أن لا يذكر ما جرى لأحد؛ محبة منه لامرأته، ولو كان فيه غيرة لعاقب المرأة.

ومع هذا فشاعت القصة واطلع عليها الناس من غير جهة يوسف، حتى تحدثت بها النسوة في المدينة، وذكروا أنها تراود فتاها عن نفسه، ومع هذا: ﴿أَرۡسَلَتۡ إِلَيۡهِنَّ وَأَعۡتَدَتۡ لَهُنَّ مُتَّكَـٔٗا وَءَاتَتۡ كُلَّ وَٰحِدَةٖ مِّنۡهُنَّ سِكِّينٗا﴾ وأمرت يوسف أن يخرج عليهن؛ ليقمن عذرها على مراودته، وهي تقول لهن: ﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمۡتُنَّنِي فِيهِۖ وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَۖ وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّـٰغِرِينَ﴾.

وهذا يدل على أنها لم تزل متمكنة من مراودته، والخلوة به مع علم الزوج بما جرى، وهذا من أعظم الدياثة، ثم إنه لما حبس فإنما حبس بأمرها، والمرأة لا تتمكن من حبسه إلا بأمر الزوج، فالزوج هو الذي حبسه. وقد روي أنها قالت: هذا القبطي هتك عرضي فحبسه؛ وحبسه لأجل المرأة معاونة لها على مطلبها لدياثته، وقلة غيرته، فدخل هو في من دعا يوسف إلى الفاحشة.

فعلم أن يوسف لم يترك الفاحشة لأجله، ولا لخوفه منه، بل قد علم يقينا أنه لم يكن يخاف منه، وأن يوسف لو أعطاها ما طلبت لم يكن الزوج يدري، ولو درى فلعله لم يكن ينكر؛ فإنه قد درى بالمراودة والخلوة التي هي مقتضية لذلك في الغالب فلم ينكر، ولو قدر أنه هم بعقوبة يوسف فكانت هي الحاكمة على الزوج القاهرة له. وقد قال النبي ﷺ: «**ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن**»[1] ولما راجعنه في إمامة الصديق قال: «**إنكن لأنتن صواحب يوسف**»[2].

فكيف لا تغلب مثل هذا الزوج وتمنعه من عقوبة يوسف؟ وقد عهد الناس خلقا من الناس تغلبهم نساؤهم؛ من نساء التتر وغيرهم، يكون لامرأته غرض فاسد في فتاه أو فتاها، وتفعل معه ما تريد، وإن أراد الزوج أن يكشف أو يعاقب منعته

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٦٦-٦٧) ومسلم (١/ ٨٦-٨٧/ ٧٩) وأبو داود (٥/ ٥٩/ ٤٦٧٩) وابن ماجه (٢/ ١٣٢٦-١٣٢٧/ ٤٠٠٣) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ٤١٢-٤١٣) والبخاري (٢/ ٢٠٨-٢٠٩/ ٦٧٨) ومسلم (١/ ٣١٦/ ٤٢٠) من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

ودفعته؛ بل وأهانته، وفتحت عليه أبوابا من الشر بنفسها، وأهلها وحشمها، والمطالبة بصداقها وغير ذلك؛ حتى يتمنى الرجل الخلاص منها رأسا برأس، مع كون الرجل فيه غيرة فكيف مع ضعف الغيرة؟!.

فهذا كله يبين أن الداعي ليوسف إلى ترك الفاحشة؛ كان خوف اللَّه لا خوفا من السيد، فلهذا قال: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ قيل: هذا مما يبين محاسن يوسف، ورعايته لحق اللَّه وحق المخلوقين، ودفعه الشر بالتي هي أحسن، فإن الزنا بامرأة الغير فيه حقان مانعان، كل منهما مستقل بالتحريم.

فالفاحشة حرام لحق اللَّه ولو رضي الزوج، وظلم الزوج في امرأته حرام لحقه، بحيث لو سقط حق اللَّه بالتوبة منه فحق هذا في امرأته لا يسقط، كما لو ظلمه وأخذ ماله وتاب من حق اللَّه لم يسقط حق المظلوم بذلك، ولهذا جاز للرجل إذا زنت امرأته أن يقذفها ويلاعنها، ويسعى في عقوبتها بالرجم، بخلاف الأجنبي فإنه لا يجوز له قذفها ولا يلاعن، بل يحد إذا لم يأت بأربعة شهداء، فإفساد المرأة على زوجها من أعظم الظلم لزوجها، وهو عنده أعظم من أخذ ماله.

ولهذا يجوز له قتله دفعا عنها باتفاق العلماء، إذا لم يندفع إلا بالقتل بالاتفاق، ويجوز في أظهر القولين قتله وإن اندفع بدونه، كما في قصة عمر بن الخطاب ﷺ: (لما أتاه رجل بيده سيف فيه دم، وذكر أنه وجد رجلا تفخذ امرأته فضربه بالسيف)؛ فأقره عمر على ذلك وشكره، وقبل قوله أنه قتله لذلك، إذ ظهرت دلائل ذلك.

وهذا كما لو اطلع رجل في بيته، فإنه يجوز له أن يفقأ عينه ابتداء، وليس عليه أن ينذره، هذا أصح القولين، كما ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «**لو اطلع رجل في بيتك ففقأت عينه ما كان عليك شيء**»[1] وكذلك قال في الذي عض يد غيره فنزع يده فانقلعت أسنان العاض[2].

وهذا مذهب فقهاء الحديث، وأكثر السلف، وفي المسألتين نزاع ليس هذا موضعه؛ إذ المقصود أن الزاني بامرأة غيره ظالم للزوج وللزوج حق عنده، ولهذا

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٤٣) والبخاري (١٢/ ٣٠٠/ ٦٩٠٢) ومسلم (٣/ ١٦٩٩/ ٢١٥٨) والنسائي (٨/ ٤٣٢/ ٤٨٧٦) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ٤٢٧) والبخاري (١٢/ ٢٧١/ ٦٨٩٢) ومسلم (٣/ ١٣٠٠/ ١٦٧٣) والترمذي (٤/ ١٩-٢٠/ ١٤١٦) والنسائي (٨/ ٣٩٧/ ٤٧٧٢) وابن ماجه (٢/ ٨٨٧/ ٢٦٥٧) عن عمران بن حصين ﷺ.

ذكر النبي ﷺ: **«أن من زنى بامرأة المجاهد فإنه يمكن يوم القيامة من حسناته يأخذ منها ما شاء»**[١].

وفي الصحيحين عن ابن مسعود قال: قلت يا رسول اللّٰه أي الذنب أعظم؟ قال: **«أن تجعل لله ندا وهو خلقك»** قلت: ثم أي؟ قال: **«أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك»** قلت: ثم أي؟ قال: **«أن تزاني بحليلة جارك»**[٢] فذكر الزنا بحليلة الجار، فعلم أن للزوج حقا في ذلك، وكان ظلم الجار أعظم؛ للحاجة إلى المجاورة.

وإن قيل: هذا قد لا يمكن زوج المرأة أن يحترز منه، والجار عليه حق زائد على حق الأجنبي، فكيف إذا ظلم في أهله والجيران يأمن بعضهم بعضا، ففي هذا من الظلم أكثر مما في غيره، وجاره يجب عليه أن يحفظ امرأته من غيره، فكيف يفسدها هو.

فلما كان الزنا بالمرأة المزوجة له علتان كل منهما تستقل بالتحريم، مثل لحم الخنزير الميت: علل يوسف ذلك بحق الزوج، وإن كان كل من الأمرين مانعا له، وكان في تعليله بحق الزوج فوائد:

منها: أن هذا مانع تعرفه المرأة وتعذره به، بخلاف حق اللّٰه تعالى فإنها لا تعرف عقوبة اللّٰه في ذلك.

ومنها: أن المرأة قد ترتدع بذلك، فترعى حق زوجها، إما خوفا وإما رعاية لحقه، فإنه إذا كان المملوك يمتنع عن هذا رعاية لحق سيده؛ فالمرأة أولى بذلك، لأنها خائنة في نفس المقصود منها، بخلاف المملوك؛ فإن المطلوب منه الخدمة، وفاحشته بمنزلة سرقة المرأة من ماله.

ومنها: أن هذا مانع مؤيس لها فلا تطمع فيه لا بنكاح ولا بسفاح، بخلاف الخلية من الزوج، فإنها تطمع فيه بنكاح حلال.

ومنها: أنه لو علل بالزنا فقد تسعى هي في فراق الزوج، والتزوج به، فإن هذا

---

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ٣٥٢) ومسلم (٣/ ١٥٠٨/ ١٨٩٧) وأبو داود (٣/ ١٧-١٨/ ٢٤٩٦) والنسائي (٦/ ٣٥٧/ ٣١٨٩) من حديث بريدة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٣٨٠) والبخاري (٨/ ٢٠٧/ ٤٤٧٧) ومسلم (١/ ٩٠/ ٨٦) وأبو داود (٢/ ٧٣٢-٧٣٣/ ٢٣١٠) والترمذي (٥/ ٣١٥/ ٣١٨٣) والنسائي (٧/ ١٠٣-١٠٤/ ٤٠٢٤) عن عبد اللّٰه بن مسعود رضي الله عنه.

إنما يحرم لحق الزوج خاصة، ولهذا إذا طلقت امرأته باختياره جاز لغيره أن يتزوجها، ولو طلقها ليتزوج بها كما قال سعد بن الربيع لعبد الرحمن بن عوف: إن لي امرأتين فاختر أيتهما شئت، حتى أطلقها وتتزوجها لكنه بدون رضاه لا يحل، كما في المسند عن النبي ﷺ أنه قال: «**ليس منا من خبب امرأة على زوجها ولا عبدا على مواليه**»[1] وقد حرم النبي ﷺ أن يخطب الرجل على خطبة أخيه، ويستام على سوم أخيه[2]، فإذا كان بعد الخطبة وقبل العقد لا يحل له أن يطلب التزوج بامرأته فكيف بعد العقد، والدخول والصحبة؟!.

فلو علل بأن هذا زنا محرم ربما طمعت في أن تفارق الزوج وتتزوجه، فإن كيدهن عظيم؛ وقد جرى مثل هذا، فلما علل بحق سيده وقال: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾ يئست من ذلك، وعلمت أنه يراعي حق الزوج، فلا يزاحمه في امرأته البتة، ثم لو قدر مع هذا أن الزوج رضي بالفاحشة، وأباح امرأته؛ لم يكن هذا مما يبيحها لحق اللَّه ولحقه أيضًا، فإنه ليس كل حق للإنسان له أن يسقطه، ولا يسقط بإسقاطه، وإنما ذاك فيما يباح له بذله، وهو ما لا ضرر عليه في بذله مثل ما يعطيه من فضل مال ونفع.

وأما ما ليس له بذله فلا يباح بإباحته، كما لو قال له: علمني السحر والكفر والكهانة! وأنت في حل من إضلالي، أو قال له: بعني رقيقا وخذ ثمني، وأنت في حل من ذلك»[3].

* * *

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ٣٥٢) وصححه ابن حبان (١٠/ ٢٠٥-٢٠٦/ ٤٣٦٣) والحاكم (٤/ ٢٩٨) ووافقه الذهبي من حديث بريدة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٤١١) والبخاري (٥/ ٤٠٦/ ٢٧٢٧) ومسلم (٣/ ١١٥٤-١١٥٥/ ١٥١٥) والنسائي (٧/ ٢٩٥-٢٩٦/ ٤٥١٤) وفي الكبرى (٤/ ١٤/ ٦٠٩٣) وابن ماجه (٢/ ٧٣٤/ ٢١٧٢) من طرق عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) مجموع الفتاوى (١٥/ ١١٩-١٢٥).

قوله تعالى: ﴿ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ ﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يخبر تعالى أن خبر يوسف وامرأة العزيز، شاع في المدينة وهي مصر، حتى تحدث به الناس ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ﴾ مثل نساء الكبراء والأمراء، ينكرن على امرأة العزيز وهو الوزير، ويعبن ذلك عليها ﴿ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾ أي: تحاول غلامها عن نفسه وتدعوه إلى نفسها ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ أي: قد وصل حبه إلى شغاف قلبها وهو غلافه.. ﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: في صنيعها هذا من حبها فتاها ومراودتها إياه عن نفسه»[1].

وقال ابن عاشور: «وقوله: ﴿فِي ٱلْمَدِينَةِ﴾ صفة لنسوة، والمقصود من ذكر هذه الصفة أنهن كن متفرقات في ديار من المدينة. وهذه المدينة هي قاعدة مصر السفلى وهي مدينة (منفيس) حيث كان قصر العزيز، فنقل الخبر في بيوت المتصلين ببيت العزيز. وقيل: إن امرأة العزيز باحت بالسر لبعض خلائلها، فأفشينه كأنها أرادت التشاور معهن، أو أرادت الارتياح بالحديث إليهن (ومن أحب شيئًا أكثر من ذكره). وهذا الذي يقتضيه قوله: ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا﴾ وقوله: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ﴾»[2]

وقال أبو حيان: «ومعنى ﴿فِي ٱلْمَدِينَةِ﴾ أنهم أشاعوا هذا الأمر من حب امرأة العزيز ليوسف، وصرحوا بإضافتها إلى العزيز، مبالغة في التشنيع؛ لأن النفوس أقبل لسماع ذوي الأخطار، وما يجري لهم، وعبرن بـ﴿تُرَٰوِدُ﴾ وهو المضارع الدال على أنه صار ذلك سجية لها، تخادعه دائمًا عن نفسه، كما تقول: زيد يعطي ويمنع، ولم يقلن: راودت فتاها، ثم نبهن على علة ديمومة المراودة، وهي كونه ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾؛ أي: بلغ حبه شغاف قلبها.. ثم نقمن عليها ذلك، فقلن: ﴿إِنَّا

---

(١) التفسير (٤/ ٢٣).

(٢) التحرير والتنوير (١٢/ ٢٥٩-٢٦٠).

لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: في تحير واضح للناس»[١].

وقال العدوي: «لما شاع أمر يوسف تحدث به النسوة، وخاضوا في شأن امرأة العزيز وضعفها أمام شهوتها، وقالوا إنها تراود فتاها -وهو الشاب الحديث السن- ﴿عَن نَّفْسِهِۦ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ أي: شق شغاف قلبها، وهو حجابه حتى وصل إلى فؤادها، وحبا منصوب على التمييز المحول عن الفاعل: أي شق حبه شغاف قلبها حتى وصل إلى الفؤاد، وذلك أشد أنواع الحب ﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ لأنه لا يليق بها وهي امرأة العزيز، وفي ذلك البيت الكبير أن تنزل إلى ذلك المستوى الذي لا يليق بمثلها، وهو مراودة الفتى، فإن اللائق بمثل امرأة العزيز أن تكون في عفة وعزة، ولم تكتف النسوة بوصف امرأة العزيز بالضلال، بل وصفنه بأنه بين وواضح لا يشك فيه أحد»[٢].

قال محمد رشيد رضا: «﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ﴾ النسوة جمع قلة للمرأة من غير مادة لفظها ولم يبين لنا التنزيل عددهن ولا أسماءهن ولا صفاتهن لأن الفائدة في العبرة محصورة في أن عملهن عمل جماعة قليلة يعهد في العرف ائتمارهن واتفاقهن على الاشتراك في مثل هذا المكر المنكر، في مدينة كبيرة كعاصمة مصر، التي بلغت منتهى فتن الحضارة، وما تقتضيه من التمتع بالشهوات والزينة، ولفظ النسوة مفرد مذكر فيجوز تذكير ضميره للفظه وتأنيثه لمعناه.

ومن غريب فتنة الروايات الباطلة أن يدعي بعضهم أن اللواتي أجبن دعوتها الآتية منهن كن أربعين امرأة، وهو مردود بالتعبير عن العاذلات كلهن بجمع القلة، وكذا ما علم بقرينة الحال والمقال؛ من أنهن من بيوتات كبار الدولة، فإن نساء البيوت الدنيا وكذا الوسطى لا يتسامين بعد الإنكار على امرأة العزيز كبير وزراء الملك، إلى الوصول إليها بالمكر والحيلة، لمشاركتها في فتنتها بل نعمتها، أو سلب عشيقها منها، ويؤيد ذلك ما يأتي من عاقبة حادثتهن، وكان من الطبيعي المعهود أن يعرفن نبأها معه، ويكون حديثهن الشاغل لهن في مجالسهن الخاصة، وكان خلاصته الوجيزة المؤدية لمرادهن منه؛ ما حكاه التنزيل عنهن وهو قولهن:

---

(١) البحر المحيط (٥/ ٣٠١).

(٢) دعوة الرسل (ص: ١٠٨).

﴿ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦۖ﴾ هذا خبر يراد به لازمه وهو التعجب والإنكار الصوري من النواحي أو الجهات الأربع:

(أولا): كون المتحدث عنها امرأة عزيز مصر وزير الملك الأكبر في علو مركزها.

(ثانيا): كونها تهين نفسها وتحقر مركزها بأن تكون مراودة لرجل عن نفسه، وشأن مثلها إن سخت بعفتها أن تكون مراوَدة عن نفسها لا مراوِدة لغيرها كما تقدم.

(ثالثا): أن الذي تراوده عن نفسه هو فتاها ورقيقها.

(رابعا): أنها بعد أن افتضح أمرها وعرف به سيدها وزوجها، وعاملها بالحلم، وأمرها باستغفار ربها؛ لا تزال مصرة على ذنبها، مستمرة على مراودتها، وهو ما أفاده قولهن (تراود) وهو فعل المضارع الدال على الاستمرار ﴿قَدۡ شَغَفَهَا حُبًّاۖ﴾ أي: قد اخترق حبه شغاف قلبها أي: غلافه المحيط به، وغاص في سويدائه، فملك عليها أمرها، حتى إنها لا تبالي ما يكون من عاقبة تهتكها، واللائق بمقامها الكتمان، ومكابرة الوجدان ﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ أي: إنا لنراها بأعين بصائرنا وحكم رأينا غائصة في غمرة من الضلال البين الظاهر البعيد عن محجة الهدى والصواب. وهن ما قلن هذا إنكارًا للمنكر وكرها للرذيلة، ولا حبا في المعروف ونصرا للفضيلة، وإنما قلنه مكرا وحيلة، ليصل إليها فيحملها على دعوتهن وإراءتهن بأعين أبصارهن، ما يبطل ما يدعين رؤيته بأعين بصائرهن، فيعذرنها فيما عذلنها عليه، فهو مكر لا رأي»[1].

* * *

---

(١) تفسير المنار (١٢/ ٢٩٠-٢٩١).

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾(١)

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ قال بعضهم: بقولهن ذهب الحب بها. وقال محمد بن إسحق: بل بلغهن حسن يوسف، فأحببن أن يرينه، فقلن ذلك ليتوصلن إلى رؤيته ومشاهدته، فعند ذلك ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ أي: دعتهن إلى منزلها لتضيفهن ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا﴾. قال ابن عباس وسعيد ابن جبير ومجاهد والحسن والسدي وغيرهم: هو المجلس المعد فيه مفارش، ومخاد، وطعام فيه ما يقطع بالسكاكين من أترج ونحوه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ وكان هذا مكيدة منها ومقابلة لهن في احتيالهن على رؤيته»(٢).

قال أبو السعود: ﴿وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ لتستعمله في قطع ما يعهد قطعه، مما قدم بين أيديهن وقرب إليهن من اللحوم والفواكه ونحوها، وهن متكئات، وغرضها من ذلك ما سيقع من تقطيع أيديهن، وقالت ليوسف وهن مشغولات بمعالجة السكاكين وإعمالها فيما بأيديهن من الفواكه وأضرابها؛ والعطف بالواو ربما يشير إلى أن قوله: ﴿ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ أي: ابرز لهن؛ لم يكن عقيب ترتيب أمورهن ليتم غرضها من استغفالهن»(٣).

قال أبو حيان: «وإذا كان المتكأ ليس معبرا به عما يؤكل، فمعلوم أن مثل هذا المجلس لابد فيه طعام وشراب، فيكون في جملة الطعام ما يقطع بالسكاكين.. ومضمونه: أنه يحتاج إلى أن يقطع بالسكين، وعادة من يقطع شيئًا أن يعتمد عليه، فيكون متكئًا عليه، قيل: وكان قصدها في بروزهن على هذه الهيئات، متكئات في

(١) يوسف: الآية (٣١).
(٢) التفسير (٤/ ٢٣).
(٣) تفسير أبي السعود (٤/ ٢٧١).

أيديهن سكاكين يحززن بها؛ شيئين:

أحدهما: دهشهن عند رؤيته، وشغلهن بأنفسهن، فتقع أيديهن على أيديهن، فيقطعنها فتبكتهن، ويكون ذلك مكرا بهن، إذ ذهلن عما أصابهن من تقطيع أيديهن، وما أحسسن به مع الألم الشديد لفرط ما غلب عليهن من استحسان يوسف، وسلبه عقولهن.

والثاني: التهويل على يوسف بمكرها إذا خرج على نساء مجتمعات في أيديهن الخناجر، توهمه أنهن يثبن عليه، فيكون يحذر مكرها دائما، ولعله يجيبها إلى مرادها على زعمها ذلك، ويوسف قد عصمه اللَّه من كل ما تريده به من السوء..

﴿وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ هذا الخطاب ليوسف ﷺ وخروجه يدل على طواعيتها، فيما لا يعصي اللَّه فيه، وفي الكلام حذف تقديره: فخرج عليهن»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في النهي عن الأكل متكئا

* عن أبي جحيفة ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**إني لا آكل متكئًا**»[٢].

★ **فوائد الحديث:**

قال الحافظ: «اختلف في صفة الاتكاء فقيل: أن يتمكن من الجلوس للأكل على أي صفة كان. وقيل: أن يميل على أحد شقيه. وقيل أن يعتمد على يده اليسرى من الأرض»[٣].

وقال: «واختلف السلف في حكم الأكل متكئا: فزعم ابن القاص أن ذلك من الخصائص النبوية. وتعقبه البيهقي فقال: قد يكره لغيره أيضًا لأنه من فعل المتعظمين، وأصله مأخوذ من ملوك العجم، قال: فإن كان بالمرء مانع لا يتمكن معه من الأكل إلا متكئا؛ لم يكن في ذلك كراهة. ثم ساق عن جماعة من السلف أنهم أكلوا كذلك، وأشار إلى حمل ذلك عنهم على الضرورة، وفي الحمل نظر.

---

(١) البحر المحيط (٥/ ٣٠٢).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ٣٠٨) والبخاري (٩/ ٦٧٥/ ٥٣٩٨) وأبو داود (٤/ ١٤٠-١٤١/ ٣٧٦٩) والترمذي (٤/ ٢٤٠/ ١٨٣٠) وابن ماجه (٢/ ١٠٨٦/ ٣٢٦٢).

(٣) الفتح (٩/ ٦٧٦).

وقد أخرج ابن أبي شيبة عن ابن عباس وخالد بن الوليد وعبيدة السلماني ومحمد بن سيرين وعطاء بن يسار والزهري: جواز ذلك مطلقا. وإذا ثبت كونه مكروها أو خلاف الأولى فالمستحب في صفة الجلوس للآكل أن يكون جاثيا على ركبتيه وظهور قدميه، أو ينصب الرجل اليمني ويجلس على اليسرى. واستثنى الغزالي من كراهة الأكل مضطجعا أكل البقل. واختلف في علة الكراهة: وأقوى ما ورد في ذلك ما أخرجه ابن أبي شيبة من طريق إبراهيم النخعي قال: كانوا يكرهون أن يأكلوا اتكاءة؛ مخافة أن تعظم بطونهم. وإلى ذلك يشير بقية ما ورد فيه من الأخبار فهو المعتمد، ووجه الكراهة فيه ظاهر، وكذلك ما أشار إليه ابن الأثير من جهة الطب والله أعلم»[(١)].

وقال ابن القيم: «صح عنه أنه قال: «لا آكل متكئا». وقال: إنما أجلس كما يجلس العبد، وآكل كما يأكل العبد»[(٢)]. وروى ابن ماجه في سننه أنه «نهى أن يأكل الرجل وهو منبطح على وجهه»[(٣)]. وقد فسر الاتكاء بالتربع، وفسر بالاتكاء على الشيء، وهو الاعتماد عليه، وفسر بالاتكاء على الجنب. والأنواع الثلاثة من الاتكاء، فنوع منها يضر بالآكل، وهو الاتكاء على الجنب، فإنه يمنع مجرى الطعام الطبيعي عن هيئتة، ويعوقه عن سرعة نفوذه إلى المعدة، ويضغط المعدة فلا يستحكم فتحها للغذاء. وأيضًا فإنها تميل ولا تبقى منتصبة، فلا يصل الغذاء إليها بسهولة. وأما النوعان الآخران فمن جلوس الجبابرة المنافي للعبودية، ولهذا قال: «آكل كما يأكل العبد، وكان يأكل وهو مقع»[(٤)] ويذكر عنه أنه كان يجلس للأكل متوركا على ركبتيه، ويضع بطن قدمه اليسرى على ظهر قدمه اليمنى تواضعا لربه ﷻ، وأدبا بين يديه، واحتراما للطعام وللمؤاكل. فهذه الهيئة أنفع هيئات الأكل وأفضلها؛ لأن الأعضاء كلها تكون على وضعها الطبيعي الذي خلقها الله

---

(١) فتح الباري (٩/ ٦٧٦).

(٢) أخرجه: أبو يعلى (٨/ ٣١٨/ ٤٩٣٠) والبغوي في شرح السنة (١٣/ ٢٤٧-٢٤٨/ ٣٦٨٣). وأورده الهيثمي في المجمع (٩/ ١٩) وقال: «رواه أبو يعلى وإسناده حسن». وهو في الصحيحة (٥٤٤) من حديث عائشة ﵂.

(٣) أخرجه: أبو داود (٤/ ١٤٣-١٤٤/ ٣٧٧٤) وابن ماجه (٢/ ١١١٨/ ٣٣٧٠) وصححه الحاكم (٤/ ١٢٩) ووافقه الذهبي من حديث ابن عمر ﵄.

(٤) أخرجه: أحمد (٣/ ١٨٠) ومسلم (٣/ ١٦١٦/ ٢٠٤٤) وأبو داود (٤/ ١٤٢/ ٣٧٧١) والترمذي في الشمائل (رقم ١٥١) والنسائي في الكبرى (٤/ ١٧١/ ٦٧٤٤) من حديث أنس ﵁.

سبحانه عليه، مع ما فيها من الهيئة الأدبية، وأجود ما اغتدى الإنسان إذا كانت أعضاؤه على وضعها الطبيعي، ولا يكون كذلك إلا إذا كان الإنسان منتصبا الانتصاب الطبيعي، وأردأ الجلسات للأكل الاتكاء على الجنب؛ لما تقدم من أن المريء وأعضاء الازدراد تضيق عند هذه الهيئة، والمعدة لا تبقى على وضعها الطبيعي؛ لأنها تنعصر مما يلي البطن بالأرض، ومما يلي الظهر بالحجاب الفاصل بين آلات الغذاء وآلات التنفس. وإن كان المراد بالاتكاء الاعتماد على الوسائد والوطاء الذي تحت الجالس؛ فيكون المعنى: أني إذا أكلت لم أقعد متكئا على الأوطية والوسائد، كفعل الجبابرة ومن يريد الإكثار من الطعام، لكني آكل بلغة كما يأكل العبد»[1].

* عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ يتكئ في حجري وأنا حائض فيقرأ القرآن»[2].

★ فوائد الحديث:

قال الحافظ: «وللمصنف في التوحيد: كان يقرأ القرآن ورأسه في حجري وأنا حائض. فعلى هذا فالمراد بالاتكاء وضع رأسه في حجرها»[3].

* * *

---

(١) زاد المعاد (٤/ ٢٢٠-٢٢٢).

(٢) رواه: أحمد (٦/ ١٣٥) والبخاري (١/ ٥٢٩/ ٢٩٧) ومسلم (١/ ٢٤٦/ ٣٠١) والنسائي (١/ ١٦١/ ٢٧٣) وابن ماجه (١/ ٢٠٨/ ٦٣٤).

(٣) الفتح (١/ ٥٣٠).

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾

★ غريب الآية:

حاش: أي بعدًا منه، فهي تنزيه لله، ولا تقل: حاش لك، بل حاشاك وحاشى لك.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «﴿وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ وذلك أنها كانت قد خبأته في مكان آخر ﴿فَلَمَّا﴾ خرج و﴿رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ﴾ أي أعظمنه أي: أعظمن شأنه، وأجللن قدره، وجعلن يقطعن أيديهن دهشا برؤيته، وهن يظنن أنهن يقطعن الأترج بالسكاكين، والمراد أنهن حزن أيديهن بها، قاله غير واحد..

وقد ذكر غير واحد أنها قالت لهن بعد ما أكلن وطابت أنفسهن، ثم وضعت بين أيديهن أترجا وآتت كل واحدة منهن سكينا: هل لكن في النظر إلى يوسف؟ قلن: نعم، فبعثت إليه تأمره أن اخرج إليهن، فلما رأينه جعلن يقطعن أيديهن، ثم أمرته أن يرجع ليرينه مقبلا ومدبرا، فرجع وهن يحززن في أيديهن، فلما أحسسن بالألم جعلن يولولن، فقالت: أنتن من نظرة واحدة فعلتن هذا، فكيف ألام أنا ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ ثم قلن لها: وما نرى عليك من لوم بعد هذا الذي رأينا، لأنهن لم يرين في البشر شبيهه ولا قريبا منه، فإنه ﷺ كان قد أعطي شطر الحسن.. فلهذا قال هؤلاء النسوة عند رؤيته ﴿حَٰشَ لِلَّهِ﴾. قال مجاهد وغير واحد: معاذ اللَّه ﴿وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾، وقرأ بعضهم: (ما هذا بِشَرِيٍّ) أي: بمشترى بشراء ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾ تقول هذا معتذرة إليهن بأن هذا حقيق أن يحب لجماله وكماله ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾ أي: فامتنع. قال بعضهم: لما رأين جماله الظاهر أخبرتهن بصفاته الحسنة التي

تخفى عنهن، وهي العفة مع هذا الجمال، ثم قالت تتوعده: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾[1]

قال أبو السعود: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ﴾ عطف على مقدر يستدعيه الأمر بالخروج وينسحب عليه الكلام أي: فخرج عليهن فرأينه، وإنما حذف تحقيقا لمفاجأة رؤيتهن، كأنها تفوت عند ذكر خروجه عليهن، كما حذف لتحقيق السرعة في قوله ﷻ: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾ بعد قوله: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ وفيه إيذان بسرعة امتثاله ﷺ بأمرها فيما لا يشاهد مضرته من الأفاعيل ﴿أَكْبَرْنَهُۥ﴾ عظمنه وهبن حسنه الفائق وجماله الرائع الرائق»[2].

قال القاسمي: ﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ أي: جرحنها، كما تقول: كنت أقطع اللحم فقطعت يدي، تريد: جرحتها. ﴿وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ أي: تنزيها له سبحانه عن صفات النقص والعجز، وتعجبا من قدرته على مثل ذلك الصنع البديع. وإنما نفين عنه البشرية لغرابة جماله، وأثبتن له الملكية، على نهج القصر، بناء على ما ركز في الطباع ألا أحسن من الملك، كما ركز فيها ألا أقبح من الشيطان. ولذلك يشبه، كل متناه في الحسن والقبح بهما»[3].

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ۝٣١ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ﴾ الآية.

بين اللَّه تعالى في هذه الآية الكريمة ثناء هؤلاء النسوة على يوسف بهذه الصفات الحميدة فيما بينهن، ثم بين اعترافهن بذلك عند سؤال الملك لهن أمام الناس في قوله: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ الآية»[4].

قوله: ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ﴾:

قال محمد رشيد رضا: «أي: حينئذ قالت لهن ما يعلم شرحه من قرينة الحال، لما جاء في التنزيل من إيجاز وإجمال: إذا كان الأمر مارأيتن بأعينكن، وما أكبرتن في أنفسكن، وما فعلتن بأيديكن، وما قلتن بألسنتكن، فذلكن هو الأمر البعيد الغاية

---

(١) التفسير (٤/ ٢٣-٢٤).

(٢) تفسير أبي السعود (٤/ ٢٧١-٢٧٢).

(٣) المحاسن (٩/ ٢١٩-٢٢٠).

(٤) أضواء البيان (٣/ ٧٢).

الذي لمتنني فيه، وأسرفتن في عذلي عليه، إذ قلتن من قبل ما قلتن. فالمشار إليه بكاف البعد هو أمر لومهن لها، أو يوسف البعيد في حقيقته البديع في صورته عما تصورونه به، فما هو عبراني أو كنعاني مملوك، وخادم صعلوك، قد شغف مولاته المالكة لرقه حبا وغراما، فهي تراوده عن نفسه ضلالا منها وهياما، بل هو أكبر من ذلك وأعظم، هو ملك روحاني، تجلى في شكل إنساني، أوتي من روعة الجمال ما خلب ألبابكن في الوهلة الأولى من ظهوره لكن، فما قولكن في أمري معه وافتتاني به، وإنما ترعرع في داري، وبلغ أشده واستوى بين سمعي وبصري، فأنا أشاهده في قعوده وقيامه، ويقظته ومنامه، وطعامه وشرابه، وحركته وسكونه، وأخلو به في ليلي ونهاري، فأراه بشرا سويا، إنسيا لا جنيا، وجسدا لا ملكا روحانيا، فأتراءى له في زينتي، وأعرض على نظره ما ظهر وما خفي من محاسني، فيعرض عنها احتقارا، فأتصباه بكل ما أملك من كلام عذب يخلب اللب، ولين قول وخشوع صوت يرقق القلب، فلا يصبو إلي، وأمد عيني إلى محاسنه جامعة فيهما كل ما يكنه قلبي من صبابة وشوق وخلاعة، مع فتور جفن، وانكسار طرف، وطول ترنيق وتحديق، فلا يرفع إلي طرفا، ولا يميل نحوي عطفا، بل تتجلى فيه الروح الملكية بأظهر مجاليها، والعبادة الإلهية بأكمل معانيها، أمثل هذا الملك القاهر يسمى عبدا طائعا، ومثل هذه المرأة المقهورة تسمى سيدة مالكة، تأمر بل تشير فتطاع، وينكر عليها أن تراود فترد، ثم تريد إظهار سلطانها فتعجز؟ لقد انكشف القناع، فلا أمر لمن لا يطاع ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾ أي: استمسك بعروة عصمته التي ورثها عمن نشؤوا عليها، كأنه يطلب مزيد الكمال منها.

ههنا أقول: واللّٰه ما عجبي من يوسف أن راودته مولاته فاستعصم، وأن قالت له: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ فقال: أعوذ باللّٰه، فكم قال هذا من ليس له مقامه في معرفته باللّٰه ومراقبته لله، وقد روي أن رجلا راود أعرابية في ليلة ليلاء، وقال: إنه لا يرانا غير كواكب هذه السماء، فقالت: وأين مكوكبها؟

وإنما عجبي؛ بل إعجابي بيوسف ﷺ أن نظره إلى اللّٰه أو نظر اللّٰه إليه لم يدع في قلبه البشري مكانا خاليا لنظرات هذه العاشقة، التي شغفها حبا، لتصبيها له قبل أن يخونها صبرها فتنفره بمصارحتها، وإن من أقوى غرائز البشر حب الإنسان لمن يعتقد أنه يحبه، وإن كان مشغول القلب عنه بحب من لا يحبه، كما قيل:

ونظرة المحبوب للمحب والله عن إنسان عين القلب

وأما الخالي فلا يكاد يسلم من تأثير التحبب في استمالته كما قالت علية بنت المهدي العباسي: تحبب فإن الحب داعية الحب. فالحب أقوى غرائز البشر، وأكبر ما يفتن الرجال بالنساء والنساء بالرجال، وإن من الحق لصادقا وكاذبا، وإن من العشق لعذريا عفيفا، وشهويا فاسقا، وإن مفاسده في الحضارة لكبيرة، وإن فتنته لعظيمة ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ﴾ به، أقسم لكن آكد الإيمان، ولتسمع ذلك منه الأذنان ﴿لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ أي: الأذلة المقهورين، تعني أن زوجها العزيز يعاقبه بما تريد من إلقائه في السجن وهو المدير له المتولي لأمره، ومن جعله كغيره من العبيد بعد تكريم مثواه وجعله كولده، وهذا أشد مما أنذرته أولا؛ إذ قالت لزوجها عند التقائهما به لدى الباب: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، هنالك أنذرته أحد العقابين: سجن غير مؤكد، أو عذاب أليم نكرة غير معرف، قد يكون ذلك السجن المطلق بأخف صوره وأقلها، والعذاب المنكر بأهون أنواعه وألطفها، فذاك بحبسه في حجرة من الدار، وهذا بلطمة يحتدم بها ما في خديه من الاحمرار، وهنا أنذرته الجمع بينهما، وأكدت السجن بالقسم وبنون التوكيد الثقيلة، وفسرت العذاب بالصغار الذي تأباه الأنفس الكبيرة، واكتفت فيه بالنون الخفيفة، وهو أشق على مثل يوسف من العذاب الأليم بالأعمال الشاقة، لأنها أهون على كرام الناس من الهوان والصغار باحتقار النفس، وفعله صغر كتعب، وأما صغر كضخم فهو خاص بصغر الجسم، ومن الأول قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾[1].

وفي هذا التهديد من ثقة هذه المرأة بسلطانها على زوجها الوزير الكبير على علمه بأمرها، واستعظامه لكيدها، ما حقه أن يخيف يوسف من تنفيذ إرادتها، ويثبت عنده عدم غيرته عليها، كما هو شأن كثير من الوزراء المترفين، ولاسيما العاجزين عن إحصان أزواجهن، والمحرومين من نعمة الأولاد منهن»[2].

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾:

---

(١) التوبة: الآية (٢٩).

(٢) تفسير المنار (١٢/ ٢٩٤-٢٩٧).

قال المراغي: «أي: ولئن لم يفعل ما آمره به مستقبلا كما لم يفعله ماضيا: ليسجنن وليكونن من الأذلة المقهورين، فإن زوجي لا يخالف لي رغبة، ولا يعصيني في أمر؛ وسيعاقبه بما أريد، ويلقيه في غيابات السجون، ويجعله كغيره من العبيد بعد إكرام مثواه وجعله كولده..

وربما تكون مبالغتها في تهديده بمحضر من هؤلاء النسوة، لما في قلبها منه من غل وجوى بظهور كذبها وصدقه، وتصميمه على عصيان أمرها، ولتظهر ليوسف أنها ليست في أمرها على خيفة من أحد فتضيق عليه الحيل، ولينصحنه في موافقتها ويرشدنه إلى الخلاص من عذابها.

يالله! إن هذا الموقف يهد الجبال الراسيات، وتدبير لا قبل لأشد العزائم على احتماله، فامرأة ماكرة هتكت سترها، وكاشفت نسوة بلدها بما تسر وتعلن من أمرها، ونسوة تواطأن معها على الكيد له كما كادت له من قبل بمراودته عن نفسه، ولا سبيل إلى دفع هذه الضراء، وإبعاد تلك اللأواء، إلا بمعونة من ربه، وحفظه من نزغات الشيطان وكلاءة الرحمن»[1].

قال العدوي: «والعجيب لبعض المفسرين، ينسبون ليوسف ﷺ من الأكاذيب ما تنزهه منه التي اتهمته، وهي امرأة العزيز، وكأنهم أصبحوا خصما ثانيا ليوسف ﷺ، يحاولون بشتى الأساليب أن ينسبوا إليه ما هو منه براء، وياليتهم كانوا في إنصافهم كامرأة العزيز، بل كانوا أقل منها إنصافا.

ومن عجيب أمرهم، أن يقبلوا في قصة ما صح وما لم يصح من الروايات، ذاهلين عن أنه فتى أعده اللَّه لأن يكون رسولا، وهيأه لأن يكون قدوة صالحة، ومثالا يحتذى في العفة والأمانة، يجب أن يهذب بذلك المثل العملي: النساء والرجال، ونسوا أن العبرة في قصة يوسف مع امرأة العزيز أنه شاب من أجمل الشبان صورة، وأكملهم بنية، يخلو بامرأة ذات منصب وسلطان، هي سيدة له وهو عبد لها، فيحملها الافتتان بجماله وكماله على أن تذل له، وتخون بعلها، وتدوس شرفها، وتراوده عن نفسه، والمعهود في أدنى النساء تربية ومنزلة أن يكن مطلوبات لا طالبات، فيسمعها يوسف من حكمته، ويريها من كماله وعصمته؛ ما هو أفضل

---

(١) تفسير المراغي (١٢/ ١٤٠-١٤١).

قدوة في الإيمان بالله والاعتصام به، وفي حفظ أمانة السيد الذي أحسن مثواه، وائتمنه على عرضه وشرفه، ويقول لها: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ فتشعر بالذلة والمهانة، والتفريط بالشرف والصيانة، فتهم بضربه أو قتله، ويهم هو بالدفاع عن نفسه، ويكاد يحصل ما لا تحمد عقباه من جراء ذلك النزاع ﴿لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ﴾

فكيف يتفق ذلك وما قاله المفسرون من أقوال منكرة، وما نسبوه إليه من روايات مختلقة، ولكن الله تعالى تكفل ببراءة يوسف على يد العزيز بعد شهادة الشاهد، وتكفل ببراءة يوسف على لسان امرأة العزيز نفسها أمام النسوة، وهي شهادة لها قيمتها في المسألة؛ لأنها الخصم ليوسف ومصدر اتهامه.

لما شعرت امرأة العزيز بأن النسوة عذرنها في شغفها بيوسف، واشتركن معها في إكبار ذلك الجمال، اعترفت أمامهن بأنها التي راودته عن نفسه فاستعصم، ولم ترد أن تقف عند ذلك الحد، بل أصرت على التمادي في الباطل، فقالت: ﴿وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ قلنا فيما تقدم أن حبها ليوسف قد وصل بها إلى حد الجنون، ولولا ذلك ما أصرت على مطالبة يوسف بالفاحشة، وما تجرأت على هذه الكلمة في جمع من النسوة.

ولعل الذي هون عليها ذلك؛ أنها أمنت أمر النساء، لأنهن أصبحن شريكات لها في محبة يوسف، أو عاذرات لها في تلك المحبة، ورأت من زوجها العزيز سهولة ولينا، إذ كل ما قاله لها عند ظهور كذبها وصدق يوسف ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ ۝٢٨ يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ﴾.

وإذا كان زوجها من اللين وعدم الغيرة إلى ذلك الحد، والنسوة اللاتي تكلمن في شأنها، قد أمنتهن أن يتكلمن فيها مرة ثانية، وهي امرأة العزيز صاحب خزائن الملك، وهي السيدة المطاعة، ويوسف فتاها وخادمها، فلماذا لا تبقى على طمعها فيه، ورجائها في الحصول على غايتها، وقد خاطبت يوسف أول مرة بقولها: ﴿هَيۡتَ لَكَۚ﴾ أي: بأسلوب لين هين، فيه إغراء للمطلوب، فلم يجبها يوسف إلى ما طلبت، فرأت أن تلون له الخطاب، وتغير له الأسلوب، فخاطبته خطاب المهدد المتوعد، وقالت: ﴿وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾، وهنا كشفت القناع عن أنها صاحبة الأمر والنهي، وأن أمر السجن والتعذيب في يدها

وتحت سلطانها، فأقسمت للنسوة إن لم يفعل يوسف ما تريده منه؛ لا بد أن يسجن ويحشر مع الأذلاء، من اللصوص وسفاكي الدماء وأصحاب الجرائم»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضيلة يوسف عليه السلام وأنه أعطي شطر الحسن

* عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**أعطي يوسف شطر الحسن**»[٢].

★ غريب الحديث:

شطر: الشطر: نصف الشيء، ويستعمل في الجزء منه، جمعه أشطر وشطور.

★ فوائد الحديث:

قال ابن القيم: «قالت طائفة: المراد منه أن يوسف أوتي شطر الحسن الذي أوتيه محمد ﷺ، فالنبي بلغ الغاية في الحسن، ويوسف بلغ شطر تلك الغاية. قالوا ويحقق ذلك ما رواه الترمذي من حديث قتادة عن أنس قال: «ما بعث اللَّه نبيًا إلا حسن الوجه، حسن الصوت، وكان نبيكم ﷺ أحسنهم وجهًا، وأحسنهم صوتًا»[٣]، والظاهر أن معناه أن يوسف ﷺ، اختص على الناس بشطر الحسن، واشترك الناس كلهم في شطره، فانفرد عنهم بشطره وحده، وهذا ظاهر اللفظ، فلماذا يعدل عنه؟ واللام في الحسن للجنس، لا للحسن المعين المعهود المختص بالنبي ﷺ، وما أدري ما الذي حملهم على العدول عن هذا إلى ما ذكروه؟ وحديث أنس لا ينافي هذا؛ بل يدل على أن النبي ﷺ كان أحسن الأنبياء وجها وأحسنهم صوتا، ولا يلزم من كونه ﷺ أحسنهم وجها أن لا يكون يوسف اختص عن الناس بشطر الحسن، واشتركوا هم في الشطر الآخر؛ ويكون النبي ﷺ قد شارك يوسف

---

(١) دعوة الرسل (ص: ١١٠-١١١).

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ١٤٨-١٤٩) ومسلم (١/ ١٤٥-١٤٧/ ١٦٢) في حديث المعراج الطويل.

(٣) أخرجه: ابن عدي في (الكامل في الضعفاء) (٢/ ٤٣٤) وقال: «وهذا لا أعلم أحدا جود إسناده ويوصله غير عباس البحراني وغيره أرسله». والترمذي في الشمائل (ص: ١٦٨ رقم ٢٧٤) المختصر. وضعفه الشيخ الألباني لإرساله، وقال العراقي في تخريج الإحياء (٢/ ٢٧١): «أخرجه الترمذي في الشمائل عن قتادة.. ورويناه متصلا في الغيلانيات من رواية قتادة عن أنس، والصواب الأول قاله الدارقطني، ورواه ابن مردويه في التفسير من حديث علي ابن أبي طالب وطرقه كلها ضعيفة».

فيما اختص به من الشطر، وزاد عليه بحسن آخر من الشطر الثاني، والله أعلم»[١].

قال الحافظ: «فعلى هذا فيحمل حديث المعراج على أن المراد غير النبي ﷺ، ويؤيده قول من قال: إن المتكلم لا يدخل في عموم خطابه، وأما حديث الباب فقد حمله ابن المنير على أن المراد أن يوسف أعطي شطر الحسن الذي أوتيه نبينا ﷺ، والله أعلم»[٢].

قال العيني: «وحمله بعضهم على أن المراد: أن يوسف أعطي شطر الحسن الذي أوتيه النبي ﷺ وفيه ما فيه»[٣].

قال ابن كثير: «قال السهيلي وغيره من الأئمة: معناه أنه كان على النصف من حسن آدم عليه السلام، لأن الله تعالى خلق آدم بيده، ونفخ فيه من روحه، فكان في غاية نهايات الحسن البشري، ولهذا يدخل أهل الجنة الجنة على طول آدم وحسنه، ويوسف كان على النصف من حسن آدم، ولم يكن بينهما أحسن منهما، كما أنه لم تكن أنثى بعد حواء أشبه بها من سارة امرأة الخليل عليه السلام»[٤].

قال ابن قتيبة: «إن الناس يذهبون في نصف الحسن الذي أعطيه يوسف عليه السلام؛ إلى أن الله سبحانه أعطاه نصف الحسن، وأعطى العباد أجمعين النصف الآخر وفرقه بينهم. وهذا غلط بين لا يخفى على من تدبره إذا فهم ما قلناه، والذي عندي في ذلك: أن الله تبارك وتعالى جعل للحسن غاية وحدا، وجعله لمن شاء من خلقه؛ إما للملائكة أو للحور العين، فجعل ليوسف عليه السلام نصف ذلك الحسن، ونصف ذلك الكمال. وقد يجوز أن يكون جعل لغيره ثلثه، ولآخر ربعه، ولآخر عشره، ويجوز أن لا يجعل لآخر منه شيئًا، وكذلك لو قال قائل: إنه أعطي نصف الشجاعة، لم يجز أن يكون أعطي نصفها وجعل للخلق كلهم النصف الآخر، ولو كان هذا هو المعنى لوجب أن يكون الذي أعطي نصف الشجاعة يقاوم العباد جميعًا وحده، ولكن معناه أن للشجاعة حدا يعلمه الله تعالى، ويجعله لمن شاء من خلقه، ويعطي غيره النصف من ذلك، ويعطي لآخر الثلث أو الربع أو العشر وما أشبه ذلك»[٥].

---

(١) بدائع الفوائد (٣/ ٢٠٦).
(٢) الفتح (٧/ ٢٦٧).
(٣) عمدة القاري (١١/ ٦٠٤).
(٤) البداية (١/ ١٩٢).
(٥) تأويل مختلف الحديث (٣١٦).

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾

★ غريب الآية:

أصب: من صبا يصبو صبوًا وصبوة: إذا نزع واشتاق وفعل فعل الصبيان.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وهذا الخبر من اللَّه، يدل على أن امرأة العزيز قد عاودت يوسف في المراودة عن نفسه، وتوعدته بالسجن والحبس إن لم يفعل ما دعته إليه، فاختار السجن على ما دعته إليه من ذلك، لأنها لو لم تكن عاودته وتوعدته بذلك، كان محالا أن يقول: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِۖ﴾، وهو لا يدعى إلى شيء، ولا يخوف بحبس»[(١)].

وقال ابن كثير: «استعاذ يوسف ﷺ من شرهن وكيدهن، و﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِۖ﴾ أي: من الفاحشة ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ أي: إن وكلتني إلى نفسي؛ فليس لي منها قدرة ولا أملك لها ضرا ولا نفعا إلا بحولك وقوتك، أنت المستعان وعليك التكلان، فلا تكلني إلى نفسي ﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ الآية؛ وذلك أن يوسف ﷺ عصمه اللَّه عصمة عظيمة، وحماه فامتنع منها أشد الامتناع، واختار السجن على ذلك، وهذا في غاية مقامات الكمال، أنه مع شبابه وجماله وكماله تدعوه سيدته، وهي امرأة عزيز مصر، وهي مع هذا في غاية الجمال والمال والرياسة، ويمتنع من ذلك ويختار السجن على ذلك؛ خوفا من اللَّه ورجاء ثوابه»[(٢)].

---

(١) جامع البيان (١٦/ ٨٧).

(٢) التفسير (٤/ ٢٤-٢٥).

قوله: ﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾؛ قال القرطبي: «أي: ممن يرتكب الإثم ويستحق الذم، أو ممن يعمل عمل الجهال؛ ودل هذا على أن أحدا لا يمتنع عن معصية اللَّه إلا بعون الله؛ ودل أيضًا على قبح الجهل والذم لصاحبه»(١).

قال ابن القيم: «وقد جمع اللَّه سبحانه وتعالى ليوسف الصديق صلوات اللَّه وسلامه عليه، بين الأمرين، فاختار عقوبة الدنيا بالسجن على ارتكاب الحرام، فقالت المرأة: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ۝٣٢ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾. فاختار السجن على الفاحشة، ثم تبرأ إلى اللَّه من حوله وقوته، وأخبر أن ذلك ليس إلا بمعونة اللَّه له وتوفيقه وتأييده لا من نفسه، فقال: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾، فلا يركن العبد إلى نفسه وصبره وحاله وعفته، ومتى ركن إلى ذلك تخلت عنه عصمة اللَّه، وأحاط به الخذلان»(٢).

وقال: «قول يوسف الصديق: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝٣٣ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ وصَرْفُ كَيْدِهِنَّ هو صَرْفُ دواعي قلوبهن ومكرهن بألسنتهن وأعمالهن، وتلك أفعال اختيارية، وهو سبحانه الصارف لها، فالصرف فعله والانصراف أثر فعله؛ وهو فعل النسوة»(٣).

وقال شيخ الإسلام: «وفي قول يوسف: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ عبرتان:

إحداهما: اختيار السجن والبلاء على الذنوب والمعاصي.

والثانية: طلب سؤال اللَّه ودعائه أن يثبت القلب على دينه، ويصرفه إلى طاعته، وإلا فإذا لم يثبت القلب؛ وإلا صبا إلى الآمرين بالذنوب وصار من الجاهلين.

ففي هذا توكل على اللَّه واستعانة به، أن يثبت القلب على الإيمان والطاعة، وفيه صبر على المحنة والبلاء، والأذى الحاصل إذا ثبت على الإيمان والطاعة.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٩/ ١٨٥).

(٢) روضة المحبين (ص: ٣٣١).

(٣) شفاء العليل (١/ ١٦٧).

وهذا كقول موسى عليه السلام لقومه: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[١] لما قال فرعون: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[٢].

وكذلك قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[٣].

ومنه قول يوسف عليه السلام: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ وهو نظير قوله: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾[٤] وقوله: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾[٥] وقوله: ﴿بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾[٦].

فلا بد من التقوى بفعل المأمور والصبر على المقدور، كما فعل يوسف عليه السلام: اتقى اللَّه بالعفة عن الفاحشة، وصبر على أذاهم له بالمراودة والحبس، واستعان اللَّه ودعاه، حتى يثبته على العفة، فتوكل عليه أن يصرف عنه كيدهن، وصبر على الحبس.

وهذا كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾[٧] وكما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُوا۟ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ ۚ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ﴾[٨]؛ فإنه لا بد من أذى لكل من كان في الدنيا، فإن لم يصبر على الأذى في طاعة اللَّه، بل اختار المعصية؛ كان ما يحصل له من الشر أعظم مما فر منه بكثير. ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟﴾[٩].

---

(١) الأعراف: الآية (١٢٨).
(٢) الأعراف: الآيتان (١٢٧ و ١٢٨).
(٣) النحل: الآيتان (٤١ و ٤٢).
(٤) آل عمران: الآية (١٢٠).
(٥) آل عمران: الآية (١٨٦).
(٦) آل عمران: الآية (١٢٥).
(٧) العنكبوت: الآية (١٠).
(٨) الحج: الآيات (١١-١٣).
(٩) التوبة: الآية (٤٩).

ومن احتمل الهوان والأذى في طاعة اللَّه على الكرامة والعز في معصية اللَّه، كما فعل يوسف ﷺ وغيره من الأنبياء والصالحين؛ كانت العاقبة له في الدنيا والآخرة، وكان ما حصل له من الأذى قد انقلب نعيما وسرورا، كما أن ما يحصل لأرباب الذنوب من التنعم بالذنوب ينقلب حزنا وثبورا.

فيوسف ﷺ خاف اللَّه من الذنوب، ولم يخف من أذى الخلق وحبسهم إذ أطاع اللَّه، بل آثر الحبس والأذى مع الطاعة على الكرامة والعز وقضاء الشهوات، ونيل الرياسة والمال مع المعصية، فإنه لو وافق امرأة العزيز، نال الشهوة، وأكرمته المرأة بالمال والرياسة، وزوجها في طاعتها، فاختار يوسف الذل والحبس، وترك الشهوة والخروج عن المال والرياسة، مع الطاعة على العز والرياسة والمال وقضاء الشهوة مع المعصية.

بل قدم الخوف من الخالق على الخوف من المخلوق، وإن آذاه بالحبس والكذب، فإنها كذبت عليه؛ فزعمت أنه راودها ثم حبسته بعد ذلك.

وقد قيل: إنها قالت لزوجها إنه هتك عرضي، لم يمكنها أن تقول له راودني، فإن زوجها قد عرف القصة؛ بل كذبت عليه كذبة تروج على زوجها؛ وهو أنه قد هتك عرضها بإشاعة فعلها، وكانت كاذبة على يوسف، لم يذكر عنها شيئًا؛ بل كذبت أولا وآخرا، كذبت عليه بأنه طلب الفاحشة، وكذبت عليه بأنه أشاعها، وهي التي طالبت وأشاعت، فإنها قالت للنسوة: ﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾ فهذا غاية الإشاعة لفاحشتها، لم تستر نفسها.

والنساء أعظم الناس إخبارا بمثل ذلك، وهن قبل أن يسمعن قولها قد قلن في المدينة: ﴿ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾، فكيف إذا اعترفت بذلك وطلبت رفع الملام عنها؟

وقد قيل: إنهن أعنها في المراودة، وعذلنه على الامتناع، ويدل على ذلك قوله: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ وقوله: ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ فدل على أن هناك كيدا منهن، وقد قال لهن الملك: ﴿مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، فهن لم

يراودنه لأنفسهن؛ إذ كان ذلك غير ممكن وهو عند المرأة في بيتها وتحت حجرها؛ لكن قد يكن أعن المرأة على مطلوبها.

وإذا كان هذا في فعل الفاحشة فغيرها من الذنوب أعظم، مثل الظلم العظيم للخلق، كقتل النفس المعصومة، ومثل الإشراك بالله، ومثل القول على الله بلا علم، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[1] فهذه أجناس المحرمات التي لا تباح بحال ولا في شريعة وما سواها وإن حرم في حال فقد يباح في حال»[2].

وقال: «وقوله: ﴿ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ بصيغة جمع التذكير وقوله: ﴿كَيْدَهُنَّ﴾ بصيغة جمع التأنيث، ولم يقل مما يدعينني إليه، دليل على الفرق بين هذا وهذا، وأنه كان من الذكور من يدعوه مع النساء إلى الفاحشة بالمرأة، وليس هناك إلا زوجها»[3].

قال ابن العربي: «فيها مسألتان:

المسألة الأولى: أكره يوسف على الفاحشة بالسجن، وأقام فيه سبعة أعوام، وما رضي بذلك لعظيم منزلته وشريف قدره، ولو أكره رجل بالسجن على الزنا ما جاز له ذلك إجماعا، فإن أكره بالضرب فاختلف فيه العلماء؛ والصحيح أنه إذا كان فادحا فإنه يسقط إثم الزنا وحده.

وقال بعض علمائنا: إن الإكراه لا يسقط الحد، وهو ضعيف؛ فإن الله لا يجمع على عبده العذابين، ولا يصرفه بين البلاءين؛ فإنه من أعظم الحرج في الدين، وصبر يوسف على السجن، واستعاذ من الكيد فقال: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ﴾ الآيتين.

المسألة الثانية: قوله: ﴿أَحَبُّ﴾: بناء أفعل في التفضيل يكون للمشتركين في الشيء، ولأحدهما المزيد في المشترك فيه على الآخر، ولم يكن المدعو إليه حبيبا إلى يوسف، ولكنه كنحو القول: الجنة أحب إلي من النار، والعافية أحب إلى قلبي

---

(١) الأعراف: الآية (٣٣).

(٢) مجموع الفتاوى (١٥/ ١٣٠-١٣٤).

(٣) مجموع الفتاوى (١٥/ ١١٩).

من البلاء»[1].

وقال العدوي: «﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ جواب رجل أعده الله لأن يكون نبيًّا، وهيأه لأن يكون زعيما دينيا، ما أبرده على قلب المؤمن، وأحبه إلى نفسه، يقول يوسف فيه مخاطبا لربه ومولاه وصاحب الفضل الأول عليه: إن السجن على ما فيه من شظف العيش، وخشونة الفراش، وحيلولة بين الرجل وبين الحياة؛ هو أحب إلى نفسي مما يدعونني إليه، لأنهن يدعونني إلى عصيانك، والخروج على طاعتك، وامتهان النفس، وضياع الخلق والكرامة، وضعف الإرادة، فأنا أفضل أن أعيش في السجن متحملا ما فيه من تعذيب على ما يدعونني إليه من عصيانك، والفسوق عن أمرك.

وإنها لعبرة عظيمة من نبي الله يوسف، ترينا كيف يؤثر الإنسان غليظ العيش على ناعمه ما دام ذلك العيش الناعم من ورائه ضرر يتعلق بالخلق أو النفس، ومن حق الزعماء أن يكثروا من قراءة هذه الجملة عند ما يعاملهم الغاصب معاملة امرأة العزيز ليوسف، حينما طلبت منه ما لا يليق بخلقه وكرامته، وتوعدته إن لم يجبها إلى ما طلبت أن يسجن، أو يعذب العذاب الأليم، فقال لها: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ فإذا كانت امرأة العزيز تملك سجني فإنها لا تملك خلقي وكرامتي، وإذا كانت تستطيع أن تعذب جسمي؛ فإنها لا تملك أن تعذب روحي ونفسي..

وكم أعان السجن على حق، ومحص من نفوس، وأعدها لأن تكون قوية مستعدة للطوارئ والأحداث، وكم خلق السجن لأنصار الباطل أعداء، ولأنصار الحق أولياء، ولحزب الشيطان قوة لا قبل لهم بها، وما من مبدأ من المبادئ إلا وهو في حاجة إلى ما ينميه، ويضع فيه إكسير الحياة، ولا شيء أنفع للمبادئ من اضطهادها، وللعقائد من الفتن التي تمر بأصحابها.

﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ فزع من يوسف إلى الله تعالى في ذلك الوقت العصيب، ورجوع إليه في وقت اشتدت فيه ظلمات الفتنة، واستفحل أمر النسوة، وكاد أن يطغى فيه حزب الشيطان على حزب الرحمن، فخلا الجو

(١) أحكام القرآن (٣/ ١٠٨٥-١٠٨٦).

لامرأة العزيز، وأمنت كلام النسوة، واطمأنت من جهة زوجها، لأنها جربت عليه ضعف الغيرة، فهددت وتوعدت، وأرغت وأزبدت، وقالت له بلغة الآمر الذي لا يخالف: إنك إن لم تفعل ما آمرك به سجنتك وعذبتك، وأنزلتك من ذلك البيت الرفيع إلى درجة المجرمين، فيخاطب ربه بأن السجن أحب إليه مما يدعونه إليه، ثم يلجأ إليه أن يصرف عنه كيدهن بلطفه وتدبيره، وأنه إن لم يفعل اللَّه -وهو فاعل ولابد- يميل يوسف إليهن، ويدخل في عداد الجاهلين الذين لا يعملون بما يعلمون، وهو في معنى الدعاء من يوسف في وقت الشدة.

وجدير بمن دعا ربه في ذلك الوقت ليخلصه من محنته، وينقذه من فتنته، ولا هم له من طلب الخلاص إلا إرضاء ربه، والوقوف عند حدوده.

جدير بمن لجأ إلى ربه في ذلك الوقت أن يستجيب اللَّه دعوته، ويعطيه ما طلب، ولذلك قال: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّۚ﴾.

ثم علل ذلك بقوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ فهو سميع لأقوال يوسف، عليم بما يريد ويقصد، وكذلك هو سميع لامرأة العزيز، عليم بجبروتها وسلطانها، وفتنتها ليوسف بوسائل مختلفة، فمرة تحاول الوقيعة بينه وبين العزيز، وتقلب الحق باطلا، والباطل حقا، وتريه أنه أراد سوءا بأهله، وجزاؤه في ذلك: السجن أو العذاب الأليم، ومرة تقول للنسوة على مسمع من يوسف ﴿وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ ونسيت أن هناك إلها يعلم سرها ونجواها، ويدبر ليوسف الخير كما تدبر له الشر، وأن تدبيره فوق تدبيرها، لأن تدبيرها إلى فساد، وتدبيره إلى صلاح.

وقد نسب يوسف المكر إلى النسوة جميعهن في قوله: ﴿وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ﴾ لأنهن شاركن امرأة العزيز في محبته، والتوله به، أو لأنهن عذرنها في محبتها، وطلبن منه أن يطيعها، وزين له مطاوعتها، وقلن له إياك وإلقاء نفسك في السجن والصغار.

وعندي أن يوسف قد نسب المكر إلى النسوة جميعًا مع أن الماكر به امرأة العزيز وحدها؛ لأن مكر المرأة الواحدة ينسب إلى الصنف كله، فهو مكر لصنف النسوة، أو للإشارة إلى أن مكرها بلغ من عظم أثره أن صار مكرا للنساء جميعهن، فهو كيد امرأة

واحدة في ظاهر الأمر، ولكنه في معنى مكر الجماعة»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في صبر يوسف على السجن في ذات الله

* عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «**يرحم الله لوطًا لقد كان يأوي إلى ركن شديد، ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي**»[٢].

★ **فوائد الحديث:**

قال شيخ الإسلام: «وأما الصبر عن الشهوات والهوى الغالب لله، لا رجاء لمخلوق ولا خوفا منه، مع كثرة الدواعي إلى فعل الفاحشة، واختياره الحبس الطويل على ذلك كما قال يوسف: ﴿رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ﴾؛ فهذا لا يوجد نظيره إلا في خيار عباد الله الصالحين وأوليائه المتقين، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ فهذا من عباد الله المخلصين الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ﴾[٣].

ولهذا لم يصدر من يوسف الصديق ذنب أصلا، بل الهم الذي هم به لما تركه لله كتب له به حسنة، ولهذا لم يذكر عنه سبحانه توبة واستغفارا كما ذكر توبة الأنبياء كآدم وداود ونوح وغيرهم، وإن لم يذكر عن أولئك الأنبياء فاحشة ولله الحمد، وإنما كانت توباتهم من أمور أخر هي حسنات بالنسبة إلى غيرهم، ولهذا لا يعرف ليوسف نظير فيما ابتلي به من دواعي الفاحشة، وتقواه وصبره في ذلك، وإنما يعرف لغيره ما هو دون ذلك؛ كما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «**سبعة يظلهم الله تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل معلق قلبه بالمسجد إذا خرج حتى يعود إليه، ورجلان تحابا في الله اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل**

---

(١) دعوة الرسل (ص: ١١١-١١٢).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٢٦) والبخاري (٨/ ٤٦٦/ ٤٦٩٤) ومسلم (١/ ١٣٣/ ١٥١) وابن ماجه (٢/ ١٣٣٥/ ٤٠٢٦) والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٦٨/ ١١٢٥٣).

(٣) الحجر: الآية (٤٢).

ذكر اللَّه خاليا ففاضت عيناه، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه»[1][2].

وستأتي زيادة بيان للحديث عند قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ﴾ الآية: (٥٠).

* * *

(١) تقدم تخريجه عند: الآية (٢٣).

(٢) مجموع الفتاوى (١٧/ ٢٤-٢٥).

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ۝٣٥﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى: ثم ظهر لهم من المصلحة فيما رأوه أنهم يسجنونه إلى حين، أي إلى مدة، وذلك بعد ما عرفوا براءته وظهرت الآيات، وهي الأدلة على صدقه في عفته ونزاهته، وكأنهم -واللَّه أعلم- إنما سجنوه لما شاع الحديث إيهاما أنه راودها عن نفسها، وأنهم سجنوه على ذلك. ولهذا لما طلبه الملك الكبير في آخر المدة؛ امتنع من الخروج حتى تتبين براءته مما نسب إليه من الخيانة. فلما تقرر ذلك، خرج وهو نقي العرض صلوات اللَّه عليه وسلامه»[١].

وقال ابن عاشور: «وإنما بدا لهم أن يسجنوا يوسف ﷺ حين شاعت القالة عن امرأة العزيز في شأنه، فكان ذلك عقب انصراف النسوة؛ لأنها خشيت إن هن انصرفن أن تشيع القالة في شأنها وشأن براءة يوسف ﷺ فرامت أن تغطي ذلك بسجن يوسف ﷺ حتى يظهر في صورة المجرمين بإرادته السوء بامرأة العزيز، وهي ترمي بذلك إلى تطويعه لها. ولعلها أرادت أن توهم الناس بأن مراودته إياها وقعت يوم ذلك المجمع، وأن توهم أنهن شواهد على يوسف ﷺ»[٢].

وقال أبو حيان: «والآيات هي الشواهد الدالة على براءة يوسف، قال مجاهد وغيره: قد القميص، فإن كان الشاهد طفلا فهي آية عظيمة، وإن كان رجلا فيكون استدلالا لا بالعادة، والذي يظهر أن الآية إنما يعبر بها عن الواضح الجلي، وجمعها يدل على ظهور أمور واضحة، دلت على براءته، وقد تكون الآيات التي رأوها لم ينص على جميعها في القرآن، بل رأوا قول الشاهد، وقد القميص، وغير ذلك مما لم يذكره»[٣].

وقال المراغي: «أي: ثم ظهر للعزيز وامرأته ومن يهمه أمرهما كالشاهد الذي

---

(١) التفسير (٤/ ٢٥).
(٢) التحرير والتنوير (١٢/ ٢٦٧).
(٣) البحر المحيط (٥/ ٣٠٧).

شهد عليها من أهلها من الرأي ما لم يكن ظاهرا لهم من قبل بعد أن رأوا من الآيات ما اختبروه بأنفسهم وشهدوه بأعينهم، مما يدل على أن يوسف لم يكن إنسانا كالذين عرفوا في أخلاقه وعفته واحتقاره للشهوات واللذات التي يتمتع بها سكان القصور، وفي إيمانه بأن ربه لن يتركه بل يكلؤه بعين عنايته، ويحرسه بوافر رعايته، وقد استبان لهم ذلك من وجوه:

١ - إن افتتان سيدته في مراودته وجذبها خلسات نظره لم تؤثر في ميل قلبه إليها، بل ظل معرضا عنها، متجاهلا لها حتى إذا ما صارحته بما تريد؛ استعاذ بربه ورب آبائه، وعيرها بالخيانة لزوجها.

٢ - إنها لما غضبت وهمت بالبطش به؛ هم بمقاومتها والبطش بها، ولم يمنعه إلا ما رأى في دخيلة نفسه من برهان ربه، الذي يدل على أن ربه صارف عنه السوء والفحشاء.

٣ - إنها حين اتهمته بالتعدي عليها شهد شاهد من أهلها أنها كاذبة في اتهامها إياه، وهو صادق فيما ادعاه من مراودتها إياه عن نفسه بدلالة القميص على ذلك.

كل هذا أثبت لهم أن بقاءه في هذه الدار بين ربتها وصديقاتها مثار فتنة لا تدرك غايتها، وأن الحكمة هو تنفيذ رأيها الأول بسجنه لإخفاء ذكره، وكف ألسنة الناس عنها في أمره، وأقسموا ليسجننه حتى حين دون تقيد بزمن معين ليروا ماذا يكون فيه من تأثير السجن وحديث الناس عنه.

وفي تنفيذ هذا العزم دلالة على ما كان لهذه المرأة الماكرة من سلطان على زوجها تقوده كيف شاءت، حتى فقد الغيرة عليها، فهو يجري وراء هواها، ويستجلب رضاها، حتى أنساه ذلك ما رأى من الآيات، وعمل برأيها في سجنه لإلحاق الهوان والصغار به حين أيست من طاعته، وطمعت في أن يذلله السجن لأمرها، ويقف به عند مشيئتها»[1].

* * *

(١) تفسير المراغي (١٢/ ١٤٢-١٤٣).

قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ ٱلْآخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٣٦ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ۝٣٧ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ۝٣٨﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال المراغي: «بعد أن ذكر سبحانه مكر النسوة بامرأة العزيز لتريهن يوسف، ثم مكر امرأة العزيز بهن حتى قطعن أيديهن، وقلن في يوسف ما قلن من وصف جماله، ثم إظهار امرأة العزيز المعذرة لنفسها فيما فعلت، وعزمها على سجنه إن لم يكن مطواعا لها، ثم حماية اللّه له من كيدها بعد دعائه إياه، ثم تدبير مؤامرة بين العزيز وامرأته وأهلها على إدخاله السجن، مع كل ما رأوا من الآيات حتى ينسى الناس هذا الحديث وتسكن تلك الثائرة في المدينة؛ ذكر هنا تنفيذهم لما عزموا عليه من إدخالهم إياه السجن، وما كان من لطف اللّه به إذ أتاه من علم تعبير الرؤيا ما يستطيع به أن يعبر لكل حالم عما يراه، ويخبر كل أحد عما يسأله عنه مما لم يكن حاضرا لديه، وما سيأتي له من طعام وشراب ونحو ذلك، ثم ذكر قول يوسف إن هذا كله نعمة من نعم الإيمان باللّه عليه وعلى آبائه إبراهيم وإسحق ويعقوب»[1].

قال أبو حيان: «في الكلام حذف تقديره: فسجنوه، فدخل معه السجن غلامان، وروي: أنهما كانا للملك الأعظم الوليد بن الريان، أحدهما: خبازه،

(١) تفسير المراغي (١٢/ ١٤٤).

والآخر ساقيه. وروي أن الملك اتهمهما بأن الخابز منهما أراد سمه، ووافقه على ذلك الساقي، فسجنهما قاله السدي، و(مع) تدل على الصحبة واستحداثها، فدل على أنهم سجنوا الثلاثة في ساعة واحدة، ولما دخل يوسف السجن استمال الناس بحسن حديثه، وفضله ونبله، وكان يسلي حزينهم، ويعود مريضهم، ويسأل لفقيرهم، ويندبهم إلى الخير، فأحبه الفتيان ولزماه، وأحبه صاحب السجن والقيم عليه»[1].

وقال ابن عاشور: «وجملة: ﴿قَالَ أَحَدُهُمَآ﴾ ابتداء محاورة، كما دل عليه فعل القول. وكان تعبير الرؤيا من فنون علمائهم، فلذلك أيد الله به يوسف عليه السلام بينهم.

وهذان الفتيان توسما من يوسف عليه السلام كمال العقل والفهم، فظنا أنه يحسن تعبير الرؤيا، ولم يكونا علما منه ذلك من قبل، وقد صادفا الصواب، ولذلك قالا: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، أي المحسنين التعبير، أو المحسنين الفهم.

والإحسان: الإتقان، يقال: هو لا يحسن القراءة، أي لا يتقنها. ومن عادة المساجين حكاية المرائي التي يرونها، لفقدانهم الأخبار التي هي وسائل المحادثة والمحاورة، ولأنهم يتفاءلون بما عسى أن يبشرهم بالخلاص في المستقبل. وكان علم تعبير الرؤيا من العلوم التي يشتغل بها كهنة المصريين، كما دل عليه قوله تعالى حكاية عن ملك مصر: ﴿أَفْتُونِي فِي رُءْيَٰيَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾»[2].

قوله: ﴿قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًا﴾

قال الشوكاني: «أي: رأيتني، والتعبير بالمضارع لاستحضار الصورة. والمعنى: إني أراني أعصر عنبا، فسماه باسم ما يؤول إليه؛ لكونه المقصود من العصر. وفي قراءة ابن مسعود أعصر عنبا. قال الأصمعي: أخبرني المعتمر بن سليمان أنه لقي أعرابيا ومعه عنب، فقال له: ما معك؟ فقال: خمر. وقيل: معنى أعصر خمرا: أي عنب خمر، فهو على حذف المضاف، وهذا الذي رأى هذه الرؤيا هو الساقي، وهذه الجملة مستأنفة بتقدير سؤال، وكذلك الجملة التي بعدها وهي: ﴿وَقَالَ ٱلْآخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا﴾ ثم وصف الخبز هذا بقوله:

---

(١) البحر المحيط (٥/ ٣٠٧).

(٢) التحرير والتنوير (١٢/ ٢٦٨-٢٦٩).

﴿تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُۖ﴾ وهذا الرائي لهذه الرؤيا هو الخباز، ثم قالا ليوسف جميعًا بعد أن قصا رؤياهما عليه: ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ﴾ أي: بتأويل ما قصصناه عليك من مجموع المرئيين، أو بتأويل المذكور لك من كلامنا. وقيل: إن كل واحد منهما قال له ذلك عقب قص رؤياه عليه، فيكون الضمير راجعا إلى ما رآه كل واحد منهما. وقيل: إن الضمير في ﴿بِتَأْوِيلِهِۦٓ﴾ موضوع موضع اسم الإشارة، والتقدير: بتأويل ذلك ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: من الذين يحسنون عبارة الرؤيا، وكذا قال الفراء: إن معنى من المحسنين من العالمين الذين أحسنوا العلم. وقال ابن إسحاق: من المحسنين إلينا إن فسرت ذلك، أو من المحسنين إلى أهل السجن، فقد روي أنه كان كذلك، وجملة

﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَاۚ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر، ومعنى ذلك أنه يعلم شيئًا من الغيب، وأنه لا يأتيهما إلى السجن طعام إلا أخبرهما بماهيته قبل أن يأتيهما، وهذا ليس من جواب سؤالهما تعبير ما قصاه عليه، بل جعله ﷺ مقدمة قبل تعبيره لرؤياهما، بيانا لعلو مرتبته في العلم، وأنه ليس من المعبرين الذين يعبرون الرؤيا عن ظن وتخمين، فهو كقول عيسى ﷺ: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ﴾[١] وإنما قال يوسف ﷺ لهما بهذا؛ ليحصل الانقياد منهما له فيما يدعوهما إليه بعد ذلك من الإيمان بالله والخروج من الكفر، ومعنى ترزقانه: يجري عليهما من جهة الملك أو غيره، والجملة صفة الطعام، أو يرزقكما الله سبحانه، والاستثناء بقوله:

﴿إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ﴾ مفرغ من أعم الأحوال: أي لا يأتيكما طعام في حال من الأحوال إلا حال ما نبأتكما: أي بينت لكما ماهيته وكيفيته قبل أن يأتيكما، وسماه تأويلا بطريق المشاكلة، لأن الكلام في تأويل الرؤيا، أو المعنى: إلا نبأتكما بما يؤول إليه الكلام من مطابقة ما أخبركما به للواقع، والإشارة بقوله: ﴿ذَٰلِكُمَا﴾ إلى التأويل، والخطاب للسائلين له عن تعبير رؤياهما ﴿مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ﴾ بما أوحاه إلي وألهمني إياه، لا من قبيل الكهانة والتنجيم ونحو ذلك مما يكثر فيه الخطأ»[٢].

---

(١) آل عمران: الآية (٤٩).

(٢) فتح القدير (٣/ ٣٧-٣٨).

ولشيخ الإسلام قول آخر في معنى هذا التأويل، يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: «والمعنى: لا يأتيكما طعام ترزقانه في المنام لما قال أحدهما: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا﴾؛ ﴿إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ﴾ في اليقظة ﴿قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ﴾ الطعام، هذا قول أكثر المفسرين، وهو الصواب. وقال بعضهم لا يأتيكما طعام ترزقانه تطعمانه وتأكلانه، إلا نبأتكما بتأويله بتفسيره وألوانه، أي طعام أكلتم، وكم أكلتم، ومتى أكلتم؟ فقالوا: هذا فعل العرافين والكهنة، فقال ما أنا بكاهن، وإنما ذلك العلم مما يعلمني ربي. وهذا القول ليس بشيء فإنه قال: ﴿إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ﴾ وقد قال أحدهما: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ﴾ فطلبا منه تأويل ما رأياه، وأخبرهما بتأويل ذاك، ولم يكن تأويل الطعام في اليقظة، ولا في القرآن أنه أخبرهما بما يرزقانه في اليقظة، فكيف يقول قولا عاما: ﴿قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ﴾ وهذا الإخبار العام لا يقدر عليه إلا اللَّه، والأنبياء يخبرون ببعض ذلك، لا يخبرون بكل هذا.

وأيضًا فصفة الطعام وقدره ليس تأويلا له.

وأيضًا فاللَّه إنما أخبر أنه علمه تأويل الرؤيا، قال يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ﴾ وقال يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ﴾ وقال: ﴿هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ﴾ ولما رأى الملك الرؤيا قال له الذي ادكَرَ بعد أمة: ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ فَأَرۡسِلُونِ﴾ والملك قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾؛ فهذا لفظ التأويل في مواضع متعددة كلها بمعنى واحد»[1].

وقال السعدي: «وأما رؤيا الفتيين حيث قال أحدهما: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

فتلطفوا ليوسف أن يبلغهما بتأويل رؤياهما؛ لما شاهدوا من إحسانه للأشياء وإحسانه إلى الخلق. ففسر رؤيا من رأى أنه يعصر خمرا؛ أنه ينجو من سجنه ويعود إلى مرتبته وخدمته لسيده، فيعصر له العنب الذي يؤول إلى الخمر. وفسر رؤيا

---

(١) مجموع الفتاوى (١٧/ ٣٦٥-٣٦٦).

الآخر؛ فيقتل ثم يصلب فتأكل الطير من رأسه. فالأول رؤياه جاءت على وجه الحقيقة. والآخر رؤياه جاءت على وجه المثال وأنه يقتل، ومع قتله يصلب ولا يدفن حتى تأكل الطيور من رأسه. وهذا من الفهم العجيب والغوص على المعاني الدقيقة، وذلك أن العادة أن المقتول يدفن في الحال، ولا تتمكن السباع والطيور من الأكل منه. ففهم أن هذا سيقتل ولا يدفن سريعا حتى يصل إلى هذه الحال، وفي هذا من فضيحته وخزيته وسوء مصيره الدنيوي؛ ما تقشعر منه الجلود، وحيث علم أن هذه الرؤيا صحيحة، لا بد من وقوعها، قال لهما: ﴿قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾.

وهذا من كمال علمه للتعبير الذي لا يعبر عن ظن وتوهم، وإنما يعبر عن علم ويقين. وأما المناسبة في ذلك: في أن الطيور لا تقرب الحي، وإنما تتناول الميت إذا لم يكن عنده أحد، وهذا إنما يكون بعد قتله وصلبه.

ومن كمال يوسف ونصحه وفطنته العجيبة؛ أنهما لما قصا عليه رؤياهما تأنى في تعبيرها ووعدهما بتعبيرها، بأسرع وقت، فقال: ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا﴾.

فوعدهما بتعبيرها قبل أول طعام يأتيهما من خارج السجن ليطمئنا ويشتاقا إلى تعبيرها، وليتمكن من دعوتهما قبل التعبير ليكون أدعى لقبول الدعوة إلى الله؛ لأن الدعوة لهما إلى الله أهم من تعبير رؤياهما. فدعاهما إلى الله بأمرين:

أحدهما: بحاله وما هو عليه من الوصف الجميل الذي أوصله إلى هذه الحال الرفيعة. بقوله: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾.

الأمر الثاني: دعاهما بالبرهان الحقيقي، فقال: ﴿يَـٰصَـٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَـٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

فإن من توحد بالكمال من كل وجه، وبالقهر للعالم العلوي والسفلي، المستحق

للأولهية الكاملة، الذي خلق الخلق لعبادته وأمرهم بها، وله الحكم على عباده في الدنيا والآخرة؛ هو الذي لا ينبغي العبادة إلا له وحده دون المعبودات الناقصة المتفرقة، التي كل قوم يدعون إلهيتها، وليس فيها من معاني الإلهية شيء ولا استحقاق، وإنما هي أسماء اصطلحوا على تسميتها أسماء بلا معان.

فرأى ﷺ دعوتهما إلى اللّه أولى بالتقديم على تفسير رؤياهما، وأنفع لهما ولغيرهما»[1].

قال الشيخ رشيد رضا: «افترض يوسف عليه السلام ثقة هذين السائلين بعلمه وفضله وإصغاءهما لقوله، واهتمامهما بما يسمعان من تأويله لرؤاهما؛ فبدأ حديثه بما هو أهم عنده، وهو دعوتهما وسائر من في السجن إلى توحيد اللّه عز وجل، فعلم من هذا أن وحي الرسالة جاءه بعد دخول السجن فحقق قوله ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ كما أن وحي الإلهام جاءه عند إلقائه في غيابة الجب على ما سبق، وحكمة هذا من ناحيته عليه السلام ظاهرة بما بيناه، من أن اللّه تعالى جعل له في كل محنة ظاهرة، منحة باطنة، وفي كل بداية محرقة، نهاية مشرقة، تحقيقا لما فهمه أبوه من اجتباء ربه له الخ. وحكمته من ناحية دعوة الدين أن أقوى الناس وأقربهم استعدادا لفهمها والاهتداء بها: هم الضعفاء والمظلومون والفقراء، وأعتاهم وأبعدهم عن قبولها هم المترفون والمتكبرون، بدأ يوسف بالدعوة بعد مقدمة في بيان الآية الدالة على صدقه، والثقة بقوله، وهي إظهار ما من اللّه به عليه من تعليمه ما شاء من أمور الغيب، وأقربها إلى اقتناعهم ما يختص بمعيشتهم، فكان هذا ما يقتضيه المقام وتوجبه الرسالة من جوابهم. . ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ خالق السموات والأرض وما بينهما، كما يجب له من التوحيد والتنزيه؛ أي: تركت دخولها واتباع أهلها من عابدي الأوثان المنتحلة على كثرة أهلها ودعوتهم إليها، وليس المعنى: أنه كان متبعا لها ثم تركها، فقوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾[2]؟ أي: بعد موته فلا يبعث، ليس معناه أنه كان سدى قبله، فترك الشيء يصدق بعدم ملابسته مطلقا، وبالتحول عنه بعد التلبس به، ويفرق بينهما بقرينة الحال أو المقال أو كليهما كما هنا. والمتبادر أنه أراد بهؤلاء القوم الكنعانيين وغيرهم من سكان أرض

---

(١) فوائد مستنبطة من قصة يوسف (ص: ٩-١١). (٢) الإنسان: الآية (٣٦).

الميعاد التي نشأ فيها، والمصريين الذين هو فيهم وبينهم، فإنهم اتخذوا من دون اللَّه آلهة معروفة في التاريخ أعظمها الشمس، واسمها عندهم (رع) ومنها فراعنتهم، والنيل وعجلهم (أبيس)، وإنما كان التوحيد خاصا بحكمائهم وعلمائهم ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ﴾ أي: وهم الآن يكفرون بالمعنى الصحيح للآخرة؛ فإن المصريين وإن كانوا يؤمنون بالآخرة والحساب والجزاء الذي دعا إليه الأنبياء؛ إلا أنه فشا فيهم تصوير هذا الإيمان بصور مبتدعة، ومنها أن فراعنتهم يعودون إلى الحياة الأخرى بأجسادهم المحنطة، ويعود لهم السلطان والحكم، ولهذا كانوا يدفنون أو يضعون معهم جواهرهم وغيرها، ويبنون الأهرام لحفظ جثثهم وما معها، ولعله لهذا أكد الحكم بالكفر بها بإعادة الضمير (هم) ليبين أن إيمانهم بالآخرة على غير الوجه الذي جاءت به الرسل، فهو غير صحيح.

﴿وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ﴾ أنبياء اللَّه الذين دعوا إلى توحيده الخالص، وبين أسماءهم من الأب الأعلى إلى الأدنى بقوله: ﴿إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ﴾ فلفظ الآباء يشمل الجدود وإن علوا، وبين أساس ملتهم التي اتبعها وراثة وتلقينا، فكانت يقينا له ولهم ووجدانا، بقوله: ﴿مَا كَانَ لَنَآ﴾ أي: ما كان من شأننا معشر الأنبياء ولا مما يقع منا ﴿أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ﴾ نتخذه ربًّا مدبرًا، أو إلهًا معبودًا معه لا من الملائكة ولا من البشر (كالفراعنة)، فضلا عما دونهما من البقر (كالعجل أبيس)، أو من الشمس والقمر، أو ما يتخذ لهذه الآلهة من التماثيل والصور ﴿ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا﴾ بهدايتنا إلى معرفته وتوحيده في ربوبيته وألوهيته بوحيه وآياته في خلقه ﴿وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾ بإرسالنا إليهم ننشر فيهم دعوته، ونقيم عليهم حجته، ونبين لهم هدايته ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾ نعم اللَّه عليهم، فهم يشركون به أربابا وآلهة من خلقه، يذلون أنفسهم بعبادتهم، وهم مخلوقون لله مثلهم أو أدنى منهم»[1].

وقال العدوي: «وقد جمع يوسف في تلك الدعوة أصول الإيمان الثلاثة؛ وهي الإيمان باللَّه، وتوحيده، والإيمان باليوم الآخر، وهل يوسف جاءته الرسالة وهو في السجن؟ ولما لم يجد معه سوى صاحبيه دعاهم إلى أصول الإيمان الثلاثة، أو أن ذلك كان ملة لآبائه فأخذه عنهم، ودعا دعوتهم كل محتمل، وسواء قلنا: إن يوسف

(١) تفسير المنار (١٢/ ٣٠٤-٣٠٧).

نبيء في ذلك الوقت، أم لم ينبأ؛ فإنه افترص هذه الفرصة وأخذ يدعو من معه إلى دين الأنبياء جميعهم، وقد تقدم بذلك بين يدي تأويل رؤيا الصاحبين؛ لأنه لو أجابهما إلى ما طلبا أولا، لضاعت عليه هذه الفرصة، وما استطاع أن يبلغهما التوحيد والإيمان بالله وثوابه وعقابه، ولا سيما أن أحد الفتيين قد تأول له رؤيا تأويلا يزعجه، وهو أنه يصلب فتأكل الطير من رأسه.

فيوسف ﷺ يرينا أن صاحب المبدأ والعقيدة؛ من شأنه أن ينتهز الفرص لنشر مبدئه وعقيدته، ومن شأنه أنه إذا طولب بشيء أو سئل عنه؛ يخلق لها المناسبة لينشرها بين الناس، وفي الأمثال (إن صح منك الهوى: أرشدت للحيل) ويرينا يوسف ﷺ أن لا مانع من تعريف العالم نفسه بالناس، وأن يخبرهم أنه يحسن كذا وكذا من العلم، وليس في ذلك غضاضة على نفسه، فيوسف لم يجد بأسا في أن يقول للصاحبين ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ﴾ الخ ليلفت نظر الفتيين إليه، ويحملهما على التوجه له. وقوله: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ تحريض لهما على الإيمان بالله؛ لأن عاقبة المؤمن به أن يفقهه الله في دينه، ويعلمه كما علم يوسف، وقوله: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَۚ﴾ يريد أنه من بيت النبوة، تربى على الإيمان الصحيح، والتوحيد الخالص، والحكمة العالية، والعلم النافع المفيد، فاستمعا إلي، وخذا العلم والحكمة عني، وقوله: ﴿مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍۚ﴾ أي: لا يليق بنا ولا ينبغي -ونحن من هذه السلالة الطيبة والبيت الماجد- أن نشرك بالله من شيء من الأشياء ﴿ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ أي: إن ذلك التوحيد فضل من الله علينا، وفضل منه تعالى على الناس، ولكن أكثر الناس لا يشكرون الله على ذلك الفضل الذي هداهم إليه، وأوصله لهم»[1].

قوله: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَۚ﴾

قال ابن عاشور: «وذكر السلف الصالح في الحق يزيد دليل الحق تمكنا، وذكر ضدهم في الباطل؛ لقصد عدم الحجة بهم بمجردهم. كما في قوله الآتي ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾.

(١) دعوة الرسل (ص: ١١٦).

وجملة ﴿مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ في قوة البيان لما اقتضته جملة ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ﴾ من كون التوحيد صار كالسجية لهم، عرف بها أسلافه بين الأمم، وعرفهم بها لنفسه في هذه الفرصة»[1].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضيلة يوسف عليه السلام

* عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول اللّه ﷺ قال: «**الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم: يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام**»[2].

★ **فوائد الحديث:**

تقدم ذكرها عند قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾﴾.

* * *

(١) التحرير والتنوير (١٢/ ٢٧٣).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٩٦)، والبخاري (٨/ ٤٦١/ ٤٦٨٨).

قوله تعالى: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشيخ محمد رشيد رضا: «﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ﴾ أضافهما إلى السجن بمعنى يا ساكني السجن، أو بمعنى يا صاحبي في السجن كما قيل: (يا سارق الليلة أهل الدار) أي: سارقهم فيها ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ﴾ هذا استفهام تقرير بعد تحيير، ومقدمة لأظهر برهان على التوحيد، وكان المصريون المخاطبون به يعبدون -كغيرهم من الأمم- أربابا متفرقين في ذواتهم، وفي صفاتهم المعنوية التي ينعتونهم بها، وفي صفاتهم الحسية التي يصورها لهم الكهنة والرؤساء بالرسوم المنقوشة، والتماثيل المنصوبة في المعابد والهياكل، وفي الأعمال التي يسندونها إليهم بزعمهم، فهو يقول لصاحبيه ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ﴾ أي: عديدون هذا شأنهم في التفرق والانقسام، وما يقتضيه بطبعه من التنازع والاختلاف في الأعمال، والتدبير المفسد للنظام، هو ﴿خَيْرٌ﴾ لكما ولغيركما من الأفراد والأقوام، فيما تطلبون ويطلبون من كشف الضر وجلب النفع، وكل ما تحتاجون فيه إلى المعونة والتوفيق من عالم الغيب ﴿أَمِ ٱللَّهُ﴾ الواجب الوجود، الخالق لكل موجود ﴿ٱلْوَٰحِدُ﴾ في ذاته وصفاته وأفعاله، المنفرد بالخلق والتقدير والتسخير، الذي لا ينازع ولا يعارض في التصرف والتدبير ﴿ٱلْقَهَّارُ﴾ بقدرته التامة وإرادته العامة، وعزته الغالبة، لجميع القوى والسنن والنواميس التي يقوم بها نظام العوالم السماوية والأرضية، كالنور والهواء والماء الظاهرة، والملائكة والشياطين الباطنة، التي كان الجهل بحقيقتها، وسبب اختلاف مظاهرها، هو سبب عبادتها والقول بربوبيتها؟ الجواب الذي لا يختلف فيه عاقلان أدركا السؤال: بل هو اللّٰه الواحد القهار، لا رب غيره ولا إله سواه، ولذلك

رتب عليه قوله: ﴿مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ﴾ أي: غير هذا الواحد القهار ﴿إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم﴾ من قبلكم أي: وضعتموها لمسميات نحلتموها صفات الربوبية وأعمال الرب الواحد، فاتخذتموها أربابا، وما هي بأرباب تخلق ولا ترزق، ولا تضر ولا تنفع، ولا تدبر ولا تشفع، فهي في الحقيقة لا مسميات لها بالمعنى المراد من لفظ الرب الإله المستحق للعبادة، حتى يقال: إنها خير أم هو خير ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ﴾ أي: بتسميتها أربابا على أحد من رسله ﴿مِن سُلۡطَٰنٍۚ﴾ أي: أي نوع من أنواع البرهان والحجة، فيقال: إنكم تتبعونه بالمعنى الذي أراده تعالى منه، تعبدا له وحده وطاعة لرسله، فيكون اتباعها أو تعظيمها غير مناف لتوحيده، كاستلام الحجر الأسود عند الطواف بالكعبة المعظمة، مع الاعتقاد بأنه حجر لا ينفع ولا يضر كما ثبت في الحديث[1]، فهي تسمية لا دليل عليها من النقل السماوي فتكون من أصول الإيمان، ولا دليل عليها من العقل فتكون من نتائج البرهان.

وأقول: إنه لما قامت هذه الحجة على النصارى ببطلان ثالوثهم الذي اتبعوا فيه ثالوث قدماء المصريين والهنود؛ ادعوا أن له أصلا من الوحي الذي أنزله اللّٰه على المسيح عيسى بن مريم أو تلاميذه، وأنه بهذا لا ينافي التوحيد، فالثلاثة واحد والواحد ثلاثة، والذي حققه علماء الإفرنج المؤرخون تبعا للمسلمين: أنه لا أصل له من الوحي، وأن كلمات الآب والابن وروح القدس؛ لها معان عند الذين آمنوا بالمسيح في حياته هي غير المعاني الاصطلاحية عند كنائسي الكاثوليك والأرثوذكس والبروتستانت الجامعة لأكثر النصارى، والأحرار العقليون من نصارى الإفرنج يرفضونها كلهم وهم ملايين، ولكن ليس لهم كنيسة جامعة، وإنما يقولون في المسيح ما قرره الإسلام فيه، وأكثرهم لا يعلمون ذلك، ولو عرفوا حقيقة الإسلام لكانوا كلهم مسلمين، ولكنهم سيعلمون ويسلمون اتباعا، كما أسلموا فطرة وعقلا.

---

(١) عن عابس بن ربيعة قال: «رأيت عمر يقبل الحجر ويقول: إني لأقبل وأعلم أنك حجر، ولولا أني رأيت رسول اللّٰه ﷺ يقبلك لم أقبلك» أخرجه: أحمد (١/ ٢٦) والبخاري (٣/ ٥٨٩/ ١٥٩٧) ومسلم (٢/ ٩٢٥-٩٢٦/ ١٢٧٠[٢٥١]) وأبو داود (٢/ ٤٣٨-٤٣٩/ ١٨٧٣) والترمذي (٣/ ٢١٤-٢١٥/ ٨٦٠) والنسائي (٥/ ٢٥٠/ ٢٩٣٧).

﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ أي: ما الحكم الحق في الربوبية، والعقائد والعبادات الدينية؛ إلا لله وحده، يوحيه لمن اصطفاه من رسله، لا يمكن لبشر أن يحكم فيه برأيه وهواه، ولا بعقله واستدلاله، ولا باجتهاده واستحسانه، فهذه القاعدة هي أساس دين اللّٰه تعالى على ألسنة جميع رسله، لا تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة. ثم بين أول أصل بني عليها لأنه أول ما يجب أن يسأل عنه من عرفها فقال: ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ بل إياه وحده فادعوا واعبدوا، وله وحده فاركعوا واسجدوا، وإليه وحده فتوجهوا، حنفاء لله غير مشركين به؛ ملكا من الملائكة الروحانيين، ولا ملكا من الملوك الحاكمين، ولا كاهنا من المتعبدين، ولا شمسا ولا قمرا، ولا نجما ولا شجرا، ولا نهرا مقدسا كالكنج والنيل، ولا حيوانا كالعجل أبيس، فالمؤمن الموحد لله لا يذل نفسه بالتعبد لغير اللّٰه من خلقه بدعاء ولا غيره، لإيمانه بأنه هو الرب المدبر المسخر لكل شيء، وأن كل ما عداه خاضع لإرادته وسننه في أسباب المنافع والمضار، لا يملك لنفسه ولا لغيره غير ما أعطاه من القوى التي هي قوام جنسه ومادة حياة شخصه ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[1] فإليه وحده الملجأ في كل ما يعجز عنه الإنسان أو يجهله من الأسباب، وإليه المصير للجزاء على الأعمال يوم الحساب ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ أي: الحق المستقيم الذي لا عوج فيه من جهالة الوثنيين، الذي دعا إليه جميع رسل اللّٰه أقوامهم، ومنهم آبائي إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك حق العلم؛ لاتباعهم أهواء آبائهم الوثنيين، الذين اتخذوا لأنفسهم أربابا متفرقة ليس لها من الربوبية أدنى نصيب.

ومن العجيب: أن هذه الحقيقة التي بينها القرآن في مئات من الآيات البينات تتلى في السور الكثيرة بالأساليب البليغة؛ صار يجهلها كثير من الذين يدعون اتباع القرآن، فمنهم من يجهل حقيقة التوحيد نفسه، فيتوجهون إلى غير اللّٰه إذا مسهم الضر أو عجزوا عن بعض ما يحبون من النفع، فيدعونهم خاشعين راغبين من دون اللّٰه، ويسمونهم شفعاء ووسائل عند اللّٰه، كما كان يفعل من كان قبلهم من المشركين، ومنهم من يعرف معنى التوحيد ولكنهم يجهلون أن جميع رسل اللّٰه دعوا

(١) طه: الآية (٥٠).

إليه جميع الأمم، زاعمين أن هذه الدعوة انفرد بها إبراهيم والرسل من ذريته فقط، كما يفهمون من كتب أهل الكتاب والإفرنج، فهم يكتبون هذا في الصحف وفي أسفار التاريخ وفيما يسمونه فلسفة الدين أو فلسفة التفكير، فهم يزعمون أن البشر نشئوا على الأديان الوثنية حتى كان أول من دعاهم إلى التوحيد إبراهيم ﷺ من زهاء أربعة آلاف سنة، والقرآن حجة عليهم بتصريحه: أن الله تعالى أرسل في جميع الأمم رسلا دعوهم إلى التوحيد، أولهم نوح ﷺ، فإن قومه كانوا أول من عبد الصالحين الميتين، واتخذوا لهم الصور والأصنام، وكان البشر قبلهم على الفطرة وتوحيد آدم ﷺ.

فإن قيل: إن يوسف ﷺ لم يدع صاحبيه في السجن وسائر من كان معهما فيه إلى غير التوحيد من شرع آبائه، فما سبب ذلك؟ قلت: إن أهل مصر كانوا أصحاب شريعة تامة لم يبعث لنسخها ولا لتغييرها، وهي في الأصل سماوية، وإنما طرأت الوثنية على توحيدهم لله تعالى، وأحدثوا تقاليد خيالية في البعث، فهو قد دعاهم إلى أصل الدين الذي كان عليه جميع رسل الله، وهو التوحيد والآخرة وما فيها من الحساب والجزاء، وقد طرأ عليها عندهم ما أشرنا إليه آنفا في تفسير قوله ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ يعني كفرهم بأن الجزاء يكون في عالم آخر بعد فناء هذه الأجساد، وبعثهم في نشأة أخرى لا في هذه الدنيا كما يزعمون، وعقائدهم في هذه المسألة مدونة في التاريخ المأخوذ من آثار الفراعنة، وأشهرها: أنهم كانوا يحنطون أجسادهم لأجل أن تعود إليها الحياة التي فارقتها، وكان ملوكهم يحفظون في أهرامهم وغيرها من قبورهم حليهم وحللهم ومتاعهم لأجل أن يتمتعوا بها في النشأة الأخرى حيث يعودون ملوكا كما كانوا، فهذه أباطيل طرأت على العقائد الأصلية المنزلة، وتقاليدهم هذه منقوشة من مواضع من الأهرام وتوابيت الموتى وصفائح القبور..

وأما الركن الثالث من دين الرسل وهو العمل الصالح وترك الفواحش والمنكرات؛ فكان يوسف ﷺ يكتفي منه بما كان خير قدوة فيه كما علم من قصته في بيت وزير البلاد وفي السجن، ثم في إدارته لأمور الملك، وكان يقرهم على سائر شريعتهم كما سيأتي في احتياله على أخذ أخيه الشقيق بمقتضى شريعتهم

الإسرائيلية يقول اللَّه تعالى: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾ الخ»[1].

قال القاسمي: «قال بعضهم: دلت الآية على أن الشرع كما جاء مطالبا بالاعتقاد؛ جاء هاديا لوجه الحسن فيه. وذلك أن هذه الآية تشير إشارة واضحة؛ إلى أن تفرق الآلهة يفرق بين البشر في وجهة قلوبهم، إلى أعظم سلطان يتخذونه فوق قوتهم. وهو يذهب بكل فريق إلى التعصب لما وَجَّهَ قلبه إليه، وفي ذلك فساد نظامهم كما لا يخفى. أما اعتقاد جميعهم بإله واحد؛ فهو توحيد لمنازع نفوسهم إلى سلطان واحد، يخضع الجميع لحكمه، وفي ذلك نظام أخوتهم، وهي قاعدة سعادتهم. فالشرع جاء مبينا للواقع في: أن معرفة اللَّه بصفاته حسنة في نفسها، فهو ليس محدث الحسن. انتهى

وفي قوله: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ﴾ إشارة إلى ما كان عليه أهل مصر لعهده ﷺ، من عبادة أصنام شتى.

يقول بعضهم: كما أن مصر كانت تغلبت في العلوم والسلطة، كذلك في عبادة الأصنام، فإن أهلها فاقوا كل من سواهم في الضلال، فكانوا يسجدون للشمس وللقمر والنجوم والأشخاص البشرية والحيوانات، حتى الهوام وأدنى حشرات الأرض..

تنبيه:

لا يخفى أن قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ﴾ إلى هنا، مقدمة لجواب سؤالهما عن تعبير رؤياهما، مهد ﷺ، بها له ليدعوهما إلى التوحيد، ليزدادا علما بعظم شأنه، وثقة بأمره، توسلا بذلك إلى تحقيق ما يتوخاه من هدايتهما، لاسيما وأن أحدهما ستعاجله منيته بالصلب، فرجا أن يختم له بخير.

قال الزمخشري: لما استعبراه ووصفاه بالإحسان، افترص ذلك، فوصل به وصف نفسه بما هو فوق علم العلماء، وهو الإخبار بالغيب، وأنه ينبئهما بما يحمل إليهما من الطعام، ويجعل ذلك تخلصا إلى أن يذكر لهما التوحيد، ويعرض عليهما الإيمان، ويزينه لهما، ويقبح إليهما الشرك باللَّه. وهذه طريقة، على كل ذي علم أن

---

(١) تفسير المنار (١٢/ ٣٠٧-٣١١).

يسلكها مع الجهال والفسقة إذا استفتاه واحد منهم، أن يقدم الهداية والإرشاد والموعظة الحسنة والنصيحة أولا، ويدعوه إلى ما هو أولى به، وأوجب عليه مما استفتى فيه، ثم يفتيه بعد ذلك.

وفيه، أن العالم إذا جهلت منزلته في العلم، فوصف نفسه بما هو بصدده، وغرضه أن يقتبس منه، وينتفع به في الدين؛ لم يكن من باب التزكية»[١].

وقال العدوي: «يريد يا ساكني السجن أو يا صاحبي فيه، ءأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار؟ يريد هل الخير للإنسان أن يعبد إلها واحدا، يعرف ما يحبه فيبادر إليه، وما يبغضه فيدعه ويتركه، أم الخير للإنسان أن يعبد آلهة كثيرين إن أرضى هذا غضب ذاك، وإن أغضب ذلك رضي هذا، وهو أسلوب بديع من أساليب الإقناع، يرجعنا فيه إلى المألوف من عادات البشر، وهو أن الإنسان إذا كان له ملاك يتشاكسون فيه، ويتنازعونه الملك والسلطان، هل يستوي هو وعبد ليس له إلا مالك واحد، يعرف ما يطلبه منه فيعمله، وما ينهاه عنه فيذره؟ إن الفرق بين العبدين كبير، فالعبد الذي له ملاك متشاكسون فيه لا يهدأ له بال، ولا يطمئن له قلب، أما العبد الذي ليس له إلا مالك واحد؛ فيستطيع أن يعيش مع ذلك المالك هادئا وادعا، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾[٢].

فنبي الله يوسف يرينا أن توحيد الإله المعبود مصلحة للناس وخير لهم، وتنظيم لعبادتهم، وجمع لشتاتهم، أما الشرك فهو مدعاة لتشويش نفس العابد، وتفريق أمره فيما بينه وبين معبوديه، ولذلك كان التوحيد متفقا مع الفطر، ومتناسبا مع العقول، ومتمشيا مع المصلحة، فمن ناحية تعدد الآلهة مدعاة لنزاعها الدائم، وخلافها المستمر، وذلك يفسد النظام، كما قال تعالى ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[٣] وقال: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[٤] ومن ناحية أخرى فإن الشرك مدعاة لتشويش أمر العابد، واختلال

---

(١) محاسن التأويل (٩/ ٢٢٥-٢٢٧).

(٢) الزمر: الآية (٢٩).

(٣) الأنبياء: الآية (٢٢).

(٤) المؤمنون: الآيتان (٩١-٩٢).

نظامه، فلا يستطيع أن يوفق بين مرضاة إلهين أو آلهة اختلفت مشاربهم، وتباينت مطالبهم. ذلك ما يشير إليه نبي اللّه يوسف عليه السلام ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ يريد أنكم سميتم آلهة وعبدتموها، وخلقتم ألفاظا فارغة لا مسميات لها وخضعتم لها. والسلطان: الحجة والبرهان.

وقوله: ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ أي: حجة لأنها باطل، والباطل لا ينزل اللّه به حجة، وإنما ينزل حجة بالحق: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ في أمر العبادة والدين ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ الثابت الذي تقوم عليه مصالح الناس ومعايشهم، وفيه حياتهم في الدنيا والآخرة ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ قيمة ذلك الدين»[1].

* * *

(١) دعوة الرسل (ص: ١١٦-١١٧).

قوله تعالى: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ۝٤١﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عاشور: «افتتح خطابهما بالنداء اهتماما بما يلقيه إليهما من التعبير، وخاطبهما بوصف (صاحبي السجن) أيضًا.

ثم إذا كان الكلام المحكي عن يوسف ﷺ في الآية، صدر منه على نحو النظم الذي نظم به في الآية وهو الظاهر؛ كان جمع التأويل في عبارة واحدة مجملة؛ لأن في تأويل إحدى الرؤيين ما يسوء صاحبها؛ قصدا لتلقيه ما يسوء بعد تأمل قليل، كيلا يفجأه من أول الكلام، فإنه بعد التأمل يعلم أن الذي يسقي ربه خمرا هو رائي عصر الخمر، وأن الذي تأكل الطير من رأسه هو رائي أكل الطير من خبز على رأسه.

وإذا كان نظم الآية على غير ما صدر من يوسف ﷺ؛ كان في الآية إيجاز لحكاية كلام يوسف ﷺ، وكان كلاما معينا فيه كل من الفتيين بأن قال: أما أنت فكيت وكيت، وأما أنت فكيت وكيت، فحكي في الآية بالمعنى.

وجملة ﴿قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ﴾ تحقيق لما دلت عليه الرؤيا، وأن تعبيرها هو ما أخبرهما به، فإنهما يستفتيان في دلالة الرؤيا على ما سيكون في شأن سجنهما؛ لأن ذلك أكبر همهما، فالمراد بالأمر تعبير رؤياهما»[1].

قال ابن كثير: «يقول لهما ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ﴾ وهو الذي رأى أنه يعصر خمرا، ولكنه لم يعينه لئلا يحزنه ذاك، ولهذا أبهمه في قوله: ﴿وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ﴾ وهو في نفس الأمر الذي رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزا، ثم أعلمهما أن هذا قد فرغ منه، وهو واقع لا محالة، لأن

(١) التحرير والتنوير (١٢/ ٢٧٧-٢٧٨).

الرؤيا على رجل طائر ما لم تعبر فإذا عبرت وقعت، وقال الثوري: عن عمارة بن القعقاع، عن إبراهيم بن عبدالله قال: لما قالا ما قالا وأخبرهما، قالا: ما رأينا شيئًا؛ فقال: ﴿قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾»(١).

قال أبو السعود: «وهو ما رأياه من الرؤيين قطعا لا مآله الذي هو عبارة عن نجاة أحدهما وهلاك الآخر، كما يوهمه إسناد القضاء إليه، إذ الاستفتاء إنما يكون في الحادثة لا في حكمها، يقال: استفتى الفقيه في الحادثة أي: طلب منه بيان حكمها، ولا يقال استفتاه في حكمها، وكذا الإفتاء فإنه يقال: أفتى فلان في الواقعة الفلانية بكذا، ولا يقال: أفتى في حكمها أو جوابها بكذا، ومما هو علم في ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ﴾ ومعنى استفتائهما فيه طلبهما لتأويله بقولهما: ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ﴾ وإنما عبر عن ذلك بالأمر، وعن طلب تأويله بالاستفتاء؛ تهويلا لأمره، وتفخيما لشأنه، إذ الاستفتاء إنما يكون في النوازل المشكلة الحكم المبهمة الجواب، وإيثاره صيغة الاستقبال مع سبق استفتائهما في ذلك؛ لما أنهما بصدده إلى أن يقضي عليه السلام من الجواب وطره، وإسناد القضاء إليه مع أنه من أحوال مآله؛ لأنه في الحقيقة عين ذلك المآل، وقد ظهر في عالم المثال بتلك الصورة، وأما توحيده مع تعدد رؤياهما فوارد على حسب ما وحده في قولهما ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ﴾، لا لأن الأمر ما اتهما به وسجنا لأجله من سم الملك، فإنهما لم يستفتيا فيه، ولا فيما هو صورته، بل فيما هو صورة لمآله وعاقبته فتأمل. وإنما أخبرهما عليه السلام بذلك تحقيقا لتعبيره وتأكيدا له. وقيل: لما عبر رؤياهما جحدا وقالا: ما رأينا شيئًا، فأخبرهما أن ذلك كائن صدقتما أو كذبتما، ولعل الجحود من الخباز إذ لا داعي إلى جحود الشرابي، إلا أن يكون ذلك لمراعاة جانبه»(٢).

وقال الشيخ رشيد رضا: «إن هذه الفتوى من يوسف عليه السلام زائدة على ما عبر به رؤياهما، داخلة في قسم المكاشفة ونبأ الغيب مما علمه الله تعالى، وجعله آية له ليثقوا بقوله، وهم أولو علم وفن وسحر، ومعناها: أنه علم بوحي ربه أن الملك قد حكم في أمرهما بما قاله، لا من باب تأويل الرؤيا على تقدير كون ما رأيا من النوع

---

(١) التفسير (٤/ ٢٨).

(٢) تفسير أبي السعود (٤/ ٢٧٩).

الصادق منها، لا من أضغاث الأحلام»[١].

وقال القرطبي: «قال علماؤنا: إن قيل: من كذب في رؤياه ففسرها العابر له أيلزمه حكمها؟ قلنا: لا يلزمه؛ وإنما كان ذلك في يوسف لأنه نبي، وتعبير النبي حكم، وقد قال: إنه يكون كذا وكذا، فأوجد اللَّه تعالى ما أخبر كما قال تحقيقا لنبوته؛ فإن قيل: فقد روى عبدالرزاق عن معمر عن قتادة قال: جاء رجل إلى عمر بن الخطاب فقال: إني رأيت كأني أعشبت ثم أجدبت ثم أعشبت ثم أجدبت. فقال له عمر: أنت رجل تؤمن ثم تكفر، ثم تؤمن ثم تكفر، ثم تموت كافرا. فقال الرجل: ما رأيت شيئًا. فقال له عمر: قد قضي لك ما قضي لصاحب يوسف؛ قلنا: ليست لأحد بعد عمر؛ «لأن عمر كان مُحَدَّثا»[٢]»[٣].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الرؤيا

* عن أبي رزين ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**الرؤيا على رجل طائر، ما لم تعبر، فإذا عبرت وقعت**»[٤].

★ **فوائد الحديث:**

قال الخطابي: «معنى هذا الكلام حسن الارتياد لموضع الرؤيا، واستعبارها العالم بها الموثوق برأيه وأمانته.

وقوله: «على رجل طائر» مثل؛ ومعناه أنها لا تستقر قرارها ما لم تعبر»[٥].

قوله: «فإذا عبرت وقعت»:

قال في عون المعبود: «أي تلك الرؤيا على الرائي، يعني يلحقه حكمها. قال في النهاية: «**الرؤيا على رجل طائر ما لم تعبر**» أي: لا يستقر تأويلها حتى تعبر،

---

(١) تفسير المنار (١٢/ ٣١٢).

(٢) يشير إلى قول النبي ﷺ: «قد كان في الأمم مُحَدَّثون، فإن يكن من أمتي؛ فعمر» أخرجه: أحمد (٦/ ٥٥)، ومسلم (٤/ ١٨٦٤/ ٢٣٩٨)، والترمذي (٥/ ٥٨١/ ٣٦٩٣)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٣٩-٤٠/ ٨١١٩) من حديث عائشة ﵂.

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٩/ ١٩٣).

(٤) أخرجه: أحمد (٤/ ١٠)، وأبو داود (٥/ ٢٨٣-٢٨٤/ ٥٠٢٠)، والترمذي (٤/ ٤٦٥/ ٢٢٧٩) وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجه (٢/ ١٢٨٨/ ٣٩١٤).

(٥) معالم السنن (٤/ ١٣٠).

يريد أنها سريعة السقوط إذا عبرت؛ كما أن الطير لا يستقر في أكثر أحواله، فكيف ما يكون على رجله.

ومنه الحديث: «**الرؤيا لأول عابر وهي على رجل طائر**»، كل حركة من كلمة أو جار يجرى؛ فهو طائر مجاز، أراد على رجل قدر جار وقضاء ماض من خير أو شر، وهي لأول عابر يعبرها أي: أنها إذا احتملت تأويلين أو أكثر، فعبرها من يعرف عبارتها؛ وقعت على ما أولها، وانتفى عنها غيره من التأويل انتهى.

قال السيوطي: والمراد أن الرؤيا هي التي يعبرها المعبر الأول، فكأنها كانت على رجل طائر فسقطت ووقعت حيث عبرت»[1].

وتقدمت أحاديث الرؤى وفوائدها تحت الآية (٥) من هذه السورة.

* * *

(١) عون المعبود (١٣/ ٣٦٤).

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾

★ **غريب الآية:**

البضع: بكسر الموحدة وفتحها؛ ما بين الثلاث إلى التسع.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «ولما ظن يوسف ﷺ أن الساقي ناج؛ قال له يوسف خفية عن الآخر -والله أعلم لئلا يشعره أنه المصلوب-، قال له ﴿اذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ يقول: اذكر قصتي عند ربك، وهو الملك، فنسي ذلك الموصى أن يذكر مولاه الملك بذلك، وكان من جملة مكايد الشيطان لئلا يطلع نبي الله من السجن، هذا هو الصواب: أن الضمير في قوله ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾ عائد على الناجي؛ كما قاله مجاهد ومحمد بن إسحق وغير واحد»[(١)].

وقوله: ﴿اذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾؛ قال أبو حيان: «أي: بعلمي ومكانتي، وما أنا عليه مما آتاني الله، أو اذكرني بمظلمتي وما امتحنت به بغير حق، وهذا من يوسف على سبيل الاستعانة والتعاون في تفريج كربه، وجعله بإذن الله وتقديره سببا للخلاص، كما جاء من عيسى ﷺ ﴿مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾[(٢)]، وكما كان الرسول يطلب من يحرسه[(٣)]، والذي أختاره: أن يوسف إنما قال لساقي الملك ﴿اذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ ليتوصل إلى هدايته وإيمانه بالله، كما توصل إلى إيضاح الحق للساقي ورفيقه، والضمير في ﴿فَأَنسَىٰهُ﴾ عائد على الساقي، ومعنى ﴿ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾ ذكر يوسف لربه، والإضافة تكون بأدنى ملابسة، وإنساء الشيطان له بما يوسوس إليه من

---

(١) التفسير (٤/ ٢٩).

(٢) الصف: الآية (١٤).

(٣) أخرجه: أحمد (٦/ ١٤٠)، والبخاري (٦/ ١٠١/ ٢٨٨٥)، ومسلم (٤/ ١٨٧٥/ ٢٤١٠)، والترمذي (٥/ ٦٠٨-٦٠٩/ ٣٧٥٦)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٦١/ ٨٢١٧) من حديث عائشة ﵂.

اشتغاله حتى يذهل عما قال له يوسف لما أراد اللَّه بيوسف من إجزال أجره بطول مقامه في السجن . . وقيل : الضمير في (أنساه) عائد على يوسف، ورتبوا على ذلك أخبارا لا تليق نسبتها إلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام»[١] .

وقال العدوي: «والضمير في قوله : ﴿ظَنَّ﴾ إن كان للرجل الناجي ؛ فالأمر ظاهر ؛ لأنه لم يكن هو وصاحبه مؤمنين بنبوة يوسف وإخباره عن اللَّه تعالى، بل كانا حسني الاعتقاد فيه، وكأن وعظه لهما قد وصل بهما إلى مجرد الظن، أو فهما أن تعبير يوسف يرجع إلى الفراسة، وهي لا تفيد أكثر من الظن .

أما إذا كان الضمير ليوسف ؛ فالظن بمعنى اليقين ؛ لأن يوسف مؤمن بصدق نفسه فيما أخبر عن اللَّه تعالى، إذا كان تأويل الرؤيا بتوقيف من اللَّه تعالى، أو هو ظان ذلك التأويل إن كان عن اجتهاد وفراسة، وإطلاق الظن على اليقين مألوف في القرآن الكريم، ومنه قول اللَّه تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾[٢] قال ذلك في وصف المؤمنين الخاشعين، وإيمان هؤلاء لم يكن مجرد ظن، وإنما هو يقين عبر عنه بالظن لقربه منه في الرتبة والمنزلة، والأظهر أن يوسف كان على بينة من تأويله، وأن تأويله وصل من نفسه إلى حد القطع واليقين، وآية ذلك قوله للصاحبين بعد تعبير رؤياهما : ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ أي : أنه ليس له تأويل سوى ذلك، وإنما يقول ذلك من يثق بتأويله إلى حد كبير، وقوله : ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ﴾ هو إخبار بأنه على استعداد لأن يخبرهما عن مآل كل طعام يصل إليهما، ولا يقول ذلك إلا واثق بما يخبر به، وهو مما يرجح أن ذلك التأويل كان إلهاما من اللَّه تعالى مباشرة، وأن مسألة الطعام التي استعد لها يوسف كانت بوحي من اللَّه تعالى، كما أخبر عيسى عليه السلام أنه مستعد لأن يخبر قومه عما يأكلون وما يدخرون في البيوت .

ولعل تأويل يوسف للرؤى والأحلام، واستعداده للإخبار بالغيبيات ؛ هو آية رسالته ودليل صدقه، فإن كل رسول له من الآيات ما من شأنه أن تؤمن عليه الناس، كما ورد في الحديث الصحيح[٣] . ويظهر أن تأويل الأحلام كان له شأن في عصر

---

(١) البحر المحيط (٥/ ٣١٠).　　(٢) البقرة : الآية (٤٦).

(٣) يشير إلى قوله ﷺ : «ما من الأنبياء من نبي إلا قد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحيا أوحى اللَّه إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة». أخرجه : أحمد (٢/ ٣٤١)، =

يوسف، وإلا فما بال يوسف بمجرد وضع رجله في السجن يقص عليه فتيان دخلا معه السجن ما رأيا، وما بال الملك يرى الرؤيا فيسأل عنها الملأ والأشراف من قومه وعشيرته، ويهتم بتأويل هذه الرؤيا على غير عادة الملوك في أحلامهم ورؤاهم، فيعتذرون له بأنها أخلاط، وأنهم ليسوا أهلا لتأويل الأحلام، وليسوا من العلم إلى حد يمكنهم من ذلك..

وجملة القول: أن تأويل الأحلام يجوز أن يكون آية ليوسف، ودليلا من دلائل صدقه، أما إخباره بالغيب في مسألة الطعام إذا فهمنا في الآية أنها في الأخبار بالمغيبات؛ فهي آية واضحة على صدق يوسف، فإذا لم يكن يوسف قد أرسل إليه وهو في السجن؛ كان ذلك إرهاصا لنبوته، وتمهيدا لرسالته، وقد عهد في الرسل أن يتقدم رسالاتهم الإرهاصات والخوارق، وقد قال اللّٰه وهو يحدثنا عن مؤمن آل فرعون فيما يحدث: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾[1] ولم يبين لنا القرآن ما هذه البينات: أهي الآيات المتلوة من الكتب التي كانت تنزل على الرسل؟ أم هي دلائل صدقه؟ وهل هذه الدلائل خوارق للعادة أو غير خوارق؟ كل محتمل، فإن اللّٰه تعالى لم يلتزم مع كل رسول أن يؤيده بخوارق، بل يؤيده بآيات تدل على صدقه، ومن آيات الصدق سيرته المرضية وتاريخه المجيد، وعدم مطالبة الناس بأجر على ما يدعو إليه، وأمثال ذلك.

ولقد كان ليوسف الماضي المجيد، والتاريخ الحافل بالعظات، وقوة الإرادة، والصبر والعفة في أحرج أوقات الفتنة، وأشد أنواع الزلزلة، فكان مثلا صالحا، وقدوة حسنة في الاستقامة والتضحية ونكران الذات؛ كل ذلك وأمثاله دلائل على يوسف إذا هو ادعى أنه رسول من عند اللّٰه، ولعل اللّٰه تعالى ذكر لنا يوسف في هذه السورة. وقال: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَـٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ ليرينا أنها هي وحدها تكفي دليلا على صدق يوسف عند ادعائه رسالة اللّٰه، فإنها مشحونة بالعظات، غاصة بالعبر، ولا سيما فيما يتعلق بشخص يوسف، وإرادته الحديدية، وصبره على

= والبخاري (٩/ ٣/ ٤٩٨١)، ومسلم (١/ ١٣٤/ ١٥٢)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٣/ ٧٩٧٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(١) غافر: الآية (٣٤).

كيد امرأة العزيز، بعد صبره على كيد إخوته، وتفضيله السجن على فساد الخلق ومحاربة اللّٰه، وامتناعه عن الملك بعد أن طلبه من السجن حتى تقوم الأدلة على براءته، ويعلم الناس جلية أمره، كل ذلك أدلة على صدق يوسف، وقوة إرادة يوسف، واصطفاء اللّٰه ليوسف، وإعداده لمنصب هو أعلى ما يصل إليه البشر في هذه الحياة: هو منصب الرسالة العظمى، والخلافة في الأرض، ليقيم العدل، ويحكم بين الناس بالحق. .

﴿فَأَنسَـٰهُ ٱلشَّيۡطَـٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ﴾: أي: أنسى الشيطان الشرابي أن يذكر يوسف وقصته عند ربه وسيده، فكان ذلك سببا في بقائه في السجن بضع سنين، والبضع من ثلاثة إلى تسع، والمراد أنه لبث مدة بين ثلاث وتسع، أما تحديدها فلا دليل عليه، وهي عقوبة من اللّٰه تعالى ليوسف على قوله للذي ظن نجاته من الرجلين ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ . . وقد عاقب اللّٰه تعالى يوسف بلبثه في السجن بضع سنين على هذه الكلمة، وهي قوله ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ ليرينا أنه لا ينبغي لمن أعده اللّٰه للرسالة أن يعرض حاجته على أحد سوى اللّٰه تعالى، ويقول المفسرون إن هذه العقوبة لأن يوسف ممن اصطفاهم اللّٰه تعالى، فلا يليق به والحالة هذه أن يلجأ إلى مخلوق في دفع ظلامته، وإن كان التعاون على الخير ودفع الظلم مشروعا لعامة الناس إلا أن اللائق بمقام يوسف تفويضه الأمر إلى اللّٰه تعالى، وهو كقولهم (حسنات الأبرار سيئات المقربين) هكذا يقول المفسرون.

وأنا أرى أن من حق يوسف أن يبلغ ظلامته للملك بواسطة الساقي الذي كان معه، وأن يعمل على تبرئة نفسه مما ألصق به.

وقد وصف اللّٰه المؤمنين بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ﴾[1] وقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْۗ﴾[2] وإذا كان يوسف لم يستطع أن ينتصر لنفسه بالعمل فلا أقل من القول والبلاغ، وإذا لم يكن من حق يوسف أن يدفع الظلم عن نفسه؛ فلماذا واجه العزيز في حضرة زوجه بقوله: ﴿هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ﴾ أليس ذلك دفاعا عن النفس، وانتصارا من الظالم؟ فإذا قال

(١) الشورى: الآية (٣٩).
(٢) الشعراء: الآية (٢٢٧).

للساقي ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ فهو يريد دفع ظلم عن نفسه بواسطة رجل أسدى إليه جميلا، وأحسن إليه أيام إقامته معه بالسجن، عند ملك هو صاحب الأمر والنهي. وإذا أنسى الشيطان الساقي أن يذكر يوسف عند سيده فإنما ذلك لأن بلاءه وفتنته لم تنته بعد، وقدر اللّه له أن يبقى في السجن بضع سنين بعد خروج الساقي.

وقد يؤيد أن يوسف محق في رفع ظلامته، وأنها ليست محل غضب اللّه أو عتبه عليه؛ قوله ﴿فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ أي: إن ذلك الإنساء الذي سلط على الساقي كان من الشيطان، ولولا أن الذكر كان موضع رضا من اللّه تعالى ما كان الإنساء من الشيطان»[1].

قال الشيخ رشيد رضا رادًّا قول من قال: إن المعنى أن الشيطان أنسى يوسف ذكر ربه الذي هو اللّه جل وعلا فعاقبه اللّه بالسجن بضع سنين، قال: «وهو خلاف الظاهر من وجوه:

الأول: عطف الإنساء على ما قاله للساقي بالفاء يدل على وقوعه عقبه، ومفهومه أنه كان ذاكرا لله تعالى قبله إلى أن قاله، فلو كان قوله ذنبا عوقب عليه؛ لوجب أن يعطف عليه بجملة حالية بأن يقال: وقد أنساه الشيطان ذكر ربه أي في تلك الحال، فلم يذكره بقلبه ولا بلسانه، فاستحق عقابه تعالى بإطالة مكثه، على خلاف ما أراده من ملك مصر وحده.

الثاني: أن اللائق بمقامه أن لا يقول ذلك القول؛ إلا من باب مراعاة سنة اللّه تعالى في الأسباب والمسببات، كما وقع بالفعل، فإنه ما خرج من السجن إلا بأمر الملك، وما أمر الملك بإخراجه إلا بعد أن أخبره الساقي خبره، وما آتاه ربه من العلم بتأويل الرؤى وبغير ذلك مما وصاه به يوسف، فإذا كان قد وصاه بذلك ملاحظا أنه من سنن اللّه في عباده متذكرا ذلك وهو اللائق به، فلا يعقل أن يعاقبه ربه تعالى عليه، وعطف الإنساء بالفاء يدل على وقوعه بعد تلك الوصية، فلا تكون هي ذنبا ولا مقترنة بذنب فيستحق عليها العقاب.

الثالث: إذا قيل: سلمنا أنه كان ذاكرا لربه عند ما أوصى الساقي ما أوصاه به، ولكنه نسيه عقب الوصية واتكل عليها وحدها؛ (قلنا): إن زعمتم أنه نسي ذلك في

---

(١) دعوة الرسل (ص: ١١٨-١٢١).

الحال، واستمر ذلك النسيان مدة ذلك العقاب وهو بضع سنين أو تتمتها؛ كنتم قد اتهمتم هذا النبي الكريم تهمة فظيعة لا تليق بأضعف المؤمنين إيمانا، ولا يدل عليها دليل، بل يبطلها وصف اللَّه له بأنه من المحسنين، ومن عباده المخلصين المصطفين، وبأنه غالب على أمره، وأنه صرف عنه السوء والفحشاء، وكيد النساء.

وإن زعمتم أن الشيطان أنساه ذكر ربه برهة قليلة عقب تلك الوصية، ثم عاد إلى ما كان عليه من مراقبته له ﷻ وذكره؛ فهذا النسيان القليل لا يستحق هذا العقاب الطويل، ولم يعصم من مثله نبي من الأنبياء كما يعلم من الوجهين الرابع والخامس.

الرابع: جاء في نصوص التنزيل في خطاب الشيطان ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾[1] وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾[2] التذكر بعد النسيان القليل من شأن أهل التقوى.

الخامس: إن النسيان ليس ذنبا يعاقب اللَّه تعالى عليه، وقد قال تعالى لخاتم النبيين ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[3] يعني الذين أمره بالإعراض عنهم إذا رآهم يخوضون في آيات اللَّه..»[4].

قال شيخ الإسلام مبينًا أن النسيان حصل من ساقي الملك: «وقيل: بل الشيطان أنسى الذي نجا منهما ذكر ربه، وهذا هو الصواب، فإنه مطابق لقوله: ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ قال تعالى: ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾ والضمير يعود إلى القريب، إذا لم يكن هناك دليل على خلاف ذلك؛ ولأن يوسف لم ينس ذكر ربه؛ بل كان ذاكرا لربه.

وقد دعاهما قبل تعبير الرؤيا إلى الإيمان بربه، وقال لهما: ﴿يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

وقال لهما قبل ذلك: ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ﴾ أي: في الرؤيا ﴿إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا

---

(١) الحجر: الآية (٤٢).
(٢) الأعراف: الآية (٢٠١).
(٣) الأنعام: الآية (٦٨).
(٤) تفسير المنار (١٢/ ٣١٣-٣١٥).

بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَاۚ﴾ يعني التأويل ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ٣٧ وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾ فبذا يذكر ربه ﷻ، فإن هذا مما علمه ربه؛ لأنه ترك ملة قوم مشركين لا يؤمنون بالله، وإن كانوا مقرين بالصانع ولا يؤمنون بالآخرة، واتبع ملة آبائه أئمة المؤمنين -الذين جعلهم الله أئمة يدعون بأمره- إبراهيم وإسحق ويعقوب؛ فذكر ربه ثم دعاهما إلى الإيمان بربه.

ثم بعد هذا عبر الرؤيا فقال: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ﴾ الآية، ثم لما قضى تأويل الرؤيا: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ فكيف يكون قد أنسى الشيطان يوسف ذكر ربه؟ وإنما أنسى الشيطان الناجي ذكر ربه؛ أي: الذكر المضاف إلى ربه والمنسوب إليه، وهو أن يذكر عنده يوسف، والذين قالوا ذلك القول، قالوا: كان الأولى أن يتوكل على الله، ولا يقول اذكرني عند ربك، فلما نسي أن يتوكل على ربه جوزي بلبثه في السجن بضع سنين.

فيقال: ليس في قوله: ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ ما يناقض التوكل؛ بل قد قال يوسف: ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ﴾ كما أن قول أبيه: ﴿لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ﴾ لم يناقض توكله؛ بل قال: ﴿وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾.

و(أيضًا) فيوسف قد شهد الله له أنه من عباده المخلصين، والمخلص لا يكون مخلصا مع توكله على غير الله، فإن ذلك شرك، ويوسف لم يكن مشركا لا في عبادته ولا توكله، بل قد توكل على ربه في فعل نفسه بقوله: ﴿وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ فكيف لا يتوكل عليه في أفعال عباده.

وقوله: ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ مثل قوله لربه: ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾[1]، فلما سأل الولاية للمصلحة الدينية لم يكن هذا مناقضا للتوكل، ولا هو من سؤال الإمارة المنهي عنه، فكيف يكون قوله للفتى: ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ

---

(١) يوسف: الآية (٥٥).

رَبِّكَ﴾ مناقضا للتوكل وليس فيه إلا مجرد إخبار الملك به؛ ليعلم حاله ليتبين الحق، ويوسف كان من أثبت الناس.

ولهذا بعد أن طلب ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ﴾ قال: ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ فيوسف يذكر ربه في هذه الحال، كما ذكره في تلك. ويقول: ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ﴾ فلم يكن في قوله له: ﴿ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ ترك لواجب، ولا فعل لمحرم، حتى يعاقبه اللَّه على ذلك بلبثه في السجن بضع سنين، وكان القوم قد عزموا على حبسه إلى حين قبل هذا ظلما له، مع علمهم ببراءته من الذنب.

قال اللَّه تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ ولبثه في السجن كان كرامة من اللَّه في حقه؛ ليتم بذلك صبره وتقواه، فإنه بالصبر والتقوى نال ما نال؛ ولهذا قال: ﴿قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ولو لم يصبر ويتق بل أطاعهم فيما طلبوا منه جزعا من السجن لم يحصل له هذا الصبر والتقوى، وفاته الأفضل باتفاق الناس..

و(المقصود) أن يوسف لم يفعل ذنبا ذكره اللَّه عنه، وهو سبحانه لا يذكر عن أحد من الأنبياء ذنبا إلا ذكر استغفاره منه. ولم يذكر عن يوسف استغفارا من هذه الكلمة، كما لم يذكر عنه استغفارا من مقدمات الفاحشة؛ فعلم أنه لم يفعل ذنبا في هذا ولا هذا؛ بل هم هما تركه لله؛ فأثيب عليه حسنة، كما قد بسط هذا في موضعه.

وأما ما يكفره الابتلاء من السيئات فذلك جوزي به صاحبه بالمصائب المكفرة، كما في قوله ﷺ: «**ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب ولا هم ولا حزن ولا غم ولا أذى إلا كفر اللَّه به خطاياه**»(١)..

فتبين أن قوله: ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾ أي: نسي الفتى ذكر ربه أن يذكر هذا لربه، ونسي ذكر يوسف ربه، والمصدر يضاف إلى الفاعل والمفعول، ويوسف قد ذكر ربه ونسي الفتى ذكر يوسف ربه، وأنساه الشيطان أن يذكر ربه؛ هذا

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٠٣)، والبخاري (١٠/ ١٢٧/ ٥٦٤١-٥٦٤٢)، ومسلم (٤/ ١٩٩٢-١٩٩٣/ ٢٥٧٣)، والترمذي (٣/ ٢٩٨/ ٩٦٦) عن أبي سعيد الخدري ﷺ.

الذكر الخاص؛ فإنه وإن كان يسقي ربه خمرا فقد لا يخطر هذا الذكر بقلبه، وأنساه الشيطان تذكير ربه، وإذكار ربه لما قال: ﴿ٱذۡكُرۡنِي﴾ أمره بإذكار ربه، فأنساه الشيطان إذكار ربه، فإذكار ربه أن يجعله ذاكرا فأنساه الشيطان أن يجعل ربه ذاكرا ليوسف، والذكر هو مصدر، وهو اسم، فقد يضاف من جهة كونه اسما؛ فيعم هذا كله؛ أي: أنساه الذكر المتعلق بربه، والمضاف إليه.

ومما يبين أن الذي نسي ربه هو الفتى لا يوسف قوله بعد ذلك: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنۡهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ فَأَرۡسِلُونِ﴾ وقوله: ﴿وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ﴾ دليل على أنه كان قد نسي فادكر»[1].

قال أبو السعود: «والاستعانة بالعباد وإن كانت مرخصة، لكن اللائق بمناصب الأنبياء ﷺ الأخذ بالعزائم»[2].

وقال ابن العربي: «فيها جواز التعلق بالأسباب، وإن كان اليقين حاصلا؛ لأن الأمور بيد مسببها، ولكنه جعلها سلسلة، وركب بعضها على بعض؛ فتحريكها سنة، والتعويل على المنتهى يقين. والذي يدلك على جواز ذلك؛ نسبة ما جرى من النسيان إلى الشيطان، كما جرى لموسى ﷺ في لقاء الخضر، وهذا بين فتأملوه»[3].

وقال ابن عاشور: «وفيما حكاه القرآن عن حال سجنهم ما ينبئ على أن السجن لم يكن مضبوطا بسجل يذكر فيه أسماء المساجين، وأسباب سجنهم، والمدة المسجون إليها، ولا كان من وزعة السجون، ولا ممن فوقهم من يتعهد أسباب السجن ويفتقد أمر المساجين، ويرفع إلى الملك في يوم من الأسبوع أو من العام. وهذا من الإهمال والتهاون بحقوق الناس، وقد أبطله الإسلام، فإن من الشريعة أن ينظر القاضي أول ما ينظر فيه كل يوم أمر المساجين»[4].

قلت: اختيار يوسف ﷺ للسجن على المعصية والشرك منهاج الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، قال تعالى على لسان نوح ﷺ: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ

(١) مجموع الفتاوى (١٧/ ١١٢-١١٨).
(٢) تفسير أبي السعود (٤/ ٢٨٠).
(٣) أحكام القرآن (٣/ ١٠٨٩).
(٤) التحرير والتنوير (١٢/ ٢٧٩).

ﵟثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِﵞ[(١)]، وقال على لسان هود عليه السلام: ﵟقَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَﵞ[(٢)]، وقال على لسان شعيب عليه السلام: ﵟقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرۡيَتِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ قَالَ أَوَلَوۡ كُنَّا كَٰرِهِينَ ٨٨ قَدِ ٱفۡتَرَيۡنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنۡ عُدۡنَا فِي مِلَّتِكُم بَعۡدَ إِذۡ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنۡهَاۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَاۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَاۚ رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَﵞ[(٣)]، وكذلك فعل إبراهيم عليه السلام: ﵟقَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ٦٣ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٦٤ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ٦٥ قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ ٦٦ أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَﵞ[(٤)]، وكذلك العلماء والسلف الصالح وعلى رأسهم الإمام أحمد حيث اختار التوحيد على القول بخلق القرآن، وتناوبه ثلاثة من الخلفاء فسجنوه وضربوه، وكذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله اختار السجن غير مرة على القول ببدعة الرفض والصوفية وغيرها، وهذا سجل طويل يحتاج إلى كتاب مستقل، وقد سجلنا مواقفهم -رحمهم الله- في كتابنا (العقيدة السلفية في مسيرتها التاريخية وقدرتها على مواجهة التحديات - قسم موسوعة مواقف السلف) والحق دائمًا لا ينبغي أن يعدل عنه مهما كان العرض مغريًا، سواء كان مالًا أو رئاسةً أو جاهًا أو شهوة نساء؛ كما في قصة نبي الله يوسف عليه السلام وغيره.

* * *

(١) يونس: الآية (٧١).

(٢) هود: الآية (٥٤).

(٣) الأعراف: الآيتان (٨٨-٨٩).

(٤) الأنبياء: الآيات (٦٣-٦٧).

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾

★ **غريب الآية:**

عجاف: جمع عجفاء أي: هزيلة.

أضغاث: جمع ضِغث أي: تخاليط أحلام. وأصله أخلاط النبات.

أُمَّة: أي بعد مدة وحين، ولها معان منها: جماعة الناس، والجيل، والرجل الجامع لخصال الخير، والمدة، والدين، والطريقة، وعشيرة الرجل وغيرها.

دأبًا: بسكون الهمزة وتفتح: مصدران لدأب الشيء: لازمه واعتاده من غير فتور.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «هذه الرؤيا من ملك مصر مما قدر اللّه تعالى أنها كانت سببا لخروج يوسف ﷺ من السجن، معززا مكرما، وذلك أن الملك رأى هذه الرؤيا، فهالته وتعجب من أمرها وما يكون تفسيرها، فجمع الكهنة والحادة وكبار دولته وأمراءه؛ فقص عليهم ما رأى وسألهم عن تأويلها، فلم يعرفوا ذلك، واعتذروا إليه

بأنها ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ أي: أخلاط أحلام اقتضته رؤياك هذه ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾ أي: لو كانت رؤيا صحيحة من أخلاط لما كان لنا معرفة بتأويلها، وهو تعبيرها، فعند ذلك تذكر الذي نجا من ذينك الفتيين اللذين كانا في السجن مع يوسف، وكان الشيطان قد أنساه ما وصاه به يوسف من ذكر أمره للملك، فعند ذلك تذكر بعد أمة؛ أي: مدة، وقرأ بعضهم بعد أَمَهٍ أي: بعد نسيان، فقال لهم، أي للملك والذين جمعهم لذلك: ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ﴾ أي: بتأويل هذا المنام، ﴿فَأَرْسِلُونِ﴾ أي: فابعثون إلى يوسف الصديق إلى السجن، ومعنى الكلام: فبعثوه فجاء، فقال: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا﴾ وذكر المنام الذي رآه الملك، فعند ذلك ذكر له يوسف ﷺ تعبيرها من غير تعنيف للفتى في نسيانه ما وصاه به، ومن غير اشتراط للخروج قبل ذلك، بل قال: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ أي: يأتيكم الخصب والمطر سبع سنين متواليات ففسر البقر بالسنين؛ لأنها تثير الأرض التي تشتغل منها الثمرات والزروع، وهن السنبلات الخضر، ثم أرشدهم إلى ما يعتدونه في تلك السنين، فقال: ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ أي: مهما استغللتم في هذه السبع السنين الخصب، فادخروه في سنبله ليكون أبقى له وأبعد عن إسراع الفساد إليه، إلا المقدار الذي تأكلونه، وليكن قليلا قليلا، لا تسرفوا فيه لتنتفعوا في السبع الشداد، وهن السبع السنين المحل التي تعقب هذه السبع المتواليات، وهن البقرات العجاف اللاتي تأكل السمان؛ لأن سني الجدب يؤكل فيها ما جمعوه في سني الخصب، وهن السنبلات اليابسات؛ وأخبرهم أنهن لا ينبتن شيئًا، وما بذروه فلا يرجعون منه إلى شيء؛ ولهذا قال ﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾ ثم بشرهم بعد الجدب العام المتوالي بأنه يعقبهم بعد ذلك عام فيه يغاث الناس؛ أي: يأتيهم الغيث وهو المطر وتغل البلاد، ويعصر الناس ما كانوا يعصرون على عادتهم من زيت ونحوه، وسكر ونحوه، حتى قال بعضهم: يدخل فيه حلب اللبن أيضًا. قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾: يحلبون»[1].

وقوله: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ قال ابن عاشور: «وغلب استعمال وصف

(١) التفسير (٤/ ٣٠-٣١).

الصديق استعمال اللقب الجامع لمعاني الكمال، واستقامة السلوك في طاعة الله تعالى، لأن تلك المعاني لا تجتمع إلا لمن قوي صدقه في الوفاء بعهد الدين.

وأحسن ما رأيت في هذا المعنى كلمة الراغب الأصفهاني في مفردات القرآن قال: (الصديقون هم دوين الأنبياء). وهذا ما يشهد به استعمال القرآن في آيات كثيرة مثل قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ﴾[1] الآية، وقوله: ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾[2]. ومنه ما لقب النبي ﷺ أبا بكر بالصديق في قوله في حديث رجف جبل أحد: «اسكن أحد فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان»[3]. من أجل ذلك أجمع أصحاب رسول الله ﷺ ومنهم علي بن أبي طالب كرم الله وجهه على أن أبا بكر رضي الله عنه أفضل الأمة بعد النبي ﷺ. وقد جمع الله هذا الوصف مع صفة النبوءة في قوله: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾[4] في سورة (مريم).

وقد يطلق الصديق على أصل وصفه، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ﴾[5] على أحد تأويلين فيها.

فهذا الذي استفتى يوسف عليه السلام في رؤيا الملك وصف في كلامه يوسف عليه السلام بمعنى يدل عليه وصف الصديق في اللسان العربي، وإنما وصفه به عن خبرة وتجربة اكتسبها من مخالطة يوسف عليه السلام في السجن»[6].

وقال الشيخ السعدي: «ولما أراد الله أن يتم أمره، ويأذن بإخراج يوسف من السجن؛ قدر لذلك سببا لإخراج يوسف، وارتفاع شأنه وإعلاء قدره، وهو رؤيا الملك. لما أراد الله تعالى أن يخرج يوسف من السجن، أرى الله الملك هذه الرؤيا العجيبة، التي تأويلها يتناول جميع الأمة؛ ليكون تأويلها على يد يوسف، فيظهر من فضله، ويبين من علمه، ما يكون له رفعة في الدارين.

ومن التقادير المناسبة؛ أن الملك الذي ترجع إليه أمور الرعية هو الذي رآها،

---

(١) النساء: الآية (٦٩). (٢) المائدة: الآية (٧٥).

(٣) أخرجه: أحمد (٣/ ١١٢)، والبخاري (٧/ ٢٥-٢٦/ ٣٧٧٥)، وأبو داود (٥/ ٤٠/ ٤٦٥١)، والترمذي (٥/ ٥٨٣/ ٣٦٩٧)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٤٣/ ٨١٣٥) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٤) مريم: الآية (٥٦).

(٥) الحديد: الآية (١٩).

(٦) التحرير والتنوير (١٢/ ٢٨٤-٢٨٥).

لارتباط مصالحها به. وذلك أنه رأى رؤيا هالته، فجمع علماء قومه، وذوي الرأي منهم وقال: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ﴾ أي: سبع من البقرات عجاف. وهذا من العجب، أن السبع العجاف الهزيلات اللاتي سقطت قوتهن، يأكلن السبع السمان التي كن نهاية في القوة. ﴿وَ﴾ رأيت ﴿سَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ﴾ أي: يأكلهن سبع سنبلات أخر ﴿يَابِسَٰتٍ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ﴾ لأن تعبير الجميع واحد، وتأويلهن شيء واحد. ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ فتحيروا، ولم يعرفوا لها وجها. ﴿قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ أي: أحلام لا حاصل لها، ولا لها تأويل. وهذا جزم منهم بما لا يعلمون، وتعذر منهم بما ليس بعذر. ثم قالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾ أي: لا نعبر إلا الرؤيا. وأما الأحلام التي هي من الشيطان، أو من حديث النفس، فإنا لا نعبرها. فجمعوا بين الجهل والجزم بأنها أضغاث أحلام، والإعجاب بالنفس، بحيث إنهم لم يقولوا: لا نعلم تأويلها، وهذا من الأمور التي لا تنبغي لأهل الدين والحجا. وهذا أيضًا، من لطف اللَّه بيوسف عليه السلام؛ فإنه لو عبرها ابتداءً قبل أن يعرضها على الملإ من قومه وعلمائهم فيعجزوا عنها؛ لم يكن لها ذلك الموقع. ولكن لما عرضها عليهم، فعجزوا عن الجواب، وكان الملك مهتما لها غاية الاهتمام، فعبرها يوسف؛ وقعت عندهم موقعا عظيما. وهذا نظير إظهار اللَّه فضل آدم على الملائكة بالعلم، بعد أن سألهم فلم يعلموا. ثم سأل آدم، فعلمهم أسماء كل شيء فحصل بذلك زيادة فضله.

وكما يظهر فضل أفضل خلقه محمد ﷺ في القيامة؛ أن يلهم اللَّه الخلق أن يتشفعوا بآدم، ثم بنوح ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى عليهم السلام فيعتذرون عنها.

ثم يأتون محمدا ﷺ فيقول: «**أنا لها، أنا لها**»[1]، فيشفع في جميع الخلق، وينال ذلك المقام المحمود، الذي يغبطه به الأولون والآخرون. فسبحان من خفيت ألطافه ودقت في إيصاله البر والإحسان، إلى خواص أصفيائه وأوليائه.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا﴾ أي: من الفتيين، وهو الذي رأى أنه يعصر خمرا، وهو الذي أوصاه يوسف أن يذكره عند ربه ﴿وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ أي: وتذكر يوسف، وما

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٢٨١-٢٨٢)، والطيالسي (ص: ٣٥٣-٣٥٤ رقم: ٢٧١١)، وأبو يعلى (٤/ ٢١٣-٣١٦/ ٢٣٢٨) من حديث عبد اللَّه بن عباس رضي الله عنهما، وهو حديث الشفاعة الطويل كما في الصحيحين وغيرهما.

جرى له في تعبيره لرؤياهما، وما وصاه به، وعلم أنه كفيل بتعبير هذه الرؤيا بعد مدة من السنين فقال: ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ﴾ إلى يوسف لأسأله عنها. فأرسلوه فجاء إليه، ولم يعنفه يوسف على نسيانه، بل استمع ما يسأله عنه وأجابه عن ذلك فقال: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ أي: كثير الصدق في أقواله وأفعاله. ﴿أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ فإنهم متشوفون لتعبيرها، وقد أهمتهم.

فعبر يوسف، السبع البقرات السمان، والسبع السنبلات الخضر؛ بأنهن سبع سنين مخصبات، والسبع البقرات العجاف، والسبع السنبلات اليابسات؛ بأنهن سنين مجدبات.

ولعل وجه ذلك -والله أعلم- أن الخصب والجدب، لما كان الحرث مبنيا عليه، وأنه إذا حصل الخصب، قويت الزروع والحروث، وحسن منظرها، وكثرت غلالها، والجدب بالعكس من ذلك.

وكانت البقر هي التي تحرث عليها الأرض، وتسقى عليها الحروث في الغالب. والسنبلات هي أعظم الأقوات وأفضلها؛ عبرها بذلك لوجود المناسبة.

فجمع لهم في تأويلها، بين التعبير، والإشارة لما يفعلونه، ويستعدون به من التدابير في سني الخصب إلى سني الجدب فقال: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ أي: متتابعات. ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ﴾ من تلك الزروع ﴿فَذَرُوهُ﴾ أي: اتركوه ﴿فِى سُنۢبُلِهِۦٓ﴾ لأنه أبقى له وأبعد من الالتفات إليه[1] ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ أي: دبروا أكلكم في هذه السنين الخصبة، وليكن قليلا، ليكثر ما تدخرون ويعظم نفعه ووقعه. ﴿ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أي: بعد تلك السنين السبع المخصبات؛ ﴿سَبْعٌ شِدَادٌ﴾ أي: مجدبات ﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ﴾ أي: يأكلن جميع ما ادخرتموه، ولو كان كثيرًا. ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾ أي: تمنعونه من التقديم لهن. ﴿ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أي: السبع الشداد ﴿عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ أي: فيه تكثر الأمطار والسيول، وتكثر الغلات، وتزيد على أقواتهم،

---

(١) جاء بهامش التيسير: «تتفق هذه الآيات مع ما وصل إليه العلم الحديث؛ من أن ترك الحب في سنابله عند تخزينه؛ وقاية له من التلف بالعوامل الجوية والآفات. وفوق ذلك يبقيه محافظا على محتوياته الغذائية كاملة، وأن ذلك الإلهام كان لنبي من أنبياء الله وهو يوسف ﷺ».

حتى إنهم يعصرون العنب ونحوه، زيادة على أكلهم.

ولعل استدلاله على وجود هذا العام الخصب، مع أنه غير مصرح به في رؤيا الملك؛ لأنه فهم من التعبير، بالسبع الشداد، أن العام الذي يليها، تزول به شدتها.

ومن المعلوم أنه لا يزول الجدب المستمر سبع سنين متواليات، إلا بعام مخصب جدا، وإلا لما كان للتقدير فائدة. فلما رجع الرسول إلى الملك والناس، وأخبرهم بتأويل يوسف للرؤيا؛ عجبوا من ذلك، وفرحوا بها أشد الفرح»[1].

وقال أيضًا: «وأما قوله: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ أي: يحصل للناس فيه غيث مغيث، تعيد الأراضي خصبها، ويزول عنها جدبها، وذلك مأخوذ من تقييد السنين المجدبات بالسبع؛ فدل هذا القيد على أنه يلي هذه السبع ما يزيل شدتها، ويرفع جدبها؛ ومعلوم أن توالي سبع سنين مجدبات لا يبقي في الأرض من آثار الخضر والنوابت والزروع ونحوها لا قليلا ولا كثيرًا، ولا يرفع هذا الجدب العظيم إلا غيث عظيم؛ وهذا ظاهر جدا، أخذه من رؤيا الملك.

ومن العجب أن جميع التفاسير التي وقفت عليها لم يذكروا هذا المعنى مع وضوحه.

بل قالوا: لعل يوسف ﷺ جاءه وحي خاص في هذا العام الذي فيه يغاث الناس وفيه يعصرون.

والأمر لا يحتاج إلى ما ذكروه، بل هو ولله الحمد ظاهر من مفهوم العدد، وأيضًا ظاهر من السياق؛ فإنه جعل هذا التعبير والتفسير توضيحا لرؤيا الملك.

ثم اعلم أن رؤيا الملك وتعبير يوسف لها وتدبيره ذلك التدبير العجيب؛ من رحمة اللّه العظيمة على يوسف وعلى الملك وعلى الناس.

فلولا هذه الرؤيا وهذا التعبير والتدبير؛ لهجمت على الناس السنون المجدبات قبل أن يعدوا لها عدتها، فيقع الضرر الكبير على الأقطار المصرية، وعلى ما جاورها، فصار ذلك رحمة بهم وبغيرهم من الخلق.

ألا ترى كيف شمل الجدب البلاد المصرية، وشمل البلاد الشامية وفلسطين وغيرها، حتى احتاجوا إلى الاكتيال من مصر، واحتاج يوسف أن يقدر للجميع،

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٤/ ٣٠-٣٦).

ويوزع عليهم توزيعا عادلا فيه الرفق بالجميع والإبقاء عليهم؟

وكان هذا العلم العظيم من يوسف هو السبب الأعظم في خروجه من السجن، وتقريب الملك له من اختصاصه به وتمكينه من الأرض يتبوأ منها حيث يشاء، وهذا من إحسانه، واللَّه لا يضيع أجر المحسنين.

ومع هذا الفضل فضل اللَّه أعظم من ذلك، يصيب برحمته من يشاء ممن يختاره، ويختص ويجمع له خير الدنيا والآخرة»[1].

قال القاسمي: «قال في الإكليل: هذه الآية من أصول التعبير. وفيها أيضًا صحة رؤيا الكفار، وجواز تسميته ملكا، وأن قولنا (الرؤيا لأول عابر) ليس عاما في كل رؤيا، لأنهم قالوا: ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾، ولم تسقط بقولهم ذلك، فتخص القاعدة بما يحتمل من الرؤيا وجوها فيعبر بأحدها، فيقع عليه، وفي قوله: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾.. إلخ، زيادة على ما وقع السؤال عنه، فيستدل به على أنه لا بأس بذلك في تعبير الرؤيا والفتوى»[2].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في دعاء النبي ﷺ على المشركين بالجدب والقحط

* عن عبداللَّه ﷺ: أن قريشا لما أبطؤوا عن رسول اللَّه ﷺ بالإسلام قال: «اللهم اكفنيهم بسبع كسبع يوسف، فأصابهم سنة حصت كل شيء، حتى أكلوا العظام، حتى جعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى بينه وبينها مثل الدخان، قال الله: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾[3]، قال الله: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾[4] أفيكشف عنهم العذاب يوم القيامة وقد مضى الدخان ومضت البطشة»[5].

★ **غريب الحديث:**

سنة: الجدب والقحط، يقال: عليه سنة؛ أي: جدب.

حصت كل شيء: أي استأصلته وأذهبته. والحص: إذهاب الشعر عن الرأس

---

(١) فوائد مستنبطة من قصة يوسف (ص: ١٤-١٥).

(٢) محاسن التأويل (٩/ ٢٣٣-٢٣٤). (٣) الدخان: الآية (١٠).

(٤) الدخان: الآية (١٥).

(٥) أخرجه: أحمد (١/ ٣٨٠-٣٨١)، والبخاري (٨/ ٦٣/ ٤٦٩٣)، ومسلم (٤/ ٢١٥٥-٢١٥٦/ ٢٧٩٨)، والترمذي (٥/ ٣٥٣-٣٥٤/ ٣٢٥٤)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٥٦/ ١١٤٨٣).

بحلق أو مرض.

★ **فوائد الحديث:**

قال الحافظ: «والمراد بسني يوسف ما وقع في زمانه ﷺ من القحط في السنين السبع كما وقع في التنزيل، وقد بين ذلك في الحديث الثاني حيث قال: «سبعا كسبع يوسف»، وأضيفت إليه لكونه الذي أنذر بها، أو لكونه الذي قام بأمور الناس فيها»[١].

قال ابن بطال: «إنما كان ﷺ يدعو على المشركين على حسب ذنوبهم وإجرامهم، فكان يبالغ في الدعاء على من اشتد أذاه للمسلمين، ألا ترى أنه لما يئس من قومه قال: «اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها كسني يوسف». وقال مرة: «اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف». ودعا على أبي جهل بالهلاك، ودعا على الأحزاب بالهزيمة والزلزلة، فأجاب اللَّه دعاءه فيهم، ودعا على الذين قتلوا القراء شهرا في القنوت، ودعا على أهل الأحزاب أن يحرقهم اللَّه في بيوتهم وقبورهم، فبالغ في الدعاء عليهم لشدة إجرامهم»[٢].

قلت: ورد في هذا الحديث أن النبي ﷺ لما دعا عليهم وأصابهم ما أصابهم «جاءه أبو سفيان فقال: يا محمد، جئت تأمر بصلة الرحم، وإن قومك قد هلكوا فادع الله».

قال ابن بطال: «فيه إقرار المشركين والمنافقين بفضل النبي ﷺ، وقرب مكانه من ربه، وأنه المستشفع عنده فيما سأله إياه، وأن تلك عادة من اللَّه علموها، ولولا ذلك ما لجؤوا إليه في كشف ضرهم عند إشرافهم على الهلكة، فسألوه أن يكون وسيلة إلى اللَّه في إزالة ضرهم، وذلك أدل الدليل على معرفتهم بصدقه، ولكن حملهم الحسد والأنفة على معاداته ومخالفته، لما سبق في أم الكتاب من كفرهم، أعاذنا اللَّه من العناد، ومكابرة العيان»[٣].

انظر ما تقدم من سورة (النساء) الآية (٧٥).

* * *

---

(١) الفتح (٢/ ٦٢٦-٦٢٧).

(٢) شرح صحيح البخاري (١٠/ ١٢٦-١٢٧).

(٣) شرح صحيح البخاري (٣/ ١٥).

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّـٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشوكاني: «في الكلام حذف قبل هذا، والتقدير: فذهب الرسول إلى الملك فأخبره بما أخبره به يوسف من تعبير تلك الرؤيا، وقال الملك لمن بحضرته ائتوني به: أي بيوسف، رغب إلى رؤيته ومعرفة حاله بعد أن علم من فضله ما علمه من وصف الرسول له ومن تعبيره لرؤياه ﴿فَلَمَّا جَآءَهُ﴾ أي: جاء إلى يوسف ﴿ٱلرَّسُولُ﴾ واستدعاه إلى حضرة الملك، وأمره بالخروج من السجن، قال يوسف للرسول: ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي: سيدك ﴿فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّـٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ أمره بأن يسأل الملك عن ذلك، وتوقف عن الخروج من السجن، ولم يسارع إلى إجابة الملك؛ ليظهر للناس براءة ساحته ونزاهة جانبه، وأنه ظلم بكيد امرأة العزيز ظلما بينا، ولقد أعطي ﷺ من الحلم والصبر والأناة ما تضيق الأذهان عن تصوره، ولهذا ثبت في الصحيح من قوله ﷺ: «ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي» يعني الرسول الذي جاء يدعوه إلى الملك. قال ابن عطية: هذا الفعل من يوسف أناة وصبرا، وطلبا لبراءة ساحته، وذلك أنه خشي أن يخرج وينال من الملك مرتبة، ويسكت عن أمر ذنبه فيراه الناس بتلك العين يقولون هذا الذي راود امرأة العزيز، وإنما قال: ﴿فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ﴾ وسكت عن امرأة العزيز رعاية لذمام الملك العزيز، أو خوفا من كيدها وعظيم شرها، وذكر السؤال عن تقطيع الأيدي، ولم يذكر مراودتهن له؛ تنزها منه عن نسبة ذلك إليهن، ولذلك لم ينسب المراودة فيما تقدم إلى امرأة العزيز إلا بعد أن رمته بدائها وانسلت. وقد اكتفى هنا بالإشارة الإجمالية بقوله: ﴿إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ فجعل علم الله سبحانه بما وقع عليه من

الكيد منهن مغنيا عن التصريح»[١].

وقال القاسمي: «أي: ما شأنهن وخبرهن؟ أمره بأن يسأله ويستفهمه عن ذلك، ولم يكشف له عن القصة، ولا أوضحها له، لأن السؤال مجملا، مما يهيج الملك على الكشف والبحث والاستعلام، فتحصل البراءة. وإنما كان السؤال المجمل يهيج الإنسان ويحركه للبحث عنه؛ لأنه يأنف من جهله وعدم علمه به، ولو قال: سله أن يفتش عن ذلك؛ لكان طلبا للفحص عنه، وهو مما يتسامح ويتساهل به، وفيه جرأة عليه، فربما امتنع منه، ولم يلتفت إليه.

قال الزمخشري: إنما تأنى وتثبت في إجابة الملك، وقدم سؤال النسوة، ليظهر براءة ساحته عما قرف به وسجن فيه، لئلا يتسلق به الحاسدون إلى تقبيح أمره عنده، ويجعلوه سلما إلى حط منزلته لديه، ولئلا يقولوا: ما خلد في السجن إلا لأمر عظيم، وجرم كبير، حق به أن يسجن ويعذب ويستكف شره، وفيه دليل على أن الاجتهاد في نفي التهم واجب وجوب اتقاء الوقوف في مواقفها»[٢].

وقال العدوي: «طلب يوسف لمناسبة تأويله رؤياه الخطيرة، فلم يكن من يوسف إلا التأبي، وقال للرسول ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ وسيدك وهو الملك ﴿فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ﴾ أي: ما شأنهم وقصتهم[٣]، وهل لاحظن على يوسف ما يؤيد تهمة امرأة العزيز أو ما يبرئه؟ ولعل يوسف طلب أن يكون السؤال للنسوة؛ لأنه لم يكن يظن أن امرأة العزيز تعترف أمام الملك بأنها هي الخاطئة، فكان أمله في النسوة فوق أمله في امرأة العزيز.

وتأمل ذلك الصبر البالغ، وهذه الإرادة الحديدية التي تجلت في يوسف، يطلبه الملك من السجن لحاجته إليه، ومعنى ذلك أن مدة المحنة قد انتهت، وآذنت بالخروج، وكان المنتظر أن يتلقى يوسف ذلك الأمر بفارغ الصبر، فيهرول إلى الخروج، ولكن يوسف الصديق، يوسف المعد لأن يكون رسولا، يوسف الذي امتحن بامرأة العزيز وراودته عن نفسه فقال لها: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ

(١) فتح القدير (٣/ ٤٧-٤٨).

(٢) محاسن التأويل (٩/ ٢٣٤).

(٣) كذا، والصواب: «ما شأنهن وقصتهن».

﴿لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ فحفظ لرب البيت إحسانه، ولمولاه وخالقه فضله عليه، يوسف صاحب هذا الخلق المتين؛ لم يكن همه أن يخرج من السجن فحسب، وإنما همه أن يخرج ظافرا منتصرا، همه أن يخرج من هذه الفتنة كالإبريز الخالص، وأن يظهر للجماهير أنه قدوة حسنة، ومثال صالح في الخلق وحسن السيرة.

ولو تصور الإنسان ما يقاسيه السجين، وما يلقى من شظف العيش، وأن يوسف قد لبث فيه بضع سنين بسبب نسيان صاحبه أن يذكره عند ربه وقد أوصاه بذلك؛ لو تصور الإنسان ذلك كله؛ لعلم مقدار التضحية التي ضحى بها يوسف الصديق في رده رسول الملك وقوله له: ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ﴾ ومعنى ذلك أنه لا يريد أن يخرج من السجن إلا حيث ثبتت براءته، وعلم الناس جميعًا أن صحيفته بيضاء نقية، لم تتدنس بشيء من الغبار، وذلك حزم وعزم من يوسف يحفظه له التاريخ، وحسبه أن رسول اللَّه ﷺ يقول فيه: **«لو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي»**.

وهي شهادة لها قيمتها، ومنقبة ما أعظمها من منقبة، تعلمنا كيف يستهين الإنسان بالشدائد في سبيل طهارة النفس وبراءة العرض، وترينا أن عذاب الجسم وإن عظم دون عذاب الروح، فإن عذاب الجسم إلى زوال، أما عذاب الروح وألم الضمير ووخزه؛ فهو عذاب الأبد، فلا يوازيه شيء من عذاب الجسم، ألا ترى إلى المؤمنين في كل زمان يستهينون بعذاب أجسامهم في الجهاد والحروب في سبيل راحة قلوبهم، وقيامهم بواجبهم نحو دينهم وربهم.

وقد ترى في الرجل ما لا يحصى من الضربات والطعنات، ويبلغ به الألم الجسماني ما يبلغ، وهو راض مطمئن؛ لأنه في سبيل راحة قلبه واطمئنان نفسه، ولا عجب فهو ألم موقت في سبيل نعيم دائم، وهو كما يتلقى الرجل العمليات الجراحية وفيها شق بطن أو بتر عضو من أعضائه برباطة جأش، وقلب راض في سبيل أن يعيش بعد ذلك عيشة مريحة، ويحيا حياة هادئة مطمئنة.

وقد حدثنا التاريخ عن سلفنا الصالح: أن الرجل كان ينتهي من ميدان القتال، وفيه من أثر الطعن والنزال ما يودي بحياته، ويمر عليه صاحبه وهو يلفظ النفس الأخير، فيأخذ في تسليته فيلقاه مغتبطا بحاله، مسرورا بما آل إليه؛ لأنه مات في سبيل الواجب، وقتل لإعلاء كلمة اللَّه، وسيموت شهيدا يشهد له دمه وعمله،

وسيكون قدوة صالحة لمن يأتي بعده .

كل ذلك في سبيل راحة النفس وسعادتها ، وكل ذلك في سبيل حياة طيبة تتبع هذه الحياة ، وكل ذلك في سبيل الذكرى الطيبة والسيرة الحسنة .

فنبي اللّه يوسف يضرب لنا ذلك المثل ، وهو رضاه بالسجن حتى تظهر براءته ؛ ليرينا أن شظف العيش وخشونة الحياة وحرمان الرجل من ذلك النعيم الذي نرى ؛ سهل وهين في سبيل السيرة الطيبة ، وراحة القلب ، وأن تعلم الناس أن السجين بريء مما نسب إليه ، بعيد مما رمي به . وهكذا يجب أن يضحي الناس براحة أجسامهم في سبيل راحة قلوبهم ، وأن يفضلوا الحياة الخشنة التي فيها كرامتهم على الحياة الناعمة إذا كان فيها مساس بخلقهم .

وقد نلمح من خلق يوسف المتين ، وإرادته الحديدية ، وصبره على المكاره ، واحتماله في سبيل الكرامة وحفظ الخلق ، قد نلمح من ذلك سلوة الزعماء وهم في غيابة السجون ، ورضاهم وهم مكبلون بالسلاسل والأغلال ، وطمأنينة نفوسهم وإن كانت أجسامهم في شقاء ، وثبات أفئدتهم وإن كانت أجسادهم في عناء .

نعم قد يكون ذلك في الزعماء ما داموا مؤمنين بصحة مبادئهم ، موقنين بأن حقهم سينتصر على باطل غيرهم ، واثقين بأن اللّه ناصرهم ومؤيدهم ، فإذا جاءهم رسول وهم في السجن يساومهم على بلادهم في سبيل راحة أجسامهم ؛ رفضوا ذلك بإباء وشمم ، وقالوا للرسول كما قال يوسف : ارجع إلى ربك وقل له : ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ ولا سبيل إلى المساومة في مصالح البلاد ، ونكون خائنين للأمانة التي وضعت في أعناقنا ، والعهد الذي أخذناه على أنفسنا ، إذا نحن آثرنا راحة أجسامنا على راحة قلوبنا وضمائرنا ، ونكون مثلا سيئا وقدوة غير صالحة إذا نحن أجبناه إلى ما طلب ، وقديما عذب الناس في سبيل مبادئهم ، فكان عذابهم نصرا لها وتأييدا ، وكان سجنهم إطلاقا للبلاد من أغلالها ، وفكا لها من قيودها وسلاسلها .

وليقولوا للرسول الغاصب : إن لنا قدوة حسنة في نبي اللّه يوسف ، وضعته الشهوة الجامحة في السجن ، فلما طلبه الملك لعلمه وفضله ، قال له لا أخرج من السجن إلا حيث أجيب طلبي ، وهو أن تسأل النسوة عن أمري ، ليخبرنك أبريء أنا

أم مجرم؟ وهل سجني كان ظلما أم حقا؟ فلتكن إجابتنا لك كإجابة يوسف لرسول الملك: لا نخرج من السجن إلا إذا نظر الذي أرسلك في مطلبنا، واعترف بأننا محقون لا مبطلون، وأننا بريئون لا متهمون، وإذا لم نستطع أن نكون كنبي اللّٰه في إيثار السجن إلى أن نجاب إلى ما نطلب؛ فلنكن كنبي اللّٰه في أن لا يكون خروجنا من السجن في سبيل عمل هو ضار ببلادنا، وله مساس بخلقنا وكرامتنا، فلا أقل من أن نخرج كرماء كما دخلنا، لم نتسبب لأمتنا في ضرر، ولم نخلف لها عارا، وذلك أقل ما تتطلبه الزعامة من حق، وما توجبه من تضحية، أما أن ندخل السجن لأننا نطالب بحق، ونخرج منه لأننا اعترفنا بأننا مخطئون فيما نطالب به؛ فذلك ما لا يليق بزعيم، ولاينبغي لمن يعرف لنفسه كرامة.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ﴾ طالب رسول الملك أن يرجع إلى ربه وهو الملك الذي طلب يوسف، وأن يسأله عن النسوة اللاتي كن مع امرأة العزيز وقطعن أيديهن ما شأنهم؟ والمراد تهييج الملك ليقف على حقيقة الواقعة التي تتعلق بيوسف في ذلك الوقت، الذي يحتاج إليه فيه، وقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ﴾ أراد به مولاه وخالقه، فهو عليم بكيدهن، وسيجازيهن على ذلك الكيد، أو أراد به العزيز، علم كيدهن عند وقوع الحادثة، وشهادة الشاهد أمامه، وقال بعد شهادة الشاهد: ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ ۝٢٨ يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ﴾ ولك أن تقول: إنه أراد بالرب الملك، وأنه عليم بكيد النساء»[1].

قال محمد رشيد رضا: «وفي هذا التريث والسؤال فوائد جليلة في أخلاق يوسف عليه السلام وعقله وأدبه في سؤاله، منها:

دلالته على صبره وأناته، وجدير بمن لقي ما لقي من الشدائد أن يكون صبورا حليما، فكيف إذا كان نبيا وارثا لإبراهيم الذي وصفه اللّٰه بالأواه الحليم؟ وفي حديث أبي هريرة في المسند والصحيحين مرفوعا: «ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي» وفي لفظ لأحمد: «لو كنت أنا لأسرعت الإجابة وما ابتغيت العذر» وأما ما رواه عبدالرزاق عن عكرمة في تعجب النبي من صبره وكرمه

(١) دعوة الرسل (ص: ١٢٣-١٢٥).

وكونه لو كان مكانه لما أول لهم الرؤيا حتى يشترط عليهم أن يخرجوه من السجن، ولو أتاه الرسول لبادرهم الباب. فهو مرسل لا يحتج به.

ومنها: عزة نفسه وحفظ كرامتها إذ لم يرض أن يكون متهما بالباطل حتى يظهر براءته ونزاهته.

ومنها: وجوب الدفاع عن النفس وإبطال التهم التي تخل بالشرف، كوجوب اجتناب مواقفها.

ومنها: مراعاته النزاهة بعدم التصريح بشيء من الطعن على النسوة، وترك أمر التحقيق إلى الملك يسألهن: ما بالهن قطعن أيديهن؟ وينظر ما يجبن به!.

ومنها: أنه لم يذكر سيدته معهن، وهي أصل الفتنة وفاء لزوجها ورحمة بها؛ لأن أمر شغفها به كان وجدانا قاهرا لها، وإنما اتهمها أولا عند وقوفه موقف التهمة لدى سيدها وطعنها فيه دفاعا عن نفسه، فهو لم يكن له بد منه»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في صبر يوسف على السجن في ذات الله

* عن أبي هريرة ﷺ أن رسول اللّه ﷺ قال: **«نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾[٢]، ويرحم اللّه لوطا لقد كان يأوي إلى ركن شديد، ولو لبثت في السجن طول ما لبث يوسف؛ لأجبت الداعي»**[٣].

* عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول اللّه ﷺ -وقرأ هذه الآية ﴿ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ قال النبي ﷺ-: **«لو كنت أنا لأسرعت الإجابة، وما ابتغيت العذر»**[٤].

---

(١) التفسير المنار (١٢/ ٣٢١-٣٢٢). (٢) البقرة: الآية (٢٦٠).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٢٦)، والبخاري (٨/ ٤٦٦/ ٤٦٩٤)، ومسلم (١/ ١٣٣/ ١٥١)، وابن ماجه (٢/ ١٣٣٥/ ٤٠٢٦)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٦٨/ ١١٢٥٣).

(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٤٦) والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٦٩/ ١١٢٥٤) وابن جرير [شاكر] (١٦/ ١٣٥-١٣٦/ ١٩٤٠١)، وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ٤٠): «رواه أحمد وفيه محمد بن عمرو وهو حسن الحديث». وصححه الحاكم (٢/ ٣٤٦-٣٤٧) ووافقه الذهبي.

★ **فوائد الحديثين:**

قال الخطابي: «مذهب هذا الحديث التواضع والهضم من النفس.. وقوله: «**لو لبثت في السجن طول ما لبث يوسف لأجبت الداعي**»؛ يريد بذلك قوله: ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ﴾، فلم يسرع الإجابة إلى الخروج حين أذن له في ذلك؛ لئلا يكون سبيله سبيل المذنب يمن عليه بالعفو، وأراد أن يقيم الحجة عليهم في حبسهم إياه ظلمًا، فأراد رسول اللَّه ﷺ تفضيله بذلك، والثناء عليه بحسن الصبر وقوة العزم والتواضع، لا يصغر كبيرا، ولا يضع رفيعا، ولا يبطل لذي حق حقًّا، ولكنه يوجب لصاحبه فضلا، ويكسبه جلالا وقدرا»[1].

قال القاضي عياض: «الداعي ههنا رسول الملك ليأتيه به، فقال له يوسف ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ الآية، ولم يخفّ للخروج من السجن الطويل والراحة من البلية العظيمة لأول ما أمكنه حتى تثّبت وتوقّر، وراسل الملك في كشف الأمر الذي سجن بسببه، ومكاشفة النسوة الحاضرات له وتظهر براءته، ويلقى الملك غير مرتاب ولا خجل مما عساه يقع بقلبه مما رفع عنه، فنبه النبي ﷺ على فضيلة يوسف عليه السلام، وقوة نفسه وتوقره، وصدق نظره للعواقب، وجودة صبره، وأخبر عن نفسه هو بما أخبر على طريق التواضع والأنافة بمنزلة يوسف، وأنه عليه السلام كان يغلب الراحة من المحنة أولا على غير ذلك، ولا يظن أن إجابة الداعي هنا هي مراودة المرأة ودعاؤها يوسف لما دعته له»[2].

قال القرطبي: «فإن قيل: كيف مدح النبي ﷺ يوسف بالصبر والأناة وترك المبادرة إلى الخروج، ثم هو يذهب بنفسه عن حالة قد مدح بها غيره؟ فالوجه في ذلك: أن النبي ﷺ إنما أخذ لنفسه وجها آخر من الرأي له جهة أيضًا من الجودة، يقول: لو كنت أنا لبادرت بالخروج، ثم حاولت بيان عذري بعد ذلك، وذلك أن هذه القصص والنوازل هي معرّضة لأن يقتدي الناس بها إلى يوم القيامة، فأراد رسول اللَّه ﷺ حمل الناس على الأحزم من الأمور، وذلك أن ترك الحزم في مثل

---

(١) أعلام الحديث (٣/ ١٥٤٥-١٥٤٧).

(٢) الإكمال (١/ ٤٦٥-٤٦٦).

هذه النازلة -التارك فرصة الخروج من مثل ذلك السجن- ربما نتج له البقاء في سجنه، وانصرفت نفس مخرجه عنه، وإن كان يوسف عليه السلام أمن من ذلك بعلمه من اللَّه فغيره من الناس لا يأمن ذلك، فالحالة التي ذهب النبي ﷺ بنفسه إليها حالة حزم، وما فعله يوسف عليه السلام صبر عظيم وجلد»[1].

* * *

(١) الجامع لأحكام القرآن (٩/ ٢٠٧).

قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾

★ **غريب الآية:**

حصحص: أي: ظهر ووضح. وحص وحصحص نحو: كب وكبكب وكف وكفكف.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «وقوله تعالى: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦۚ﴾ إخبار عن الملك حين جمع النسوة اللاتي قطعن أيديهن عند امرأة العزيز؛ فقال مخاطبا لهن كلهن وهو يريد امرأة وزيره، وهو العزيز، قال الملك للنسوة اللاتي قطعن أيديهن: ﴿مَا خَطْبُكُنَّ﴾ أي: شأنكن وخبركن ﴿إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦۚ﴾ يعني يوم الضيافة، ﴿قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍۚ﴾ أي: قالت النسوة جوابا للملك: حاش لله أن يكون يوسف متهما، والله ما علمنا عليه من سوء، فعند ذلك: ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: تقول الآن تبين الحق وظهر وبرز، ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أي: في قوله: ﴿هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِىۚ﴾ ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾ تقول: إنما اعترفت بهذا على نفسي؛ ليعلم زوجي أني لم أخنه بالغيب في نفس الأمر، ولا وقع المحذور الأكبر، وإنما راودت هذا الشاب مراودة فامتنع، فلهذا اعترفت ليعلم أني بريئة ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓۚ﴾ تقول المرأة: ولست أبرئ نفسي، فإن النفس تتحدث وتتمنى، ولهذا راودته لأن ﴿ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓۚ﴾ أي:

إلا من عصمه اللّه تعالى، ﴿إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وهذا القول هو الأشهر والأليق والأنسب بسياق القصة ومعاني الكلام.

وقد حكاه الماوردي في تفسيره، وانتدب لنصره الإمام أبو العباس بن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ، فأفرده بتصنيف على حدة، وقد قيل: إن ذلك من كلام يوسف عليه السلام يقول: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ﴾ في زوجته ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ الآيتين؛ أي: إنما رددت الرسول ليعلم الملك براءتي، وليعلم العزيز ﴿لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾ في زوجته ﴿بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ الآية.. والقول الأول أقوى وأظهر، لأن سياق الكلام كله من كلام امرأة العزيز بحضرة الملك، ولم يكن يوسف عليه السلام عندهم، بل بعد ذلك أحضره الملك»[1].

قال الزمخشري: «ولا مزيد على شهادتهن له بالبراءة والنزاهة، واعترافهن على أنفسهن بأنه لم يتعلق بشيء مما قرفنه به لأنهن خصومه، وإذا اعترف الخصم بأن صاحبه على الحق وهو على الباطل؛ لم يبق لأحد مقال»[2].

وقال الشيخ رشيد رضا: «الخطب: الشأن العظيم الذي يقع فيه التخاطب والبحث لغرابته أو إنكاره، ومنه قول إبراهيم للملائكة: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾[3] وقول موسى في قصة العجل: ﴿فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ﴾[4] وقوله للمرأتين اللتين كانتا تذودان ماشيتهما عن مورد السقيا: ﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾[5] وهذه الجملة بيان لجواب سؤال مقدر دل عليه السياق كأمثاله، والمعنى أن الرسول بلغ الملك قول يوسف، وأنه لا يخرج من السجن استجابة لدعوته حتى يحقق مسألة النسوة، فجمعهن وسألهن: ما خطبكن الذي حملكن على مراودته عن نفسه، هل كان عن ميل منه إليكن، ومغازلة لكن قبلها؟ وهل رأيتن منه مواتاة واستجابة بعدها؟ أم ماذا كان سبب إلقائه في السجن مع المجرمين؟ ﴿قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾ أي: معاذ الله! ما علمنا عليه أدنى شيء يشينه ويسوؤه؛ لا كبير ولا صغير، ولا كثير ولا قليل، هذا ما يدل عليه نفي العلم مع تنكير سوء ودخول (من) عليها، وهو أبلغ من نفي رؤية السوء عنه ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: ظهر

---

(١) التفسير (٤/ ٣٢-٣٣).
(٢) الكشاف (٢/ ٣٢٦-٣٢٧).
(٣) الحجر: الآية (٥٧).
(٤) طه: الآية (٩٥).
(٥) القصص: الآية (٢٣).

بعد خفائه وانحسرت رغوة الباطل عن محضه، وهو تكرار من حصه إذا قطع منه حصة بعد حصة (بالكسر) وهي النصيب لكل شريك في شيء، مثل كبكب وكفكف الشيء إذا كبه وكفه مرة بعد أخرى، فهي تقول: إن الحق في هذه القضية كان في رأي الذين بلغهم موزع التبعة بيننا معشر النسوة وبين يوسف، لكل منا حصة، بقدر ما عرض فيها من شبهة، والآن قد ظهر الحق في جانب واحد لا خفاء فيه ولا شبهة عليه، فإن كان عواذلي شهدن بنفي السوء عنه وهي شهادة نفي؛ فشهادتي له على نفسي شهادة إثبات ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ وهو لم يراودني، بل استعصم وأعرض عني ﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فيما اتهمني به من قبل، وحمله أدبه الأعلى ووفاؤه الأسمى لمن أكرم مثواه وأحسن إليه؛ على السكوت عنه إلى الآن، ونحن جزيناه بالسيئة على الإحسان، وقد أقر الخصم وارتفع النزاع.

﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾ أي: ذلك الإقرار بالحق له، والشهادة بالصدق الذي علمته منه، ليعلم الآن إذ يبلغه عني أني لم أخنه بالغيب عنه منذ سجن إلى الآن بالنيل من أمانته، أو الطعن في شرفه وعفته، بل صرحت لجماعة النسوة بأنني راودته فاستعصم وهو شاهد، وها أنا ذا أقر بهذا أمام الملك وملائه وهو غائب، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ من النساء والرجال، بل تكون عاقبة كيدهن الفضيحة والنكال، ولقد كدنا له فصرف ربه عنه كيدنا، وسجناه فبرأه وفضح مكرنا، حتى شهدنا له في هذا المقام السامي على أنفسنا، وهذا تعليل آخر لإقرارها.

ثم إنها على تبرئة نفسها من خيانته بالغيب؛ اعترفت في الآية التالية بأنها لا تبرئ نفسها من الكيد له بالسجن، وأن ذلك كان من هوى النفس الأمارة بالسوء لأن المراد منه تذليله لها، وحمله على طاعتها.

وفيهما وجه آخر: وهو أنها تقول: ذلك الذي حصل أقررت به ليعلم زوجي أني لم أخنه بالفعل فيما كان من خلواتي بيوسف في غيبته عنا، وأن كل ما وقع أنني راودت هذا الشاب الفاتن الذي وضعه في بيتي، وخلى بينه وبيني، فاستعصم وامتنع، فبقي عرضه أي الزوج مصونا، وشرفه محفوظا، ولئن برأت يوسف من الإثم فما أبرئ منه نفسي، فإن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي، وسيأتي أن من رحمته تعالى ببعض الأنفس صرفها عن الأمر السوء، وهو أعلى الدرجات، ومنها: حفظه إياها من طاعة الأمر بوازع منها، وهي دون ما قبلها، ومنها: عدم تيسر عمل

السوء لها بامتناع من يتوقف عليه ذلك العمل، على حد (إن من العصمة ألا تجد).

هذا هو المتبادر من نظم الآيتين المناسب للمقام بغير تكلف، ولكن ذهب الجمهور اتباعا للروايات الخادعة، إلى أنهما حكاية عن يوسف ﷺ يقول: ذلك الذي كان مني إذ امتنعت من إجابة الملك واقترحت عليه التحقيق في قضية النسوة؛ ليعلم العزيز من التحقيق أني لم أخنه في زوجه بالغيب الخ، وأنه صرح بعد ذلك بأنه لا يبرئ نفسه من باب التواضع وهضم النفس، وهذا المعنى يتبرأ منه السياق والنظم ومرجع الضمير. ومن العجب أن ابن جرير اقتصر عليه، ولكن قال العماد ابن كثير على كثرة اعتماده عليه مرجحا للقول الأول: وهذا هو القول الأشهر والأليق والأنسب بسياق القصة ومعاني الكلام، وقد حكاه الماوردي في تفسيره وانتدب لنصره الإمام أبو العباس ابن تيمية رحمه الله، فأفرده بتصنيف على حدة اهـ. وشيخ الإسلام ابن تيمية من أعلم المحدثين بنقد الروايات، فهو ما نصر هذا القول إلا وقد فند روايات القول الآخر.

وقد علم من جملة الكلام أن يوسف ﷺ كان مثل الكمال الإنساني إلا على الاقتداء به في العفة والصيانة، لم يمسه أدنى سوء من فتنة النسوة، وأن امرأة العزيز التي اشتهرت في نساء مصر بل نساء العالم بسوء القدوة في التاريخ القديم والحديث؛ كان أكبر إثمها على زوجها، وكانت هي ذات مزايا في عشقها الذي كان اضطراريا لا علاج له إلا الحيلولة بينها وبين هذا الشاب الذي بلغ منتهى الكمال في الحسن والجمال، فمن مزاياها أنها لم تتطلع إلى غيره من الرجال؛ إجابة لداعية الجنسية للتسلي عنه بعد اليأس منه، وأنها لم تتهمه بالجنوح للفاحشة قط، وكل ما قالته لزوجها إذ فاجأهما لدى الباب ﴿مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا﴾ تعني به همه بضربها، وأنها في خاتمة الأمر أقرت بذنبها في مجلس الملك الرسمي؛ إيثارا للحق وإثباتا لبراءة المحق، فأية مزايا أظهر من هذه لمن ابتليت بمثل هذا العشق»[1].

وقال العدوي: «﴿قَالَ مَا خَطۡبُكُنَّ إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦۚ﴾ أي: فأحضر الملك النسوة ومعهن امرأة العزيز وسألهن ذلك السؤال.

وقد أضاف المراودة إلى النسوة جميعهن لأنهن راودنه لأجل امرأة العزيز،

---

(١) تفسير المنار (١٢/ ٣٢٢-٣٢٤).

لا لأنفسهن، وقلن له أطع مولاتك وسيدتك، متعاونات معها على الإثم، مشتركات في الحرمة، لذلك نسب المراودة إليهن.

أما القول بأن كل واحدة من النسوة راودت يوسف عند الوليمة التي أقامتها امرأة العزيز فهو بعيد، لأنهن في ضيافتها:

أولا: فلا يشاركنها في معشوقها، ولأنهن رأينه لأول مرة يمر عليهن.

ثانيا: ولم تجر العادة بأن امرأة تراود رجلا أو فتى لأول مقابلة، فالظاهر أن المراودة كانت منهن لأجل امرأة العزيز، أو لم يكن منهن مراودة ما، وإنما كان منهن رضا وإقرار لما فعلته امرأة العزيز في قولها: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ وقد عهد إضافة الفعل إلى الراضي به، وعقوبته عليه لجريمة الرضا.

وقد نسب اللّه تعالى إلى قوم صالح أنهم عقروا الناقة، وما عقرها إلا واحد منهم، ولكنهم لما رضوا بذلك العمل المنكر وأقروه، وكان في استطاعتهم إنكاره نسب العقر إليهم جميعًا، ليرينا أن الأمة متضامنة متكافلة في خيرها وشرها، وأن على الناس إذا رأوا منكرا أن يضربوا على يد صاحبه، وإلا عمهم اللّه بعذاب من عنده.

وأولئك النسوة لم يبلغنا اللّه تعالى عنهن الإنكار على امرأة العزيز عند ما قالت: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ بل حدثنا القرآن أنهن أخذتهن نشوة الجمال، وذهلن عن أنفسهن عند مرور يوسف عليهن، وأن امرأة العزيز استطاعت أن تعذر إلى نفسها أمامهن حيث ثملن بيوسف إلى ذلك الحد الذي أنساهن أنفسهن حتى قطعن أيديهن، واستطاعت أن تقطع ألسنتهن عن الكلام في شأنها، والتحدث في قصتها، وكأنها تقول لهن: لم تستطعن أن تتثبتن أمام جمال ذلك الفتى لأول مرة مر عليكن فيها، فلتعذرنني وقد عاشرته المدة الطويلة، وصبرت عليه ذلك الزمن، فهن راضيات عن عمل امرأة العزيز مع يوسف وتهديدها له، بل وفوق الراضيات، ولو كن في مركز امرأة العزيز لفعلن كما فعلت، وأكثر مما فعلت.

فلا عجب أن ينسب الملك المراودة إليهن جميعًا، مع أن الذي راود يوسف هو

امرأة العزيز وحدها .

﴿قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾ وحاش لله : كلمة تنزيه ، والمراد : تنزه اللَّه أن ينسب سوءا ليوسف ، كأن نسبة السوء إليه ضرب من المحال ينبغي تنزيه اللَّه منه ، والمراد منها مع التنزيه التعجب من عفته ونزاهته ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾ أي : من أي نوع من أنواع السوء كما يعطيه لفظ (من) الدال على النفي المستغرق ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ . . وكانت حصحصة الحق وظهوره بما ظهر من وقائع القصة ، وهي فرار يوسف منها (أولا) ومن إيثاره عيشة السجن البائسة في خشونتها ومهانتها على عيشة القصور العالية في نعمتها وزينتها (ثانيا) ومن شهادة النسوة اللائي تصببنه (ثالثا) . ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ مغلوبة على نفسي ، فاقدة لعقلي وشرفي وحسي ﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في قوله : ﴿هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾ .

قال المفسرون : لما راعى يوسف حرمة سيدته في قوله : ﴿مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ دون أن يقول ما بال زليخا ؛ أرادت أن تكافئه على ذلك الفعل الحسن ، فأزالت الغطاء واعترفت بأن الذنب منها .

ونظيره ما يحكى أن امرأة جاءت بزوجها إلى القاضي وادعت عليه المهر ، فأمر القاضي بأن يكشف عن وجهها حتى يتمكن الشهود من أداء الشهادة ، فقال الزوج : لا حاجة إلى ذلك فإني مقر بصدقها في دعواها ، فقالت المرأة : لما أكرمني إلى هذا الحد ؛ فاشهدوا أني أبرأت ذمته من كل حق لي عليه اهـ .

يريدون أن امرأة العزيز لما رأت أدبا جما من يوسف ؛ قابلت ذلك الأدب بتلك الشهادة ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾[1] ولم يكن ذلك أول أدب رأته من يوسف ، فإن الفتى الذي يؤدبه ربه ليصطفيه لرسالته ، ويهذبه ليختاره وسيطا بينه وبين خلقه ؛ لا ينتظر منه إلا أن يكون مؤدبا ، وهل أوقعه في هذه المحنة مع امرأة العزيز إلا أدبه مع مولاه الذي قال لامرأته ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾ ؟! .

ولو أن امرأة العزيز أرادت أن تقابل يوسف بمثل ما فعل ، وتجزيه على أدبه جزاء وفاقا ؛ ما وقفت منه هذه المواقف ، ولكن سلطان الجمال ، وضعف الخلق ، وسوء

(١) الرحمن : الآية (٦٠) .

التربية؛ هو جعلها تسقط هذه السقطة، وتكبو تلك الكبوة، وقد لا يكون في حسبانها أن تسيء إليه، ولكنها الشهوة الجاهلة، والمحبة العمياء، وغرورها بنفسها وسلطنة زوجها، أوقعتها فيما أوقعتها، ووصلت بها إلى ما وصلت، فلما عاد إليها رشدها، ويئست من الحصول على غايتها، ووصلت المسألة إلى الملك وطلب النسوة، وسألهن عما يعلمن في يوسف، وظهر للناس من أمر يوسف ما يثبت براءته؛ رأت أن تعترف بالحق، وتبرئ ساحة ذلك الفتى المتهم فقالت: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ ولم تقف في تزكيتها ليوسف عند ذلك الحد، بل جعلته في عداد الصادقين في كل ما يقول ويفعل، وهي شهادة لها قيمتها من امرأة العزيز أمام الملك، بعد شهادتها ببراءته أمام النسوة، وقولها لهن: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾ أي: امتنع بقوة وشدة، فوق براءة يوسف أمام العزيز عقب حادث المراودة، فالنسوة سمعن من امرأة العزيز براءته، وشهدن أمام الملك ببراءته، وامرأة العزيز اعترفت أمام الملك بالبراءة، والعزيز علم من تحقيق تهمة المراودة، وشهادة الشاهد أن يوسف بريء، والله شهد له بعد هذا وذاك (وطوبى لمن شهد الله له)، وأنه صرف عنه السوء والفحشاء، وأنه من عباده المخلصين، فماذا بقي بعد هذا من شبهة توجه إلى يوسف؟ أو مماحكة يتعلق بها الكاتبون والمؤلفون؟.

﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ من كلام امرأة العزيز، لأن ذلك وقع وهو في السجن ينتظر جواب الرسول، والضمير في (يعلم) ليوسف: أي أنها أقرت بنزاهته وعفته وهو في السجن؛ ليعلم أنها لم تتكلم فيه وهو غائب بباطل، حتى تكون خائنة له، لأن الله لا يهدي كيد خائن، وكأنها تلوم نفسها على تلك الخيانة التي خانتها لخادمها الأمين، وفتاها المطيع، إذ ألصقت به تهمة وهو بريء منها، كما تعنف نفسها على خيانة بعلها وزوجها العزيز؛ إذ راودت فتاها عن نفسه، وذلك خيانة له، وتغبط يوسف على أمانته وعفته في بيت سيده الذي أمرها أن تكرم مثواه، كما تغبطه على أمانته مع ربه وخالقه في قولها: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ وكأنها تقول: إن الله تعالى لم يوفقها في كيدها ليوسف، لأنه كيد أساسه الخيانة، وكيدٌ ذلك حالُه لا يهدي الله صاحبه، ولا يوفقه للنجاح، أما الكيد الذي أساسه الإصلاح، وتثبيت الفضيلة في الأرض ومحاربة الفساد؛ فإنه كيد محمود

ومكر حسن.

وجدير بذلك الكيد أن يؤيده اللَّه وينصره، كما يمكر الرجل المربي بولده ليصرفه عن الفاحشة، ويحوله إلى الطاعة، وكما يمكر اللَّه بأعداء الرسل ويدبر لهم، لينصر الحق، ويخذل الباطل ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾[(١)] لأن مكره للإصلاح، أما مكرهم فهو للإفساد ومحاربة الرسل.

ثم ترينا الآية الكريمة (وفيها الشهادة ليوسف من امرأة العزيز بالصدق والعفة) أن اللَّه تعالى وضع في نفوس الفسقة إجلال الأتقياء وإكبارهم، وإن لم يضع في قلوبهم محبتهم، فامرأة العزيز على حرمانها من طلبها، وتعفف يوسف عن تمكنها من شهوتها، وذلك من شأنه أن يوغر الصدور، ويملأها حقدا وحنقا، وهو ما دعاها إلى أن تلصق به من التهم ما هو منه بريء؛ شهدت له في النهاية بالصدق والعفة، واعترفت له بالكرامة، وهي تحله من سويداء القلب المحل الأول في الاحترام والإجلال.

وتلك آية من آيات اللَّه في الفرق بين أهل الاستقامة وأهل الفسوق والفجور، أودع اللَّه في قلوب الناس إجلال المطيعين، واحترامهم، حتى من الفسقة والفجرة.

وإنك لترى ذلك ظاهرا جليا في طبقات الفراشين والبوابين، فترى المستقيم منهم يهابه سيده، ويخشاه رب البيت، ويعمل لغضبه حسابا أي حساب، وإن كان سيده فاسقا، وترى سيده الفاسق على العكس من ذلك، تراه صغيرا في نظر بوابه، مهينا عند فراشه وسائر خدمه، حتى ولو كانوا فسقة يشتركون معه في الفسق والفجور، ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ من تتمة كلام امرأة العزيز تقول فيه: إنها لم تبرئ نفسها من الإثم، ولم تنزهها من الفاحشة، لأن النفس أمارة بالسوء، فهي لم تخرج عن أنها امرأة غير معصومة، عرضة للعصيان، فإذا نسبت إلى يوسف تهمة هو بريء منها؛ فذلك من نفسها الأمارة بالسوء ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ﴾ بالعصمة من المحرمات ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ رجوع منها إلى اللَّه تعالى في أن يغفر لها ما سلف، ويرحمها في جملة من يرحمهم»[(٢)].

---

(١) آل عمران: الآية (٥٤).

(٢) دعوة الرسل (ص: ١٢٥-١٢٨).

قال شيخ الإسلام: «قوله: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾ إذا كان معناه على ما زعموه أن يوسف أراد أن يعلم العزيز أني لم أخنه في امرأته على قول أكثرهم، أو ليعلم الملك أو ليعلم الله؛ لم يكن هنا ما يشار إليه، فإنه لم يتقدم من يوسف كلام يشير به إليه، ولا تقدم أيضًا ذكر عفافه واعتصامه؛ فإن الذي ذكره النسوة قولهن: ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾ وقول امرأة العزيز: ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ وهذا فيه بيان كذبها فيما قالته أولا، ليس فيه نفس فعله الذي فعله هو.

فقول القائل: إن قوله (ذلك) من قول يوسف، مع أنه لم يتقدم منه هنا قول ولا عمل لا يصح بحال..

إن المعنى على هذا التقدير -لو كان هنا ما يشار إليه من قول يوسف أو عمله- إن عفتي عن الفاحشة كان ليعلم العزيز أني لم أخنه، ويوسف عليه الصلاة والسلام إنما تركها خوفا من اللّه، ورجاء لثوابه؛ ولعلمه بأن اللّه يراه؛ لا لأجل مجرد علم مخلوق. قال اللّه تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ فأخبر أنه رأى برهان ربه وأنه من عباده المخلصين.

ومن ترك المحرمات ليعلم المخلوق بذلك؛ لم يكن هذا لأجل برهان من ربه، ولم يكن بذلك مخلصا، فهذا الذي أضافوه إلى يوسف إذا فعله آحاد الناس لم يكن له ثواب من الله؛ بل يكون ثوابه على من عمل لأجله.

فإن قيل: فقد قال يوسف أولا: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾.

قيل: إن كان مراده بذلك سيده: فالمعنى أنه أحسن إلي، وأكرمني، فلا يحل لي أن أخونه في أهله، فإني أكون ظالما ولا يفلح الظالم؛ فترك خيانته في أهله خوفا من اللّه لا ليعلم هو بذلك.

فإن قيل: مراده تأتي إظهار براءتي ليعلم العزيز أني لم أخنه بالغيب، فالمعلل إظهار براءته لا نفس عفافه.

قيل: لم يكن مراده بإظهار براءته مجرد علم واحد؛ بل مراده علم الملك وغيره. ولهذا قال للرسول: ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّـٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ﴾ ولو كان هذا من قول يوسف لقال: ذلك ليعلموا أني بريء وأني مظلوم.

ثم هذا لا يليق أن يذكر عن يوسف؛ لأنه قد ظهرت براءته، وحصل مطلوبه، فلا يحتاج أن يقول ذلك لتحصيل ذلك. وهم قد علموا أنه إنما تأخر لتظهر براءته، فلا يحتاج مثل هذا أن ينطق به. .

إن الخيانة ضد الأمانة، وهما من جنس الصدق والكذب. ولهذا يقال: الصادق الأمين، ويقال الكاذب الخائن. وهذا حال امرأة العزيز؛ فإنها لو كذبت على يوسف في مغيبه وقالت راودني لكانت كاذبة وخائنة، فلما اعترفت بأنها هي المراودة؛ كانت صادقة في هذا الخبر أمينة فيه؛ ولهذا قالت: ﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فأخبرت بأنه صادق في تبرئته نفسه دونها.

فأما فعل الفاحشة فليس من باب الخيانة والأمانة؛ ولكن هو باب الظلم والسوء والفحشاء، كما وصفها اللّٰه بذلك في قوله تعالى عن يوسف: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ ولم يقل هنا الخائنين. ثم قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ ولم يقل لنصرف عنه الخيانة، فليتدبر اللبيب هذه الدقائق في كتاب اللّٰه تعالى. .

إن في الكلام المحكى الذي أقره اللّٰه تعالى: ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ وهذا يدل على أنه ليس كل نفس أمارة بالسوء؛ بل ما رحم ربي ليس فيه النفس الأمارة بالسوء.

وقد ذكر طائفة من الناس أن النفس لها ثلاثة أحوال: تكون أمارة بالسوء، ثم تكون لوامة؛ أي: تفعل الذنب ثم تلوم عليه، أو تتلوم فتتردد بين الذنب والتوبة. ثم تصير مطمئنة.

والمقصود هنا أن ما رحم ربي من النفوس ليست بأمارة، وإذا كانت النفوس منقسمة إلى مرحومة وأمارة؛ فقد علمنا قطعا أن نفس امرأة العزيز من النفوس الأمارة بالسوء؛ لأنها أمرت بذلك مرة بعد مرة، وراودت وافترت، واستعانت بالنسوة وسجنت، وهذا من أعظم ما يكون من الأمر بالسوء.

وأما يوسف عليه الصلاة والسلام؛ فإن لم تكن نفسه من النفوس المرحومة عن أن تكون أمارة؛ فما في الأنفس مرحوم؛ فإن من تدبر قصة يوسف علم أن الذي رحم به وصرف عنه من السوء والفحشاء من أعظم ما يكون؛ ولولا ذلك لما ذكره

اللَّه في القرآن وجعله عبرة، وما من أحد من الصالحين الكبار والصغار إلا ونفسه إذا ابتليت بمثل هذه الدواعي؛ أبعد أن تكون مرحومة من نفس يوسف. وعلى هذا التقدير: فإن لم تكن نفس يوسف مرحومة: فما في النفوس مرحومة، فإذا كل النفوس أمارة بالسوء، وهو خلاف ما في القرآن..

إن هذا الكلام فيه -مع الاعتراف بالذنب- الاعتذار بذكر سببه، فإن قولها: ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فيه اعتراف بالذنب، وقولها: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ إشارة تطابق لقولها: ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ﴾ أي: أنا مقرة بالذنب ما أنا مبرئة لنفسي. ثم بينت السبب فقالت: ﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾. فنفسي من هذا الباب، فلا ينكر صدور هذا مني، ثم ذكرت ما يقتضي طلب المغفرة والرحمة، فقالت: ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

فإن قيل: فهذا كلام من يقر بأن الزنا ذنب، وأن اللَّه قد يغفر لصاحبه.

قلت: نعم، والقرآن قد دل على ذلك، حيث قال زوجها: ﴿يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ﴾ فأمره لها بالاستغفار لذنبها دليل أنهم كانوا يرون ذلك ذنبا ويستغفرون منه، وإن كانوا مع ذلك مشركين، فقد كانت العرب مشركين وهم يحرمون الفواحش، ويستغفرون اللَّه منها، حتى إن النبي ﷺ لما بايع هند بنت عتبة ابن ربيعة بيعة النساء على: أن لا تشرك باللَّه شيئًا، ولا تسرق ولا تزني، قالت: أو تزني الحرة؟[1] وكان الزنا معروفا عندهم في الإماء..

ويوسف عليه الصلاة والسلام لم يذكر اللَّه تعالى عنه في القرآن أنه فعل مع المرأة ما يتوب منه، أو يستغفر منه أصلا. وقد اتفق الناس على أنه لم تقع منه الفاحشة، ولكن بعض الناس يذكر أنه وقع منه بعض مقدماتها، مثل ما يذكرون أنه حل السراويل، وقعد منها مقعد الخاتن ونحو هذا، وما ينقلونه في ذلك ليس هو عن

---

(١) أخرجه: أبو يعلى (٨/ ١٩٤-١٩٥/ ٤٧٥٤) وذكره الهيثمي في المجمع (٦/ ٣٧) وقال: «وفيه من لم أعرفهن». وقال الحافظ في التلخيص (٤/ ٥٢): «وفي إسناده مجهولات».

ويغني عنه حديث عائشة ﵂ قالت: (جاءت فاطمة بنت عتبة بن ربيعة تبايع رسول اللَّه ﷺ، فأخذ عليها (ألا تزني). فوضعت يدها على رأسها حياءا حتى قالت لها عائشة: أقري أيتها المرأة، فواللَّه ما بايعنا إلا على هذا. قالت: نعم إذن).

أخرجه: أحمد (٦/ ١٥١) والبزار (١/ ٥٣-٥٤/ ٧٠) واللفظ له، وقال الهيثمي (٦/ ٣٧): «ورجاله رجال الصحيح». وصححه ابن حبان (١٠/ ٤١٨/ ٤٥٥٤).

النبي ﷺ، ولا مستند لهم فيه إلا النقل عن بعض أهل الكتاب، وقد عرف كلام اليهود في الأنبياء وغضهم منهم، كما قالوا في سليمان ما قالوا، وفي داود ما قالوا، فلو لم يكن معنا ما يرد نقلهم لم نصدقهم فيما لم نعلم صدقهم فيه، فكيف نصدقهم فيما قد دل القرآن على خلافه.

والقرآن قد أخبر عن يوسف من الاستعصام والتقوى والصبر في هذه القضية؛ ما لم يذكر عن أحد نظيره، فلو كان يوسف قد أذنب لكان إما مصرا وإما تائبا، والإصرار ممتنع، فتعين أن يكون تائبا. واللَّه لم يذكر عنه توبة في هذا ولا استغفارا كما ذكر عن غيره من الأنبياء؛ فدل ذلك على أن ما فعله يوسف كان من الحسنات المبرورة، والمساعي المشكورة، كما أخبر اللَّه عنه بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

وإذا كان الأمر في يوسف كذلك؛ كان ما ذكر من قوله: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ﴾ إنما يناسب حال امرأة العزيز، لا يناسب حال يوسف، فإضافة الذنوب إلى يوسف في هذه القضية فرية على الكتاب والرسول، وفيه تحريف للكلم عن مواضعه، وفيه الاغتياب لنبي كريم، وقول الباطل فيه بلا دليل، ونسبته إلى ما نزهه اللَّه منه، وغير مستبعد أن يكون أصل هذا من اليهود أهل البهت، الذين كانوا يرمون موسى بما برأه اللَّه منه، فكيف بغيره من الأنبياء؟ وقد تلقى نقلهم من أحسن به الظن، وجعل تفسير القرآن تابعا لهذا الاعتقاد»[1].

* * *

---

(١) مجموع الفتاوى (١٥/ ١٣٩-١٥٠).

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال أبو حيان: «فسمع الملك كلام النسوة، وبراءة يوسف مما رمي به، فأراد رؤيته، وقال: ﴿ٱئْتُونِي بِهِۦٓ﴾ فأتاه فلما كلمه، والظاهر أن الفاعل بكلمه هو ضمير الملك؛ أي: فلما كلمه الملك ورأى حسن جوابه ومحاورته، ويحتمل أن يكون الفاعل ضمير يوسف؛ أي: فلما كلم يوسف الملك، ورأى الملك حسن منطقه بما صدق به الخبر الخبر، والمرء مخبوء تحت لسانه، قال: ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ﴾ أي: ذو مكانة ومنزلة ﴿أَمِينٌ﴾ مؤتمن على كل شيء، وقيل: (أمين) آمين، والوصف بالأمانة هو الأبلغ في الإكرام، وبالأمن يحط من إكرام يوسف، ولما وصفه الملك بالتمكن عنده والأمانة؛ طلب من الأعمال ما يناسب هذين الوصفين، فقال: ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: ولني خزائن أرضك ﴿إِنِّى حَفِيظٌ﴾ أحفظ ما تستحفظه ﴿عَلِيمٌ﴾ بوجوه التصرف، وصف نفسه بالأمانة والكفاءة، وهما مقصود الملوك ممن يولونه، إذ هما يعمان وجوه التثقيف والحياطة، ولا خلل معهما لقائل. وقيل: ﴿حَفِيظٌ﴾ للحساب ﴿عَلِيمٌ﴾ بالألسن. وقيل: ﴿حَفِيظٌ﴾ لما استودعتني ﴿عَلِيمٌ﴾ بسني الجوع، وهذا التخصيص لا وجه له، ودل إثناء يوسف على نفسه؛ أنه يجوز للإنسان أن يثني على نفسه بالحق إذا جهل أمره، ولا يكون ذلك التزكية المنهي عنها، وعلى جواز عمل الرجل الصالح للرجل التاجر بما يقتضيه الشرع والعدل، لا بما يختاره ويشتهيه مما لا يسيغه الشرع، وإنما طلب يوسف هذه الولاية ليتوصل إلى إمضاء حكم الله، وإقامة الحق، وبسط العدل، والتمكن مما لأجله تبعث الأنبياء إلى العباد، ولعلمه أن غيره لا يقوم مقامه في ذلك، فإن كان الملك قد أسلم كما روى مجاهد؛ فلا كلام، وإن كان كافرا ولا سبيل إلى الحكم بأمر الله ودفع الظلم إلا بتمكينه؛ فللمتولي أن يستظهر به.

وقيل: كان الملك يصدر عن رأي يوسف، ولا يعترض عليه في كل ما رأى، فكان في حكم التابع، وما زال قضاة الإسلام يتولون القضاء من جهة من ليس بصالح، ولولا ذلك لبطلت أحكام الشرع، فهم مثابون على ذلك إذا عدلوا»[١].

وقال العدوي: «بعد أن ظهرت براءة يوسف مما نسب إليه، وخرج من الفتنة مرفوع الرأس وضاء الجبين، وبعد أن طلبه الملك ليخرج من السجن فأبى إلا تظهر براءته مما نسب إليه، بعد ذلك كله طلبه الملك ليستخلصه لنفسه: أي يجعله خالصا له من شائبة الاشتراك، وقد كان يوسف قبل ذلك خالصا للعزيز ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ أي: فلما حضر يوسف من السجن وكلمه الملك، وعرف مواهبه وكفايته، قال إنك اليوم عندنا ﴿مَكِينٌ﴾ صاحب مكانة ومنزلة ﴿أَمِينٌ﴾ على كل شيء يسند إليك، لأن الذي ائتمن على امرأة سيده عند طلبها الفاحشة، وبعد أن غلقت الأبواب وقالت له ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ ولم يكن له فيه مانع من الفاحشة سوى نفسه التي بين جنبيه، وضميره الذي يتوعده بالتأنيب والتوبيخ؛ إن الذي يؤتمن في مثل ذلك الوقت الذي مهدت له فيه وسائل المعصية، وأزيل من طريقها كل عقبة، وقد طلبته إليها سيدته ومولاته فيقابلها بالنفور والاشمئزاز، ويستعصم من المعصية في قوة وشدة؛ الذي يصنع ذلك كله، ويؤثر حياة السجن على المعصية، وشظف العيش في سبيل مرضاة اللّٰه على نعيمه في سبيل مرضاة الشيطان: جدير بالملك أن يطلب أن يكون بطانة له خالصة من دون الناس، يأتمنه على أسراره، ويأتمنه على شئون دولته، ويأتمنه على خاصته وآل بيته، ولذلك أطلق في قوله: ﴿أَمِينٌ﴾ ومعناه أمين على كل شيء يؤتمن عليه، فإنه لا شيء أصدق من التجربة، ولا أدل من الفتنة، والأعاصير تمر بالإنسان، فيخرج منها إما مزعزع العقيدة ضعيف الإرادة، وإما ثابت القلب رابط الجأش، قد صهرته الشدة، وصقلته الحوادث، ومحصت نفسه الشدائد، وأصبح رجلا عظيما مستعدا للطوارئ، مهيئا للأحداث.

وقوله: ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ﴾ يشير إلى أن الملوك من شأنها إذا سمعت برجل نابه وشاب مثقف، خبير بالشئون العامة، يستطيع أن يستفيد منه الملك في مهام دولته، وأن يستعين به على المشاكل التي تعرض له؛ من شأن الملوك الذين يحرصون على

---

(١) البحر المحيط (٥/ ٣١٨).

مستقبل دولتهم، ويعملون على أن يبقى الملك فيهم؛ أن يتخيروا لمملكتهم أصلح الناس، وأعلمهم بشؤون الحياة، وأدراهم بتسيير الأمور.

ومن الملوك من يحقد على الرجل النابه، ويتألم من ذائع الصيت، ويتأفف من حسن المسلك، وكأن الرجل الكفء في أمته عدو من ألد أعدائه، وخصم من خصومه، وما درى أنه قوة من قواه وعدة ينفعه وقتا ما، وأن العلم في كل زمان لا غنى للناس عنه، والكفاءة في الرجال ممن تنتفع بها الدولة، وتسود بها البلاد، وأن الفقر المدقع، والشقاء الذي لا يدانيه شقاء، في خلو الدولة من رجال ذوي كفاءة ومقدرة في شتى الشئون، ومختلف العلوم، وأنه لا تستوي أمة غنية برجالها وعلمها، وأمة فقيرة في العلم والرجال، وما سبقنا الغربيون إلا بغناهم برجالاتهم، وعلومهم النافعة المفيدة، وما تأخر المسلمون إلا بفقرهم من هذه النواحي.

ولو أن ملوك المسلمين تأسوا بذلك الملك الذي طلب يوسف ليستخلصه لنفسه، ويدخره للملمات، لو أنهم تأسوا بذلك الملك، فاحتضنوا النابه من أممهم، والكفء من رجالاتهم؛ لسعدوا وأسعدوا شعوبهم بذلك العمل، ولكنهم مع الأسف الشديد يستخلصون من يوافقونهم على شهواتهم، ويطاوعونهم على أهوائهم، ويسارعون إلى إشباع نهمهم، وسد مطامعهم، يستخلصون من القوم أدناهم نفسا، وألأمهم طبعا وأكثرهم نفاقا، وأبعدهم عن الأمانة وعزة النفس، وهم الذين إذا استشارهم الملوك ضللوهم، وإذا استنصحوهم خانوهم، ويصورون لهم النابه من الأمة بصورة بشعة، ويعملون على أن يجعلوا بينه وبين الملك سدا، كما يصورون نهضة الأمة التي فيها حياتها وحياة ملكها بصورة تتقزز منها النفوس، وتأنف لها الطباع، ويجتهدون في أن يضعوا الأشواك والعقبات في سبيل هذه النهضة لدى الملك، ويفهمونه أنها حركة يراد بها الشر، ولا يراد بها الخير فيحولون وجهه عنها، ويصرفونه عن العناية بها.

وكأن هذه البطانة فهمت أن النصح لا يستسيغه الملك ولا يتقبله، فآثروا عليه الغش، وعلمت أنها إن أظهرته على أمور الدولة على حقيقتها؛ سوف يضلله شخص آخر، فيعود على البطانة باللائمة، ويعتقد فيها الغش والتدليس.

لذلك رأت أن تؤثر عليه من الناحية التي يميل إليها، وتصل إلى محبته لها من الطريق التي ترى أنه أدنى لوصولها، ولو أن تلك البطانة انتقلت إلى ملك مصلح؛

لسارعت إلى الإصلاح والدعوة إليه، وحببته في ذلك العمل. لأنها تعرف من نفسه ميلا إلى الإصلاح.

وجملة القول: أن بطانة الملوك اليوم إلا القليل منها تأخذ من نفسية الملك وتشير عليه، ومن ميوله فتنصح له، فما تأمر به البطانة هو ما يهواه الملك ويحبه، وما تنهى عنه البطانة هو ما يبغضه الملك ويكرهه، فهي تردد صداه في أمرها ونهيها، وتنطق باسمه في ترغيبها وترهيبها، فليس لها كلمة مع الملك، ولا تستطيع أن تقول له: إن ما تشير به قد خفي عليك وجه المصلحة فيه، وإن الخير في تركه، وما تنهى عنه الخير للناس في العمل به؛ لأنها قبلت ذلك العمل على هذا الأساس، وهي أنها لا رأي لها مستقلا، ولا كلمة لها إذا كانت تغضب صاحب الأمر والنهي، ومن دخل عملا على أساس أنه لا رأي له فيه ولا إرادة، بل إرادته تبع لإرادة الغير، وتفكيره كذلك، لا غنى له عن التزام ما دخل على أساسه.

وما الذي ينتظر من رجل يريد أن يعيش من ذلك الطريق، وأن يثرى على أساس مثل هذه الوظائف، لا ينتظر من ذلك الصنف إلا أنه ينسى نفسه واستقلاله في سبيل حصوله على الحطام، وأنه يرى الحق مهيض الجناح ضعيف الجانب، فلا يستطيع أن ينصره بكلمة، وأنه يرى الباطل قد طغى على الحق، فلا يجد من نفسه شجاعة على كلمة حق، لأنه يتوهم أن في كلمته إغضابا للملك، وهو حريص على رضاه.

أما البطانة التي تتصل بالملوك من غير طريق الوظائف فقد يرجى فيها ما لا يرجى من بطانة الموظفين، فإنهم إذا نصحوا لا يخشون ضياع رزق أو فوات مال، وإذا غضب الملك لنصيحتهم اليوم؛ فسيرضى عنها وقتا ما، وكذلك البطانة التي يختارها الملك بعد الاختبار، ويصطفيها لنفسه بعد التجربة الصحيحة كيوسف، فإنها تستطيع أن تصل إلى ما لا تستطيعه البطانة الأولى، وأن الملك الذي يوفق إلى بطانة من ذلك الصنف؛ لهو الملك الذي أراد الله بملكه خيرا.

يحدثنا أبو داود عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: **«إذا أراد الله بالأمير خيرا جعل له وزير صدق: إن نسي ذكره، وإن ذكر أعانه، وإن أراد به غير ذلك جعل له وزير سوء: إن نسي لم يذكره وإن ذكر لم يعنه»**[1].

---

(١) أخرجه: أحمد (٦/ ٧٠)، وأبو داود (٣/ ٣٤٥/ ٢٩٣٢)، والنسائي (٧/ ١٧٩/ ٤٢١٥)، وفي الكبرى (٥/ ٢٢٩/ ٨٧٥٢)، وصححه ابن حبان (١٠/ ٣٤٥-٣٤٦/ ٤٤٩٤) من طرق عن عائشة رضي الله عنها.

وروى البخاري عن أبي سعيد أن رسول اللَّه ﷺ قال: «ما بعث اللَّه من نبي ولا استخلف من خليفة؛ إلا كانت له بطانتان: بطانة تأمره بالمعروف وتحضه عليه، وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه، والمعصوم من عصمه الله».

﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ من حق يوسف بعد ذلك البلاء الطويل، وبعد مرور فتن كقطع الليل المظلم، وبعد هذه التجارب التي عرفته كيف يكيد الإخوة لأخيهم، وكيف يفعل الحسد بالنفوس، وكيف يفعل مكر النساء بالرجال الأبرياء والنفوس الطاهرة؛ من حق يوسف بعد ذلك كله، وبعد أن قال له الملك: ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾؛ أن يطلب منه ذلك الطلب، وهو أن يجعله وزيرا على خزائن أرض مصر، يتولى تدبير شئونها، ويحفظ خيراتها، ويستعد للخطر الداهم الذي سيهاجم المصريين في سنيهم المقبلة، وأخبر به الملك في تأويل رؤياه.

﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ تعليل لجعله على خزائن الأرض بأنه يحفظ ما استحفظه عليه من شئون الدولة، عليم بتصريف الأمور وإدارتها على وجه مرضي، لا اتكال فيه ولا تعقيد، ومنهم من يفهم من قوله: ﴿عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِۖ﴾ اجعلني وزيرا لمالية مصر، لأن الخزائن جمع خزانة، والشأن في الخزائن أن يودع فيها المال، وقوله حفيظ: أي أمين على المال، لا أبعثره في الشهوات و﴿عَلِيمٌ﴾ عندي علم بجمع المال وتصريفه، ولا شيء يحتاجه الوزير أهم من أمانته وعلمه، ولا غنى لأحدهما عن الآخر، فقد يكون أمينا ولكنه جاهل، فيضيع مال الدولة بجهله، وقد يكون عالما ولكنه خبيث النفس خائن، فيبعثر المال في شهوته ومصالحه، وقدم الصفة الأولى وهي قوله: ﴿حَفِيظٌ﴾ ليرينا أنها أهم شيء في الوالي أو الوزير، وأن الفاقد للأمانة خطر داهم على الدولة ومرافق البلاد، وإذا كان عالما مع فقده لذلك الوصف كان خطره أشد، فيستطيع أن يلعب بمال الدولة، ويستخدم علمه ومواهبه في تضليل الناس وتلبيس الأمور عليهم، أما الأمين إذا كان جاهلا وغلط كان غلطه عن حسن نية وقصد حسن، وقد يتنبه إلى غلطه فلا يعود إليه بعد، وكم جربت الأمم على الوالي أو وزير المالية الخائن من خيانات، ووقفت له على فضائح ومخازي، كل ذلك لأن أمر الدولة لم يسند إلى وزير صالح في خلقه وأمانته، بل أسند إلى لص من اللصوص غير أنه لص لم يتعود أن يدخل السجون، لأن عنده من الحصانات

والوظائف ما يفرق بينه وبين لصوص السجون ومجرميها .

وكان من حق الناس أن تعتبر بقول يوسف للملك : ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ ليريه أن من فيه ذلك الخلق، وذلك العلم، فهو أولى بأن يلي أمور الناس، ولا سيما ما يتعلق بحياتهم ومعايشهم : وهو المال، وأن من فقد ذلك الخلق لا يليق لذلك المنصب ولا ينبغي له، بل يجب أن يطرد عن تلك الساحة طردا، وأن يحال بينه وبينها بشتى الوسائل، ومختلف الطرق، فيوسف الصديق بين للملك كيف يختار الوزراء، ويعلمه كيف يرشح لهذه الوظيفة، ويريه أن الأساس الأول لذلك هو الحفظ والأمانة، والأساس الثاني هو العلم والدراية، ولا غضاضة على الملك في أن يسمع من يوسف، وينتفع بنصح يوسف، ويأخذ بمشورة يوسف، فإنه ملهم من اللَّه، ومؤيد منه، ومن كان كذلك أخذت عنه الحكمة والعلم النافع المفيد .

وفي مطالبة يوسف للملك أن يجعله على خزائن الأرض لأنه حفيظ عليم ؛ دليل على أن المستعد لعمل ما له أن يعرض نفسه على صاحب الشأن فيه لاختياره، وليس في ذلك غضاضة عليه، فالذي يحسن علما من العلوم، أو صنعة من الصنائع ؛ له أن يعرض نفسه ليفيد ويثمر فيما علم وأتقن، والذي يجد من نفسه استعدادا للنيابة عن الأمة ؛ يعرض نفسه عليها ويبين لها ما يمتاز به على غيره من علم أو صناعة أو فن من الفنون التي تحتاجها الأمة، وتحتاج من يحذقها ويتقنها، والذي يجد من نفسه استعدادا لأن يقضي بين الناس ويحكم بينهم ؛ له أن يطلب القضاء، ويبين مواهبه، وما حصل عليه من شهادات .

وما ورد من النهي عن طلب الإمارة والحرص عليه وكذلك القضاء ؛ فمحمول على الرجل الذي ليس مستعدا ولا يستطيع أن يقوم بأعبائها، ويدل لذلك أن أبا ذر الغفاري طلب من رسول اللَّه ﷺ أن يجعله عاملا وأميرا، فضرب رسول اللَّه ﷺ على منكبه، وقال : «**يا أبا ذر إنك ضعيف، وإنها إمارة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة، إلا من أخذها بحقها، وأدى الذي عليه فيها**»[1] رواه مسلم .

فما دام الإنسان يأنس من نفسه الضعف، ويعلم أنه لا يستطيع الاضطلاع بالعمل الذي يطلب، فمن الإنصاف أن لا يطلبه ؛ لأنه إن أجيب إليه والحالة هذه

---

(١) أخرجه : أحمد (٥/ ١٧٣) ومسلم (٣/ ١٤٥٧/ ١٨٢٥) من حديث أبي ذر ﷺ .

كان وجوده في ذلك العمل الذي طلب ضارا بمرافق البلاد ومصالحها، وفوق ذلك كان قبوله لذلك العمل تعطيلا لمواهب الرجل الكفء، وحرمانا للبلاد منه، ولو أن الناس فطنوا لذلك وتوجه كل واحد لما يحسن من الأعمال، وما يتقن من الفنون؛ لاستراحوا وأراحوا.

فيوسف ﷺ يضرب لنا هذا المثل، ويطلب من الملك في شجاعة وجرأة أن يجعله على خزائن الأرض، ويعلل طلبه بأنه حفيظ عليم، لنتأسى به في ذلك، ونطلب من ولاة الأمور أن يضعوا كل واحد فيما يحسن.

أما أن يطلب الرجل العمل ليعيش منه وإن كان يجهله -وهناك من يعلمه من القوم-؛ فذلك ما لا ينبغي ولا يليق. وكما لا يليق بالرجل أن يطلب ما لا حق له فيه؛ كذلك لا ينبغي أن يجاب إلى ذلك الطلب، ولكن الناس غفلوا عن كل هذا، فأخذ كل واحد يطلب ما يحسن وما لا يحسن، وقد يجد ذلك المسيء من ولاة الأمور من يشجعهم على عبثهم، ويجيبهم إلى طلبهم. . والقرآن الكريم يلفتنا دائما إلى الرجوع إلى الرجال المختصين في العلوم والفنون، وأن نسأل أهل الذكر، وأن نأتي البيوت من أبوابها، وينهانا أن نأتيها من ظهورها، ومتى يمتن اللّه على الأمة بالوقوف عند تعاليم القرآن، والانتفاع بحكمه وأحكامه؟»[1].

وقال القرطبي: «ودلت الآية أيضًا على جواز أن يخطب الإنسان عملا يكون له أهلا؛ فإن قيل: فقد روى مسلم عن عبدالرحمن بن سمرة قال: قال لي رسول اللّه ﷺ: «**يا عبدالرحمن! لا تسأل الإمارة، فإنك إن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها، وإن أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها**». وعن أبي بردة قال: قال أبو موسى، أقبلت إلى النبي ﷺ ومعي رجلان من الأشعريين، أحدهما عن يميني والآخر عن يساري، فكلاهما سأل العمل، والنبي ﷺ يستاك، فقال: «**ما تقول يا أبا موسى - أو: يا عبداللّه بن قيس-** قال: قلت: والذي بعثك بالحق ما أطلعاني على ما في أنفسهما، وما شعرت أنهما يطلبان العمل، قال: وكأني أنظر إلى سواكه تحت شفته وقد قلصت، فقال: **لن -أو- لا نستعمل على عملنا من أراده**»[2] وذكر الحديث؛

(١) دعوة الرسل (ص: ١٢٨-١٣٢).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ٤٠٩)، والبخاري (١٢/ ٣٣١-٣٣٢/ ٦٩٢٣)، ومسلم (٣/ ١٤٥٦-١٤٥٧/ ١٧٣٣)، وأبو داود (٣/ ٥٢٣-٥٢٥/ ٤٣٥٤)، والنسائي (١/ ١٦-١٧/ ٤) من حديث أبي موسى ﷺ.

خرجه مسلم أيضًا وغيره؛ فالجواب: أولا أن يوسف عليه السلام إنما طلب الولاية لأنه علم أنه لا أحد يقوم مقامه في العدل والإصلاح وتوصيل الفقراء إلى حقوقهم، فرأى أن ذلك فرض متعين عليه فإنه لم يكن هناك غيره، وهكذا الحكم اليوم، لو علم إنسان من نفسه أنه يقوم بالحق في القضاء أو الحسبة، ولم يكن هناك من يصلح ولا يقوم مقامه؛ لتعين ذلك عليه، ووجب أن يتولاها ويسأل ذلك، ويخبر بصفاته التي يستحقها به من العلم والكفاية وغير ذلك، كما قال يوسف عليه السلام، فأما لو كان هناك من يقوم بها، ويصلح لها وعلم بذلك؛ فالأولى ألا يطلب؛ لقوله عليه السلام لعبدالرحمن: «لا تسأل الإمارة» وأيضًا فإن في سؤالها والحرص عليها، مع العلم بكثرة آفاتها وصعوبة التخلص منها؛ دليلا على أنه يطلبها لنفسه ولأغراضه، ومن كان هكذا يوشك أن تغلب عليه نفسه فيهلك؛ وهذا معنى قوله عليه السلام: «وكل إليها» ومن أباها لعلمه بآفاتها، ولخوفه من التقصير في حقوقها فر منها، ثم إن ابتلي بها فيرجى له التخلص منها، وهو معنى قوله: «أعين عليها».

الثاني: أنه لم يقل: إني حسيب كريم، وإن كان كما قال النبي ﷺ: «**الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم؛ يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم**»[١] ولا قال: إني جميل مليح، إنما قال: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ فسألها بالحفظ والعلم، لا بالنسب والجمال.

الثالث: إنما قال ذلك عند من لا يعرفه فأراد تعريف نفسه، وصار ذلك مستثنى من قوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾[٢].

الرابع: أنه رأى ذلك فرضا متعينا عليه؛ لأنه لم يكن هنالك غيره، وهو الأظهر، والله أعلم.

ودلت الآية أيضًا على أنه يجوز للإنسان أن يصف نفسه بما فيه من علم وفضل؛ قال الماوردي: وليس هذا على الإطلاق في عموم الصفات، ولكنه مخصوص فيما اقترن بوصله، أو تعلق بظاهر من مكسب، وممنوع منه فيما سواه، لما فيه من تزكية ومراءاة، ولو ميزه الفاضل عنه لكان أليق بفضله؛ فإن يوسف دعته الضرورة إليه لما

---

(١) تقدم تخريجه عند: الآيات (٣٦-٣٨).

(٢) النجم: الآية (٣٢).

سبق من حاله، ولما يرجو من الظفر بأهله»[١].

قال الحافظ: «ومعنى الحديث -أي حديث ابن سمرة المذكور في هذا النقل-: أن من طلب الإمارة فأعطيها تركت إعانته عليها من أجل حرصه. ويستفاد منه: أن طلب ما يتعلق بالحكم مكروه، فيدخل في الإمارة القضاء والحسبة ونحو ذلك، وإن حرص على ذلك لا يعان، ويعارضه في الظاهر ما أخرجه أبو داود عن أبي هريرة رفعه: «من طلب قضاء المسلمين حتى يناله، ثم غلب عدله جوره فله الجنة، ومن غلب جوره عدله فله النار»[٢] والجمع بينهما: أنه لا يلزم من كونه لا يعان بسبب طلبه؛ أن لا يحصل منه العدل إذا ولي، أو يحمل الطلب هنا على القصد وهناك على التولية، وقد تقدم من حديث أبي موسى «إنا لا نولي من حرص»[٣] ولذلك عبر في مقابله بالإعانة، فإن من لم يكن له من اللّٰه عون على عمله؛ لا يكون فيه كفاية لذلك العمل، فلا ينبغي أن يجاب سؤاله، ومن المعلوم أن كل ولاية لا تخلو من المشقة، فمن لم يكن له من اللّٰه إعانة؛ تورط فيما دخل فيه، وخسر دنياه وعقباه، فمن كان ذا عقل لم يتعرض للطلب أصلا، بل إذا كان كافيا وأعطيها من غير مسألة؛ فقد وعده الصادق بالإعانة، ولا يخفى ما في ذلك من الفضل..

قال المهلب: وفي معنى الإكراه عليه أن يدعى إليه فلا يرى نفسه أهلا لذلك؛ هيبة له وخوفا من الوقوع في المحذور؛ فإنه يعان عليه إذا دخل فيه ويسدد، والأصل فيه أن من تواضع لله رفعه اللّٰه. وقال ابن التين: هو محمول على الغالب، وإلا فقد قال يوسف: ﴿ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ﴾ وقال سليمان: ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا﴾[٤]، قال: ويحتمل أن يكون في غير الأنبياء»[٥].

قوله: ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾:

قال المراغي: «أي: فأتوه به فلما كلمه وسمع ما أجاب به، قال له إنك لدينا ذو

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٩/ ٢١٥-٢١٧).

(٢) أخرجه: أبو داود (٤/ ٧/ ٣٥٧٥) وضعفه الشيخ الألباني في الضعيفة (١١٨٦) وغيرها.

(٣) أخرجه: أحمد (٤/ ٤٠٩) والبخاري (١٢/ ٣٣١-٣٣٢/ ٦٩٢٣) ومسلم (٣/ ١٤٥٦-١٤٥٧/ ١٧٣٣) وأبو داود (٣/ ٥٢٣-٥٢٥/ ٤٣٥٤) والنسائي (١/ ١٦-١٧/ ٤) من حديث أبي موسى ﷺ.

(٤) ص: الآية (٣٥).

(٥) الفتح (١٣/ ١٥٥-١٥٦).

مكانة سامية، ومنزلة عالية، وأمانة تامة، فأنت غير منازع في تصرفك، ولا متهم في أمانتك.

وفي هذا إيماء إلى أن الحوار بين المتخاطبين يظهر معارف الإنسان وأخلاقه، وآدابه وجميع شمائله، فيقدره من يعرف أقدار الرجال ويزنهم بفضائلهم ومزاياهم.

والظاهر أن الملك كلمه مشافهة بدون ترجمان؛ لأن يوسف كان قد عرف اللغة المصرية من العزيز وامرأته بمحادثته إياهما، ومع حاشية الوزير من حين قدم مصر، ومن محادثته صاحبيه في السجن.

وقد تكون اللغة التي كان يتكلم بها يوسف لغة جده إبراهيم وأولاده وحفدته، وكانوا من العرب القحطانيين، ثم تفرعت من هذه العربية الإسماعيلية فالمصرية والعبرانية والسريانية، وكان ملوك مصر وكبراء حكامها في ذلك العهد من أولئك العرب، وهم الذين يسمون بالرعاة (الهكسوس).

ويقول المؤرخون: إن ملك مصر في ذلك العهد كان يسمى الوليد بن الريان..

وقد طلب -أي: يوسف- إدارة الأمور المالية؛ لأن سياسة الملك وتنمية العمران وإقامة العدل فيه تتوقف عليها، وقد كان مضطرا إلى تزكية نفسه في ذلك حتى يثق به الملك، ويركن إليه في تولية هذه المهام.

وما أضاع كثيرًا من الممالك الشرقية في القرون الأخيرة؛ إلا الجهل والتقصير في النظام المالي، وتدبير الثروة وحفظها في الدولة والأمة»[1].

وقال القرطبي: «قال بعض أهل العلم: في هذه الآية ما يبيح للرجل الفاضل أن يعمل للرجل الفاجر، والسلطان الكافر، بشرط أن يعلم أنه يفوض إليه في فعل لا يعارضه فيه، فيصلح منه ما شاء؛ وأما إذا كان عمله بحسب اختيار الفاجر وشهواته وفجوره؛ فلا يجوز ذلك. وقال قوم: إن هذا كان ليوسف خاصة، وهذا اليوم غير جائز؛ والأول أولى إذا كان على الشرط الذي ذكرناه، والله أعلم.

قال الماوردي: فإن كان المولي ظالما فقد اختلف الناس في جواز الولاية من قبله على قولين:

(١) تفسير المراغي (١٣/ ٥-٦).

أحدهما: جوازها إذا عمل بالحق فيما تقلده؛ لأن يوسف ولي من قبل فرعون، ولأن الاعتبار في حقه بفعله لا بفعل غيره.

الثاني: أنه لا يجوز ذلك؛ لما فيه من تولي الظالمين بالمعونة لهم، وتزكيتهم بتقلد أعمالهم؛ فأجاب من ذهب إلى هذا المذهب عن ولاية يوسف من قبل فرعون بجوابين:

أحدهما: أن فرعون يوسف كان صالحا، وإنما الطاغي فرعون موسى.

الثاني: أنه نظر في أملاكه دون أعماله، فزالت عنه التبعة فيه.

قال الماوردي: والأصح من إطلاق هذين القولين أن يفصل ما يتولاه من جهة الظالم على ثلاثة أقسام:

أحدها: ما يجوز لأهله فعله من غير اجتهاد في تنفيذه؛ كالصدقات والزكوات، فيجوز توليه من جهة الظالم، لأن النص على مستحقه قد أغنى عن الاجتهاد فيه، وجواز تفرد أربابه به قد أغنى عن التقليد.

والقسم الثاني: ما لا يجوز أن يتفردوا به، ويلزم الاجتهاد في مصرفه كأموال الفيء، فلا يجوز توليه من جهة الظالم؛ لأنه يتصرف بغير حق، ويجتهد فيما لا يستحق.

والقسم الثالث: ما يجوز أن يتولاه لأهله، وللاجتهاد فيه مدخل كالقضايا والأحكام، فعقد التقليد محلول، فإن كان النظر تنفيذا للحكم بين متراضيين، وتوسطا بين مجبورين جاز، وإن كان إلزام إجبار لم يجز»[1].

وقال شيخ الإسلام: «ثم السلطان يؤاخذ على ما يفعله من العدوان، ويفرط فيه من الحقوق مع التمكن، لكن أقول هنا: إذا كان المتولي للسلطان العام أو بعض فروعه كالإمارة والولاية والقضاء ونحو ذلك، إذا كان لا يمكنه أداء واجباته وترك محرماته، ولكن يتعمد ذلك ما لا يفعله غيره قصدا وقدرة؛ جازت له الولاية، وربما وجبت! وذلك لأن الولاية إذا كانت من الواجبات التي يجب تحصيل مصالحها، من جهاد العدو، وقسم الفيء وإقامة الحدود وأمن السبيل؛ كان فعلها واجبا، فإذا

(١) الجامع لأحكام القرآن (٩/ ٢١٥).

كان ذلك مستلزما لتولية بعض من لا يستحق، وأخذ بعض ما لا يحل، وإعطاء بعض من لا ينبغي، ولا يمكنه ترك ذلك؛ صار هذا من باب ما لا يتم الواجب أو المستحب إلا به، فيكون واجبا أو مستحبا إذا كانت مفسدته دون مصلحة ذلك الواجب أو المستحب، بل لو كانت الولاية غير واجبة وهي مشتملة على ظلم؛ ومن تولاها أقام الظلم حتى تولاها شخص قصده بذلك تخفيف الظلم فيها، ودفع أكثره باحتمال أيسره؛ كان ذلك حسنا مع هذه النية، وكان فعله لما يفعله من السيئة بنية دفع ما هو أشد منها جيدا.

وهذا باب يختلف باختلاف النيات والمقاصد، فمن طلب منه ظالم قادر وألزمه مالا، فتوسط رجل بينهما ليدفع عن المظلوم كثرة الظلم، وأخذ منه وأعطى الظالم مع اختياره أن لا يظلم، ودفعه ذلك لو أمكن كان محسنا، ولو توسط إعانة للظالم كان مسيئا.

وإنما الغالب في هذه الأشياء فساد النية والعمل، أما النية فبقصده السلطان والمال، وأما العمل فبفعل المحرمات وبترك الواجبات، لا لأجل التعارض ولا لقصد الأنفع والأصلح.

ثم الولاية وإن كانت جائزة أو مستحبة أو واجبة؛ فقد يكون في حق الرجل المعين غيرها أوجب أو أحب، فيقدم حينئذ خير الخيرين وجوبا تارة، واستحبابا أخرى.

ومن هذا الباب تولي يوسف الصديق على خزائن الأرض لملك مصر، بل ومسألته أن يجعله على خزائن الأرض، وكان هو وقومه كفارا كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ﴾[1] الآية، وقال تعالى عنه: ﴿يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ الآية، ومعلوم أنه مع كفرهم لابد أن يكون لهم عادة وسنة في قبض الأموال وصرفها على حاشية الملك وأهل بيته وجنده ورعيته، ولا تكون تلك جارية على سنة الأنبياء وعدلهم، ولم يكن يوسف يمكنه أن يفعل كل ما يريد، وهو ما يراه من دين اللّٰه، فإن القوم لم يستجيبوا

(١) غافر: الآية (٣٤).

له، لكن فعل الممكن من العدل والإحسان، ونال بالسلطان من إكرام المؤمنين من أهل بيته ما لم يكن يمكن أن يناله بدون ذلك، وهذا كله داخل في قوله: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾[1]»[2].

وقال القاسمي: «قال بعضهم: إن من أمعن النظر في قصة يوسف عليه السلام؛ علم يقينا أن التقي الأمين لا يضيع الله سعيه، بل يحسن عاقبته، ويعلي منزلته في الدنيا والآخرة، وأن المعتصم بالصبر لا يخشى حدثان الدهر وتجاربه، ولا يخاف صروفه ونوائبه، فإن الله يعضده وينجح مسعاه، ويخلد ذكره العاطر على ممر الأدهار؛ فإن يوسف عليه السلام لما لم يخش للنوائب وعيدا، ولا للتجارب تهديدا، ولم يخف للسجن ظلما وشرا، ولا للتنكيل به ألما وضرا، بل ألقى توكله على الرب، وصبر إزاء تلك البلية ثابت القلب؛ نال بطهارته وتقواه تاج الفخر، ولسان الصدق طول أيام الدهر. وها إن فضيلته لم يعف جميل ذكراها مرور الأيام، ولم يعبث بنضارتها كرور الأعوام، بل ادخرت لنا مثالا نقتفي أثره عند طروء التجارب، وملاذا نعوذ به في المحن والمصائب، ومقتدى نتدرب به على التثبت في مواقف العثار، وننهج منهاجه في التقوى وطيب الإزار، فننال في الدنيا سمة المجد، ونفوز في الآخرة بدار الخلد»[3].

* * *

(١) التغابن: الآية (١٦).

(٢) مجموع الفتاوى (٢٠/ ٥٤-٥٧).

(٣) محاسن التأويل (٩/ ٢٤٢).

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: أرض مصر، ﴿يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ﴾ قال السدي وعبدالرحمن بن زيد بن أسلم: يتصرف فيها كيف يشاء. وقال ابن جرير: يتخذ منها منزلا حيث يشاء بعد الضيق والحبس والإسار، ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: وما أضعنا صبر يوسف على أذى إخوته، وصبره على الحبس بسبب امرأة العزيز، فلهذا أعقبه الله عز وجل السلام والنصر والتأييد، ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ يخبر تعالى أن ما ادخره الله تعالى لنبيه يوسف عليه السلام في الدار الآخرة؛ أعظم وأكثر وأجل مما خوله من التصرف والنفوذ في الدنيا، كقوله في حق سليمان عليه السلام ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾[1] والغرض أن يوسف عليه السلام ولاه ملك مصر الريان بن الوليد الوزارة في بلاد مصر؛ مكان الذي اشتراه من مصر زوج التي راودته، وأسلم الملك على يدي يوسف عليه السلام؛ قاله مجاهد»[2].

وقال الشوكاني: «ومثل ذلك التمكين العجيب مكنا ليوسف في الأرض: أي جعلنا له مكانا، وهو عبارة عن كمال قدرته ونفوذ أمره ونهيه، حتى صار الملك يصدر عن رأيه، وصار الناس يعملون على أمره ونهيه ﴿يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ﴾ أي: ينزل منها حيث أراد ويتخذه مباءة، وهو عبارة عن كمال قدرته كما تقدم، وكأنه

(١) ص: الآية (٣٩-٤٠).
(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ٣٤).

يتصرف في الأرض التي أمرها إلى سلطان مصر كما يتصرف الرجل في منزله. وقرأ ابن كثير بالنون. وقد استدل بهذه الآية على أنه يجوز تولي الأعمال من جهة السلطان الجائر بل الكافر لمن وثق من نفسه بالقيام بالحق.. ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ﴾ من العباد فنرحمه في الدنيا بالإحسان إليه والإنعام عليه، وفي الآخرة بإدخاله الجنة وإنجائه من النار ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ في أعمالهم الحسنة التي هي مطلوب اللّه منهم: أي لا نضيع ثوابهم فيها، ومجازاتهم عليها ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ﴾ أي: أجرهم في الآخرة، وأضيف الأجر إلى الآخرة للملابسة، وأجرهم هو الجزاء الذي يجازيهم اللّه به فيها، وهو الجنة التي لا ينفد نعيمها، ولا تنقضي مدتها ﴿خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ الوقوع فيما حرمه عليهم، والمراد بهم المحسنون المتقدم ذكرهم، وفيه تنبيه على أن الإحسان المعتد به هو الإيمان والتقوى»[1].

وقال المراغي: «أي: ومثل هذا التمكين الذي سلف ذكر أسبابه ومقدماته، فقد ذكرنا أن إخوة يوسف لو لم يحسدوه ما ألقوه في غيابة الجب، ولو لم يلقوه لما وصل إلى عزيز مصر، ولو لم يعتقد العزيز بفراسته وأمانته وصدقه؛ لما أمنه على بيته وماله وأهله، ولو لم تراوده امرأة العزيز عن نفسه ويستعصم؛ لما ظهرت نزاهته وعرف أمرها، ولو لم تخب في كيدها وكيد صواحباتها ما ألقي في السجن لإخفاء هذا الأمر، ولو لم يسجن لما عرفه ساقي الملك وعرف علمه وفضله وصدقه في تعبير الرؤيا، ولو لم يعرف ذلك منه الساقي ما عرفه ملك مصر، ولم يجعله على خزائن الأرض، فما من حلقة من هذه السلسلة إلا كانت متممة لما بعدها، وبإذن اللّه كانت سببا للوصول إلى ما يليها، فكلها في بدايتها كانت شرا وخسرا، وفي عاقبتها فوزا ونصرا مبينا، ومهدت للتمكين لدى ملك مصر.

فكما مكن له في ذلك مكن له في أرض مصر، وقد جيء به مملوكا فأصبح مالكا ذا نفوذ وأمر ونهي، لا ينازعه منازع فيما يراه ويختاره، وصار الملك يصدر عن رأيه، ولا يعترض عليه فيما يرى بما أعده اللّه تعالى له من تحلية بالصبر واحتمال الشدائد، والأمانة والعفة وحسن التصرف والتدبير للأمور.

﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ﴾ أي: نخص برحمتنا من إعطاء الملك والرياسة

(١) فتح القدير (٣/ ٥٠-٥١).

والغنى والصحة ونحوها من نشاء من عبادنا، بمقتضى ما وضعنا من السنن في الأسباب الكسبية مع موافقتها للأحداث الكونية، ومراعاة النظم الاجتماعية، والفضائل الخلقية.

﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: ولا نضيع أجر من أحسنوا في أعمالهم بشكران هذه النعم، بل نأجرهم عليها سعادة وهناءة، وقد بذلنا تلك النعم لمن يطلبها متى أتى الأمور من أبوابها، وسار على مقتضى السنن التي وضعناها.

أما من يسيئون التصرف فيها فتصيبهم المنغصات، وتوالى عليهم المكدرات؛ فالمسرفون لا يلبثون أن ينالهم الفقر والعدم، والظالمون يثيرون أضغان المظلومين، وذوو الخيلاء والبطر يكونون محتقرين، وقلما يصيب المحسنين الشاكرين من ذلك شيء، وإن نالهم منه شيء يكن هينا عليهم وهم عليه صبر.

وفي الآية إيماء إلى أنه ما أضاع صبر يوسف على أذى إخوته، وصبره على الحبس بسبب امرأة العزيز؛ بل كان جزاؤه ما مكن له في الأرض ولدى ملك مصر:

﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ أي: إن أجر الآخرة وهو نعيمها يكون للمؤمنين المتقين، وهو خير لهم من أجر الدنيا لأهلها وإن بلغوا سلطان الملك، فإن ما أعده لأولئك ليتضاءل أمامه كل ما فيها من مال وجاه وزينة، ولا شبهة في أن من يجمعون بين السعادتين؛ يكون فضل اللّه عليهم أعظم، إذا هم أعطوا حقها من الشكر، وقاموا بما يجب عليهم نحو خالقهم من طاعته وترك معصيته»[١].

وقال العدوي: «أي: مثل تمكننا له بإنجائه من الجب وتخليصه من السجن وتزيينه في عين الملك، مكنا له في الأرض وثبتنا قدمه بها، أو المعنى وعلى ذلك الأسلوب الذي سمعت من التدرج بيوسف، والتلطف في مسألته، إذ ألهمنا واحدا من إخوته أن يقترح عليهم أن يجعلوه في غيابة الجب، وسخرنا له من التقطه منه، وباعه لعزيز مصر، ثم حببناه فيه، ثم أنجيناه من كيد امرأته، وأعناه على أن يصير في السجن بعد أن طلبه الملك حتى وضح أمره، وذاع صيته، وطلبه الملك ليكون صفيا له من دون الناس.

---

(١) تفسير المراغي (١٣/ ٧-٨).

بهذا الأسلوب اللطيف والتدبير الخفي الذي لا يعرف ما فيه من عبر سوى الخاصة من الناس؛ مكنا ليوسف في الأرض، ومهدنا له طريق الملك والسيادة، وهو الذي تدل عليه الآية في آخر القصة ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ يريد أنه إذا شاء أمرا دبر أسبابه، ووضع مقدماته ووسائله، وهو لطيف في صنعه ذلك، ينفذ بلطفه في بواطن الأمور بدقة وخفاء، ولذلك ختم الآية بقوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾.

ولا شك أن من يحيط علمه بالأشياء جليلها وحقيرها، خفيها وظاهرها، وهو مع ذلك حكيم في صنعه؛ لا يعمل إلا وفق المصلحة، وهو لطيف لما يشاء، وهو يقرب من قوله في آية أخرى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[1] غير أن اللطف يمتاز بأن معه رفيقا بخلقه في تدبيره، ورجعه بهم في الوصول إلى ما يريد، فلطفه تدبيره الخفي في رفق ولين.

ويؤيد ذلك المعاني الواردة في اللطيف، فمن معانيه الشفاف الذي لا يحجب ما وراءه كالزجاج والماء النقي، والماء الذي له هذه الصفة لا يرى له لون، ومن معانيه الصغير الذي بلغ في صغره إلى حد لا يمكن الرائي من رؤيته، أو لا يمكنه من الإحساس به، ومن معانيه أنه مقابل للشيء المادي كالروح وكل ما وراء المادة، وهي معان يجمعها معنى الخفاء والدقة، ذلك هو المتبادر من كلمة ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ وإلا فمن الذي كان يشعر أن حسد إخوة يوسف له على محبة أبيه له كانت سببا؛ في وصوله إلى بيت من بيوت مصر الكبيرة، ومن الذي كان يشعر أن تهمة امرأة العزيز له كانت سببا في إعلاء شأنه وذيوع صيته، ومن الذي كان يحس أن وجوده في السجن كان مدعاة لتعرف الملك به، واصطفائه لنفسه، كل ذلك من المقدمات التي لا صلة بينها وبين نتائجها في بادئ الرأي، وهي تتلخص في أن يوسف حسده إخوته، فكان بذلك الحسد وزيرا لمصر، له الأمر والنهي.

﴿يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

يرينا اللّه تعالى أنه مكن ليوسف في الأرض يتبوأ منها من الأمكنة ما شاء، ومعنى يتبوأ يتخذها مباءة ومسكنا له، والمراد أنه مسلط على أرض مصر جميعها

(١) النمل: الآية (٥٠).

لا فرق بين مكان ومكان ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ﴾ أي: نصيب بعطائنا في الدنيا من الملك والغنى من نشاء من الأفراد والجماعات مما اقتضت الحكمة أن نعطيها إياها كما قال: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾[١] أي: بنظام وسنن لا يتخطاها، ولذلك عقبه بقوله ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: إن عدل اللّٰه وحكمته يقضيان بأن لا يضيعا أجر محسن، فمن عمل للغنى بإحسان وإتقان حصل عليه، ومن عمل للعلم بالتعلم تعلم، ومن أحسن إلى ربه وخالقه في غيبته وحضوره حببه إلى النفوس، وسهل له الأمور، وتولى أمور الناس وحكمهم، وفي هذا تحريض على العمل الصالح، وأنه ينفع في الدنيا قبل أن ينفع في الآخرة، ولذلك يقول اللّٰه فيه: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[٢] فالحياة الطيبة جزاؤه في الدنيا، والجزاء بأحسن ما عملوا في الآخرة.

﴿وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ أي: إن الذي أعده اللّٰه تعالى للمؤمنين الأتقياء خير مما كافأهم به في هذه الحياة، وأن ما يكافأون به في الآخرة فوق ما يكافأون به في الدنيا، بل لا يشترك نعيم الآخرة مع نعيم في الدنيا إلا بالاسم.

وقد بلغني عن الأستاذ الإمام وهو يتكلم على الفرق الكبير بين ثواب الدنيا وثواب الآخرة أنه قال ما مثاله:

إن الذي يذهب إلى الشام ويرى ما فيه من فاكهة ينكر أن تكون من جنس ما نعرف في مصر، ولابد أن يتقزز من فاكهة مصر، فقد تفضل الحبة الواحدة من الفاكهة في الشام الحبة في مصر أضعافا مضاعفة في حجمها وطعمها ولذتها.

فإذا كان هذا الفرق الكبير بين نوعين من فاكهة واحدة في قطرين متجاورين؛ فما بالك بفاكهة الدنيا وفاكهة الآخرة؟ وفي الحديث عن أبي هريرة ﷺ أن رسول اللّٰه ﷺ قال: «**قال اللّٰه تعالى: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر**» واقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن

(١) الرعد: الآية (٨).
(٢) النحل: الآية (٩٧).

﴿قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾(١)». رواه الشيخان(٢)؛ أي: إن نفسا من النفوس كائنة من كانت؛ لا تعلم ما أعده اللَّه للمؤمنين مما تقر به عيونهم من النعيم، حسيا كان أو معنويا.

ونظير الآية التي نحن بصدد شرحها قول اللَّه تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ۝١٤ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾(٣)»(٤).

* * *

(١) السجدة: الآية (١٧).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٣١٣) والبخاري (٦/ ٣٩١/ ٣٢٤٤) ومسلم (٤/ ٢١٧٤/ ٢٨٢٤) والترمذي (٥/ ٣٢٣/ ٣١٩٧) وابن ماجه (٢/ ١٤٤٧/ ٤٣٢٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) آل عمران: الآيتان (١٤ و ١٥).

(٤) دعوة الرسل (ص: ١٣٢-١٣٤).

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝٥٨ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ۝٥٩ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ۝٦٠ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ۝٦١ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝٦٢﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عاشور: «طوى القرآن أخرة أمر امرأة العزيز وحلول سني الخصب والادخار، ثم اعتراء سني القحط لقلة جدوى ذلك كله في الغرض الذي نزلت السورة لأجله، وهو إظهار ما يلقاه الأنبياء من ذويهم، وكيف تكون لهم عاقبة النصر والحسنى، ولأنه معلوم حصوله، ولذلك انتقلت القصة إلى ما فيها من مصير إخوة يوسف عليه السلام في حاجة إلى نعمته، ومن جمع الله بينه وبين أخيه الذي يحبه، ثم بينه وبين أبويه، ثم مظاهر عفوه عن إخوته وصلته رحمه، لأن لذلك كله أثرا في معرفة فضائله»[(١)].

قال ابن كثير: «ذكر السدي ومحمد بن إسحق وغيرهما من المفسرين أن السبب الذي أقدم إخوة يوسف بلاد مصر، أن يوسف عليه السلام لما باشر الوزارة بمصر وضمت السبع السنين المخصبة، ثم تلتها السبع السنين المجدبة، وعم القحط بلاد مصر بكمالها، ووصل إلى بلاد كنعان، وهي التي فيها يعقوب عليه السلام وأولاده، وحينئذ احتاط يوسف عليه السلام للناس في غلاتهم، وجمعها أحسن جمع، فحصل من ذلك مبلغ عظيم وهدايا متعددة هائلة، وورد عليه الناس من سائر الأقاليم والمعاملات،

(١) التحرير والتنوير (١٣/ ١١).

يمتارون لأنفسهم وعيالهم، فكان لا يعطي الرجل أكثر من حمل بعير في السنة، وكان ﷺ لا يشبع نفسه، ولا يأكل هو والملك وجنودهما إلا أكلة واحدة في وسط النهار، حتى يتكفأ الناس بما في أيديهم مدة السبع سنين، وكان رحمة من اللّٰه على أهل مصر.

وما ذكره بعض المفسرين من أنه باعهم في السنة الأولى بالأموال، وفي الثانية بالمتاع، وفي الثالثة بكذا، وفي الرابعة بكذا، حتى باعهم بأنفسهم وأولادهم بعد ما تملك عليهم جميع ما يملكون، ثم أعتقهم ورد عليهم أموالهم كلها؛ اللّٰه أعلم بصحة ذلك، وهو من الإسرائيليات التي لا تصدق ولا تكذب، والغرض أنه كان في جملة من ورد للميرة إخوة يوسف عن أمر أبيهم لهم في ذلك، فإنه بلغهم أن عزيز مصر يعطي الناس الطعام بثمنه، فأخذوا معهم بضاعة يعتاضون بها طعاما، وركبوا عشرة نفر، واحتبس يعقوب ﷺ عنده ابنه بنيامين شقيق يوسف ﷺ، وكان أحب ولده إليه بعد يوسف، فلما دخلوا على يوسف وهو جالس في أبهته ورياسته وسيادته، عرفهم حين نظر إليهم، وهم له منكرون أي: لا يعرفونه، لأنهم فارقوه وهو صغير حدث، وباعوه للسيارة ولم يدروا أين يذهبون به، ولا كانوا يستشعرون في أنفسهم أن يصير إلى ما صار إليه؛ فلهذا لم يعرفوه، وأما هو فعرفهم. فذكر السدي وغيره أنه شرع يخاطبهم، فقال لهم كالمنكر عليهم: ما أقدمكم بلادي؟ فقالوا: أيها العزيز! إنا قدمنا للميرة، قال: فلعلكم عيون؟ قالوا: معاذ اللّٰه، قال: فمن أين أنتم؟ قالوا: من بلاد كنعان، وأبونا يعقوب نبي اللّٰه. قال: وله أولاد غيركم؟ قالوا: نعم، كنا اثني عشر، فذهب أصغرنا، هلك في البرية، وكان أحبنا إلى أبيه، وبقي شقيقه فاحتبسه أبوه ليتسلى به عنه، فأمر بإنزالهم وإكرامهم ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ أي: أوفى لهم كيلهم، وحمل لهم أحمالهم، قال: ائتوني بأخيكم هذا الذي ذكرتم لأعلم صدقكم فيما ذكرتم ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾ يرغبهم في الرجوع إليه؛ ثم رهبهم فقال: ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي﴾ الآية؛ أي: إن لم تقدموا به معكم في المرة الثانية فليس لكم عندي ميرة، ﴿وَلَا تَقْرَبُونِ ۝ قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾ أي: سنحرص على مجيئه إليك بكل ممكن، ولا نبقي مجهودا لتعلم صدقنا فيما قلناه، وذكر السدي أنه أخذ منهم رهائن حتى يقدموا به معهم، وفي هذا نظر، لأنه أحسن إليهم ورغبهم كثيرًا، وهذا

لحرصه على رجوعهم. ﴿وَقَالَ لِفِتْيَـٰنِهِ﴾ أي: غلمانه ﴿ٱجْعَلُوا۟ بِضَـٰعَتَهُمْ﴾ أي: التي قدموا بها ليمتاروا عوضا عنها ﴿فِى رِحَالِهِمْ﴾ أي: في أمتعتهم من حيث لا يشعرون، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ بها، قيل: خشي يوسف ﷺ أن لا يكون عندهم بضاعة أخرى يرجعون للميرة بها. وقيل: تذمم أن يأخذ من أبيه وإخوته عوضا عن الطعام. وقيل: أراد أن يردهم إذا وجدوها في متاعهم تحرجا وتورعا، لأنه يعلم ذلك منهم، والله أعلم»[1].

قال السعدي: «والظاهر، أنه أراد أن يرغبهم في إحسانه إليهم، بالكيل لهم كيلا وافيا ثم إعادة بضاعتهم إليهم، على وجه لا يحسون بها، ولا يشعرون لما يأتي؛ فإن الإحسان يوجب للإنسان إتمام الوفاء للمحسن»[2].

وقال ابن عاشور: «وجملة ﴿وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ عطف على جملة ﴿فَعَرَفَهُمْ﴾. ووقع الإخبار عنهم بالجملة الاسمية للدلالة على أن عدم معرفتهم به أمر ثابت متمكن منهم. وكان الإخبار عن معرفته إياهم بالجملة الفعلية المفيدة للتجدد للدلالة على أن معرفته إياهم حصلت بحدثان رؤيته إياهم دون توسم وتأمل. وقرن مفعول ﴿مُنكِرُونَ﴾ الذي هو ضمير يوسف ﷺ بلام التقوية، ولم يقل وهم منكرونه؛ لزيادة تقوية جهلهم بمعرفته.

وتقديم المجرور بلام التقوية في ﴿لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ للرعاية على الفاصلة، وللاهتمام بتعلق نكرتهم إياه، للتنبيه على أن ذلك من صنع الله تعالى، وإلا فإن شمائل يوسف ﷺ ليست مما شأنه أن يجهل وينسى..

وقوله: ﴿ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم﴾ يقتضي وقوع حديث منهم عن أن لهم أخا من أبيهم لم يحضر معهم، وإلا لكان إنباء يوسف ﷺ لهم بهذا؛ يشعرهم أنه يكلمهم عارفا بهم، وهو لا يريد أن يكشف ذلك لهم..

و﴿مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ حال من ﴿بِأَخٍ لَّكُم﴾ أي: أخوته من جهة أبيكم. وهذا من مفهوم الاقتصار الدال على عدم إرادة غيره؛ أي: من أبيكم وليس من أمكم؛ أي: ليس بشقيق.

---

(١) التفسير (٤/ ٣٥-٣٦).

(٢) التيسير (٤/ ٤٢).

والعدول عن أن يقال: ايتوني بأخيكم من أبيكم، لأن المراد حكاية ما اشتمل عليه كلام يوسف عليه السلام؛ من إظهار عدم معرفته بأخيهم، إلا من ذكرهم إياه عنده، فعدل عن الإضافة المقتضية المعرفة إلى التنكير تنابها في التظاهر بجهله به.

﴿وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ أي: لا تعودون إلى مصر.. وقوله: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾ ترغيب لهم في العود إليه؛ وقد علم أنهم مضطرون إلى العود إليه؛ لعدم كفاية الميرة التي امتاروها لعائلة ذات عدد من الناس مثلهم، كما دل عليه قولهم بعد ﴿ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾.

ودل قوله: ﴿خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾ على أنه كان ينزل الممتارين في ضيافته لكثرة الوافدين على مصر للميرة. والمنزل: المضيف. وهذه الجملة كناية عن الوعد بأن يوفي لهم الكيل، ويكرم ضيافتهم إن أتوا بأخيهم. والكيل في الموضعين مراد منه المصدر. فمعنى ﴿فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي﴾ أي: لا يكال لكم، كناية عن منعهم من ابتياع الطعام.

﴿قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾ وعد بأن يبذلوا قصارى جهدهم في الإتيان بأخيهم، وإشعار بصعوبة ذلك. فمعنى ﴿سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾: سنحاول أن لا يشح به، وقد تقدم عند قوله تعالى: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ﴾.

وجملة: ﴿وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾ عطف على الوعد بتحقيق الموعود به، فهو فعل ما أمرهم به، وأكدوا ذلك بالجملة الاسمية وحرف التأكيد»[١].

وقال أبو حيان: «وتنكر أخ، ولم يقل: بأخيكم، وإن كان قد عرفه وعرفهم مبالغة في كونه لا يريد أن يتعرف لهم ولا أنه يدري من هو، ألا ترى فرقا بين مررت بغلامك ومررت بغلام لك، إنك في التعريف تكون عارفا بالغلام، وفي التنكير أنت جاهل به، فالتعريف يفيد نوع عهد في الغلام بينك وبين المخاطب، والتنكير لا عهد فيه ألبتة، وجائز أن تخبر عمن تعرفه إخبار النكرة، فتقول: قال رجل لنا وأنت تعرفه لصدق إطلاق النكرة على المعرفة»[٢].

وقال العدوي: «﴿قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾ أي: سنخادعه عنه ونجتهد حتى ننزعه من يده ﴿وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾ كل ما في وسعنا في ذلك، أو لقادرون

(١) التحرير والتنوير (١٣/ ١٢-١٤).
(٢) البحر المحيط (٥/ ٣١٩).

على المراودة.

وقد عبروا بالمراودة الدالة على الجهد والمشقة، لأنهم يعلمون أن أباهم يعقوب سوف لا يكون سهلا في إجابتهم إلى ما طلبوا، وأنهم سيلقون في ذلك العمل عناء ومشقة، ولذلك لم يجزموا للعزيز بأنهم سيوفون له بما طلب، وكل ما في الأمر أنهم وعدوه بالعمل للحصول على أخيهم، وقد لا ينجحون في ذلك، وذلك عقل وحزم من الإخوة، وبعد عن المخاطرة في الوعد.

وهكذا ينبغي للرجل أن يكون محتاطا في وعوده، ولا سيما إذا كان الموعود به ليس في قبضة الواعد، بل هو شركة بينه وبين غيره.

وكثير من الناس يتورط في مواعيده، ولا يستطيع أن يفي بها، ويعرض نفسه للكذب. والسبب الغالب على الناس في تورطهم أنهم وهم يعطون المواعيد لا يعملون حسابا للوفاء قبل أن يبتوا بالموعد، والواجب على من يعطي موعدا لك بأن يوفيك دينك في يوم كذا؛ أن يكون مطمئنا لحصوله على الدين قبل ذلك اليوم، وكذلك من يعدك بأنه يتم لك العمل في وقت ما، لابد أن يكون واثقا من نفسه في إتمام ذلك العمل في الموعد الذي حدده.

أما الذي يعد وهو غير واثق من الوفاء، أو لم يفكر فيه فهو مخطئ آثم، قد عرض نفسه لأن تتهمه الناس بالكذب والغدر، وحسب الصانع أو التاجر أن يكون كاذبا في وعده لتضيع ثقة الناس به، وحسب المؤمن الحازم أن يكون صادقا وفيا لتثق الناس به.

﴿وَقَالَ لِفِتْيَـٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَـٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾: أمر يوسف فتيانه أن يدسوا ما كان معهم من بضاعة ليأخذوا بها الطعام في رحال إخوته، ورحل الرجل: ما يستصحبه من الأثاث ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ﴾ إلخ بيان لسر ذلك العمل؛ وهو أنهم متى وجدوا بضاعتهم التي سافروا بها لتكون ثمنا للطعام، وعرفوا أن العزيز جمع لهم بين ثمنهم وطعامهم؛ متى رأوا ذلك عرفوا حق العزيز عليهم في ردها له، وحقه عليهم في وفائهم بما وعدوا، فهو أسلوب من أساليب التوريط، لجأ إليه العزيز، وهو يوسف الصديق؛ ليكون وسيلة لحسن ظنهم فيه، ويسهل عليهم مهمتهم عند أبيهم يعقوب، وبذلك يرجعون إليه ومعهم أخوهم من أبيهم»[1].

---

(١) دعوة الرسل (ص: ١٣٧).

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُۖ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول اللَّه تعالى عنهم: إنهم رجعوا إلى أبيهم ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ﴾ يعنون بعد هذه المرة، إن لم ترسل معنا أخانا بنيامين لا نكتل، فأرسله معنا نكتل، وإنا له لحافظون، قرأ بعضهم بالياء أي: يكتل هو، ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ أي: لا تخف عليه فإنه سيرجع إليك، وهذا كما قالوا له في يوسف: ﴿أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾، ولهذا قال لهم ﴿هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُ﴾ أي: هل أنتم صانعون به إلا كما صنعتم بأخيه من قبل، تغيبونه عني، وتحولون بيني وبينه؟ ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗا﴾ وقرأ بعضهم حفظا ﴿وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ أي: هو أرحم الراحمين بي، وسيرحم كبري وضعفي ووجدي بولدي، وأرجو من اللَّه أن يرده علي ويجمع شملي به، إنه أرحم الراحمين»[(١)].

قال أبو حيان: «أي: رجعوا من مصر ممتارين، بادروا بما كان أهم الأشياء عندهم، من التوطئة لإرسال أخيهم معهم، وذلك قبل فتح متاعهم، وعلمهم بإحسان العزيز إليهم، من رد بضاعتهم، وأخبروا بما جرى لهم مع العزيز الذي على أهرام مصر، وأنهم استدعى منهم العزيز أن يأتوا بأخيهم حتى يتبين صدقهم أنهم ليسوا جواسيس، وقولهم: ﴿مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ﴾ إشارة إلى قول يوسف: ﴿فَإِن لَّمۡ تَأۡتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيۡلَ لَكُمۡ عِندِي﴾ ويكون ﴿مُنِعَ﴾ يراد به في المستأنف، وإلا فقد كيل لهم وجاؤوا أباهم بالميرة، لكن لما أنذروا بمنع الكيل قالوا: منع، وقيل: أشاروا إلى بعير بنيامين الذي منع من الميرة، وهذا أولى بحمل ﴿مُنِعَ﴾ على الماضي حقيقة،

---

(١) التفسير (٤/ ٣٦-٣٧).

ولقولهم: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ﴾ ويقويه قراءة (يكتل) بالياء؛ أي: يكتل أخونا فإنما منع كيل بعيره لغيبته، أو يكن سببا للاكتيال، فإن امتناعه في المستقبل تشبيه.. وضمنوا له حفظه وحياطته، ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ﴾ هذا توقيف وتقرير وتألم من فراقه بنيامين، ولم يصرح بمنعه من حمله لما رأى في ذلك من المصلحة، وشبه هذا الائتمان في ابنه هذا بائتمانه إياهم في حق يوسف قلتم فيه: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ كما قلتم في هذا، فأخاف أن تكيدوا له كما كدتم لذلك، لكن يعقوب لم يخف عليه كما خاف على يوسف، واستسلم لله.. ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ اعتراف بأن اللَّه هو ذو الرحمة الواسعة، فأرجو منه حفظه، وأن لا يجمع على مصيبته ومصيبة أخيه»[١].

قوله: ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا﴾، قال ابن عاشور: «أي: خير حفظا منكم، فإن حفظه اللَّه سلم؛ وإن لم يحفظه لم يسلم، كما لم يسلم أخوه من قبل حين أمنتكم عليه»[٢].

قال عبد الكريم الخطيب: «وفي قوله: ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾، هو عزاء له، يعزي به نفسه في حزنه على يوسف، وذلك بتسليم الأمر لله سبحانه، والاستسلام لقدره، والرضا بمقدوره. وأنه سبحانه لو أراد حفظ يوسف لحفظه، فهو خير الحافظين، لا يقع شيء في هذا الوجود إلا بأمره. ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ فما ينزل بالناس من مكروه، هو واقع بهم من رب رحيم، فهو رحمة بالنسبة لما هو أقسى منه وأوجع!»[٣].

وقال القنوجي: «والمعنى أن حفظ اللَّه إياه خير من حفظهم له، وإنما أرسله معهم لأنه لم يشاهد فيما بينهم وبين بنيامين من الحقد والحسد؛ مثل ما شاهد بينهم وبين يوسف عليه السلام، أو أن شدة القحط وضيق الوقت أحوجه إلى ذلك.

﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ فأرجو أن ينعم علي بحفظه، ولا يجمع علي مصيبتين. قيل: لما وكل يعقوب حفظه إلى اللَّه سبحانه حفظه وأرجعه إليه، ولما قال في يوسف عليه السلام: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ الذي وقع له من الامتحان ما وقع»[٤].

وقال محمد العدوي: «ويظهر أن الضرورة إلى الطعام كانت ملحة وشديدة،

---

(١) البحر المحيط (٥/ ٣٢٠).
(٢) التحرير والتنوير (١٣/ ١٦).
(٣) التفسير القرآني للقرآن (٧/ ١٥).
(٤) فتح البيان (٦/ ٣٦٥).

ولذلك تساهل يعقوب ﷺ في شأن ابنه الثاني، وقال وهو ممتلئ حزنا: ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًاۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ وهو لجوء إلى اللَّه تعالى في أن يتولى حفظ ابنه الثاني، فإنه نعم الحافظ ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ وأرجو أن ينعم علي بحفظه، ولا يجمع علي مصيبتين: مصيبته به، ومصيبته بأخيه.

فإذا كان نبي اللَّه يعقوب قد ضعف أمله في أولاده العشر من جهة ابنه؛ فإن أمله في اللَّه قوي، ورجاءه فيه لم ينقطع، لذلك رجع إليه، واستحفظه ابنه، فإنه خير من يحفظ له ابنه، وهو أرحم الراحمين، فتُوَجَّه إليه النفوس عند الشدة، ويُقْصَد عند الاضطرار»[1].

وقال الحافظ ابن رجب: «وحفظ اللَّه لعبده يدخل فيه نوعان:

أحدهما: حفظه له في مصالح دنياه، كحفظه في بدنه وولده وأهله وماله، قال اللَّه ﷻ: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾[2]. قال ابن عباس: هم الملائكة يحفظونه بأمر اللَّه، فإذا جاء القدر خلوا عنه.. فمن حفظ اللَّه حفظه اللَّه من كل أذى. قال بعض السلف: من اتقى اللَّه، فقد حفظ نفسه، ومن ضيع تقواه، فقد ضيع نفسه، واللَّه الغني عنه..

النوع الثاني من الحفظ، وهو أشرف النوعين: حفظ اللَّه للعبد في دينه وإيمانه، فيحفظه في حياته من الشبهات المضلة، ومن الشهوات المحرمة، ويحفظ عليه دينه عند موته، فيتوفاه على الإيمان.. وفي الجملة، فاللَّه ﷻ يحفظ على المؤمن الحافظ لحدوده دينه، ويحول بينه وبين ما يفسد عليه دينه بأنواع من الحفظ، وقد لا يشعر العبد ببعضها، وقد يكون كارها له، كما قال في حق يوسف ﷺ: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾»[3].

* * *

(١) دعوة الرسل (ص: ١٣٨).

(٢) الرعد: الآية (١١).

(٣) جامع العلوم والحكم (١/ ٤٦٥-٤٦٩).

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْۖ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِيۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَاۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى: ولما فتح إخوة يوسف متاعهم، وجدوا بضاعتهم ردت إليهم، وهي التي كان أمر يوسف فتيانه بوضعها في رحالهم، فلما وجدوها في متاعهم ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِيۖ﴾ أي: ماذا نريد ﴿هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَاۖ﴾، كما قال قتادة: ما نبغي وراء هذا؟ إن بضاعتنا ردت إلينا، وقد أوفى لنا الكيل، ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ أي: إذا أرسلت أخانا معنا نأتي بالميرة إلى أهلنا، ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍۖ﴾ وذلك أن يوسف عليه السلام كان يعطي كل رجل حمل بعير.. ﴿ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ هذا من تمام الكلام وتحسينه؛ أي: إن هذا يسير في مقابلة أخذ أخيهم ما يعدل هذا»[١].

قال القاسمي: «﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِيۖ﴾ أي: ماذا نبتغي وراء ذلك؟ هل من زيادة؟ أي: لا مزيد على ما فعل، لأنه أكرمنا، وأحسن مثوانا، بإنزالنا عنده، ورد الثمن علينا. والقصد إلى استنزاله عن رأيه. أو: لا نبغي في القول ولا نكذب فيما حكينا لك، من إحسانه الداعي إلى امتثال أمره. أو: ما نبغي وما ننطق إلا بالصواب فيما نشير به عليك من تجهيزنا مع أخينا. وقرئ على الخطاب؛ أي: أي شيء تطلب وراء هذا من الدليل على صدقنا؟

﴿هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَاۖ﴾ جملة مستأنفة موضحة لما دل عليه الإنكار من بلوغ اللطف غايته، كأنهم قالوا: كيف لا، وهذه بضاعتنا ردت إلينا تفضلا من حيث لا ندري؟

---

(١) التفسير (٤/ ٣٧).

﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ معطوف على معطوف على مقدر مفهوم؛ أي: فنستظهر بها، ونمير أهلنا إذا رجعنا إلى الملك؛ أي: نأتيهم بميرة، أي بطعام. يقال: (ماره) أتاه بطعام ومنه: (ما عنده خير ولا مير).

﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾ أي: فلا يصيبه شيء مما تخافه ﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ أي: باستصحابه، ﴿ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ أي: سهل على هذا الملك المحسن لسخائه، فلا يضايقنا فيه. أو المعنى قصير المدة، ليس سبيل مثله أن تطول مدته بسبب الحبس والتأخير أو المعنى: ذلك الذي يكال لنا دون أخينا شيء يسير قليل، فابعث أخانا معنا حتى نتسع ونتكثر بمكيله»[1].

وقال العدوي: «﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾: قد بدأ الإخوة بتبليغ أبيهم أنهم قد منعهم العزيز الكيل، وأن يرسل معهم أخاهم ليعطيهم الطعام الذي يحتاجون إليه؛ لأن ذلك أهم شيء عندهم، يريدون أن يعملوا لتذليل هذه العقبة التي وضعها العزيز في طريق أخذهم ما يحتاجون من الطعام، وكان ذلك قبل أن يفتحوا أمتعتهم، فلما فتحوها وجدوا بضاعتهم التي سافروا بها ردت إليهم في متاعهم مع الطعام.

ويقول المفسرون: إن البضاعة كانت أدما (جلدا) ونعالا وورقا، ولم يكن معهم نقود في ذلك الظرف، فلجأوا إلى طريق المقايضة، وهي أول شيء بدئ به تبادل الناس في بيعهم وشرائهم، ولا مانع أن تكون بضاعتهم كذلك متى صحت الأخبار.

وفهم الآية لا يتوقف على معرفة بضاعتهم، ويكفي أنها شيء بضع: أي قطع ليتجر به»[2].

قال السعدي: «هذا دليل على أنه قد كان معلوما عندهم، أن يوسف قد ردها عليهم بالقصد؛ وأنه أراد أن يملكهم إياها. ﴿قَالُوا﴾ لأبيهم -ترغيبًا في إرسال أخيهم معهم-: ﴿يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي﴾ أي: أيّ شيء نطلب بعد هذا الإكرام الجميل، حيث وفىّ لنا الكيل، ورد علينا بضاعتنا على الوجه الحسن، المتضمن للإخلاص،

---

(١) محاسن التأويل (٩/٢٤٨-٢٤٩).

(٢) دعوة الرسل (ص: ١٣٨).

ومكارم الأخلاق؟

﴿هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ أي: إذا ذهبنا بأخينا، صار سببا لكيله لنا، فنمير أهلنا، ونأتي لهم بما هم مضطرون إليه من القوت. ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ﴾ بإرساله معنا، فإنه يكيل لكل واحد حمل بعير. ﴿ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ أي: سهل لا ينالك منه ضرر؛ لأن المدة لا تطول، والمصلحة قد تبينت»[1].

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٤/ ٤٣).

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾﴾

اقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن كثير: ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: تحلفون بالعهود والمواثيق ﴿لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ إلا أن تغلبوا كلكم ولا تقدرون على تخليصه ﴿فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾ أكده عليهم؛ فقال: ﴿اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾، قال ابن إسحق: وإنما فعل ذلك لأنه لم يجد بدا من بعثهم لأجل الميرة، التي لا غنى لهم عنها، فبعثه معهم»[1].

وقال محمد العدوي: «أي: قال لهم أبوهم: لا أعطيكم أخا يوسف حتى تعطون عهدا من اللّه أتوثق به، والمراد عهد مؤكد بذكر اللّه تعالى، أو الحلف به على أن تأتوني به إلا إذا غلبتم فلم تطيقوا حفظه، أو إلا أن تهلكوا جميعًا.

فلما أعطوه العهد والميثاق قال يعقوب: اللّه شاهد على ما نقول، وحفيظ عليه، وهو الذي سيحاسبكم ويجازيكم إذا كنتم تريدون الوفاء أو الغدر»[2].

قال القاسمي: «قال الناصر: ولقد صدقت هذه القصة المثل السائر، وهو قولهم: (البلاء موكل بالمنطق)؛ فإن يعقوب ﷺ قال أولا في حق يوسف: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ﴾ فابتلي من ناحية هذا القول. وقال ها هنا ثانيا: ﴿إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ أي تغلبوا عليه، فابتلي أيضًا بذلك، وأحيط بهم وغلبوا عليه»[3].

قوله: ﴿قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾، قال الشوكاني: «أي: قال يعقوب: اللّه على ما قلنا من طلبي الموثق منكم وإعطائكم لي ما طلبته منكم مطلع رقيب، لا يخفى عليه منه خافية، فهو المعاقب لمن خاس في عهده، وفجر في الحلف به، أو موكول

(١) التفسير (٤/ ٣٧).

(٢) دعوة الرسل (ص: ١٣٨-١٣٩).

(٣) محاسن التأويل (٩/ ٢٥٠).

إليه القيام بما شهد عليه منا»[١].

وقال القرطبي: «هذه الآية أصل في جواز الحمالة بالعين والوثيقة بالنفس؛ وقد اختلف العلماء في ذلك؛ فقال مالك وجميع أصحابه وأكثر العلماء: هي جائزة إذا كان المتحمل به مالا. وقد ضعف الشافعي الحمالة بالوجه في المال؛ وله قول كقول مالك. وقال عثمان البتي: إذا تكفل بنفس في قصاص أو جراح؛ فإنه إن لم يجيء به لزمه الدية وأرش الجراح، وكانت له في مال الجاني، إذ لا قصاص على الكفيل؛ فهذه ثلاثة أقوال في الحمالة بالوجه. والصواب: تفرقة مالك في ذلك، وأنها تكون في المال، ولا تكون في حد أو تعزير»[٢].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة
في المواثيق والعهود التي أخذها ﷺ على اليهود

* عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «أقبلت يهود إلى النبي ﷺ فقالوا: يا أبا القاسم! نسألك عن أشياء، فإن أجبتنا فيها اتبعناك، وصدقناك، وآمنا بك!! قال: فأخذ عليهم ما أخذ إسرائيل على بنيه، إذ قالوا: ﴿ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ قال: أخبرنا عن علامة النبي ﷺ؟ قال: «**تنام عيناه ولا ينام قلبه**». قالوا: وأخبرنا كيف تؤنث المرأة، وكيف يذكر الرجل، قال: «**يلتقي الماءان، فإذا علا ماء المرأة ماء الرجل آنثت، وإذا علا ماء الرجل ماء المرأة أذكرت**». قالوا: صدقت قالوا: فأخبرنا عن الرعد ما هو؟ قال: «**ملك من الملائكة، موكل بالسحاب، معه مخاريق من نار، يسوق بها السحاب حيث شاء الله**». قالوا: فما هذا الصوت الذي يسمع؟ قال: «**زجره بالسحاب إذا زجره، حتى ينتهي إلى حيث أمر**». قالوا: صدقت! قالوا: أخبرنا ما حرم إسرائيل على نفسه؟ قال: «**كان يسكن البدو، فاشتكى عرق النَّسا، فلم يجد شيئًا يلاومه إلا لحوم الإبل وألبانها فلذلك حرمها**». قالوا: صدقت! قالوا: أخبرنا من الذي يأتيك من الملائكة؛ فإنه ليس من نبي إلا يأتيه ملك من الملائكة من عند ربه، بالرسالة وبالوحي، فمن صاحبك، فإنه إنما بقيت هذه، حتى

---

(١) فتح القدير (٣/ ٥٦).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٩/ ٢٢٥).

نتابعك؟ قال: «هو جبريل». قالوا: ذلك الذي ينزل بالحرب وبالقتل، ذاك عدونا من الملائكة، لو قلت: ميكائيل الذي ينزل بالقطر، والرحمة؛ تابعناك، فأنزل اللَّه تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ إلى آخر الآية: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾[1]»[2].

★ **غريب الحديث:**

فأخذ عليهم ما أخذ إسرائيل: يعني نبي اللَّه يعقوب.

على بنيه: يعني إخوة يوسف.

كيف تؤنث المرأة وكيف يذكر الرجل: من آنثت المرأة بالمد إيناثا: إذا ولدت أنثى. وتذكر: من أذكرت إذا ولدت ذكرا.

عرق النسا: بوزن العصا، عرق يخرج من الورك فيستبطن الفخذ، ثم يمر بالعرقوب حتى يبلغ الكعب.

مخاريق: جمع مخراق، وهو في الأصل ثوب يلف ويضرب به الصبيان بعضهم بعضا، أراد أنه آلة تزجر بها الملائكة السحاب وتسوقه.

★ **فوائد الحديث:**

تقدم ذكرها في سورة (البقرة) عند قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ﴾ الآية[3].

* * *

---

(١) البقرة: الآيتان (٩٧و٩٨).

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٢٧٤) والترمذي (٥/ ٢٧٤/ ٣١١٧) مختصرا، وقال: «حسن غريب»، والنسائي في الكبرى (٥/ ٣٣٦-٣٣٧/ ٩٠٧٢) واللفظ له.

(٣) البقرة: الآية (٩٨).

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ٦٧﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى إخبارا عن يعقوب عليه السلام، أنه أمر بنيه لما جهزهم مع أخيهم بنيامين إلى مصر؛ أن لا يدخلوا كلهم من باب واحد، وليدخلوا من أبواب متفرقة، فإنه كما قال ابن عباس ومحمد بن كعب ومجاهد والضحاك وقتادة والسدي وغير واحد أنه: خشي عليهم العين، وذلك أنهم كانوا ذوي جمال وهيئة حسنة، ومنظر وبهاء، فخشي عليهم أن يصيبهم الناس بعيونهم، فإن العين حق تستنزل الفارس عن فرسه... وقوله: ﴿وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ﴾ أي: إن هذا الاحتراز لا يرد قدر الله وقضاءه؛ فإن الله إذا أراد شيئًا لا يخالف ولا يمانع، ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾»(١).

قال ابن عاشور: «وإنما نهاهم أن يدخلوها من باب واحد؛ خشية أن يسترعي عددهم أبصار أهل المدينة وحراسها، وأزياؤهم أزياء الغرباء عن أهل المدينة؛ أن يوجسوا منهم خيفة من تجسس أو سرقة، فربما سجنوهم أو رصدوا الأعين إليهم. فيكون ذلك ضرا لهم وحائلا دون سرعة وصولهم إلى يوسف عليه السلام، ودون قضاء حاجتهم. وقد قيل في الحكمة: استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان(٢).

ولما كان شأن إقامة الحراس والأرصاد أن تكون على أبواب المدينة؛ اقتصر على تحذيرهم من الدخول من باب واحد، دون أن يحذرهم من المشيء في سكة

---

(١) التفسير (٤/ ٣٨).

(٢) بل صح عن النبي ﷺ من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه: «استعينوا على إنجاح الحوائج بالكتمان، فإن كل ذي نعمة محسود» أخرجه: الطبراني في الكبير (٢٠/ ٩٤/ ١٨٣) وفي الأوسط (٣/ ٢٢٦/ ٢٤٧٦) والصغير (٢/ ٤١٦/ ١١٥٢) والقضاعي (١/ ٤١٢/ ٧٠٨) وغيرهم، وانظر الصحيحة (٣/ ٤٣٦/ ١٤٥٣).

واحدة من سكك المدينة، ووثق بأنهم عارفون بسكك المدينة، فلم يخش ضلالهم فيها، وعلم أن (بنيامين) يكون في صحبة أحد إخوته لئلا يضل في المدينة.

والمتفرقة: أراد بها المتعددة لأنه جعلها في مقابلة الواحد. ووجه العدول عن المتعددة إلى المتفرقة الإيماء إلى علة الأمر، وهي إخفاء كونهم جماعة واحدة.

وجملة ﴿وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ معترضة في آخر الكلام؛ أي: وما أغني عنكم بوصيتي هذه شيئًا. و﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ متعلق بـ﴿أُغْنِي﴾؛ أي: لا يكون ما أمرتكم به مغنيا غناء مبتدئا من عند الله، بل هو الأدب والوقوف عند ما أمر الله، فإن صادف ما قدره فقد حصل فائدتان، وإن خالف ما قدره حصلت فائدة امتثال أوامره، واقتناع النفس بعدم التفريط.. وأراد بهذا تعليمهم الاعتماد على توفيق الله ولطفه مع الأخذ بالأسباب المعتادة الظاهرة؛ تأدبا مع واضع الأسباب ومقدر الألطاف في رعاية الحالين، لأنا لا نستطيع أن نطلع على مراد الله في الأعمال، فعلينا أن نتعرفها بعلاماتها، ولا يكون ذلك إلا بالسعي لها.

وهذا سر مسألة القدر كما أشار إليه قول النبي ﷺ: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له»[1]. وفي الأثر: (إذا أراد الله أمرا يسر أسبابه). قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾[2]. ذلك أن شأن الأسباب أن تحصل عندها مسبباتها. وقد يتخلف ذلك بمعارضة أسباب أخرى مضادة لتلك الأسباب حاصلة في وقت واحد، أو لكون السبب الواحد قد يكون سببا لأشياء متضادة باعتبارات، فيخطئ تعاطي السبب في مصادفة المسبب المقصود. ولولا نظام الأسباب ومراعاتها؛ لصار المجتمع البشري هملا وهمجا.. وجملة: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ في موضع التعليل لمضمون ﴿وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ والحكم هنا بمعنى التصرف والتقدير، ومعنى الحصر أنه لا يتم إلا ما أراده الله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾[3] وليس للعبد أن ينازع مراد الله في نفس الأمر، ولكن واجبه أن يتطلب الأمور من أسبابها؛ لأن الله أمر

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٨٢) والبخاري (٨/ ٩١٨/ ٤٩٤٦) ومسلم (٤/ ٢٠٣٩-٢٠٤٠/ ٢٦٤٧) والترمذي (٤/ ٣٨٨/ ٢١٣٦) وابن ماجه (١/ ٣٠-٣١/ ٧٨) من حديث علي ﷺ.

(٢) الإسراء: الآية (١٩).

(٣) الطلاق: الآية (٣).

بذلك. وقد جمع هذين المعنيين قوله: ﴿وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ﴾.

وجملة: ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾ في موضع البيان لجملة ﴿وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ﴾ ليبين لهم أن وصيته بأخذ الأسباب مع التنبيه على الاعتماد على الله؛ هو معنى التوكل الذي يضل في فهمه كثير من الناس اقتصارا وإنكارا. ولذلك أتى بجملة ﴿وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾ أمرا لهم ولغيرهم على معنى أنه واجب الحاضرين والغائبين، وأن مقامه لا يختص بالصديقين، بل و واجب كل مؤمن كامل الإيمان، لا يخلط إيمانه بأخطاء الجاهليات»[(١)].

وقال عبدالكريم الخطيب: «والسؤال هنا: ما حكمة هذا النصح الذي نصح لهم به؟ وماذا يكون لو دخلوا مصر من باب واحد؟ لعل أظهر ما في هذه النصيحة من حكمة؛ هي ألا يلفتوا الأنظار إليهم، بهذا الموكب الذي ينتظم أحد عشر أخا في سمت واحد من الجمال والجلال، فذلك من شأنه أن يدير الرؤوس إليهم، وأن تدور الأحاديث عنهم، وتختلف الآراء فيهم، وليس ببعيد أن يكاد لهم من أكثر من جهة: من النساء والرجال، أو من تجار مثلهم، أو من حاشية العزيز نفسه، وقد رأت الحاشية ما كان من العزيز من تلطفه بهم، ومن كيله لهم دون أن يأخذ منهم شيئًا، فما أكثر دوافع الحسد والغيرة في قلوب الناس! وما أكثر ما في قلوب الناس من حسد وغيرة حول السلطان وحاشية السلطان!

وأيا كان الأمر؛ فإنه شعور الأب الذي يتخوف على أبنائه نسمات الريح حين تهب عليهم، فكيف وهم على سفر طويل، وفي يد غربة موحشة قاسية؟ ثم كيف وقد كانت فجيعته في يوسف لا تزال تفري كبده!؟»[(٢)].

وقال محمد العدوي: «يرينا نبي اللّٰه أن تدبير العبد لا يرفع قضاء اللّٰه تعالى، فقد يكون ناقصا لا يفي بالغرض، لأنه تدبير مخلوق محدود في علمه واستعداده.

أما تدبير اللّٰه تعالى فأساسه العلم المحيط، والحكمة العالية، فإذا دبر اللّٰه شيئًا لم يكن إلا ما دبر، أما العبد فقد يدبر، ويأخذ في الأسباب والمقدمات؛ ثم

---

(١) التحرير (١٣/ ٢٠-٢٤).

(٢) التفسير القرآني للقرآن (٧/ ١٩).

لا تحصل النتائج؛ لأنه ترك أسبابا يجهلها، أو أن السبب الذي أتى به ناقص غير تام، وليس المراد أننا ندع الحذر ونترك الأسباب، لأن اللَّه تعالى يقول: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾[١] وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾[٢] بل المراد الرجوع إلى اللَّه تعالى مع الأخذ في الأسباب؛ لأنه الذي يلهم الإنسان كيف يحتاط، ويعلمه كيف يرقى في احتياطه شيئًا فشيئًا، ويتعلم من التجاريب والأحداث ما لم يكن يعلم.

فنبي اللَّه يعقوب يرينا أنه يجب على الإنسان أن يحتاط، ويأخذ في الأسباب، ومع احتياطه يعلم أن احتياطه لا يبطل قضاء اللَّه وقدره، فقد يكون احتياطه من العين مثلا ناقصا، فتأتي العين لنقصان المانع منها، وقد يكون احتياط السليم من عدوى المريض كذلك، لأنه لم يكن على الطريق الذي رسمه أهل الفن وهم الأطباء، ولذلك تأتي العدوى مع الاحتياط لأنه ناقص، وقد يكون آخذا في أسباب الرزق ولكنه جاهل بتلك الأسباب: كرجل يتجر مع جهله بطرق التجارة، فيكون السبب الذي باشره ناقصا، ومن أجل ذلك لم ترتب عليه نتائجه، وقد يعمل الطبيب أو الرجل الكيماوي تجاريب، ولكنها لم تثمر ولم توصل إلى غايتها، لأنها تجاريب ناقصة، وهكذا وهكذا.

وجملة القول: أن يعقوب عليه السلام يطالب بالأخذ في الأسباب، وأن ذلك لا ينافي التوكل على اللَّه تعالى، ويرينا أن هناك ربا هو رب الأسباب والمسببات، وأن علمه هو العلم المحيط، وحكمته هي الحكمة العالية، وأنه إذا دبر شيئًا، وسبق به علمه، وجرى به قضاؤه؛ فإنما يدبره على ذلك الأساس، فلا يستطيع أن يرده أحد، أما المخلوق فهو محدود في علمه محدود في استعداده محدود في تفكيره، فقد يظن السبب مانعا، والمانع سببا، ويرى السبب الناقص كاملا، والضعيف قويا، لذلك يجب أن يستفيد الإنسان دائما من التجاريب، ويطلب المزيد من العلم ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[٣] وليعترف دائما أنه ما أوتي من العلم إلا القليل، وأن ما علمه الإنسان في جانب ما جهله ليس بشيء.

﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ نعم إن الحكم إلا للَّه، فهو

(١) البقرة: الآية (١٩٥).
(٢) النساء: الآية (٧١).
(٣) طه: الآية (١١٤).

المنفذ لأمره متى أراد ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أسندت أموري إليه، وفوضتها له ﴿وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ وعلى كل مؤمن به أن يفوض أموره إليه، فهو الذي يعلم من الأسباب ما لا نعلم فيعلمها لنا، ويعلم من المواقع والعقبات ما خفي عنا فيرشدنا إليها، وذلك هو معنى التوكل، وهو أن تأخذ في الأسباب بقدر استطاعتك، ثم ترجع إليه وتفوض أمورك إليه فيما وراء الأسباب التي تعلمها، وليس التوكل كما يفهمه العامة هو التواكل، وهو أن تدع الأسباب ثم ترجع إلى اللَّه تعالى ليوصلك إلى المسببات، فإن ذلك حمق وسفه، فالذي يدع العمل للرزق، ثم يطلبه من اللَّه، ويزعم أنه متوكل عليه؛ كاذب في دعواه، والذي لا يطلب العلم من طريقه المألوف وهو التعلم، ثم يطلبه من اللَّه لأنه متوكل عليه؛ كاذب كذلك في توكله، لأن طريق العلم هو التعلم. . والذي يرمي بنفسه في أحضان المرضى بدون أن يأخذ لنفسه الحيطة والوقاية من العدوى؛ زاعما أنه متوكل على اللَّه هو جاهل معنى التوكل، والمرأة التي تدع طعامها مكشوفا معرضا للأفاعي والحشرات، ثم تدعي أنها متوكلة على اللَّه كاذبة في دعواها.

والأمثلة في ذلك كثيرة، وهي كلها ترجع إلى الطمع في النتائج بدون مقدمات، والغايات بدون وسائل، وهو طمع مذموم، وتصلح كاذب، وإنما الصلاح الصحيح هو الذي يتفق وسنة اللَّه في ربط الأسباب بمسبباتها»[1].

وفي هذه الآية -يقول القرطبي-: «سبع مسائل:

الأولى: لما عزموا على الخروج خشي عليهم العين؛ فأمرهم ألا يدخلوا مصر من باب واحد، وكانت مصر لها أربعة أبواب! وإنما خاف عليهم العين لكونهم أحد عشر رجلا لرجل واحد؛ وكانوا أهل جمال وكمال وبسطة؛ قاله ابن عباس والضحاك وقتادة وغيرهم.

الثانية: إذا كان هذا معنى الآية؛ فيكون فيها دليل على التحرز من العين، والعين حق؛ وقد قال رسول اللَّه ﷺ: «**إن العين لتدخل الرجل القبر والجمل القدر**»[2]. وفي

(١) دعوة الرسل (ص: ١٣٩-١٤٠).

(٢) أخرجه: القضاعي في مسند الشهاب (٢/ ١٤٠-١٤١/ ١٠٥٧-١٠٥٩) وأبو نعيم في الحلية (٧/ ٩٠) وصححه الشيخ الألباني في الصحيحة (٣/ ٢٥٠/ ١٢٤٩) من حديث جابر بن عبد اللَّه ﷺ.

تعوذه ﷺ: «أعوذ بكلمات اللّٰه التامة، من كل شيطان وهامة، ومن كل عين لامة»[1]؛ ما يدل على ذلك. وروى مالك عن محمد بن أبي أمامة بن سهل بن حنيف أنه سمع أباه يقول: اغتسل أبي سهل بنُ حنيف بالخرّار، فنزع جبة كانت عليه، وعامر بن ربيعة ينظر، قال: وكان سهل رجلًا أبيض حسن الجلد، قال: فقال له عامر بن ربيعة: ما رأيت كاليوم ولا جلد عذراء! فوعك سهل مكانه واشتد وعكه، فأتى رسول اللّٰه ﷺ فأخبر أن سهلا وعك، وأنه غير رائح معك يا رسول الله؛ فأتاه رسول اللّٰه ﷺ، فأخبره سهل بالذي كان من شأن عامر؛ فقال رسول اللّٰه ﷺ: «علام يقتل أحدكم أخاه؟ ألا بركت، إن العين حق، توضأ له»[2] فتوضأ عامر، فراح سهل مع رسول اللّٰه ﷺ ليس به بأس؛ في رواية: «اغتسل» فغسل له عامر وجهه ويديه ومرفقيه وركبتيه وأطراف رجليه وداخل إزاره في قدح ثم صب عليه؛ فراح سهل مع رسول اللّٰه ﷺ ليس به بأس. وركب سعد بن أبي وقاص يوما فنظرت إليه امرأة فقالت: إن أميركم هذا ليعلم أنه أهضم الكشحين؛ فرجع إلى منزله فسقط، فبلغه ما قالت المرأة، فأرسل إليها فغسلت له؛ ففي هذين الحديثين؛ أن العين حق، وأنها تقتل كما قال النبي ﷺ. وهذا قول علماء الأمة، ومذهب أهل السنة؛ وقد أنكرته طوائف من المبتدعة، وهم محجوجون بالسنة وإجماع علماء هذه الأمة، وبما يشاهد من ذلك في الوجود؛ فكم من رجل أدخلته العين القبر، وكم من جمل ظهير أدخلته القدر، لكن ذلك بمشيئة اللّٰه تعالى كما قال: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[3].

الثالثة: واجب على كل مسلم أعجبه شيء أن يبرك؛ فإنه إذا دعا بالبركة صرف المحذور لا محالة؛ ألا ترى قوله ﷺ لعامر: «ألا برّكت» فدل على أن العين لا تضر ولا تعدو إذا برك العائن، وأنها إنما تعدو إذا لم يبرك. والتبريك أن يقول:

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٢٣٦) والبخاري (٦/ ٥٠٣/ ٣٣٧١) وأبو داود (٥/ ١٠٤-١٠٥/ ٤٧٣٧) والترمذي (٤/ ٣٤٦-٣٤٧/ ٢٠٦٠) والنسائي في الكبرى (٦/ ٢٥٠/ ١٠٨٤٤) وابن ماجه (٢/ ١١٦٤-١١٦٥/ ٣٥٢٥) من حديث ابن عباس ﷺ.

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ٤٨٦) والنسائي في الكبرى (٦/ ٦٠/ ١٠٠٣٦) وصححه ابن حبان (١٣/ ٤٧٠/ ٦١٠٦) والحاكم (٤/ ٢١٥-٢١٦) ووافقه الذهبي.

(٣) البقرة: الآية (١٠٢).

تبارك اللَّه أحسن الخالقين! اللهم بارك فيه.

الرابعة: العائن إذا أصاب بعينه ولم يبرك فإنه يؤمر بالاغتسال، ويجبر على ذلك إن أباه؛ لأن الأمر على الوجوب، لاسيما هذا؛ فإنه قد يخاف على المعين الهلاك، ولا ينبغي لأحد أن يمنع أخاه ما ينتفع به أخوه ولا يضره هو، ولا سيما إذا كان بسببه وكان الجاني عليه»[(١)].

قال أبو عمر: «وأحسن شيء في تفسير الاغتسال للمعين؛ ما وصفه الزهري -وهو راوي الحديث- . . : إن هذا من العلم، يغتسل له الذي عانه؛ يؤتى بقدح من ماء فيدخل يده في القدح، فيمضمض ويمجه في القدح، ويغسل وجهه في القدح، ثم يصب بيده اليسرى على كفه اليمنى، ثم بكفه اليمنى على كفه اليسرى، ثم يدخل يده اليسرى فيصب بها على مرفق يده اليمنى، ثم بيده اليمنى على مرفق يده اليسرى، ثم يغسل قدمه اليمنى ثم يدخل اليمنى، فيغسل قدمه اليسرى ثم يدخل يده اليمنى، فيغسل الركبتين، ثم يأخذ داخلة إزاره فيصب على رأسه صبة واحدة، ولا يضع القدح حتى يفرغ»[(٢)].

قال ابن القيم: «والمقصود أن غسلها بالماء يطفئ تلك النارية، ويذهب بتلك السمية، وفيه أمر آخر وهو وصول أثر الغسل إلى القلب من أرق المواضع وأسرعها تنفيذا، فيطفئ تلك النارية والسمية بالماء فيشفى المعين، وهذا كما أن ذوات السموم إذا قتلت بعد لسعها خف أثر اللسعة عن الملسوع ووجد راحة، فإن أنفسها تمد أذاها بعد لسعها وتوصله إلى الملسوع، فإذا قتلت خف الألم، وهذا مشاهد. وإن كان من أسبابه فرح الملسوع، واشتفاء نفسه بقتل عدوه فتقوى الطبيعة على الألم فتدفعه. وبالجملة؛ غسل العائن يذهب تلك الكيفية التي ظهرت منه، وإنما ينفع غسله عند تكيف نفسه بتلك الكيفية. فإن قيل: فقد ظهرت مناسبة الغسل، فما مناسبة صب ذلك الماء على المعين؟ قيل: هو في غاية المناسبة؛ فإن ذلك الماء ماء طفئ به تلك النارية، وأبطل تلك الكيفية الرديئة من الفاعل، فكما طفئت به النارية القائمة بالفاعل؛ طفئت به وأبطلت عن المحل المتأثر بعد ملابسته للمؤثر العائن،

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٩/ ٢٢٦-٢٢٧).

(٢) فتح البر (٦/ ٢٩٠).

والماء الذي يطفأ به الحديد يدخل في أدوية عدة طبيعية ذكرها الأطباء! فهذا الذي طفئ به نارية العائن لا يستنكر أن يدخل في دواء يناسب هذا الداء. وبالجملة فطب الطبائعية وعلاجهم بالنسبة إلى العلاج النبوي كطب الطرقية بالنسبة إلى طبهم بل أقل، فإن التفاوت الذي بينهم وبين الأنبياء؛ أعظم وأعظم من التفاوت الذي بينهم وبين الطرقية، بما لا يدرك الإنسان مقداره، فقد ظهر لك عقد الإخاء الذي بين الحكمة والشرع، وعدم مناقضة أحدهما للآخر. واللَّه يهدي من يشاء إلى الصواب، ويفتح لمن أدام قرع باب التوفيق منه كل باب، وله النعمة السابغة، والحجة البالغة»[1].

قال القرطبي: «الخامسة: من عرف بالإصابة بالعين منع من مداخلة الناس دفعا لضرره؛ وقد قال بعض العلماء: يأمره الإمام بلزوم بيته؛ وإن كان فقيرا رزقه ما يقوم به، ويكف أذاه عن الناس. وقد قيل: إنه ينفى؛ وحديث مالك الذي ذكرناه يرد هذه الأقوال؛ فإنه ﷺ لم يأمر في عامر بحبس ولا بنفي، بل قد يكون الرجل الصالح عائنا، وأنه لا يقدح فيه ولا يفسق به؛ ومن قال: يحبس ويؤمر بلزوم بيته؛ فذلك احتياط ودفع ضرر، واللَّه أعلم.

السادسة: روى مالك عن حميد بن قيس المكي أنه قال: دخل على رسول اللَّه ﷺ بابني جعفر بن أبي طالب فقال لحاضنتهما: «**ما لي أراهما ضارعين**» فقالت حاضنتهما: يا رسول الله! إنه تسرع إليهما العين، ولم يمنعنا أن نسترقي لهما إلا أنا لا ندري ما يوافقك من ذلك؟ فقال رسول اللَّه ﷺ: «**استرقوا لهما فإنه لو سبق شيء القدر سبقته العين**»[2]. وهذا الحديث منقطع، ولكنه محفوظ لأسماء بنت عميس الخثعمية عن النبي ﷺ من وجوه ثابتة متصلة صحاح[3]؛ وفيه أن الرقى مما يستدفع به البلاء، وأن العين تؤثر في الإنسان وتضرعه؛ أي: تضعفه وتنحله؛ وذلك بقضاء اللَّه تعالى وقدره. ويقال: إن العين أسرع إلى الصغار منها إلى الكبار، واللَّه أعلم.

السابعة: أمر ﷺ في حديث أبي أمامة العائن بالاغتسال للمعين، وأمر هنا

(١) زاد المعاد (٤/ ١٧٢).

(٢) أخرجه: مالك في الموطأ (٢/ ٩٣٩-٩٤٠) مرسلا.

(٣) أخرجه: أحمد (٦/ ٤٣٨) والترمذي (٤/ ٣٤٦/ ٢٠٥٩) وقال: «حسن صحيح». وابن ماجه (٢/ ١١٦٠/ ٣٥١٠) والنسائي في الكبرى (٤/ ٣٦٥/ ٧٥٣٧) من حديث أسماء بنت عميس ﵂.

بالاسترقاء؛ قال علماؤنا: إنما يسترقى من العين إذا لم يعرف العائن؛ وأما إذا عرف الذي أصابه بعينه؛ فإنه يؤمر بالوضوء على حديث أبي أمامة، والله أعلم»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن العين حق ووجوب الاحتراز منها

* عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**العين حق ونهى عن الوشم**»[٢].

★ **غريب الحديث:**

الوشم: الوشم بفتح الواو وسكون المعجمة: أن يغرز إبرة أو نحوها في موضع من البدن حتى يسيل الدم، ثم يحشى ذلك الموضع بالكحل أو نحوه فيخضر.

★ **فوائد الحديث:**

في هذا الحديث من الفقه أن العين حق، وأنها تؤثر. قال القرطبي رحمه الله: «وهذا قول علماء الأمة، ومذهب أهل السنة؛ وقد أنكرته طوائف من المبتدعة، وهم محجوجون بالسنة وإجماع علماء هذه الأمة، وبما يشاهد من ذلك في الوجود؛ فكم من رجل أدخلته العين القبر، وكم من جمل ظهير أدخلته القِدر، لكن ذلك بمشيئة الله تعالى كما قال: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[٣]»[٤].

قال الشوكاني: «وقد أنكر بعض المعتزلة كأبي هاشم والبلخي: أن للعين تأثيرا، وقالا: لا يمتنع أن صاحب العين إذا شاهد الشيء وأعجب به كانت المصلحة له في تكليفه أن يغير الله ذلك الشيء، حتى لا يبقى قلب ذلك المكلف معلقا به. وليس هذا بمستنكر من هذين وأتباعهما، فقد صار دفع أدلة الكتاب والسنة بمجرد الاستبعادات العقلية دأبهم ودينهم، وأي مانع من إصابة العين بتقدير الله سبحانه لذلك؟ وقد وردت الأحاديث الصحيحة بأن العين حق، وأصيب بها جماعة في عصر النبوة، ومنهم رسول الله ﷺ. وأعجب من إنكار هؤلاء لما وردت

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٩/ ٢٢٦-٢٢٨).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٣١٩)، والبخاري (١٠/ ٢٤٩/ ٥٧٤٠)، ومسلم (٤/ ١٧١٩/ ٢١٨٧)، وأبو داود (٤/ ٢١٠/ ٣٨٧٩).

(٣) البقرة: الآية (١٠٢).

(٤) الجامع لأحكام القرآن (٩/ ٢٢٦-٢٢٧).

به نصوص هذه الشريعة؛ ما يقع من بعضهم من الإزراء على من يعمل بالدليل المخالف، لمجرد الاستبعاد العقلي والتنطع في العبارات كالزمخشري في تفسيره، فإنه في كثير من المواطن لا يقف على دفع دليل الشرع بالاستبعاد الذي يدعيه على العقل؛ حتى يضم إلى ذلك الوقاحة في العبارة على وجه يوقع المقصرين في الأقوال الباطلة والمذاهب الزائفة. وبالجملة: فقول هؤلاء مدفوع بالأدلة المتكاثرة، وإجماع من يعتد به من هذه الأمة سلفا وخلفا، وبما هو مشاهد في الوجود، فكم من شخص من هذا النوع الإنساني وغيره من أنواع الحيوان هلك بهذا السبب»[١].

وستأتي تتمة الموضوع عند تفسير الآيتين (٥١و٥٢) من سورة (القلم).

* * *

(١) فتح القدير (٣/ ٥٧).

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشوكاني: «﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم﴾ أي: من الأبواب المتفرقة ولم يجتمعوا داخلين من باب واحد، وجواب لما ﴿مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم﴾ ذلك الدخول ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: من جهته ﴿مِن شَىْءٍ﴾ من الأشياء مما قدره اللَّه عليهم؛ لأن الحذر لا يدفع القدر، والاستثناء بقوله: ﴿إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا﴾ منقطع؛ والمعنى: ولكن حاجة كانت في نفس يعقوب. وهي شفقته عليهم ومحبته لسلامتهم قضاها يعقوب: أي أظهرها لهم ووصاهم بها غير معتقد أن للتدبير الذي دبره لهم تأثيرا في دفع ما قضاه اللَّه عليهم. وقيل: إنه خطر ببال يعقوب أن الملك إذا رآهم مجتمعين مع ما يظهر فيهم من كمال الخلقة، وسيما الشجاعة؛ أوقع بهم حسدا وحقدا أو خوفا منهم، فأمرهم بالتفرق لهذه العلة. وقد اختار هذا النحاس وقال: لا معنى للعين ههنا. وفيه: أن هذا لو كان هو السبب؛ لأمرهم بالتفرق ولم يختص النهي عن ذلك بالاجتماع عند الدخول من باب واحد، لأن هذا الحسد أو الخوف يحصل باجتماعهم داخل المدينة، كما يحصل باجتماعهم عند الدخول من باب واحد. وقيل: إن الفاعل في قضاها ضمير يعود إلى الدخول لا إلى يعقوب. والمعنى: ما كان الدخول يغني عنهم من جهة اللَّه شيئًا، ولكنه قضى ذلك الدخول حاجة في نفس يعقوب لوقوعه حسب إرادته ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ أي: وإن يعقوب لصاحب علم لأجل تعليم اللَّه إياه بما أوحاه اللَّه من أن الحذر لا يدفع القدر، وأن ما قضاه اللَّه سبحانه فهو كائن لا محالة ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

بذلك كما ينبغي. وقيل: لا يعلمون أن الحذر مندوب إليه، وإن كان لا يغني من القدر شيئًا، والسياق يدفعه. وقيل: المراد بأكثر الناس: المشركون»[1].

وقال العدوي: «أي: إن إخوة يوسف أطاعوا والدهم، ودخلوا المدينة متفرقين لا مجتمعين، ولكن ذلك الاحتياط الذي أمرهم به أبوهم؛ لم يدفع عنهم السوء المدخر لهم وهو اتهامهم بالسرقة، وأخذ أخيهم بسبب أن صواع الملك وجد في رحله، فيعقوب كان تفكيره متجها إلى ناحية، وقضاء اللَّه كان متجها إلى ناحية أخرى، لنعلم كما قدمنا أن تفكير العبد محدود، وتدبيره لا يمكن أن يصل إلى تدبير الإله.

وتأمل نصيحة يعقوب لأولاده وقوله لهم: ﴿لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ﴾ وقد صنعوا بأخيهم يوسف ما صنعوا، لتعلم مقدار شفقة الآباء على الأبناء، وأن إساءة الأبناء للآباء لا تنزع الشفقة منهم، ولاسيما إذا كان مصدرها حسد البعض للبعض، وحرص الحاسد على أن يخلو له وجه المحسود، كما يحب الزوج الضرتين وهما يتناحران للاستئثار بمحبته، ويتقاتلان للوصول إلى مرضاته، فيعقوب ﷺ لم تهاوده نفسه على التفريط في أبنائه، وقد حصل منهم ما حصل؛ لأنه عاقل يعلم أن الحسد قد يبلغ بالنفوس إلى مثل ما بلغ بالإخوة، وإلى أكثر من ذلك، ويرينا أنه ينبغي للآباء أن تكون من سعة الصدر وتغليب الرحمة على الغلظة، كما كان يعقوب مع بنيه، ينصح لهم بأن لا يدخلوا المدينة من باب واحد.

﴿إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَاۚ﴾ أي: إن يعقوب ما كان ليرد عن أولاده ما ادخر لهم من حادث السرقة، ولكن حاجة في نفس يعقوب أظهرها ووصى بها، وهي دعوة بنيه إلى الأخذ في الأسباب والاحتياط؛ لأن ذلك هو الذي يجب على المؤمن أن يأخذ حذره جهد الطاقة، ثم يفوض الأمر بعد ذلك إلى اللَّه تعالى، ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٖ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ أي: إن يعقوب ﷺ لصاحب علم بسبب تعليم اللَّه له، ومن علمه الذي علمه له أن يأخذ في الأسباب، ويعتقد بعد ذلك أن احتياط العبد لا يغير شيئًا من قضاء اللَّه تعالى، إذا كان قد سبق في علمه شيء وراء ما قدر العبد ودبر، وذلك هو التوكل الصحيح: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ هذه الحكمة العالية

(١) فتح القدير (٣/ ٥٨).

والعلم الصحيح، فمنهم الأبله الذي يدع الأسباب جانبا ويعيش بجهله وحمقه ويزعم أنه متوكل على اللَّه، ومنهم الملحد الذي ينكر أن هناك إلها قدرته فوق القُدَر، ومشيئته فوق كل مشيئة، ويرى أن الأسباب التي وصلنا إليها هي كل شيء، وأن النتائج منوطة بها وجودا وعدما، ولو فكروا قليلا فيما حولهم من حوادث، وما يحيط بهم من عوالم؛ لعرفوا أن الإنسان قد يريد الخير ويعمل له فيكون الشر، وقد يريد الشر بأحد من الناس ويدبر له فيكون الخير، كما حصل ليوسف وإخوته، وقد يريد نفع صديق فيضره، أو إنقاذ مظلوم فيزيده ظلما إلى ظلمه، كل ذلك أدلة واضحة على أن هناك إرادة وراء إرادة الإنسان، وتدبيرا فوق تدبيره، وأن الركون إلى الأسباب الظاهرة، واعتقاد أنها الكل في الكل؛ من الخطأ الفاحش»[1].

وقال ابن عاشور: «وقد أغنت جملة ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم﴾ عن جمل كثيرة، وهي أنهم ارتحلوا ودخلوا من حيث أمرهم أبوهم، ولما دخلوا من حيث أمرهم سلموا مما كان يخافه عليهم. وما كان دخولهم من حيث أمرهم يغني عنهم من اللَّه من شيء لو قدر اللَّه أن يحاط بهم، فالكلام إيجاز. . والمعنى أن اللَّه أمر يعقوب عليه السلام بأخذ أسباب الاحتياط والنصيحة؛ مع علمه بأن ذلك لا يغني عنهم من اللَّه من شيء قدره لهم. فإن مراد اللَّه تعالى خفي عن الناس. وقد أمر بسلوك الأسباب المعتادة. وعلم يعقوب عليه السلام ذلك. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، تطلب الأمرين فيهملون أحدهما. فمنهم من يهمل معرفة أن الأسباب الظاهرية لا تدفع أمرا قدره اللَّه وعلم أنه واقع، ومنهم من يهمل الأسباب وهو لا يعلم أن اللَّه أراد في بعض الأحوال عدم تأثيرها.

وقد دل قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ بصريحه على أن يعقوب عليه السلام عمل بما علمه اللَّه. ودل قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ بتعريضه على أن يعقوب عليه السلام من القليل من الناس الذين علموا مراعاة الأمرين، ليتقرر الثناء على يعقوب عليه السلام باستفادته من الكلام مرتين: مرة بالصراحة، ومرة بالاستدراك.

والمعنى: أن أكثر الناس في جهالة عن وضع هاته الحقائق موضعها، ولا يخلون عن مضيع لإحداهما. ويفسر هذا المعنى قول عمر بن الخطاب رضي

---

(١) دعوة الرسل (ص: ١٤٠-١٤١).

اللَّه عنه، لما أمر المسلمين بالقفول عن عمواس لما بلغه ظهور الطاعون بها وقال له أبو عبيدة: أفرارا من قدر الله؟ فقال عمر رضي الله عنه: «لو غيرك قالها يا أبا عبيدة! ألسنا نفر من قدر اللَّه إلى قدر الله؟»[1]. . إلى آخر الخبر»[2].

* * *

(١) أخرجه: أحمد (١/ ١٩٤) والبخاري (١٠/ ٢٢٠/ ٥٧٢٩) ومسلم (٤/ ١٧٤٠-١٧٤١/ ٢١٠٣) والنسائي في الكبرى (٤/ ٣٦٢/ ٧٥٢١) من حديث عبد اللَّه بن عباس رضي الله عنهما.

(٢) التحرير والتنوير (١٣/ ٢٤-٢٦).

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يخبر تعالى عن إخوة يوسف، لما قدموا على يوسف ومعهم أخوه شقيقه بنيامين، وأدخلهم دار كرامته ومنزل ضيافته، وأفاض عليهم الصلة والإلطاف والإحسان، واختلى بأخيه فأطلعه على شأنه وما جرى له، وعرفه أنه أخوه، وقال له: لا تبتئس؛ أي: لا تأسف على ما صنعوا بي، وأمره بكتمان ذلك عنهم، وأن لا يطلعهم على ما أطلعه عليه من أنه أخوه، وتواطأ معه أنه سيحتال على أن يبقيه عنده معززا مكرما معظما»[1].

قال البقاعي: «ولما أخبر تعالى عن دخولهم إلى البلد، أخبر عن دخولهم لحاجتهم إلى يوسف عليه الصلاة والسلام فقال: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا﴾ أي: بنوه عليه الصلاة والسلام ﴿عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ في هذه القدمة الثانية ﴿آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ شقيقه بنيامين بعد أن قالوا له: هذا أخونا الذي أمرتنا به قد أحضرناه، فقال: أصبتم، وستجدون ذلك عندي؛ والإيواء: ضم النفس بالتصيير إلى موضع الراحة، وسبب إيوائه إليه أنه أمر كل اثنين منهم أن يأكلوا على حدة، فبقي بنيامين بلا ثان، فقال: هذا يأكل معي، ثم قال ليلا: وكل اثنين منكم في بيت من خمسة أبيات أفردها لهم، وهذا الوحيد يكون معي في بيتي، وهذا التفريق موافق لما أمرهم به أبوهم في تفريق الدخول، فكأنه قيل: ماذا قال له؟ هل أعلمه بنفسه أو كتم ذلك عنه كما فعل بسائر إخوته؟ فقيل: بل ﴿قَالَ﴾ معلما له، لأنه لا سبب يقتضى الكتم عنه كما سيأتي بيانه. مؤكدا لما للأخ من إنكاره لطول غيبته وتغير أحواله وقطع الرجاء منه: ﴿إِنِّي أَنَا أَخُوكَ﴾: يوسف؛ ثم سبب عن ذلك قوله: ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ أي: تجتلب البؤس،

---

(١) التفسير (٤/ ٣٨).

وهو الكراهة والحزن ﴿بِمَا كَانُوا۟﴾ أي: سائر الإخوة، كونا هم راسخون فيه ﴿يَعْمَلُونَ﴾ مما يسوؤنا، وإن زعموا أنهم بنوا ذلك العمل على علم، وقد جمعنا الله على خير ما يكون عليه الاجتماع، ولا تعلمهم بشيء من ذلك»[١].

وقال العدوي: «وهي بشارة ما أبردها على قلب أخيه، فتى فقده أبوه منذ سنين، ولم يوقف له على خبر، فيتلقى بشارته به، وهي بشارة مع معاينة وحضور، ولا يستطيع الكاتب أن يصور مقدار ما يحس به أخو يوسف من السرور في ذلك الوقت، ومن لطف الله به أنه لم يكن سرورا قاتلا؛ لأنه سرور مفاجئ، ولو كان سرورا بوجود الأخ الغائب لكان محدودا، ولكنه سرور بوجود أخ غائب، وإن ذلك الأخ أصبح عزيزا لمصر، وصاحب الأمر والنهي.

ولعل قوله: ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ تذكير له بما فعله الإخوة ليعلم أنه يوسف حقا، فقد يخفى عليه يوسف كما خفي على إخوته، لأنه فارقه صغيرًا فتغير بالكبر، ولأن ملابس الملك من شأنها أن تلبس على الرائي، فأراد يوسف أن يطلعه على قصته على وجه مجمل؛ ليطمئن إلى هذه البشارة، ذلك من ناحية، ومن ناحية أخرى ليكون ذلك تمهيدا لما يصنع به يوسف من جعل السقاية في رحله، ونسبته إلى السرقة في بادئ الرأي، ولو أنه جعل السقاية في رحله قبل أن يخبره أنه أخوه؛ لفزع من ذلك العمل، واعتقد أنه تدبير يراد به سوء، ولكن تقديم هذه البشارة، وتذكيره بما فعله إخوته، وتطمينه من هذه الجهة؛ جعله في مأمن من إرادة السوء به»[٢].

* * *

(١) نظم الدرر (١٠/ ١٦٧-١٦٨).

(٢) دعوة الرسل (ص: ١٤١-١٤٢).

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال العدوي: «السقاية هي المشربة التي كان يشرب بها الملك، وهي الصواع، يقال: إنها كانت لسقاية الملك، ثم جعلت صاعا يكال به، فإن صح ذلك كان هذا دليلا على عزة الطعام، وأنه لعزته يكال بكيل حقير ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ نادى مناد وأعلم معلم ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾ العير القافلة، وهي اسم الإبل التي يحمل عليها الأحمال فسمي بها أصحابها.

قيل: إن ذلك التأذين لم يكن بإذن يوسف، وإنما الذي صنعه هو أنه جعل السقاية في رحل أخيه، فلما طلبها الفتيان ليكيلوا بها لم يجدوها، ولم يكن هناك أجنبي سوى الإخوة، فظنوا أنهم هم الذين سرقوها في متاعهم. وقيل: إن ذلك التأذين كان بأمر يوسف، وقول المؤذن: ﴿إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾ تعريض بسرقتهم يوسف من أبيه وإلقائه في الجب، وتضليله بأن الذئب أكله، ووضع الدم الكذب على قميصه، والتعريض لا يعد كذبا كما في قول إبراهيم للنمروذ (هذه أختي)، والمراد أنها أخته في الدين والملة، وإن كانت زوجا له.

وقيل: إن هذه الصيغة ليست صيغة خبر، وإنما هي صيغة استفهام على حذف الهمزة: أي هل سرقتم الصواع؟ فهي جملة إنشائية، والإنشاء لا يقال فيه صدق ولا كذب.

وسواء كانت الجملة استفهاما أو خبرا أريد به التعريض بما فعلوا مع يوسف، أو من عمل الفتيان؛ فقد فهم الإخوة منها أنها نسبت إليهم أمرا لا يليق بهم، لذلك قالوا

بعد أن أقبلوا على الفتيان إقبال دهشة واستغراب ﴿مَّاذَا تَفْقِدُونَ ۝ قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ أي: قالوا لهم نفقد مشربة الملك، أو الكيل الذي نكيل به الطعام، ولمن جاء به حمل بعير من الطعام، لأنه كان أهم شيء عندهم، وأنا به زعيم: أي كفيل بأن أوديه إلى من رده»[1].

وقال ابن كثير: «لما جهزهم وحمل لهم أبعرتهم طعاما، أمر بعض فتيانه أن يضع السقاية، وهي إناء من فضة في قول الأكثرين، وقيل: من ذهب؛ قاله ابن زيد، كان يشرب فيه، ويكيل للناس به من عزة الطعام إذ ذاك، قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك وعبدالرحمن بن زيد. وقال شعبة عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: صواع الملك، قال: كان من فضة يشربون فيه، وكان مثل المكوك، وكان للعباس مثله في الجاهلية. فوضعها في متاع بنيامين من حيث لا يشعر أحد، ثم نادى مناد بينهم ﴿أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ فالتفتوا إلى المنادي وقالوا: ﴿مَّاذَا تَفْقِدُونَ ۝ قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ﴾ أي: صاعه الذي يكيل به ﴿وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ وهذا من باب الجعالة، ﴿وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ وهذا من باب الضمان والكفالة»[2].

وقال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ أي: نادى مناد وأعلم و﴿أَذَّنَ﴾ للتكثير؛ فكأنه نادى مرارا ﴿أَيَّتُهَا الْعِيرُ﴾. والعير ما امتير عليه من الحمير والإبل والبغال. قال مجاهد: كان عيرهم حميرا. قال أبو عبيدة: العير الإبل المرحولة المركوبة؛ والمعنى: يا أصحاب العير، كقوله: ﴿وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ﴾ ويا خيل الله اركبي: أي يا أصحاب خيل الله، وسيأتي. وهنا اعتراضان:

الأول: إن قيل: كيف رضي بنيامين بالقعود طوعا وفيه عقوق الأب بزيادة الحزن، ووافقه على ذلك يوسف؟ وكيف نسب يوسف السرقة إلى إخوته وهم براء وهو الثاني.

فالجواب عن الأول: أن الحزن كان قد غلب على يعقوب بحيث لا يؤثر فيه فقد

---

(١) دعوة الرسل (ص: ١٤٢).

(٢) التفسير (٤/ ٣٩).

بنيامين كل التأثير، أو لا تراه لما فقده قال: ﴿يَٰأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ ولم يعرج على بنيامين؛ ولعل يوسف إنما وافقه على القعود بوحي؛ فلا اعتراض. وأما نسبة يوسف السرقة إلى إخوته؛ فالجواب: أن القوم كانوا قد سرقوه من أبيه فألقوه في الجب، ثم باعوه؛ فاستحقوا هذا الاسم بذلك الفعل، فصدق إطلاق ذلك عليهم.

جواب آخر: وهو أنه أراد أيتها العير حالكم حال السراق؛ والمعنى: إن شيئًا لغيركم صار عندكم من غير رضا الملك ولا علمه.

جواب آخر: وهو أن ذلك كان حيلة لاجتماع شمله بأخيه، وفصله عنهم إليه، وهذا بناء على أن بنيامين لم يعلم بدس الصاع في رحله، ولا أخبره بنفسه. وقد قيل: إن معنى الكلام الاستفهام؛ أي: أو إنكم لسارقون؟ كقوله: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ﴾[1] أي: أو تلك نعمة تمنها علي؟ والغرض ألا يعزى إلى يوسف ﷺ الكذب»[2].

وقال القاسمي: «قال في (الإكليل): في الآية دليل على جواز الحيلة في التوصل إلى المباح، وما فيه الغبطة والصلاح، واستخراج الحقوق.

قال ابن العربي: وفي إطلاق السرقة عليهم -وليسوا بسارقين- جواز دفع الضرر بضرر أقل منه»[3].

وقال القرطبي: «قال بعض العلماء: في هذه الآية دليلان:

أحدهما: جواز الجعل، وقد أجيز للضرورة، فإنه يجوز فيه من الجهالة ما لا يجوز في غيره؛ فإذا قال الرجل: من فعل كذا فله كذا صح. وشأن الجعل أن يكون أحد الطرفين معلوما، والآخر مجهولا للضرورة إليه؛ بخلاف الإجارة؛ فإنه يتقدر فيها العوض والمعوض من الجهتين؛ وهو من العقود الجائزة التي يجوز لأحدهما فسخه؛ إلا أن المجعول له يجوز أن يفسخه قبل الشروع وبعده، إذا رضي بإسقاط حقه، وليس للجاعل أن يفسخه إذا شرع المجعول له في العمل. ولا يشترط في عقد الجعل حضور المتعاقدين، كسائر العقود؛ لقوله: ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ وبهذا كله قال الشافعي.

(١) الشعراء: الآية (٢٢).
(٢) الجامع لأحكام القرآن (٩/ ٢٣٠-٢٣١).
(٣) محاسن التأويل (٩/ ٢٥٨).

. . متى قال الإنسان، من جاء بعبدي الآبق فله دينار؛ لزمه ما جعله فيه إذا جاء به؛ فلو جاء به من غير ضمان لزمه إذا جاء به على طلب الأجرة؛ وذلك أن النبي ﷺ قال: «من جاء بآبق فله أربعون درهما»[١] ولم يفصل بين من جاء به من عقد ضمان أو غير عقد. قال ابن خويزمنداد: ولهذا قال أصحابنا: إن من فعل بالإنسان ما يجب عليه أن يفعله بنفسه من مصالحه لزمه ذلك، وكان له أجر مثله إن كان ممن يفعل ذلك بالأجر.

قلت: وخالفنا في هذا كله الشافعي»[٢].

وقال أبو عمر: «الأصل في جواز الجعل قول اللّه ﷻ: ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٖ﴾ وما أجمع عليه الجمهور من جواز الجعل في الإتيان بالآباق والضوال. وكذلك إذا قال له: إن بعت لي سلعتي هذه بكذا؛ فلك كذا، وإلا فلا شيء لك؛ لأن عمله ونصبه وتعبه في طلب ذلك الثمن في السلعة كنصبه في طلب الآبق والضالة، فإن وجده حصل على ما جعل له، وإلا فلا»[٣].

قال الرازي: «وهذه الآية تدل على أن الكفالة كانت صحيحة في شرعهم، وقد حكم بها رسول اللّه ﷺ في قوله: «**الزعيم غارم**»[٤]. فإن قيل: هذه كفالة بشيء مجهول؟ قلنا: حمل بعير من الطعام كان معلوما عندهم، فصحت الكفالة به إلا أن هذه كفالة مال لرد سرقة، وهو كفالة بما لم يجب لأنه لا يحل للسارق أن يأخذ شيئًا على رد السرقة، ولعل مثل هذه الكفالة كانت تصح عندهم»[٥].

---

(١) أخرجه: البيهقي في السنن (٦/ ٢٠٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما بلفظ: «قضى رسول اللّه ﷺ في العبد الآبق يوجد في الحرم بعشرة دراهم». وقال: فهذا ضعيف. والمحفوظ حديث ابن جريج عن ابن أبي مليكة وعمرو بن دينار قالا: «جعل رسول اللّه ﷺ في الآبق يوجد خارجا من الحرم عشرة دراهم». وقال فيه: وذلك منقطع. وأقره في الإرواء (٦/ ١٤). وأخرجه بلفظ: (أربعين درهما) موقوفا على ابن مسعود رضي الله عنه: عبد الرزاق في المصنف (٨/ ٢٠٨/ ١٤٩١١) وابن أبي شيبة (٤/ ٤٤٢/ ٢١٩٤٠) والطبراني في الكبير (٩/ ٢١٩/ ٩٠٦٦) والبيهقي في الكبرى (٦/ ٢٠٠) وذكره الهيثمي في المجمع (٤/ ١٧١) وقال: «وفيه أبو رباح ولم أعرفه وبقية رجاله رجال الصحيح».

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٩/ ٢٣٢). (٣) بغية المستفيد (٥/ ٣١٩).

(٤) أخرجه: أحمد (٥/ ٢٦٧) وأبو داود (٣/ ٨٢٤-٨٢٥/ ٣٥٦٥) والترمذي (٣/ ٥٦٥/ ١٢٦٥) وقال: «حديث حسن غريب»، والنسائي في الكبرى (٣/ ٤١١/ ٥٧٨٢) وابن ماجه (٢/ ٨٠١-٨٠٢/ ٢٣٩٨) وصححه ابن حبان (١١/ ٤٩١/ ٥٠٩٤) والألباني في صحيح السنن، من حديث أبي أمامة رضي الله عنه.

(٥) تفسير الرازي (١٨/ ١٨٣).

قال القرطبي: «الدليل الثاني: جواز الكفالة على الرجل؛ لأن المؤذن الضامن هو غير يوسف ﷺ، قال علماؤنا: إذا قال الرجل تحملت أو تكفلت أو ضمنت أو وأنا حميل لك أو زعيم أو كفيل أو ضامن أو قبيل، أو هو لك عندي أو علي أو إلي أو قبلي؛ فذلك كله حمالة لازمة، وقد اختلف الفقهاء فيمن تكفل بالنفس أو بالوجه، هل يلزمه ضمان المال أم لا؟ فقال الكوفيون: من تكفل بنفس رجل لم يلزمه الحق الذي على المطلوب إن مات؛ وهو أحد قولي الشافعي في المشهور عنه. وقال مالك والليث والأوزاعي: إذا تكفل بنفسه وعليه مال؛ فإنه إن لم يأت به غرم المال، ويرجع به على المطلوب؛ فإن اشترط ضمان نفسه أو وجهه وقال: لا أضمن المال فلا شيء عليه من المال؛ والحجة لمن أوجب غرم المال أن الكفيل قد علم أن المضمون وجهه لا يطلب بدم، وإنما يطلب بمال؛ فإذا ضمنه له ولم يأته به فكأنه فوته عليه، وعزه منه؛ فلذلك لزمه المال. واحتج الطحاوي للكوفيين فقال: أما ضمان المال بموت المكفول به فلا معنى له؛ لأنه إنما تكفل بالنفس ولم يتكفل بالمال، فمحال أن يلزمه ما لم يتكفل به.

.. واختلف العلماء إذا تكفل رجل عن رجل بمال؛ هل للطالب أن يأخذ من شاء منهما؟ فقال الثوري والكوفيون والأوزاعي والشافعي وأحمد وإسحاق: يأخذ من شاء حتى يستوفي حقه؛ وهذا كان قول مالك ثم رجع عنه فقال: لا يؤخذ الكفيل إلا أن يفلس الغريم أو يغيب؛ لأن التبدية بالذي عليه الحق أولى، إلا أن يكون معدما فإنه يؤخذ من الحميل، لأنه معذور في أخذه في هذه الحالة؛ وهذا قول حسن. والقياس أن للرجل مطالبة أي الرجلين شاء. وقال ابن أبي ليلى: إذا ضمن الرجل عن صاحبه مالا تحول على الكفيل وبرئ صاحب الأصل، إلا أن يشترط المكفول له عليهما أن يأخذ أيهما شاء؛ واحتج ببراءة الميت من الدين بضمان أبي قتادة[1]، وبنحوه قال أبو ثور.

---

(١) يشير إلى قول أبي قتادة ﷺ: أن النبي ﷺ أتي برجل ليصلي عليه فقال النبي ﷺ: «صلوا على صاحبكم فإن عليه دينا». قال أبو قتادة: هو عليّ. فقال رسول الله ﷺ: «بالوفاء؟». قال: بالوفاء، فصلى عليه.
أخرجه: أحمد (٥/ ٣٠١-٣٠٢) والترمذي (٣/ ٣٨١/ ١٠٦٩) والنسائي (٤/ ٣٦٧/ ١٩٥٩) وابن ماجه (٢/ ٨٠٤/ ٢٤٠٧) وصححه ابن حبان (٧/ ٣٣٠/ ٣٠٦٠).

. . الزعامة لا تكون إلا في الحقوق التي تجوز النيابة فيها، مما يتعلق بالذمة من الأموال، وكان ثابتا مستقرا؛ فلا تصح الحمالة بالكتابة؛ لأنها ليست بدين ثابت مستقر؛ لأن العبد إن عجز رق وانفسخت الكتابة؛ وأما كل حق لا يقوم به أحد عن أحد كالحدود فلا كفالة فيه، ويسجن المدعى عليه الحد حتى ينظر في أمره.

وشذ أبو يوسف ومحمد فأجازا الكفالة في الحدود والقصاص، وقالا: إذا قال المقذوف أو المدعي القصاص: بينتي حاضرة كفله ثلاثة أيام؛ واحتج لهم الطحاوي بما رواه حمزة بن عمرو عن عمر وابن مسعود وجرير بن عبد الله والأشعث أنهم حكموا بالكفالة بالنفس بمحضر الصحابة»[1].

قال ابن القيم: «الضمان والكفالة من العقود اللازمة، ولا يمكن الضامن والكفيل أن يتخلص متى شاء، ولاسيما عند من يقول إن الكفالة توجب ضمان المال إذا تعذر إحضار المكفول به مع بقائه، كما هو مذهب الإمام أحمد ومن وافقه، وطريق التخلص من وجوه:

أحدها: أن يؤقتها بمدة فيقول: ضمنته، أو تكفلت به شهرا أو جمعة، ونحو ذلك، فيصح.

الثاني: أن يقيدها بمكان دون مكان، فيقول: ضمنته أو تكفلت به مادام في هذا البلد أو في هذا السوق.

الثالث: أن يعلقها على شرط فيقول: ضمنت أو كفلت إن رضي فلان، أو يقول: ضمنت ما عليه إن كفل فلان بوجهه، ونحو ذلك.

الرابع: أن يشترط في الضمان أنه لا يطالبه حتى يتعذر مطالبة الأصيل، فيجوز هذا الشرط، بل هو حكم الضمان في أشهر الروايتين عن مالك؛ فلا يطالب الضامن حتى يتعذر مطالبة الأصيل، وإن لم يشترطه، حتى لو شرط أن يأخذ من أيهما شاء كان الشرط باطلا عند ابن القاسم وأصبغ.

الخامس: أن يقول: كفلت بوجهه على أني بريء مما عليه، فلا يلزمه ما عليه إذا لم يحضره، بل يلزم بإحضاره إذا تمكن منه.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٩/ ٢٣٣-٢٣٤).

السادس: أن يطالب المضمون عنه بأداء المال إلى ربه ليبرأ هو من الضمان إذا كان قد ضمن بإذنه، ويكون خصما في المطالبة، وهذا مذهب مالك، فإن ضمنه بغير إذنه لم يكن له عليه مطالبته بأداء المال إلى ربه، فإن أداه عنه فله مطالبته به حينئذ»[1].

* * *

(١) إعلام الموقعين (٤/ ٢٧-٢٨).

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «لما اتهمهم أولئك الفتيان بالسرقة، قال لهم إخوة يوسف ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾ أي: لقد تحققتم وعلمتم منذ عرفتمونا، لأنهم شاهدوا منهم سيرة حسنة أنا ﴿مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾ أي: ليست سجايانا تقتضي هذه الصفة؛ فقال لهم الفتيان: ﴿فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ﴾ أي: السارق إن كان فيكم ﴿إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ﴾ أي: أي شيء يكون عقوبته إن وجدنا فيكم من أخذه؟ ﴿قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وهكذا كانت شريعة إبراهيم ﷺ، أن السارق يدفع إلى المسروق منه، وهذا هو الذي أراد يوسف ﷺ، ولهذا بدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه؛ أي: فتشها قبله تورية، ﴿ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ﴾ فأخذه منهم بحكم اعترافهم والتزامهم وإلزاما لهم بما يعتقدونه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ﴾ وهذا من الكيد المحبوب المراد الذي يحبه الله ويرضاه، لما فيه من الحكمة والمصلحة المطلوبة.

وقوله: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾ أي: لم يكن له أخذه في حكم ملك مصر قاله الضحاك وغيره، وإنما قيض الله له أن التزم له إخوته بما التزموه، وهو كان يعلم ذلك من شريعتهم، ولهذا مدحه الله تعالى فقال: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ﴾

كما قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ﴾ الآية؛ ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ قال الحسن البصري: ليس عالم إلا فوقه عالم حتى ينتهي إلى اللَّه ﷻ، وكذا روى عبدالرزاق عن سفيان الثوري، عن عبدالأعلى الثعلبي، عن سعيد بن جبير، قال: كنا عند ابن عباس فحدث بحديث عجيب، فتعجب رجل فقال: الحمد لله فوق كل ذي علم عليم، فقال ابن عباس: بئس ما قلت، اللَّه العليم فوق كل عالم؛ وكذا روى سماك عن عكرمة، عن ابن عباس ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ قال: يكون هذا أعلم من هذا، وهذا أعلم من هذا، واللَّه فوق كل عالم؛ وهكذا قال عكرمة. وقال قتادة: وفوق كل ذي علم عليم، حتى ينتهي العلم إلى اللَّه، منه بدئ، وتعلمت العلماء، وإليه يعود»[1].

وقال الشوكاني: «وجعلوا المقسم عليه هو علم يوسف وأصحابه بنزاهة جانبهم، وطهارة ذيلهم عن التلوث بقذر الفساد في الأرض، الذي من أعظم أنواعه السرقة، لأنهم قد شاهدوا منهم في قدومهم عليه المرة الأولى، وهذه المرة من التعفف والزهد عما هو دون السرقة بمراحل؛ ما يستفاد منه العلم الجازم بأنهم ليسوا بمن يتجرأ على هذا النوع العظيم من أنواع الفساد، ولو لم يكن من ذلك إلا ردهم لبضاعتهم التي وجدوها في رحالهم، والمراد بالأرض هنا أرض مصر، ثم أكدوا هذه الجملة التي أقسموا باللَّه عليها بقولهم: ﴿وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾ لزيادة التبري مما قذفوهم به، والتنزه عن هذه النقيصة الخسيسة والرذيلة الشنعاء، ﴿قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ﴾ هذه الجملة مستأنفة كما تقدم غير مرة في نظائرها، والقائلون هم أصحاب يوسف، أو المنادي منهم وحده كما مر، والضمير في جزاؤه للصواع على حذف مضاف: أي فما جزاء سرقة الصواع عندكم، أو الضمير للسارق؛ أي: فما جزاء سارق الصواع عندكم ﴿إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ﴾ فيما تدعونه لأنفسكم من البراءة عن السرقة، وذلك بأن يوجد الصواع معكم، فأجاب إخوة يوسف و﴿قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ أي: جزاء سرقة الصواع أو جزاء سارق الصواع. قال الزجاج: وقوله: ﴿فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ زيادة في البيان: أي جزاؤه أخذ السارق فهو جزاؤه لا غير. قال المفسرون: وكان حكم السارق في آل يعقوب

(١) التفسير (٤/ ٣٩-٤٠).

أن يسترق سنة، فلذلك استفتوهم في جزائه ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: مثل ذلك الجزاء الكامل نجزي الظالمين لغيرهم من الناس بسرقة أمتعتهم، وهذه الجملة مؤكدة لما قبلها إذا كانت من كلام إخوة يوسف، ويجوز أن تكون من كلام أصحاب يوسف: أي كذلك نحن نجزي الظالمين بالسرقة، ثم لما ذكروا جزاء السارق أرادوا أن يفتشوا أمتعتهم حتى يتبين الأمر، فأقبل يوسف على ذلك ﴿فَبَدَأَ﴾ بتفتيش ﴿أَوْعِيَتِهِمْ﴾ أي: أوعية الإخوة العشرة ﴿قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ أي: قبل تفتيشه لوعاء أخيه بنيامين دفعا للتهمة، ورفعا لما دبره من الحيلة ﴿ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا﴾ أي: السقاية أو الصواع، لأنه يذكر ويؤنث﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ أي: مثل ذلك الكيد العجيب كدنا ليوسف: يعني علمناه إياه وأوحيناه إليه، والكيد مبدؤه السعي في الحيلة والخديعة، ونهايته إلقاء المخدوع من حيث لا يشعر في أمر مكروه لا سبيل إلى دفعه.. وفي الآية دليل على جواز التوصل إلى الأغراض الصحيحة بما صورته صورة الحيلة والمكيدة؛ إذا لم يخالف ذلك شرعا ثابتا ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾ أي: ما كان يوسف ليأخذ أخاه بنيامين في دين الملك: أي ملك مصر، وفي شريعته التي كان عليها، بل كان دينه وقضاؤه أن يضرب السارق ويغرم ضعف ما سرقه دون الاستعباد سنة، كما هو دين يعقوب وشريعته. وحاصله أن يوسف ما كان يتمكن من إجراء حكم يعقوب على أخيه مع كونه مخالفا لدين الملك وشريعته؛ لولا ما كاد الله له ودبره وأراده حتى وجد السبيل إليه: وهو ما أجراه على ألسن إخوته من قولهم: إن جزاء السارق الاسترقاق، فكان قولهم هذا هو بمشيئة الله وتدبيره، وهو معنى قوله: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي: إلا حال مشيئته وإذنه بذلك وإرادته له، وهذه الجملة: أعني ما كان ليأخذ أخاه إلخ، تعليل لما صنعه الله من الكيد ليوسف أو تفسير له، ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ بضروب العلوم والمعارف والعطايا والكرامات كما رفعنا درجة يوسف بذلك ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ﴾ ممن رفعه الله بالعلم ﴿عَلِيمٌ﴾ أرفع رتبة منهم وأعلى درجة لا يبلغون مداه، ولا يرتقون شأوه. وقيل: معنى ذلك: أن فوق كل أهل العلم عليم وهو الله سبحانه»[1].

وقال ابن العربي: «قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ

---

(١) فتح القدير (٣/ ٦٠-٦١).

ٱلۡمَلِكِ﴾؛ إذ كان لا يرى استرقاق السارق إلا أن يشاء اللَّه، فكيف التزام الإخوة لدين يعقوب بالاسترقاق، فقضى عليهم به. والكيد والمكر هو الفعل الذي يخالف فيه الباطن الظاهر، والقول الذي يحتمل معنيين؛ فيتأوله أحد المتخاطبين على وجه والآخر على وجه آخر..

قد ذكرنا في سورة المائدة أن القطع في السرقة ناسخ لما تقدم من الشرائع؛ إذ كان في شرع يعقوب استرقاق السارق كما تقدم، ولا نعلم ما نفذ به الحكم في شرع يعقوب، هل كان مخصوصا بعين مسروقة دون عين، أم عاما في كل عين؟ والأول أصح؛ لأنه ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ قال: «**إن بني إسرائيل كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، والذي نفس محمد بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها**»[١]. وهذا نص في الغرض، موضح للمقصود، فافهموه»[٢].

وقال ابن القيم: «ففي قصته مع إخوته ضروب من الحيل المستحسنة.

أحدها: قوله: ﴿وَقَالَ لِفِتۡيَٰنِهِ ٱجۡعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ فِي رِحَالِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَعۡرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ فإنه تسبب بذلك إلى رجوعهم، وقد ذكروا في ذلك معاني.

منها: أنه تخوف أن لا يكون عندهم ورق يرجعون بها.

ومنها: أنه خشي أن يضر أخذ الثمن بهم.

ومنها: أنه أراهم كرمه في رد البضاعة، ليكون أدعى لهم إلى العود.

وقد قيل: إنه علم أن أمانتهم تحوجهم إلى الرجعة، ليردوها إليه، فهذا المحتال به عمل صالح.

والمقصود: رجوعهم ومجيء أخيه، وذلك أمر فيه منفعة لهم ولأبيهم وله، وهو مقصود صالح، وإنما لم يعرفهم نفسه لأسباب أخر، فيها منفعة لهم ولأبيهم وله، وتمام لما أراده اللَّه تعالى بهم من الخير في هذا البلاء.

---

(١) أخرجه: أحمد (٦/ ١٦٢) والبخاري (٦/ ٦٣٦-٦٣٧/ ٣٤٧٥) ومسلم (٣/ ١٣١٥/ ١٦٨٨) وأبو داود (٤/ ٥٣٧-٥٣٨/ ٤٣٧٣) والترمذي (٤/ ٢٩/ ١٤٣٠) والنسائي (٨/ ٤٤٤-٤٤٥/ ٤٩١٤) وابن ماجه (٢/ ٨٥١/ ٢٥٤٧) من حديث عائشة ﵂.

(٢) أحكام القرآن (٣/ ١٠٩٩-١١٠٠).

وأيضًا، فلو عرفهم نفسه في أول مرة لم يقع الاجتماع بهم وبأبيه ذلك الموقع العظيم، ولم يحل ذلك المحل، وهذه عادة اللَّه سبحانه في الغايات العظيمة الحميدة: إذا أراد أن يوصل عبده إليها هيأ لها أسبابا من المحن والبلايا والمشاق، فيكون وصوله إلى تلك الغايات بعدها كوصول أهل الجنة إليها بعد الموت، وأهوال البرزخ، والبعث والنشور والموقف والحساب والصراط، ومقاساة تلك الأهوال والشدائد، وكما أدخل رسول اللَّه ﷺ إلى مكة ذلك المدخل العظيم، بعد أن أخرجه الكفار ذلك المخرج، ونصره ذلك النصر العزيز، بعد أن قاسى مع أعداء اللَّه ما قاساه.

وكذلك ما فعل برسله، كنوح وإبراهيم وموسى وهود وصالح وشعيب، فهو سبحانه يوصل إلى الغايات الحميدة بالأسباب التي تكرهها النفوس وتشق عليها. كما قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[1].

وربما كان مكروه النفوس إلى ... محبوبها سببا ما مثله سبب

وبالجملة؛ فالغايات الحميدة في خبايا الأسباب المكروهة الشاقة، كما أن الغايات المكروهة المؤلمة في خبايا الأسباب المشتهاة المستلذة، وهذا من حين خلق اللَّه سبحانه الجنة وحفها بالمكاره، وخلق النار وحفها بالشهوات.

ومنها: لما جهزهم في المرة الثانية بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه، وهذا القدر يتضمن اتهام أخيه بأنه سارق.

وقد قيل: إنه كان بمواطأة من أخيه ورضا منه بذلك، والحق كان له، وقد أذن فيه، وطابت نفسه به، ودل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ فهذا يدل على أنه عرف أخاه نفسه.

وقد قيل: إنه لم يصرح له بأنه يوسف، وأنه إنما أراد بقوله: ﴿إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ﴾ أي: أنا مكان أخيك المفقود.

---

(١) البقرة: الآية (٢١٦).

ومن قال هذا قال: إنه وضع السقاية في رحل أخيه، والأخ لايشعر بذلك، والقرآن يدل على خلاف هذا، والعدل يرده، وأكثر أهل التفسير على خلافه.

ومن لطيف الكيد في ذلك: أنه لما أراد أخذ أخيه توصل إلى أخذه بما يقر إخوته أنه حق وعدل، ولو أخذه بحكم قدرته وسلطانه لنسب إلى الظلم والجور، ولم يكن له طريق في دين الملك يأخذه بها. فتوصل إلى أخذه بطريق يعترف إخوته أنها ليست ظلما، فوضع الصواع في رحل أخيه بمواطأة منه له على ذلك. ولهذا قال: ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

ومن لطيف الكيد: أنه لم يفتش رحالهم وهم عنده، بل أمهلهم حتى جهزهم بجهازهم، وخرجوا من البلد، ثم أرسل في آثارهم لذلك.

قال ابن أبي حاتم في تفسيره: حدثنا علي بن الحسين حدثنا محمد بن عيسى حدثنا سلمة عن ابن إسحاق قال: (أمهلهم حتى إذا انطلقوا فأمعنوا من القرية؛ أمر بهم فأجلسوا، ثم ناداهم مناد: ﴿أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾، فوقفوا، وانتهى إليهم رسوله، فقال لهم فيما يذكرون: ألم نكرم ضيافتكم، ونوفكم كيلكم ونحسن منزلتكم، ونفعل بكم ما لم نفعله بغيركم، وأدخلناكم علينا في بيوتنا ومنازلنا؟ قالوا: بلى. وما ذاك؟ قال إنكم لسارقون)[1].

وذكر عن السدي: (فلما ارتحلوا أذن مؤذن أيتها العير).

والسياق يقتضي ذلك، إذ لو كان هذا وهم بحضرته لم يحتج إلى الأذان، وإنما يكون الأذان نداء لبعيد، يطلب وقوفه وحبسه.

فكان في هذا من لطيف الكيد: أنه أبعد من التهمة للطالب بالمواطأة والموافقة، وأنه لا يشعر بما فقد له، فكأنه لما خرج القوم وارتحلوا، وفصلوا عن المدينة احتاج الملك إلى صواعه لبعض حاجته إليه، فالتمسه فلم يجده، فسأل عنه الحاضرين، فلم يجدوه، فأرسلوا في أثر القوم. فهذا أحسن وأبعد من التفطن للحيلة من التفتيش في الحال قبل انفصالهم عنه. بل كلما ازدادوا بعدا عنه كان أبلغ في هذه المعنى.

ومن لطيف الكيد: أنه أذن فيهم بصوت عال رفيع، يسمعه جميعهم، ولم يقل

---

(١) ذكره ابن أبي حاتم في تفسيره (٧/ ٢١٧٢/ ١١٧٩٦).

لواحد منهم، إعلاما بأن ذهاب الصواع أمر قد اشتهر، ولم يبق فيه خفاء، وأنتم قد اشتهرتم بأخذه، ولم يتهم به سواكم.

ومن لطيف الكيد: أن المؤذن قال: ﴿إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾ ولم يعين المسروق، حتى سألهم عنه القوم، فقالوا لهم: ﴿مَّاذَا تَفْقِدُونَ ۝ قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ﴾ فاستقر عند القوم أن الصواع هو المتهم به، وأنهم لم يفقدوا غيره. فإذا ظهر لم يكونوا ظالمين باتهامهم بغيره. وظهر صدقهم وعدلهم في اتهامهم به وحده، وهذا من لطيف الكيد.

ومن لطيف الكيد: قول المؤذن وأصحابه لإخوة يوسف ﴿فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ﴾ أي: ما عقوبة من ظهر عليه أنه سرقه منكم، ووجد معه؟ أي: ما عقوبته عندكم وفي دينكم؟ ﴿قَالُوا جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ فأخذوهم بما حكموا به على نفوسهم، لا بحكم الملك وقومه.

ومن لطيف الكيد: أن الطالب لما هم بتفتيش رواحلهم بدأ بأوعيتهم يفتشها قبل وعاء من هو معه، تطمينا لهم، وبعدا عن تهمة المواطأة.

فإنه لو بدأ بوعاء من هو فيه، لقالوا: وما يدريه في هذا الوعاء، دون غيره من أوعيتنا؟ وما هذا إلا بمواطأة وموافقة. فأزال هذه التهمة بأن بدأ بأوعيتهم أولا، فلما لم يجده فيها هم بالرجوع قبل تفتيش وعاء من فيه الصواع، وقال: ما أراكم سارقين، وما أظن هذا أيضًا أخذ شيئًا. فقالوا: لا والله، لا ندعكم حتى تفتشوا متاعه، فإنه أطيب لقلوبكم، وأظهر لبراءتنا، فلما ألحوا عليهم بذلك فتشوا متاعه، فاستخرجوا منه الصواع. وهذا من أحسن الكيد. فلهذا قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾.

فالعلم بالكيد الواجب أو المستحب الذي يتوصل به إلى طاعة الله تعالى ورسوله، ونصر المحق وكسر المبطل؛ مما يرفع الله به درجة العبد.

وقد ذكروا في تسميتهم سارقين وجهين:

أحدهما: أنه من باب المعاريض، وأن يوسف نوى بذلك أنهم سرقوه من أبيه،

حيث غيبوه عنه بالحيلة التي احتالوا بها عليه، وخانوه فيه. والخائن يسمى سارقا. وهو من الاستعمال المشهور.

الثاني: أنَّ المنادي هو الذي قال ذلك، من غير أمر يوسف.

قال القاضي أبو يعلى وغيره: أمر يوسف بعض أصحابه أن يجعل الصاع في رحل أخيه. ثم قال بعض الموكلين به لما فقده، ولم يدر من أخذه ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾ على ظن منهم أنهم كذلك، ولم يأمرهم يوسف بذلك، ولعل يوسف عليه السلام قال للمنادي: هؤلاء قد سرقوا، وعنى سرقته من أبيه، والمنادي فهم سرقة الصواع، وصدق في قوله: ﴿إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾ لما أخبر به يوسف، وصدق في قوله: ﴿نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ﴾ وتأمل قوله: ﴿إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾ ولم يقل: صواع الملك. ثم لما جاء إلى ذكر المفقود قال: ﴿نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ﴾ وهو صادق في ذلك، فحذف المفعول في قوله: ﴿لَسَٰرِقُونَ﴾ وذكره في قوله: ﴿نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ﴾ وكذلك قال يوسف عليه السلام لما عرضوا عليه أن يأخذ أحدهم مكان أخيهم: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ ولم يقل: أن نأخذ إلا من سرق، فإن المتاع كان موجودا عنده، ولم يكن سارقا. وهذا من أحسن المعاريض.

وقد قال نصر بن حاجب: سئل سفيان بن عيينة عن الرجل يعتذر إلى أخيه من الشيء الذي فعله، ويحرف القول فيه ليرضيه، أيأثم في ذلك؟ فقال: ألم تسمع قوله: «**ليس بكاذب من أصلح بين الناس، فكذب فيه**»[1] فإذا أصلح بينه وبين أخيه المسلم كان خيرا من أن يصلح بين الناس بعضهم في بعض. وذلك أنه أراد به مرضاة اللّه، وكراهية أذى المؤمن، ويندم على ما كان منه، ويدفع شره عن نفسه، ولا يريد بالكذب اتخاذ المنزلة عندهم، ولا طمعا في شيء يصيبه منهم، فإنه لم يرخص في ذلك، ورخص له إذا كره موجدتهم وخاف عداوتهم.

قال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: إني أشتري ديني بعضه ببعض، مخافة أن أتقدم على ما هو أعظم منه.

---

(١) أخرجه: أحمد (٦/ ٤٠٣) والبخاري (٥/ ٣٧٥/ ٢٦٩٢) ومسلم (٤/ ٢٠١١/ ٢٦٠٥) وأبو داود (٥/ ٢١٨- ٢١٩/ ٤٩٢٠) والترمذي (٤/ ٢٩٢/ ١٩٣٨) والنسائي في الكبرى (٥/ ١٩٣/ ٨٦٤٢) من حديث أم كلثوم بنت عقبة رضي الله عنها.

قال سفيان: وقال الملكان: ﴿خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾[1] أرادا معنى شيء ولم يكونا خصمين، فلم يصيرا بذلك كاذبين.

وقال إبراهيم ﷺ: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾[2] وقال: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾[3] وقال يوسف: ﴿إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾ أراد معنى أخاهم.

فبين سفيان أن هذا كله من المعاريض المباحة، مع تسميته كذبا. وإن لم يكن في الحقيقة كذبا.

وقد احتج بعض الفقهاء بقصة يوسف؛ على أنه يجوز للإنسان التوصل إلى أخذ حقه من الغير، بما يمكنه الوصول إليه بغير رضا من عليه الحق.

قال شيخنا: وهذه الحجة ضعيفة، فإن يوسف ﷺ لم يكن يملك حبس أخيه عنده بغير رضاه، ولم يكن هذا الأخ ممن ظلم يوسف، حتى يقال: قد اقتص منه، وإنما سائر الإخوة هم الذين كانوا قد فعلوا ذلك، نعم كان تخلفه عنهم مما يؤذيهم لتأذي أبيهم، وللميثاق الذي أخذه عليهم، وقد استثنى في الميثاق بقوله: ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ وقد أحيط بهم، ويوسف لم يكن قصده باحتباس أخيه الانتقام من إخوته، فإنه كان أكرم من هذا، وإن كان في ضمن ما فعل من تأذي أبيه أعظم من أذى إخوته، فإنما ذلك أمر أمره اللَّه به، ليبلغ الكتاب أجله، ويتم البلاء الذي استحق به يوسف ويعقوب كمال الجزاء، وعلو المنزلة، وتبلغ حكمة اللَّه التي قدرها وقضاها نهايتها، ولو فرض أن يوسف قصد الاقتصاص منهم بما فعل، فليس هذا بموضع خلاف بين العلماء. فإن الرجل له أن يعاقب بمثل ما عوقب به، وإنما موضع الخلاف: هل له أن يخونه كما خانه، أو يسرقه كما سرقه؟ ولم تكن قصة يوسف ﷺ من هذا النوع.

نعم لو كان يوسف ﷺ أخذ أخاه بغير أمره لكان لهذا المحتج شبهة، مع أنه لا شبهة له أيضًا على هذا التقدير، فإن مثل هذا لا يجوز في شرعنا بالاتفاق، ولو كان يوسف قد أخذ أخاه واعتقله بغير رضاه، كان في هذا ابتلاء من اللَّه لذلك

---

(١) ص: الآية (٢٢).

(٢) الصافات: الآية (٨٩).

(٣) الأنبياء: الآية (٦٣).

المعتقل، كأمر إبراهيم ﷺ بذبح ابنه، فيكون المبيح له على هذا التقدير وحيا خاصا، كالوحي إلى إبراهيم ﷺ بذبح ابنه، وتكون حكمته في حق الأخ امتحانه وابتلاءه، لينال درجة الصبر على حكم اللَّه، والرضا بقضائه، ويكون حاله في هذا كحال أبيه يعقوب في احتباس يوسف عنه.

وقد دل على هذا نسبة اللَّه سبحانه ذلك الكيد إلى نفسه بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ وهو سبحانه ينسب إلى نفسه أحسن هذه المعاني، وما هو منها حكمة وحق وصواب، وجزاء للمسيء، وذلك غاية العدل والحق، كقوله: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾[1] وقوله: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ﴾[2] وقوله: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾[3] وقوله: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾[4] وقوله: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾[5].

فهذا منه سبحانه في أعلى مراتب الحسن، وإن كان من العبد قبيحا سيئا، لأنه ظالم فيه، وموقعه بمن لا يستحقه، والرب تعالى عادل فيه، موقعه بأهله ومن يستحقه، سواء قيل: إنه مجاز لمشاكلة الصورية، أو للمقابلة، أو سماه كذلك مشاكلة لاسم ما فعلوه، أو قيل: إنه حقيقة، وإن مسمى هذه الأفعال ينقسم إلى مذموم ومحمود، واللفظ حقيقة في هذا وهذا..

إذا عرف ذلك، فيوسف صلوات اللَّه عليه وسلامه أُكِيدَ، من وجوه عديدة:

أحدها: أن إخوته كادوه، حيث احتالوا في التفريق بينه وبين أبيه، كما قال له يعقوب صلوات اللَّه وسلامه عليه ﴿لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾.

وثانيها: أنهم كادوه حيث باعوه بيع العبيد، وقالوا: إنه غلام لنا أبق.

وثالثهما: كيد امرأة العزيز له، بتغليق الأبواب، ودعائه إلى نفسها.

ورابعها: كيدها له بقولها: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فكادته بالمراودة أولا، وكادته بالكذب عليه ثانيا، ولهذا قال لها الشاهد لما تبين له براءة يوسف: ﴿إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾.

---

(١) الطارق: : الآيتان (١٥ و ١٦). (٢) آل عمران: الآية (٥٤).
(٣) البقرة: الآية (١٥). (٤) النساء: الآية (١٤٢).
(٥) الأعراف: الآية (١٨٣).

وخامسها: كيدها له حيث جمعت له النسوة، وأخرجته عليهن، تستعين بهن عليه، وتستعذر عليهن من شغفها به.

وسادسها: كيد النسوة له، حتى استجار بالله تعالى من كيدهن فقال: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾، ولهذا لما جاء الرسول بالخروج من السجن قال له: ﴿ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾.

فإن قيل: فما كان مكر النسوة اللاتي مكرن به، وسمعت به امرأة العزيز، فإن الله سبحانه لم يقصه في كتابه؟.

قيل: بلى، قد أشار إليه بقوله: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ وهذا الكلام متضمن لوجوه من المكر:

أحدها: قولهن: ﴿امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا﴾ ولم يسموها باسمها، بل ذكروها بالوصف الذي ينادى عليها بقبيح فعلها، بكونها ذات بعل. فصدور الفاحشة منها أقبح من صدورها ممن لا زوج لها.

الثاني: أن زوجها عزيز مصر ورئيسها وكبيرها وذلك أقبح لوقع الفاحشة منها.

الثالث: أن الذي تراوده مملوك لا حر. وذلك أبلغ في القبح.

الرابع: أنه فتاها الذي هو في بيتها وتحت كنفها، فحكمه حكم أهل البيت، بخلاف من طلب ذلك من الأجنبي البعيد.

الخامس: أنها هي المراودة الطالبة.

السادس: أنها قد بلغ بها عشقها له كل مبلغ، حتى وصل حبها له إلى شغاف قلبها.

السابع: أن في ضمن هذا أنه أعف منها وأبر وأوفى، حيث كانت هي المراودة الطالبة، وهو الممتنع، عفافا وكرما وحياء، وهذا غاية الذم لها.

الثامن: أنهن أتين بفعل المراودة بصيغة المستقبل الدالة على الاستمرار والوقوع، حالا واستقبالا، وأن هذا شأنها، ولم يقلن: راودت فتاها. وفرق بين قولك: فلان أضاف ضيفا، وفلان يقري الضيف، ويطعم الطعام، ويحمل الكل. فإن هذا يدل على أن هذا شأنه وغايته.

التاسع: قولهن: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: إنا لنستقبح منها ذلك غاية الاستقباح فنسبن الاستقباح إليهن. ومن شأنهن مساعدة بعضهن بعضا على الهوى، ولا يكدن يرين ذلك قبيحا، كما يساعد الرجال بعضهم بعضا على ذلك، فحيث استقبحن منها ذلك كان هذا دليلا على أنه من أقبح الأمور، وأنه مما لا ينبغي أن تساعد عليه، ولا يحسن معاونتها عليه.

العاشر: أنهن جمعن لها في هذا الكلام واللوم بين العشق المفرط، والطلب المفرط. فلم تقتصد في حبها، ولا في طلبها. أما العشق فقولهن: ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ أي: وصل حبه إلى شغاف قلبها. وأما الطلب المفرط فقولهن ﴿تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا﴾ والمراودة: الطلب مرة بعد مرة، فنسبوها إلى شدة العشق، وشدة الحرص على الفاحشة. فلما سمعت بهذا المكر منهن هيأت لهن مكرا أبلغ منه، فهيأت لهن متكأ، ثم أرسلت إليهن، فجمعتهن وخبأت يوسف ﷺ عنهن. وقيل: إنها جملته وألبسته أحسن ما تقدر عليه، وأخرجته عليهن فجأة، فلم يرعهن إلا وأحسن خلق اللَّه وأجملهم قد طلع عليهن بغتة، فراعهن ذلك المنظر البهي، وفي أيديهن مُدًى يقطعن بها ما يأكلنه، فدهشن حتى قطعن أيديهن، وهن لا يشعرن. وقد قيل: إنهن أَبَنَّ أيديهن، والظاهر خلاف ذلك، وإنما تقطيعهن أيديهن: من جرحها وشقها بالمدى لدهشهن بما رأين، فقابلت مكرهن القولي بهذا المكر الفعلي، وكانت هذه في النساء غاية في المكر.

والمقصود: أن اللَّه سبحانه كاد ليوسف ﷺ، بأن جمع بينه وبين أخيه، وأخرجه من أيدي إخوته بغير اختيارهم، كما أخرجوا يوسف من يد أبيه بغير اختياره.

وكاد له بأن أوقفهم بين يديه موقف الذليل الخاضع المستجدي، فقالوا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾ فهذا الذل والخضوع له في مقابلة ذله وخضوعه لهم يوم إلقائه في الجب وبيعه بيع العبيد.

وكاد له بأن هيأ له الأسباب التي سجدوا له، هم وأبوه وخالته، في مقابلة كيدهم له، حذرا من وقوع ذلك، فإن الذي حملهم على إلقائه في الجب خشيتهم أن يرتفع عليهم حتى يسجدوا له كلهم، فكادوه خشية ذلك. فكاد اللَّه تعالى له حتى وقع

ذلك، كما رآه في منامه.

وهذا كما كاد فرعون بني إسرائيل ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْۚ﴾[1] خشية أن يخرج فيهم من يكون زوال ملكه على يديه، فكاده الله سبحانه، بأن أخرج له هذا المولود، ورباه في بيته وفي حجره، حتى وقع به منه ما كان يحذره، كما قيل:

وإذا خشيت من الأمور مقدرا ... وفررت منه، فنحوه تتوجه

وكيد الله سبحانه لا يخرج عن نوعين.

أحدهما: أن يفعل سبحانه فعلا خارجا عن قدرة العبد الذي كاد له، فيكون الكيد قدرا محضا، ليس من باب الشرع، كما كاد الذين كفروا، بأن انتقم منهم بأنواع العقوبات، وكذلك كانت قصة يوسف، فإن يوسف أكثر ما قدر عليه أن ألقى الصواع في رحل أخيه، وأرسل مؤذنا يؤذن ﴿أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ﴾ فلما أنكروا قال: ﴿فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ ۝٧٤ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ﴾ أي: جزاؤه استعباد المسروق ما له للسارق، إما مطلقا، وإما إلى مدة. وهذه كانت شريعة آل يعقوب..

وكان إلهام الله لإخوة يوسف قولهم: ﴿مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ﴾ كيدا من الله ليوسف، أجراه على ألسن إخوته، وذلك خارج عن قدرته. وكان يمكنهم أن يتخلصوا من ذلك، بأن يقولوا: لا جزاء عليه، حتى يثبت أنه هو الذي سرق، فإن مجرد وجوده في رحله لا يوجب أن يكون سارقا.

وقد كان يوسف ﷺ عادلا لا يأخذهم بغير حجة، وكان يمكنهم التخلص أيضًا بأن يقولوا: جزاؤه أن يفعل به ما تفعلونه بالسراق في دينكم، وقد كان من دين ملك مصر فيما ذكر: أن السارق يضرب ويغرم قيمة المسروق مرتين، فلو قالوا له ذلك، لم يمكنه أن يلزمهم بما لا يلوم به غيرهم، فلذلك قال سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ أي: ما كان ليمكنه أخذه في دين ملك مصر، لأنه لم يكن في دينه طريق إلى أخذه.

وقوله: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ استثناء منقطع؛ أي: لكن إن شاء الله أخذه بطريق

(١) القصص: الآية (٤).

آخر، ويجوز أن يكون متصلا ، والمعنى : إلا أن يهيء اللّه سببا آخر يؤخذ به في دين الملك غير السرقة .

وفي هذه القصة تنبيه على الأخذ باللوث الظاهر في الحدود، وإن لم تقم بينة ، ولم يحصل إقرار، فإن وجود المسروق مع السارق أصدق من البينة ، فهو بينة لا تلحقها التهمة، وقد اعتبرت شريعتنا ذلك في مواضع .

منها : اللوث في القسامة، والصحيح : أنها يقاد بها ، كما دل عليه النص الصحيح الصريح .

ومنها : حد الصحابة في الخمر بالرائحة والقيء .

ومنها : حد عمر في الزنا بالحبل، وجعله قسيم الاعتراف والشهادة، فوجود المسروق مع السارق إن لم يكن أظهر من هذا كله فليس بدونه .

فلما فتشوا متاعه فوجدوا فيه الصواع ؛ كان ذلك قائما مقام البينة والاعتراف ، فلهذا لم يمكنهم أن يتظلموا من أخذه، ولو كان هذا ظلما لقالوا : كيف يأخذه بغير بينة ولا إقرار؟ . .

والمقصود: أنه ليس في قصة يوسف شبهة، فضلا عن الحجة، لأرباب الحيل»[١] .

* * *

(١) إغاثة اللهفان (٢/ ١٤٥-١٦٠).

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ٧٧﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال القرطبي: «المعنى: أي اقتدى بأخيه، ولو اقتدى بنا ما سرق؛ وإنما قالوا ذلك ليبرأوا من فعله، لأنه ليس من أمهم؛ وأنه إن سرق فقد جذبه عرق أخيه السارق؛ لأن الاشتراك في الأنساب يشاكل في الأخلاق»[١].

وقد ضرب ابن القيم مثلا لقياس الشبه الباطل بقول إخوة يوسف هذا فقال: «وأما قياس الشبه فلم يحكه اللَّه سبحانه إلا عن المبطلين: فمنه قوله تعالى إخبارا عن إخوة يوسف أنهم قالوا لما وجدوا الصواع في رحل أخيهم: ﴿إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ﴾، فلم يجمعوا بين الأصل والفرع بعلة ولا دليلها، وإنما ألحقوا أحدهما بالآخر من غير دليل جامع سوى مجرد الشبه الجامع بينه وبين يوسف، فقالوا: هذا مقيس على أخيه، بينهما شبه من وجوه عديدة، وذاك قد سرق فكذلك هذا، وهذا هو الجمع بالشبه الفارغ، والقياس بالصورة المجردة عن العلة المقتضية للتساوي، وهو قياس فاسد، والتساوي في قرابة الأخوة ليس بعلة للتساوي في السرقة لو كانت حقا، ولا دليل على التساوي فيها، فيكون الجمع لنوع شبه خال عن العلة ودليلها»[٢].

وقال: «وقد حكى اللَّه سبحانه عن يوسف الصديق أنه قال لإخوته: ﴿أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ لما قالوا: ﴿إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا﴾ ذلك للمصلحة التي اقتضت كتمان الحال. ومن

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٩/ ٢٣٩).

(٢) إعلام الموقعين (١/ ١٤٨).

تأمل الأحاديث رأى ذلك فيها كثيرًا جدا، وباللَّه التوفيق»[١].

قال أبو حيان: «وقولهم: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾ لا يدل على الجزم بأنه سرق، بل أخرجوا ذلك مخرج الشرط؛ أي: إن كان وقعت منه سرقة، فهو يتأسى بمن سرق قبله، فقد سرق أخ له من قبل، والتعليق على الشرط على أن السرقة في حق بنيامين وأخيه ليس مجزوما بها، كأنهم قالوا: إن كان هذا الذي رمي به بنيامين حقا؛ فالذي رمي به يوسف من قبل حق، لكنه قوي الظن عندهم في حق يوسف بما ظهر لهم أنه جرى من بنيامين، ولذلك قالوا: ﴿إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ﴾، وقيل: حققوا السرقة في جانب بنيامين وأخيه بحسب ظاهر الأمر، فكأنهم قالوا: إن كان قد سرق فغير بدع من ابني راحيل، لأن أخاه يوسف قد كان سرق، فعلى هذا القول يكون قولهم إنحاء على يوسف وبنيامين. وقيل: التقدير: فقد قيل عن يوسف إنه سرق، وقولهم هذا هو بحسب الظاهر، والإخبار بأمر جرى لتزول المعرة عنهم، وتختص بالشقيقين، وتنكير (أخ) في قوله: ﴿فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾؛ لأن الحاضرين لا علم لهم به، وقالوا له: لأنه كان شقيقه»[٢].

وقال ابن عاشور: «وإنما قالوا: قد سرق أخ له من قبل بهتانا ونفيا للمعرة عن أنفسهم. وليس ليوسف ﷺ سرقة من قبل. ولم يكن إخوة يوسف ﷺ يومئذ أنبياء. وشتان بين السرقة وبين الكذب إذا لم تترتب عليه مضرة»[٣].

وقال الشوكاني: «وحكى القرطبي في تفسيره عن الزجاج أنه قال: كذبوا عليه فيما نسبوه إليه. قلت: وهذا أولى، فما هذه الكذبة بأول كذباتهم، وقد قدمنا ما يدفع قول من قال: إنهم قد كانوا أنبياء عند صدور هذه الأمور منهم. قوله: ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ﴾ قال الزجاج وغيره: الضمير في أسرها يعود إلى الكلمة أو الجملة، كأنه قيل: فأسر الجملة في نفسه ﴿وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ ثم فسرها بقوله: ﴿قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ وقد رد أبو علي الفارسي هذا فقال: إن هذا النوع من الإضمار على شريطة التفسير غير مستعمل. وقيل: الضمير عائد إلى الإجابة: أي أسر يوسف إجابتهم في ذلك الوقت إلى وقت آخر. وقيل: أسر في نفسه قولهم:

---

(١) إعلام الموقعين (١/ ٣٣٠).

(٢) البحر المحيط (٥/ ٣٢٩).

(٣) التحرير والتنوير (١٣/ ٣٤).

﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾، وهذا هو الأولى، ويكون معنى ﴿وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ أنه لم يبد لهم هذه المقالة التي أسرها في نفسه، بأن يذكر لهم صحتها أو بطلانها، وجملة ﴿قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ مفسرة على القول الأول، ومستأنفة على القولين الآخرين، كأنه قيل: فماذا قال يوسف لما قالوا هذه المقالة؟ أي أنتم شر مكانا: أي موضعا ومنزلا ممن نسبتموه إلى السرقة وهو بريء، فإنكم قد فعلتم ما فعلتم من إلقاء يوسف إلى الجب، والكذب على أبيكم وغير ذلك من أفاعيلكم، ثم قال: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ من الباطل بنسبة السرقة إلى يوسف، وأنه لا حقيقة لذلك»[1].

قال أبو السعود: «﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ﴾ أي: أكن الحزازة الحاصلة مما قالوا ﴿فِى نَفْسِهِۦ﴾ لا أنه أسرها لبعض أصحابه كما في قوله تعالى: ﴿وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾[2] ﴿وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ لا قولا ولا فعلا؛ صفحا عنهم وحلما، وهو تأكيد لما سبق (قال) أي: في نفسه وهو استئناف مبني على سؤال نشأ من الإخبار بالإسرار المذكور، كأنه قيل: فماذا قال في نفسه في تضاعيف ذلك الإسرار؟ فقيل: قال: ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ أي: منزلة حيث سرقتم أخاكم من أبيكم، ثم طفقتم تفترون على البرئ. وقيل: بدل من أسرها، والضمير للمقالة المفسرة بقوله: ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾، ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ أي: عالم علما بالغا إلى أقصى المراتب، بأن الأمر ليس كما تصفون من صدور السرقة منا، بل إنما هو افتراء علينا، فالصيغة لمجرد المبالغة لا لتفضيل علمه ﷻ على علمهم، كيف لا وليس لهم بذلك من علم»[3].

* * *

(١) فتح القدير (٣/ ٦٣-٦٤).
(٢) نوح: الآية (٩).
(٣) تفسير أبي السعود (٤/ ٢٩٨-٢٩٩).

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «لما تعين أخذ بنيامين وتقرر تركه عند يوسف بمقتضى اعترافهم، شرعوا يترققون له ويعطفونه عليهم ﴿قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا﴾ يعنون وهو يحبه حبا شديدا، ويتسلى به عن ولده الذي فقده ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ﴾ أي: بدله يكون عندك عوضا عنه، ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: العادلين المنصفين القابلين للخير، ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ أي: كما قلتم واعترفتم ﴿إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ﴾ أي: إن أخذنا بريئا بسقيم»[١].

وقال العدوي: «لما وقع ذلك الحادث وهو وجود الصواع في رحل أخي يوسف، وقد أفتى الإخوة بأن جزاء من وجد الصواع في رحله أن يؤخذ فيه؛ اضطربوا وتذكروا ما كان من وصية أبيهم وأخذه الميثاق عليهم، فأخذوا يستعطفون العزيز مرة من جهة أبيهم وأنه شيخ كبير، وقد أعد هذا الولد لخدمته، ومرة من جهة أخلاقه وشمائله، وقولهم له: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ وقد طلبوا من العزيز أن يأخذ واحدا منهم رهينة بدله، فلم يسمح يوسف بشيء من ذلك، وقال لهم: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ أي: نعوذ بالله معاذا من أن نأخذ رجلا بريئا مكان رجل وجدنا المتاع عنده.

﴿إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ﴾ إذا نحن أخذنا البريء وتركنا المتهم، وكان ذلك ظلما بمقتضى فتواهم: أن الذي يوجد الصواع في رحله فجزاؤه أخذه فيه، فهو ظلم حسب مذهبهم الذي أفتوا به يوسف»[٢].

---

(١) التفسير (٤/ ٤١-٤٢).

(٢) دعوة الرسل (ص: ١٤٥).

وقال أبو السعود: «﴿إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ لأن أخذنا له إنما هو بقضية فتواكم، فليس لنا الإخلال بموجبها، وإيثار صيغة التكلم مع الغير مع كون الخطاب من جانب إخوته على التوحيد؛ من باب السلوك إلى سنن الملوك، أو للإشعار بأن الأخذ والإعطاء ليس مما يستبد به، بل هو منوط بآراء أولي الحل والعقد، وإيثار من وجدنا متاعنا عنده دون سرق متاعنا، لتحقيق الحق والاحتراز عن الكذب في الكلام، مع تمام المرام، فإنهم لا يحملون وجدان الصواع في الرحل على محمل غير السرقة ﴿إِنَّآ إِذًا﴾ أي: إذا أخذنا غير من وجدنا متاعنا عنده ولو برضاه ﴿لَّظَٰلِمُونَ﴾ في مذهبكم، وما لنا ذلك، وهذا المعنى هو الذي أريد بالكلام في أثناء الحوار، وله معنى باطن هو: أن اللَّه ﷻ إنما أمرني بالوحي أن آخذ بنيامين لمصالح علمها اللَّه في ذلك، فلو أخذت غيره كنت ظالما وعاملا بخلاف الوحي»[١].

وقال ابن عاشور: «ووصفوا أباهم بثلاث صفات تقتضي الترقيق عليه، وهي: حنان الأبوة، وصفة الشيخوخة، واستحقاقه جبر خاطره؛ لأنه كبير قومه، أو لأنه انتهى في الكبر إلى أقصاه؛ فالأوصاف مسوقة للحث على سراح الابن، لا لأصل الفائدة؛ لأنهم قد كانوا أخبروا يوسف ﷺ بخبر أبيهم»[٢].

وقال: «وإنما لم يكاشفهم يوسف ﷺ بحاله ويأمرهم بجلب أبيهم يومئذ: إما لأنه خشي إن هو تركهم إلى اختيارهم أن يكيدوا لبنيامين، فيزعموا أنهم يرجعون جميعًا إلى أبيهم، فإذا انفردوا أهلكوه في الطريق، وإما لأنه قد كان بين القبط وبين الكنعانيين في تلك المدة عداوة، فخاف إن هو جلب عشيرته إلى مصر أن تتطرق إليه وإليهم ظنون السوء من ملك مصر، فتريث إلى أن يجد فرصة لذلك، وكان الملك قد أحسن إليه، فلم يكن من الوفاء له أن يفعل ما يكرهه أو يسيء ظنه، فترقب وفاة الملك أو السعي في إرضائه بذلك، أو أراد أن يستعلم من أخيه في مدة الانفراد به أحوال أبيه وأهلهم، لينظر كيف يأتي بهم أو ببعضهم»[٣].

وقال القاسمي: «وفي ما عزموا عليه لإنقاذ أخيهم من شرك العبودية، المقضى

---

(١) تفسير أبي السعود (٤/ ٢٩٩).
(٢) التحرير والتنوير (١٣/ ٣٦).
(٣) التحرير والتنوير (١٣/ ٣٨).

عليه بها ؛ ما يشف عن حسن طوية ، ووفاء بالوعد، ويعرب عن أمانة وصدق بر ، وشدة تمسك بموثق أبيهم ، محافظة على رضاه وإكرامه ، وهكذا فليتمسك البار بمرضاة أبويه»[1] .

* * *

(١) محاسن التأويل (٩/ ٢٦١).

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴿٨١﴾ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يخبر تعالى عن إخوة يوسف أنهم لما يئسوا من تخليص أخيهم بنيامين الذي قد التزموا لأبيهم برده إليه، وعاهدوه على ذلك، فامتنع عليهم ذلك ﴿خَلَصُوا﴾ أي: انفردوا عن الناس ﴿نَجِيًّا﴾ يتناجون فيما بينهم ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾ وهو روبيل، وقيل: يهوذا، وهو الذي أشار عليهم بإلقائه في البئر عندما هموا بقتله، قال لهم: ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ﴾ لتردنه إليه، فقد رأيتم كيف تعذر عليكم ذلك مع ما تقدم لكم من إضاعة يوسف عنه ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ﴾ أي: لن أفارق هذه البلدة ﴿حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي﴾ في الرجوع إليه راضيا عني ﴿أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي﴾ قيل: بالسيف، وقيل: بأن يمكنني من أخذ أخي ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾، ثم أمرهم أن يخبروا أباهم بصورة ما وقع، حتى يكون عذرا لهم عنده، ويتنصلوا إليه ويبرأوا مما وقع بقولهم وقوله: ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ قال قتادة وعكرمة: ما علمنا أن ابنك سرق. وقال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم: ما علمنا في الغيب أنه سرق له شيئًا، إنما سألنا ما جزاء السارق؟ ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ قيل: المراد مصر، قاله قتادة، وقيل غيرها، ﴿وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ أي: التي رافقناها، عن صدقنا وأمانتنا وحفظنا وحراستنا، ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ فيما أخبرناك به،

من أنه سرق وأخذوه بسرقته»(١).

وقال العدوي: «أي: فلما يئسوا من العزيز ومن قبوله شفاعتهم، والسين والتاء للمبالغة: أي فلما يئسوا من العزيز إلى حد بعيد من اليأس، فقد ييأس الإنسان ويكون عنده شيء من الأمل، أما هؤلاء فلم يكن في يأسهم شيء من الرجاء ﴿خَلَصُواْ نَجِيّاً﴾ اعتزلوا وانفردوا عن الناس خالصين لا يخالطهم أحد ﴿نَجِيّاً﴾ أي: ذوي نجوى، أو فوجا نجيا مناجيا لمناجاة بعضهم بعضا، أو تمحضوا كأنهم التناجي نفسه، لاستجماع قواهم وإفاضتهم فيه بجد واهتمام، كأنهم في أنفسهم صورة التناجي وحقيقته، كما تقول: رجل جور، ورجال عدل.

وكان تناجيهم في تدبير أمورهم على أي صفة يذهبون؟ وماذا يقولون لأبيهم في شأن أخيهم؟ والآية تمثل لنا صورة ارتباك الإخوة لذلك الحادث: حادث حجز أخيهم في الصواع، ورجوعهم إلى أبيهم فاقدين له بعد أن فقدوا يوسف، وترينا أن ذلك العمل قد شغل أذهانهم، وشتت أفكارهم، وآية ذلك أنهم توسلوا إلى العزيز بكل أسباب التأثير عليه، فلما لم ينجحوا في مهمتهم؛ اعتزلوا الناس جانبا، وأخذوا يتناجون، وكأنهم لفرط إقبالهم على ذلك التناجي واهتمامهم به، وحرصهم عليه انقلبوا نجوى.

﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾.

يذكرهم كبيرهم في السن أو في العقل أو فيهما معا؛ بذلك الموثق الذي أخذه عليهم أبوهم وهو يشير إلى قوله: ﴿لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾..

والمعنى أن كبيرهم يذكرهم بذلك الميثاق الذي أخذه عليهم أبوهم، ويذكرهم بسابقتهم مع يوسف وجنايتهم عليه، يريد أن المسألة قد بلغت من الصعوبة مبلغا عظيما، ولذلك عقبه بقوله: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ﴾ في الانصراف إليه ﴿أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى﴾ بالانتصاف ممن أخذ أخي، أو بخلاصه من يده بسبب من

(١) التفسير (٤/ ٤٢-٤٣).

الأسباب ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ لأنه لا يحكم إلا بالعدل ﴿ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ۝٨١ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ أي: إن ذلك الكبير أنفذ رأيه وبقي بمصر فلم يرجع إلى أبيه، وقال لهم ارجعوا إلى أبيكم فقولوا له يا أبانا إن ابنك سرق، وقد نسب إليه السرقة بناء على ما شاهد من استخراج الصواع من وعائه، أو سرق في قول الملك وأصحابه، أو ظهر عليه ما يشبه السرقة، وإطلاق اسم أحد الشبيهين على الآخر جائز.

وعن ابن عباس أنه قرأ: (سُرِّقَ) بضم السين وتشديد الراء على البناء للمفعول: أي نسب إلى السرقة.

﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ أي: بقدر ما تيقنا من رؤية الصواع في وعائه ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ﴾ أي: ما كنا حافظين للأمر الخفي، فإن الغيب لا يعلمه إلا اللَّه تعالى، ولعل الصواع دس في رحله من حيث لا يشعر، أو ما علمنا أنه سيسرق حين أعطيناك الموثق، ثم بالغوا لأبيكم في إزالة التهمة وقولوا له: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾.

قيل: القرية هي مصر، وقيل: قرية على باب مصر، وقع فيها التفتيش، والعير: القافلة، والمراد سل هؤلاء جميعهم وهم يخبرونك بكنه القصة»[1].

وقال ابن عاشور: «وعدم التعرض لقول صدر من بنيامين يدافع به عن نفسه؛ يدل على أنه لازم السكوت، لأنه كان مطلعا على مراد يوسف ﷺ من استبقائه عنده»[2].

قوله تعالى: ﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾

قال القرطبي: «فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ يريدون ما شهدنا قط إلا بما علمنا، وأما الآن فقد شهدنا بالظاهر وما نعلم الغيب؛ كأنهم وقعت لهم تهمة من قول بنيامين: دس هذا في رحلي من دس بضاعتكم في رحالكم؛ قال معناه ابن

(١) دعوة الرسل (ص: ١٤٥-١٤٦).
(٢) التحرير والتنوير (١٣/ ٤٠).

إسحق. وقيل المعنى: ما شهدنا عند يوسف بأن السارق يسترق إلا بما علمنا من دينك؛ قاله ابن زيد. ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ﴾ أي: لم نعلم وقت أخذناه منك أنه يسرق فلا نأخذه. وقال مجاهد وقتادة: ما كنا نعلم أن ابنك يسترق ويصير أمرنا إلى هذا، وإنما قلنا: نحفظ أخانا فيما نطيق..

الثانية: تضمنت هذه الآية جواز الشهادة بأي وجه حصل العلم بها؛ فإن الشهادة مرتبطة بالعلم عقلا وشرعا، فلا تسمع إلا ممن علم، ولا تقبل إلا منهم، وهذا هو الأصل في الشهادات؛ ولهذا قال أصحابنا شهادة الأعمى جائزة، وشهادة المستمع جائزة، وشهادة الأخرس إذا فهمت إشارته جائزة؛ وكذلك الشهادة على الخط إذا تيقن أنه خطه أو خط فلان صحيحة، فكل من حصل له العلم بشيء جاز أن يشهد به، وإن لم يشهده المشهود عليه؛ قال اللّه تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[1] وقال رسول اللّه ﷺ: «**ألا أخبركم بخير الشهداء خير الشهداء الذي يأتي بشهادته قبل أن يسألها**»[2]..

الثالثة: اختلف قول مالك في شهادة المرور؛ وهو أن يقول: مررت بفلان فسمعته يقول كذا، فإن استوعب القول شهد في أحد قوليه، وفي القول الآخر لا يشهد حتى يشهداه. والصحيح: أداء الشهادة عند الاستيعاب؛ وبه قال جماعة العلماء، وهو الحق؛ لأنه قد حصل المطلوب، وتعين عليه أداء العلم؛ فكان خير الشهداء إذا أعلم المشهود له، وشر الشهداء إذا كتمها واللّه أعلم.

الرابعة: إذا ادعى رجل شهادة لا يحتملها عمره ردت؛ لأنه ادعى باطلا فأكذبه العيان ظاهرا»[3].

وقال القاسمي: «ذكر القاضي عياض في (الشفا) في (بحث إعجاز القرآن): أن أعرابيا سمع رجلا يقرأ: ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا﴾ فقال: أشهد أن مخلوقا لا يقدر على مثل هذا الكلام.

---

(١) الزخرف: الآية (٨٦).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ١١٥) ومسلم (٣/ ١٣٤٤/ ١٧١٩) وأبو داود (٤/ ٢١-٢٢/ ٣٥٩٦) والترمذي (٤/ ٤٧٢/ ٢٢٩٥) والنسائي في الكبرى (٣/ ٤٩٤/ ٦٠٢٩) وابن ماجه (٢/ ٧٩٢/ ٢٣٦٤) من حديث زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه.

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٩/ ٢٤٤-٢٤٥).

وقال الثعالبي في كتاب (الإيجاز والإعجاز) في الباب الأول: من أراد أن يعرف جوامع الكلم، ويتنبه لفضل الاختصار، ويحيط ببلاغة الإيماء، ويفطن لكفاية الإيجاز؛ فليتدبر القرآن، وليتأمل علوه على سائر الكلام.

ثم قال: فمن ذلك قوله عز ذكره في إخوة يوسف: ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا﴾، وهذه صفة اعتزالهم جميع الناس، وتقليبهم الآراء ظهرا لبطن، وأخذهم في تزوير ما يلقون به أباهم عند عودهم إليه، وما يوردون عليه من ذكر الحادث. فتضمنت تلك الكلمات القصيرة معاني القصة الطويلة»[1].

* * *

(١) محاسن التأويل (٩/ ٢٦٢-٢٦٣).

قوله تعالى: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَـٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عاشور: «وقوله هنا كقوله لهم حين زعموا أن يوسف عليه السلام أكله الذئب، فهو تهمة لهم بالتغرير بأخيهم. قال ابن عطية: ظن بهم سوءا فصدق ظنه في زعمهم في يوسف عليه السلام ولم يتحقق ما ظنه في أمر بنيامين، أي أخطأ في ظنه بهم في قضية (بنيامين)، ومستنده في هذا الظن علمه أن ابنه لا يسرق، فعلم أن في دعوة السرقة مكيدة. فظنه صادق على الجملة لا على التفصيل. وأما تهمته أبناءه بأن يكونوا تمالؤوا على أخيهم بنيامين؛ فهو ظن مستند إلى القياس على ما سبق من أمرهم في قضية يوسف عليه السلام، فإنه كان قال لهم: ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾. ويجوز على النبي الخطأ في الظن في أمور العادات كما جاء في حديث ترك إبّار النخل[1]»[2].

قال ابن كثير: «قال لهم كما قال لهم حين جاءوا على قميص يوسف بدم كذب ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ قال محمد بن إسحاق: لما جاءوا يعقوب وأخبروه بما جرى، اتهمهم فظن أنها كفعلتهم بيوسف، قال: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ وقال بعض الناس: لما كان صنيعهم هذا مرتبا على فعلهم الأول، سحب حكم الأول عليه، وصح قوله: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ ثم ترجى من الله أن يرد عليه أولاده الثلاثة، يوسف وأخاه بنيامين وروبيل

(١) أخرجه: أحمد (١/ ١٦٢) ومسلم (٤/ ١٨٣٥/ ٢٣٦١) وابن ماجه (٢/ ٨٢٥/ ٢٤٧٠) من حديث طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه.

(٢) التحرير والتنوير (١٣/ ٤١).

الذي أقام بديار مصر ينتظر أمر اللّه فيه، إما أن يرضى عنه أبوه، فيأمره بالرجوع إليه، وإما أن يأخذ أخاه خفية، ولهذا قال: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي: العليم بحالي، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في أفعاله وقضائه وقدر، ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ أي: أعرض عن بنيه، وقال متذكرا حزن يوسف القديم الأول: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ جدد له حزن الابنين الحزن الدفين، قال عبدالرزاق: أنا الثوري عن سفيان العصفري، عن سعيد بن جبير أنه قال: لم يعط أحد غير هذه الأمة الاسترجاع، ألا تسمعون إلى قول يعقوب عليه السلام: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أي: ساكت لا يشكو أمره إلى مخلوق، قاله قتادة وغيره. قال الضحاك: ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ كئيب حزين»[1].

وقال الشوكاني: «قول: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ أي: زينت، والأمر هنا قولهم: ﴿إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ﴾ وما سرق في الحقيقة؛ وقيل: المراد بالأمر إخراجهم بنيامين، والمضي به إلى مصر طلبا للمنفعة فعاد ذلك بالمضرة؛ وقيل: التسويل: التخييل: أي خيلت لكم أنفسكم أمرا لا أصل له؛ وقيل: الأمر الذي سولت لهم أنفسهم فتياهم بأن السارق يؤخذ بسرقته، والإضراب هنا هو باعتبار ما أثبتوه من البراءة لأنفسهم، لا باعتبار أصل الكلام فإنه صحيح، والجملة مستأنفة مبنية على سؤال مقدر كغيرها، وجملة ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف أو مبتدأ خبره محذوف: أي فأمري صبر جميل أو فصبر جميل أجمل بي وأولى لي، والصبر الجميل هو الذي لا يبوح صاحبه بالشكوى بل يفوض أمره إلى اللّه ويسترجع، وقد ورد أن الصبر عند أول الصدمة[2] ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا﴾ أي: بيوسف وأخيه بنيامين، والأخ الثالث الباقي بمصر، وهو كبيرهم كما تقدم، وإنما قال هكذا لأنه قد كان عنده أن يوسف لم يمت، وأنه باق على الحياة وإن غاب عنه خبره»[3].

وقال العدوي: «﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ

---

(١) التفسير (٤/ ٤٣).

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ١٣٠) والبخاري (٣/ ١٩٠-١٩١/ ١٢٨٣) ومسلم (٢/ ٦٣٧-٦٣٨/ ٩٢٦) وأبو داود (٣/ ٤٩١/ ٣١٢٤) والترمذي (٣/ ٣١٤/ ٩٨٨) والنسائي (٤/ ٣٢٢/ ١٨٦٨) وابن ماجه (١/ ٥٠٩/ ١٥٩٦) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٣) فتح القدير (٣/ ٦٧-٦٨).

﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أي: أعرض عن بنيه يعقوب كراهة لما جاءوا به، أو انحاز في ناحية عنهم حتى لا يظهر أمامهم بمظهر الجزع، وكثيرًا ما يختار الرجل البعد عن الناس في مثل ذلك الوقت لينفس عن نفسه، قرئ يا أسفي بياء المتكلم، وقرئ بالألف المنقلبة عن الياء، ينادي أسفه وكأنه يقول له احضر فهذا وقتك وأوانك، والأسف هو أشد الحزن، وقد تأسف على يوسف دون أخويه مع أن الرزء الجديد أشد على النفس وأظهر أثرا، ليرينا أن رزء يوسف لم يزل جديدا مع تقادم عهده، وأنه أكبر رزء رآه، ولأن الرزء في يوسف كان أصل الرزايا الأخرى، فكان أسفه عليه أسفا على الكل، ولأنه كان عالما بحياة أخويه دون حياة يوسف.

﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أي: أنه لما أكثر البكاء محق سواد عينيه فجعله بياضًا فضعف بصره، و﴿كَظِيمٌ﴾ مملوء من الغيظ على أولاده، ولا يظهر ما يسوؤهم، فعيل بمعنى مفعول، من كظم السقاء إذا شده وهو مملوء، أو (كظيم) بمعنى كاظم: أي ممسك لحزنه غير مظهر إياه»[(١)].

وقال القاسمي: «دلت الآية على جواز التأسف والبكاء عند المصيبة.

قال الزمخشري: فإن قلت: كيف جاز لنبي اللَّه أن يبلغ به الجزع ذلك المبلغ؟ قلت: الإنسان مجبول على أن لا يملك نفسه عند الشدائد من الحزن، ولذلك حمد صبره، وأن يضبط نفسه حتى لا يخرج إلى ما لا يحسن.

ولقد بكى رسول اللَّه ﷺ على ولده إبراهيم وقال: «إن العين تدمع والقلب يحزن ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون»[(٢)]. وإنما الجزع المذموم ما يقع من الجهلة؛ من الصياح والنياحة ولطم الصدور والوجوه وتمزيق الثياب. وعن الحسن أنه بكى على ولد أو غيره فقيل له في ذلك؟ قال: ما رأيت اللَّه جعل الحزن عارا على يعقوب»[(٣)].

وقال القرطبي: «الواجب على كل مسلم إذا أصيب بمكروه في نفسه أو ولده أو ماله؛ أن يتلقى ذلك بالصبر الجميل، والرضا والتسليم لمجريه عليه وهو العليم

---

(١) دعوة الرسل (ص: ١٤٧).

(٢) سيأتي تخريجه قريبا.

(٣) محاسن التأويل (٩/ ٢٦٧).

الحكيم، ويقتدي بنبي اللَّه يعقوب وسائر النبيين، صلوات اللَّه عليهم أجمعين. وقال سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن الحسن قال: ما من جرعتين يتجرعهما العبد أحب إلى اللَّه من جرعة مصيبة يتجرعها العبد بحسن صبر وحسن عزاء، وجرعة غيظ يتجرعها العبد بحلم وعفو. وقال ابن جريج عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أي: لا أشكو ذلك إلى أحد.. قوله تعالى: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ لأنه كان عنده أن يوسف ﷺ لم يمت، وإنما غاب عنه خبره؛ لأن يوسف حمل وهو عبد لا يملك لنفسه شيئًا، ثم اشتراه الملك فكان في داره لا يظهر للناس، ثم حبس، فلما تمكن احتال في أن يعلم أبوه خبره؛ ولم يوجه برسول لأنه كره من إخوته أن يعرفوا ذلك فلا يدعوا الرسول يصل إليه. وقال: (بهم) لأنهم ثلاثة؛ يوسف وأخوه، والمتخلف من أجل أخيه، وهو القائل: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ﴾»[1].

وقال: «قال النحاس: فإن سأل قوم عن معنى شدة حزن يعقوب ﷺ وعلى نبينا؛ فللعلماء في هذا ثلاثة أجوبة:

منها: أن يعقوب ﷺ لما علم أن يوسف ﷺ حي خاف على دينه، فاشتد حزنه لذلك.

وقيل: إنما حزن لأنه سلمه إليهم صغيرا، فندم على ذلك.

والجواب الثالث: وهو أبينها؛ هو أن الحزن ليس بمحظور، وإنما المحظور الولولة وشق الثياب، والكلام بما لا ينبغي. وقال النبي ﷺ: «تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول ما يسخط الرب»[2]. وقد بين اللَّه -جل وعز- ذلك بقوله: ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أي: مكظوم مملوء من الحزن ممسك عليه لا يبثه؛ ومنه كظم الغيظ وهو إخفاؤه؛ فالمكظوم المسدود عليه طريق حزنه؛ قال اللَّه تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾[3] أي: مملوء كربا. ويجوز أن يكون المكظوم بمعنى الكاظم؛ وهو المشتمل على حزنه. وعن ابن عباس: كظيم مغموم»[4].

(١) الجامع لأحكام القرآن (٩/ ٢٤٦-٢٤٧).
(٢) سيأتي تخريجه قريبا.
(٣) القلم: الآية (٤٨).
(٤) الجامع لأحكام القرآن (٩/ ٢٤٨-٢٤٩).

وقال أبو السعود: «والتجانس بين لفظي الأسف ويوسف مما يزيد النظم الكريم بهجة؛ كما في قوله ﷻ: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾[١] وقوله: ﴿ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ أَرَضِيتُم﴾[٢] وقوله: ﴿ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾[٣] ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾[٤] ونظائرها. ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ﴾ الموجب للبكاء؛ فإن العبرة إذا كثرت محقت سواد العين وقلبته إلى بياض كدر، قيل قد عمى بصره، وقيل كان يدرك إدراكا ضعيفا»[٥].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان البكاء المباح والحزن الجائز

* عن أنس بن مالك ﷺ قال: «دخلنا مع رسول الله ﷺ على أبي سيف القين -وكان ظئرًا لإبراهيم- فأخذ رسول الله ﷺ إبراهيم فقبله وشمه. ثم دخلنا عليه بعد ذلك وإبراهيم يجود بنفسه، فجعلت عينا رسول الله ﷺ تذرفان. فقال له عبدالرحمن بن عوف ﷺ: وأنت يا رسول الله؟ فقال: «**يا ابن عوف إنها رحمة**». ثم أتبعها بأخرى فقال ﷺ: «**إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون**»»[٦].

★ **غريب الحديث:**

الظئر: المرضع، وأطلق ذلك على الزوج لأنه كان زوج المرضعة، وأصل الظئر من ظأرت الناقة إذا عطفت على غير ولدها، فقيل ذلك للتي ترضع غير ولدها.

★ **فوائد الحديث:**

قال النووي: «فيه جواز البكاء على المريض والحزن، وأن ذلك لا يخالف الرضا بالقدر، بل هي رحمة جعلها الله في قلوب عباده؛ وإنما المذموم الندب والنياحة والويل والثبور، ونحو ذلك من القول الباطل، ولهذا قال ﷺ: «**ولا نقول**

---

(١) الأنعام: الآية (٢٦). (٢) التوبة: الآية (٣٨).
(٣) النحل: الآية (٦٩). (٤) النمل: الآية (٢٢).
(٥) تفسير أبي السعود (٤/ ٣٠١-٣٠٢).
(٦) أخرجه: أحمد (٣/ ١٩٤)، والبخاري (٣/ ٢٢٢/ ١٣٠٣)، ومسلم (٤/ ١٨٠٧-١٨٠٨/ ٢٣١٥)، وأبو داود (٣/ ٤٩٣/ ٣١٢٦).

إلا ما يرضي ربنا»»[١].

قال ابن بطال: «هذا البكاء تفسير البكاء المباح والحزن الجائز، وذلك ما كان يدمع العين ورقة النفس، ولم يكن تسخطا لأمر الله؛ إذ الفطر مجبولة على الحزن»[٢].

وقال أيضًا: «النوح محرم لأنه من دين الجاهلية؛ ألا ترى أن النبي ﷺ كان يشترط على النساء في مبايعتهن على الإسلام: ألا ينحن، وهذا الباب يدل على أن النهي على البكاء على الميت إنما هو إذا كان فيه نوح، ويدل على جواز البكاء بغير نوح قول عمر[٣]: دعهن يبكين ما لم يكن نقع أو لقلقة. فأباح لهن البكاء بغير نوح»[٤].

* * *

(١) شرح مسلم (١٥/ ٦١).

(٢) شرح البخاري (٣/ ٢٨٧-٢٨٨).

(٣) أخرجه: البخاري (٣/ ٢٠٦) معلقا بصيغة الجزم، ووصله عبد الرزاق (٣/ ٥٥٨-٥٥٩/ ٦٦٨٥) وابن أبي شيبة (٢/ ٤٨٦/ ١١٣٤٢) والحاكم (٣/ ٢٩٧) والبيهقي في الكبرى (٤/ ٧١).

(٤) شرح البخاري (٣/ ٢٧٦).

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ ۝٨٥﴾

★ **غريب الآية:**

تفتؤا: يقال: فتأت وفتئت أفعل ذلك أي: ما زلت. قال أبو حيان: حذفت منه (لا) لأن حذفها جائز، والمعنى لا تزال.

حرضا: حَرَض يحرُض ويحرِض حرْضا وحروضا: هلك، وأحرضه المرض: أفسد بدنه، وأشفى على الهلاك.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال أبو السعود: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ﴾ أي: لا تفتأ ولا تزال ﴿تَذۡكُرُ يُوسُفَ﴾ تفجعا عليه، فحذف حرف النفي كما في قوله: (فقلت يمين اللّه أبرح قاعدا) لعدم الالتباس بالإثبات، فإن القسم إذا لم يكن معه علامة الإثبات يكون على النفي البتة. ﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾ مريضا مشفيا على الهلاك، وقيل الحرض من أذابه هم أو مرض.. ﴿أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ﴾ أي: الميتين»[١].

وقال القرطبي: «وغرضهم منع يعقوب من البكاء والحزن شفقة عليه، وإن كانوا السبب في ذلك»[٢].

وقال ابن كثير: «فعند ذلك رق له بنوه، وقالوا له على سبيل الرفق به والشفقة عليه: ﴿تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ﴾ أي: لا تفارق تذكر يوسف ﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾ أي: ضعيف القوة ﴿أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ﴾ يقولون: إن استمر بك هذا الحال خشينا عليك الهلاك والتلف»[٣].

---

(١) تفسير أبي السعود (٤/ ٣٠٢).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٩/ ٢٥١).

(٣) التفسير (٤/ ٤٤).

وقال العدوي: «يقول بعض المفسرين: الأظهر أن الذين قالوا ذلك ليسوا أولاده الذين تولى عنهم، وإنما هم جماعة كانوا في الدار من خدمه وأولاد أولاده، وهو الظاهر من توليه عن أولاده وبكائه بعيدا عنهم، والآية تحتمل أن أولاده هم الذين قالوا ذلك بعد أن عرفوا أنه تركهم ليندب حظه مع يوسف وإخوته، وينادي أسفه وحزنه ﴿تَاللَّهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ هو قسم فيه معنى التعجب من مكث يعقوب على ذكر يوسف، والحرض فساد في الجسم والعقل للحزن والحب، حتى يكون لا كالأحياء ولا كالأموات، أرادوا أنك تذكر يوسف بالحزن والبكاء عليه، حتى تشرف على الهلاك أو تهلك، وهي كلمات إشفاق على نبي اللَّه يعقوب، كأنهم يقولون له: هون على نفسك الأمر، واقتصد في ذلك الحزن، وارحم نفسك فإنها مشفية على الهلاك»[1].

وقال المراغي: «أي: قال ولد يعقوب الذين جاءوا من مصر حين قال: ﴿يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾: تاللَّه لا تزال تذكر يوسف وتلهج به؛ حتى تصير بذلك إلى مرض لا تنتفع بنفسك معه، أو تموت من الغم.

وخلاصة ذلك: إنك الآن في بلاء شديد، ونخاف أن يحصل لك ما هو أكثر وأقوى منه، وهم يريدون بذلك منعه من البكاء والأسف»[2].

* * *

(١) دعوة الرسل (ص: ١٤٧).

(٢) تفسير المراغي (١٣/ ٢٩).

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أي: أجابهم عما قالوا بقوله: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ﴾ أي: همي وما أنا فيه ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ وحده، ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: أرجو منه كل خير، وعن ابن عباس ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ يعني رؤيا يوسف إنها صدق، وأن الله لا بد أن يظهرها؛ وقال العوفي عنه في الآية: أعلم أن رؤيا يوسف صادقة، وأني سوف أسجد له»[1].

وقال العدوي: «قال العلماء: إذا أسر الإنسان حزنه كان هما، وإذا لم يقدر على إسراره لعظمه فذكر لغيره؛ كان بثا، فالبث أصعب الهم الذي لا يصبر عليه صاحبه، فيبثه على الناس ليفرج عن نفسه، من البث وهو التفريق، فمعنى الآية: أني لا أذكر الحزن الشديد ولا القليل إلى أحد من الخلق، وإنما أذكره لله تعالى، فخلوني وشكايتي، ودعوني وما أصنع ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: أعلم من رحمته وإحسانه ما لا تعلمون، فأرجو أن يأتيني الفرج من حيث لا أحتسب»[2].

وقال البقاعي: «ولما تشوفت النفس إلى ما كان عنه بعدما رأى من غلظة بنيه، شفى عيها بقوله: ﴿قَالَ إِنَّمَا﴾ أي: نعم لا أزال كذلك؛ لأنه من صفات الكمال للإنسان لدلالته على الرقة والوفاء، وإنما يكون مذموما إذا كان على وجه الشكاية إلى الخلق، وأنا لا أشكو إلى مخلوق، إنما ﴿أَشْكُواْ بَثِّي﴾ والبث أشد الحزن، سمي بذلك لأنه من صعوبته لا يطاق حمله فيباح به وينشر، ﴿وَحُزْنِيٓ﴾ مطلقا وإن كان سببه خفيفا يقدر الخلق على إزالته، ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: المحيط بكل شيء علما وقدرة؛ تعرضا لنفحات كرمه، لا إلى أحد غيره، وهذا الذي سمعتوه مني، فقلقتم

(١) التفسير (٤/ ٤٤).

(٢) دعوة الرسل (ص: ١٤٧-١٤٨).

له قليل من كثير.

ولما كان يجوز أن يكونوا صادقين في أنهم لم يجدوا إلا قميص يوسف ملطخا دما، وأن يكون قطعهم بأكل الذئب له مستندا إلى ذلك، وكان يعقوب ﷺ يغلب على ظنه أن يوسف ﷺ حي، ويظن في الله أن يجمع شمله به؛ قال: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ﴾ أي: الملك الأعلى من اللطف بنا أهل هذا البيت، ومن التفريج عن المكروبين والتفريج للمغمومين ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾»[١].

وقال ابن العربي: «وأحسن الكلام في الشكوى؛ سؤال المولى زوال البلوى، وذلك قول يعقوب: ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من جميل صنعه وغريب لطفه، وعائدته على عباده»[٢].

وقال شيخ الإسلام: «فإنزال الفاقة بالناس أن يشكو إليهم ويترك الشكوى إلى الله، فلو كانت الاستغاثة بالمخلوق جائزة لجاز إنزالها بالناس، وقد قال يعقوب ﷺ: ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ ۝ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾[٣] وقال النبي ﷺ لابن عباس: «إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله»[٤] ورأى الفضيل بن عياض رجلا يشكو إلى رجل فقال: يا هذا أتشكو من يرحمك إلى من لا يرحمك! وقال بعضهم: ذكر الله الصبر الجميل، والهجر الجميل، والصفح الجميل؛ فالصبر الجميل الذي ليس فيه شكوى إلى المخلوق، والهجر الجميل الذي ليس فيه أذى، والصفح الجميل الذي ليس فيه عتاب»[٥].

وقال: «فهذا إسرائيل نبي كريم قد حزن على ابنه هذا الحزن، ولم يكن هذا مما يسب عليه»[٦].

وقال ابن عاشور: «وجملة ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ مفيدة قصر شكواه على التعلق باسم الله، أي يشكو إلى الله لا إلى نفسه ليجدد الحزن، فصارت الشكوى بهذا القصد ضراعة، وهي عبادة لأن الدعاء عبادة، وصار ابيضاض عينيه

---

(١) نظم الدرر (١٠/ ١٩٩).
(٢) أحكام القرآن (٣/ ١١٠٤).
(٣) الشرح: الآيتان (٧ و ٨).
(٤) أخرجه: أحمد (١/ ٢٩٣) والترمذي (٤/ ٥٧٥-٥٧٦/ ٢٥١٦) وقال: «حسن صحيح» من حديث ابن عباس ﷺ.
(٥) الاستغاثة (١/ ٢٧٥-٢٧٧).
(٦) منهاج السنة (٨/ ٤٥٩).

الناشئ عن التذكر الناشئ عن الشكوى؛ أثرا جسديا ناشئا عن عبادة مثل تفطر أقدام النبي ﷺ من قيام الليل[(١)].. وقد أعقب كلامه بقوله: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ لينبههم إلى قصور عقولهم عن إدراك المقاصد العالية، ليعلموا أنهم دون مرتبة أن يعلموه أو يلوموه؛ أي: أنا أعلم علما من عند اللَّه علمنيه لا تعلمونه وهو علم النبوءة. وقد تقدم نظير هذه الجملة في قصة نوح عليه السلام من سورة الأعراف، فهي من كلام النبوءة الأولى. وحكي مثلها عن شعيب عليه السلام في سورة الشعراء.

وفي هذا تعريض برد تعرضهم بأنه يطمع في المحال، بأن ما يحسبونه محالا سيقع»[(٢)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في مدح البكاء من خشية الله

* عن عبداللَّه بن شداد رضي الله عنه قال: «سمعت نشيج عمر بن الخطاب رضي اللَّه عنه، وإني لفي آخر الصفوف في صلاة الصبح، وهو يقرأ ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾»[(٣)].

* عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها: أن رسول اللَّه ﷺ قال في مرضه: «**مروا أبا بكر يصلي بالناس**». قالت عائشة: قلت: إن أبا بكر إذا قام في مقامك لم يسمع الناس من البكاء، فمر عمر فليصل. فقال: «**مروا أبا بكر فليصل للناس**». قالت عائشة لحفصة: قولي له: إن أبا بكر إذا قام في مقامك لم يسمع الناس من البكاء، فمر عمر فليصل للناس. ففعلت حفصة، فقال رسول اللَّه ﷺ: «**مه، إنكن لأنتن صواحب يوسف، مروا أبا بكر فليصل للناس**»، قالت حفصة لعائشة: ما كنت لأصيب منك خيرًا[(٤)].

---

(١) أخرجه: أحمد (٦/ ١١٥) والبخاري (٨/ ٧٥١/ ٤٨٣٧) ومسلم (١/ ٥٠٥/ ٧٣١) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) التحرير والتنوير (١٣/ ٤٤-٤٥).

(٣) أخرجه: عبد الرزاق (٢/ ١١٤/ ٢٧١٦) وابن أبي شيبة (٧/ ٢٢٤/ ٣٥٥٢٧) وابن سعد (٦/ ١٢٦) والبيهقي في الشعب (٢/ ٣٦٤/ ٢٠٥٧). وعلقه البخاري في كتاب الأذان: (باب إذا بكى الإمام في الصلاة) الفتح (٢/ ٢٦٢).

(٤) أخرجه: أحمد (٦/ ١٥٩) والبخاري (٢/ ٢٦٢/ ٧١٦) ومسلم (١/ ٣١١/ ٤١٨) والنسائي (٢/ ٤٣٤-٤٣٥/ ٨٣٢) وابن ماجه (١/ ٣٨٩/ ١٢٣٢).

★ **غريب الحديث:**

نشيج: نشج الباكي ينشج نشيجا إذا غص بالبكاء في حلقه من غير انتحاب.

وقال الهروي: النشيج صوت معه ترجيع كما يردد الصبي بكاءه في صدره.

★ **فوائد الحديثين:**

قال شيخ الإسلام: «والأنين والبكاء من خشية الله، والتضرع والشكاية إلى الله ﷻ حسن»(١).

وقال: «فأما ما يغلب عليه المصلي من عطاس وبكاء وتثاؤب، فالصحيح عند الجمهور أنه لا يبطل»(٢).

قال الحافظ: «قول البخاري (باب إذا بكى الإمام في الصلاة): أي هل تفسد أو لا؟ والأثر والخبر اللذان في الباب يدلان على الجواز»(٣).

قال الحافظ ابن رجب: «مقصوده من إيراد هذا الحديث في هذا الباب: أن النبي ﷺ؛ أمر أبا بكر أن يصلي بالناس مع تكرار القول له أنه إذا قام مقامه لا يسمع الناس من البكاء، فدل على أن البكاء من خشية الله في الصلاة لا يضر الصلاة، بل يزينها، فإن الخشوع زينة الصلاة»(٤).

وقال: «وقد دل القرآن على مدح الباكين من خشية الله في سجودهم، فقال تعالى: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ﴾(٥) وقال: ﴿خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾(٦)»(٧).

وقال: «وما تقدم عن أبي بكر وعمر ﵄؛ يدل على أن البكاء في الصلاة من خشية الله حسن جميل.

ويقبح أن يقال: لا يبطلها، فإن ما كان زينة الصلاة وزهرتها وجمالها؛ كيف يقنع فيه بأن يقال فيه غير مبطل؟! ولم يزل السلف الصالح الخاشعون لله على ذلك»(٨).

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٤/ ٢٨٤).
(٢) مجموع الفتاوى (٢٢/ ٦٢٣).
(٣) الفتح (٢/ ٢٦٢).
(٤) فتح الباري (٦/ ٢٦٢).
(٥) الإسراء: الآية (١٠٩).
(٦) مريم: الآية (٥٨).
(٧) فتح الباري (٦/ ٢٦٣).
(٨) فتح الباري (٦/ ٢٦٤-٢٦٥).

قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبرا عن يعقوب عليه السلام: إنه ندب بنيه على الذهاب في الأرض يستعلمون أخبار يوسف وأخيه بنيامين، والتحسس يكون في الخير، والتجسس يكون في الشر، ونهضهم وبشرهم وأمرهم أن لا ييأسوا من روح اللّه؛ أي: لا يقطعوا رجاءهم وأملهم من اللّه فيما يرومونه ويقصدونه، فإنه لا يقطع الرجاء ولا ييأس من روح اللّه إلا القوم الكافرون. وقوله: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ﴾ تقدير الكلام: فذهبوا فدخلوا مصر، ودخلوا على يوسف ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ﴾ يعنون من الجدب والقحط وقلة الطعام، ﴿وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ﴾ أي: ومعنا ثمن الطعام الذي نمتاره، وهو ثمن قليل، قاله مجاهد والحسن وغير واحد. وقال ابن عباس: الرديء لا ينفق مثل خلق الغرارة والحبل والشيء؛ وفي رواية عنه: الدراهم الرديئة التي لا تجوز إلا بنقصان؛ وكذا قال قتادة والسدي..

وقوله إخبارا عنهم: ﴿فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ﴾ أي: أعطنا بهذا الثمن القليل ما كنت تعطينا قبل ذلك، وقرأ ابن مسعود: فأوقر ركابنا وتصدق علينا. وقال ابن جريج: وتصدق علينا برد أخينا إلينا. وقال سعيد بن جبير والسدي ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾ يقولون: تصدق علينا بقبض هذه البضاعة المزجاة، وتجوز فيها»[1].

وقال ابن عاشور: «وجملة ﴿إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ تعليل

(١) التفسير (٤/ ٤٥).

للنهي عن اليأس، فموقع (إن) التعليل. والمعنى: لا تيأسوا من الظفر بيوسف ﷺ معتلين بطول مدة البعد التي يبعد معها اللقاء عادة. فإن اللَّه إذا شاء تفريج كربة هيأ لها أسبابها، ومن كان يؤمن بأن اللَّه واسع القدرة لا يحيل مثل ذلك، فحقه أن يأخذ في سببه ويعتمد على اللَّه في تيسيره، وأما القوم الكافرون باللَّه فهم يقتصرون على الأمور الغالبة في العادة وينكرون غيرها»[1].

وقال الشوكاني: «ثم طلبوا منه بعد أن أخبروه بالبضاعة التي معهم أن يوفي لهم الكيل: أي يجعله تاما لا نقص فيه، وطلبوا منه أن يتصدق عليهم؛ إما بزيادة يزيدها لهم على ما يقابل بضاعتهم، أو بالإغماض عن رداءة البضاعة التي جاءوا بها، وأن يجعلها كالبضاعة الجيدة في إيفاء الكيل لهم بها، وبهذا قال أكثر المفسرين»[2].

وقال الرازي: «اعلم أن المفسرين اتفقوا على أن ههنا محذوفا والتقدير: أن يعقوب لما قال لبنيه ﴿ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ قبلوا من أبيهم هذه الوصية فعادوا إلى مصر، ودخلوا على يوسف ﷺ فقالوا له ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ﴾.

فإن قيل: إذا كان يعقوب أمرهم أن يتحسسوا أمر يوسف وأخيه، فلماذا عدلوا إلى الشكوى وطلبوا إيفاء الكيل؟

قلنا: لأن المتحسسين يتوسلون إلى مطلوبهم بجميع الطرق، والاعتراف بالعجز وضيق اليد، ورقة الحال وقلة المال، وشدة الحاجة مما يرقق القلب، فقالوا: نجربه في ذكر هذه الأمور، فإن رق قلبه لنا ذكرنا له المقصود وإلا سكتنا. فلهذا السبب قدموا ذكر هذه الواقعة. وقالوا يا أيها العزيز، والعزيز هو الملك القادر المنيع ﴿مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ﴾ وهو الفقر والحاجة وكثرة العيال وقلة الطعام، وعنوا بأهلهم من خلفهم ﴿وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ﴾»[3].

وقال: «واعلم أن اليأس من رحمة اللَّه تعالى لا يحصل إلا إذا اعتقد الإنسان أن الإله غير قادر على الكمال، أو غير عالم بجميع المعلومات، أو ليس بكريم بل هو بخيل، وكل واحد من هذه الثلاثة يوجب الكفر، فإذا كان اليأس لا يحصل إلا عند

---

(١) التحرير والتنوير (١٣/ ٤٦).

(٢) فتح القدير (٣/ ٧٠).

(٣) تفسير الفخر الرازي (١٨/ ٢٠٥).

حصول أحد هذه الثلاثة، وكل واحد منها كفر؛ ثبت أن اليأس لا يحصل إلا لمن كان كافرا والله أعلم»[١].

قوله: ﴿مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ﴾ قال القرطبي: «أي: الجوع والحاجة؛ وفي هذا دليل على جواز الشكوى عند الضر، أي الجوع؛ بل واجب عليه إذا خاف على نفسه الضر من الفقر وغيره أن يبدي حالته إلى من يرجو منه النفع؛ كما هو واجب عليه أن يشكو ما به من الألم إلى الطبيب ليعالجه؛ ولا يكون ذلك قدحا في التوكل، وهذا ما لم يكن التشكي على سبيل التسخط؛ والصبر والتجلد في النوائب أحسن، والتعفف عن المسألة أفضل؛ وأحسن الكلام في الشكوى سؤال المولى زوال البلوى؛ وذلك قول يعقوب: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: من جميل صنعه، وغريب لطفه، وعائدته على عباده؛ فأما الشكوى على غير مشك فهو السفه، إلا أن يكون على وجه البث والتسلي»[٢].

وقال القاسمي: «تنبيهات:

الأول: في الآية إرشاد إلى أدب جليل، وهو تقديم الوسائل أمام المآرب، فإنها أنجح لها. وهكذا فعل هؤلاء: قدموا ما ذكر من رقة الحال، والتمسكن وتصغير العوض، ولم يفجؤوه بحاجتهم، ليكون ذريعة إلى إسعاف مرامهم، ببعث الشفقة وهز العطف والرأفة، وتحريك سلسلة الرحمة كما قدمنا، ومن ثم رق لهم، وملكته الرحمة عليهم، فلم يتمالك أن عرفهم نفسه، كما يأتي.

الثاني: يؤخذ من الآية جواز شكوى الحاجة لمن يرجى منه إزالتها.

الثالث: استدل بعضهم بقوله تعالى: ﴿فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ﴾ على أن أجرة الكيال على البائع؛ لأنه إذا كان عليه توفية الكيل، فعليه مؤنته وما يتم به.

الرابع: استدل بقوله تعالى: ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾ من قال: إن الصدقة لم تكن محرمة على الأنبياء -كذا في الإكليل- وهذا بعد تسليم نبوة إخوة يوسف، وفيها خلاف[٣].

---

(١) تفسير الفخر الرازي (١٨/ ٢٠٣).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٩/ ٢٥٢-٢٥٣).

(٣) والصحيح: أنهم ليسوا بأنبياء، انظر الكلام عن ذلك فيما تقدم عند الآيتين (٤و٥) من هذه السورة.

الخامس: في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ﴾ حث على الإحسان، وإشارة إلى أن المحسن يجزى أحسن جزاء منه تعالى، وإن لم يجزه المحسن إليه»[١].

* * *

(١) محاسن التأويل (٩/ ٢٧٠).

قوله تعالى: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴿٩١﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشوكاني: «الاستفهام في قوله: ﴿هَلْ عَلِمْتُم﴾ للتوبيخ والتقريع، وقد كانوا عالمين بذلك، ولكنه أراد ما ذكرناه، ويستفاد منه تعظيم الواقعة لكونه في قوة: ما أعظم الأمر الذي ارتكبتم من يوسف وأخيه! وما أقبح ما أقدمتم عليه؟! كما يقال للمذنب: هل تدري من عصيت؟ والذي فعلوا بيوسف هو ما تقدم مما قصه الله سبحانه علينا في هذه السورة، وأما ما فعلوا بأخيه؛ فقال جماعة من المفسرين: هو ما أدخلوه عليه من الغم بفراق أخيه يوسف، وما كان يناله منهم من الاحتقار والإهانة، ولم يستفهمهم عما فعلوا بأبيهم يعقوب، مع أنه قد ناله منهم ما قصه الله فيما سبق من صنوف الأذى. قال الواحدي: ولم يذكر أباه يعقوب مع عظم ما دخل عليه من الغم بفراقه؛ تعظيما له ورفعا من قدره، وعلما بأن ذلك كان بلاء له من الله ﷻ، ليزيد في درجته عنده: ﴿إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ﴾ نفى عنهم العلم وأثبت لهم صفة الجهل، لأنهم لم يعملوا بما يقتضيه العلم. وقيل: إنه أثبت لهم صفة الجهل لقصد الاعتذار عنهم، وتخفيف الأمر عليهم، فكأنه قال: إنما أقدمتم على ذلك الفعل القبيح المنكر وقت عدم علمكم بما فيه من الإثم، وقصور معارفكم عن عاقبته، وما يترتب عليه، أو أراد أنهم عند ذلك في أوان الصبا وزمان الصغر، اعتذارا لهم ودفعا لما يدهمهم من الخجل والحيرة؛ مع علمه وعلمهم بأنهم كانوا في ذلك الوقت كبارا ﴿قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾.. على الاستفهام التقريري، وكان ذلك منهم على طريق التعجب والاستغراب! قيل: سبب معرفتهم له بمجرد قوله لهم:

﴿مَا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ أنهم لما قال لهم ذلك تنبهوا، وفهموا أنه لا يخاطبهم بمثل هذا إلا هو. وقيل: إنه لما قال لهم بهذه المقالة وضع التاج عن رأسه فعرفوه؛ وقيل: إنه تبسم فعرفوا ثناياه ﴿قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي﴾ أجابهم بالاعتراف بما سألوه عنه. قال ابن الأنباري: أظهر الاسم فقال: أنا يوسف ولم يقل: أنا هو، تعظيما لما وقع به من ظلم إخوته، كأنه قال: أنا المظلوم المستحل منه المحرم المراد قتله. فاكتفى بإظهار الاسم عن هذه المعاني، وقال: وهذا أخي مع كونهم يعرفونه ولا ينكرونه، لأن قصده وهذا أخي المظلوم كظلمي ﴿قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ بالخلاص عما ابتلينا به، وقيل: من اللّه علينا بكل خير في الدنيا والآخرة؛ وقيل: بالجمع بيننا بعد التفرق، ولا مانع من إرادة جميع ذلك ﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ﴾ . . . والمعنى: إنه من يفعل التقوى، أو يفعل ما يقيه عن الذنوب ويصبر على المصائب ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ على العموم، فيدخل فيه ما يفيده السياق دخولا أوليا، وجاء بالظاهر وكان المقام مقام المضمر: أي أجرهم للدلالة على أن الموصوفين بالتقوى موصوفون بصفة الإحسان ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ أي: لقد اختارك وفضلك علينا بما خصك به من صفات الكمال، وهذا اعتراف منهم بفضله وعظيم قدره.. قالوا هذه المقالة المتضمنة للاعتراف بالخطأ والذنب؛ استجلابا لعفوه واستجذابا لصفحه»[1].

قال الزمخشري: «أتاهم من جهة الدين، وكان حليمًا موفقًا، فكلمهم مستفهما عن معرفة وجه القبح الذي يجب أن يراعيه التائب، فقال: هل علمتم قبح ﴿مَا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ﴾ لا تعلمون قبحه فلذلك، أقدمتم عليه: يعني هل علمتم قبحه فتبتم إلى اللّه منه، لأن علم القبح يدعو إلى الاستقباح، والاستقباح يجر إلى التوبة، فكان كلامه شفقة عليهم وتنصحا لهم في الدين لا معاتبة وتثريبا، إيثارا لحق اللّه على حق نفسه في ذلك المقام الذي يتنفس فيه المكروب، وينفث المصدور ويتشفى المغيظ المحنق، ويدرك ثاره الموتور، فلله أخلاق الأنبياء ما أوطأها وأسجحها! ولله حصا عقولهم ما أرزنها وأرجحها!. وقيل: لم يرد نفي العلم عنهم لأنهم كانوا علماء، ولكنهم لما لم يفعلوا ما يقتضيه العلم ولا يقدم عليه

(١) فتح القدير (٣/ ٧٢-٧٣).

إلا جاهل؛ سماهم جاهلين. وقيل معناه: إذ أنتم صبيان في حد السفه والطيش، قبل أن تبلغوا أوان الحلم والرزانة»[١].

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبرا عن يوسف ﷺ، أنه لما ذكر له إخوته ما أصابهم من الجهد والضيق وقلة الطعام وعموم الجدب، وتذكر أباه وما هو فيه من الحزن لفقد ولديه مع ما هو فيه من الملك والتصرف والسعة، فعند ذلك أخذته رقة ورأفة ورحمة وشفقة على أبيه وإخوته، وبدره البكاء فتعرف إليهم، فيقال: إنه رفع التاج عن جبهته، وكان فيها شامة؛ وقال: ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ﴾ يعني كيف فرقوا بينه وبين أخيه ﴿إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ﴾ أي: إنما حملكم على هذا الجهل بمقدار هذا الذي ارتكبتموه، كما قال بعض السلف: كل من عصى اللّه فهو جاهل، وقرأ ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾[٢] الآية؛ والظاهر -واللّه أعلم- أن يوسف ﷺ إنما تعرف إليهم بنفسه بإذن اللّه تعالى له في ذلك، كما أنه إنما أخفى منهم نفسه في المرتين الأوليين بأمر اللّه تعالى له في ذلك، واللّه أعلم، ولكن لما ضاق الحال واشتد الأمر، فرج اللّه تعالى من ذلك الضيق، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾[٣] فعند ذلك قالوا: ﴿أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾.. لأن الاستفهام يدل على الاستعظام، أي أنهم تعجبوا من ذلك أنهم يترددون إليه من سنتين وأكثر؛ وهم لا يعرفونه وهو مع هذا يعرفهم ويكتم نفسه؛ فلهذا قالوا على سبيل الاستفهام ﴿أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي﴾.

وقوله: ﴿قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ أي: بجمعه بيننا بعد التفرقة وبعد المدة ﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ۝ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ الآية؛ يقولون معترفين له بالفضل والأثرة عليهم في الخلق والخلق والسعة والملك والتصرف والنبوة أيضًا، على قول من لم يجعلهم أنبياء، وأقروا له بأنهم أساءوا إليه وأخطأوا في حقه»[٤].

وقال القاسمي: «وهذه الآية تصديق لقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ

(١) الكشاف (٢/ ٣٤٠-٣٤١).
(٢) النحل: الآية (١١٩).
(٣) الشرح: الآيتان (٥ و ٦).
(٤) التفسير (٤/ ٤٦-٤٧).

﴿هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

لطائف: الأولى: أبدى المهايمي مناسبة بديعة في قول يوسف لهم: ﴿هَلْ عَلِمْتُم﴾ إثر قولهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾، وهو أنهم أرادوا بقولهم: ﴿إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ﴾ أنه يعطيهم في الآخرة ما هو خير من العوض الدنيوي، فأشار لهم يوسف بأنكم تريدون دفع الضرر العاجل، بوعد الأجر الآجل، ولا تدفعون عن أنفسكم الضرر الآجل، كأنكم تنكرونه، هل علمتم ضرر ما فعلتم بيوسف؟.

الثانية: قيل: من تلطفه بهم قوله: ﴿إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ﴾، كالاعتذار عنهم، لأن فعل القبيح على جهل بمقدار قبحه، أسهل من فعله على علم. وهم لو ضربوا في طرق الاعتذار لم يلفوا عذرا كهذا. ألا ترى أن موسى ﷺ، لما اعتذر عن نقصه لم يزد على أن قال: ﴿فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾[1]؛ ففيه تخفيف للأمر عليهم.

الثالثة: قال الزمخشري: فإن قلت: ما فعلهم بأخيه؟ قلت: تعريضهم إياه للغم والثكل، بإفراده عن أخيه لأبيه وأمه، وجفاؤهم به، حتى كان لا يستطيع أن يكلم أحدا منهم إلا كلام الذليل للعزيز، وإيذاؤهم له بأنواع الأذى»[2].

وقال ابن عاشور: «وجملة ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ﴾ تعليل لجملة ﴿مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ﴾. فيوسف ﷺ اتقى الله وصبر وبينامين صبر ولم يعص الله فكان تقيا. أراد يوسف ﷺ تعليمهم وسائل التعرض إلى نعم الله تعالى، وحثهم على التقوى والتخلق بالصبر؛ تعريضا بأنهم لم يتقوا الله فيه وفي أخيه، ولم يصبروا على إيثار أبيهم إياهما عليهم.

وهذا من أفانين الخطابة؛ أن يغتنم الواعظ الفرصة لإلقاء الموعظة، وهي فرصة تأثر السامع وانفعاله، وظهور شواهد صدق الواعظ في موعظته.

وذكر المحسنين وضع للظاهر موضع المضمر، إذ مقتضى الظاهر أن يقال: فإن الله لا يضيع أجرهم. فعدل عنه إلى المحسنين للدلالة على أن ذلك من الإحسان، وللتعميم في الحكم ليكون كالتذييل، ويدخل في عمومه هو وأخوه.

---

(١) الشعراء: الآية (٢٠).

(٢) محاسن التأويل (٩/ ٢٧٠-٢٧١).

ثم إن هذا في مقام التحدث بالنعمة وإظهار الموعظة سائغ للأنبياء؛ لأنه من التبليغ كقول النبي ﷺ: «**إني لأتقاكم لله وأعلمكم به**»[1][2].

* * *

(١) أخرجه بهذا اللفظ: مسلم (٢/ ٧٧٩/ ١١٠٨) من حديث أم سلمة ﵂. وأخرجه بنحوه أحمد (٥/ ٤٣٤)، والبخاري (١/ ٩٥/ ٢٠)، ومسلم (٢/ ٧٨١/ ١١١٠)، وأبو داود (٢/ ٧٨٢-٧٨٣/ ٢٣٨٩)، والنسائي في الكبرى (٢/ ١٩٥/ ٣٠٢٥) من حديث عائشة ﵂..

(٢) التحرير والتنوير (١٣/ ٤٩).

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝٩٢﴾

★ **غريب الآية:**

لا تثريب: التثريب: التقريع والتقرير بالذنب؛ أي: لا تقريع ولا عتاب.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول: أي لا تأنيب عليكم ولا عتب عليكم اليوم، ولا أعيد عليكم ذنبكم في حقي بعد اليوم، ثم زادهم الدعاء لهم بالمغفرة فقال: ﴿يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ قال السدي: اعتذروا إلى يوسف فقال: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ يقول: لا أذكر لكم ذنبكم. وقال ابن إسحق والثوري: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾ أي: لا تأنيب عليكم اليوم عندي فيما صنعتم، ﴿يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ أي: يستر اللَّه عليكم فيما فعلتم ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾»[1].

وقال القاسمي: «أي: لا تعيير ولا توبيخ ولا تقريع، ﴿عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ أي: وإن كنتم ملومين قبل ظهور منتهى فعلكم، ولا إثم عليكم، إذ ﴿يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾؛ أي: حقي لرضاي عنكم، وحقه أيضًا لواسع رحمته كما قال: ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ أي: فكأنه لا خطأ منكم و(اليوم) متعلق بالتثريب، أو بالمقدر في (عليكم) من معنى الاستقرار، والمعنى: ولا أثربكم اليوم، وهو اليوم الذي هو مظنة التثريب، فما ظنكم بغيره من الأيام؟! فتعبيره ب (اليوم) ليس لوقوع التثريب في غيره، لأن من لم يثرب أول لقائه واشتعال ناره، فبعده بطريق الأولى»[2].

وقال: «تنبيه: قال بعضهم: إن تجاوز يوسف عن ذنب إخوته، وإبقاءه عليهم ومصافاته لهم؛ تعلمنا أن نغفر لمن يسيء إلينا ونحسن إليه، ونصفي له الود، وأن

(١) التفسير (٤/ ٤٧).

(٢) محاسن التأويل (٩/ ٢٧٢-٢٧٣).

نغضي عن كل إهانة تلحق بنا، فيسبغ اللَّه تعالى إذ ذاك علينا نعمه وخيراته في هذه الدنيا، كما أوسع على يوسف، ويورثنا السعادة الأخروية. وأما إذا أضمرنا السوء للمسيئين إلينا، ونقمنا منهم، فينتقم اللَّه منا، ويوردنا مورد الثبور، فنعوذ باللَّه من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا»[(١)].

وقال الزمخشري: «والمعنى: لا أثربكم اليوم وهو اليوم الذي هو مظنة التثريب فما ظنكم بغيره من الأيام، ثم ابتدأ فقال: ﴿يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ فدعا لهم بمغفرة ما فرط منهم، يقال غفر اللَّه لك ويغفر اللَّه لك على لفظ الماضي والمضارع جميعًا، ومنه قول المشمت: يهديكم اللَّه ويصلح بالكم، أو اليوم يغفر اللَّه لكم، بشارة بعاجل غفران اللَّه لما تجدد يومئذ من توبتهم وندمهم على خطيئتهم»[(٢)].

قال المراغي: «وقد تمثل النبي ﷺ بالآية يوم فتح مكة، حين طاف بالبيت وصلى ركعتين، ثم أتى الكعبة فأخذ بعضادتي الباب وقال: «ماذا تظنون أني فاعل بكم؟» قالوا: نظن خيرا، أخ كريم وابن أخ كريم. فقال: «وأنا أقول كما قال أخي يوسف: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾»، فخرجوا كأنما نشروا من القبور»[(٣)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في العفو عند المقدرة

* عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه ذكر قصة فتح مكة فقال: فجاء رسول اللَّه ﷺ حتى طاف بالبيت، فجعل يمر بتلك الأصنام فيطعنها بسية القوس ويقول: «﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾[(٤)]» حتى إذا فرغ وصلى؛ جاء فأخذ بعضادتي الباب، ثم قال: «**يا معشر قريش ما تقولون؟**» قالوا: نقول: ابن أخ وابن عم رحيم وكريم، ثم عاد عليهم القول، قالوا: مثل ذلك. قال: «**فإني أقول كما قال أخي يوسف**: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾»، فخرجوا، فبايعوه على الإسلام»[(٥)].

---

(١) محاسن التأويل (٩/ ٢٧٣).
(٢) الكشاف (٢/ ٣٤٢).
(٣) تفسير المراغي (١٣/ ٣٥-٣٦).
(٤) الإسراء: الآية (٨١).
(٥) أخرجه: أحمد (٢/ ٥٣٨) ومسلم (٣/ ١٤٠٥-١٤٠٨/ ١٧٨٠)، وأبو داود (٢/ ٤٣٨/ ١٨٧١-١٨٧٢) والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٨٢-٣٨٣/ ١١٢٩٨)، ومحل الشاهد عند النسائي وحده.

★ **فوائد الحديث:**

قال المناوي: «(كان رحيما) حتى بأعدائه لما دخل يوم الفتح مكة على قريش، وقد أجلسوا بالمسجد الحرام، وصحبه ينتظرون أمره فيهم من قتل أو غيره؛ قال: «ما تظنون أني فاعل بكم؟» قالوا: خيرا خيرا، أخ كريم وابن أخ كريم. فقال: «أقول كما قال أخي يوسف: ﴿لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾. اذهبوا فأنتم الطلقاء»[1].

وقال شيخ الإسلام: «المظلوم ينبغي له العفو عن ظالمه إذا قدر عليه.

وبهذا اعتبر النبي ﷺ يوم فتح مكة لما قام على باب الكعبة، وقد أذل الله له الذين عادوه وحاربوه من الطلقاء، فقال: «ماذا أنتم قائلون؟» فقالوا: نقول أخ كريم، وابن عم كريم. فقال: «إني قائل لكم كما قال يوسف لإخوته: ﴿لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾». وكذلك عائشة لما ظلمت وافتري عليها وقيل لها: «**إن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه**»، فقالت في كلامها: أقول كما قال أبو يوسف ﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾[2]. ففي قصة يوسف أنواع من العبرة للمظلوم، والمحسود، والمبتلى بدواعي الفواحش والذنوب، وغير ذلك»[3].

* * *

---

(١) الفيض (٥/ ١٧١).

(٢) انظر تخريجه في حديث الإفك الطويل في أول سورة النور.

(٣) مجموع الفتاوى (١٧/ ٢٣).

قوله تعالى: ﴿ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٣﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال المراغي: «﴿ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِى هَٰذَا﴾ الذي على بدني أو بيدي. ﴿فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا﴾ أي: ألقوه على وجهه حين وصولكم إليه دون تأخير يَصِرْ بصيرا، وقد علم هذا إما بوحي من اللّه، وإما لأنه علم أن أباه ما أصابه ما أصابه إلا من كثرة البكاء وضيق النفس، فإذا ألقى عليه قميصه شرح صدره وسر أعظم السرور، وقوي بصره وزالت منه هذه الغشاوة التي رانت عليه، والقوانين الطبية تؤيد هذا كما سيأتي بعد.

﴿وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ من الرجال والنساء والذراري وغيرهم، وقد روي أن أهله كانوا سبعين رجلا وامرأة وولدا»[1].

وقال العدوي: «يذكرون في القميص روايات وخصائص، وكل ما تعطيه الآية أنه قميص كان معروفا لنبي اللّه يعقوب، فهو أمارة أن صاحبه حي ﴿يَأْتِ بَصِيرًا﴾ أي يَصِرْ بصيرا كقولهم: جاء البناء محكما: أي صار محكما، ويشهد له قوله ﴿فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا﴾ وقيل: يأت إلي بصيرا، لأن القميص إيذان بأن زمن المحنة قد انتهى، ومدة الحزن قد مضت، وضعف بصر أبيه ما جاء إلا من الحزن، فمتى زال السبب زال المسبب»[2].

وقال القاسمي: «أراد يوسف تبشير أبيه بحياته، وإدخال السرور عليه بذلك، وتصديقه بإرسال حلة من حلله التي كان يستشعر بها أو يتدثر؛ ليكون في مقابلة القميص الأول، جالب الحزن، وغشاوة العين. و(الإلقاء على وجهه) بمعنى المبالغة في تقريبه منه، لما ناله من ضعف بصره، فتتراجع إليه قوة بصره، بانتعاش

---

(١) تفسير المراغي (١٣/ ٣٦).

(٢) دعوة الرسل (ص: ١٤٩).

قلبه بشمه واطمئنانه على سلامته. وللمفرحات تأثير عظيم في صحة الجسم، وتقوية الأعضاء، وقد جود الكلام في ذلك الحكيم داود الأنطاكي في (تذكرته) في مادة مفرح بما لا يستغنى عن مراجعته.

وفي (الكنوز) من كتب الطب: الفرح، إن كان بلطف، فإنه ينفع الجسم، ويبسط النفس، ويريح العقل، فتقوى الأعضاء وتنتعش»[١].

وقال عبد الكريم الخطيب: «وأي قميص هذا الذي أعطاه يوسف إخوته، ودعاهم إلى أن يلقوه على وجه أبيه، فيعيد إليه بصره الذي ذهب؟

تكثر الروايات حول هذا القميص، حتى لتنسبه إحدى هذه الروايات إلى إبراهيم عليه السلام، وتحدث بأنه كان قميصا جاء به جبريل من الجنة، وألبسه إبراهيم حين ألقي به في النار، فلم تمسه بسوء، وكانت بردا وسلاما عليه، فجعل إبراهيم هذا القميص ميراثا في ذريته، أعطاه إسحق ثم أعطاه إسحق يعقوب، ثم ألبسه يعقوب يوسف، ثم ها هو ذا يدفع به يوسف إلى إخوته ليلقوه على وجه أبيه، فتتشكل منه معجزة تعيد إليه البصر المفقود!.

ويمكن أن يكون هذا، إذا كان مستنده كتاب اللّه، أو حديث رسول اللّه.

وأما وليس في القرآن الكريم، ولا حديث رسول اللّه الأمين شاهد لهذا؛ فإنه من الخير أن يتخفف العقل من هذه الغيبيات القائمة على الرجم بالغيب، وأن يأخذ الأمور على ظاهرها المكشوفة له.

ومن جهة أخرى، فإن القرآن الكريم يحدث عن القميص الذي كان يلبسه يوسف، حين خرج به إخوته ثم ألقوه في غيابة الجب، هذا القميص قد انتزعه منه إخوته، وجاءوا به إلى أبيهم عشاء يبكون، وقد لطخوه بالدم مدعين أن الذئب قد أكله، فكيف يكون مع يوسف القميص الذي يرد في أصله إلى إبراهيم عليه السلام؟

فليكن القميص إذن واحدا من الأقمصة التي كان يلبسها يوسف، والتي علق بها بعض عرقه، فكان فيها ريحه»[٢].

---

(١) محاسن التأويل (٩/ ٢٧٤).

(٢) التفسير القرآني للقرآن (٧/ ٤٣-٤٤).

وقال السعدي: «قوله تعالى: ﴿ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا﴾ تخصيص القميص بالإشارة إليه بقوله: هذا يدل على أن لهذا القميص مزية واختصاصا، وأنه هو الذي يلي جسد يوسف، والظاهر أن هذا الاختصاص هو وجود رائحة يوسف فيه، بدليل ما قبله، وهو قول يعقوب ﷺ: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ لَوۡلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾؛ فيكون في هذه الرائحة مع ملامسة جسد يوسف، مع أن كان يوسف قد دعا أن يجعل في هذا القميص شفاء لأبيه، مع قوة السرور والفرح الذي حصل ليعقوب من مجموع الجميع؛ جعل اللَّه فيه هذه المزية، وهذا أولى من قول كثير من المفسرين: إن هذا القميص من الجنة، وأنه الذي ألبسه جبريل لإبراهيم حين ألقي في النار؛ فليس هنا دليل يدل عليه، وإنما هي أخبار إسرائيلية لا يمكن تصديقها بغير برهان، وأيضًا أمور الجنة والآخرة من حكمة اللَّه أنه جعلها غيبا لا شهادة، واللَّه قادر على رد بصر يعقوب من دون سبب، لكن جعل اللَّه الأسباب محل حكمته، وموضع ومجرى أقداره، ونظير ذلك قول اللَّه في أيوب وسبب شفائه: ﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ ۝٤٢﴾[1]. واللَّه أعلم»[2].

وقال: «لأن كل داء يداوى بضده، فهذا القميص لما كان فيه أثر ريح يوسف الذي أودع قلب أبيه من الحزن والشوق، ما اللَّه به عليم؛ أراد أن يشمه، فترجع إليه روحه وتتراجع إليه نفسه ويرجع إليه بصره، ولله في ذلك حكم وأسرار! لا يطلع عليها العباد، وقد اطلع يوسف من ذلك على هذا الأمر»[3].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في لباس الأنبياء القميص

* عن جابر بن عبداللَّه ﷺ قال: «أتى النبي ﷺ عبداللَّه بن أبي بعد ما أدخل قبره، فأمر به فأخرج ووضع على ركبتيه، ونفث عليه من ريقه، وألبسه قميصه»[4].

* عن عبداللَّه بن عمر قال: لما توفي عبداللَّه بن أبي جاء ابنه إلى رسول اللَّه ﷺ فقال: يا رسول اللَّه، أعطني قميصك أكفنه فيه وصل عليه واستغفر له. فأعطاه قميصه

---

(١) ص: الآية (٤٢).
(٢) مجموع الفوائد (ص: ٢٥٨-٢٥٩).
(٣) تيسير الكريم الرحمن (٤/ ٥٦).
(٤) أخرجه: أحمد (٣/ ٣٨١)، والبخاري (١٠/ ٣٢٦/ ٥٧٩٥)، ومسلم (٤/ ٢١٤٠/ ٢٧٧٣)، والنسائي (٤/ ٣٣٨/ ١٩٠٠).

وقال له: «إذا فرغت منه فآذنا». فلما فرغ آذنه به، فجاء ليصلي عليه، فجذبه عمر فقال: أليس قد نهاك اللَّه أن تصلي على المنافقين فقال: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾[1]، فنزلت: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾[2] فترك الصلاة عليهم[3].

* عن عبداللَّه بن عمر رضي الله عنهما: أن رجلا قال: يا رسول الله! ما يلبس المحرم من الثياب؟ قال رسول اللَّه ﷺ: **«لا يلبس القُمُصَ ولا العمائم ولا السراويلات ولا البرانس ولا الخفاف، إلا أحد لا يجد نعلين فليلبس خفين وليقطعهما أسفل من الكعبين. ولا تلبسوا من الثياب شيئًا مسه زعفران أو ورس»**[4].

⋆ غريب الحديث:

البرنس: كل ثوب رأسه منه دراعة كان أو جبة. وقيل: قلنسوة طويلة.

ورس: نبت من الفصيلة القرنية يستعمل لتلوين الثياب الحريرية؛ لاحتوائه على مادة حمراء.

⋆ فوائد الأحاديث:

قال الحافظ: «بوب البخاري على الحديث: (باب لبس القميص) كأنه يشير إلى أن لبس القميص ليس حادثا، وإن كان الشائع في العرب لبس الإزار والرداء.. وفيه دليل على وجود القمصان حينئذ»[5].

قال الشوكاني رحمه الله: «والحديث يدل على استحباب لبس القميص وإنما كان أحب الثياب إلى رسول اللَّه ﷺ لأنه أمكن في الستر من الرداء والإزار اللذين يحتاجان كثيرًا إلى الربط والإمساك وغير ذلك بخلاف القميص ويحتمل أن يكون المراد من أحب الثياب إليه القميص لأنه يستر عورته ويباشر جسمه فهو شعار

---

(١) التوبة: الآية (٨٠). (٢) التوبة: الآية (٨٤).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ١٨) والبخاري (١٠/ ٣٢٧/ ٥٧٩٦) ومسلم (٤/ ١٨٦٥/ ٢٤٠٠) والترمذي (٥/ ٢٦١/ ٣٠٩) والنسائي (٣/ ٣٣٧-٣٣٨/ ١٨٩٩) وابن ماجه (١/ ٤٨٧-٤٨٨/ ١٥٢٣).

(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٦٣) والبخاري (٣/ ٥١١/ ١٥٤٢) ومسلم (٢/ ٨٣٤/ ١١٧٧) وأبو داود (٢/ ٤١١/ ١٨٢٤) والنسائي (٥/ ١٤١/ ٢٦٦٨) وابن ماجه (٢/ ٢٧٧/ ٢٩٢٩).

(٥) الفتح (١٠/ ٣٢٧).

الجسد بخلاف ما يلبس فوقه من الدثار ولا شك أن كل ما قرب من الإنسان كان أحب إليه من غيره ولهذا شبه ﷺ الأنصار بالشعار الذي يلي البدن بخلاف غيرهم فإنهم شبههم بالدثار»[١].

وقال النووي: «قوله: (فأعطاه قميصه . .) قيل: إنما أعطاه قميصه وكفنه فيه؛ تطييبا لقلب ابنه، فإنه كان صحابيا صالحا، وقد سأل ذلك فأجابه إليه. وقيل: مكافأة لعبدالله المنافق الميت؛ لأنه كان ألبس العباس حين أسر يوم بدر قميصا»[٢].

وقال: «وأجمع العلماء على أنه لا يجوز للمحرم لبس شيء من هذه المذكورات»[٣].

* * *

(١) نيل الأوطار (٢/ ١٠٧).
(٢) شرح مسلم (١٥/ ١٣٦).
(٣) شرح مسلم (٨/ ٦٠).

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾﴾

★ غريب الآية:

تفندون: التفنيد: نسبة الإنسان إلى الفند، وهو ضعف الرأي.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال المراغي: «أي: ولما انفصلت عير بني يعقوب عن حدود مصر قافلة إلى أرض الشام، قال أبوهم لمن حضره من حفدته ومن غيرهم: إني لأشم رائحة يوسف كما عرفتها في صغره، لولا أن تنسبوني إلى ضعف الرأي وفساد العقل وخرف الكبر؛ لصدقتموني في أني أجد رائحته حقيقة، وأنه حي قد قرب موعد لقائه وبالتمتع برؤيته»[1].

وقال ابن كثير: «﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ﴾ أي: خرجت من مصر ﴿قَالَ أَبُوهُمْ﴾ يعني يعقوب ﷺ لمن بقي عنده من بنيه ﴿إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ تنسبوني إلى الفند والكبر.. وقوله ﴿لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وعطاء وقتادة وسعيد بن جبير: تسفهون. وقال مجاهد أيضًا والحسن: تهرمون. وقولهم: ﴿إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ قال ابن عباس: لفي خطئك القديم. وقال قتادة: أي من حب يوسف لا تنساه ولا تسلاه، قالوا لوالدهم كلمة غليظة، لم يكن ينبغي لهم أن يقولوها لوالدهم، ولا لنبي الله ﷺ، وكذا قال السدي وغيره»[2].

وقال العدوي: «أي: لما خرجت العير التي تحمل إخوة يوسف، وتحمل القميص المبشر بحياته من عريش مصر ذاهبة إلى الشام ﴿قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ أي: أشم رائحته، وذلك من خوارق العادة لنبي الله يعقوب؛ أن يدرك بحاسة الشم من مسافات ليس من شأنها أن يبلغ الشم إليها ﴿لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾

(١) تفسير المراغي (١٣/ ٣٧).

(٢) التفسير (٤/ ٤٧).

تنسبونني إلى الفند: وهو الخرف وإنكار العقل من الهرم ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ أي: قال الحاضرون عنده لا تزال في ضلالك الأول بما تكابد على يوسف من الأحزان»[1].

وقال القاسمي: «﴿قَالَ أَبُوهُمْ﴾ أي: لحفدته ومن حوله من قومه، من عظم اشتياقه ليوسف، وانتظاره لروح الله: ﴿إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ الريح: الرائحة، توجد في النسيم؛ أي: لأتنسم رائحته مقبلة إلي. كناية عن تَحَقُّقِهِ وُجُودَهُ بما ألقى اللَّه في رُوعه من حياته، وساق إليه من نسائم البشارة الغيبية بسلامته. وقد كان عظم رجاؤه بذلك من مولاه، ووثق بنيل مأموله ومبتغاه، ولذلك نهى بنيه عن الاستيئاس من روح اللَّه. وإذا دنا أجل الضراء؛ أخذت تهب نسائم الفرج حاملة عَرف السراء، يدري ذلك كل من قوي إحساسه، وعظمت فطنته، واستنارت بصيرته، فيكاد أن يلمس في نهاية الشدة زهر الفرج، ولا يحنث إن آلى أنه يجد من نسيمه أزكى الفرج. عرف ذلك من عرف، فأحرى بمن نالوا من النبوة ذروة الشرف»[2].

قال ابن عاشور: «والذين قالوا: ﴿تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ هم الحاضرون من أهله، ولم يسبق ذكرهم لظهور المراد منهم، وليسوا أبناءه؛ لأنهم كانوا سائرين في طريقهم إليه»[3].

وقال عبد الكريم الخطيب: «لقد وقع ما كان يحذره، ولم يسلم من تفنيد المفندين، ولوم اللائمين، ممن سمعوا منه هذا القول من أهله وجيرانه، ولم يكن فيهم بنوه، الذين كانوا يومئذ ما زالوا في طريقهم إليه من مصر.

والمراد بالضلال القديم هنا، ما عرف منه من حب شديد ليوسف، وتعلق بالغ به، حتى لقد حسب هذا ضلالا عن طريق القصد والاعتدال في الحب، وفي هذا يقول اللَّه تعالى على لسان أبناء يعقوب: ﴿إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، فإلى هذا الضلال يشير أولئك الذين قالوا له: ﴿إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾»[4].

---

(١) دعوة الرسل (ص: ١٤٩-١٥٠).
(٢) محاسن التأويل (٩/ ٢٧٦).
(٣) التحرير والتنوير (١٣/ ٥٢).
(٤) التفسير القرآني للقرآن (٧/ ٤٥-٤٦).

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَـٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشوكاني: «﴿أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ أي: ألقى البشير قميص يوسف على وجه يعقوب، أو ألقاه يعقوب على وجه نفسه ﴿فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا﴾ الارتداد: انقلاب الشيء إلى حال قد كان عليها، والمعنى: عاد ورجع إلى حالته الأولى من صحة بصره ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ﴾ أي: قال يعقوب لمن كان عنده من أهله الذين قال لهم: ﴿إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ﴾: ألم أقل لكم هذا القول فقلتم ما قلتم، ويكون قوله: ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ كلاما مبتدأ لا يتعلق بالقول، ويجوز أن تكون جملة ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ مقول القول، ويريد بذلك إخبارهم بما قاله لهم سابقا: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

﴿قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَـٰطِـِٔينَ﴾ طلبوا منه أن يستغفر لهم، واعترفوا بالذنب، وفي الكلام حذف، والتقدير: ولما رجعوا من مصر ووصلوا إلى أبيهم قالوا هذا القول، فوعدهم بما طلبوه منه و﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ﴾»[1].

وقال القرطبي: «قال الحسن: لما ورد البشير على يعقوب لم يجد عنده شيئًا يثيبه به؛ فقال: والله ما أصبت عندنا شيئًا، وما خبزنا شيئًا منذ سبع ليال، ولكن هون الله عليك سكرات الموت.

قلت: وهذا الدعاء من أعظم ما يكون من الجوائز، وأفضل العطايا والذخائر. ودلت هذه الآية على جواز البذل والهبات عند البشائر. وفي الباب حديث كعب بن مالك الطويل، وفيه: (فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني نزعت ثوبي

---

(١) فتح القدير (٣/ ٧٥-٧٦).

فكسوتهما إياه ببشارته)[1] وذكر الحديث. . وكسوة كعب ثوبيه للبشير مع كونه ليس له غيرهما ؛ دليل على جواز مثل ذلك إذا ارتجى حصول ما يستبشر به ، وهو دليل على جواز إظهار الفرح بعد زوال الغم والترح»[2].

وقال عبد الكريم الخطيب: «ولقد صدق الله سبحانه ظنون يعقوب، فوقع ما توقعه، وجاء البشير بريح يوسف محملة في قميصه، فلما ألقي القميص على وجهه ارتد بصيرا، كما تنبأ بذلك يوسف.

وفي غمرة هذا الفرح الكبير، لم ينس يعقوب أن يرد اعتباره عند هؤلاء الذين فندوه ورموه بالضلال، فقال لائما مؤنبا: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾! أي: إني كنت على رجاء من رحمة ربي، وعلى طمع في فضله، ولهذا لم أيأس من روحه، ولم ينقطع رجائي في فضله، وأن ألتقي بيوسف الذي حجبته الأقدار عني خلال هذا الزمن الطويل؟

وفي قوله: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ إشارة إلى ما سبق أن قاله لهم حين قالوا له: ﴿تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ﴾ فكان رده عليهم: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

هو نفس الموقف الذي وقفوه بين يدي يوسف، حين قالوا له: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾، إنه الاعتراف بالذنب، وطلب الصفح والمغفرة. ولقد لقيهم يوسف بالصفح والمغفرة، من غير مهل ولا إبطاء، فقال: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

أما أبوهم يعقوب، فإنه لم يلقهم بهذا الصفح وتلك المغفرة من فوره، بل جعل ذلك وعدا مستقبلا، يجيء على تراخ من الزمن ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ﴾،

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ٤٥٦-٤٥٩) والبخاري (٨/ ٤٣٣/ ٤٦٧٣) ومسلم (٤/ ٢١٢٩/ ٢٧٦٩) وأبو داود (٢/ ٦٥٢-٦٥٣/ ٢٢٠٢) والترمذي (٥/ ٢٦٣-٢٦٤/ ٣١٠٢) والنسائي (٢/ ٣٨٦/ ٧٣٠) عن كعب ﷺ.

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٩/ ٢٦١-٢٦٢).

ولم يقل سأستغفر لكم ربي!.

وقد أخذ بعض العلماء من هذا الاختلاف بين موقف يوسف من إخوته وموقف أبيه يعقوب منهم؛ أخذ من هذا شاهدا على أن الشباب أسمح نفسا بما في أيديهم، من الشيوخ الذين يغلب عليهم الحرص على كل ما عندهم، ليكون لهم من ذلك قوة تمسك عليهم البقية الباقية من قواهم الواهية. والذي نذهب إليه لتعليل هذا الاختلاف في الموقفين؛ أن يعقوب في هذا الوقت أب، وهو بهذا يملك من أبنائه ما لا يملكه الأخ من إخوته، إنه يملك التأنيب والتأديب، أما الأخ فلا يملك من إخوته هذا الذي يملكه منهم أبوهم. ومن أجل هذا فقد استعمل يعقوب حقه في تأنيب بنيه وتأديبهم، فأمسك عنهم صفحه ومغفرته إلى حين، ولم ير من الحكمة أن يجيبهم إلى طلبهم في الحال. وأن يخلي مشاعرهم من القلق والهم، بل رأى أن يريهم أن هذا الطلب موضع نظره، وأنه سوف يحققه لهم في الوقت المناسب. وفي هذا ما فيه من درس بالغ في التربية والتأديب.

فقسا ليزدجروا ومن يك حازما فليقس أحيانا على من يرحم

أما يوسف، فهو في مواجهة إخوة له، وهم أكبر منه سنا، فلم يكن بد من أن يبادرهم بالصفح والمغفرة، بعد أن أخذ بحقه منهم، وأجراهم هذا الشوط الطويل، حتى كادت تنقطع منهم الأنفاس، في غدوهم ورواحهم إلى مصر، وإتيانهم بأخيهم من أبيهم، ثم في هذا التدبير الذي جعل منه يوسف مدخلا لاتهام أخيه بالسرقة، وأخذه بما سرق، ووضع إخوته في هذا الموقف الحرج»[1].

وقال القاسمي: «قال المهايمي: صرحوا بالذنوب دون الله، لمزيد اهتمامهم بها، وكأنهم غلب عليهم النظر إلى قهره. وصرح يعقوب بذكر الرب دون الذنوب، إذ لا مقدار لها بالنظر إلى رحمته التي ربي بها الكل. انتهى. وهذا من دقائق لطائف التنزيل ومحاسنها فيه.

تنبيه: قيل: في هذه الآيات دلالة على جواز التبشير ببشائر الدنيا واستحبابه، وجواز السرور بحصول النعم الحاصلة في الدنيا. وفيها دلالة على إرجاء الاستغفار والدعاء لوقت يرى أنه أحضر فيه قلبا من غيره، أو أنه أفضل وأقرب للإجابة.

---

(١) التفسير القرآني للقرآن (٧/ ٤٦-٤٨).

وقد روي أنه أخر الاستغفار إلى السحر. وتخصيص الأوقات الفاضلة بالاستغفار والدعاء معروف في السنة، ومنه شرع الاستغفار في السحر، وعقب الصلوات، وقضاء الحج. وكان الدعاء في السجود، وعند الأذان، وبينه وبين الإقامة، والإفطار من الصيام، أقرب للإجابة مما عداه»[١].

وقال المراغي: «نبذة في تعليل شم يعقوب رائحة يوسف: أثبت العلم حديثا أن الريح تحمل الغبار وما فيه من قارة إلى أخرى، فتحمله من إفريقية مثلا إلى أوروبا، وهي مسافة أبعد مما بين مصر وأرض كنعان من بلاد الشام، وهي بلا شك تحمل رائحة ماله منها رائحة، ولكن الغريب شم البشر لها من المسافات البعيدة، والإنسان إذا قيس بغيره من الوحوش والحشرات كان أضعف منها شما، فالكلب ذو حاسة قوية في الشم؛ حتى ليدربه الآن رجال الشرطة ويستخدمونه في حوادث الإجرام؛ من قتل وسرقة لإثبات التهمة على المجرمين، فيأتون بالكلب المعلم فيشم المجرم ويخرجه من بين أشخاص كثيرين، ويرى ذلك رجال القانون دليلا قويا على إثبات الجريمة على من يرشد إليه، بل دليلا قاطعا في بعض الدول.

والروائح منها القوي والضعيف، ومن أضعفها رائحة جسم الإنسان وعرقه وما يصيب ثوبه منها، ولكن ما نحن فيه من خوارق العادات ومن خواص عالم الغيب، لا من السنن العادية والحوادث التي تتكرر من البشر.

وقد دلت الآية على أن يعقوب ﷺ: أخبر أنه وجد رائحة يوسف لما فصلت العير من أرض مصر، فعلينا أن نؤمن به لأنه معصوم من الكذب، وقد تبين صدقه بعد، وليس بالواجب علينا أن نعرف كنهه أو نصل إلى معرفة سببه، ولكن إذا نحن قلنا: إنه لشدة تفكره في أمر ولده وتذكره لرائحته حين كان يضمه ويشمه؛ شعر بتلك الرائحة قد عادت له سيرتها الأولى، لم يكن ذلك مجانبا للصواب ولا معارضا للعقل ولا ناقضا لما يثبته العلم، أو قلنا: بأنا نتقبل هذا بدون تعليل ولا تصوير لكيفية ذلك؛ لم نبعد عن العقل ولا عن العلم، إذ لا خلاف بين العلماء في أن ما يجهله الباحثون أضعاف ما يعرفونه.

وعلى الجملة: فعلينا التسليم بما أخبر به دون حاجة للبحث في كنهه أو صفته،

---

(١) محاسن التأويل (٩/ ٢٧٨).

ما دام ذلك داخلا في حيز الإمكان.

﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ﴾ أي: قال أولاده وكانوا قد وصلوا إثر البشير: يا أبانا اسأل اللّٰه أن يغفر لنا ذنوبنا التي اجترحناها من عقوقك وإيذاء أخوينا، إنا كنا متعمدين لهذه الخطيئة، عاصين لله، ظانين أن نكون بعدها قوما صالحين.

الآن اعترفوا بذنوبهم كما اعترفوا ليوسف من قبل، لكن يوسف بادر إلى الاستغفار لهم وهم لم يطلبوه منه، وعليك أن تسمع جواب أبيهم الآتي:

﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ وعدهم بالاستغفار لهم في مستأنف الزمان، وعلل هذا بأن ربه واسع المغفرة والرحمة، لا ينقطع رجاء المؤمن فيها وإن ظلم وأساء. والفارق بين جواب يعقوب وجواب يوسف من وجوه كثيرة اقتضتها الحكمة:

١ - إن حال أبيهم معهم حال المربي المرشد للمذنب، لا حال المنتقم الذي يخشى أذاه، وليس من حسن التربية ولا من طرق التهذيب أن يريهم أن ذنبهم هين لديه، حتى يعجل بإجابة مطلبهم بالاستغفار لهم.

٢ - إن ذنبهم لم يكن موجها إليه مباشرة، بل موجه إلى يوسف وأخيه، ثم إليه بالتبع واللزوم، إلا أنه ليس من العدل أن يستغفر لهم إلا بعد أن يعلم حالهم مع يوسف وأخيه، ولم يكن يعقوب قد علم بعفو يوسف عنهم واستغفاره لهم.

٣ - إن هذا ذنب كبير وإثم عظيم طال عليه الأمد، وحدثت منه أضرار نفسية وخلقية وأعمال كان لها خطرها، فلا يمحى إلا بتوبة نصوح تجتث الجذور التي علقت بالأنفس، والأرجاس التي باضت وأفرخت فيها.

فلا يحسن بعدئذ من المربي الحكيم أن يسارع إلى الاستغفار لمقترفها عقب طلبه، حتى كأنها من هينات الأمور التي تغفر ببادرة من الندم، ومن ثم تلبث في الاستغفار لهم إلى أجل، ليعلمهم عظيم جرمهم، ويعلمهم بأنه سوف يتوجه إلى ربه ويطلب لهم الغفران منه بفضله ورحمته.

٤ - إن حال يوسف معهم كان حال القادر بل المالك القاهر مع مسيء ضعيف لديه، عظم جرمه عليه، فلم يشأ أن يكون الغفران بشفاعته ودعائه، فآمنهم من خوف الانتقام؛ تعجيلا للسرور بالنعمة الجديدة التي جعل اللّٰه أمرها بين يديه، وليروا ويرى الناس فضل العفو عند القدرة، وليكون لهم في ذلك أحسن الأسوة،

وفي هذا من ضروب التربية أكبر العظة، ولو أخر المغفرة لكانوا في وجل مما سيحل بهم، ولخافوا شر الانتقام، فكانوا في قلق دائم وتبلبل بال واضطراب نفس، فكان توجسهم له عذابا فوق العذاب الذي هم فيه، ولكن شاءت رحمته بهم أن يجعل السرور عاما، والحياة الجديدة حافلة بالاطمئنان وقرة العين، وهكذا . . وشاء اللَّه أن يكون ذلك، وهو العليم الحكيم»[١].

وقال القرطبي: «وإنما سألوه المغفرة؛ لأنهم أدخلوا عليه من ألم الحزن ما لم يسقط المأثم عنه إلا بإحلاله.

قلت: وهذا الحكم ثابت فيمن آذى مسلما في نفسه أو ماله أو غير ذلك ظالما له؛ فإنه يجب عليه أن يتحلل له، ويخبره بالمظلمة وقدرها؛ وهل ينفعه التحليل المطلق أم لا؟ فيه خلاف، والصحيح: أنه لا ينفع؛ فإنه لو أخبره بمظلمة لها قدر وبال؛ ربما لم تطب نفس المظلوم في التحلل منها. واللَّه أعلم. وفي صحيح البخاري وغيره عن أبي هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**من كانت له مظلمة لأخيه من عرضه أو شيء؛ فليحلله منه اليوم قبل ألا يكون دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه**»[٢] قال المهلب: فقوله ﷺ: «**أخذ منه بقدر مظلمته**» يجب أن تكون المظلمة معلومة القدر مشارًا إليها مبينة، واللَّه أعلم»[٣].

* * *

---

(١) تفسير المراغي (١٣/ ٤٠-٤١).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٣٥)، والبخاري (٥/ ١٢٧-١٢٨/ ٢٤٤٩).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٩/ ٢٦٢).

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُۥ سُجَّدًا وَقَالَ يَـٰٓأَبَتِ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَـٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يخبر تعالى عن ورود يعقوب عليه السلام على يوسف عليه السلام، وقدومه بلاد مصر، لما كان يوسف قد تقدم لإخوته أن يأتوه بأهلهم أجمعين، فتحملوا عن آخرهم، وترحلوا من بلاد كنعان قاصدين بلاد مصر، فلما أخبر يوسف عليه السلام باقترابهم، خرج لتلقيهم وأمر الملك أمراءه وأكابر الناس بالخروج مع يوسف؛ لتلقي نبي الله يعقوب عليه السلام. ويقال: إن الملك خرج أيضًا لتلقيه، وهو الأشبه؛ وقد أشكل قوله: ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا﴾ على كثير من المفسرين، فقال بعضهم: هذا من المقدم والمؤخر، ومعنى الكلام ﴿وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ وآوى إليه أبويه ورفعهما على العرش. ورد ابن جرير هذا، وأجاد في ذلك، ثم اختار ما حكاه عن السدي أن يوسف آوى إليه أبويه لما تلقاهما، ثم لما وصلوا باب البلد قال: ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ وفي هذا نظر أيضًا، لأن الإيواء إنما يكون في المنزل، كقوله: ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾، وفي الحديث: «من آوى محدثًا»[1]، وما المانع أن يكون قال لهم بعد ما دخلوا عليه وآواهم إليه: ادخلوا مصر، وضمنه اسكنوا مصر إن شاء الله آمنين؛ أي: مما كنتم فيه من الجهد والقحط، ويقال -والله أعلم-: إن الله تعالى رفع عن أهل مصر بقية السنين المجدبة ببركة قدوم يعقوب عليهم، كما رفع بقية السنين التي دعا بها رسول الله ﷺ

(١) أخرجه: أحمد (١/ ١٠٨) ومسلم (٣/ ١٥٦٧/ ١٩٧٨) والنسائي (٧/ ٢٦٦/ ٤٤٣٤) من حديث علي رضي الله عنه.

على أهل مكة حين قال: «**اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف**»[1] ثم لما تضرعوا إليه، واستشفعوا لديه، وأرسلوا أبا سفيان في ذلك؛ فدعا لهم فرفع عنهم بقية ذلك ببركة دعائه ﷺ.

وقوله: ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ﴾ قال السدي وعبدالرحمن بن زيد بن أسلم: إنما كان أباه وخالته، وكانت أمه قد ماتت قديما. وقال محمد بن إسحق وابن جرير: كان أبوه وأمه يعيشان؛ قال ابن جرير: ولم يقم دليل على موت أمه؛ وظاهر القرآن يدل على حياتها، وهذا الذي نصره هو المنصور الذي يدل عليه السياق. وقوله: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: يعني السرير، أي أجلسهما معه على سريره، ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ﴾ أي: سجد له أبواه وإخوته الباقون. وكانوا أحد عشر رجلا، ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ﴾ أي: التي كان قصها على أبيه من قبل، ﴿إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا﴾ الآية؛ وقد كان هذا سائغا في شرائعهم إذا سلموا على الكبير يسجدون له، ولم يزل هذا جائزا من لدن آدم إلى شريعة عيسى ﷺ، فحرم هذا في هذه الملة، وجعل السجود مختصا بجناب الرب سبحانه وتعالى؛ هذا مضمون قول قتادة وغيره.

وفي الحديث أن معاذا قدم الشام فوجدهم يسجدون لأساقفتهم، فلما رجع سجد لرسول اللّٰه ﷺ فقال: «ما هذا يا معاذ؟» فقال: إني رأيتهم يسجدون لأساقفتهم، وأنت أحق أن يسجد لك يا رسول الله؛ فقال: «**لو كنت آمرا أحدا أن يسجد لأحد، لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها لعظم حقه عليها**»[2].. والغرض أن هذا كان جائزا في شريعتهم، ولهذا خروا له سجدا؛ فعندها قال يوسف: ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ﴾ أي: هذا ما آل إليه الأمر، فإن التأويل يطلق على ما يصير إليه الأمر، كما قال تعالى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ﴾[3] أي: يوم القيامة يأتيهم ما وعدوا به من خير وشر.

وقوله: ﴿قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ﴾ أي: صحيحة صدقا يذكر نعم اللّٰه عليه؛ ﴿وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ﴾ أي: البادية. قال ابن جريج

(١) تقدم تخريجه في الباب تحت الآية رقم (٤٨).
(٢) سيأتي تخريجه ضمن أحاديث الباب.
(٣) الأعراف: الآية (٥٣).

وغيره: كانوا أهل بادية وماشية، وقال: كانوا يسكنون بالعربات من أرض فلسطين من غور الشام؛ قال: وبعض يقول: كانوا بالأولاج من ناحية شعب أسفل من حسمي، وكانوا أصحاب بادية وشاء وإبل، ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ﴾ أي: إذا أراد أمرا قيض له أسبابا وقدره ويسره ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ﴾ بمصالح عباده، ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ في أقواله وأفعاله، وقضائه وقدره وما يختاره ويريده»[1].

وقال المراغي: «﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ﴾ في العبارة حذف وإيجاز يفهم من سياق الكلام، والمعنى: تفصيله بعد أن ذهب إخوة يوسف إلى أبيهم، وأخبروه بمكانة يوسف في مصر، وأنه الحاكم المفوض المستقل في أمرها؛ أبلغوه أنه يدعوهم كلهم للإقامة معه فيها والتمتع بحضارتها، فرحلوا حتى بلغوها، ولما دخلوا على يوسف وكان قد استقبلهم في الطريق في جمع حافل احتفاء بهم؛ ضم إليه أبويه واعتنقهما.

وظاهر الآية يدل على أن أمه كانت لا تزال حية، ورجحه ابن جرير. وقال جمع من المفسرين: إن المراد بأبويه أبوه وخالته، لأن أمه قد ماتت قبل ذلك فتزوج أبوه خالته.

﴿وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ أي: وقال لهم ادخلوا بلاد مصر إن شاء اللّٰه آمنين على أنفسكم وأنعامكم من الجوع والهلاك، فإن سني القحط كانت لا تزال باقية، وذكر المشيئة في كلامه للتبرؤ من مشيئته وحوله وقوته إلى مشيئة اللّٰه الذي سخر ذلك لهم، وسخر ملك مصر وأهلها له ثم لهم، وهذا من شأن المؤمنين، ولا سيما الأنبياء والصديقون»[2].

وقال الشوكاني: «﴿وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ مما تكرهون، وقد كانوا فيما مضى يخافون ملوك مصر، ولا يدخلونها إلا بجواز منهم. قيل: والتقييد بالمشيئة عائد إلى الأمن، ولا مانع من عوده إلى الجميع، لأن دخولهم لا يكون إلا بمشيئة اللّٰه سبحانه، كما أنهم لا يكونون آمنين إلا بمشيئته؛ وقيل: إن التقييد

---

(١) التفسير (٤/ ٤٩-٥٠).

(٢) تفسير المراغي (١٣/ ٤٢).

بالمشيئة راجع إلى قوله: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ﴾ وهو بعيد. وظاهر النظم القرآني: أن يوسف قال لهم هذه المقالة: أي ادخلوا مصر قبل دخولهم، وقد قيل في توجيه ذلك: إنه تلقاهم إلى خارج مصر، فوقف منتظرا لهم في مكان أو خيمة، فدخلوا عليه ف﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ﴾ فلما دخلوا مصر ودخلوا عليه دخولا آخر في المكان الذي له بمصر ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ أي: أجلسهما معه على السرير الذي يجلس عليه كما هو عادة الملوك ﴿وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا﴾ أي: الأبوان والإخوة؛ والمعنى: أنهم خروا ليوسف سجدا، وكان ذلك جائزا في شريعتهم منزلا منزلة التحية»[1].

وقال القرطبي: «قال سعيد بن جبير عن قتادة عن الحسن في قوله: ﴿وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا﴾ قال: لم يكن سجودا، لكنه سنة كانت فيهم، يومئون برءوسهم إيماء، كذلك كانت تحيتهم. وقال الثوري والضحاك وغيرهما: كان سجودا كالسجود المعهود عندنا، وهو كان تحيتهم. وقيل: كان انحناء كالركوع، ولم يكن خرورا على الأرض، وهكذا كان سلامهم بالتكفي والانحناء، وقد نسخ اللّه ذلك كله في شرعنا، وجعل الكلام بدلا عن الانحناء. وأجمع المفسرون: أن ذلك السجود على أي وجه كان فإنما كان تحية لا عبادة؛ قال قتادة: هذه كانت تحية الملوك عندهم؛ وأعطى اللّه هذه الأمة السلام تحية أهل الجنة»[2].

وقال ابن القيم في رده على المانعين من الأخذ بالاستثناء: «وأما استدلالكم بقول يوسف لأبيه وإخوته: ﴿ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾؛ فلا حجة فيه، فإن الاستثناء إن عاد إلى الأمر المطلوب دوامه واستمراره فظاهر، وإن عاد إلى الدخول المقيد به فمن أين لكم أنه قال لهم هذه المقالة حال الدخول أو بعده؟ ولعله إنما قالها عند تلقيه لهم، ويكون دخلوهم عليه في منزل اللقاء، فقال لهم حينئذ: ﴿ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ فهذا محتمل. وإن كان إنما قال لهم ذلك بعد دخولهم عليه في دار مملكته؛ فالمعنى: ادخلوها دخول استيطان واستقرار آمنين إن شاء الله»[3].

---

(١) فتح القدير (٣/ ٧٨-٧٩).
(٢) الجامع لأحكام القرآن (٦/ ٢٦٥).
(٣) إعلام الموقعين (٤/ ٧١).

وقال الرازي: «الاستثناء وهو قول ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ فيه قولان:

الأول: أنه عائد إلى الأمن لا إلى الدخول، والمعنى: ادخلوا مصر آمنين إن شاء اللَّه، ونظيره قوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾[1].

وقيل: إنه عائد إلى الدخول على القول الذي ذكرناه: أنه قال لهم هذا الكلام قبل أن يدخلوا مصر»[2].

قال القنوجي: «ولمصر فضائل كثيرة ذكرها المقريزي في الخطط. منها: أن اللَّه ﷻ ذكرها في كتابه العزيز بضعا وعشرين مرة؛ تارة بصريح الذكر، وتارة إيماء.

وقال ابن عباس: سميت مصر بالأرض كلها في عشرة مواضع من القرآن»[3].

وقال ابن عاشور: «وكان السجود تحية الملوك وأضرابهم، ولم يكن يومئذ ممنوعا في الشرائع، وإنما منعه الإسلام لغير اللَّه تحقيقا لمعنى مساواة الناس في العبودية والمخلوقية.

ولذلك فلا يعد قبوله السجود من أبيه عقوقا؛ لأنه لا غضاضة عليهما منه، إذ هو عادتهم. والأحسن أن تكون جملة ﴿وَخَرُّوا﴾ حالية؛ لأن التحية كانت قبل أن يرفع أبويه على العرش، على أن الواو لا تفيد ترتيبا.

و﴿سُجَّدًا﴾ حال مبينة؛ لأن الخرور يقع بكيفيات كثيرة»[4].

وقال المراغي: «﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ﴾ أي: هذا السجود منكما ومن إخوتي الأحد عشر؛ هو المآل والعاقبة التي آلت إليها رؤياي التي رأيتها من قبل في صغري ﴿إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ﴾.

﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا﴾ أي: قد جعلها ربي حقيقة واقعة، واستبان أنها لم تكن أضغاث أحلام، فالكواكب الأحد عشر مثال إخوتي الأحد عشر، وأنت وأمي مثال الشمس والقمر، ولا بدع في ذلك، فهذه الأسرة هي التي حفظ اللَّه بها ذرية إسحاق بن إبراهيم؛ لتنشر دين التوحيد بين العالمين فكانت خير أسر البشر جميعًا.

﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ أي: وقد أحسن بي ربي

---

(١) الفتح: الآية (٢٧).
(٢) تفسير الرازي (١٨/ ٢١٥).
(٣) فتح البيان (٦/ ٤٠٣).
(٤) التحرير والتنوير (١٣/ ٥٦).

إذ أخرجني من السجن، وسما بي إلى عرش الملك، وجاء بكم من البادية حيث كنتم تعيشون في شظف العيش وخشونته، ونقلكم إلى الحضر حيث تعيشون في نعم الاجتماع ونشر الدين الحق، وتتعاونون على ترقي العلوم والصناعات. ولم يذكر له إخراجه من الجب لوجوه:

١ - أنه ذكر آخر المحن المتصلة بنهاية النعم.

٢ - أنه لو ذكر حادث الجب لكان في ذلك تثريب لإخوته، وقد قال ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾.

٣ - أنه بعد خروجه منه صار عبدا لا ملكا.

٤ - أنه بعد خروجه منه، وقع في مضارة تهمة المرأة التي بسببها دخل السجن. وعلى الجملة: فالنعم الكاملة إنما حصلت بعد خروجه من السجن.

﴿مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ﴾ أي: من بعد أن أفسد الشيطان ما بيني وبين إخوتي من عاطفة الأخوة، وقطع ما بيننا من وشيجة الرحم، وهيج الحسد والشر»[1].

قال الشوكاني: «﴿إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾ اللطيف: الرفيق، قال الأزهري: اللطيف من أسماء اللَّه تعالى، معناه الرفيق بعباده، يقال: لطف فلان بفلان يلطف: إذا رفق به، وقال عمرو بن أبي عمرو: اللطيف الذي يوصل إليك إربك في لطف. قال الخطابي: اللطيف هو البر بعباده الذي يلطف بهم من حيث لا يعلمون، ويسبب لهم مصالحهم من حيث لا يحتسبون، وقيل: اللطيف العالم بدقائق الأمور، ومعنى ﴿لِّمَا يَشَآءُ﴾: لأجل ما يشاء حتى يجيء على وجه الصواب ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي: العليم بالأمور الحكيم في أفعاله»[2].

وقال الخطيب: «وفي قوله: ﴿إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾ إشارة إلى أن اللَّه سبحانه وتعالى إذا أراد شيئًا أحكم تدبير الأسباب الموصلة إليه، فجاء بها على غير ما يقدر العباد، ثم أراهم من عواقبها غير ما يتوقعون، فمن كان يقع في تقديره أن تلك

---

(١) تفسير المراغي (١٣/ ٤٣-٤٤).

(٢) فتح القدير (٣/ ٧٩-٨٠).

الأحداث التي بدأت بها قصة يوسف؛ من إلقائه في الجب، إلى وقوعه في يد جماعة من التجار، إلى بيعه لرجل من مصر، إلى كيد امرأة العزيز له، وتآمرها مع جماعة النسوة عليه، إلى إلقائه في السجن بضع سنين؛ من كان يقع في تقديره أن هذه الأحداث ينسج من خيوطها عرش، ويصاغ من حصاها تاج، ويولد من تصارعها ملك يجلس على هذا العرش، ويتوج بهذا التاج؟ إن ذلك لا يكون إلا من تدبير حكيم خبير، يمسك الأسباب بلطفه، فإذا هي طوع مشيئته، ورهن إرادته، فيخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي، ويجعل من المكروه محبوبا، ومن المحبوب مكروها؛ ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾[1]، ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾[2].

وفي قوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ إشارة إلى أن لطف الله سبحانه وتعالى، وتدبيره المحكم لما يريد، إنما هو عن علم العليم، وحكمة الحكيم، لا يشاركه أحد في علمه وحكمته، فبعلمه المحيط بكل شيء، تتولد الأسباب والمسببات، وبحكمته البالغة، تقدر الأمور، وتحكم في أسبابها، وذلك هو اللطف في كماله وتمامه، فلا يقع شيء في ملك الله إلا كان اللطف سداه ولحمته»[3].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تحريم السجود لغير الله وحكم شرع من قبلنا

* عن عبدالله بن أبي أوفى قال: لما قدم معاذ من الشام سجد للنبي ﷺ. قال: «**ما هذا يا معاذ؟**» قال: أتيت الشام فوافقتهم يسجدون لأساقفتهم وبطارقتهم. فوددت في نفسي أن نفعل ذلك بك. فقال رسول الله ﷺ: «**فلا تفعلوا. فإني لو كنت آمرًا أحدًا أن يسجد لغير الله، لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها. والذي نفس محمد بيده لا تؤدي المرأة حق ربها حتى تؤدي حق زوجها. ولو سألها نفسها،**

---

(١) البقرة: الآية (٢١٦).

(٢) النساء: الآية (١٩).

(٣) التفسير القرآني للقرآن (٧/ ٤٩-٥٠).

وهي على قتب، لم تمنعه»[١].

★ **فوائد الحديث:**

قال المناوي: «قوله «لو كنت آمرا أحدا أن يسجد لأحد» فيه تعليق الشرط بالمحال؛ لأن السجود قسمان: سجود عبادة، وليس إلا لله وحده، ولا يجوز لغيره أبدا. وسجود تعظيم، وذلك جائز، فقد سجد الملائكة لآدم تعظيما وأخبر المصطفى ﷺ: أن ذلك لا يكون، ولو كان لجعل للمرأة في أداء حق الزوج. وقال غيره: إن السجود لمخلوق لا يجوز، وسجود الملائكة خضوع وتواضع له من أجل علم الأسماء الذي علمه الله له، وأنبأهم بها، فسجودهم إنما هو ائتمام به؛ لأنه خليفة الله لا سجود عبادة، إن الله لا يأمر بالفحشاء»[٢].

قال شيخ الإسلام: «فإذا كان السجود لا يجوز لرسول الله ﷺ حيا ولا ميتا ولا لقبره؛ فكيف يجوز السجود لغيره؟»[٣].

وقال: «وأجمع المسلمون على أن السجود لغير الله محرم»[٤].

وقال ابن القيم: «وأشرف العبودية عبودية الصلاة، وقد تقاسمها الشيوخ والمتشبهون بالعلماء والجبابرة، فأخذ الشيوخ منها أشرف ما فيها وهو السجود، وأخذ المتشبهون بالعلماء منها الركوع، فإذا لقي بعضهم بعضا ركع له كما يركع المصلي لربه سواء، وأخذ الجبابرة منهم القيام، فيقوم الأحرار والعبيد على رؤوسهم عبودية لهم وهم جلوس، وقد نهى رسول الله ﷺ عن هذه الأمور الثلاثة على التفصيل، فتعاطيها مخالفة صريحة له، فنهى عن السجود لغير الله وقال: «لا ينبغي لأحد أن يسجد لأحد». وأنكر على معاذ لما سجد له وقال: «مه؟» وتحريم هذا معلوم من دينه بالضرورة، وتجويز من جوزه لغير الله مراغمة لله ورسوله، وهو من أبلغ أنواع العبودية، فإذا جوز هذا المشرك هذا النوع للبشر؛ فقد جوز العبودية لغير الله.. والمقصود: أن النفوس الجاهلة الضالة أسقطت عبودية

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٣٨١)، وابن ماجه (١/ ٥٩٥/ ١٨٥٣) واللفظ له، والبيهقي (٧/ ٢٩٢) وصححه، وابن حبان (الإحسان ٩/ ٤٧٩/ ٤١٧١)، وصححه الحاكم (٤/ ١٧٢) على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

(٢) فيض القدير (٥/ ٣٢٩).

(٣) الفتاوى (١١/ ٥٠٢).

(٤) الفتاوى (٤/ ٣٥٨).

اللَّه سبحانه، وأشركت فيها من تعظمه من الخلق، فسجدت لغير اللَّه وركعت له، وقامت بين يديه قيام الصلاة، وحلفت بغيره ونذرت لغيره، وحلقت لغيره وذبحت لغيره، وطافت لغير بيته، وعظمته بالحب والخوف والرجاء والطاعة كما يعظم الخالق بل أشد، وسوت من تعبده من المخلوقين برب العالمين، وهؤلاء هم المضادون لدعوة الرسل، وهم الذين بربهم يعدلون، وهم الذين يقولون -وهم في النار مع آلهتهم يختصمون-: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٩٧ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[١] وهم الذين قال فيهم: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾[٢] وهذا كله من الشرك، واللَّه لا يغفر أن يشرك به»[٣].

ومما يدخل في هذا الباب الانحناء في التحية، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ معددا أمثلة كثيرة من اهتمام الشرع بسد الذرائع: «الوجه التاسع والثمانون: أن النبي ﷺ نهى الرجل أن ينحني للرجل إذا لقيه؛ كما يفعله كثير من المنتسبين إلى العلم ممن لا علم له بالسنة! بل يبالغون إلى أقصى حد الانحناء مبالغة في خلاف السنة جهلا، حتى يصير أحدهم بصورة الراكع لأخيه، ثم يرفع رأسه من الركوع كما يفعل إخوانهم من السجود بين يدي شيوخهم الأحياء والأموات، أخذوا من الصلاة سجودها، وأولئك ركوعها، وطائفة ثالثة قيامها؛ يقوم عليهم الناس وهم قعود كما يقومون في الصلاة، فقاسمت الفرق الثلاث أجزاء الصلاة، والمقصود أن النبي ﷺ نهى عن انحناء الرجل لأخيه سدا لذريعة الشرك، كما نهى عن السجود لغير اللَّه، وكما نهاهم أن يقوموا في الصلاة على رأس الإمام وهو جالس، مع أن قيامهم عبادة لله تعالى، فما الظن إذا كان القيام تعظيما للمخلوق وعبودية له، فاللَّه المستعان»[٤].

قال القرطبي: «هذا الانحناء والتكفي الذي نسخ عنا قد صار عادة بالديار المصرية وعند العجم، وكذلك قيام بعضهم إلى بعض، حتى إن أحدهم إذا لم يقم له وجد في نفسه كأنه لا يؤبه به، وأنه لا قدر له، وكذلك إذا التقوا انحنى بعضهم

(١) الشعراء: الآيتان (٩٧-٩٨).
(٢) البقرة: الآية (١٦٥).
(٣) زاد المعاد (٤/ ١٦٠-١٦٢).
(٤) اعلام الموقعين (٣/ ١٥٤-١٥٥).

لبعض عادة مستمرة، ووراثة مستقرة، لاسيما عند التقاء الأمراء والرؤساء، نكبوا عن السُّنن، وأعرضوا عن السَّنن. وروى أنس بن مالك قال: قلنا: يا رسول الله! أينحني بعضنا إلى بعض إذا التقينا؟ قال: «لا». قلنا: أفيعتنق بعضنا بعضا؟ قال: «لا». قلنا: أفيصافح بعضنا بعضا؟ قال: «نعم»[١]»[٢].

وسئل شيخ الإسلام عمن يبوس الأرض دائما هل يأثم؟ وعمن يفعل ذلك لسبب أخذ رزق وهو مكره كذلك؟ فأجاب: «أما تقبيل الأرض ورفع الرأس ونحو ذلك مما فيه السجود -مما يفعل قدام بعض الشيوخ وبعض الملوك- فلا يجوز، بل لا يجوز الانحناء كالركوع أيضًا، كما قالوا للنبي ﷺ: الرجل منا يلقى أخاه أينحني له؟ قال: «لا». ولما رجع معاذ من الشام سجد للنبي ﷺ فقال: «ما هذا يا معاذ؟» قال: يا رسول الله! رأيتهم في الشام يسجدون لأساقفتهم، ويذكرون ذلك عن أنبيائهم. فقال: «كذبوا عليهم، لو كنت آمرا أحدا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من أجل حقه عليها، يا معاذ! إنه لا ينبغي السجود إلا لله». وأما فعل ذلك تدينا وتقربا فهذا من أعظم المنكرات، ومن اعتقد مثل هذا قربة وتدينا فهو ضال مفتر، بل يبين له وأن هذا ليس بدين ولا قربة، فإن أصر على ذلك استتيب، فإن تاب وإلا قتل. وأما إذا أكره الرجل على ذلك بحيث لو لم يفعله لأفضى إلى ضربه أو حبسه أو أخذ ماله أو قطع رزقه الذي يستحقه من بيت المال ونحو ذلك من الضرر؟ فإنه يجوز عند أكثر العلماء، فإن الإكراه عند أكثرهم يبيح الفعل المحرم كشرب الخمر ونحوه، وهو المشهور عن أحمد وغيره، ولكن عليه مع ذلك أن يكرهه بقلبه، ويحرص على الامتناع منه بحسب الإمكان، ومن علم اللَّه منه الصدق أعانه اللَّه تعالى، وقد يعافى ببركة صدقه من الأمر بذلك. وذهب طائفة إلى أنه لا يبيح إلا الأقوال دون الأفعال، ويروى ذلك عن ابن عباس ونحوه؛ قالوا: إنما التقية باللسان، وهو الرواية الأخرى عن أحمد. وأما فعل ذلك لأجل فضول الرياسة والمال فلا، وإذا أكره على مثل ذلك ونوى بقلبه أن هذا الخضوع لله تعالى كان حسنا؛ مثل أن يكره كلمة الكفر وينوي معنى جائزا، واللَّه أعلم»[٣].

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ١٩٨) والترمذي (٥/ ٧٠/ ٢٧٢٨) وابن ماجه (٢/ ١٢٢٠/ ٣٧٠٢) وقال الترمذي: «حديث حسن».

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٩/ ١٧٤).

(٣) الفتاوى (١/ ٣٧٢-٣٧٣).

اختلف العلماء في شرع من قبلنا، هل هو شرع لنا أم لا؟

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «والنزاع في ذلك مشهور، لكن الذي عليه الأئمة وأكثر العلماء أنه شرع لنا ما لم يرد شرعنا بخلافه وهذا إنما هو فيمن ثبت أنه شرع لمن قبلنا من نقل ثابت عن نبينا ﷺ، أو بما تواتر عنهم»[١].

وقال أيضًا: «وأما إثبات حكم بمجرده فلا يجوز اتفاقا، وشرع من قبلنا إنما هو شرع لنا فيما ثبت أنه شرع لهم دون ما رووه لنا، وهذا يغلط فيه كثير من المتعبدة والقصاص، وبعض أهل التفسير، وبعض أهل الكلام»[٢].

وهذه المسألة لها طرفان ووسط.

يقول الجيزاني:

«أ- طرف يكون فيه شرع من قبلنا شرعا لنا إجماعا.

ب- طرف يكون فيه شرع من قبلنا ليس شرعا لنا إجماعا.

ج- وواسطة هي محل الخلاف.

أما الطرف الأول الذي يكون فيه شرع من قبلنا شرعا لنا إجماعا؛ فهو ما ثبت أولا أنه شرع لمن قبلنا، وذلك بطريق صحيح، وثبت ثانيا أنه شرع لنا. وذلك كقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[٣].

وأما الطرف الثاني: وهو الذي يكون فيه شرع من قبلنا غير حجة إجماعا؛ فهو أحد أمرين:

الأول: لم يثبت بطريق صحيح أصلا؛ كالمأخوذ من الإسرائيليات.

والثاني: ما ثبت بطريق صحيح أنه شرع لمن قبلنا وصرح في شرعنا بنسخه؛ كالآصار والأغلال التي كانت عليهم كما في قوله تعالى: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾[٤].

---

(١) الفتاوى (١/ ٢٥٨).

(٢) الفتاوى (١٩/ ٦-٧).

(٣) البقرة: الآية (١٨٣).

(٤) الأعراف: الآية (١٥٧).

والواسطة التي وقع فيها الخلاف هي ما اشتملت على ثلاثة ضوابط:

الأول: أن يثبت أنه شرع لمن قبلنا بطريق صحيح وهو الكتاب والسنة الصحيحة، ويكفي الآحاد في ذلك، فإن ورد بطريق غير صحيح لم يكن شرعا لنا بلا خلاف.

الثاني: ألا يرد في شرعنا ما يؤيده ويقرره، فإن ورد في شرعنا ما يؤيده كان شرعا لنا بلا خلاف.

الثالث: ألا يرد في شرعنا ما ينسخه ويبطله، فإن ورد في شرعنا ما ينسخه لم يكن شرعا لنا بلا خلاف، ومن المعلوم أن ذلك لا يكون في أصول الدين وأمور العقيدة؛ لأنها مما اتفق عليه بين جميع الأنبياء»[1].

* * *

---

(١) معالم أصول الفقه عند أهل السنة (ص: ٢٣١-٢٣٢).

قوله تعالى: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشوكاني: «ولما أتم الله نعمته على يوسف ﷺ بما خلصه منه من المحن العظيمة، وبما خوله من الملك وعلمه من العلم؛ تاقت نفسه إلى الخير الأخروي الدائم الذي لا ينقطع، فقال: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ﴾ (من) للتبعيض: أي بعض الملك، لأنه لم يؤت كل الملك، إنما أوتي ملكا خاصا، وهو ملك مصر في زمن خاص ﴿وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ أي: بعضها، لأنه لم يؤت جميع علم التأويل سواء أريد به مطلق العلم والفهم، أو مجرد تأويل الرؤيا؛ وقيل: (من) للجنس كما في قوله: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾[1]. وقيل: زائدة: أي آتيتني الملك وعلمتني تأويل الأحاديث ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ منتصب على أنه صفة لرب، لكونه منادى مضافا، ويجوز أن يكون انتصابه على أنه منادى بحرف مقدر: أي: يا فاطر، والفاطر: الخالق والمنشئ والمخترع والمبدع ﴿أَنتَ وَلِيِّۦ﴾ أي: ناصري ومتولي أموري ﴿فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ تتولاني فيهما ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: توفني على الإسلام لا يفارقني حتى أموت، وألحقني بالصالحين من النبيين من آبائي وغيرهم، فأظفر بثوابهم منك ودرجاتهم عندك»[2].

وقال ابن كثير: «هذا دعاء من يوسف الصديق، دعا به ربه ﷻ لما تمت نعمة الله عليه باجتماعه بأبويه وإخوته، وما من الله به عليه من النبوة والملك، سأل ربه ﷻ كما أتم نعمته عليه في الدنيا أن يستمر بها عليه في الآخرة، وأن يتوفاه مسلما حين يتوفاه، قاله الضحاك، وأن يلحقه بالصالحين، وهم إخوانه من النبيين

---

(١) الحج: الآية (٣٠).

(٢) فتح القدير (٣/ ٨٠).

والمرسلين، صلوات اللَّه وسلامه عليهم أجمعين، وهذا الدعاء يحتمل أن يوسف عليه السلام، قاله عند احتضاره؛ كما ثبت في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أن رسول اللَّه ﷺ جعل يرفع إصبعه عند الموت ويقول: «**اللهم في الرفيق الأعلى**» ثلاثا، ويحتمل أنه سأل الوفاة على الإسلام واللحاق بالصالحين، إذا جاء أجله وانقضى عمره؛ لا أنه سأل ذلك منجزا كما يقول الداعي لغيره: أماتك اللَّه على الإسلام، ويقول الداعي: اللهم أحينا مسلمين، وتوفنا مسلمين، وألحقنا بالصالحين؛ ويحتمل أنه سأل ذلك منجزا، وكان ذلك سائغا في ملتهم؛ كما قال قتادة، قوله: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ لما جمع اللَّه شمله وأقر عينه، وهو يومئذ مغمور في الدنيا وملكها ونضارتها، اشتاق إلى الصالحين قبله.

وكان ابن عباس يقول: ما تمنى نبي قط الموت قبل يوسف عليه السلام؛ وكذا ذكر ابن جرير والسدي عن ابن عباس أنه أول نبي دعا بذلك، وهذا يحتمل أنه أول من سأل الوفاة على الإسلام، كما أن نوحا أول من قال: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا﴾[1] ويحتمل أنه أول من سأل إنجاز ذلك، وهو ظاهر سياق قول قتادة، ولكن هذا لا يجوز في شريعتنا»[2].

وقال ابن القيم: «قوله تعالى عن يوسف نبيه إنه قال: ﴿أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾، جمعت هذه الدعوة الإقرار بالتوحيد، والاستسلام للرب، وإظهار الافتقار إليه، والبراءة من موالاة غيره سبحانه. وكون الوفاة على الإسلام أجل غايات العبد، وأن ذلك بيد اللَّه لا بيد العبد، والاعتراف بالمعاد وطلب مرافقة السعداء»[3].

وقال الخطيب: «بهذه الابتهالات وتلك التسابيح، يستقبل يوسف هذه النعم التي أنعم اللَّه بها عليه، فيحدث بنعمة ربه ويسبحه بها ويحمده عليها، ويستزيده من فضله، بأن يتم تلك النعمة عليه، وأن يتوفاه على دين الإسلام، وأن يلحقه بالصالحين من عباده؛ فذلك هو الذي يجعل لتلك النعم مساغا في فمه، وطعما هنيئا في حياته!.

---

(١) نوح: الآية (٢٨).
(٢) التفسير (٤/ ٥١-٥٢).
(٣) الفوائد (ص: ٢٥٩).

وإلى هنا تنتهي قصة (يوسف) التي كانت السورة كلها تقريبا معرضا لها، وحديثا عنها. ويلاحظ أن قصة (يوسف) -على خلاف القصص القرآني كله- جاءت في معرض واحد، لم يذكر معها غيرها من قصص الأنبياء، ولم تذكر هي في معرض آخر، ولم يجر عن يوسف حديث في غير هذه السورة، اللهم إلا أن يذكر اسمه مع جماعة الأنبياء، ذكرا لا يراد منه إلا تعداد أسمائهم، أو مجرد الإشارة إلى قصته، للعبرة والعظة!.

ولعل الحكمة في هذا هي أن هذه القصة تعتبر حدثا واحدا، هو رحلة عبر الزمن للإنسان من مولده إلى مماته، وعلى طريق هذه الرحلة تقوم سدود، وتهب أعاصير، ولكن يد اللطف والقدرة تبلغ بهذا الإنسان مأمنه، وتخرجه من تلك التجربة التي عانى فيها الشدائد والأهوال جوهرا صافيا، وإنسانا عظيما يمسك بكلتا يديه خير الدنيا والآخرة جميعًا.

ولو أن هذه القصة صنع بها ما صنع في القصص القرآني، فعرضت في أكثر من معرض؛ لتمزقت وحدة الشخصية التي هي العمود الفقري للقصة.

ومن جهة أخرى؛ فإن القصة وقد اصطبغت من أولها بلون الدم، ثم كان ختامها الأمن والسلامة؛ فقد كان مما يتفق وتطلعات النفوس أن تجيء القصة هكذا كيانا واحدا، يجمع بين بدئها وختامها.

ومع هذا، فلو جاء بها القرآن على نسق القصص القرآنية الأخرى، فعرضها في أكثر من معرض؛ لما أخل ذلك بشيء من مقوماتها، ولكن هكذا جاء بها القرآن، فكان ذلك شاهدا من شهوده الكثيرة على امتلاكه ناصية البيان، وتمكنه غاية التمكن من فنون القول!.

فيجيء بالقصة في معارض مختلفة، فإذا هي كيان واحد، وخلق سوي، ينبض بالحياة، ويفيض بالجمال والجلال، ثم يجيء بالقصة في معرض واحد، فإذا هي مائدة تجمع شهي الطعام، وتؤلف بين مختلف الطعوم، فإذا الوارد عليها والطاعم منها آخذ بحظه من كل طعام، متذوق من كل لون، حتى إذا قارب حد الشبع، وجد على لسانه حلاوة هذا الختام الذي انتهت به أحداث القصة.

فسبحان من هذا كلامه، و﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ

﴿١ قِيَمًا﴾[(١)]»[(٢)].

وقال شيخ الإسلام: «وقد ذكر في غير موضع أن دين الأنبياء كلهم الإسلام. كما قال تعالى عن نوح: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[(٣)]، وقال عن إبراهيم: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١٣١ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾[(٤)]. وقال يوسف ﴿فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾. ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ ۝٨٤﴾[(٥)] وقال عن السحرة: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾[(٦)].

وقال عن بلقيس: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[(٧)].

وقال: ﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ﴾[(٨)].

وقال: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾[(٩)].

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ قال: «إنا معاشر الأنبياء ديننا واحد»[(١٠)]. وتنوع الشرائع لا يمنع أن يكون الدين واحدا وهو الإسلام، كالدين الذي بعث الله به محمدا ﷺ؛ فإنه هو دين الإسلام أولا وآخرا.

وكانت القبلة في أول الأمر بيت المقدس، ثم صارت القبلة الكعبة، وفي كلا الحالين الدين واحد، وهو دين الإسلام. فهكذا سائر ما شرع للأنبياء قبلنا»[(١١)].

وقال: «والأنبياء أفضل الخلق، وهم أصحاب الدرجات العلى في الآخرة، فيمتنع أن يكون النبي من الفجار، بل ولا يكون من عموم أصحاب اليمين، بل من أفضل السابقين المقربين، فإنهم أفضل من عموم الصديقين والشهداء والصالحين، وإن كان النبي أيضًا يوصف بأنه صديق وصالح وقد يكون شهيدا، لكن ذاك أمر

---

(١) الكهف: الآيتان (١ و ٢).
(٢) التفسير القرآني (٧/ ٥٠-٥٢).
(٣) يونس: الآية (٧٢).
(٤) البقرة: الآيتان (١٣١-١٣٢).
(٥) يونس: الآية (٨٤).
(٦) الأعراف: الآية (١٢٦).
(٧) النمل: الآية (٤٤).
(٨) المائدة: الآية (٤٤).
(٩) المائدة: الآية (١١١).
(١٠) أخرجه: أحمد (٢/ ٣١٩) والبخاري (٦/ ٥٩٠-٥٩١/ ٣٤٤٣)، ومسلم (٤/ ١٨٣٧/ ٢٣٦٥) من حديث أبي هريرة ﷺ.
(١١) منهاج السنة (٥/ ٢٦٥-٢٦٧).

يختص بهم لا يشركهم فيه من ليس بنبي، كما قال عن الخليل: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾(١)، وقال يوسف: ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

فهذا مما يوجب تنزيه الأنبياء أن يكونوا من الفجار والفساق، وعلى هذا إجماع سلف الأمة وجماهيرها»(٢).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة من حرص الأنبياء ﷺ الشديد على الوفاة على الإسلام ومرافقة الصالحين

* عن عائشة رضي الله عنها: «دخل عبدالرحمن بن أبي بكر على النبي ﷺ وأنا مسندته إلى صدري، ومع عبدالرحمن سواك رطب يستن به. فأبده رسول الله ﷺ بصره. فأخذت السواك فقضمته ونفضته وطيبته ثم دفعته إلى النبي ﷺ فاستن به، فما رأيت رسول الله ﷺ استن استنانا قط أحسن منه، فما عدا أن فرغ رسول الله ﷺ رفع بيده أو إصبعه ثم قال: «في الرفيق الأعلى» ثلاثا ثم قضى، وكانت تقول: مات بين حاقنتي وذاقنتي»(٣).

★ غريب الحديث:

يستن به: أي يستاك.

فأبده: بتشديد الدال أي: مد نظره إليه، يقال: أبددت فلانا النظر إذا طولته إليه.

في الرفيق الأعلى: الرفيق: اسم من أسماء الله تعالى. فهو رفيق يحب الرفق في الأمر كله. وقيل: الرفيق الأعلى الجنة، وقيل: الأنبياء.

فقضمته: بفتح القاف وكسر الضاد المعجمة أي مضغته، والقضم الأخذ بطرف الأسنان.

---

(١) العنكبوت: الآية (٢٧). (٢) منهاج السنة (٢/ ٤١٨).

(٣) أخرجه: أحمد (٦/ ٤٨)، والبخاري (٨/ ١٧٤/ ٤٤٣٨) واللفظ له، ومسلم (٤/ ١٨٩٣/ ٢٤٤٣)، والنسائي (٤/ ٣٠٤/ ١٨٢٩).

طيبته: أي بالماء ويحتمل أن يكون طيبته تأكيدا للينته.

مات بين حاقنتي وذاقنتي: قال الخطابي: والحاقنة: نقرة الترقوة، وهما حاقنتان؛ أي: نقرتا الترقوتين.

والذاقنة: ما يناله الذقن من الصدر، وهذا كحديثها الآخر: توفي رسول اللّٰه ﷺ بين سحري ونحري[١].

قال الحافظ: «والحاصل أن ما بين الحاقنة والذاقنة هو ما بين السحر والنحر، والمراد أنه مات ورأسه بين حنكها وصدرها صلى اللّٰه عليه وسلم ورضي عنها»[٢].

* عن عباد بن عبداللّٰه بن الزبير عن عائشة رضي الله عنها: «أنها أخبرته أنها سمعت رسول اللّٰه ﷺ يقول قبل أن يموت وهو مستند إلى صدرها وأصغت إليه وهو يقول: «**اللهم اغفر لي وارحمني وألحقني بالرفيق**»»[٣].

★ **فوائد الحديثين**:

قال السهيلي: «فهذه آخر كلمة تكلم بها ﷺ، وهي تتضمن معنى التوحيد الذي يجب أن يكون آخر كلام المؤمن؛ لأنه قال: ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم﴾[٤] وهم أصحاب الصراط المستقيم، وهم أهل لا إله إلا اللّٰه، قال اللّٰه تعالى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾[٥] ثم بين في الآية المتقدمة من ﴿ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم﴾ فذكرهم، وهم الرفيق الأعلى الذين ذكرهم رسول اللّٰه ﷺ حين خير فاختار»[٦].

قال الحافظ: «قال السهيلي: الحكمة في اختتام المصطفى بهذه الكلمة كونها تتضمن التوحيد والذكر بالقلب حتى يستفاد منه الرخصة لغيره أنه لا يشترط أن يكون الذكر باللسان لأن بعض الناس قد يمنعه من النطق مانع إذا كان قلبه عامرا بالذكر»[٧].

---

(١) أعلام الحديث (٣/ ١٧٩٠-١٧٩١).
(٢) الفتح (٨/ ١٧٦).
(٣) أخرجه: أحمد (٦/ ٢٣١) والبخاري (٨/ ١٧٤-١٧٥/ ٤٤٤٠) ومسلم (٤/ ١٨٩٣/ ٢٤٤٤) واللفظ له، والترمذي (٥/ ٤٩١/ ٣٤٩٦) والنسائي في الكبرى (٤/ ٢٦٠/ ٧١٠٥).
(٤) النساء: الآية (٦٩).
(٥) الفاتحة: الآيتان (٦ و ٧).
(٦) الروض الأنف (٤/ ٢٧٠).
(٧) الفتح (٨/ ١٧٤).

قال ابن القيم: «والأرواح المنعمة المرسلة غير المحبوسة تتلاقى وتتزاور، وتتذاكر ما كان منها في الدنيا وما يكون من أهل الدنيا، فتكون كل روح مع رفيقها الذي هو على مثل عملها، وروح نبينا محمد ﷺ في الرفيق الأعلى. قال اللَّه تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾[١] وهذه المعية ثابتة في الدنيا، وفي دار البرزخ، وفي دار الجزاء، والمرء مع من أحب في هذه الدور الثلاثة»[٢].

وقال: «هذا مع القطع بأن روحه الكريمة في الرفيق الأعلى في أعلى عليين مع أرواح الأنبياء.

وقد صح عنه أنه رأى موسى قائما يصلي في قبره ليلة الإسراء، ورآه في السماء السادسة أو السابعة، فالروح كانت هناك، ولها اتصال بالبدن في القبر وإشراف عليه وتعلق به، بحيث يصلي في قبره ويرد سلام من سلم عليه، وهي في الرفيق الأعلى.

ولا تنافي بين الأمرين؛ فإن شأن الأرواح غير شأن الأبدان، وأنت تجد الروحين المتماثلتين المتناسبتين في غاية التجاور والقرب وإن كان بينهما بعد المشرقين، وتجد الروحين المتنافرتين المتباغضتين بينهما غاية البعد، وإن كان جسداهما متجاورين متلاصقين»[٣].

وقال: «عرض مقعد الميت عليه من الجنة والنار لا يدل على أن الروح في القبر ولا على فنائه دائما من جميع الوجوه، بل لها إشراف واتصال بالقبر وفنائه، وذلك القدر منها يعرض عليه مقعده، فإن الروح شأن آخر؛ تكون في الرفيق الأعلى في أعلى عليين، ولها اتصال بالبدن بحيث إذا سلم المسلم على الميت رد اللَّه عليه روحه، فيرد عليه السلام وهي في الملأ الأعلى، وإنما يغلط أكثر الناس في هذا الموضع، حيث يعتقد أن الروح من جنس ما يعهد من الأجسام التي إذا شغلت مكانا لم يمكن أن تكون في غيره، وهذا غلط محض، بل الروح تكون فوق السموات في أعلى عليين، وترد إلى القبر فترد السلام وتعلم بالمسلم وهي في

---

(١) النساء: الآية (٦٩).
(٢) الروح (ص: ١٧).
(٣) الروح (ص: ٤٥).

مكانها هناك، وروح رسول اللَّه ﷺ في الرفيق الأعلى دائما، ويردها اللَّه سبحانه إلى القبر فترد السلام على من سلم عليه، وتسمع كلامه»[١].

وقال المناوي: «فكل مهتم بشيء فهو منجذب إليه وإلى أهله بطبعه شاء أم أبى، وكل امرئ يصبو إلى مناسبه رضي أم سخط، فالنفوس العلوية تنجذب بذواتها وهممها وعملها إلى أعلى، والنفوس الدنية تنجذب بذواتها إلى أسفل، ومن أراد أن يعلم هل هو مع الرفيق الأعلى أو الأسفل؛ فلينظر أين هو؟ ومع من هو في هذا العالم؟ فإن الروح إذا فارقت البدن تكون مع الرفيق الذي كانت تنجذب إليه في الدنيا، فهو أولى بها»[٢].

وقال النووي: «الصحيح الذي عليه الجمهور أن المراد بالرفيق الأعلى: الأنبياء الساكنون أعلى عليين، ولفظة رفيق تطلق على الواحد والجمع. قال اللَّه تعالى: ﴿وَحَسُنَ أُولَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾[٣] وقيل: هو اللَّه تعالى، يقال: اللَّه رفيق بعباده؛ من الرفق والرأفة، فهو فعيل بمعنى فاعل..»[٤].

وقال: «وأما قوله ﷺ: «إن اللَّه رفيق» ففيه تصريح بتسميته سبحانه وتعالى ووصفه برفيق.

قال المازري: لا يوصف اللَّه سبحانه وتعالى إلا بما سمى به نفسه، أو سماه به رسول اللَّه ﷺ، أو أجمعت الأمة عليه.. والصحيح جواز تسمية اللَّه رفيقا»[٥].

وقال القرطبي: «-وهو- صحيح في حق اللَّه تعالى؛ إذ هو الميسر والمسهل لأسباب الخير والمنافع كلها، والمعطي لها، فلا تيسير إلا بتيسيره، ولا منفعة إلا بإعطائه وتقديره. وقد يجيء الرفق أيضًا بمعنى: التمهل في الأمر، والتأني فيه، يقال منه: رفقت الدابة أرفقها رفقا: إذا شددت عضدها بحبل لتبطئ في مشيها، وعلى هذا فيكون الرفيق في حق اللَّه تعالى بمعنى: الحليم؛ فإنه لا يعجل بعقوبة العصاة، بل: يمهل ليتوب من سبقت له السعادة، ويزداد إثما من سبقت له الشقاوة»[٦].

---

(١) الروح (ص: ١٠١).

(٢) فيض القدير (٦/ ٢٦٥).

(٣) النساء: الآية (٦٩).

(٤) شرح مسلم (١٥/ ١٦٩).

(٥) شرح مسلم (١٦/ ١٢٠).

(٦) المفهم (٦/ ٥٧٧).

وقال ابن القيم في النونية:

«وهو الرفيق يحب أهل الرفق بل   يعطيهم بالرفق فوق أمان

الشرح: ومن أسمائه سبحانه (الرفيق) وهو مأخوذ من الرفق الذي هو التأني في الأمور والتدرج فيها، وضده العنف الذي هو الأخذ فيها بشدة واستعجال»[(١)].

قوله ﷺ: «وألحقني بالرفيق الأعلى»: قال الحافظ: «لا يعارض النهي عن تمني الموت والدعاء به، وهذه الحالة من خصائص الأنبياء؛ أنه لا يقبض نبي حتى يخير بين البقاء في الدنيا وبين الموت»[(٢)].

فائدة: «تخيير الأنبياء عند الموت مبالغة في إكرامهم، وفي ترفيع مراتبهم عند الله تعالى، وليستخرج منهم شدة شوقهم، ومحبتهم له تعالى»[(٣)].

قال ابن عبدالبر: «إذا كان رسول الله ﷺ وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر يدعو بالرحمة والمغفرة فغيره أولى أن لا يفتر من الاستغفار وسؤال الرحمة من العزيز الغفار، ألهمنا الله لدعائه وسؤاله، والله لا يخيب من دعاه ولا يحرم سائله، ولقد أحسن القائل وهو عبيد: من يسأل الناس يحرموه، وسائل الله لا يخيب»[(٤)].

*** عن أنس رضي الله عنه قال: قال ﷺ: «لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به، فإن كان لا بد متمنيًا فليقل: اللهم أحيني ما كانت الحياة خيرًا لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيرًا لي»**[(٥)].

★ فوائد الحديث:

قال الحافظ: «في رواية همام عن أبي هريرة بزيادة نون التأكيد وزاد بعد قوله: «أحدكم الموت ولا يدع به من قبل أن يأتيه». وهو قيد في الصورتين، ومفهومه: أنه إذا حل به لا يمنع من تمنيه رضا بلقاء الله، ولا من طلبه من الله لذلك، وهو كذلك. ولهذه النكتة عقب البخاري حديث أبي هريرة بحديث عائشة: اللهم اغفر لي وارحمني وألحقني بالرفيق الأعلى؛ إشارة إلى أن النهي مختص بالحالة التي قبل

---

(١) شرح القصيدة النونية (٢/ ٩٣).   (٢) الفتح (١٠/ ١٦١).

(٣) المفهم (٦/ ٣٢٨).   (٤) فتح البر (٦/ ٣٥٩).

(٥) أخرجه: أحمد (٣/ ١٠١) والبخاري (١٠/ ١٥٦/ ٥٦٧١) ومسلم (٤/ ٢٠٦٤/ ٢٦٨٠) وأبو داود (٣/ ٤٨٠/ ٣١٠٨) والترمذي (٣/ ٣٠٢/ ٩٧١) والنسائي (٤/ ٣٠١/ ١٨٢١) وابن ماجه (٢/ ١٤٢٥/ ٤٢٦٥).

نزول الموت. فلله دره ما كان أكثر استحضاره وإيثاره للأخفى على الأجلى شحذا للأذهان، وقد خفي صنيعه هذا على من جعل حديث عائشة في الباب معارضا لأحاديث الباب، أو ناسخا لها، وقوّى ذلك بقول يوسف ﷺ: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ قال ابن التين: قيل إن النهي منسوخ بقول يوسف فذكره، وبقول سليمان: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[1] وبحديث عائشة في الباب، وبدعاء عمر بالموت وغيره. قال: وليس الأمر كذلك؛ لأن هؤلاء إنما سألوا ما قارب الموت. قلت: وقد اختلف في مراد يوسف ﷺ، فقال قتادة: لم يتمن الموت أحد إلا يوسف حين تكاملت عليه النعم وجمع له الشمل؛ اشتاق إلى لقاء الله[2]. أخرجه الطبراني بسند صحيح عنه. وقال غيره: بل مراده توفني مسلما عند حضور أجلي.. وعلى تقدير الحمل على ما قال قتادة؛ فهو ليس من شرعنا، وإنما يؤخذ بشرع من قبلنا ما لم يرد في شرعنا النهي عنه بالاتفاق. وقد استشكل الإذن في ذلك عند نزول الموت؛ لأن نزول الموت لا يتحقق، فكم من انتهى إلى غاية جرت العادة بموت من يصل إليها ثم عاش، والجواب أنه يحتمل أن يكون المراد أن العبد يكون حاله في ذلك الوقت حال من يتمنى نزوله به، ويرضاه أن لو وقع به. والمعنى أن يطمئن قلبه إلى ما يرد عليه من ربه، ويرضى به ولا يقلق، ولو لم يتفق أنه يموت في ذلك المرض»[3].

قال صديق حسن خان: «وليس في اللفظ ما يدل أنه طلب الوفاة في الحال، ولهذا ذهب الجمهور إلى أنه لم يتمن الموت بهذا الدعاء في الحال، وإنما دعا ربه أن يتوفاه على دين الإسلام، ويلحقه بالصالحين من عباده عند حضور أجله»[4].

قال النووي: «فيه التصريح بكراهة تمني الموت لضر نزل به؛ من مرض أو فاقة أو محنة من عدو أو نحو ذلك من مشاق الدنيا، فأما إذا خاف ضررا في دينه أو فتنة فيه فلا كراهة فيه لمفهوم هذا الحديث وغيره، وقد فعل هذا الثاني خلائق من

---

(١) النمل: الآية (١٩).

(٢) أخرجه: ابن جرير الطبري (١٥/ ٢٧٩/ ١٩٩٤٣ شاكر) وأبو نعيم في الحلية (٢/ ٣٣٩).

تنبيه: لعل الصواب في كلام الحافظ الطبري لا الطبراني.

(٣) الفتح (١٠/ ١٦٠).

(٤) فتح البيان في مقاصد القرآن (٦/ ٤٠٧).

السلف عند خوف الفتنة في أديانهم، وفيه أنه إن خاف ولم يصبر على حاله في بلواه بالمرض ونحوه؛ فليقل: اللهم أحيني إن كانت الحياة خيرا لي الخ والأفضل الصبر والسكون للقضاء»[١].

قال البنا: «الظاهر أن هذا التفصيل يشمل ما إذا كان الضر دينيا أم دنيويا، وهو يدل على أن النهي عن تمني الموت مقيد بما إذا لم يكن على هذه الصيغة، لأن في التمني المطلق نوع اعتراض ومراغمة للقدر المحتوم، وفي هذه الصورة المأمور بها نوع تفويض وتسليم للقضاء، والله سبحانه وتعالى أعلم»[٢].

قال ابن بطال: «فإن قال قائل: إن قول النبي ﷺ عند موته: «**اللهم ألحقني بالرفيق**» تمن للموت، وذلك معارض للأحاديث المتقدمة، وقد تمنى الموت عمر ابن الخطاب، وعلي بن أبي طالب. فأما حديث عمر فرواه معمر عن علي بن زيد، عن الحسن، عن سعيد بن أبي العاص قال: (رصدت عمر ليلة فخرج إلى البقيع، وذلك في السحر، فاتبعته فصلى فرفع يديه ثم قال: اللهم كبرت سني، وضعفت قوتي، وخشيت الانتشار من رعيتي؛ فاقبضني إليك غير عاجز ولا ملوم)[٣] قال الزهري: عن ابن المسيب: فما انسلخ الشهر حتى مات. وأما حديث علي فرواه معمر عن أيوب، عن ابن سيرين، عن عبيدة قال: سمعت عليا يخطب فقال: (اللهم إني قد سئمتهم وسئموني فارحمني منهم وارحمهم مني، ما يمنع أشقاكم أن يخضبها بدم وأشار إلى لحيته)[٤]. قيل: لا تعارض بين شيء مما ذكرت ولكل خبر منها وجه صحيح، فأما قول النبي ﷺ: «**اللهم ألحقني بالرفيق**»؛ فإنما قال ذلك بعد أن علم أنه ميت في يومه ذلك؛ برؤية الملائكة المبشرة له عن ربه بالسرور الكامل، ألا تسمعه يقول لابنته فاطمة حين ندبته: «**لا كرب على أبيك بعد اليوم**» فكانت نفسه مفزعة في اللحاق بكرامة الله تعالى، والمصير إلى ما وعده به من سعادة الأبد، وكذلك قالت عائشة: سمعت النبي ﷺ يقول: «**لا يقبض نبي حتى يخير، فلما** سمعته يقول: الرفيق الأعلى علمت أنه ذاهب وأنه لا يختارنا» وهذا خير له من كونه

(١) شرح مسلم (١٧/ ٧). (٢) الفتح الرباني (٧/ ٤٤).

(٣) أخرجه: مالك (٢/ ٨٢٤/ ١٠) وعبد الرزاق في المصنف (١١/ ٣١٥/ ٢٠٦٣٨) وأبو نعيم في الحلية (١/ ٥٤).

(٤) أخرجه: عبد الرزاق (١١/ ٣١٥/ ٢٠٦٣٧) وابن أبي شيبة (٧/ ٤٤٤/ ٣٧١٠٠).

في الدنيا، وبهذا أمر أمته فقال: «إن كان لابد فاعلا فليقل اللهم توفني ما كانت الوفاة خيرا لي». وأما حديث عمر وعلي؛ ففيهما بيان معنى نهيه ﷺ عن تمني الموت، وأن المراد بذلك إذا نزل بالمؤمن ضر أو ضيق في دنياه، فلا يتمنى الموت عند ذلك، فأما إذا خشي أن يصاب في دينه؛ فمباح له أن يدعو بالموت قبل مصابه بدينه، ويشهد لصحة هذا قوله ﷺ: «وإذا أردت بالناس فتنة فاقبضني إليك غير مفتون»[(١)] فاستعمل عمر هذا المعنى حين خشي عند كبر سنه وضعف قوته؛ أن يعجز عن القيام بما فرض اللَّه عليه من أمر الأمة، أو أن يفعل ما يلام عليه في الدنيا والآخرة، فلذلك قال: فاقبضني إليك غير عاجز ولا ملوم، فأجاب اللَّه دعاءه، وأماته قبل انسلاخ الشهر. وكذلك خشي علي بن أبي طالب من سآمته لرعيته وسآمتهم له؛ أن يحملهم ذلك على ما يئول إلى سخط اللَّه وإلى ما لا يرقع فتقه، فكان ذلك من قبلهم، فقتلوه وتقلدوا دمه، وباءوا بإثمه، وهو إمام عدل بر تقي، لم يأت ما يستحق عليه التأنيب فضلا عن غيره، فلذلك سأل اللَّه أن يريحه منهم، فليس في شيء من ذلك تعارض ولا اختلاف، بل كل ذلك يفسر بعضه بعضا»[(٢)].

قال القرطبي: «في هذا الحديث دليل على استعمال التفويض وسؤال الخيرة، حتى فيما لابد منه، وهو الموت، وقد كان النبي ﷺ يعلمهم الاستخارة في الأمور كلها، كما يعلمهم السورة من القرآن، فإذا تمنى الموت وجزم به؛ كان قد اختار لنفسه ما لعله ينقطع عنه به خير، كما قال ﷺ: «إن المؤمن لا يزيده عمره إلا خيرا»[(٣)] وقد فسر هذا الخير البخاري، فزاد في هذا الحديث فقال: «لا يتمنى أحدكم الموت، إما محسنا فلعله يزداد حسنا، وإما مسيئا فلعله أن يستعتب». والاستعتاب: طلب العتبى، وهو الرضا، وذلك لا يحصل إلا بالتوبة والرجوع عن الذنوب»[(٤)].

---

(١) أخرجه من حديث ابن عباس: أحمد (١/ ٣٦٨)، والترمذي (٥/ ٣٤٢-٣٤٣/ ٣٢٣٣-٣٢٣٤) وقال: «حسن غريب من هذا الوجه»، وصححه الحاكم (١/ ٥٢١) ووافقه الذهبي، وانظر الإرواء (٦٨٤).

(٢) شرح صحيح البخاري (٩/ ٣٨٨-٣٨٩).

(٣) أخرجه من حديث عوف بن مالك الأشجعي: أحمد (٦/ ٢٣) وابن أبي شيبة (١٥/ ٢٤٤) والطبراني في الكبير (١٨/ ٥٧/ ١٠٤-١٠٥) وقال فيه محقق المسند: «صحيح لغيره».

(٤) المفهم (٢/ ٦٤٢-٦٤٣).

* عن محمود بن لبيد رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «اثنتان يكرههما ابن آدم: يكره الموت؛ والموت خير للمؤمن من الفتنة، ويكره قلة المال؛ وقلة المال أقل للحساب»[1].

★ فوائد الحديث:

قال البنا: «قوله ﷺ: «اثنتان يكرههما ابن آدم» أي غالبا، وكأنه قيل: وما هما؟ فقال: «الموت» أي نزوله به.. والظاهر أن المراد بالمؤمن الموحد ضد المشرك، والفتنة الكفر أو الضلال أو الإثم، أو الاختبار والامتحان ونحوهما، وذلك لأنه ما دام حيا لا يأمن الوقوع في ذلك، فإنه ﴿لَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾[2] ومن غير الغالب؛ من أتحفه الله بلطف من عنده، فحبب إليه الموت؛ كالأولياء والصالحين»[3].

وقال القاري: «قال ابن الملك: الفتنة التي الموت خير منها هي الوقوع في الشرك، أو فتنة يسخطها الإنسان ويجري على لسانه ما لا يليق، وفي اعتقاده ما لا يجوز. وقال الراغب: الفتنة من الأفعال التي تكون من الله تعالى، ومن العبد كالبلية والمصيبة والقتل والعذاب وغير ذلك من الأفعال الكريهة.

قال الطيبي رحمه الله: وقد تكون الفتنة في الدين مثل الارتداد وإكراه الغير على المعاصي، وإليه أشار بقوله صلى الله تعالى عليه وسلم: «إذا أردت فتنة في قوم فتوفني غير مفتون»»[4].

* عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيقول: يا ليتني مكانه»[5].

---

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ٤٢٧-٤٢٨) والبغوي في شرح السنة (١٤/ ٢٦٧/ ٤٠٦٦) واللفظ له، وقال الهيثمي في المجمع (٢/ ٣٢١)، وقال: «رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح». انظر الصحيحة (٢/ ٤٥٢/ ٨١٣).

(٢) الأعراف: الآية (٩٩).

(٣) الفتح الرباني (١٩/ ١١٥).

(٤) المرقاة (٩/ ١٠٣).

(٥) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٣٦) والبخاري (١٣/ ٩٣/ ٧١١٥) ومسلم (٤/ ٢٢٣١/ ١٥٧[٥٣]) وابن ماجه (٢/ ١٣٤٠/ ٤٠٣٧).

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن بطال: «تغبيط أهل القبور وتمني الموت عند ظهور الفتن؛ إنما هو خوف ذهاب الدين لغلبة الباطل وأهله، وظهور المعاصي والمنكر»[1].

قال الحافظ: «وليس هذا عاما في حق كل أحد، وإنما هو خاص بأهل الخير، وأما غيرهم فقد يكون لما يقع لأحدهم من المصيبة في نفسه أو أهله أو دنياه، وإن لم يكن في ذلك شيء يتعلق بدينه. ويؤيده ما أخرجه في رواية أبي حازم عن أبي هريرة عند مسلم: «لا تذهب الدنيا حتى يمر الرجل على القبر فيتمرغ عليه ويقول: يا ليتني مكان صاحب هذا القبر، وليس به الدين إلا البلاء». وذكر الرجل فيه للغالب؛ وإلا فالمرأة يتصور فيها ذلك»[2].

قال القرطبي: «وقوله: «**لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيقول: يا ليتني مكانه**»، وفي الأخرى: «**فيتمرغ عليه ويقول: يا ليتني كنت مكان صاحب هذا القبر**» يعني: من شدة المحن وكثرة الفتن، والأنكاد اللاحقة للإنسان في نفسه وماله وولده، ولذلك قال: «**ليس به الدين إلا البلاء**». وكأن هذا إشارة إلى أن كثرة الفتن والمشقات والأنكاد؛ قد أذهبت الدين من أكثر الناس، أو قللت الاعتناء به من الذي يتمسك بالدين عند هجوم الفتن، ولذلك عظم قدر العبادة في حالة الفتن حتى قد قال ﷺ: «العبادة في الهرج كهجرة إلي»[3]»[4].

قال ابن عبدالبر: «قد ظن بعض الناس أن هذا الحديث معارض لنهيه ﷺ عن تمني الموت بقوله ﷺ: «لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به». قال: وفي هذا الحديث إباحة تمني الموت؛ وليس كما ظن، وإنما هذا خبر أن ذلك سيكون لشدة ما ينزل بالناس من فساد الحال في الدين، وضعفه وخوف ذهابه، لا لضر ينزل بالمؤمن في جسمه. وأما قوله ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل**

---

(١) شرح ابن بطال (١٠/ ٥٨).

(٢) الفتح (١٣/ ٩٣-٩٤).

(٣) أخرجه: أحمد (٥/ ٢٧) ومسلم (٤/ ٢٢٦٨/ ٢٩٤٨) والترمذي (٤/ ٤٢٤/ ٢٢٠١) وابن ماجه (٢/ ١٣١٩/ ٣٩٨٥) من حديث معقل بن يسار ﷺ.

(٤) المفهم (٧/ ٢٤٤-٢٤٥).

فيقول: يا ليتني مكانه»؛ فإنما هو خبر عن تغير الزمان، وما يحدث فيه من المحن والبلاء والفتن. وقد أدركنا ذلك الزمان كما شاء الواحد المنان، لا شريك له. عصمنا اللَّه ووفقنا وغفر لنا آمين»[1].

* * *

(١) فتح البر (٢/ ٣٧١).

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى لمحمد ﷺ لما قص عليه نبأ إخوة يوسف، وكيف رفعه الله عليهم، وجعل له العاقبة والنصر والملك والحكم، مع ما أرادوا به من السوء والهلاك والإعدام، هذا وأمثاله يا محمد من أخبار الغيوب السابقة ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ ونعلمك به يا محمد لما فيه من العبرة لك، والاتعاظ لمن خالفك ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ حاضرا عندهم ولا مشاهدا لهم ﴿إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ﴾ أي: على إلقائه في الجب ﴿وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ به، ولكنا أعلمناك به وحيا إليك وإنزالا عليك، كقوله: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ﴾[1] الآية؛ وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾[2] الآية، إلى قوله: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾[3] الآية؛ وقال: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾[4] الآية، وقال: ﴿مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾[5] يقول تعالى: إنه رسوله وأنه قد أطلعه على أنباء ما قد سبق، مما فيه عبرة للناس ونجاة لهم في دينهم ودنياهم، ومع هذا ما آمن أكثر الناس؛ ولهذا قال: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ وقال: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[6] كقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾[7] إلى غير

---

(١) آل عمران: الآية (٤٤).
(٢) القصص: الآية (٤٤).
(٣) القصص: الآية (٤٦).
(٤) القصص: الآية (٤٥).
(٥) ص: الآيتان (٦٩ و ٧٠).
(٦) الأنعام: الآية (١١٦).
(٧) الشعراء: الآية (٨).

ذلك من الآيات. وقوله: ﴿وَمَا تَسْئَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ أي: ما تسألهم يا محمد على هذا النصح والدعاء إلى الخير والرشد من أجر؛ أي: من جعالة ولا أجرة، بل تفعله ابتغاء وجه اللَّه ونصحا لخلقه ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ أي: يتذكرون به ويهتدون وينجون به في الدنيا والآخرة»[١].

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾. لم يبين هنا هذا الذي أجمعوا أمرهم عليه، ولم يبين هنا أيضًا المراد بمكرهم؛ ولكنه بين في أول هذه السورة الكريمة أن الذي أجمعوا أمرهم عليه هو جعله في غيابة الجب، وأن مكرهم هو ما فعلوه بأبيهم يعقوب وأخيهم يوسف؛ وذلك في قوله: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ﴾ إلى قوله: ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾.

وقد أشار تعالى في هذه الآية الكريمة إلى صحة نبوة نبينا ﷺ؛ لأنه أنزل عليه هذا القرآن، وفصل له هذه القصة. مع أنه ﷺ لم يكن حاضرا لدى أولاد يعقوب، حين أجمعوا أمرهم على المكر به، وجعله في غيابة الجب. فلولا أن اللَّه أوحى إليه ذلك ما عرفه من تلقاء نفسه.

والآيات المشيرة لإثبات رسالته، بدليل إخباره بالقصص الماضية التي لا يمكنه علم حقائقها إلا عن طريق الوحي كثيرة؛ كقوله: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾[٢] الآية.

وقوله: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ﴾[٣] الآية. وقوله: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾[٤]. وقوله: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾[٥] الآية. وقوله: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ۝ إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾[٦]. وقوله: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾[٧] الآية. إلى غير ذلك من الآيات.

---

(١) التفسير (٤/ ٥٤).
(٢) آل عمران: الآية (٤٤).
(٣) القصص: الآية (٤٤).
(٤) القصص: الآية (٤٥).
(٥) القصص: الآية (٤٦).
(٦) ص: الآيتان (٦٩ و ٧٠).
(٧) هود: الآية (٤٩).

فهذه الآيات من أوضح الأدلة على أنه ﷺ، رسول كريم، وإن كانت المعجزات الباهرة الدالة على ذلك أكثر من الحصر»[١].

قال أبو السعود: «وليس المراد مجرد نفي حضوره عليه الصلاة والسلام في مشهد إجماعهم ومكرهم فقط؛ بل في سائر المشاهد أيضًا، وإنما تخصيصه بالذكر لكونه مطلع القصة، وأخفى أحوالها كما ينبئ عنه قوله: ﴿وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ والخطاب - وإن كان لرسول اللّه ﷺ- لكن المراد إلزام المكذبين. والمعنى: ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك، إذ لا سبيل إلى معرفتك إياه سوى ذلك، إذ عدم سماعك ذلك من الغير، وعدم مطالعتك للكتب؛ أمر لا يشك فيه المكذبون أيضًا. ولم تكن بين ظهرانيهم عند وقوع الأمر حتى تعرفه كما هو فتبلغه إليهم. وفيه تهكم بالكفار، فكأنهم يشكون في ذلك فيدفع شكهم. وفيه أيضًا إيذان بأن ما ذكر من النبأ هو الحق المطابق للواقع، وما ينقله أهل الكتاب ليس على ما هو عليه؛ يعني: أن مثل هذا التحقيق بلا وحي لا يتصور إلا بالحضور والمشاهدة، وإذ ليس ذلك بالحضور فهو بالوحي. ومثله قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾[٢]. وقوله: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ﴾[٣]»[٤].

وقال القاسمي: «﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ﴾ يريد به العموم، أو أهل مكة. ﴿وَلَوْ حَرَصْتَ﴾ أي: جهدت كل الجهد على إيمانهم، وبالغت في إظهار الآيات القاطعة الدالة على صدقك، ﴿بِمُؤْمِنِينَ﴾ أي: بالكتب والرسل، لميلهم إلى الكفر وسبيل الشر؛ يعني: قد وضح بمثل هذا النبأ نبوته صلوات اللّه عليه، وقامت الحجة، ومع ذلك فما آمن أكثر الناس، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾[٥].

﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: على هذا النصح والدعاء إلى الخير والرشد، ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ أي: أجرة ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي: ما هو، يعني القرآن، ﴿إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ أي:

---

(١) أضواء البيان (٣/ ٧٢-٧٣).

(٢) آل عمران: الآية (٤٤).

(٣) القصص: الآية (٤٤).

(٤) تفسير أبي السعود (٤/ ٣٠٨-٣٠٩).

(٥) الشعراء: الآية (٨).

عظة لهم، يتذكرون به ويهتدون، وينجون في الدنيا والآخرة؛ يعني: أن هذا القرآن يشتمل على العظة البالغة والمراشد القويمة، وأنت لا تطلب في تلاوته عليهم مالا ولا جعلا. فلو كانوا عقلاء لقبلوا ولم يتمردوا.

قال بعض اليمانيين: في الآية دليل على أن من تصدر للإرشاد؛ من تعليم ووعظ، فإن عليه اجتناب ما يمنع من قبول كلامه»[١].

وقال أبو حيان: «والضمير في (عليه) عائد على دين اللّه؛ أي: ما تبتغي عليه أجرا على دين اللّه، وقيل: على القرآن، وقيل: على التبليغ، وقيل: على الإنباء بمعنى القول، وفيه توبيخ للكفرة وإقامة الحجة عليهم، أو ﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ﴾ على ما تحدثهم به وتذكرهم أن ينيلوك منفعة وجدوى، كما يعطى حملة الأحاديث والأخبار، إن هو إلا موعظة وذكر من اللّه للعالمين عامة، وحث على طلب النجاة على لسان رسول اللّه ﷺ»[٢].

قال المراغي: «والخلاصة: إنك لا تسألهم على ذلك مالا ولا منفعة، فيقولوا: إنما تريد بدعائك إيانا إلى اتباعك أن ننزل لك عن أموالنا إذا سألتنا عن ذلك، فحالك حال من سبقك من الرسل، فهم لم يسألوا أقوامهم أجرا على التبليغ والهدى، والقرآن مليء بنحو هذا كما في سورتي هود والشعراء وغيرهما.

وإذا كنت لا تسألهم على ذلك أجرا؛ فقد كان حقا عليهم أن يعلموا أنك إنما تدعوهم إليه اتباعا لأمر ربك، ونصيحة منك لهم.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ أي: هذا الذي أرسلك به ربك تذكير وموعظة لإرشاد العالمين كافة، لا لهم خاصة، وبه يهتدون وينجون في الدنيا والآخرة. وفي الآية إيماء إلى عموم رسالته ﷺ»[٣].

وقال صديق حسن خان: «وفيه تعريض ساطع بكفار قريش؛ لأنهم كانوا مكذبين له ﷺ بما جاء به جحودا وعنادا وحسدا، مع كونهم يعلمون حقيقة الحال، ودليل قاطع على صحة نبوته ﷺ؛ لأنه كان أميا بحتا لم يقرأ الكتب ولم يلق

---

(١) المحاسن (٩/ ٢٨٦-٢٨٧).
(٢) البحر المحيط (٥/ ٣٤٤).
(٣) تفسير المراغي (١٣/ ٤٧).

العلماء، ولم يسافر إلى غير بلده الذي نشأ فيه، ومع ذلك أتى بهذه القصة الطويلة على أحسن تركيب وأفصح عبارة، فعلم أن إتيانه بها بوحي من اللَّه سبحانه وتعالى»[١].

* * *

---

(١) فتح البيان (٦/ ٤٠٨).

قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يخبر تعالى عن غفلة أكثر الناس عن التفكر في آيات اللَّه ودلائل توحيده، بما خلقه اللَّه في السموات والأرض من كواكب زاهرات ثوابت، وسيارات وأفلاك دائرات؛ والجميع مسخرات، وكم في الأرض من قطع متجاورات، وحدائق وجنات، وجبال راسيات، وبحار زاخرات، وأمواج متلاطمات، وقفار شاسعات، وكم من أحياء وأموات، وحيوان ونبات، وثمرات متشابهة ومختلفات في الطعوم والروائح والألوان والصفات، فسبحان الواحد الأحد، خالق أنواع المخلوقات، المتفرد بالدوام والبقاء، والصمدية للأسماء والصفات، وغير ذلك»[1].

وقال الرازي: «يعني: أنه لا عجب إذا لم يتأملوا في الدلائل الدالة على نبوتك، فإن العالم مملوء من دلائل التوحيد والقدرة والحكمة، ثم إنهم يمرون عليها ولا يلتفتون إليها.

واعلم أن دلائل التوحيد والعلم والقدرة والحكمة والرحمة؛ لابد وأن تكون من أمور محسوسة، هي إما الأجرام الفلكية، وإما الأجرام العنصرية. أم الأجرام الفلكية فهي قسمان: إما الأفلاك وإما الكواكب.

أما الأفلاك: فقد يستدل بمقاديرها المعينة على وجود الصانع، وقد يستدل بكون بعضها فوق البعض أو تحته، وقد يستدل بأحوال حركاتها، إما بسبب أن حركاتها مسبوقة بالعدم، فلابد من محرك قادر، وإما بسبب كيفية حركاتها في سرعتها وبطئها، وإما بسبب اختلاف جهات تلك الحركات. وأما الأجرام الكوكبية

---

(١) التفسير (٤/ ٥٥).

فتارة يستدل على وجود الصانع بمقاديرها وأحيازها وحركاتها، وتارة بألوانها وأضوائها، وتارة بتأثيراتها في حصول الأضواء والأظلال والظلمات والنور. وأما الدلائل المأخوذة من الأجرام العنصرية: فإما أن تكون مأخوذة من بسائط، وهي عجائب البر والبحر، وإما من المواليد وهي أقسام:

أحدها: الآثار العلوية كالرعد والبرق والسحاب والمطر والثلج والهواء وقوس قزح.

وثانيها: المعادن على اختلاف طبائعها وصفاتها وكيفياتها.

وثالثها: النبات وخاصية الخشب والورق والثمر، واختصاص كل واحد منها بطبع خاص وطعم خاص وخاصية مخصوصة.

ورابعها: اختلاف أحوال الحيوانات في أشكالها وطبائعها وأصواتها وخلقتها.

وخامسها: تشريح أبدان الناس، وتشريح القوى الإنسانية، وبيان المنفعة الحاصلة فيها، فهذه مجامع الدلائل.

ومن هذا الباب أيضًا قصص الأولين وحكايات الأقدمين، وأن الملوك الذين استولوا على الأرض وخربوا البلاد وقهروا العباد ماتوا، ولم يبق منهم في الدنيا خبر ولا أثر، ثم بقي الوزر والعقاب عليهم، هذا ضبط أنواع هذه الدلائل، والكتاب المحتوي على شرح هذه الدلائل هو شرح جملة العالم الأعلى والعالم الأسفل، والعقل البشري لا يفي بالإحاطة به، فلهذا السبب ذكره اللّه تعالى على سبيل الإبهام»[1].

وقال المراغي: «وعلى الجملة: فما في السموات والأرض من عجائب وأسرار وإتقان وإبداع؛ ليدل أتم الدلالة على العلم المحيط، والحكمة البالغة والقدرة التامة.

والذين يشتغلون بعلم ما في السموات والأرض وهم غافلون عن خالقهما، ذاهلون عن ذكره، يمتعون عقولهم بلذة العلم، ولكن أرواحهم تبقى محرومة من لذة

(١) تفسير الرازي (١٨/ ٢٢٧-٢٢٨).

الذكر ومعرفة اللَّه ﷻ، إذ الفكر وحده إن كان مفيدا؛ لا تكون فائدته نافعة في الآخرة إلا بالذكر، والذكر وإن أفاد في الدنيا والآخرة لا تكمل فائدته إلا بالفكر، فطوبى لمن جمع بين الأمرين، فكان من الذين أوتوا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة، ونجوا من عذاب النار في الآخرة»[1].

* * *

(١) تفسير المراغي (١٣/ ٤٨-٤٩).

قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «قال ابن عباس: من إيمانهم أنهم إذا قيل لهم: من خلق السموات، ومن خلق الأرض، ومن خلق الجبال؟ قالوا: اللّه، وهم مشركون به. وكذا قال مجاهد وعطاء وعكرمة والشعبي وقتادة والضحاك..

وقال الحسن البصري في قوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ قال: ذلك المنافق يعمل إذا عمل رياء الناس، وهو مشرك بعمله، ذلك يعني قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[1] وثم شرك آخر خفي لا يشعر به غالبا فاعله، كما روى حماد بن سلمة عن عاصم بن أبي النجود عن عروة قال: (دخل حذيفة على مريض فرأى في عضده سيرا فقطعه أو انتزعه ثم قال: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾)»[2].

قال الشنقيطي: «قال ابن عباس، والحسن، ومجاهد، وعامر الشعبي، وأكثر المفسرين: إن معنى هذه الآية أن أكثر الناس وهم الكفار؛ ما كانوا يؤمنون باللّه بتوحيدهم له في ربوبيته إلا وهم مشركون به غيره في عبادته.

فالمراد بإيمانهم اعترافهم بأنه ربهم الذي هو خالقهم ومدبر شؤونهم، والمراد بشركهم عبادتهم غيره معه، والآيات الدالة على هذا المعنى كثيرة جدا، كقوله: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾[3]، وكقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾[4]، وقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ

---

(١) النساء: الآية (١٤٢).
(٢) التفسير (٤/ ٥٥).
(٣) يونس: الآية (٣١).
(٤) الزخرف: الآية (٨٧).

وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾[١]، وقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾[٢]، وقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[٣]، وقوله: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾[٤] إلى غير ذلك من الآيات.

ومع هذا فإنهم قالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾[٥].

وهذه الآيات القرآنية تدل على أن توحيد الربوبية لا ينقذ من الكفر إلا إذا كان معه توحيد العبادة؛ أي: عبادة اللَّه وحده لا شريك له، ويدل لذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾.

وفي هذه الآية الكريمة إشكال: وهو أن المقرر في علم البلاغة أن الحال قيد لعاملها، وصف لصاحبها وعليه؛ فإن عامل هذه الجملة الحالية الذي هو يؤمن مقيد بها، فيصير المعنى تقييد إيمانهم بكونهم مشركين، وهو مشكل لما بين الإيمان والشرك من المنافاة.

قال مقيده عفا اللَّه عنه: لم أر من شفى الغليل في هذا الإشكال، والذي يظهر لي، واللَّه تعالى أعلم، أن هذا الإيمان المقيد بحال الشرك؛ إنما هو إيمان لغوي لا شرعي؛ لأن من يعبد مع اللَّه غيره لا يصدق عليه اسم الإيمان ألبتة شرعا؛ أما الإيمان اللغوي فهو يشمل كل تصديق، فتصديق الكافر بأن اللَّه هو الخالق الرازق يصدق عليه اسم الإيمان لغة مع كفره باللَّه، ولا يصدق عليه اسم الإيمان شرعا.

وإذا حققت ذلك علمت أن الإيمان اللغوي يجامع الشرك؛ فلا إشكال في تقييده به، وكذلك الإسلام الموجود دون الإيمان في قوله تعالى: ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾[٦] فهو الإسلام اللغوي؛ لأن الإسلام الشرعي

---

(١) الزخرف: الآية (٩).
(٢) العنكبوت: الآية (٦١).
(٣) العنكبوت: الآية (٦٣).
(٤) المؤمنون: : الآيات (٨٤-٨٩).
(٥) ص: الآية (٥).
(٦) الحجرات: الآية (١٤).

لا يوجد ممن لم يدخل الإيمان في قلبه، والعلم عند اللَّه تعالى.

وقال بعض العلماء: نزلت آية ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ في قول الكفار في تلبيتهم: (لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك) وهو راجع إلى ما ذكرنا»[(١)].

وقال صديق حسن خان: «إن إيضاح ما تضمنته هذه الآية يتوقف على إيضاح ما ذكره أهل التفاسير المعتبرة، وينحصر ذلك في وجوه اثني عشر، وينضم إلى ذلك ما ذكرته أنا فيكون الوجوه ثلاثة عشر:

الوجه الأول: أن أهل الجاهلية كانوا يقرون بأن اللَّه سبحانه خالقهم ورازقهم، ويعبدون غيره من أصنامهم وطواغيتهم، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾[(٢)]، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾[(٣)] لكنهم كانوا يثبتون له شركاء فيعبدونهم ليقربوهم إلى اللَّه كما قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾[(٤)] ومثل هؤلاء الذين اتخذوا أحبارهم أربابا من دون اللَّه، والمعتقدون في الأموات بأنهم يقدرون على ما لا يقدر عليه إلا اللَّه سبحانه كما يفعله كثير من عباد القبور.

فهذا الإقرار الصادر منهم بأن اللَّه ﷻ خالقهم ورازقهم؛ هو يصدق عليه إنه إيمان بالمعنى الأعم، أي تصديق لا بالمعنى الأخص أعني إيمان المؤمنين، فهذا الإيمان الصادر منهم واقع في حال الشرك، فقد آمنوا حال كونهم مشركين، وإلى هذا الوجه ذهب جمهور المفسرين، ولكنهم لم يذكروا ما ذكرناه ههنا من تقريره بكونه إيمانا بالمعنى الأعم، ولابد من ذلك حتى يستقيم الكلام، ويصدق عليه مسمى الإيمان.

الوجه الثاني: أن المراد بالآية المنافقون؛ لأنهم كانوا يظهرون الإيمان ويبطنون الشرك، فما كانوا يؤمنون ظاهرا إلا وهم مشركون باطنا. وروي هذا عن الحسن البصري.

الوجه الثالث: أنهم أهل الكتاب يؤمنون بكتابهم ويقلدون علماءهم في الكفر

---

(١) أضواء البيان (٣/ ٧٤-٧٥).
(٢) الزخرف: الآية (٨٧).
(٣) لقمان: الآية (٢٥).
(٤) الزمر: الآية (٣).

بغيره، ويقولون: المسيح ابن اللَّه وعزير ابن اللَّه، فهم يؤمنون بما أنزل اللَّه على أنبيائهم حال كونهم مشركين.

الوجه الرابع: أن المقصود بذلك ما كان يقع في تلبية العرب من قولهم: لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك، فقد كانوا في هذه التلبية يؤمنون باللَّه وهم مشركون. روي نحو ذلك عن ابن عباس.

الوجه الخامس: أن المراد بهذه الآية المراؤون من هذه الأمة؛ لأن الرياء هو الشرك المشار إليه بقوله ﷺ: «الشرك أخفى في أمتي من دبيب النمل»[1] فالمراؤون آمنوا باللَّه حال كونهم مشركين بالرياء..

الوجه السادس: أن المراد بالآية من نسي ربه في الرخاء، وذكره عند الشدائد روي ذلك عن عطاء، وفيه أنه لا يصدق على ذلك أنه آمن باللَّه حال كونه مشركا، إلا أن يجعل مجرد نسيان الذكر والدعاء عند الرخاء شركا مجازا، كأنه بنسيانه وتركه للدعاء قد عبد إلها آخر، وهو بعيد، على أنه لا يمكن اجتماع الأمرين؛ لأنه حال الذكر والدعاء غير متصف بالنسيان وترك الذكر، وقد تقرر أن الحال قيد في عاملها، إلا أن يعتبر بما كان عليه الشيء، فإن ذلك أحد العلاقات المصححة للتجوز، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾[2].

الوجه السابع: أن المراد من أسلم من المشركين، فإنه كان مشركا قبل إيمانه، حكم بذلك الحاكم في تفسيره، وتقريره: أنه ما يؤمن أحدهم باللَّه إلا وقد كان مشركا قبل إيمانه، والكلام فيه كالكلام في الوجه الذي قبله، والجواب الجواب.

الوجه الثامن: أن المراد بالشرك ههنا ما يعرض من الخواطر والأحوال حال الإيمان، قاله الواسطي كما حكاه عنه البقاعي، وفيه أن هذه الخواطر والأحوال إن كانت مما يصدق عليه الشرك الأكبر أو الأصغر فذاك، وإن كانت خارجة عن ذلك فهو فاسد.

الوجه التاسع: أنهم الذين يشبهون اللَّه بخلقه، رواه الكشاف عن ابن عباس،

---

(١) سيأتي تخريجه في أحاديث الباب.
(٢) العنكبوت: الآية (٦٥).

وتقريره: أنهم آمنوا بالله حال تشبيههم له بما يكون شركا، أو يؤول إلى الشرك.

الوجه العاشر: هو ما تقوله القدرية من إثبات القدرة للعبد، حكاه النسفي في مدارك التنزيل. وتقريره: أنهم آمنوا بالله حال إثباتهم ما هو مختص به لغيره، وهو شرك أو منزل منزلة الشرك.

الوجه الحادي عشر: ما قاله محيي الدين بن عربي في تفسيره: أن أكثر الناس إنما يؤمنون بغير الله، ويكفرون بالله دائما، ففي بعض الأحيان يشركون الله سبحانه مع ذلك الإله الذي هم مؤمنون به، فلا يؤمن أكثرهم بالله إلا حال كونه مشركا. وفيه أن ظاهر النظم القرآني أن الإيمان بالله والشرك بتشريك غيره معه؛ لا يكون إلا بتشريكه مع غيره، وبين المعنيين فرق.

الوجه الثاني عشر: ذكره ابن كثير في تفسيره: وهو أن ثمة شركا خفيا لا يشعر به غالب الناس ممن يفعله، كما روي عن حذيفة أنه دخل على مريض يزوره، فرأى في عضده سيرا فقطعه وانتزعه ثم قال: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ وفي الحديث الذي رواه الترمذي وحسنه عن ابن عمر مرفوعا: «**من حلف بغير الله فقد أشرك**»[1]..

إذا عرفت ما تضمنته كتب التفسير من الوجوه التي ذكرناها، وعرفت تقريرها على الوجه الذي قررناه؛ فاعلم: أن هذه الأقوال إنما هي اختلاف في سبب النزول، وأما النظم القرآني فهو صالح لحمله على كل ما يصدق عليه مسمى الإيمان؛ مع وجود مسمى الشرك، والاعتبار بما يفيده اللفظ لا بخصوص السبب، كما هو مقرر في مواطنه.

فيقال مثلا في أهل الشرك: إنه ما يؤمن أكثرهم بأن الله هو الخالق الرازق إلا وهو مشرك بالله بما يعبده من الأصنام. ويقال فيمن كان واقعا في شرك من الشرك الخفي وهو من المسلمين إنه ما يؤمن بالله إلا وهو مشرك بذلك الشرك الخفي. ويقال مثلا في سائر الوجوه بنحو هذا على التقرير الذي قررناه سابقا، وهذا يصلح أن يكون وجها مستقلا، وهو أوجهها وأرجحها فيما أحسب، وإن لم

---

(١) سيأتي تخريجه في أحاديث الباب.

يذكره أحد من المفسرين.

فما قيل من أنه: يشكل وجود اتصافهم بالإيمان في حال تلبسهم بالشرك استشكال واقع موقعه، وسؤال حال محله، وجوابه قد ظهر مما سبق، فإنه يقال مثلا: إن أهل الجاهلية كان إيمانهم المجامع للشرك هو مجرد الإقرار بأن اللَّه هو الخالق الرازق، وهو لا ينافي ما هم عليه من الشرك.

وكذلك يقال: إن أهل الإسلام كان شرك من وقع منهم في شيء من الشرك الخفي الأصغر، غير مناف لوجود الإيمان منهم؛ لأن الشرك الأصغر لا يخرج به فاعله عن مسمى الإيمان، ولهذا كانت كفارته أن يتعوذ باللَّه من أن يشرك، وأن يقول في الطيرة: «اللهم لا طير إلا طيرك ولا إله غيرك»[1].

فقد صح بهذا أنه اجتمع الإيمان الحقيقي والشرك الخفي في بعض المؤمنين، واجتمع الإيمان بالمعنى الأعم والشرك الحقيقي في أهل الجاهلية، وكذا يقال في أهل الكتاب: إنه اجتمع فيهم الإيمان بما أنزل اللَّه على أنبيائهم، والإشراك بجعل بعض المخلوقين أبناء لله ﷻ، وهكذا في بقية الوجوه»[2].

قال شيخ الإسلام: «فالتوحيد الذي بعث اللَّه به رسله وأنزل به كتبه: هو أن يعبد اللَّه وحده لا شريك له، فهو توحيد الألوهية، وهو مستلزم لتوحيد الربوبية، وهو أن يعبد الحق رب كل شيء. فأما مجرد توحيد الربوبية، وهو شهود ربوبية الحق لكل شيء؛ فهذا التوحيد كان في المشركين، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾»[3].

وقال: «وهذا التوحيد كان يقر به المشركون، الذين قال اللَّه عنهم: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾[4]. وقال تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ

(١) أخرجه من حديث عبد اللَّه بن عمرو رضي الله عنه: أحمد (٢/ ٢٢٠)، وأورده والهيثمي في المجمع (٥/ ١٠٥) وقال: «وفيه ابن لهيعة وحديثه حسن، وفيه ضعف، وبقية رجاله ثقات»، وذكره الشيخ الألباني في الصحيحة (١٠٦٥) وقال: «الضعف الذي في حديث ابن لهيعة إنما هو في غير رواية العبادلة عنه، وإلا فحديثهم عنه صحيح؛ كما حققه أهل العلم في ترجمته، ومنهم عبد اللَّه بن وهب، وقد رواه عنه».

(٢) فتح البيان (٦/ ٤١٠-٤١٥).

(٣) الاستقامة (٢/ ٣١).

(٤) لقمان: الآية (٢٥).

ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ۝ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ﴾[(١)] الآيات.

وقال عنهم: ﴿وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ﴾. قال طائفة من السلف: يقول لهم من خلق السماوات والأرض؟ فيقولون: اللَّه، وهم مع هذا يعبدون غيره. وإنما التوحيد الذي أمر اللَّه به العباد هو توحيد الألوهية، المتضمن لتوحيد الربوبية؛ بأن يعبد اللَّه وحده لا يشركون به شيئًا، فيكون الدين كله لله، ولا يخاف إلا اللَّه، ولا يدعى إلا اللَّه، ويكون اللَّه أحب إلى العبد من كل شيء، فيحبون لله، ويبغضون لله، ويعبدون اللَّه، ويتوكلون عليه.

والعبادة تجمع غاية الحب وغاية الذل، فيحبون اللَّه بأكمل محبة، ويذلون له أكمل ذل، ولا يعدلون به، ولا يجعلون له أندادا، ولا يتخذون من دونه أولياء ولا شفعاء.

كما قد بين القرآن هذا التوحيد في غير موضع، وهو قطب رحى القرآن الذي يدور عليه القرآن، وهو يتضمن التوحيد في العلم والقول، والتوحيد في الإرادة والعمل»[(٢)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة
في بيان خطر الشرك على الأمم السابقة واللاحقة في الدنيا والآخرة

* عن معقل بن يسار ﷺ قال: «انطلقت مع أبي بكر الصديق ﷺ إلى رسول اللَّه ﷺ فقال: «يا أبا بكر! لَلشرك فيكم أخفى من دبيب النمل»، فقال أبو بكر ﷺ: وهل الشرك إلا من جعل مع اللَّه إلها آخر؟ فقال النبي ﷺ: «**والذي نفسي بيده، للشرك أخفى من دبيب النمل، ألا أدلك على شيء إذا قلته ذهب قليله وكثيره؟ قل: اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، واستغفرك لما لا أعلم**»»[(٣)].

---

(١) المؤمنون: الآيتان (٨٦ و ٨٧).

(٢) منهاج السنة (٣/ ٢٨٩-٢٩٠).

(٣) أخرجه: البخاري في الأدب المفرد (٧١٦) وأبو يعلى (١/ ٦١-٦٣/ ٥٩، ٦٠، ٦١) وصححه الشيخ الألباني في الضعيفة تحت رقم: (٣٧٥٥).

* عن أبي علي رجل من بني كاهل قال: (خطبنا أبو موسى الأشعري فقال: «يا أيها الناس! اتقوا هذا الشرك، فإنه أخفى من دبيب النمل». فقام إليه عبدالله بن حزن وقيس بن المضارب فقالا: واللّه لتخرجن مما قلت أو لنأتين عمر مأذون لنا أو غير مأذون. قال: «بل أخرج مما قلت؛ خطبنا رسول اللّه ﷺ ذات يوم فقال: **«أيها الناس! اتقوا هذا الشرك فإنه أخفى من دبيب النمل»** فقال له من شاء اللّه أن يقول: وكيف نتقيه وهو أخفى من دبيب النمل يا رسول الله؟ قال: **«قولوا: اللهم إنا نعوذ بك من أن نشرك بك شيئًا نعلمه، ونستغفرك لما لا نعلم»**)[1].

* عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان المشركون يقولون: لبيك لا شريك لك، قال: فيقول رسول اللّه ﷺ: «ويلكم قد قد» فيقولون: إلا شريكا هو لك، تملكه وما ملك. يقولون هذا وهم يطوفون بالبيت[2].

★ غريب الحديث:

قدٍ قدٍ: بإسكان الدال وكسرها مع التنوين؛ أي: كفاكم هذا الكلام.

★ فوائد الأحاديث:

قال شيخ الإسلام: «والمشركون من قريش وغيرهم الذين أخبر القرآن بشركهم، واستحل النبي ﷺ دماءهم وأموالهم، وسبى حريمهم وأوجب لهم النار؛ كانوا مقرين بأن اللّه وحده خلق السموات والأرض كما قال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[3]، وقال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾[4]، وقال: ﴿قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٤٠٣) وذكره المنذري في الترغيب (١/ ٧٦/ ٣٣) وكذلك الهيثمي في المجمع (١٠/ ٢٢٣): «وقال رواه أحمد والطبراني في الكبير والأوسط، ورجال أحمد رجال الصحيح غير أبي علي ووثقه ابن حبان». والحديث حسنه لغيره الشيخ الألباني في صحيح الترغيب (٣٦).

(٢) أخرجه مسلم (٢/ ٨٤٣/ ١١٨٥).

(٣) لقمان: الآية (٢٥).

(٤) العنكبوت: الآية (٦١).

قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[١]. وكان المشركون الذين جعلوا معه آلهة أخرى مقرين بأن آلهتهم مخلوقة، ولكنهم كانوا يتخذونهم شفعاء، ويتقربون بعبادتهم إليه؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾[٣]، وكانوا يقولون في تلبيتهم: لبيك لا شريك لك، إلا شريكا هو لك، تملكه وما ملك. وقال تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾[٤]. بين سبحانه بالمثل الذي ضربه لهم؛ أنه لا ينبغي أن يجعل مملوكه شريكه، فقال: ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾[٥]، يخاف أحدكم مملوكه كما يخاف بعضكم بعضا، فإذا كان أحدكم لا يرضى أن يكون مملوكه شريكه؛ فكيف ترضونه لأنفسكم»[٦].

وقال أيضًا: «والإله هو بمعنى المألوه المعبود الذي يستحق العبادة، ليس هو

---

(١) المؤمنون: الآيات (٨٤-٩١).
(٢) يونس: الآية (١٨).
(٣) الزمر: : الآيات (١-٣).
(٤) الروم: : الآيات (٢٨-٣٢).
(٥) الروم: الآية (٢٨).
(٦) الفتاوى (١/ ١٥٥-١٥٦).

الإله بمعنى القادر على الخلق، فإذا فسر المفسر الإله بمعنى القادر على الاختراع، واعتقد أن هذا أخص وصف الإله، وجعل إثبات هذا التوحيد هو الغاية في التوحيد؛ كما يفعل ذلك من يفعله من متكلمة الصفاتية، وهو الذي ينقلونه عن أبي الحسن وأتباعه؛ لم يعرفوا حقيقة التوحيد الذي بعث الله به رسوله، فإن مشركي العرب كانوا مقرين بأن الله وحده خالق كل شيء، وكانوا مع هذا مشركين.

قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾. قال طائفة من السلف: تسألهم من خلق السماوات والأرض؟ فيقولون: الله، وهم مع هذا يعبدون غيره، وقال تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾(٢).

فليس كل من أقر أن الله رب كل شيء وخالقه يكون عابدا له دون ما سواه، داعيا له دون ما سواه، راجيا له خائفا منه دون ما سواه، يوالي فيه ويعادي فيه، ويطيع رسله، ويأمر بما أمر به وينهى عما نهى عنه، وقد قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾(٣) وعامة المشركين أقروا بأن الله خالق كل شيء، وأثبتوا الشفعاء الذين يشركونهم به، وجعلوا له أندادا، قال تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾(٤). وقال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾(٥)، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾(٦)، وقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن

(١) المؤمنون: : الآيات (٨٤-٨٩).
(٢) العنكبوت: الآية (٦١).
(٣) الأنفال: الآية (٣٩).
(٤) الزمر: الآيتان (٤٣-٤٤).
(٥) يونس: الآية (١٨).
(٦) الأنعام: الآية (٩٤).

﴿يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾(١).

ولهذا كان من أتباع هؤلاء من يسجد للشمس والقمر والكواكب، ويدعوها كما يدعو اللَّه تعالى، ويصوم لها، وينسك لها، ويتقرب إليها، ثم يقول: إن هذا ليس بشرك، وإنما الشرك إذا اعتقدت أنها هي المدبرة لي، فإذا جعلتها سببا وواسطة لم أكن مشركا»(٢).

* عن عبداللَّه بن مسعود رضي الله عنه قال: «سألت -أو سئل- النبي ﷺ: أي الذنب أكبر عند الله؟ قال: «**أن تجعل لله ندا وهو خلقك**». قلت: ثم أي؟ قال: «**ثم أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك**» قلت: ثم أي؟ قال: «**أن تزاني بحليلة جارك**» قال: ونزلت هذه الآية تصديقا لقول رسول اللَّه ﷺ ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾(٣)»(٤).

★ **غريب الحديث:**

ندا: الند المثل وهو نظير الشيء الذي يعارضه في أموره. وقيل: ند الشيء من يشاركه في جوهره وهو ضرب من المثل.

حليلة جارك: بالحاء المهملة وهي زوجته. وحليلة الرجل امرأته، وهو حليلها؛ لأن كل واحد منهما يحالّ صاحبه؛ أي: يحلان بموضع واحد.

★ **فوائد الحديث:**

قال شيخ الإسلام: «اعلم رحمك الله: أن الشرك باللَّه أعظم ذنب عصي اللَّه به، قال اللَّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾(٥)، وفي الصحيحين: أنه ﷺ سئل: أي الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله ندا وهو خلقك». والند: المثل. قال تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(٦). وقال

---

(١) البقرة: الآية (١٦٥). (٢) درء التعارض (١/ ٢٢٦-٢٢٧).

(٣) الفرقان: الآية (٦٨).

(٤) أخرجه: أحمد (١/ ٣٨٠) والبخاري (٨/ ٦٣١/ ٤٧٦١) ومسلم (١/ ٩٠-٩١/ ٨٦[١٤٢]) وأبو داود (٢/ ٧٣٣/ ٢٣١٠) والترمذي (٥/ ٣١٥/ ٣١٨٣) والنسائي (٧/ ١٠٤/ ٤٠٢٤).

(٥) النساء: الآية (٤٨). (٦) البقرة: الآية (٢٢).

تعالى: ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾[1].
فمن جعل لله ندا من خلقه فيما يستحقه ﷻ من الإلهية والربوبية؛ فقد كفر بإجماع الأمة، فإن اللَّه سبحانه هو المستحق للعبادة لذاته؛ لأنه المألوه المعبود الذي تألهه القلوب، وترغب إليه، وتفزع إليه عند الشدائد، وما سواه فهو مفتقر مقهور بالعبودية، فكيف يصلح أن يكون إلها؟ قال اللَّه تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾[2]»[3].

قال ابن القيم: «إن الشرك ظلم، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[4] فالشرك أعظم الظلم، والتوحيد أعدل العدل، فما كان أشد منافاة لهذا المقصود، فهو أكبر الكبائر، وتفاوتها في درجاتها بحسب منافاتها له، وما كان أشد موافقة لهذا المقصود؛ فهو أوجب الواجبات، وأفرض الطاعات. فتأمل هذا الأصل حق التأمل! واعتبر به تفاصيله تعرف به حكمة أحكم الحاكمين، وأعلم العالمين، فيما فرضه على عباده، وحرمه عليهم، وتفاوت مراتب الطاعات والمعاصي. فلما كان الشرك باللَّه منافيا بالذات لهذا المقصود؛ كان أكبر الكبائر على الإطلاق، وحرم اللَّه الجنة على كل مشرك، وأباح دمه وماله وأهله لأهل التوحيد، وأن يتخذوهم عبيدا لهم؛ لما تركوا القيام بعبوديته، وأبى اللَّه سبحانه أن يقبل من مشرك عملا، أو يقبل فيه شفاعة، أو يستجيب له في الآخرة دعوة، أو أن يقيل له عثرة، فإن المشرك أجهل الجاهلين، حيث جعل له من خلقه ندا، وذلك غاية الجهل به، كما أنه غاية الظلم منه، وإن كان المشرك لم يظلم ربه وإنما ظلم نفسه»[5].

وقال أيضًا: «من الشرك الذي لا يغفره اللَّه وهو الشرك الذي قال سبحانه فيه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾[6] الآية. وقال أصحاب هذا الشرك لآلهتهم -وقد جمعهم الجحيم-: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٩٧ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[7] ومعلوم أنهم ما سووهم به

---

(١) الزمر: الآية (٨).
(٢) الزخرف: الآية (١٥).
(٣) الفتاوى (١/ ٨٨).
(٤) لقمان: الآية (١٣).
(٥) الداء والدواء (١٩٦-١٩٧).
(٦) البقرة: الآية (١٦٥).
(٧) الشعراء: الآيتان (٩٧ و٩٨).

سبحانه في الخلق والرزق والإماتة والإحياء والملك والقدرة، وإنما سووهم به في الحب والتأله والخضوع والتذلل لهم، وهذا غاية الجهل والظلم، فكيف يسوى من خلق من التراب برب الأرباب؟! وكيف يسوى العبيد بمالك الرقاب؟! وكيف يسوى الفقير بالذات الضعيف بالذات العاجز بالذات المحتاج بالذات الذي ليس له من ذاته إلا العدم؛ بالغني بالذات القادر بالذات الذي غناه وقدرته وملكه وجوده وإحسانه وعلمه ورحمته وكماله المطلق التام من لوازم ذاته؟! فأي ظلم أقبح من هذا؟ وأي حكم أشد جورا منه؛ حيث عدل من لا عدل له بخلقه؟ كما قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾[1]، فعدل المشرك من خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور؛ بمن لا يملك لنفسه ولا لغيره مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، فيا له من عدل تضمن ظلمَ أكبر الظلم وأقبحه!!»[2].

* عن سعد بن عبيدة قال: كنت عند ابن عمر فحلف رجل بالكعبة، فقال ابن عمر: ويحك، لا تفعل فإني سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: «**من حلف بغير اللّه فقد أشرك**»[3].

⋆ فوائد الحديث:

قال أبو عمر بن عبد البر: «في هذا الحديث من الفقه أنه لا يجوز الحلف بغير اللّه ﷻ في شيء من الأشياء، ولا على حال من الأحوال. وهذا أمر مجتمع عليه»[4].

قال الحافظ: «قال العلماء: السر في النهي عن الحلف بغير الله: أن الحلف بالشيء يقتضي تعظيمه، والعظمة في الحقيقة إنما هي لله وحده، وظاهر الحديث تخصيص الحلف باللّه خاصة، لكن قد اتفق الفقهاء على أن اليمين تنعقد باللّه وذاته وصفاته العلية، واختلفوا في انعقادها ببعض الصفات كما سبق؛ وكأن المراد

(١) الأنعام: الآية (١).
(٢) الداء والدواء (ص: ٢٣٥-٢٣٦).
(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ١٢٥) وأبو داود (٣/ ٥٧٠/ ٣٢٥١) والترمذي (٤/ ٩٣-٩٤/ ١٥٣٥) وقال: «حسن»، وصححه ابن حبان (١٠/ ١٩٩-٢٠٠/ ٤٣٥٨) والحاكم (٤/ ٢٩٧) ووافقه الذهبي.
(٤) فتح البر (١/ ٢٩٢).

بقوله: (بالله) الذات لا خصوص لفظ اللَّه، وأما اليمين بغير ذلك فقد ثبت المنع فيها، وهل المنع للتحريم؟ قولان عند المالكية كذا قال ابن دقيق العيد، والمشهور عندهم الكراهة، والخلاف أيضًا عند الحنابلة، لكن المشهور عندهم التحريم، وبه جزم الظاهرية.. والخلاف موجود عند الشافعية من أجل قول الشافعي: أخشى أن يكون الحلف بغير اللَّه معصية فأشعر بالتردد، وجمهور أصحابه على أنه للتنزيه. وقال إمام الحرمين المذهب القطع بالكراهة وجزم غيره بالتفصيل، فإن اعتقد في المحلوف فيه من التعظيم ما يعتقده في الله؛ حرم الحلف به، وكان بذلك الاعتقاد كافرا، وعليه ينزل الحديث المذكور. وأما إذا حلف بغير اللَّه لاعتقاده تعظيم المحلوف به على ما يليق به من التعظيم؛ فلا يكفر بذلك، ولا تنعقد يمينه»[١].

قال شيخ الإسلام: «والنهي عن ذلك نهي تحريم عند أكثرهم، كمذهب أبى حنيفة وغيره، وهو أحد القولين في مذهب أحمد.. حتى إن ابن مسعود[٢] وابن عباس وغيرهما يقول أحدهم: (لأن أحلف باللَّه كاذبا أحب إلي من أن أحلف بغير اللَّه صادقا). وفي لفظ: (لأن أحلف باللَّه كاذبا أحب إلي من أن أضاهي). فالحلف بغير اللَّه شرك، والشرك أعظم من الكذب، وغاية الكذب أن يشبه بالشرك»[٣].

قال في 'تيسير العزيز الحميد': «ولا اعتبار بمن قال من المتأخرين: إن ذلك سبيل كراهة التنزيه، فإنه قول باطل. وكيف يقال ذلك لما أطلق عليه الرسول ﷺ أنه كفر أو شرك؟ بل ذلك محرم، ولهذا اختار ابن مسعود ﵁ أن يحلف باللَّه كاذبا، ولا يحلف بغيره صادقا. فهذا يدل على أن الحلف بغير اللَّه أكبر من الكذب، مع أن الكذب من المحرمات في جميع الملل، فدل ذلك أن الحلف بغير اللَّه من أكبر المحرمات»[٤].

قال الحافظ: «وفيه أن من حلف بغير اللَّه مطلقا لم تنعقد يمينه؛ سواء كان

---

(١) الفتح (١١/ ٦٥١-٦٥٢).

(٢) أخرجه: عبد الرزاق (٨/ ٤٦٩/ ١٥٩٢٩) والطبراني في الكبير (٩/ ١٨٣/ ٨٩٠٢)، وقال الهيثمي في المجمع (٤/ ١٧٧): «ورجاله رجال الصحيح».

(٣) الفتاوى (٢٧/ ٣٤٩-٣٥٠).

(٤) تيسير العزيز الحميد (ص: ٦٠٧-٦٠٨).

المحلوف به يستحق التعظيم لمعنى غير العبادة؛ كالأنبياء والملائكة والعلماء والصلحاء والملوك والآباء والكعبة، أو كان لا يستحق التعظيم؛ كالآحاد أو يستحق التحقير والإذلال كالشياطين والأصنام، وسائر من عبد من دون الله»[١].

قال شيخ الإسلام: «وقد اتفق المسلمون على أنه من حلف بالمخلوقات المحترمة، أو بما يعتقد هو حرمته؛ كالعرش والكرسي والكعبة والمسجد الحرام والمسجد الأقصى ومسجد النبي ﷺ، والملائكة والصالحين والملوك وسيوف المجاهدين، وترب الأنبياء والصالحين، وأيمان البندق وسراويل الفتوة وغير ذلك؛ لا ينعقد يمينه، ولا كفارة في الحلف بذلك»[٢].

وقال: «وإيجاب الكفارة بالحلف بمخلوق وإن كان نبيا؛ قول ضعيف في الغاية، مخالف للأصول والنصوص»[٣].

وقال: «مع أن الصواب الذي عليه عامة المسلمين سلفهم وخلفهم؛ أنه لا يحلف بمخلوق لا نبي ولا غير نبي، ولا ملك من الملائكة، ولا ملك من الملوك، ولا شيخ من الشيوخ»[٤].

وقال أيضًا: «وأما الحلف بغير اللَّه من الملائكة والأنبياء والمشائخ والملوك وغيرهم؛ فإنه منهي عنه، وغير منعقد باتفاق الأئمة، ولم ينازعوا إلا في الحلف برسول اللَّه ﷺ خاصة، والجمهور على أنه لا تنعقد اليمين لا به ولا بغيره، وقد قال النبي ﷺ: «من كان حالفا فليحلف باللَّه أو ليصمت»[٥]، وقال: «من حلف بغير اللَّه فقد أشرك»، فمن حلف بشيخه أو بتربته أو بحياته أو بحقه على اللَّه، أو بالملوك أو بنعمة السلطان، أو بالسيف أو بالكعبة أو أبيه أو تربة أبيه أو نحو ذلك؛ كان منهيا عن ذلك، ولم تنعقد يمينه باتفاق المسلمين»[٦].

قال في 'تيسير العزيز الحميد': «فإن قيل: إن اللَّه تعالى أقسم بالمخلوقات في

---

(١) الفتح (١١/ ٦٥٥).
(٢) الفتاوى (١/ ٢٠٤). (٣) الفتاوى (١/ ٢٠٤).
(٤) الفتاوى (٢٧/ ٣٤٩).
(٥) أخرجه: أحمد (٢/ ١٤٢) والبخاري (٥/ ٣٦٠/ ٢٦٧٩) ومسلم (٣/ ١٢٦٦-١٢٦٧/ ١٦٤٦) والترمذي (٤/ ٩٣/ ١٥٣٤) والنسائي (٧/ ٧/ ٣٧٧٣) من حديث ابن عمر ﷺ.
(٦) الفتاوى (١١/ ٥٠٦).

القرآن. قيل: ذلك يختص بالله تبارك وتعالى، فهو يقسم بما شاء من خلقه، لما في ذلك من الدلالة على قدرة الرب ووحدانيته، وإلهيته وعلمه وحكمته، وغير ذلك من صفات كماله. وأما المخلوق فلا يقسم إلا بالخالق تعالى، فالله تعالى يقسم بما شاء من خلقه، وقد نهانا عن الحلف بغيره، فيجب على العبد التسليم والإذعان لما جاء من عند الله. قال الشعبي: الخالق يقسم بما شاء من خلقه، والمخلوق لا يقسم إلا بالخالق. قال: ولأن أقسم بالله فأحنث أحب إلي من أن أقسم بغيره فأبر. وقال مطرف بن عبدالله: إنما أقسم الله بهذه الأشياء ليعجب بها المخلوقين، ويعرفهم قدرته لعظم شأنها عندهم، ولدلالتها على خالقها. ذكرهما ابن جرير. فإن قيل: قد جاء في الحديث أن النبي ﷺ: قال للأعرابي الذي سأله عن أمور الإسلام فأخبره، فقال النبي ﷺ: «**أفلح وأبيه إن صدق**»[١]..

قيل: ذكر العلماء عن ذلك أجوبة (ثم ذكر بعضها فردها، ثم قال):

الرابع: أن هذا كان في أول الأمر ثم نسخ، فما جاء من الأحاديث فيه ذكر شيء من الحلف بغير الله فهو قبل النسخ، ثم نسخ ذلك ونهي عن الحلف بغير الله. وهذا الجواب ذكره الماوردي. قال السهيلي: أكثر الشراح عليه، حتى قال ابن العربي: روي أنه ﷺ كان يحلف بأبيه حتى نهي عن ذلك. قال السهيلي: ولا يصح ذلك، وكذلك قال غيرهم.

وهذا الجواب هو الحق، يؤيده أن ذلك كان مستعملا شائعا، حتى ورد النهي عن ذلك كما في حديث ابن عمر: أن النبي ﷺ أدرك عمر بن الخطاب يسير في ركب يحلف بأبيه فقال: «**ألا إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، من كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت**»[٢]»[٣].

وقال: «قوله: «فقد أشرك»: أخذ به طائفة من العلماء فقالوا: يكفر من حلف بغير الله كفر شرك.. وقال الجمهور: لا يكفر كفرا ينقله عن الملة، لكنه من الشرك

---

(١) أخرجه من حديث طلحة بن عبيد الله ﷺ: مسلم (١/ ٤١/ ١١(٩» وأبو داود (١/ ٢٧٣/ ٣٩٢) بهذا اللفظ، وهو عند البخاري (١/ ١٤٢/ ٤٦) ومسلم (١/ ٤٠-٤١/ ١١[٨]) وأبي داود (١/ ٢٧٢/ ٣٩١) والنسائي (١/ ٢٤٦-٢٤٧/ ٤٥٧) لكن دون لفظة: «وأبيه».

(٢) تقدم تخريجه قريبا.

(٣) تيسير العزيز الحميد (ص: ٦٠٨-٦١٠).

الأصغر كما نص على ذلك ابن عباس وغيره، وأما كونه أمر من حلف باللات والعزى أن يقول: لا إله إلا اللّٰه، فلأن هذا كفارة له مع استغفاره كما قال في الحديث الصحيح: «ومن حلف فقال في حلفه واللات والعزى فليقل: لا إله إلا الله»[١] وفي رواية «فليستغفر» فهذا كفارة له في كونه تعاطى صورة تعظيم الصنم، حيث حلف به لا أنه لتجديد إسلامه، ولو قدر ذلك فهو تجديد لإسلامه لنقصه بذلك لا لكفره، لكن الذي يفعله عباد القبور إذا طلبت من أحدهم اليمين بالله؛ أعطاك ما شئت من الأيمان صادقا أو كاذبا، فإذا طلبت منه اليمين بالشيخ أو تربته أو حياته ونحو ذلك، لم يقدم على اليمين به إن كان كاذبا. فهذا شرك أكبر بلا ريب؛ لأن المحلوف به عنده أخوف وأجل وأعظم من اللّٰه. وهذا ما بلغ إليه شرك عباد الأصنام، لأن جهد اليمين عندهم هو الحلف باللّٰه كما قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾[٢] فمن كان جهد يمينه الحلف بالشيخ أو بحياته أو تربته؛ فهو أكبر شركا منهم، فهذا هو تفصيل القول في هذه المسألة»[٣].

قال الشيخ العثيمين: «الحلف بغير اللّٰه شرك أكبر؛ إن اعتقد أن المحلوف به مساو لله تعالى في التعظيم والعظمة، وإلا فهو شرك أصغر»[٤].

* عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: سمعت رسول اللّٰه ﷺ يقول: «**إن الرقى والتمائم والتولة شرك**»[٥].

★ غريب الحديث:

الرقى: جمع رقية بسكون القاف، يقال: رقيت فلانا بكسر القاف أرقيه، واسترقى طلب الرقية، وهي التعويذ.

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٠٩) والبخاري (٨/ ٧٨٧/ ٤٨٦٠) ومسلم (٣/ ١٢٦٧-١٢٦٨/ ١٦٤٧) وأبو داود (٣/ ٥٦٨-٥٦٩/ ٣٢٤٧) والترمذي (٤/ ٩٩/ ١٥٤٥) والنسائي (٧/ ١١/ ٣٧٨٤) وابن ماجه (١/ ٦٧٨/ ٢٠٩٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) النحل: الآية (٣٨).

(٣) تيسير العزيز الحميد (ص: ٦١٠-٦١١).

(٤) مجموع فتاوى ورسائل العثيمين (١٠/ ٧٩٧).

(٥) أخرجه: أحمد (١/ ٣٨١) وأبو داود (٤/ ٢١٢/ ٣٨٨٣) وابن ماجه (٢/ ١١٦٦-١١٦٧/ ٣٥٣٠) وصححه ابن حبان (الإحسان ١٣/ ٤٥٦/ ٦٠٩٠) والحاكم (٤/ ٤١٧-٤١٨) ووافقه الذهبي.

التمائم: جمع تميمة، وهي خرزات كانت العرب تعلقها على أولادهم، يتقون بها العين والآفات بزعمهم.

التولة: كعِنَبة وهُمَزة: السحر وشبهه. وخرزة تتحبب بها المرأة إلى زوجها. «وقيل: هي خيط يقرأ فيه من السحر، أو قرطاس يكتب فيه شيء منه، يتحبب النساء إلى قلوب الرجال، أو الرجال إلى قلوب النساء»[١].

* عن محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن عيسى أخيه قال: دخلت على عبدالله بن عكيم أبي معبد الجهني أعوده، وبه حمرة فقلنا: ألا تعلق شيئًا؟ قال: الموت أقرب من ذلك، قال النبي ﷺ: «**من تعلق شيئًا وكل إليه**»[٢].

★ **فوائد الحديثين:**

قال الحافظ: «أجمع العلماء على جواز الرقى عند اجتماع ثلاثة شروط: أن يكون بكلام الله تعالى أو بأسمائه وصفاته، وباللسان العربي، أو بما يعرف معناه من غيره، وأن يعتقد أن الرقية لا تؤثر بذاتها؛ بل بذات الله تعالى. واختلفوا في كونها شرطا؛ والراجح: أنه لا بد من اعتبار الشروط المذكورة»[٣].

وقال: «قال ابن التين: الرقى بالمعوذات وغيرها من أسماء الله؛ هو الطب الرباني، إذا كان على لسان الأبرار من الخلق حصل الشفاء بإذن الله تعالى، فلما عز هذا النوع فزع الناس إلى الطب الجسماني، وتلك الرقى المنهي عنها التي يستعملها المعزم وغيره؛ ممن يدعي تسخير الجن له! فيأتي بأمور مشتبهة مركبة من حق وباطل، يجمع إلى ذكر الله وأسمائه ما يشوبه من ذكر الشياطين، والاستعانة بهم والتعوذ بمردتهم.. فلذلك كره من الرقى ما لم يكن بذكر الله وأسمائه خاصة، وباللسان العربي الذي يعرف معناه؛ ليكون بريئا من الشرك»[٤].

قال ابن العربي: «فإن تعلق قرآنا فإنه وإن كانه تقاة؛ لكنه ليس من طريق السنة، وإنما السنة فيه الذكر دون التعليق»[٥].

---

(١) النيل (٨/ ٢١٢).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ٣١٠) والترمذي (٤/ ٣٥٢/ ٢٠٧٢) والحاكم (٤/ ٤١٦) وسكت عنه الذهبي، وحسنه الشيخ الألباني في غاية المرام (٢٩٧).

(٣) الفتح (١٠/ ٢٤٠).

(٤) الفتح (١٠/ ٢٤١).

(٥) العارضة (٨/ ٢٢٢).

قال شيخ الإسلام: «ولهذا نهى العلماء عن التعازيم والأقسام التي يستعملها بعض الناس في حق المصروع وغيره التي تتضمن الشرك، بل نهوا عن كل ما لا يعرف معناه من ذلك؛ خشية أن يكون فيه شرك، بخلاف ما كان من الرقى المشروعة؛ فإنه جائز، فإذا لا يجوز أن يقسم لا قسما مطلقا، ولا قسما على غيره إلا بالله ﷻ، ولا يستعيذ إلا بالله ﷻ»[١].

وقال: «فإن كانت الرقى والتعاويذ مما يعرف معناها، ومما يجوز في دين الاسلام أن يتكلم بها الرجل؛ داعيا لله ذاكرا له، ومخاطبا لخلقه ونحو ذلك؛ فإنه يجوز أن يرقى بها المصروع ويعوذ، فإنه قد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه أذن في الرقى ما لم تكن شركا[٢]. . وإن كان في ذلك كلمات محرمة مثل أن يكون فيها شرك، أو كانت مجهولة المعنى، يحتمل أن يكون فيها كفر؛ فليس لأحد أن يرقي بها، ولا يعزم ولا يقسم، وإن كان الجني قد ينصرف عن المصروع بها، فإنما حرمه الله ورسوله ضرره أكثر من نفعه؛ كالسيما وغيرها من أنواع السحر، فإن الساحر السيماوي وإن كان ينال بذلك بعض أغراضه، كما ينال السارق بالسرقة بعض أغراضه، وكما ينال الكاذب بكذبه وبالخيانة بعض أغراضه، وكما ينال المشرك بشركه وكفره بعض أغراضه، وهؤلاء وإن نالوا بعض أغراضهم بهذه المحرمات؛ فإنها تعقبهم من الضرر عليهم في الدنيا والآخرة أعظم مما حصلوه من أغراضهم، فإن الله بعث الرسل بتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها؛ فكل ما أمر الله به ورسوله فمصلحته راجحة على مفسدته، ومنفعته راجحة على المضرة، وإن كرهته النفوس كما قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾[٣] الآية، فأمر بالجهاد وهو مكروه للنفوس»[٤].

قوله ﷺ: «**من تعلق شيئًا وكل إليه**».

قال عبدالرحمن بن حسن: «التعلق يكون بالقلب، وينشأ عنه القول والفعل، وهو التفات القلب عن الله إلى شيء يعتقد أنه ينفعه أو يدفع عنه . . وهو ينافي قوله

---

(١) الفتاوى (١/ ٣٣٦).

(٢) أخرجه: مسلم (٤/ ١٧٢٧/ ٢٢٠٠) وأبو داود (٤/ ٢١٤/ ٣٨٨٦) من حديث عوف بن مالك ﷺ.

(٣) البقرة: الآية (٢١٦).

(٤) الفتاوى (٢٤/ ٢٧٨).

تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[١] فإن كان من الشرك الأصغر فهو ينافي كمال التوحيد، وإن كان من الشرك الأكبر كعبادة أرباب القبور والمشاهد والطواغيت ونحو ذلك؛ فهو كفر بالله، وخروج من دين الإسلام، ولا يصح معه قول ولا عمل.. ومن وكله الله إلى غيره ضل وهلك»[٢].

وقال في 'تيسير العزيز الحميد': «فمن تعلقت نفسه بالله، وأنزل حوائجه بالله، والتجأ إليه، وفوض أمره كله إليه؛ كفاه كل مؤنة، وقرب إليه كل بعيد، ويسر له كل عسير، ومن تعلق بغيره أو سكن إلى علمه وعقله ودوائه وتمائمه، واعتمد على حوله وقوته؛ وكله الله إلى ذلك وخذله، وهذا معروف بالنصوص.. قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾[٣]»[٤].

قال الشيخ الألباني: «ولا تزال هذه الضلالة فاشية بين البدو والفلاحين وبعض المدنيين، ومثلها الخرزات التي يضعها بعض السائقين أمامهم في السيارة يعلقونها على المرآة، وبعضهم يعلق نعلا عتيقة في مقدمة السيارة أو في مؤخرتها، وغيرهم يعلقون نعل فرس في واجهة الدار أو الدكان؛ كل ذلك لدفع العين زعموا، وغير ذلك مما عم وطم بسبب الجهل بالتوحيد، وما ينافيه من الشركيات والوثنيات التي ما بعثت الرسل، ولا أنزلت الكتب إلا من أجل إبطالها والقضاء عليها، فإلى الله المشتكى من جهل المسلمين اليوم، وبعدهم عن الدين. ولم يقف الأمر ببعضهم عند مجرد المخالفة، بل تعداه إلى التقرب بها إلى الله تعالى! فهذا الشيخ الجزولي صاحب: (دلائل الخيرات)، يقول في الحزب السابع في يوم الأحد (ص: ١١١ طبع بولاق): «اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، ما سجعت الحمائم، وحمت الحوائم، وسرحت البهائم، ونفعت التمائم». وتأويل الشارح ل(الدلائل) بأن: «التمائم جمع تميمة، وهي الورقة التي يكتب فيها شيء من الأسماء أو الآيات، وتعلق على الرأس مثلا للتبرك»، فمما لا يصح؛ لأن التمائم عند الإطلاق إنما هي الخرزات..؛ على أنه لو سلم بهذا التأويل؛ فلا دليل في الشرع على أن

(١) البقرة: الآية (١١٢).
(٢) قرة عيون الموحدين (ص: ٧٠).
(٣) الطلاق: الآية (٣).
(٤) تيسير العزيز الحميد (ص: ١٦٣).

التميمة بهذا المعنى تنفع، ولذلك جاء عن بعض السلف كراهة ذلك»[١].

قوله ﷺ: «والتولة»:

قال الحافظ: «وهو ضرب من السحر، وإنما كان ذلك من الشرك؛ لأنهم أرادوا دفع المضار، وجلب المنافع من عند غير الله».

قال ابن باز معلقا: «وإن زعم الذين يصنعونها للنساء أنهم مسلمون ومتدينون، وأن ما يكتبونه من القرآن وأسماء اللّه، فإنهم يفعلون ذلك تضليلا بالقرآن وإلحادا فيه. لأنهم يكتبونه على طريقة اليهود حروفا مقطعة وبمداد خاص؛ ويمزجونه بأدعية جاهلية، وبخطوط يزعمونها على صورة خاتم سليمان الذي كان فيه سر ملكه، كما يزعم اليهود الذين يعتقدون كفر سليمان؛ وأنه كان يسخر الجن بالسحر لا بمعجزة من اللّه، وعلى هذه العقيدة اليهودية الدجالون الذين يكتبون التمائم والتولات، ويزعمون أن للحروف والأسماء خداما يقومون بما يطلب منهم من الأعمال السحرية، ويتخذون أنواعا من البخور والأدوات المخصوصة التي يوحي بها شياطينهم. وكل ذلك من الكفر العظيم»[٢].

قال الشيخ العثيمين: «وهذا شرك؛ لأنه ليس بسبب شرعي ولا قدري للمحبة. ومثل ذلك الدبلة، والدبلة: خاتم يشترى عند الزواج يوضع في يد الزوج، وإذا ألقاه الزوج؛ قالت المرأة: إنه لا يحبها؛ فهم يعتقدون فيه النفع والضرر، ويقولون: إنه ما دام في يد الزوج؛ فإنه يعني أن العلاقة بينهما ثابتة، والعكس بالعكس، فإذا وجدت هذه النية؛ فإنه من الشرك الأصغر، وإن لم توجد هذه النية. وهي بعيدة ألا تصحبها. ؛ ففيه تشبه بالنصارى، فإنها مأخوذة منهم. وإن كانت من الذهب؛ فهي بالنسبة للرجل فيها محذور ثالث وهو لبس الذهب؛ فهي إما من الشرك، أو مضاهاة النصارى، أو تحريم النوع إن كانت للرجال، فإن خلت من ذلك فهي جائزة لأنها خاتم من الخواتم.

وقوله: (شرك)، هل هي شرك أصغر أو أكبر؟

نقول: بحسب ما يريد الإنسان منها، إن اتخذها معتقدا أن المسبب للمحبة هو

---

(١) الصحيحة (١/ ٨٩٠-٨٩١).

(٢) هامش فتح المجيد (ص: ١٥٤).

الله؛ فهي شرك أصغر، وإن اعتقد أنها تفعل بنفسها؛ فهي شرك أكبر»[١].

* عن أبي سعيد بن أبي فضالة الأنصاري ﷺ -وكان من الصحابة- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة ليوم لا ريب فيه؛ نادى مناد: من كان أشرك في عمله لله أحدًا؛ فليطلب ثوابه من عنده، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك»[٢].

* عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله -تبارك وتعالى-: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملا أشرك فيه معي غيري؛ تركته وشركه»[٣].

* عن محمود بن لبيد ﷺ؛ أن النبي ﷺ قال: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر. قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: الرياء، يقول الله يوم القيامة إذا جزى الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم جزاء»[٤].

★ **فوائد الأحاديث:**

قال الحافظ ابن رجب: «واعلم أن العمل لغير الله أقسام، فتارة يكون رياء محضا بحيث لا يراد به سوى مراآة المخلوقين لغرض دنيوي؛ كحال المنافقين في صلاتهم، كما قال الله ﷻ: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾[٥]. وقال تعالى: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ﴾[٦]. وكذلك وصف الله تعالى الكفار بالرياء في قوله: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرٗا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾[٧] الأنفال،

---

(١) مجموع فتاوى ورسائل العثيمين (٩/ ١٧٢).

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ٤٦٦) والترمذي (٥/ ٢٩٤/ ٣١٥٤) وقال: «حسن غريب»، وابن ماجه (٢/ ١٤٠٦/ ٤٢٠٣)، وصححه ابن حبان (٢/ ١٣٠-١٣١/ ٤٠٤).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٠١)، ومسلم (٤/ ٢٢٨٩/ ٢٩٨٥)، وابن ماجه (٢/ ١٤٠٥/ ٤٢٠٢).

(٤) أخرجه: أحمد (٥/ ٤٢٨) والبغوي في شرح السنة (١٤/ ٣٢٣-٣٢٤/ ٤١٣٥) والبيهقي في الشعب (٥/ ٣٣٣/ ٦٨٣١)، وصححه ابن خزيمة (٢/ ٦٧/ ٩٣٧). وقال الهيثمي في المجمع (١/ ١٠٢): «رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح».

(٥) النساء: الآية (١٤٢).

(٦) الماعون: الآيات (٤-٧).

(٧) الأنفال: الآية (٤٧).

وهذا الرياء المحض لا يكاد يصدر من مؤمن في فرض الصلاة والصيام، وقد يصدر في الصدقة الواجبة أو الحج وغيرهما من الأعمال الظاهرة، أو التي يتعدى نفعها، فإن الإخلاص فيها عزيز، وهذا العمل لا يشك مسلم أنه حابط، وأن صاحبه يستحق المقت من اللَّه والعقوبة، وتارة يكون العمل لله ويشاركه الرياء، فإن شاركه من أصله؛ فالنصوص الصحيحة تدل على بطلانه وحبوطه أيضًا.

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي اللَّه عنه، عن النبي ﷺ قال: «**يقول اللَّه تبارك وتعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملا أشرك فيه معي غيري؛ تركته وشريكه**» وخرجه ابن ماجه، ولفظه: «**فأنا منه بريء، وهو للذي أشرك**»..

وممن روي عنه هذا المعنى، وأن العمل إذا خالطه شيء من الرياء كان باطلا: طائفة من السلف، منهم عبادة بن الصامت، وأبو الدرداء، والحسن، وسعيد بن المسيب، وغيرهم..

ولا نعرف عن السلف في هذا خلافا، وإن كان فيه خلاف عن بعض المتأخرين. فإن خالط نية الجهاد مثلا نية غير الرياء، مثل أخذ أجرة للخدمة، أو أخذ شيء من الغنيمة أو التجارة، نقص بذلك أجر جهادهم، ولم يبطل بالكلية.
وفي صحيح مسلم عن عبداللَّه بن عمرو، عن النبي ﷺ، قال: «**إن الغزاة إذا غنموا غنيمة، تعجلوا ثلثي أجرهم، فإن لم يغنموا شيئًا، تم لهم أجرهم**»[(١)]..

وأما إن كان أصل العمل لله، ثم طرأت عليه نية الرياء، فإن كان خاطرا ودفعه؛ فلا يضره بغير خلاف، وإن استرسل معه؛ فهل يحبط به عمله أم لا يضره ذلك ويجازى على أصل نيته؟ في ذلك اختلاف بين العلماء من السلف قد حكاه الإمام أحمد وابن جرير الطبري، ورجحا أن عمله لا يبطل بذلك، وأنه يجازى بنيته الأولى، وهو مروي عن الحسن البصري وغيره.. وذكر ابن جرير أن هذا الاختلاف إنما هو في عمل يرتبط آخره بأوله كالصلاة والصيام والحج، فأما ما لا ارتباط فيه كالقراءة والذكر وإنفاق المال ونشر العلم؛ فإنه ينقطع بنية الرياء الطارئة عليه، ويحتاج إلى تجديد نية.. فأما إذا عمل العمل لله خالصا، ثم ألقى

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ١٦٩) ومسلم (٣/ ١٥١٤-١٥١٥/ ١٩٠٦) وأبو داود (٣/ ١٨/ ٢٤٩٧) والنسائي (٦/ ٣٢٥/ ٣١٢٥) وابن ماجه (٢/ ٩٣١/ ٢٧٨٥) عن عبد اللَّه بن عمرو بن العاص رضي الله عنه.

اللَّه له الثناء الحسن في قلوب المؤمنين بذلك، ففرح بفضل اللَّه ورحمته واستبشر بذلك؛ لم يضره ذلك»[١].

قال ابن القيم: «فالرياء كله شرك، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾[٢] أي: كما أنه إله واحد لا إله سواه؛ فكذلك ينبغي أن تكون العبادة له وحده، فكما تفرد بالإلهية يجب أن يتفرد بالعبودية، فالعمل الصالح هو الخالي من الرياء المقيد بالسنة، وكان من دعاء عمر بن الخطاب ﷺ: (اللهم اجعل عملى كله صالحا، واجعله لوجهك خالصا، ولا تجعل لأحد فيه شيئًا). وهذا الشرك فى العبادة يبطل ثواب العمل، وقد يعاقب عليه إذا كان العمل واجبا، فإنه ينزله منزلة من لم يعمله، فيعاقب على ترك الأمر، فإن اللَّه سبحانه إنما أمر بعبادته عبادة خالصة، قال اللَّه تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾[٣] فمن لم يخلص لله فى عبادته لم يفعل ما أمر به، بل الذي أتى به شيء غير الذي أمر به، فلا يصح ولا يقبل منه، ويقول اللَّه تعالى: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك . . » الحديث»[٤].

قال في «تيسير العزيز الحميد»: «لما كان المرائي قاصدا بعمله اللَّه تعالى وغيره؛ كان قد جعل للَّه تعالى شريكا، فإذا كان كذلك؛ فاللَّه تعالى هو الغني على الإطلاق، والشركاء بل جميع الخلق فقراء إليه بكل اعتبار، فلا يليق بكرمه وغناه التام أن يقبل العمل الذي جعل له فيه شريك، فإن كماله تبارك وتعالى وكرمه وغناه؛ يوجب أن لا يقبل ذلك، ولا يلزم من اسم التفضيل إثبات غنى للشركاء، فقد تقع المفاضلة بين الشيئين؛ وإن كان أحدهما لا فضل فيه، كقوله تعالى: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[٥] وقوله تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾[٦].

قوله: «من عمل عملا أشرك معي فيه غيري». أي: من قصد بذلك العمل الذي يعمله لوجهي غيري من المخلوقين؛ تركته وشركه»[٧].

---

(١) جامع العلوم والحكم (١/ ٧٩-٨٣).
(٢) الكهف: الآية (١١٠).
(٣) البينة: الآية (٥).
(٤) الداء والدواء (٢٠٢).
(٥) النمل: الآية (٥٩).
(٦) الفرقان: الآية (٢٤).
(٧) تيسير العزيز الحميد (٥٤٤).

قال شيخ الإسلام: «ومن كان له ورد مشروع من صلاة الضحى، أو قيام ليل أو غير ذلك؛ فإنه يصليه حيث كان، ولا ينبغي له أن يدع ورده المشروع لأجل كونه بين الناس، إذا علم اللَّه من قلبه أنه يفعله سرا لله، مع اجتهاده في سلامته من الرياء ومفسدات الإخلاص. ولهذا قال الفضيل بن عياض: ترك العمل لأجل الناس رياء، والعمل لأجل الناس شرك. وفعله في مكانه الذي تكون فيه معيشته التي يستعين بها على عبادة اللَّه، خير له من أن يفعله حيث تتعطل معيشته، ويشتغل قلبه بسبب ذلك، فإن الصلاة كلما كانت أجمع للقلب وأبعد من الوسواس؛ كانت أكمل، ومن نهى عن أمر مشروع بمجرد زعمه أن ذلك رياء؛ فنهيه مردود عليه من وجوه:

أحدها: أن الأعمال المشروعة لا ينهى عنها خوفا من الرياء، بل يؤمر بها وبالإخلاص فيها، ونحن إذا رأينا من يفعلها أقررناه وإن جزمنا أنه يفعلها رياء، فالمنافقون الذين قال اللَّه فيهم: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[1] فهؤلاء كان النبي ﷺ والمسلمون يقرونهم على ما يظهرونه من الدين، وإن كانوا مرائين ولا ينهونهم عن الظاهر؛ لأن الفساد في ترك إظهار المشروع أعظم من الفساد فى إظهاره رياء، كما أن فساد ترك إظهار الإيمان والصلوات؛ أعظم من الفساد في إظهار ذلك رياء، ولأن الإنكار إنما يقع على الفساد في إظهار ذلك رئاء الناس.

الثاني: لأن الإنكار إنما يقع على ما أنكرته الشريعة، وقد قال رسول اللَّه ﷺ: «إني لم أومر أن أنقب عن قلوب الناس، ولا أن أشق بطونهم»[2]، وقد قال عمر بن الخطاب: (من أظهر لنا خيرا أحببناه وواليناه عليه؛ وإن كانت سريرته بخلاف ذلك، ومن أظهر لنا شرا أبغضناه عليه وإن زعم أن سريرته صالحة).

الثالث: أن تسويغ مثل هذا يفضي إلى أن أهل الشرك والفساد ينكرون على أهل الخير والدين، إذا رأوا من يظهر أمرا مشروعا مسنونا قالوا هذا مراء، فيترك أهل الصدق والإخلاص إظهار الأمور المشروعة؛ حذرا من لمزهم وذمهم، فيتعطل

---

(١) النساء: الآية (١٤٢).

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ٤) والبخاري (٨/ ٨٤/ ٤٣٥١) ومسلم (٢/ ٧٤٢/ ١٠٦٤(١٤٤)) وأبو داود (٥/ ١٢١- ١٢٣/ ٤٧٦٤) والنسائي (٥/ ٩٢-٩٣/ ٢٥٧٧) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

الخير، ويبقى لأهل الشرك شوكة يظهرون الشر، ولا أحد ينكر عليهم، وهذا من أعظم المفاسد.

الرابع: أن مثل هذا من شعائر المنافقين، وهو يطعن على من يظهر الأعمال المشروعة، قال اللّه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1] فإن النبي ﷺ لما حض على الإنفاق عام تبوك[2]؛ جاء بعض الصحابة بصرة كادت يده تعجز من حملها، فقالوا: هذا مراء. وجاء بعضهم بصاع، فقالوا: لقد كان اللّه غنيا عن صاع فلان. فلمزوا هذا وهذا، فأنزل اللّه ذلك، وصار عبرة فيمن يلمز المؤمنين المطيعين لله ورسوله، واللّه أعلم»[3].

وقال أيضًا في الفرق بين العجب والرياء: «وكثيرًا ما يقرن الناس بين الرياء والعجب، فالرياء من باب الإشراك بالخلق، والعجب من باب الإشراك بالنفس، وهذا حال المستكبر، فالمرائي لا يحقق قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾[4] والمعجب لا يحقق قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ فمن حقق قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾؛ خرج عن الرياء، ومن حقق قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ خرج عن الإعجاب»[5].

قوله: «أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر»:

قال في «تيسير العزيز الحميد»: «هذا من رحمته ﷺ لأمته وشفقته عليهم، وتحذيره مما يخاف عليهم، فإنه ما من خير إلا دلهم عليه وأمر به، وما من شر إلا وأخبرهم به وحذرهم عنه.. ولما كانت النفوس مجبولة على محبة الرياسة والمنزلة في قلوب الخلق إلا من سلم الله؛ كان هذا أخوف ما يخاف على الصالحين، لقوة الداعي إلى ذلك، والمعصوم من عصمه اللّه، وهذا بخلاف الداعي إلى الشرك الأكبر؛ فإنه إما معدوم في قلوب المؤمنين الكاملين، ولهذا يكون الإلقاء في النار أسهل عندهم من الكفر، وإما ضعيف، هذا مع العافية، وأما

---

(١) التوبة: الآية (٧٩).

(٢) أخرجه: أحمد (٥/ ٢٧٣) والبخاري (٣/ ٣٦٠/ ١٤١٥) ومسلم (٢/ ٧٠٦/ ١٠١٨) والنسائي (٥/ ٦٣-٦٤/ ٢٥٢٩) وابن ماجه (٢/ ١٣١٩/ ٤١٥٥) من حديث أبي مسعود ﷺ.

(٣) مجموع الفتاوى (٢٣/ ١٧٤-١٧٦).

(٤) الفاتحة: الآية (٥).

(٥) الفتاوى (١٠/ ٢٧٧).

مع البلاء فـ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾(١)، فلذلك صار خوفه ﷺ على أصحابه من الرياء أشد؛ لقوة الداعي وكثرته، دون الشرك الأكبر لما تقدم، مع أنه أخبر أنه لابد من وقوع عبادة الأوثان في أمته، فدل على أنه ينبغي للإنسان أن يخاف على نفسه الشرك الأكبر، إذا كان الأصغر مخوفا على الصالحين من الصحابة مع كمال إيمانهم، فينبغي للإنسان أن يخاف الأكبر لنقصان إيمانه ومعرفته بالله»(٢).

* عن أبي هريرة أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال: «يا رسول الله! مرني بكلمات أقولهن إذا أصبحت وإذا أمسيت. قال: «**قل: اللهم فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، رب كل شيء ومليكه، أشهد أن لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شر نفسي وشر الشيطان وشركه**» قال: «**قلها إذا أصبحت، وإذا أمسيت، وإذا أخذت مضجعك**»»(٣).

★ **غريب الحديث:**

وشركه: بكسر الشين وسكون الراء: أي ما يدعو إليه من الإشراك بالله، ويروى بفتحتين: أي مصائده وحبائله التي يفتتن بها الناس.

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن القيم: «ومن تأمل القرآن والسنة؛ وجد اعتناءهما بذكر الشيطان ومحاربته أكثر من ذكر النفس، فإن النفس المذمومة ذكرت في قوله: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾(٤) واللوامة في قوله: ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾(٥) وذكرت النفس المذمومة في قوله: ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾(٦) وأما الشيطان فذكر في عدة مواضع،

---

(١) إبراهيم: الآية (٢٧).

(٢) تيسير العزيز الحميد (ص: ١٠٩-١١٠).

(٣) أخرجه: أحمد (١/ ٩) والبخاري في الأدب المفرد (١٢٠٢) وأبو داود (٥/ ٣١٠-٣١١/ ٥٠٦٧) والترمذي (٥/ ٤٣٥-٤٣٦/ ٣٣٩٢) وقال: «حسن صحيح»، والنسائي في الكبرى (٦/ ١٤٦/ ١٠٤٠٢)، وصححه ابن حبان (الإحسان ٣/ ٢٤٢/ ٩٦٢) والحاكم (١/ ٥١٣) ووافقه الذهبي.

(٤) يوسف: الآية (٥٣).

(٥) القيامة: الآية (٢).

(٦) النازعات: الآية (٤٠).

وأفردت له سورة تامة، فتحذير الرب تعالى لعباده منه جاء أكثر من تحذيره من النفس، وهذا هو الذي لا ينبغي غيره، فإن شر النفس وفسادها ينشأ من وسوسته، فهي مركبه وموضع شره ومحل طاعته، وقد أمر اللَّه سبحانه بالاستعاذة منه عند قراءة القرآن وغير ذلك، وهذا لشدة الحاجة إلى التعوذ منه، ولم يأمر بالاستعاذة من النفس في موضع واحد، وإنما جاءت الاستعاذة من شرها في خطبة الحاجة في قوله: «**ونعوذ باللَّه من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا**»[١].. وقد جمع النبي ﷺ الاستعاذة من الأمرين في الحديث الذي رواه الترمذي في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال: يا رسول اللَّه علمني شيئًا أقوله إذا أصبحت وإذا أمسيت. قال: «**قل: اللهم عالم الغيب والشهادة، فاطر السموات والأرض، رب كل شيء ومليكه، أشهد أن لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شر نفسي وشر الشيطان وشركه، وأن أقترف على نفسي سوءا أو أجره إلى مسلم. قله إذا أصبحت وإذا أمسيت وإذا أخذت مضجعك**» فقد تضمن هذا الحديث الشريف الاستعاذة من الشر وأسبابه وغايته؛ فإن الشر كله إما أن يصدر من النفس أو من الشيطان، وغايته إما أن يعود على العامل أو على أخيه المسلم، فتضمن الحديث مصدري الشر اللذين يصدر عنهما وغايتيه اللتين يصل إليهما»[٢].

* * *

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٣٩٢-٣٩٣) وأبو داود (١/ ٦٥٩/ ١٠٩٧) والترمذي (٣/ ٤١٣-٤١٤/ ١١٠٥) وقال: «حسن»، والنسائي (٣/ ١١٦/ ١٤٠٣) وابن ماجه (١/ ٦٠٩-٦١٠/ ١٨٩٢) وصححه الحاكم (٢/ ١٨٢-١٨٣) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه. وللشيخ الألباني رسالة (خطبة الحاجة) جمع فيها طرقه.

(٢) إغاثة اللهفان (١/ ١٤٥-١٤٦).

قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأۡتِيَهُمۡ غَٰشِيَةٞ مِّنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوۡ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿١٠٧﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أي: أفأمن هؤلاء المشركون بالله أن يأتيهم أمر يغشاهم من حيث لا يشعرون، كقوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ فِي تَقَلُّبِهِمۡ فَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ فَإِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾﴾[1]. وقوله: ﴿أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا بَيَٰتٗا وَهُمۡ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَ أَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا ضُحٗى وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾[2]»[3].

وقال أبو حيان: «﴿أَفَأَمِنُوٓاْ﴾ استفهام إنكار، فيه توبيخ وتهديد ﴿غَٰشِيَةٞ﴾ نقمة تغشاهم؛ أي: تغطيهم كقوله: ﴿يَوۡمَ يَغۡشَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۡ﴾[4]، وقال الضحاك: يعني الصواعق والقوارع انتهى. وإتيان الغاشية يعني في الدنيا، وذلك لمقابلته بقوله: ﴿أَوۡ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ أي: يوم القيامة بغتة؛ أي: فجأة في الزمان من حيث لا يتوقع ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ تأكيد لقوله: ﴿بَغۡتَةٗ﴾، قال الكرماني: لا يشعرون بإتيانها؛ أي: وهم غير مستعدين لها. قال ابن عباس: تأخذهم الصيحة على أسواقهم ومواضعهم»[5].

وقال عبد الكريم الخطيب: «والمعنى، أفيأمن هؤلاء المشركون من قريش، الذين كذبوا رسول الله وآذوه؛ أفيأمنون أن يأخذهم الله ببأسه، وأن تغشاهم سحابة من عذابه، فتهلكهم كما أهلكت الظالمين قبلهم؟ وإذا أمنوا هذا، أفيأمنون أن

---

(١) النحل: الآيات (٤٥-٤٧).
(٢) الأعراف: الآيات (٩٧-٩٩).
(٣) التفسير (٤/ ٥٨).
(٤) العنكبوت: الآية (٥٥).
(٥) البحر المحيط (٥/ ٣٤٥).

تأتيهم الساعة فجأة، وهم غافلون عنهالم يعملوا حسابا لها؟ .

ماذا يكون موقفهم يومئذ؟ وهل يلقون إلا الخزي والهوان والعذاب الأليم؟ .

والاستفهام هنا إنكاري، إذ ينكر على هؤلاء المشركين موقفهم هذا، الذين بعدوا به عن طريق الهدى، وركبوا فيه طريق الضلال، فهم -وهذه حالهم- في معرض الهلاك في الدنيا، بنقمة من نقم اللّٰه تأخذهم بغتة، فإن لم يعجل لهم اللّٰه البلاء في الدنيا؛ ضاعف لهم العذاب في الآخرة، ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾[1]»[2].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في مباغتة الساعة الناس

* عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**لتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما، فلا يتبايعانه ولا يطويانه، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه، ولتقومن الساعة وقد رفع أحدكم أكلته إلى فيه فلا يطعمها**»[3].

وقال المراغي: «والمراد من كل هذا أنها تبغت الناس وهم منهمكون في أمور معايشهم، فلا يشعرون إلا وقد أتتهم.

والحكمة في إبهام وقتها: أن الفائدة لا تتم إلا بذلك، ليخشى أهل كل زمان إتيانها في هذا الوقت، فيحملهم الخوف على مراقبة اللّٰه تعالى في أعمالهم، فليتزموا الحق ويتحروا الخير، ويتقوا الشرور والمعاصي»[4].

* * *

(١) فصلت: الآية (١٦).

(٢) التفسير القرآني (٧/ ٥٦-٥٧).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٦٩) والبخاري (١١/ ٤٢٨/ ٦٥٠٦) ومسلم (٤/ ٢٢٧٠/ ٢٩٥٤).

(٤) تفسير المراغي (١٣/ ٥١).

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى لرسوله ﷺ إلى الثقلين الإنس والجن، آمرا له أن يخبر الناس أن هذه سبيله، أي طريقته ومسلكه وسنته، وهي الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، يدعو إلى الله بها على بصيرة من ذلك ويقين وبرهان، هو وكل من اتبعه، يدعو إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ على بصيرة ويقين وبرهان عقلي وشرعي. وقوله: ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ أي: وأنزه الله وأجله وأعظمه وأقدسه؛ عن أن يكون له شريك أو نظير أو عديل أو نديد، أو ولد أو والد أو صاحبة أو وزير أو مشير، تبارك وتقدس وتنزه وتعالى عن ذلك كله علوا كبيرا ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾[(١)]»[(٢)].

وقال أبو حيان: «لما تقدم من قول يوسف عليه السلام ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا﴾ وكان قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ دالا على أنه حارص على إيمانهم، مجتهد في ذلك، داع إليه، مثابر عليه، وذكر ﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾؛ أشار إلى ما فيهم من ذلك، وهو شريعة الإسلام والإيمان وتوحيد الله، فقال: قل يا محمد: هذه الطريقة والدعوة طريقي التي سلكتها، وأنا عليها، ثم فسر تلك السبيل، فقال: ﴿أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ يعني: لا إلى غيره من ملك أو إنسان أو كوكب أو صنم، إنما دعائي إلى الله وحده، قال ابن عباس: ﴿سَبِيلِىٓ﴾ أي: دعوتي. وقال عكرمة: صلاتي. وقال ابن زيد: سنتي. وقال مقاتل والجمهور: ديني.. ومعنى

---

(١) الإسراء: الآية (٤٤).

(٢) التفسير (٤/ ٥٨).

﴿بَصِيرَةٍ﴾ حجة واضحة، وبرهان متيقن من قوله: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾[١]، ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ داخل تحت قوله ﴿قُلْ﴾ أي: قل وتبرئة اللَّه من الشركاء؛ أي: براءة اللَّه من أن يكون له شريك، ولما أمر بأن يخبر عن نفسه أنه يدعو هو ومن اتبعه إلى اللَّه، وأمر أن يخبر أنه ينزه اللَّه عن الشركاء؛ أمر أن يخبر أنه في خاصة نفسه منتف عن الشرك، وأنه ليس ممن أشرك، وهو نفي عام في الأزمان لم يكن منهم ولا في وقت من الأوقات»[٢].

وقال الشوكاني: «وفي هذا دليل على أن كل متبع لرسول اللَّه ﷺ؛ حق عليه أن يقتدي به في الدعاء إلى الله: أي الدعاء إلى الإيمان به وتوحيده والعمل بما شرعه لعباده»[٣].

وقال البقاعي: «ولما وصف اللَّه سبحانه له ﷺ أكثر الناس بما وصف من سوء الطريقة؛ للتقليد الذي منشأه الإعراض عن الأدلة الموجبة للعلم؛ أمر أن يذكر طريق الخلص فقال: ﴿قُلْ﴾ أي: يا أعلى الخلق وأصفاهم وأعظمهم نصحا وإخلاصا: ﴿هَٰذِهِۦ﴾أي: الدعوة إلى اللَّه على ما دعا إليه كتاب اللَّه وسنته ﷺ ﴿سَبِيلِىٓ﴾ القريبة المأخذ، الجلية الأمر، الجليلة الشأن، الواسعة الواضحة جدا، فكأنه قيل: ما هي؟ فقال: ﴿أَدْعُوٓاْ﴾ كل من يصح دعاؤه ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ الحائز لجميع الكمال، حال كوني ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ أي: حجة واضحة من أمري، بنظري الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة، وترك التقليد الدال على الغباوة والجمود، لأن البصيرة المعرفة التي يتميز بها الحق من الباطل دينا ودنيا، بحيث يكون كأنه يبصر المعنى بالعين.

ولما كان الموضع في غاية الشرف؛ أكد الضمير المستتر تعيينا وتنبيها على التأهل لظهور الإمامة، فقال: ﴿أَنَا۠ وَمَنِ﴾ أي: ويدعو كذلك من ﴿ٱتَّبَعَنِى﴾ لا كمن هو على عمى جائر عن القصد، حائر في ضلال التقليد، فهو لا يزال في غفلة هدفا للحتوف؛ والاتباع: طلب الثاني اللحق بالأول؛ للموافقة في مكانه أو في أمره الذي دعا إليه، ومما دخل تحت ﴿قُلْ﴾ عطفا على ﴿أَدْعُوٓاْ﴾ قوله -منبها على أن

---

(١) الأنعام: الآية (١٠٤).

(٢) البحر المحيط (٥/ ٣٤٥-٣٤٦).

(٣) فتح القدير (٣/ ٨٣).

شرط كل دعوة إليه سبحانه اقترانها بتنزيهه عن كل شائبة نقص- : ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ أي : وأسبح الذي اختص بصفات الكمال سبحانا ؛ أي : أقدره حق قدره فأثبت له من صفات الكمال ما يليق بجلاله، وأنزهه عما هو متعال عنه تنزيها يعلم هو أنه يليق بجلاله ويرضى به، وفي تخصيص اللّه بذلك عقب ما أثبت له ولأتباعه؛ تلويح بنسبة النقص إليهم تواضعا، اعتذارا عما يلحقهم من الوهن وطلبا للعفو عنه ﴿وَمَآ أَنَا۠﴾ وعدل عن (مشركا) إلى أبلغ منه فقال: ﴿مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي: في عداد من يشرك به شيئًا بوجه من الوجوه، لأني علمت بما آتاني من البصيرة أنه منعوت بنعوت الكمال، منزه عن سمات النقص، متعال عنها، وأن ذلك أول واجب لأنه الواحد الذي جل عن المجانسة، القهار الذي كل شيء تحت مشيئته»[١].

وقال شيخ الإسلام: «الدعوة إلى اللّه هي الدعوة إلى الإيمان به، وبما جاءت به رسله، بتصديقهم فيما أخبروا به، وطاعتهم فيما أمروا، وذلك يتضمن الدعوة إلى الشهادتين، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت، والدعوة إلى الإيمان باللّه، وملائكته وكتبه ورسله، والبعث بعد الموت، والإيمان بالقدر خيره وشره، والدعوة إلى أن يعبد العبد ربه كأنه يراه.

فإن هذه الدرجات الثلاث التي هي (الإسلام) و(الإيمان) و(الإحسان)؛ داخلة في الدين، كما قال في الحديث الصحيح: «هذا جبريل جاءكم يعلمكم دينكم»[٢] بعد أن أجابه عن هذه الثلاث. فبين أنها كلها من ديننا . .

فالدعوة إلى اللّه تكون بدعوة العبد إلى دينه، وأصل ذلك عبادته وحده لا شريك له، كما بعث اللّه بذلك رسله، وأنزل به كتبه. قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾[٤] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟

---

(١) نظم الدرر (١٠/ ٢٤١-٢٤٣).

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٢٧) ومسلم (١/ ٣٦-٣٨/ ٨) وأبو داود (٥/ ٦٩-٧٣/ ٤٦٩٥) والترمذي (٥/ ٨-٩/ ٢٦١٠) والنسائي (٨/ ٤٧٢-٤٧٥/ ٥٠٠٥) وابن ماجه (١/ ٢٤-٢٥/ ٦٣) من حديث عمر بن الخطاب ﷺ.

(٣) الشورى: الآية (١٣).

(٤) الزخرف: الآية (٤٥).

ٱلطَّـٰغُوتَۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَـٰلَةُۚ﴾[١] وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾[٢].

وقد ثبت في الصحيح عن أبي هريرة عن رسول اللَّه ﷺ أنه قال: «إنا معاشر الأنبياء ديننا واحد: الأنبياء إخوة لعلات، وإن أولى الناس بابن مريم لأنا، إنه ليس بيني وبينه نبي»[٣] فالدين واحد، وإنما تنوعت شرائعهم ومناهجهم، كما قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًاۚ﴾[٤].

فالرسل متفقون في الدين الجامع للأصول الاعتقادية والعملية، فالاعتقادية كالإيمان باللَّه وبرسله وباليوم الآخر، والعملية كالأعمال العامة المذكورة في الأنعام والأعراف وسورة بني إسرائيل، كقوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْۖ﴾[٥] إلى آخر الآيات الثلاث. وقوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾[٦] إلى آخر الوصايا. وقوله: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ﴾[٧] وقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[٨].

فهذه الأمور هي من الدين الذي اتفقت عليه الشرائع، كعامة ما في السور المكية، فإن السور المكية تضمنت الأصول التي اتفقت عليها رسل الله؛ إذ كان الخطاب فيها يتضمن الدعوة لمن لا يقر بأصل الرسالة، وأما السور المدنية ففيها الخطاب لمن يقر بأصل الرسالة؛ كأهل الكتاب الذين آمنوا ببعض وكفروا ببعض، وكالمؤمنين الذين آمنوا بكتب اللَّه ورسله؛ ولهذا قرر فيها الشرائع التي أكمل اللَّه بها الدين؛ كالقبلة والحج والصيام والاعتكاف والجهاد وأحكام المناكح ونحوها، وأحكام الأموال بالعدل كالبيع، والإحسان كالصدقة، والظلم كالربا، وغير ذلك مما هو من تمام الدين.

---

(١) النحل: الآية (٣٦). (٢) الأنبياء: الآية (٢٥).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٣١٩)، والبخاري (٦/ ٥٩٠-٥٩١/ ٣٤٤٣)، ومسلم (٤/ ١٨٣٧/ ٢٣٦٥)، وأبو داود (٥/ ٥٥/ ٤٦٧٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) المائدة: الآية (٤٨). (٥) الأنعام: الآية (١٥١).

(٦) الإسراء: الآية (٢٣). (٧) الأعراف: الآية (٢٩).

(٨) الأعراف: الآية (٣٣).

ولهذا كان الخطاب في السور المكية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾؛ لعموم الدعوة إلى الأصول؛ إذ لا يدعى إلى الفرع من لا يقر بالأصل، فلما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة وعز بها أهل الإيمان، وكان بها أهل الكتاب؛ خوطب هؤلاء وهؤلاء؛ فهؤلاء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ وهؤلاء ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أو ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ ولم ينزل بمكة شيء من هذا؛ ولكن في السور المدنية خطاب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ كما في سورة (النساء) وسورة (الحج) وهما مدنيتان، وكذا في (البقرة).

وهذا يعكر على قول الحبر ابن عباس؛ لأن الحكم المذكور يشمل جنس الناس، والدعوة بالاسم الخاص لا تنافي الدعوة بالاسم العام، فالمؤمنون داخلون في الخطاب: بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، وفي الخطاب: بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾. فالدعوة إلى اللَّه تتضمن الأمر بكل ما أمر اللَّه به، والنهي عن كل ما نهى اللَّه عنه، وهذا هو الأمر بكل معروف، والنهي عن كل منكر.

والرسول ﷺ قام بهذه الدعوة، فإنه أمر الخلق بكل ما أمر اللَّه به، ونهاهم عن كل ما نهى اللَّه عنه، أمر بكل معروف ونهى عن كل منكر. قال تعالى: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ١٥٦ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾[(١)].

ودعوته إلى اللَّه هي بإذنه لم يشرع دينا لم يأذن به اللَّه، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا﴾[(٢)] خلاف الذين ذمهم في قوله: ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ﴾[(٣)]، وقد قال تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزۡقٖ فَجَعَلۡتُم مِّنۡهُ حَرَامٗا وَحَلَٰلٗا قُلۡ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمۡۖ أَمۡ عَلَى ٱللَّهِ تَفۡتَرُونَ﴾[(٤)].

ومما يبين ما ذكرناه: أنه سبحانه يذكر أنه أمره بالدعوة إلى اللَّه تارة، وتارة بالدعوة إلى سبيله، كما قال تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ﴾[(٥)]

---

(١) الأعراف: الآيتان (١٥٦ و ١٥٧).
(٢) الأحزاب: الآيتان (٤٥ و ٤٦).
(٣) الشورى: الآية (٢١).
(٤) يونس: الآية (٥٩).
(٥) النحل: الآية (١٢٥).

وذلك أنه قد علم أن الداعي الذي يدعو غيره إلى أمر، لا بد فيما يدعو إليه من أمرين:

أحدهما: المقصود المراد.

والثاني: الوسيلة والطريق الموصل إلى المقصود، فلهذا يذكر الدعوة تارة إلى الله، وتارة إلى سبيله، فإنه سبحانه هو المعبود المراد المقصود بالدعوة.

والعبادة: اسم يجمع غاية الحب له، وغاية الذل له، فمن ذل لغيره مع بغضه لم يكن عابدا، ومن أحبه من غير ذل له لم يكن عابدا، والله سبحانه يستحق أن يحب غاية المحبة، بل يكون هو المحبوب المطلق، الذي لا يحب شيء إلا له، وأن يعظم ويذل له غاية الذل، بل لا يذل لشيء إلا من أجله، ومن أشرك غيره في هذا وهذا لم يحصل له حقيقة الحب والتعظيم، فإن الشرك يوجب نقص المحبة.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾[1] أي: أشد حبا لله من هؤلاء لأندادهم، وقال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾[2]، وكذلك الاستكبار يمنع حقيقة الذل لله؛ بل يمنع حقيقة المحبة لله، فإن الحب التام يوجب الذل والطاعة، فإن المحب لمن يحب مطيع..

إذا تبين ذلك: فالدعوة إلى الله واجبة على من اتبعه، وهم أمته يدعون إلى الله، كما دعا إلى الله.

وكذلك يتضمن أمرهم بما أمر به، ونهيهم عما ينهى عنه، وإخبارهم بما أخبر به؛ إذ الدعوة تتضمن الأمر، وذلك يتناول الأمر بكل معروف، والنهي عن كل منكر.

وقد وصف أمته بذلك في غير موضع، كما وصفه بذلك فقال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾[3] وقال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾[4] الآية، وهذا الواجب واجب على مجموع الأمة، وهو الذي يسميه العلماء فرض كفاية؛ إذا قام به طائفة منهم سقط عن الباقين، فالأمة كلها مخاطبة بفعل ذلك؛ ولكن إذا قامت به طائفة سقط عن الباقين. قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ

---

(١) البقرة: الآية (١٦٥).
(٢) الزمر: الآية (٢٩).
(٣) آل عمران: الآية (١١٠).
(٤) التوبة: الآية (٧١).

﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(١).

فمجموع أمته تقوم مقامه في الدعوة إلى الله؛ ولهذا كان إجماعهم حجة قاطعة، فأمته لا تجتمع على ضلالة، وإذا تنازعوا في شيء ردوا ما تنازعوا فيه إلى اللَّه وإلى رسوله، وكل واحد من الأمة يجب عليه أن يقوم من الدعوة بما يقدر عليه إذا لم يقم به غيره، فما قام به غيره سقط عنه، وما عجز لم يطالب به، وأما ما لم يقم به غيره وهو قادر عليه؛ فعليه أن يقوم به؛ ولهذا يجب على هذا أن يقوم بما لا يجب على هذا، وقد تسقط الدعوة على الأمة بحسب ذلك تارة، وبحسب غيره أخرى؛ فقد يدعو هذا إلى اعتقاد الواجب، وهذا إلى عمل ظاهر واجب، وهذا إلى عمل باطن واجب؛ فتنوع الدعوة يكون في الوجوب تارة، وفي الوقوع أخرى.

وقد تبين بهذا: أن الدعوة إلى اللَّه تجب على كل مسلم؛ لكنها فرض على الكفاية، وإنما يجب على الرجل المعين من ذلك ما يقدر عليه إذا لم يقم به غيره، وهذا شأن الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر وتبليغ ماجاء به الرسول، والجهاد في سبيل اللَّه، وتعليم الإيمان والقرآن.

وقد تبين بذلك: أن الدعوة نفسها أمر بالمعروف، ونهي عن المنكر، فإن الداعي طالب مستدع مقتض لما دعا إليه، ذلك هو الأمر به؛ إذ الأمر هو طلب الفعل المأمور به، واستدعاء له ودعاء إليه، فالدعاء إلى اللَّه الدعاء إلى سبيله، فهو أمر بسبيله، وسبيله تصديقه فيما أخبر، وطاعته فيما أمر.

وقد تبين أنهما واجبان على كل فرد من أفراد المسلمين، وجوب فرض الكفاية، لا وجوب فرض الأعيان كالصلوات الخمس، بل كوجوب الجهاد»(٢).

وقال: «الرسول ﷺ بعثه اللَّه تعالى هدى ورحمة للعالمين، فإنه كما أرسله بالعلم والهدى، والبراهين العقلية والسمعية؛ فإنه أرسله بالإحسان إلى الناس، والرحمة لهم بلا عوض، وبالصبر على أذاهم واحتماله. فبعثه بالعلم والكرم والحلم؛ عليم هاد كريم محسن حليم صفوح.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ

---

(١) آل عمران: الآية (١٠٤).

(٢) مجموع الفتاوى (١٥/ ١٥٧-١٦٧).

وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾[2]. وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ﴾[3]، ونظائره كثيرة.

وقال: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾[4]، وقال: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ﴾[5]، وقال: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًاۖ﴾[6]، فهو يعلم ويهدي ويصلح القلوب، ويدلها على صلاحها في الدنيا والآخرة بلا عوض.

وهذا نعت الرسل كلهم كل يقول: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍۖ﴾[7]، ولهذا قال صاحب يس ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾[8].

وهذه سبيل من اتبعه، كما قال: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِىۖ﴾»[9].

وقال: «وهو دعا الخلق إلى اللَّه بإذن اللَّه. كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾[10]. والمخالف له يدعو إلى غير اللَّه بغير إذن اللَّه. ومن اتبع الرسول ﷺ فإنه إنما يدعو إلى اللَّه ورسوله. وقوله تعالى: ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ أي: بأمره وما أنزله من العلم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِىۖ﴾ فمن اتبع الرسول دعا إلى اللَّه على بصيرة؛ أي: على بينة وعلم يدعو إليه بمنزل من اللَّه، بخلاف الذي يأمر بما لا يعلم، أو بما لم ينزل به وحيا. كما قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾[11]»[12].

وقال ابن القيم: «ولما كانت الدعوة إلى اللَّه والتبليغ عن رسوله شعار حزبه المفلحين، وأتباعه من العالمين؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ

---

(١) الشورى: الآيتان (٥٢ و ٥٣).
(٢) إبراهيم: الآية (١).
(٣) الشورى: الآية (٥٢).
(٤) الفرقان: الآية (٥٧).
(٥) سبأ: الآية (٤٧).
(٦) الأنعام: الآية (٩٠).
(٧) الشعراء: الآية (١٠٩).
(٨) يس: الآيتان (٢٠ و ٢١).
(٩) مجموع الفتاوى (١٦/ ٣١٣-٣١٤).
(١٠) الأحزاب: الآيتان (٤٥ و ٤٦).
(١١) الحج: الآية (٧١).
(١٢) مجموع الفتاوى (٢٧/ ٤٢٦-٤٢٧).

بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، وكان التبليغ عنه من عين تبليغ ألفاظه وما جاء به وتبليغ معانيه؛ كان العلماء من أمته منحصرين في قسمين: أحدهما حفاظ الحديث وجهابذته، والقادة الذين هم أئمة الأنام وزوامل الإسلام، الذين حفظوا على الأئمة معاقد الدين ومعاقله، وحموا من التغيير والتكدير موارده ومناهله، حتى ورد من سبقت له من اللَّه الحسنى تلك المناهل صافية من الأدناس، لم تشبها الآراء تغييرا، ووردوا فيها عينا يشرب بها عباد اللَّه يفجرونها تفجيرا، وهم الذين قال فيهم الإمام أحمد بن حنبل في خطبته المشهورة في كتابه: في (الرد على الزنادقة والجهمية): (الحمد لله الذي جعل في كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم يدعون من ضل إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى، يحيون بكتاب اللَّه تعالى الموتى، ويبصرون بنور اللَّه أهل العمى، فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه، وكم من ضال تائه قد هدوه، فما أحسن أثرهم على الناس! وما أقبح أثر الناس عليهم! ينفون عن كتاب اللَّه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، الذين عقدوا ألوية البدعة، وأطلقوا عنان الفتنة، فهم مختلفون في الكتاب، مخالفون للكتاب، مجمعون على مفارقة الكتاب، يقولون على اللَّه وفي اللَّه وفي كتاب اللَّه بغير علم، يتكلمون بالمتشابه من الكلام، ويخدعون جهال الناس بما يشبهون عليهم؛ فنعوذ باللَّه من فتنة المضلين.

فصل: القسم الثاني فهاء الإسلام ومن دارت الفتيا على أقوالهم بين الأنام الذين خصوا باستنباط الأحكام، وعنوا بضبط قواعد الحلال والحرام، فهم في الأرض بمنزلة النجوم في السماء، بهم يهتدي الحيران في الظلماء وحاجة الناس إليهم أعظم من حاجتهم إلى الطعام والشراب، وطاعتهم أفرض عليهم من طاعة الأمهات والآباء بنص الكتاب، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩]»[١].

وقال: «قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ

(١) الإعلام (١/ ٨-١٠). (٢) فصلت: الآية (٣٣).

أَتَّبَعَنِيۖ﴾، وسواء كان المعنى: أنا ومن اتبعني يدعو إلى اللَّه على بصيرة، أو كان الوقف عند قوله: ﴿أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾ ثم يبتدئ ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾، فالقولان متلازمان؛ فإنه أمره سبحانه أن يخبر أن سبيله الدعوة إلى اللَّه، فمن دعا إلى اللَّه تعالى؛ فهو على سبيل رسوله ﷺ، وهو على بصيرة، وهو من أتباعه، ومن دعا إلى غير ذلك؛ فليس على سبيله، ولا هو على بصيرة ولا هو من أتباعه.

فالدعوة إلى اللَّه تعالى هي وظيفة المرسلين وأتباعهم، وهم خلفاء الرسل في أممهم، والناس تبع لهم؛ واللَّه سبحانه قد أمر رسوله ﷺ أن يبلغ ما أنزل إليه، وضمن له حفظه وعصمته من الناس، وهكذا المبلغون عنه من أمته؛ لهم من حفظ اللَّه وعصمته إياهم بحسب قيامهم بدينه وتبليغهم له، وقد أمر النبي ﷺ بالتبليغ عنه ولو آية[١]، ودعا لمن بلغ عنه ولو حديثا[٢]، وتبليغ سنته ﷺ إلى الأمة أفضل من تبليغ السهام إلى نحور العدو، لأن ذلك التبليغ يفعله كثير من الناس، وأما تبليغ السنن؛ فلا يقوم به إلا ورثة الأنبياء وخلفاؤهم في أممهم -جعلنا اللَّه تعالى منهم بمنه وكرمه-»[٣].

وقال: «وسواء كان المعنى: أنا ومن اتبعني على بصيرة، وأنا أدعو إلى اللَّه، أو المعنى: أدعو إلى اللَّه على بصيرة، فالقولان متلازمان؛ فإنه لا يكون من أتباعه حقا إلا من دعا على بصيرة، كما كان متبوعه يفعل.

فهؤلاء خلفاء الرسل حقا، وورثتهم دون الناس، وهم أولو العلم الذين قاموا بما جاء به علما وعملا، وهداية وإرشادا وصبرا وجهادا، هؤلاء هم الصديقون، وهم أفضل أتباع الأنبياء، ورأسهم وإمامهم الصديق الأكبر أبو بكر رضي اللَّه عنه»[٤].

وقال القاسمي: «دل قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ على مزية هذا الدين الحنيف،

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ١٥٩) والبخاري (٦/ ٦١٤/ ٣٤٦١) والترمذي (٥/ ٣٩/ ٢٦٦٩) عن عبد اللَّه بن عمرو بن العاص رضي الله عنه.

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٤٣٧) والترمذي (٥/ ٣٣/ ٢٦٥٧) وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجه (١/ ٨٥/ ٢٣٢)، وصححه ابن حبان (١/ ٢٦٨/ ٦٦) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: «سمعت النبي ﷺ يقول: «نضر اللَّه امرأ سمع منا شيئا فبلغه كما سمع، فرب مبلَّغ أوعى من سامع»».

(٣) جلاء الأفهام (ص: ٥٨١-٥٨٢).

(٤) مفتاح دار السعادة (١/ ٢٩٣).

ونهجه الذي انفرد به ، وهو أنه لم يطلب التسليم به لمجرد أنه جاء بحكايته ، ولكنه ادعى وبرهن وحكى مذاهب المخالفين ، وكر عليها بالحجة ، وخاطب العقل ، واستنهض الفكر ، وعرض نظام الأكوان ، وما فيها من الإحكام والإتقان ، على أنظار العقول ، وطالبها بالإمعان فيها لتصل بذلك إلى اليقين ، بصحة ما ادعاه ودعا إليه . .

دلت الآية على أن سيرة أتباعه ﷺ ، الدعوة إلى اللَّه .

قال الرازي : كل من ذكر الحجة ، وأجاب عن الشبهة ، فقد دعا بمقدار وسعه إلى اللَّه ، وهذا يدل على أن الدعاء إلى اللَّه تعالى إنما يحسن ويجوز مع هذا الشرط : وهو أن يكون على بصيرة مما يقول ، وعلى هدى ويقين ، فإن لم يكن كذلك ؛ فهو محض الغرور . انتهى .

ولا يخفى أن الدعوة إلى اللَّه إنما هي بنشر مطالب الدين ، وإذاعة آدابه وتعليمه .

قال بعضهم : ينبغي للعالم أن يكون حديثه مع العامة -في حال مخالطته ومجالسته لهم- في بيان الواجبات والمحرمات ، ونوافل الطاعات ، وذكر الثواب والعقاب على الإحسان والإساءة ، ويكون كلامه معهم بعبارة قريبة واضحة يعرفونها ويفهمونها ، ويزيد بيانا للأمور التي يعلم أنهم ملابسون لها ، ولا يسكت حتى يسأل عن شيء من العلم ، وهو يعلم أنهم محتاجون إليه ومضطرون إليه ، فإن علمه بذلك سؤال منهم بلسان الحال . والعامة قد غلب عليهم التساهل بأمر الدين علما وعملا ، فلا ينبغي للعلماء أن يساعدوهم على ذلك بالسكوت عن تعليمهم وإرشادهم ؛ فيعم الهلاك ويعظم البلاء . وقلما تختبر عاميا -وأكثر الناس عامة- إلا وجدته جاهلا بالواجبات والمحرمات ، وبأمور الدين التي لا يجوز ولا يسوغ الجهل بشيء منها ، وإن لم يوجد جاهلا بالكل ؛ وجد جاهلا بالبعض . وإن علم شيئًا من ذلك ؛ وجدت علمه به علما مسموعا من ألسنة الناس ، لو أردت أن تقلبه له جهلا فعلت ذلك بأيسر مؤونة ، لعدم الأصل والصحة فيما يعلمه . وعلى الجملة : فيتأكد على العلماء أن يجالسوا الناس بالعلم ، ويحدثوهم به ويبثوه لهم ، ويكون كلام العالم معهم في بيان الأمر الذي جاؤوا من أجله . مثل ما إذا جاءوا لعقد نكاح ، يكون كلامه معهم فيما يتعلق بحقوق النساء من الصداق والنفقة والمعاشرة بالمعروف ، أو لعقد بيع ؛ يكون كلامه في صحيح البيوع وآدابها ، وفوائد التجارة

النافعة، واجتناب الغش والخداع وهكذا. ولا ينبغي للعالم أن يخوض مع الخائضين، ولا أن يصرف شيئًا من أوقاته في غير إقامة الدين. وبالسكوت عن التذكير والتعليم؛ يغلب الفساد ويعم الضرر، ولا حول ولا قوة إلا بالله»[1].

قلت: مما تقدم من كلام المشايخ ولاسيما شيخ الإسلام وتلميذه ابن القيم في الدعوة إلى اللَّه يتلخص لنا ما يأتي:

- الدعوة إلى اللَّه هي البلاغ عن اللَّه وعن رسوله ﷺ، وبلاغ القرآن بكل آياته وسوره ومعانيه، ودراسة علومه وكل ما من شأنه أن يكون خدمة له لغة وفقها وفهما، وكذلك دراسة سنته من حيث متونها وأسانيدها ومصنفاتها وإبلاغها إلى كل من يستطيع أن يبلغها إليه، والذب عنها والدفاع عنها بكل ما أوتيه الإنسان من جهد وإمكانيات.

- الدعوة إلى اتباع النبي ﷺ وحصر المتابعة فيه، وأن كل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا هو ﷺ، فلا يتم إيمان المؤمن إلا باعتقاد وجوب متابعته ﷺ، وهو الذي سطره العلماء في كتبهم تحت عنوان (الاعتصام).

- الاجتهاد في ربط الناس فيما يخص السنن العملية بنصوص الكتاب والسنة.

- استغلال كل الوسائل المعاصرة في البلاغ، ولا يجوز التخلف عن دعم وسيلة من هذه الوسائل التي تبلغ للناس دينهم؛ كالتأليف وبناء المدارس والمعاهد وتأسيس المجلات والجرائد اليومية والمواقع الإلكترونية وفتح القنوات الفضائية.

- الدعوة إلى اللَّه يمكن أن تصل إلى الناس من عدة جهات وقنوات؛ فالأب والأم في بيتهما، والمدرس في مدرسته، والمفتي في فتواه، والقاضي في محكمته، والإمام في مسجده، والإمام الأكبر في سياسته، والقائد العسكري في قيادته، والتاجر في تجارته، والفلاح في فلاحته... وهكذا تجد الدعوة إلى اللَّه لا حد لها ولا نهاية، لكن التخصص العلمي يحتاج إلى تفرغ وزيادة عناية، أما البلاغ فهو أمانة يتحملها كل فرد من الأمة، وكل داعية إلى اللَّه كما هو نص الآية يجب أن يدعو بعلم وحكمة وبصيرة، وبكل ما يؤتاه العبد من إمكانيات، فنرجو اللَّه

---

(١) محاسن التأويل (٩/ ٢٩٥-٢٩٦).

أن يجعلنا ممن له نصيب في هذه الدعوة المباركة.

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الدعوة إلى الله

* عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول اللَّه ﷺ لمعاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن: **«إنك ستأتي قومًا أهل كتاب، فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا اللَّه وأن محمدا رسول اللَّه، فإن هم أطاعوا لك بذلك؛ فأخبرهم أن اللَّه قد فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لك بذلك؛ فأخبرهم أن اللَّه قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإن هم أطاعوا لك بذلك؛ فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينها وبين اللَّه حجاب»**[1].

★ فوائد الحديث:

قوله ﷺ: **«فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا اللَّه وأن محمدًا رسول الله»**:

قال القاضي: «هذا يدل على أنهم غير عارفين باللَّه تعالى، وهو مذهب حذاق المتكلمين في اليهود والنصارى، أنهم غير عارفين باللَّه تعالى، وإن كانوا يعبدونه ويظهرون معرفته، لدلالة السمع عندهم على هذا، وإن كان العقل لا يمنع أن يعرف اللَّه تعالى من كذب رسوله وظنه ساحرًا ومخرفًا؛ لأنهما معلومان لا يشترط ارتباط كل واحد منها بالآخر، ودلالة السمع الواردة بالمنع عند هؤلاء، مع ما ورد من الظواهر المخالفة لها؛ مستقصاة في أصول الديانات».

وقال: «ما عرف اللَّه تعالى من شبهه وجسمه من اليهود، وأجاز عليه البداء، وأضاف إليه الولد منهم، أو أضاف إليه الصاحبة والولد، أو أجاز الحلول عليه والانتقال والامتزاج من النصارى، أو وصفه بما لا يليق به، أو أضاف إليه الشريك والمعاند في خلقه وملكه من المجوس والثنوية، فمعبودهم الذي عبدوه ليس باللَّه، وإن سموه به؛ إذ ليس موصوفا بصفات الإله الواجبة له، فإذا ما عرفوا اللَّه ولا عبدوه، فتحقق هذه النكتة واعتمد عليها، وقد رأيت معناها لمتقدمي أشياخنا،

---

(١) رواه: أحمد (١/ ٢٣٣)، والبخاري (٣/ ٤٥٥/ ١٤٩٦)، ومسلم (١/ ٥٠-٥١/ ١٩)، وأبو داود (٢/ ٢٤٢-٢٤٣/ ١٥٨٤)، والترمذي (٣/ ٢١/ ٦٢٥)، والنسائي (٥/ ٥٨-٥٩/ ٢٥٢١)، وابن ماجه (١/ ٥٦٨/ ١٧٨٣).

وبها قطع الكلام أبو عمران الفاسي بين عامة أهل القيروان عند تنازعهم في هذه المسألة.

وفي قوله ﷺ لمعاذ دليل بين ألا يطالب أحدا بفروع الشريعة إلا بعد ثبات الإيمان، وحجة لمن يقول: إن الكفار غير مخاطبين بفروع الشريعة؛ لقوله: **«فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة اللَّه، فإذا عرفوا اللَّه فأخبرهم أن اللَّه فرض عليهم خمس صلوات»**.

وفي الرواية الأخرى: **«فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا اللَّه وأني رسول اللَّه، فإن هم أطاعوا لذلك؛ فأعلمهم أن اللَّه افترض عليهم خمس صلوات..»**. وقد يحتج من يقول بالقول الآخر: بأن هذا على تقديم الآكد في التعليم، ألا تراه كيف رتب ذلك في الفروع، وبدا بعضها على بعض؟!.

وفيه بيان لا إله إلا اللَّه محمد رسول اللَّه.

وفيه ترتيب الفروض في التأكيد، وتبدية حقوق الإيمان على حقوق الأموال.

وفيه دليل على أن الإيمان لا يصح إلا بالمعرفة وانشراح الصدر، ولا يكفي فيه نطق اللسان كما تقوله الجهمية، ولا التقليد المجرد كما يظنه الجهلة»[١].

قال الحافظ: «وأما إسماعيل بن أمية ففي رواية بن روح بن القاسم عنه: «فأول ما تدعوهم إلى عبادة الله» وفي رواية الفضل بن العلاء عن إسماعيل أيضًا: «إلى أن يوحدوا الله».

ويجمع بينها بأن المراد بعبادة اللَّه توحيده، وبتوحيده الشهادة له بذلك، ولنبيه بالرسالة. ووقعت البداءة بهما لأنهما أصل الدين الذي لا يصح شيء غيرهما إلا بهما، فمن كان منهم غير موحد؛ فالمطالبة متوجهة إليه بكل واحدة من الشهادتين على التعيين، ومن كان موحدا فالمطالبة له بالجمع بين الإقرار بالوحدانية والإقرار بالرسالة»[٢].

قال في «تيسير العزيز الحميد»: «وإذا أراد الدعوة؛ فليبدأ بالدعوة إلى التوحيد الذي هو معنى شهادة أن لا إله إلا اللَّه، إذ لا تصح الأعمال إلا به، فهو أصلها

---

(١) الإكمال (١/ ٢٣٨-٢٤٠).

(٢) الفتح (٣/ ٤٥٧).

الذي تبنى عليه، ومتى لم يوجد لم ينفع العمل، بل هو حابط؛ إذ لا تصح العبادة مع الشرك، كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ شَـٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ أُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَـٰلِدُونَ﴾[1]، ولأن معرفة معنى هذه الشهادة هو أول واجب على العباد، فكان أول ما يبدأ به في الدعوة»[2].

وقال: «ومعنى الإيمان بالله: هو إفراده بالعبادة التي تتضمن غاية الحب بغاية الذل والانقياد لأمره، وهذا هو الإيمان باللَّه المستلزم للإيمان بالرسل ﷺ، المستلزم لإخلاص العبادة لله تعالى، وذلك هو توحيد اللَّه تعالى، ودينه الحق المستلزم للعلم النافع، والعمل الصالح، وهو حقيقة شهادة أن لا إله إلا اللَّه، وحقيقة المعرفة باللَّه، وحقيقة عبادته وحده لا شريك له.

فلله ما أفقه من روى هذا الحديث بهذه الألفاظ المختلفة لفظا المتفقة معنى!، فعرفوا أن المراد من شهادة أن لا إله إلا الله؛ هو الإقرار بها علما ونطقا وعملا، خلافا لما يظنه بعض الجهال أن المراد من هذه الكلمة هو مجرد النطق بها، أو الإقرار بوجود اللَّه، أو ملكه لكل شيء من غير شريك، فإن هذا القدر قد عرفه عباد الأوثان وأقروا به، فضلا عن أهل الكتاب، ولو كان كذلك لم يحتاجوا إلى الدعوة إليه.

وفيه دليل على أن التوحيد الذي هو إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، وترك عبادة ما سواه هو أول واجب، فلهذا كان أول ما دعت إليه الرسل ﷺ، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾[3].

وقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ﴾[4].

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وقد علم بالاضطرار من دين الرسول ﷺ، واتفقت عليه الأمة؛ أن أصل الإسلام وأول ما يؤمر به الخلق، شهادة أن لا إله إلا اللَّه وأن محمدا رسول اللَّه، فبذلك يصير الكافر مسلما، والعدو وليا، والمباح دمه وماله معصوم الدم والمال، ثم إن كان ذلك من قلبه، فقد دخل في الإيمان؛ وإن قاله بلسانه دون قلبه؛ فهو في ظاهر الإسلام دون باطن الإيمان. وفيه البداءة في الدعوة

---

(١) التوبة: الآية (١٧).

(٢) تيسير العزيز الحميد (ص: ١١٥).

(٣) الأنبياء: الآية (٢٥).

(٤) النحل: الآية (٣٦).

والتعليم بالأهم فالأهم، واستدل به من قال من العلماء: إنه لا يشترط في صحة الإسلام النطق بالتبري من كل دين يخالف دين الإسلام، لأن اعتقاد الشهادتين يستلزم ذلك، وفي ذلك تفصيل.

وفيه: أنه لا يحكم بإسلام الكافر إلا بالنطق بالشهادتين. قال شيخ الإسلام: فأما الشهادتان إذا لم يتكلم بهما مع القدرة فهو كافر باتفاق المسلمين، وهو كافر باطنا وظاهرا؛ عند سلف الأمة وأئمتها وجماهير علمائها. قلت: هذا واللَّه أعلم فيمن لا يقر بهما أو بإحداهما، أما من كفره مع الإقرار بهما ففيه بحث، والظاهر أن إسلامه هو توبته عما كفر به.

وفيه: أن الإنسان قد يكون قارئا عالما وهو لا يعرف معنى لا إله إلا اللَّه، أو يعرفه ولا يعمل به..

وقال بعضهم: هذا الذي أمر به النبي ﷺ معاذا، هو الدعوة قبل القتال التي كان يوصي بها النبي ﷺ أمراءه. قلت: فعلى هذا فيه استحباب الدعوة قبل القتال لمن بلغته الدعوة، أما من لم تبلغه فتجب دعوته»[1].

* * *

(١) تيسير العزيز الحميد (ص: ١١٨-١١٩).

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يخبر تعالى أنه إنما أرسل رسله من الرجال لا من النساء، وهذا قول جمهور العلماء، كما دل عليه سياق هذه الآية الكريمة: أن اللّه تعالى لم يوح إلى امرأة من بنات بني آدم وحي تشريع. وزعم بعضهم: أن سارة امرأة الخليل وأم موسى ومريم بنت عمران أم عيسى نبيات، واحتجوا بأن الملائكة بشرت سارة بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب، وبقوله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ﴾[1] الآية؛ وبأن الملك جاء إلى مريم فبشرها بعيسى عليه السلام، وبقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾[2]، وهذا القدر حاصل لهن، ولكن لا يلزم من هذا أن يكن نبيات بذلك، فإن أراد القائل بنبوتهن هذا القدر من التشريف؛ فهذا لا شك فيه، ويبقى الكلام معه في أن هذا هل يكفي في الانتظام في سلك النبوة بمجرده أم لا؟ الذي عليه أهل السنة والجماعة، وهو الذي نقله الشيخ أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري عنهم: أنه ليس في النساء نبية، وإنما فيهن صديقات، كما قال تعالى مخبرا عن أشرفهن مريم بنت عمران حيث قال تعالى: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ﴾[3] فوصفها في أشرف مقاماتها بالصديقية، فلو كانت نبية لذكر ذلك في مقام التشريف والإعظام، فهي صديقة بنص القرآن.

---

(١) القصص: الآية (٧).

(٢) آل عمران: الآيتان (٤٢ و ٤٣).

(٣) المائدة: الآية (٧٥).

وقال الضحاك عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا﴾ الآية؛ أي: ليسوا من أهل السماء كما قلتم، وهذا القول من ابن عباس يعتضد بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ﴾[1] الآية؛ وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلۡنَٰهُمۡ جَسَدٗا لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ ۝٨ ثُمَّ صَدَقۡنَٰهُمُ ٱلۡوَعۡدَ فَأَنجَيۡنَٰهُمۡ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهۡلَكۡنَا ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾[2]. وقوله تعالى: ﴿قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾[3] الآية. وقوله: ﴿مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ﴾ المراد بالقرى المدن لا أنهم من أهل البوادي الذين هم من أجفى الناس طباعا وأخلاقا، وهذا هو المعهود المعروف أن أهل المدن أرق طباعا والطف من أهل بواديهم، وأهل الريف والسواد أقرب حالا من الذين يسكنون في البوادي، ولهذا قال تعالى: ﴿ٱلۡأَعۡرَابُ أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا﴾[4] الآية. وقال قتادة في قوله: ﴿مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ﴾ لأنهم أعلم وأحلم من أهل العمود..

وقوله: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ يعني هؤلاء المكذبين لك يا محمد في الأرض ﴿فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ﴾ أي: من الأمم المكذبة للرسل، كيف دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها، كقوله: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ﴾[5] الآية؛ فإذا استمعوا خبر ذلك رأوا أن الله قد أهلك الكافرين ونجى المؤمنين، وهذه كانت سنته تعالى في خلقه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۚ﴾ أي: وكما نجينا المؤمنين في الدنيا؛ كذلك كتبنا لهم النجاة في الدار الآخرة، وهي خير لهم من الدنيا بكثير، كقوله: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ۝٥١ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعۡذِرَتُهُمۡۖ وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾[6]»[7].

وقال أبو حيان: «قال ابن زيد: أهلُ القرى أعلم وأحلم من أهل البادية، فإنهم قليل نبلهم، ولم ينشئ الله قط منهم رسولا، وقال الحسن: لم يبعث الله رسولا من أهل البادية، ولا من النساء ولا من الجن، والتبدي مكروه إلا في الفتن، ففي

---

(١) الفرقان: الآية (٢٠).
(٢) الأنبياء: الآيتان (٨ و ٩).
(٣) الأحقاف: الآية (٩).
(٤) التوبة: الآية (٩٧).
(٥) الحج: الآية (٤٦).
(٦) غافر: الآيتان (٥١ و ٥٢).
(٧) التفسير (٤/ ٥٩-٦٠).

الحديث: «من بدا جفا»[1]، ثم استفهم استفهام توبيخ وتقريع، والضمير في ﴿يَسِيرُواْ﴾ عائد على من أنكر إرسال الرسل من البشر، ومن عاند الرسول وأنكر رسالته كفر؛ أي: هلا يسيرون في الأرض، فيعلمون بالتواتر أخبار الرسل السابقة، ويرون مصارع الأمم المكذبة، فيعتبرون بذلك ﴿وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ هذا حض على العمل لدار الآخرة والاستعداد لها، واتقاء المهلكات»[2].

وقال الشوكاني: «هذا رد على من قال: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ﴾[3] أي: لم نبعث من الأنبياء إلى من قبلهم إلا رجالا لا ملائكة، فكيف ينكرون إرسالنا إياك. وتدل الآية على أن اللّٰه سبحانه لم يبعث نبيا من النساء ولا من الجن، وهذا يرد على من قال: إن في النساء أربع نبيات: حواء، وآسية، وأم موسى، ومريم، وقد كان بعثة الأنبياء من الرجال دون النساء أمرا معروفا عند العرب، حتى قال قيس بن عاصم في سجاح المتنبئة:

أضحت نبيتنا أنثى نطيف بها ... وأصبحت أنبياء اللّٰه ذكرانا

فلعنة اللّٰه والأقوام كلهم ... على سجاح ومن باللوم أغرانا

﴿نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم﴾ كما نوحي إليك ﴿مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ﴾ أي: المدائن دون أهل البادية؛ لغلبة الجفاء والقسوة على البدو، ولكون أهل الأمصار أتم عقلا وأكمل حلما وأجل فضلا ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ﴾ يعني المشركين المنكرين لنبوة محمد ﷺ: أي أفلم يسر المشركون هؤلاء فينظروا إلى مصارع الأمم الماضية، فيعتبروا بهم حتى ينزعوا عما هم فيه من التكذيب ﴿وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۚ﴾ أي: لدار الساعة الآخرة، أو الحالة الآخرة على حذف الموصوف. والمراد بهذه الدار: الجنة: أي هي خير للمتقين من دار الدنيا»[4].

---

(١) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أحمد (٢/ ٣٧١)، وأبو داود (٣/ ٢٧٨/ ٢٨٦٠) مختصرا، والبزار كما في الكشف (٢/ ٢٤٥/ ١٦١٨). قال الهيثمي في المجمع (٥/ ٢٤٦): «رواه أحمد والبزار وأحد إسنادي أحمد رجاله رجال الصحيح خلا الحسن بن الحكم النخعي وهو ثقة». والحديث حسنه الشيخ الألباني في الصحيحة برقم (١٢٧٢).

(٢) البحر المحيط (٥/ ٣٤٦).

(٣) الأنعام: الآية (٨).

(٤) فتح القدير (٣/ ٨٤-٨٥).

وقال الخطيب: «وهذا رد على المشركين الذين ينكرون على النبي أن يؤذن فيهم بكلمات اللَّه، وأن يدعوهم إلى اللَّه بما أوحى إليه من ربه. فقد صورت لهم أوهامهم المضلة: أن الرسول الذي يبعثه اللَّه، ينبغي أن يكون على غير شاكلة الناس، كأن يكون ملكا من السماء أو نحو هذا.

ولو أنهم نظروا إلى أبعد من مواقع أقدامهم، والتفتوا إلى ما حولهم؛ لرأوا أن رسل اللَّه جميعًا كانوا من البشر، وكانوا من أقوامهم وبلسانهم، ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ﴾[1].

وفي قوله تعالى: ﴿مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ﴾ إشارة إلى تلك القرى، التي يرى المشركون من قريش مخلفات من عمروها قبلهم من عاد وثمود، وإلى هذه القرى يشير اللَّه ﷻ بقوله: ﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا مَا حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡقُرَىٰ وَصَرَّفۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾[2].

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ﴾ هو إلفات لمشركي قريش، إلى تلك القرى التي يمرون عليها في طريقهم إلى الشام مع رحلة الصيف؛ فليقفوا قليلا على أطلالها، وليروا كيف كانت عاقبة الذين كذبوا برسل اللَّه، ولقد كانوا أشد منهم قوة وأكثر أموالا وأولادا، فما عصمتهم قوتهم من بأس اللَّه إذ جاءهم، وما أغنت عنهم أموالهم ولا أولادهم من اللَّه من شيء!.

قوله تعالى: ﴿وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۚ﴾، إنها العبرة التي يستخلصها العقلاء من الوقوف على أطلال هذه القرى الظالم أهلها، وإنها لتنطق بأن الحياة الدنيا متاع زائل، وزخرف حائل، وأن الدار الآخرة خير وأبقى للذين اتقوا ربهم، وتزودوا لتلك الدار بالعمل الصالح والتقوى.

وفي قوله: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ تقريع وتوبيخ لهؤلاء المشركين الضالين، الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا! فلقد عطلوا عقولهم، فلم يهتدوا بها إلى خير، ولم يتعرفوا بها على حق، فخسروا الدنيا والآخرة، ذلك هو الخسران المبين»[3].

---

(١) إبراهيم: الآية (٤).

(٢) الأحقاف: الآية (٢٧).

(٣) التفسير القرآني (٧/ ٥٨-٥٩).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في جفاء الأعراب وفظاظتهم وقساوة قلوبهم

* عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن أعرابيا وهب للنبي ﷺ هبة فأثابه عليها، قال: «رضيت؟» قال: لا، قال: فزاده. قال: «رضيت؟» قال: لا، قال: فزاده. قال: «رضيت؟»، قال: نعم. قال: فقال رسول اللَّه ﷺ: **«لقد هممت أن لا أتهب هبة؛ إلا من قرشي أو أنصاري أو ثقفي»**[(١)].

★ غريب الحديث:

لا أتهب: بتشديد التاء افتعال من الهبة؛ أي: لا أقبل الهبة إلا من هؤلاء لقلة طمعهم.

* عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن أعرابيا أهدى لرسول اللَّه ﷺ بكرة فعوضه منها ست بكرات فتسخطه، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فحمد اللَّه وأثنى عليه ثم قال: **«إن فلانًا أهدى إلي ناقة فعوضته منها ست بكرات، فظل ساخطا، ولقد هممت أن لا أقبل هدية إلا من قرشي أو أنصاري أو ثقفي أو دوسي»**[(٢)].

★ غريب الحديث:

بكرة: البكر بالفتح: الفتي من الإبل بمنزلة الغلام من الناس، والأنثى بكرة.

★ فوائد الحديثين:

قال شيخ الإسلام: «وذلك أن اللَّه ﷻ جعل سكنى القرى يقتضي من كمال الإنسان في العلم والدين ورقة القلوب مالا يقتضيه سكنى البادية، كما أن البادية توجب من صلابة البدن والخَلْق ومتانة الكلام مالا يكون في القرى، هذا هو

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٢٩٥) واللفظ له، والطبراني (١١/ ١٨/ ١٠٨٩٧)، والبزار (كشف الأستار ٢/ ٣٩٤- ٣٩٥/ ١٩٣٨)، وأورده الهيثمي في المجمع (٤/ ١٤٨) وقال: «رواه أحمد والبزار والطبراني في الكبير ورجال أحمد رجال الصحيح». وصححه ابن حبان (الإحسان ١٤/ ٢٩٦/ ٦٣٨٤).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٩٢)، والبخاري في الأدب المفرد (٥٩٦)، وأبو داود (٣/ ٨٠٧/ ٣٥٣٧)، والترمذي (٥/ ٦٨٦/ ٣٩٤٥) واللفظ له، والنسائي (٦/ ٥٩٥/ ٣٧٦٨)، وصححه ابن حبان (الإحسان ١٤/ ٢٩٥/ ٦٣٨٣) والحاكم (٢/ ٦٣-٦٣) ووافقه الذهبي.

الأصل، وإن جاز تخلف هذا المقتضى لمانع، وكانت البادية أحيانا أنفع من القرى، ولذلك جعل اللّه الرسل من أهل القرى فقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ﴾ وذلك لأن الرسل لهم الكمال في عامة الأمور حتى في النسب، ولهذا قال اللّه سبحانه: ﴿ٱلۡأَعۡرَابُ أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا وَأَجۡدَرُ أَلَّا يَعۡلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾[1]»[2].

قال الطيبي: «قوله «لقد هممت أن لا أقبل» -قال التوربشتي-: كره قبول الهدية ممن كان الباعث له عليها طلب الاستكثار، وإنما خص المذكورين فيه بهذه الفضيلة؛ لما عرف منهم من سخاوة النفس وعلو الهمة وقطع النظر عن الأعواض - انتهى كلامه. اعلم أن هذه الخصلة من رذائل الأخلاق وأخبثها، ولذلك عرض رسول اللّه ﷺ بالقبائل بحسن أخلاقها، أن قبيلة هذا الأعرابي على خلافها، ونهى اللّه سبحانه حبيبه ﷺ عنها في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ﴾[3]»[4].

* * *

(١) التوبة: الآية (٩٧).
(٢) اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٣٦٦-٣٦٧).
(٣) المدثر: الآية (٦).
(٤) شرح الطيبي (٧/ ٢٢٣٠).

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾﴾

★ **غريب الآية:**

حتى إذا استيأس الرسل: «استيأس استفعل من اليأس ضد الرجاء.

قال أبو عبيدة في قوله: ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ﴾: استفعلوا من يئست ومثله في هذه الآية. وليس مراده باستفعل إلا الوزن خاصة، وإلا فالسين والتاء زائدتان، واستيأس بمعنى يئس كاستعجب وعجب، وفرق بينهما الزمخشري: بأن الزيادة تقع في مثل هذا للتنبيه على المبالغة في ذلك الفعل. واختلف فيما تعلقت به الغاية من قوله: ﴿حَتَّىٰٓ﴾ فاتفقوا على أنه محذوف، فقيل: التقدير ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم﴾ فتراخى النصر عنهم، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا﴾ وقيل: التقدير فلم تعاقب أممهم حتى إذا. وقيل: فدعوا قومهم فكذبوهم فطال ذلك حتى إذا»[(١)].

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال القرطبي: «وهذه الآية فيها تنزيه الأنبياء وعصمتهم عما لا يليق بهم. وهذا الباب عظيم، وخطره جسيم، ينبغي الوقوف عليه لئلا يزل الإنسان فيكون في سواء الجحيم. المعنى: وما أرسلنا قبلك يا محمد إلا رجالا ثم لم نعاقب أممهم بالعذاب. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾ أي: يئسوا من إيمان قومهم. ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا۟﴾ بالتشديد؛ أي: أيقنوا أن قومهم كذبوهم. وقيل المعنى: حسبوا أن من آمن بهم من قومهم كذبوهم، لا أن القوم كذبوا، ولكن الأنبياء ظنوا وحسبوا أنهم يكذبونهم؛ أي: خافوا أن يدخل قلوب أتباعهم شك؛ فيكون ﴿وَظَنُّوٓا۟﴾ على بابه في هذا التأويل»[(٢)].

---

(١) الفتح (٨/ ٤٦٨).

(٢) الجامع (٩/ ٢٧٥).

وقال أبو السعود: «﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾ غاية لمحذوف دل عليه السياق؛ أي: لا يغرنهم تماديهم فيما هم فيه من الدعة والرخاء، فإن من قبلهم قد أمهلوا حتى أيس الرسل عن النصر عليهم في الدنيا، أو عن إيمانهم لانهماكهم في الكفر وتماديهم في الطغيان من غير وازع، ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ﴾ كذبتهم أنفسهم حين حدثتهم بأنهم ينصرون عليهم، أو كذبهم رجاؤهم فإنه يوصف بالصدق والكذب، والمعنى: إن مدة التكذيب والعداوة من الكفار وانتظار النصر من اللّٰه تعالى؛ قد تطاولت وتمادت حتى استشعروا القنوط، وتوهموا أن لا نصر لهم في الدنيا ﴿جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا﴾ فجأة. وعن ابن عباس رضي اللّٰه تعالى عنهما: وظنوا أنهم قد أخلفوا ما وعدهم اللّٰه من النصر. فإن صح ذلك عنه فلعله أراد بالظن ما يخطر بالبال من شبه الوسوسة وحديث النفس، وإنما عبر عنه بالظن تهويلا للخطب، وأما الظن الذي هو ترجح أحد الجانبين على الآخر؛ فلا يتصور ذلك من آحاد الأمة، فما ظنك بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام وهم هم! ومنزلتهم في معرفة شئون اللّٰه سبحانه منزلتهم. وقيل: الضميران للمرسل إليهم. وقيل: الأول لهم والثاني للرسل. وقرئ بالتشديد أي: ظن الرسل أن القوم كذبوهم فيما أوعدوهم. وقرئ بالتخفيف على بناء الفاعل على أن الضميرين للرسل؛ أي: ظنوا أنهم كذبوا عند قومهم فيما حدثوا به، لما تراخى عنهم ولم يروا له أثرا، أو على أن الأول لقومهم. ﴿فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُ﴾ هم الرسل والمؤمنون بهم. . ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ إذا نزل بهم. وفيه بيان لمن تعلق بهم المشيئة»[1].

وقال المراغي: «وهذه سنة اللّٰه في الأمم، يرسل إليهم الرسل بالبينات، ويؤيدهم بالمعجزات، حتى إذا أعرضوا عن الهداية، وعاندوا رسل ربهم، وامتدت مدة كيدهم وعدوانهم، واشتد البلاء على الرسل واستشعروا بالقنوط من تمادي التكذيب وتراخي النصر؛ جاءهم نصر اللّٰه فجأة، وأخذ المكذبين العذاب بغتة، كالطوفان الذي أغرق قوم نوح، والريح التي أهلكت عادا قوم هود، والصيحة التي أخذت ثمود، والخسف الذي نزل بقرى قوم لوط وهم فيها كما قال: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِهِمۡ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَقَوۡمِ إِبۡرَٰهِيمَ وَأَصۡحَٰبِ مَدۡيَنَ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتِ

(١) تفسير أبي السعود (٤/ ٣١٠-٣١١).

أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[١].

وفي هذا تذكير لكفار قريش: بأن سنته تعالى في عباده واحدة لا ظلم فيها ولا محاباة، وأنهم إن لم ينيبوا إلى ربهم حل بهم من العذاب ما حل بأمثالهم من أقوام الرسل؛ كما قال في سورة (القمر): ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ﴾[٢]. وقد نصر اللَّه نبيه ﷺ في غزوة بدر وما بعدها من الغزوات، وأهلك الجاحدين المعاندين من قومه..

﴿فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ﴾ أي: فنجي الرسل ومن آمن بهم من أقوامهم، لأنهم بحسب ما وضع اللَّه من تأثير الأعمال في طهارة النفوس وزكائها؛ هم الذين يستحقون النجاة دون غيرهم كما قال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[٣].

﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: ولا يمنع عقابنا وبطشنا عن القوم الذين أجرموا فكفروا باللَّه وكذبوا رسله، وما أتوهم به من عند ربهم.

وقد جرت سنة اللَّه أن يبلغ الرسل أقوامهم، ويقيموا عليهم الحجة وينذروهم سوء عاقبة الكفر والتكذيب، فيؤمن المهتدون، ويصر المعاندون، فينجي اللَّه الرسل ومن آمن من أقوامهم ويهلك المكذبين.

ولا يخفى ما في الآية من التهديد والوعيد لكفار قريش ومن على شاكلتهم من المعاصرين للنبي ﷺ»[٤].

وقال الخطيب: «إن مهمة الرسل هي الوقوف في وجه هذا الظلام الزاحف، والتصدي لتلك القوى العاتية من قوى الشر والعدوان، وأنهم مطالبون بأن يثبتوا، ويصبروا، ويصابروا. فإن نصر اللَّه آت لا ريب فيه، وهكذا يظل الرسل في متلاطم الشدائد والمحن، حتى لقد يدخل اليأس عليهم، وتغيم الحياة في أعينهم، ويغم عليهم طريق النجاة، ويخيل إليهم أن النصر أبعد ما يكون منهم، عندئذ تهب ريح النصر، وتطلع عليهم تباشير الصباح، فتطوي جحافل الظلام وتطارد فلوله؛ وإذا

---

(١) التوبة: الآية (٧٠).

(٢) القمر: الآية (٤٣).

(٣) الشمس: الآيتان (٩ و ١٠).

(٤) تفسير المراغي (١٣/ ٥٥-٥٦).

دولة الباطل قد ذهبت، وذهبت آثارها، وإذا راية الحق قد علت، وخفقت أعلامها.

وفي هذا تسلية للنبي الكريم، وشحذ لعزيمته، وتثبيت لقدمه، وتطمين لقلبه، وتأكيد للوعد الذي وعد به من ربه في قوله تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[1].

هذا، وليس في استيئاس الرسل، وفي إطافة الظنون بهم، وبأنهم قد كذبوا؛ ليس في هذا ما ينقص من قدر الرسل، أو يشكك في كمال إيمانهم بربهم، واستيقانهم من صدق وعده، فهم على يقين راسخ بما وعدهم اللّه به، ولكن هناك مواقف حادة من الضيق، وأحوال بالغة من الشدة، تأخذ على الإنسان تقديره وتدبيره، وتمثل له الحقائق المحسوسة التي عايشها، ونزلت من عقله منزل اليقين، وقد قلبت أوضاعها وتبدلت حقائقها؛ عندئذ وللحظة عابرة عبور الطيف، يخون الإنسان يقينه، ويفلت منه زمام أمره. ثم يعود إلى موقفه أشد تثبتا، وأقوى يقينا وأرسخ قدما، إنها سحابة صيف، تغشى وجه الشمس، ثم لا تلبث حتى نزول، وتسفر الشمس عن وجه أبهى بهاء، وأضوأ ضوءا، وأصفى صفاء مما كانت عليه قبل أن تمر بها تلك السحابة العابرة.

فتلك الحال التي تمثل الرسل في هذا الموقف، هي القمة التي تنتهي عندها طاقة الاحتمال البشري، في مصادمة الأحداث، ومدافعة الأهوال والشدائد. وهي قمة لا يبلغها إلا أولو العزم من رسل اللّه، حيث تكون الخطوة التالية بعدها انخلاعا من عالم البشر، إلى العالم العلويّ، وعندها تهب ريح النصر، وتجيء أمداد السماء.! وفي هذا ابتلاء للرسل، واستخلاص لكل ما عندهم من مذخور؛ من قوى الصبر والعزم والإيمان.

قوله تعالى: ﴿فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ إشارة إلى أن نصر اللّه الذي يحقق به لرسله ما وعدهم به، يحمل معه من الهلاك والبلاء للقوم المجرمين، فإن هذا النصر إنما يمشي على جثث أعداء الرسل، الذين حاربوهم هذه الحرب القاسية، ودفعوا بهم إلى تلك المآزق الحرجة، حتى لكادوا يفتنونهم في دينهم: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ

---

(١) المجادلة: الآية (٢١).

ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[١]»[٢].

وقال شيخ الإسلام: «فصل في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ الآية: قراءتان في هذه الآية؛ بالتخفيف والتثقيل. وكانت عائشة ﵂ تقرأ بالتثقيل وتنكر التخفيف، كما في الصحيح عن الزهري قال: أخبرني عروة عن عائشة قالت له -وهو يسألها عن قوله: ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟﴾ مخففة قالت- معاذ الله! لم تكن الرسل تظن ذلك بربها. قلت: فما هذا النصر؟ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾ بمن كذبهم من قومهم، وظنت الرسل أن أتباعهم قد كذبوهم؛ جاءهم نصر اللَّه عند ذلك، لعمري لقد استيقنوا أن قومهم كذبوهم فما هو بالظن. وفي الصحيح أيضًا عن ابن جريج سمعت ابن أبي مليكة يقول: (قال ابن عباس: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟﴾ خفيفة ذهب بها هنالك، وتلا: ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾[٣] فلقيت عروة فذكرت ذلك له، فقال: قالت عائشة: معاذ الله! واللَّه ما وعد اللَّه رسوله من شيء قط إلا علم أنه كائن قبل أن يكون؛ ولكن لم يزل البلاء بالرسل حتى ظنوا خافوا أن يكون من معهم يكذبهم؛ فكانت تقرؤها: ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا﴾ مثقلة). فعائشة جعلت ﴿إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾ من الكفار المكذبين، وظنهم التكذيب من المؤمنين بهم، ولكن القراءة الأخرى ثابتة لا يمكن إنكارها، وقد تأولها ابن عباس، وظاهر الكلام معه والآية التي تليها إنما فيها استبطاء النصر، وهو قولهم: ﴿مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ فإن هذه كلمة تبطئ لطلب التعجيل.

وقوله: ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟﴾ قد يكون مثل قوله: ﴿إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾[٤] والظن لا يراد به في الكتاب والسنة الاعتقاد الراجح، كما هو في اصطلاح طائفة من أهل الكلام في العلم، ويسمون الاعتقاد المرجوح وهما، بل قد قال النبي ﷺ: **«إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث»**[٥] وقد قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾[٦].

---

(١) التوبة: الآية (٣٢).
(٢) التفسير القرآني (٧/ ٦٠-٦١).
(٣) البقرة: الآية (٢١٤).
(٤) الحج: الآية (٥٢).
(٥) أخرجه: أحمد (٢/ ٥١٧)، والبخاري (١٠/ ٥٩٣/ ٦٠٦٦) ومسلم (٤/ ١٩٨٥/ ٢٥٦٣) وأبو داود (٥/ ٢١٦-٢١٧/ ٤٩١٧) والترمذي (٤/ ٣١٣/ ١٩٨٨) من حديث أبي هريرة ﵁.
(٦) النجم: الآية (٢٨).

فالاعتقاد المرجوح هو ظن وهو وهم، وهذا الباب قد يكون من حديث النفس المعفو عنه؛ كما قال النبي ﷺ: «**إن اللّه تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تكلم أو تعمل**»[١] وقد يكون من باب الوسوسة التي هي صريح الإيمان؛ كما ثبت في الصحيح: (أن الصحابة قالوا: يا رسول الله! إن أحدنا ليجد في نفسه ما لأن يحرق حتى يصير حممة، أو يخر من السماء إلى الأرض؛ أحب إليه من أن يتكلم به. قال: «**أوقد وجدتموه؟**» قالوا: نعم. قال: «**ذلك صريح الإيمان**»)[٢]. وفي حديث آخر: (إن أحدنا ليجد ما يتعاظم أن يتكلم به. قال: «الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة»)[٣]. فهذه الأمور التي هي تعرض ثلاثة أقسام: منها ما هو ذنب يضعف به الإيمان، وإن كان لا يزيله، واليقين في القلب له مراتب. ومنه ما هو عفو يعفى عن صاحبه. ومنه ما يكون يقترن به صريح الإيمان.

ونظير هذا: ما في الصحيح عن ابن شهاب عن سعيد بن المسيب وأبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبي هريرة قال: قال رسول اللّه ﷺ: «**يرحم اللّه لوطا! لقد كان يأوي إلى ركن شديد؛ ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي، ونحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال له ربه: ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾[٤]**»[٥]. وقد ترك البخاري ذكر قوله: «بالشك» لما خاف فيها من توهم بعض الناس.

ومعلوم أن إبراهيم كان مؤمنا كما أخبر اللّه عنه بقوله: ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ﴾ ولكن طلب طمأنينة قلبه كما قال: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ فالتفاوت بين الإيمان والاطمئنان؛ سماه النبي ﷺ شكا لذلك بإحياء الموتى، كذلك الوعد بالنصر في الدنيا؛ يكون الشخص مؤمنا بذلك، ولكن قد يضطرب قلبه فلا يطمئن، فيكون

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٩٣) والبخاري (٩/ ٤٨٥/ ٥٢٦٩) ومسلم (١/ ١١٦/ ١٢٧) وأبو داود (٢/ ٦٥٧-٦٥٨/ ٢٢٠٩) والترمذي (٣/ ٤٨٩/ ١١٨٣) والنسائي (٦/ ٤٦٩/ ٣٤٣٥) وابن ماجه (١/ ٦٥٨/ ٢٠٤٠) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٢٣٥) وأبو داود (٥/ ٣٣٦-٣٣٧/ ٥١١٢) والنسائي في الكبرى (٦/ ١٧١/ ١٠٥٠٣) وصححه ابن حبان (١/ ٣٦٠/ ١٤٧) عن ابن عباس ﷺ.

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٩٧) ومسلم (١/ ١١٩/ ١٣٢) وأبو داود (٥/ ٣٣٦/ ٥١١١) والنسائي في الكبرى (٦/ ١٧٠/ ١٠٥٠٠) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٤) البقرة: الآية (٢٦٠).

(٥) تقدم تخريجه تحت الآيتين (٣٣ و ٣٤).

فوات الاطمئنان ظنا أنه قد كذب، فالشك مظنة أنه يكون من باب واحد، وهذه الأمور لا تقدح في الإيمان الواجب، وإن كان فيها ما هو ذنب فالأنبياء ﷺ معصومون من الإقرار على ذلك، كما في أفعالهم على ما عرف من أصول السنة والحديث.

وفي قصص هذه الأمور عبرة للمؤمنين بهم، فإنهم لا بد أن يبتلوا بما هو أكثر من ذلك، ولا ييأسوا إذا ابتلوا بذلك، ويعلمون أنه قد ابتلي به من هو خير منهم، وكانت العاقبة إلى خير، فليتيقن المرتاب، ويتوب المذنب، ويقوى إيمان المؤمنين، فبها يصح الاتساء بالأنبياء كما في قوله: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾[1].

وفي القرآن من قصص المرسلين التي فيها تسلية وتثبيت؛ ليتأسى بهم في الصبر على ما كذبوا وأوذوا؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا﴾[2] ولنا لأنه أسوة في ذلك ما هو كثير في القرآن؛ ولهذا قال: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، وقال: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾[3]، وقال: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾[4]، ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾[5].

وإذا كان الاتساء بهم مشروعا في هذا وفي هذا؛ فمن المشروع التوبة من الذنب، والثقة بوعد اللَّه، وإن وقع في القلب ظن من الظنون، وطلب مزيد الآيات لطمأنينة القلوب، كما هو المناسب للاتساء والاقتداء دون ما كان المتبوع معصوما مطلقا. فيقول التابع: أنا لست من جنسه، فإنه لا يذكر بذنب، فإذا أذنب استيأس من المتابعة والاقتداء، لما أتى به من الذنب الذي يفسد المتابعة على القول بالعصمة، بخلاف ما إذا قيل: إن ذلك مجبور بالتوبة فإنه تصح معه المتابعة، كما قيل: أول من أذنب وأجرم ثم تاب وندم آدم أبو البشر، ومن أشبه أباه ما ظلم. واللَّه تعالى قص علينا قصص توبة الأنبياء لنقتدي بهم في المتاب، وأما ما ذكره سبحانه أن الاقتداء بهم في الأفعال التي أقروا عليها؛ فلم ينهوا عنها ولم يتوبوا منها، فهذا

---

(١) الأحزاب: الآية (٢١).
(٢) الأنعام: الآية (٣٤).
(٣) فصلت: الآية (٤٣).
(٤) الأحقاف: الآية (٣٥).
(٥) هود: الآية (١٢٠).

هو المشروع. فأما ما نهوا عنه وتابوا منه فليس بدون المنسوخ من أفعالهم، وإن كان ما أمروا به أبيح لهم ثم نسخ تنقطع فيه المتابعة؛ فما لم يؤمروا به أحرى وأولى.
وأيضًا فقوله: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ﴾ قد يكونون ظنوا في الموعود به ما ليس هو فيه بطريق الاجتهاد منهم؛ فتبين الأمر بخلافه، فهذا جائز عليهم كما سنبينه، فإذا ظن بالموعود به ما ليس هو فيه، ثم تبين الأمر بخلافه؛ ظن أن ذلك كذب وكان كذبا من جهة ظن في الخبر ما لا يجب أن يكون فيه. فأما الشك فيما يعلم أنه أخبر به، فهذا لا يكون. وسنوضح ذلك إن شاء الله تعالى.

ومما ينبغي أن يعلم أنه سبحانه ذكر هنا شيئين:

(أحدهما): استيئاس الرسل.

و(الثاني) ظن أنهم كذبوا. وقد ذكرنا لفظ: «الظن»، فأما لفظ ﴿ٱسْتَيْـَٔسُواْ﴾ فإنه قال سبحانه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾ ولم يقل يئس الرسل ولا ذكر ما استيأسوا منه، وهذا اللفظ قد ذكره في هذه السورة: ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ وقد يقال: الاستيئاس ليس هو الإياس؛ لوجوه:

أحدها: أن إخوة يوسف لم ييأسوا منه بالكلية، فإن قول كبيرهم: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾؛ دليل على أنه يرجو أن يحكم الله له، وحكمه هنا لا بد أن يتضمن تخليصنا ليوسف منهم، وإلا فحكمه له بغير ذلك لا يناسب قعوده في مصر لأجل ذلك. وأيضًا: ف(اليأس) يكون في الشيء الذي لا يكون، ولم يجئ ما يقتضي ذلك، فإنهم قالوا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٧٨ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ﴾ فامتنع من تسليمه إليهم. ومن المعلوم أن هذا لا يوجب القطع بأنه لا يسلم إليهم؛ فإنه يتغير عزمه ونيته، وما أكثر تقليب القلوب، وقد يتبدل الأمر بغيره حتى يصير الحكم إلى غيره، وقد يتخلص بغير اختياره، والعادات قد جرت بهذا على مثل من عنده من قال لا يعطيه، فقد يعطيه وقد يخرج من يده بغير اختياره، وقد يموت عنه فيخرج، والعالم مملوء من هذا.

الوجه الثاني: قال لهم يعقوب: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾. فنهاهم عن اليأس من روح اللَّه ولم ينههم عن الاستيئاس؛ وهو الذي كان منهم. وأخبر أنه لا ييأس من روح اللَّه إلا القوم الكافرون.

ومن المعلوم أنهم لم يكونوا كافرين، فهذا هو الوجه الثالث أيضًا: وهو أنه أخبر أنه ﴿لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ فيمتنع أن يكون للأنبياء يأس من روح اللَّه، وأن يقعوا في الاستيئاس، بل المؤمنون ما داموا مؤمنين لا ييأسون من روح اللَّه، وهذه السورة تضمنت ذكر المستيئسين، وأن الفرج جاءهم بعد ذلك لئلا ييأس المؤمن؛ ولهذا فيها ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ﴾ فذكر استيئاس الإخوة من أخي يوسف، وذكر استيئاس الرسل يصلح أن يدخل فيه ما ذكره ابن عباس وما ذكرته عائشة جميعًا.

الوجه الرابع: أن الاستيئاس استفعال من اليأس، والاستفعال يقع على وجوه: يكون لطلب الفعل من الغير، فالاستخراج والاستفهام والاستعلام يكون في الأفعال المتعدية، يقال: استخرجت المال من غيري وكذلك استفهمت، ولا يصلح هذا أن يكون معنى الاستيئاس، فإن أحدا لا يطلب اليأس ويستدعيه؛ ولأن استيأس فعل لازم لا متعدي. ويكون للاستفعال لصيرورة المستفعل على صفة غيره، وهذا يكون في الأفعال اللازمة كقولهم: استحجر الطين أي صار كالحجر، واستنوق الفحل أي صار كالناقة. وأما النظر فيما استيأسوا منه؛ فإن اللَّه تعالى ذكر ذلك في قصة إخوة يوسف حيث قال: ﴿فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ﴾.

وأما الرسل فلم يذكر ما استيأسوا منه، بل أطلق وصفهم بالاستيئاس، فليس لأحد أن يقيده بأنهم استيأسوا مما وعدوا به، وأخبروا بكونه، ولا ذكر ابن عباس ذلك. وثبت أن قوله: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ﴾ لا يدل على ظاهره فضلا عن باطنه؛ أنه حصل في قلوبهم مثل تساوي الطرفين فيما أخبروا به، فإن لفظ الظن في اللغة لا يقتضي ذلك، بل يسمى ظنا ما هو من أكذب الحديث عن الظان؛ لكونه أمرا مرجوحا في نفسه. واسم اليقين والريب والشك ونحوها يتناول علم القلب وعمله وتصديقه، وعدم تصديقه وسكينته وعدم سكينته، ليست هذه الأمور بمجرد العلم فقط كما يحسب ذلك بعض الناس، كما نبهنا عليه في غير هذا الموضع.

إذ المقصود هنا الكلام على قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾. فإذا كان الخبر عن استيئاسهم مطلقا؛ فمن المعلوم أن اللّه إذا وعد الرسل والمؤمنين بنصر مطلق -كما هو غالب إخباراته- لم يقيد زمانه ولا مكانه، ولا سنته ولا صفته، فكثيرًا ما يعتقد الناس في الموعود به صفات أخرى لم ينزل عليها خطاب الحق، بل اعتقدوها بأسباب أخرى؛ كما اعتقد طائفة من الصحابة إخبار النبي ﷺ لهم: أنهم يدخلون المسجد الحرام ويطوفون به؛ أن ذلك يكون عام الحديبية؛ لأن النبي ﷺ خرج معتمرا، ورجا أن يدخل مكة ذلك العام، ويطوف ويسعى. فلما استيأسوا من دخوله مكة ذلك العام -لما صدهم المشركون حتى قاضاهم النبي ﷺ على الصلح المشهور-؛ بقي في قلب بعضهم شيء، حتى قال عمر للنبي ﷺ: (ألم تخبرنا أنا ندخل البيت ونطوف؟ قال: «**بلى، فأخبرتك أنك تدخله هذا العام؟**». قال: لا. قال: «**فإنك داخله ومطوف**»[1])، وكذلك قال له أبو بكر. وكان أبو بكر رضي الله عنه أكثر علما وإيمانا من عمر، حتى تاب عمر مما صدر منه، وإن كان عمر رضي الله عنه محدثا كما جاء في الحديث الصحيح أنه قال ﷺ: «**قد كان في الأمم قبلكم محدثون فإن يكن في أمتي أحد فعمر**»[2] فهو رضي الله عنه المحدث الملهم، الذي ضرب اللّه الحق على لسانه وقلبه، ولكن مزية التصديق الذي هو أكمل متابعة للرسول، وعلما وإيمانا بما جاء به؛ درجته فوق درجته، فلهذا كان الصديق أفضل الأمة، صاحب المتابعة للآثار النبوية، فهو معلم لعمر ومؤدب للمحدث منهم الذي يكون له من ربه إلهام وخطاب؛ كما كان أبو بكر معلما لعمر ومؤدبا له حيث قال له: فأخبرك أنك تدخله هذا العام؟ قال: لا. قال إنك آتيه ومطوف.

فبين له الصديق أن وعد النبي ﷺ مطلق غير مقيد بوقت، وكونه سعى في ذلك العام وقصده لا يوجب أن يعني ما أخبر به؛ فإنه قد يقصد الشيء ولا يكون، بل يكون غيره؛ إذ ليس من شرط النبي ﷺ أن يكون كما قصده، بل من تمام نعمة ربه عليه أن يقيده عما يقصده إلى أمر آخر هو أنفع مما قصده، كما كان صلح الحديبية

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٣٢٣-٣٢٦) والبخاري (٥/ ٤١٢-٤١٦/ ٢٧٣١-٢٧٣٢) وأبو داود (٣/ ١٩٥-٢٠٩/ ٢٧٦٥) والنسائي (٥/ ١٨٤/ ٢٧٧٠) عن المسور بن مخرمة ومروان رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه: أحمد (٦/ ٥٥) ومسلم (٤/ ١٨٦٤/ ٢٣٩٨) والترمذي (٥/ ٥٨١/ ٣٦٩٣) والنسائي في الكبرى (٥/ ٣٩-٤٠/ ٨١١٩) من حديث عائشة رضي الله عنها.

أنفع للمؤمنين من دخولهم ذلك العام، بخلاف خبر النبي ﷺ؛ فإنه صادق لا بد أن يقع ما أخبر به ويتحقق. وكذلك ظن النبي كما قال في تأبير النخل: «**إنما ظننت ظنا فلا تؤاخذوني بالظن، ولكن إذا حدثتكم عن اللَّه فإني لن أكذب على الله**»[١]. فاستيئاس عمر وغيره من دخول ذلك هو استيئاس مما ظنوه موعودا به، ولم يكن موعودًا به. ومثل هذا لا يمتنع على الأنبياء أن يظنوا شيئًا فيكون الأمر بخلاف ما -ظنوه-، فقد يظنون فيما وعدوه تعيينا وصفات ولا يكون كما ظنوه، فييئسون مما ظنوه في الوعد، لا من تعيين الوعد كما قال النبي ﷺ: «رأيت أن أبا جهل قد أسلم؛ فلما أسلم خالد ظنوه هو، فلما أسلم عكرمة علم أنه هو»[٢].

وروى مسلم في صحيحه: أن النبي ﷺ مر بقوم يلقحون، فقال: «**لو لم تفعلوا هذا لصلح**». قال: فخرج سبتا فمر بهم فقال: «**ما لفحلكم؟**» قالوا: قلت: كذا وكذا. قال: «**أنتم أعلم بأمر دنياكم**»[٣]. وروى أيضًا عن موسى بن طلحة عن أبيه طلحة بن عبيد اللَّه قال: مررت مع رسول اللَّه ﷺ بقوم على رؤوس النخل، فقال: «**ما يصنع هؤلاء؟**» فقال: يلقحونه يجعلون الذكر في الأنثى فتلقح. فقال رسول اللَّه ﷺ: «**ما أظن يغني ذلك شيئًا**»، فأخبروا بذلك فتركوه. فأخبر رسول اللَّه ﷺ بذلك، فقال: «**إن كان ينفعهم ذلك فليصنعوه، فإنني ظننت ظنا فلا تؤاخذوني بالظن، ولكن إذا حدثتكم عن اللَّه شيئًا فخذوا به فإني لن أكذب على الله**». فإذا كان النبي ﷺ يأمرنا إذا حدثنا بشيء عن اللَّه أن نأخذ به؛ فإنه لن يكذب على اللَّه، فهو أتقانا لله، وأعلمنا بما يتقى، وهو أحق أن يكون آخذا بما يحدثنا عن اللَّه، فإذا أخبره اللَّه بوعد كان علينا أن نصدق به، وتصديقه هو به أعظم من تصديقنا، ولم يكن لنا أن نشك فيه وهو -بأبي- أولى وأحرى أن لا يشك فيه؛ لكن قد يظن ظنا كقوله: «**إنما ظننت ظنا فلا تؤاخذوني بالظن**»، وإن كان أخبره به مطلقا، فمستنده

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ١٦٢) ومسلم (٤/ ١٨٣٥/ ٢٣٦١) وابن ماجه (٢/ ٨٢٥/ ٢٤٧٠) من حديث طلحة بن عبيد اللَّه رضي الله عنه.

(٢) أخرجه: عبد الرزاق في المصنف (١١/ ٢١٦/ ٢٠٣٦٥) مرسلًا، والحاكم (٣/ ٢٤٢-٢٤٣) موصولًا عن عائشة رضي الله عنها وصححه ووافقه الذهبي.

(٣) أخرجه: أحمد (٦/ ١٢٣) ومسلم (٤/ ١٨٣٦/ ٢٣٦٣) وابن ماجه (٢/ ٨٢٥/ ٢٤٧١) عن عائشة رضي الله عنها.

ظنون كقوله في حديث ذي اليدين: «**ما قصرت الصلاة ولا نسيت**»[١].

وقد يظن الشيء ثم يبين الله الأمر على جليته؛ كما وقع مثل ذلك في أمور كقوله تعالى: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾[٢] نزلت في الوليد بن عقبة؛ لما استعمله النبي ﷺ وهم أن يغزوهم لما ظن صدقه حتى أنزل الله هذه الآية. وكذلك في قصة بني أبيرق التي أنزل الله فيها: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾[٣]، وذلك لما جاء قوم تركوا السارق الذي كان يسرق، وأخرجوا البريء؛ فظن النبي ﷺ صدقهم حتى تبين الأمر بعد ذلك. وقال في حديث قصر الصلاة: («**لم أنس ولم تقصر**». فقالوا: بلى قد نسيت). وكان قد نسي فأخبر عن موجب ظنه واعتقاده، حتى تبين الأمر بعد ذلك.. وأيضًا فقوله في القرآن: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾[٤] شامل للنبي ﷺ وأمته، حيث قال في صدر الآيات: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾[٥] الآيات.

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عيسى الأنصاري عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: «**بينا جبريل قاعد عند النبي ﷺ؛ سمع نقيضا من فوقه، فرفع رأسه فقال: هذا باب من السماء فتح اليوم لم يفتح إلا اليوم، فنزل منه ملك فقال: هذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قط إلا اليوم فسلم وقال: أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ بحرف منها إلا أعطيته**»[٦].

وفي صحيح مسلم عن آدم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: (لما نزلت هذه الآية: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾[٧] دخل في قلوبهم منها

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٣٤-٢٣٥) والبخاري (١/ ٧٤٤/ ٤٨٢) ومسلم (١/ ٤٠٣/ ٥٧٣) وأبو داود (١/ ٦١٢-٦١٤/ ١٠٠٨) والترمذي (٢/ ٢٤٧-٢٤٨/ ٣٩٩) والنسائي (٣/ ٢٤-٢٥/ ١٢٢٣) وابن ماجه (١/ ٣٨٣/ ١٢١٤) عن أبي هريرة ﷺ.

(٢) الحجرات: الآية (٦).

(٣) النساء: الآية (١٠٥).

(٤) البقرة: الآية (٢٨٦).

(٥) البقرة: الآية (٢٨٥).

(٦) أخرجه: مسلم (١/ ٥٥٤/ ٨٠٠٦) والنسائي (٢/ ٤٧٥-٤٧٦/ ٩١١) عن ابن عباس ﷺ.

(٧) البقرة: الآية (٢٨٤).

شيء لم يدخل مثله، فقال النبي ﷺ: «قولوا سمعنا وأطعنا وسلمنا». قال: فألقى الله الإيمان في قلوبهم، فأنزل الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ﴾[1] الآيات إلى قوله: ﴿أَوْ أَخْطَأْنَاۚ﴾. قال: قد فعلت إلى آخر السورة. قال: «قد فعلت»)[2].

وفي صحيح مسلم عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة قال: (لما نزلت على رسول الله ﷺ: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُۖ﴾؛ اشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، ثم بركوا على الركب فقالوا: أي رسول الله! كلفنا من الأعمال ما نطيق؛ الصلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها. قال رسول الله ﷺ: «أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتاب سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا، غفرانك ربنا وإليك المصير». فلما اقترأها القوم، وذلت بها ألسنتهم: أنزل الله ﷻ في أثرها: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾ إلى قوله: ﴿وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ فلما فعلوا ذلك نسخها سبحانه، فأنزل الله: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ﴾ إلى قوله: ﴿قَبْلِنَاۚ﴾. قال: «نعم». ﴿وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ﴾. قال: «نعم». إلى آخر السورة. قال: «نعم»)[3].

والذي عليه جمهور أهل الحديث والفقه: أنه يجوز عليهم الخطأ في الاجتهاد؛ لكن لا يقرون عليه، وإذا كان في الأمر والنهي فكيف في الخبر؟! وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «إنكم تختصمون إلي، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، وإنما أقضي بنحو مما أسمع، فأحسب أنه صادق فمن قضيت له من حق أخيه شيئًا فلا يأخذه، فإنما أقطع له قطعة من النار»[4]. فنفس ما يعد الله به الأنبياء والمؤمنين حقا لا يمترون فيه، كما قال تعالى في قصة نوح: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ﴾[5]

---

(١) البقرة: الآية (٢٨٦).

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٢٣٣) ومسلم (١/ ١١٦/ ١٢٦) والترمذي (٥/ ٢٠٦/ ٢٩٩٢) والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٠٧/ ١١٠٥٩) عن ابن عباس ﵄.

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٤١٢) ومسلم (١/ ١١٥-١١٦/ ١٢٥) عن أبي هريرة ﵁.

(٤) أخرجه: أحمد (٦/ ٢٠٣) والبخاري (٥/ ٣٦١/ ٢٦٨٠) ومسلم (٣/ ١٣٣٧/ ١٧١٣) وأبو داود (٤/ ١٢-١٤/ ٣٥٨٣) والترمذي (٣/ ٦٢٤/ ١٣٣٩) والنسائي (٨/ ٦٢٥/ ٥٤١٦) وابن ماجه (٢/ ٧٧٧/ ٢٣١٧) عن أم سلمة ﵂.

(٥) هود: الآية (٤٥).

إلى آخر الآية. ومثل هذا الظن قد يكون من إلقاء الشيطان المذكور في قوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾[1] إلى قوله: ﴿صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾. وقد تكلمنا على هذه الآية في غير هذا الموضع. وللناس فيها قولان مشهوران، بعد اتفاقهم على أن التمني هو التلاوة والقرآن، كما عليه المفسرون من السلف كما في قوله: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾[2]. وأما من أول النهي على تمني القلب؛ فذاك فيه كلام آخر، وإن قيل: إن الآية تعم النوعين؛ لكن الأول هو المعروف المشهور في التفسير، وهو ظاهر القرآن ومراد الآية قطعا، لقوله بعد ذلك: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾[3]. وهذا كله لا يكون في مجرد القلب إذا لم يتكلم به النبي، لكن قد يكون في ظنه الذي يتكلم به بعضه: النخل ونحوها وهو يوافق ما ذكرناه. وإذا كان التمني لا بد أن يدخل فيه القول ففيه قولان:

الأول: أن الإلقاء هو في سمع المستمعين، ولم يتكلم به الرسول وهذا قول من تأول الآية بمنع جواز الإلقاء في كلامه.

و الثاني -وهو الذي عليه عامة السلف ومن اتبعهم-: أن الإلقاء في نفس التلاوة، كما دلت عليه الآية وسياقها من غير وجه؛ كما وردت به الآثار المتعددة، ولا محذور في ذلك إلا إذا أقر عليه، فأما إذا نسخ اللّٰه ما ألقى الشيطان وأحكم آياته؛ فلا محذور في ذلك، وليس هو خطأ وغلطا في تبليغ الرسالة، إلا إذا أقر عليه. ولا ريب أنه معصوم في تبليغ الرسالة أن يقر على خطأ، كما قال: «فإذا حدثتكم عن اللّٰه بشيء فخذوا به فإني لن أكذب على الله»[4] ولولا ذلك لما قامت الحجة به، فإن كونه رسول اللّٰه يقتضي أنه صادق فيما يخبر به عن اللّٰه، والصدق يتضمن نفي الكذب ونفي الخطأ فيه، فلو جاز عليه الخطأ فيما يخبر به عن اللّٰه وأقر عليه؛ لم يكن كلما يخبر به عن اللّٰه. والذين منعوا أن يقع الإلقاء في تبليغه فروا من هذا، وقصدوا خيرا وأحسنوا في ذلك؛ لكن يقال لهم: ألقى ثم أحكم، فلا محذور في ذلك، فإن هذا يشبه النسخ لمن بلغه الأمر والنهي من بعض الوجوه، فإنه إذا

---

(١) الحج: الآية (٥٢).
(٢) البقرة: الآية (٧٨).
(٣) الحج: الآية (٥٢).
(٤) سبق تخريجه قريبا.

موقن مصدق برفع قول سبق لسانه به، ليس أعظم من إخباره برفعه. ولهذا قال في النسخ: ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾[١] فظنهم أنهم قد كذبوا هو يتبع ما يظنونه من معنى الوعد، وهذا جائز لا محذور فيه إذا لم يقروا عليه، وهذا وجه حسن، وهو موافق لظاهر الآية ولسائر الأصول من الآيات والأحاديث، والذي يحقق ذلك أن باب الوعد والوعيد؛ ليس بأعظم من باب الأمر والنهي.

فإذا كان من الجائز في باب الأمر والنهي أن يظنوا شيئًا، ثم يتبين الأمر لهم بخلافه؛ فلأن يجوز ذلك في باب الوعد والوعيد بطريق الأولى والأحرى، حتى إن باب الأمر والنهي إذ تمسكوا فيه بالاستصحاب؛ لم يقع في ذلك ظن خلاف ما هو عليه الأمر في نفسه؛ فإن الوجوب والتحريم الذي لا يثبت إلا بخطاب، إذا نفوه قبل الخطاب؛ كان ذلك اعتقادا مطابقا للأمر في نفسه، وباب الوعد إذا لم يخبروا به قد يظنون انتفاءه، كما ظن الخليل جواز المغفرة لأبيه حتى استغفر له ونهينا عن الاقتداء. كما قال النبي ﷺ لأبي طالب: «لأستغفرن لك ما لم أنه عنك»[٢] وحتى استأذن ربه في الاستغفار لأمه فلم يؤذن له في ذلك، وحتى صلى على المنافقين قبل أن ينهى عن ذلك، وكان يرجو لهم المغفرة حتى أنزل اللّه ﷻ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ إلى قوله: ﴿لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾[٣]. وقال عن المنافقين: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾[٤] الآية. وقال: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾[٥] فإذا كان صلى على المنافقين، واستغفر لهم؛ راجيا أن يغفر لهم قبل أن يعلم ذلك. .

وهذا الباب وهو: (باب الوعد والوعيد)؛ هو في الكتاب بأسماء مطلقة للمؤمنين والصابرين والمجاهدين والمحسنين، فما أكثر من يظن من الناس أنه من أهل الوعد، ويكون اللفظ في ظنه أنه متصف بما يدخل في الوعد، لا في اعتقاد صدق الوعد في نفسه. وهذا كقوله: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا

---

(١) البقرة: الآية (١٤٣).

(٢) أخرجه: أحمد (٥/ ٤٣٣)، والبخاري (٨/ ٤٣٤-٤٣٥/ ٤٦٧٥)، ومسلم (١/ ٥٤/ ٢٤)، والنسائي (٤/ ٣٩٥-٣٩٦/ ٢٠٣٤) عن سعيد بن المسيب عن أبيه ﷺ.

(٣) التوبة: الآيتان (١١٣-١١٤). (٤) التوبة: الآية (٨٤).

(٥) المنافقون: الآية (٦).

﴿وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾[(١)]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[(٢)] الآيتين، فقد يظن الإنسان في نفسه أو غيره كمال الإيمان المستحق للنصر، وأن جند اللَّه الغالبون ويكون الأمر بخلاف ذلك. وقد يقع من النصر الموعود به ما لا يظن أنه من الموعود به، فالظن المخطئ في ذلك كثير جدًّا أكثر من باب الأمر والنهي، مع كثرة ما وقع من الغلط في ذلك وهذا مما لا يحصر الغلط فيه إلا اللَّه تعالى، وهذا عام لجميع الآدميين، لكن الأنبياء صلوات اللَّه عليهم وسلامه لا يقرون؛ بل يتبين لهم، وغير الأنبياء قد لا يتبين له ذلك في الدنيا.

ولهذا كثر في القرآن ما يأمر نبيه ﷺ بتصديق الوعد والإيمان، وما يحتاج إليه ذلك من الصبر إلى أن يجيء الوقت، ومن الاستغفار لزوال الذنوب التي بها تحقيق اتصافه بصفة الوعد؛ كما قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾[(٣)] وقال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾[(٤)] الآية. والآيات في هذا الباب كثيرة معلومة. واللَّه تعالى أعلم»[(٥)].

وقال: «وأما الأنبياء: فإنهم يبتلون كثيرًا، ليمحصوا بالبلاء، فإن اللَّه إنما يمكن العبد إذا ابتلاه، ويظهر أمرهم شيئًا فشيئًا كالزرع، قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾[(٦)].

ولهذا كان أول ما يتبعهم ضعفاء الناس، فاعتبار هذه الأمور، وسنة اللَّه في أوليائه وأنبيائه الصادقين، وفي أعداء اللَّه والمتنبئين الكذابين؛ مما يوجب الفرق بين النوعين، وبين دلائل النبي الصادق، ودلائل المتنبئ الكذاب.

وقد ذكر ابتلاء النبي والمؤمنين، ثم كون العاقبة لهم في غير موضع، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ

---

(١) غافر: الآية (٥١).
(٢) الصافات: الآية (١٧١).
(٣) الروم: الآية (٦٠).
(٤) غافر: الآية (٧٧).
(٥) مجموع الفتاوى (١٥/ ١٧٥-١٩٥).
(٦) الفتح: الآية (٢٩).

لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِي۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[(١)]. وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾[(٢)]. وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[(٣)]»[(٤)].

وقال: «ومثل هذا في القرآن متعدد في غير موضع، يذكر اللّٰه تعالى قصص رسله ومن آمن بهم، وما حصل لهم من النصر والسعادة وحسن العاقبة، وقصص من كفر بهم وكذبهم، وما حصل لهم من البلاء والعذاب وسوء العاقبة، وهذا من أعظم الأدلة والبراهين على صدق الرسل وبرهم، وكذب من خالفهم وفجوره، ثم إنه سبحانه بين أن ذلك يعلم بالبصر أو السمع أو بهما. فالبصر والمشاهدة لمن رآهم أو رأى آثارهم الدالة عليهم؛ كمن شاهد أصحاب الفيل وما أحاط بهم، ومن شاهد آثارهم بأرض الشام واليمن والحجاز وغير ذلك؛ كآثار أصحاب الحجر وقوم لوط ونحو ذلك.

والسمع فبالأخبار التي تفيد العلم كتواتر الأخبار بما جرى في قصة موسى وفرعون، وغرق فرعون في القلزم، وكذلك تواتر الأخبار بقصة الخليل مع النمروذ، وتواتر الأخبار بقصة نوح وإغراق أهل الأرض، وأمثال ذلك من الأخبار المتواترة عند أهل الملل وغير أهل الملل، مع أن في بعض قصص من تواترت به هذه الأخبار؛ ما يحصل العلم بخبرهم. واشتراك البصر والسمع كما يشاهد بعض الآثار من تواتر الأخبار، ومما يبين الحال كما نشاهد السفن ويعلم بالخبر؛ أن ابتداءها كان سفينة نوح كما قال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ

(١) الأنعام: الآية (٣٤).
(٢) البقرة: الآية (٢١٤).
(٣) يوسف: الآيات (١٠٩-١١١).
(٤) الجواب الصحيح (٦/ ٤٢٣-٤٢٥).

﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾[٢]، وكذلك نشاهد أرض الحجور وما فيها من البيوت المنقورة في الجبال، ونعلم بالخبر تفصيل الحال وأمثال ذلك»[٣].

وقال ابن القيم: «فلما ذكر أن الرسل هم الذين استيأسوا؛ كان فيه دليل على أنهم دخل قلوبهم يأس من غير يقين استيقنوه، لأن اليقين في ذلك إنما يأتيهم من عند الله، كما قال في قصة نوح: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾[٤]، وقال الله تعالى في قصة إخوة يوسف: ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا﴾[٥]، فدل الظاهر على أن يأسهم ليس بيقين»[٦].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن وعد الله بالنصر لأوليائه وإن تأخر لا يتخلف

* عن عروة «أنه سأل عائشة رضي الله عنها قالت له -وهو يسألها عن قوله الله تعالى-: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾؟ قال: قلت: أكذبوا، أم كُذِّبوا؟ قالت عائشة: كُذِّبوا. قلت: فقد استيقنوا أن قومهم كذّبوهم، فما هو بالظن. قالت: أجل، لعمري لقد استيقنوا بذلك. فقلت لها: ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟﴾؟ قالت: معاذ الله! لم تكن الرسل تظن ذلك بربها. قلت: فما هذه الآية؟ قالت: هم أتباع الرسل الذين آمنوا بربهم وصدقوهم، فطال عليهم البلاء واستأخر عنهم النصر، حتى إذا استيأس الرسل ممن كذبهم من قومهم، وظنت الرسل أن أتباعهم قد كذبوهم، جاءهم نصر الله عند ذلك»[٧].

* عن يحيى بن سعيد قال: جاء إنسان إلى القاسم بن محمد فقال: إن محمد بن كعب القرظي قرأ هذه الآية: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟﴾ فقال القاسم: أخبره عني أني سمعت عائشة زوج النبي ﷺ تقول: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ

---

(١) يس: الآيتان (٤١ و ٤٢).
(٢) الحاقة: الآيتان (١١ و ١٢).
(٣) العقيدة الأصفهانية (ص: ١٣٦-١٣٧).
(٤) هود: الآية (٣٦).
(٥) يوسف: الآية (٨٠).
(٦) زاد المعاد (٥/ ٦٦١).
(٧) أخرجه: البخاري (٨/ ٤٦٧-٤٦٨/ ٤٦٩٥) والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٦٩/ ١١٢٥٥).

ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ﴾ تقول: «كذبتهم أتباعهم»[١].

★ **فوائد الحديثين:**

قولها: «**لعمري لقد استيقنوا بذلك**»: فيه إشعار بحمل عروة الظن على حقيقته، وهو رجحان أحد الطرفين ووافقته عائشة[٢].

قال مكي: «قرأه الكوفيون بالتخفيف، وشدد الباقون. وحجة من شدد أنه حمله على معنى أن الرسل تلقاهم قومهم بالتكذيب، فالظن بمعنى اليقين، وفي ظنوا ضمير الرسل، فالهاء والميم في «أنهم» للرسل، فعطفوه على استيأس الرسل، والتقدير: وأيقن الرسل أن قومهم قد كذبوهم فيما جاؤوهم به من عند اللَّه جل ذكره.

ودليله قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾، وحجة من خفف أنه حمله على معنى أن المرسل إليهم؛ ظنوا أنهم قد كذبوا فيما أتتهم به الرسل، فالظن بمعنى الشك أو بمعنى اليقين. وفي ظنوا ضمير المرسل إليهم، والهاء والميم في أنهم للمرسل إليهم، أي وظن المرسل إليهم أنهم لم يصدقوا فيما قيل لهم، وما توعدوا به من إتيان العذاب على كفرهم، أي ظنوا أنهم لم يصدقهم الرسل فيما أتوهم به من عند اللَّه جل ذكره من إتيان العذاب إليهم، أو من الأمر بالإيمان والتوحيد»[٣].

قال الحافظ: «وهذا ظاهر في أنها أنكرت القراءة بالتخفيف؛ بناء على أن الضمير للرسل، وليس الضمير للرسل على ما بينته، ولا لإنكار القراءة بذلك معنى بعد ثبوتها، ولعلها لم يبلغها ممن يرجع إليه في ذلك»[٤].

* * *

(١) أخرجه: ابن أبي حاتم في التفسير (٧/ ٢٢١٢/ ١٢٠٦٣)، وذكره ابن كثير عنه (٤/ ٦١) وقال: «إسناد صحيح».

(٢) الفتح (٨/ ٤٧١).

(٣) إمداد القاري بشرح كتاب التفسير من صحيح البخاري (٢/ ٣٤٨).

(٤) الفتح (٨/ ٤٦٨).

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «لقد كان في خبر المرسلين مع قومهم، وكيف نجينا المؤمنين وأهلكنا الكافرين ﴿عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ وهي العقول، ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾ أي: وما كان لهذا القرآن أن يفترى من دون اللّه؛ أي: يكذب ويختلق ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: من الكتب المنزلة من السماء هو يصدق ما فيها من الصحيح، وينفي ما وقع فيها من تحريف وتبديل وتغيير، ويحكم عليها بالنسخ أو التقرير ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من تحليل وتحريم ومحبوب ومكروه، وغير ذلك من الأمر بالطاعات والواجبات والمستحبات، والنهي عن المحرمات وما شاكلها من المكروهات، والإخبار عن الأمور الجلية، وعن الغيوب المستقبلة المجملة والتفصيلية، والإخبار عن الرب تبارك وتعالى بالأسماء والصفات، وتنزهه عن مماثلة المخلوقات، فلهذا كان ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ تهتدي به قلوبهم من الغي إلى الرشاد، ومن الضلال إلى السداد، ويبتغون به الرحمة من رب العباد، في هذه الحياة الدنيا ويوم المعاد، فنسأل اللّه العظيم أن يجعلنا منهم في الدنيا والآخرة، يوم يفوز بالربح المبيضة وجوههم الناضرة، ويرجع المسودة وجوههم بالصفقة الخاسرة»[١].

وقال أبو حيان: «وإذا عاد الضمير على يوسف ﷺ وأبويه وإخوته، فالاعتبار بقصصهم من وجوه: إعزاز يوسف ﷺ بعد إلقائه في الجب، وإعلاؤه بعد حبسه في السجن، وتملكه مصر بعد استعباده واجتماعه مع والديه وإخوته على ما أحب بعد

---

(١) التفسير (٤/ ٦٣).

الفرقة الطويلة، والإخبار بهذا القصص إخبارٌ عن الغيب، والإعلام باللَّه تعالى من العلم والقدرة والتصرف في الأشياء على ما لا يخطر على بال، ولا يجول في فكر، وإنما خص أولوا الألباب؛ لأنهم هم الذين ينتفعون بالعبر، ومن له لب وأجاد النظر ورأى ما فيها من امتحان ولطف وإحسان؛ علم أنه أمر من اللَّه تعالى، ومن عنده تعالى، والظاهر أن اسم (كان) مضمر يعود على القصص؛ أي: ما كان القصص حديثا مختلقا، بل هو حديث صدق ناطق بالحق، جاء به من لم يقرأ الكتب ولا تتلمذ لأحد ولا خالط العلماء، فمحال أن يفتري هذه القصة بحيث تطابق ما ورد في التوراة من غير تفاوت. وقيل: يعود على القرآن؛ أي: ما كان القرآن الذي تضمن قصص يوسف عليه السلام وغيره حديثا يختلق، ولكن كان تصديق الكتب المتقدمة الإلهية، وتفصيل كل شيء واقع ليوسف مع أبويه وإخوته، إن كان الضمير عائدا على قصص يوسف، أو كل شيء مما يحتاج إلى تفصيله في الشريعة إن عاد على القرآن»[1].

وقال القاسمي: «قال بعض المحققين: المراد به أن قصص القرآن ليست مخترعة ولا مفتراة، بدليل وجود أمثالها بين الناس قبل نزوله. فهي وإن اختلفت قليلا في بعض التفاصيل والجزئيات عما يرويه الناس، إلا أنها توافقها في الجملة، وتصدقها في الجوهر، فلا تظنوا أيها المشركون أن النبي اخترعها بعقله، بل اسألوا عنها أهل الكتاب تجدوا أنها معروفة بينهم، ومروية في كتبهم. فوجود قصص القرآن عند الناس من قبل؛ من أعظم ما يصدقه ويؤيده، لأن النبي صلوات اللَّه عليه لم يطلع على كتب أهل الكتاب. ولا يتوهم من هذه الآية أن قصص القرآن يجب ألا تختلف عن قصص التوراة والإنجيل في شيء ما، كلا! إذ لو صح هذا لما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[2]. فقصصه قد تختلف عما عندهم، وتبين لهم حقه من باطله، فلا منافاة بين تصديق القرآن لقصصهم في الجملة، ومخالفته لها في بعض الجزئيات كما قلنا، ويجوز أن يكون المراد بقوله: ﴿تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ تصديق الحق الذي عندهم، لا كل الذي عندهم، وإلا لدخل في ذلك عقائدهم الفاسدة، وأوهامهم وخرافاتهم

---

(١) البحر المحيط (٥/ ٣٤٨-٣٤٩).

(٢) النمل: الآية (٧٦).

وغيرها، مما جاء القرآن لإزالته ومحقه، ويستحيل أن يكون مصدقا لما جاء لإبطاله. فتنبه لذلك ولا تكن من الغافلين. انتهى»[1].

وقال المراغي: «لقد كان في قصص يوسف ﷺ مع أبيه وإخوته عبرة لذوي العقول الراجحة والأفكار الثاقبة، لأنهم هم الذين يعتبرون بعواقب الأمور التي تدل عليها أوائلها ومقدماتها، أما الأغرار الغافلون فلا يستعملون عقولهم في النظر والاستدلالات، ومن ثم لا يفيدهم النصح.

وجهة الاعتبار بهذه القصة أن الذي قدر على إنجاء يوسف بعد إلقائه في غيابة الجب، وإعلاء أمره بعد وضعه في السجن، وتمليكه مصر بعد أن بيع بالثمن البخس، والتمكين له في الأرض من بعد الإسار والحبس الطويل، وإعزازه على من قصده بالسوء من إخوته، وجمع شمله بأبويه وبهم بعد المدة الطويلة المدى، والمجيء بهم من الشقة البعيدة النائية؛ إن الذي قدر على ذلك كله لقادر على إعزاز محمد ﷺ، وإعلاء كلمته، وإظهار دينه، فيخرجه من بين أظهركم، ثم يظهره عليكم، ويمكن له في البلاد، ويؤيده بالجند والرجال، والأتباع والأعوان، وإن مرت به الشدائد، وأتت دونه الأيام والحوادث»[2].

وقال القاسمي: «وقوله تعالى: ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: تبيان كل ما يحتاج إليه من أحكام الحلال والحرام، والآداب والأخلاق، ووجوه العبر والعظات. ولذا كان أعظم ما تنقذ به القلوب من الغي إلى الرشاد، ومن الضلال إلى السداد، وتبتغى به الرحمة من رب العباد، كما قال تعالى: ﴿وَهُدًى﴾ أي: من الضلالة، ﴿وَرَحْمَةً﴾ أي: من العذاب، ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: يصدقون به، ويعملون بأوامره، فإن الإيمان قول وعقد عمل. وخصهم لأنهم المنتفعون به»[3].

وقال المراغي: «﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من أمر الله ونهيه، ووعده ووعيده، وبيان ما يجب له تعالى من صفات الكمال، وتنزهه عن صفات النقص، وفيه قصص الأنبياء مع أقوامهم، لما فيها من عبر وعظات وسائر ما بالعباد إليه حاجة.

(١) المحاسن (٩/ ٣٠١-٣٠٢).
(٢) تفسير المراغي (١٣/ ٥٦-٥٧).
(٣) محاسن التأويل (٩/ ٣٠٢).

وعلى الجملة: ففي القرآن تفصيل كل شيء يحتاج إليه في أمر الدين، وقد أسهب في موضع الإسهاب، وأوجز حيث يكفي الإيجاز، ففصل الحق في العقائد بالحجج والدلائل، وفي الفضائل والآداب وأصول الشريعة وأمهات الأحكام، بما به تصلح أمور البشر وشئون الاجتماع.

﴿وَهُدًى﴾ أي: وهو هدى لمن تدبره، وأمعن في النظر فيه، وتلاه حق تلاوته، فهو مرشد إلى الحق وهاد إلى سبيل الرشاد، وعمل الخير والصلاح، في الدين والدنيا.

﴿وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: وهو رحمة عامة للمؤمنين الذين تنفذ فيهم شرائعه في دينهم ودنياهم.

والخاضعون لها من غير المؤمنين يكونون في ظلها آمنين على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم، أحرارا في عقائدهم وعباداتهم، مساوين للمؤمنين في حقوقهم ومعاملاتهم، يعيشون في بيئة خالية من الفواحش والمنكرات، التي تفسد الأخلاق وتعبث بالفضائل.

نسأل اللَّه العظيم أن يجعلنا منهم في الدنيا والآخرة، وأن يحشرنا في زمرة الذين أنعم اللَّه عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين. يوم تسود وجوه وتبيض وجوه، وأن يجعل خواتيمنا خير الخواتيم في الدنيا والآخرة، كما جعل خاتمة يوسف مع أبويه وإخوته كذلك»[1].

وقال شيخ الإسلام: «وإنما قص اللَّه علينا قصص من قبلنا من الأمم؛ لتكون عبرة لنا، فنشبه حالنا بحالهم، ونقيس أواخر الأمم بأوائلها، فيكون للمؤمن من المتأخرين شبه بما كان للمؤمن من المتقدمين، ويكون للكافر والمنافق من المتأخرين شبه بما كان للكافر والمنافق من المتقدمين، كما قال تعالى لما قص قصة يوسف مفصلة، وأجمل قصص الأنبياء، ثم قال: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾ أي: هذه القصص المذكورة في الكتاب ليست بمنزلة ما يفترى من القصص المكذوبة، كنحو ما يذكر في الحروب من السير

(١) تفسير المراغي (١٣/ ٥٧-٥٨).

المكذوبة.

وقال تعالى لما ذكر قصة فرعون: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ۝٢٥ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾[١] وقال في سيرة نبينا محمد ﷺ مع أعدائه ببدر وغيرها: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾[٢]. وقال تعالى في محاصرته لبني النضير: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾[٣]. فأمرنا أن نعتبر بأحوال المتقدمين علينا من هذه الأمة، وممن قبلها من الأمم.

وذكر في غير موضع: أن سنته في ذلك سنة مطردة، وعادته مستمرة. فقال تعالى: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ۝٦٠ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ۝٦١ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾[٤]. وقال تعالى: ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝٢٢ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾[٥]. وأخبر سبحانه أن دأب الكافرين من المستأخرين كدأب الكافرين من المستقدمين.

فينبغي للعقلاء أن يعتبروا بسنة اللّه وأيامه في عباده، ودأب الأمم وعاداتهم»[٦].

وقال: «والاعتبار أن يقرن الشيء بمثله، فيعلم أن حكمه مثل حكمه، كما قال ابن عباس: هلا اعتبرتم الأصابع بالأسنان؟ فإذا قال: ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾[٧] وقال: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أفاد أن من عمل مثل أعمالهم جوزي مثل جزائهم؛ ليحذر أن يعمل مثل أعمال الكفار، وليرغب في أن يعمل مثل

(١) النازعات: الآيتان (٢٥ و ٢٦).
(٢) آل عمران: الآية (١٣).
(٣) الحشر: الآية (٢).
(٤) الأحزاب: الآيات (٦٠-٦٢).
(٥) الفتح: الآيتان (٢٢ و ٢٣).
(٦) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٤٢٥-٤٢٧).
(٧) الحشر: الآية (٢).

أعمال المؤمنين أتباع الأنبياء، قال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾[١]. وقال تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾[٢]. وقال تعالى: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾»[٣].

وقال: «وكذلك ما ذكره تعالى في قصة يوسف: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ﴾ إلى قوله: ﴿فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾، وما ذكره بعد ذلك فمن كلام يوسف من قوله: ﴿مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾، وهذا من باب الاعتبار الذي يوجب انتهار النفوس عن معصية اللَّه والتمسك بالتقوى، وكذلك ما بينه في آخر السورة بقوله: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾، ومع هذا فمن الناس والنساء من يحب سماع هذه السورة لما فيها من ذكر العشق وما يتعلق به؛ لمحبته لذلك ورغبته في الفاحشة، حتى إن من الناس من يقصد إسماعها للنساء وغيرهن لمحبتهم للسوء، ويعطفون على ذلك، ولا يختارون أن يسمعوا ما في سورة النور من العقوبة والنهي عن ذلك، حتى قال بعض السلف: كل ما حصلته في سورة يوسف أنفقته في سورة النور. وقد قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[٤]، ثم قال: ﴿وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾[٥]، وقال: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾[٦]. فكل أحد يحب سماع ذلك لتحريك المحبة المذمومة، ويبغض سماع ذلك إعراضا عن دفع هذه المحبة وإزالتها: فهو مذموم.

ومن هذا الباب ذكر أحوال الكفار والفجار وغير ذلك؛ مما فيه ترغيب في معصية اللَّه وصد عن سبيل اللَّه.

---

(١) آل عمران: الآية (١٣٧).
(٢) الإسراء: الآيتان (٧٦ و ٧٧).
(٣) مجموع الفتاوى (١٣/ ٢٠).
(٤) الإسراء: الآية (٨٢).
(٥) الإسراء: الآية (٨٢).
(٦) التوبة: الآيتان (١٢٤ و ١٢٥).

ومن هذا الباب سماع كلام أهل البدع والنظر في كتبهم؛ لمن يضره ذلك ويدعوه إلى سبيلهم وإلى معصية اللَّه، فهذا الباب تجتمع فيه الشبهات والشهوات، واللَّه تعالى ذم هؤلاء في مثل قوله: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾[١]، وفي مثل قوله: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾[٢]، ومثل قوله: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ﴾[٣] الآية، وما بعدها، ومثل قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾[٤]، وقوله: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ﴾[٥]، ومثل قوله: ﴿وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾[٦]، ومثل قوله: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾[٧] الآية.

ومثل هذا كثير في القرآن؛ فأهل المعاصي كثيرون في العالم؛ بل هم أكثر كما قال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الآية. وفي النفوس من الشبهات المذمومة والشهوات قولا وعملا؛ ما لا يعلمه إلا اللَّه، وأهلها يدعون الناس إليها، ويقهرون من يعصيهم ويزينونها لمن يطيعهم، فهم أعداء الرسل وأندادهم؛ فرسل اللَّه يدعون الناس إلى طاعة اللَّه، ويأمرونهم بها بالرغبة والرهبة، ويجاهدون عليها، وينهونهم عن معاصي اللَّه، ويحذرونهم منها بالرغبة والرهبة، ويجاهدون من يفعلها. وهؤلاء يدعون الناس إلى معصية اللَّه، ويأمرونهم بها بالرغبة والرهبة قولا وفعلا، ويجاهدون على ذلك، قال تعالى: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[٨]، ثم قال: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾[٩]، وقال تعالى:

---

(١) الأنعام: الآية (١١٢).
(٢) الشعراء: الآية (٢٢٤).
(٣) الشعراء: الآية (٢٢١).
(٤) لقمان: الآية (٦).
(٥) المؤمنون: الآية (٦٧).
(٦) الأعراف: الآية (١٤٦).
(٧) الأنعام: الآية (١١٦).
(٨) التوبة: الآية (٦٧).
(٩) التوبة: الآية (٧١).

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّـٰغُوتِ﴾(١).

ومثل هذا في القرآن كثير، واللَّه سبحانه قد أمرنا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والأمر بالشيء مسبوق بمعرفته، فمن لا يعلم المعروف لا يمكنه الأمر به، والنهي عن المنكر مسبوق بمعرفته، فمن لا يعلمه لا يمكنه النهي عنه، وقد أوجب اللَّه علينا فعل المعروف وترك المنكر، فإن حب الشيء وفعله وبغض ذلك وتركه؛ لا يكون إلا بعد العلم بهما، حتى يصح القصد إلى فعل المعروف وترك المنكر، فإن ذلك مسبوق بعلمه فمن لم يعلم الشيء لم يتصور منه حب له ولا بغض ولا فعل ولا ترك؛ لكن فعل الشيء والأمر به يقتضي أن يعلم علما مفصلا يمكن معه فعله، والأمر به إذا أمر به مفصلا»(٢).

فصل في مجموعة فوائد السورة

قال ناصر السعدي: «فصل في ذكر شيء من العبر والفوائد التي اشتملت عليها هذه القصة العظيمة، التي قال اللَّه في أولها ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾، وقال: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَـٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾، وقال في آخرها ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾غير ما تقدم في مطاويها من الفوائد.

فمن ذلك، أن هذه القصة من أحسن القصص وأوضحها وأبينها؛ لما فيها من أنواع التنقلات من حال إلى حال، ومن محنة إلى محنة، ومن محنة إلى منحة ومنَّة، ومن ذل إلى عز، ومن رقٍّ إلى ملك، ومن فرقة وشتات إلى اجتماع وائتلاف، ومن حزن إلى سرور، ومن رخاء إلى جدب، ومن جدب إلى رخاء، ومن ضيق إلى سعة، ومن إنكار إلى إقرار، فتبارك من قصها فأحسنها، ووضحها وبيَّنها.

ومنها: أن فيها أصلا لتعبير الرؤيا، فإن علم التعبير من العلوم المهمة التي يعطيها اللَّه من يشاء من عباده، وإن أغلب ما تبنى عليه المناسبة والمشابهة في الاسم والصفة، فإن رؤيا يوسف التي رأى أن الشمس والقمر، وأحد عشر كوكبا له ساجدين، وجه المناسبة فيها: أن هذه الأنوار هي زينة السماء وجمالها وبها

---

(١) النساء: الآية (٧٦).

(٢) مجموع الفتاوى (١٥/ ٣٣٤-٣٣٧).

منافعها، فكذلك الأنبياء والعلماء، زينة للأرض وجمال، وبهم يهتدى في الظلمات كما يهتدى بهذه الأنوار، ولأن الأصل أبوه وأمه، وإخوته هم الفرع، فمن المناسب أن يكون الأصل أعظم نورا وجرما لما هو فرع عنه. فلذلك كانت الشمس أمه، والقمر أباه، والكواكب إخوته.

ومن المناسبة أن الشمس لفظ مؤنث، فلذلك كانت أمه، والقمر والكواكب مذكرات، فكانت لأبيه وإخوته، . ومن المناسبة؛ أن الساجد معظم محترم للمسجود له، والمسجود له معظم محترم، فلذلك دل ذلك؛ على أن يوسف يكون معظما محترما عند أبويه وإخوته.

ومن لازم ذلك؛ أن يكون مجتبى مفضلا في العلم والفضائل الموجبة لذلك، ولذلك قال أبوه: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾. ومن المناسبة في رؤيا الفتيين؛ أن الرؤيا الأولى، التي رأى صاحبها أنه يعصر خمرا، أن الذي يعصر خمرا في العادة، يكون خادما لغيره، والعصر يقصد لغيره، فلذلك أوَّله بما يؤول إليه، أنه يسقي ربه، وذلك متضمن لخروجه من السجن.

وأوَّل رؤيا الآخر؛ أي: أنه يحمل فوق رأسه خبزا تأكل الطير منه، بأن جلدة رأسه ولحمه، وما في ذلك من المخ؛ أنه هو الذي يحمله، وأنه سيبرز للطيور، بمحل تتمكن من الأكل من رأسه، فرأى من حاله أنه سيقتل ويصلب بعد موته، فيبرز للطيور فتأكل من رأسه، وذلك لا يكون إلا بالصلب بعد القتل.

وأوَّل رؤيا الملك للبقرات والسنبلات، بالسنين المخصبة، والسنين المجدبة، ووجه المناسبة؛ أن الملك به ترتبط أحوال الرعية ومصالحها، وبصلاحه تصلح، وبفساده تفسد، وكذلك السنون بها صلاح أحوال الرعية، واستقامة أمر المعاش أو عدمه.

وأما البقر فإنها تحرث الأرض عليها، ويستقى عليها الماء، وإذا أخصبت السنة سمنت، وإذا أجدبت صارت عجافا، وكذلك السنابل في الخصب، تكثر وتخضر، وفي الجدب تقل وتيبس، وهي أفضل غلال الأرض.

ومنها: ما فيها من الأدلة على صحة نبوة محمد ﷺ، حيث قصَّ على قومه هذه القصة الطويلة، وهو لم يقرأ كتب الأولين ولا دارس أحدا، يراه قومه بين أظهرهم

صباحا ومساء، وهو أُمِّيٌّ لا يخط ولا يقرأ، وهي موافقة لما في الكتب السابقة، وما كان لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون.

ومنها: أنه ينبغي البعد عن أسباب الشر، وكتمان ما تخشى مضرته، لقول يعقوب ليوسف: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا﴾، ومنها: أنه يجوز ذكر الإنسان بما يكره على وجه النصيحة لغيره؛ لقوله: ﴿فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا﴾.

ومنها: أن نعمة اللّه على العبد؛ نعمة على من يتعلق به من أهل بيته وأقاربه وأصحابه، وأنه ربما شملهم، وحصل لهم ما حصل له سببه، كما قال يعقوب في تفسيره لرؤيا يوسف ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ ولما تمت النعمة على يوسف؛ حصل لآل يعقوب من العز والتمكين في الأرض والسرور والغبطة؛ ما حصل بسبب يوسف.

ومنها: أن العدل مطلوب في كل الأمور، لا في معاملة السلطان رعيته فقط ولا فيما دونه، حتى في معاملة الوالد لأولاده، في المحبة والإيثار وغيره، وأن في الإخلال بذلك يختل عليه الأمر، وتفسد الأحوال، ولهذا لما قدم يعقوب يوسف في المحبة وآثره على إخوته؛ جرى منهم ما جرى على أنفسهم وعلى أبيهم وأخيهم.

ومنها: الحذر من شؤم الذنوب، وأن الذنب الواحد يستتبع ذنوبا متعددة، ولا يتم لفاعله إلا بعد جرائم، فإخوة يوسف لما أرادوا التفريق بينه وبين أبيه؛ احتالوا لذلك بأنواع من الحيل، وكذبوا عدة مرات، وزوروا على أبيهم في القميص والدم الذي فيه، وفي إتيانهم عشاء يبكون، ولا تستبعد أنه قد كثر البحث فيها في تلك المدة، بل لعل ذلك اتصل إلى أن اجتمعوا بيوسف، وكلما صار البحث حصل من الإخبار بالكذب والافتراء ما حصل، وهذا شؤم الذنب، وآثاره التابعة والسابقة واللاحقة.

ومنها: أن العبرة في حال العبد بكمال النهاية، لا بنقص البداية، فإن أولاد يعقوب عليه السلام، جرى منهم ما جرى في أول الأمر، مما هو أكبر أسباب النقص واللوم، ثم انتهى أمرهم إلى التوبة النصوح، والسماح التام من يوسف ومن أبيهم، والدعاء بالمغفرة والرحمة، وإذا سمح العبد عن حقه، فاللّه خير الراحمين.

ولهذا -في أصح الأقوال[١]- أنهم كانوا أنبياء لقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾[٢] وهم أولاد يعقوب الاثنا عشر وذريتهم، ومما يدل على ذلك أن في رؤيا يوسف، أنه رآهم كواكب نيرة، والكواكب فيها النور والهداية الذي من صفات الأنبياء، فإن لم يكونوا أنبياء فإنهم علماء هداة.

ومنها: ما منَّ اللَّه به على يوسف عليه الصلاة والسلام؛ من العلم والحلم، ومكارم الأخلاق، والدعوة إلى اللَّه وإلى دينه، وعفوه عن إخوته الخاطئين عفوا بادرهم به، وتم ذلك بأن لا يثرب عليهم ولا يعيرهم به.

ثم برُّه العظيم بأبويه، وإحسانه لإخوته، بل لعموم الخلق.

ومنها: أن بعض الشر أهون من بعض، وارتكاب أخف الضررين أولى من ارتكاب أعظمهما، فإن إخوة يوسف، لما اتفقوا على قتل يوسف أو إلقائه أرضا، وقال قائل منهم: ﴿لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ كان قوله أحسن منهم وأخف، وبسببه خف عن إخوته الإثم الكبير.

ومنها: أن الشيء إذا تداولته الأيدي وصار من جملة الأموال، ولم يعلم أنه كان على غير الشرع؛ أنه لا إثم على من باشره ببيع أو شراء أو خدمة أو انتفاع أو استعمال، فإن يوسف ﷺ باعه إخوته بيعا حراما لا يجوز، ثم ذهبت به السيارة إلى مصر فباعوه بها، وبقي عند سيده غلاما رقيقا، وسماه اللَّه سيدا، وكان عندهم بمنزلة الغلام الرقيق المكرم.

ومنها: الحذر من الخلوة بالنساء اللائي يخشى منهن الفتنة، والحذر أيضًا من المحبة التي يخشى ضررها، فإن امرأة العزيز جرى منها ما جرى بسبب توحّدها بيوسف، وحبها الشديد له، الذي ما تركها حتى راودته تلك المراودة، ثم كذبت عليه فسجن بسببها مدة طويلة.

ومنها: أن الهمَّ الذي همَّ به يوسف بالمرأة ثم تركه لله؛ مما يرقيه إلى اللَّه زلفى،

---

(١) تتابع كثير من المفسرين على أنهم ليسوا بأنبياء. انظر تفسير ابن كثير (٤/ ١١-١٢) وتفسير القرطبي (٩/ ١٢٧) وتفسير المنار (١٢/ ٢٦٤).

(٢) النساء: الآية (١٦٣).

لأن الهمّ داع من دواعي النفس الأمارة بالسوء، وهو طبيعة لأغلب الخلق، فلما قابل بينه وبين محبة اللَّه وخشيته؛ غلبت محبة اللَّه وخشيته داعي النفس والهوى، فكان ممن ﴿خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾[1] ومن السبعة الذين يظلهم اللَّه في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله، أحدهم: «**رجل دعته امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله**»[2] وإنما الهم الذي يلام عليه العبد، الهم الذي يساكنه، ويصير عزما، ربما اقترن به الفعل.

ومنها: أن من دخل الإيمان قلبه، وكان مخلصا لله في جميع أموره؛ فإن اللَّه يدفع عنه ببرهان إيمانه، وصدق إخلاصه، من أنواع السوء والفحشاء وأسباب المعاصي، ما هو جزاء لإيمانه وإخلاصه، لقوله: ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ على قراءة من قرأها بكسر اللام، ومن قرأها بالفتح، فإنه من إخلاص اللَّه إياه، وهو متضمن لإخلاصه هو بنفسه، فلما أخلص عمله لله أخلصه اللَّه، وخلصه من السوء والفحشاء.

ومنها: أنه ينبغي للعبد إذا رأى محلا فيه فتنة وأسباب معصية؛ أن يفر منه ويهرب غاية ما يمكنه، ليتمكن من التخلص من المعصية، لأن يوسف ﷺ -لما راودته التي هو في بيتها- فر هاربا، يطلب الباب ليتخلص من شرها.

ومنها: أن القرائن يعمل بها عند الاشتباه، فلو تخاصم رجل وامرأته في شيء من أواني الدار؛ فما يصلح للرجل فإنه للرجل، وما يصلح للمرأة فهو لها، هذا إذا لم يكن بينة، وكذا لو تنازع نجار وحداد في آلة حرفتهما من غير بينة، والعمل بالقيافة في الأشباه والأثر من هذا الباب، فإن شاهد يوسف شهد بالقرينة، وحكم بها في قد القميص، واستدل بقدِّه من دبره على صدق يوسف وكذبها.

ومما يدل على هذه القاعدة؛ أنه استدل بوجود الصُّواع في رحل أخيه على الحكم عليه بالسرقة، من غير بينة شهادة ولا إقرار، فعلى هذا؛ إذا وجد المسروق في يد السارق، خصوصا إذا كان معروفا بالسرقة؛ فإنه يحكم عليه بالسرقة، وهذا أبلغ من الشهادة، وكذلك وجود الرجل يتقيأ الخمر، أو وجود المرأة التي لا زوج

---

(١) النازعات: الآية (٤٠).

(٢) تقدم تخريجه عند: الآية (٢٣).

لها ولا سيد حاملا؛ فإنه يقام بذلك الحد، ما لم يقم مانع منه، ولهذا سمى اللّه هذا الحكم شاهدا فقال: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾.

ومنها: ما عليه يوسف من الجمال الظاهر والباطن، فإن جماله الظاهر، أوجب للمرأة التي هو في بيتها ما أوجب، وللنساء اللاتي جمعتهن حين لمنها على ذلك أن قطعن أيديهن وقلن: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ وأما جماله الباطن، فهو العفة العظيمة عن المعصية، مع وجود الدواعي الكثيرة لوقوعها، وشهادة امرأة العزيز والنسوة بعد ذلك ببراءته، ولهذا قالت امرأة العزيز: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾ وقالت بعد ذلك: ﴿ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ وقالت النسوة: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾.

ومنها: أن يوسف ﷺ اختار السجن على المعصية، فهكذا ينبغي للعبد إذا ابتلي بين أمرين -إما فعل معصية، وإما عقوبة دنيوية- أن يختار العقوبة الدنيوية على مواقعة الذنب الموجب للعقوبة الشديدة في الدنيا والآخرة، ولهذا من علامات الإيمان؛ أن يكره العبد أن يعود في الكفر، بعد أن أنقذه اللّه منه، كما يكره أن يلقى في النار.

ومنها: أنه ينبغي للعبد أن يلتجئ إلى اللّه، ويحتمي بحماه عند وجود أسباب المعصية، ويتبرأ من حوله وقوته؛ لقول يوسف ﷺ: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾.

ومنها: أن العلم والعقل يدعوان صاحبهما إلى الخير، وينهيانه عن الشر، وأن الجهل يدعو صاحبه إلى موافقة هوى النفس، وإن كان معصية ضارا لصاحبه.

ومنها: أنه كما على العبد عبودية لله في الرخاء؛ فعليه عبودية له في الشدة، فـ «يوسف» ﷺ لم يزل يدعو إلى اللّه، فلما دخل السجن استمر على ذلك، ودعا الفتيين إلى التوحيد ونهاهما عن الشرك، ومن فطنته ﷺ أنه لما رأى فيهما قابلية لدعوته، حيث ظنا فيه الظن الحسن وقالا: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ وأتياه لأن يعبر لهما رؤياهما، فرآهما متشوقين لتعبيرها عنده؛ رأى ذلك فرصة فانتهزها، فدعاهما إلى اللّه تعالى قبل أن يعبر رؤياهما ليكون أنجح لمقصوده وأقرب لحصول مطلوبه، وبين لهما أولا أن الذي أوصله إلى الحال التي رأياه فيها من الكمال

والعلم؛ إيمانه وتوحيده، وتركه ملة من لا يؤمن باللَّه واليوم الآخر، وهذا دعاء لهما بلسان الحال، ثم دعاهما بالمقال، وبين فساد الشرك وبرهن عليه، وحقيقة التوحيد وبرهن عليه.

ومنها: أنه يبدأ بالأهم فالأهم، وأنه إذا سئل المفتي -وكان السائل في حاجة أشد لغير ما سأل عنه- أنه ينبغي له أن يعلمه ما يحتاج إليه قبل أن يجيب سؤاله، فإن هذا علامة على نصح المعلم وفطنته، وحسن إرشاده وتعليمه، فإن يوسف -لما سأله الفتيان عن الرؤيا- قدم لهما قبل تعبيرها دعوتهما إلى اللَّه وحده لا شريك له.

ومنها: أن من وقع في مكروه وشدة، لا بأس أن يستعين بمن له قدرة على تخليصه، أو الإخبار بحاله، وأن هذا لا يكون شكوى للمخلوق، فإن هذا من الأمور العادية التي جرى العرف باستعانة الناس بعضهم ببعض، ولهذا قال يوسف للذي ظن أنه ناج من الفتيين: ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾.

ومنها: أنه ينبغي ويتأكد على المعلم استعمال الإخلاص التام في تعليمه، وأن لا يجعل تعليمه وسيلة لمعاوضة أحد في مال أو جاه أو نفع، وأن لا يمتنع من التعليم أو لا ينصح فيه إذا لم يفعل السائل ما كلفه به المعلم، فإن يوسف عليه السلام قد قال ووصى أحد الفتيين أن يذكره عند ربه، فلم يذكره ونسي، فلما بدت حاجتهم إلى سؤال يوسف، أرسلوا ذلك الفتى، وجاءه سائلا مستفتيا عن تلك الرؤيا، فلم يعنفه يوسف ولا وبخه لتركه ذكره، بل أجابه عن سؤاله جوابا تاما من كل وجه.

ومنها: أنه ينبغي للمسؤول أن يدل السائل على أمر ينفعه مما يتعلق بسؤاله، ويرشده إلى الطريق التي ينتفع بها في دينه ودنياه، فإن هذا من كمال نصحه وفطنته وحسن إرشاده، فإن يوسف عليه السلام، لم يقتصر على تعبير رؤيا الملك، بل دلهم -مع ذلك- على ما يصنعون في تلك السنين المخصبات من كثرة الزرع وكثرة جبايته.

ومنها: أنه لا يلام الإنسان على السعي في دفع التهمة عن نفسه، وطلب البراءة لها، بل يحمد على ذلك، كما امتنع يوسف عن الخروج من السجن حتى تتبين لهم براءته، بحال النسوة اللاتي قطعن أيديهن.

ومنها: فضيلة العلم؛ علم الأحكام والشرع، وعلم تعبير الرؤيا، وعلم التدبير والتربية؛ وأنه أفضل من الصورة الظاهرة، ولو بلغت في الحسن جمال يوسف، فإن

يوسف -بسبب جماله- حصلت له تلك المحنة والسجن، وبسبب علمه حصل له العز والرفعة والتمكين في الأرض، فإن كل خير في الدنيا والآخرة من آثار العلم وموجباته.

ومنها: أن علم التعبير من العلوم الشرعية، وأنه يثاب الإنسان على تعلمه وتعليمه، وأن تعبير الرؤيا داخل في الفتوى، لقوله للفتيين: ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾، وقال الملك: ﴿أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ﴾، وقال الفتى ليوسف: ﴿أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ﴾ الآيات؛ فلا يجوز الإقدام على تعبير الرؤيا من غير علم.

ومنها: أنه لا بأس أن يخبر الإنسان عما في نفسه من صفات الكمال من علم أو عمل؛ إذا كان في ذلك مصلحة، ولم يقصد به العبد الرياء، وسلم من الكذب، لقول يوسف: ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ وكذلك لا تذم الولاية، إذا كان المتولي فيها يقوم بما يقدر عليه من حقوق الله وحقوق عباده، وأنه لا بأس بطلبها إذا كان أعظم كفاءة من غيره، وإنما الذي يذم، إذا لم يكن فيه كفاية، أو كان موجودا غيره مثله، أو أعلى منه، أو لم يرد بها إقامة أمر الله، فبهذه الأمور ينهى عن طلبها والتعرض لها.

ومنها: أن الله واسع الجود والكرم، يجود على عبده بخير الدنيا والآخرة، وأن خير الآخرة له سببان: الإيمان والتقوى، وأنه خير من ثواب الدنيا وملكها، وأن العبد ينبغي له أن يدعو نفسه، ويشوقها لثواب الله، ولا يدعها تحزن إذا رأت زينة أهل الدنيا ولذاتها، وهي غير قادرة عليها، بل يسليها بثواب الله الأخروي، وفضله العظيم لقوله تعالى: ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾.

ومنها: أن جباية الأرزاق -إذا أريد بها التوسعة على الناس من غير ضرر يلحقهم-؛ لا بأس بها، لأن يوسف أمرهم بجباية الأرزاق والأطعمة في السنين المخصبات، للاستعداد للسنين المجدبة، وأن هذا غير مناقض للتوكل على الله، بل يتوكل العبد على الله ويعمل بالأسباب التي تنفعه في دينه ودنياه.

ومنها: حسن تدبير يوسف لما تولى خزائن الأرض، حتى كثرت عندهم الغلات جدا، وحتى صار أهل الأقطار يقصدون مصر لطلب الميرة منها لعلمهم بوفورها فيها، وحتى إنه كان لا يكيل لأحد إلا مقدار الحاجة الخاصة أو أقل،

لا يزيد كل قادم على كيل بعير وحمله.

ومنها: مشروعية الضيافة، وأنها من سنن المرسلين وإكرام الضيف لقول يوسف لإخوته ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾.

ومنها: أن سوء الظن مع وجود القرائن الدالة عليه غير ممنوع ولا محرم، فإن يعقوب قال لأولاده بعدما امتنع من إرسال يوسف معهم حتى عالجوه أشد المعالجة، ثم قال لهم بعد ما أتوه، وزعموا أن الذئب أكله: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾، وقال لهم في الأخ الآخر: ﴿هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾، ثم لما احتبسه يوسف عنده، وجاء إخوته لأبيهم قال لهم: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ فهم في الأخيرة -وإن لم يكونوا مفرطين- فقد جرى منهم ما أوجب لأبيهم أن قال ما قال، من غير إثم عليه ولا حرج.

ومنها: أن استعمال الأسباب الدافعة للعين أو غيرها من المكاره، أو الرافعة لها بعد نزولها؛ غير ممنوع، بل جائز، وإن كان لا يقع شيء إلا بقضاء وقدر، فإن الأسباب أيضًا من القضاء والقدر، لأمر يعقوب، حيث قال لبنيه: ﴿يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾.

ومنها: جواز استعمال المكايد التي يتوصل بها إلى الحقوق، وأن العلم بالطرق الخفية الموصلة إلى مقاصدها مما يحمد عليه العبد، وإنما الممنوع التحيل على إسقاط واجب أو فعل محرم.

ومنها: أنه ينبغي لمن أراد أن يوهم غيره، بأمر لا يحب أن يطلع عليه، أن يستعمل المعاريض القولية والفعلية المانعة من الكذب، كما فعل يوسف حيث ألقى الصُّواع في رحل أخيه، ثم استخرجها منه موهما أنه سارق، وليس فيه إلا القرينة الموهمة لإخوته، وقال بعد ذلك: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ ولم يقل: «من سرق متاعنا»، وكذلك لم يقل: «إنا وجدنا متاعنا عنده» بل أتى بكلام عام يصلح له ولغيره، وليس في ذلك محذور، وإنما فيه إيهام أنه سارق ليحصل المقصود الحاضر، وأن يبقى عنده أخوه، وقد زال عن الأخ هذا الإيهام بعد ما تبينت الحال.

ومنها: أنه لا يجوز للإنسان أن يشهد إلا بما علمه، وتحققه بمشاهدة أو خبر من

يثق به، وتطمئن إليه النفس لقولهم: ﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾.

ومنها: هذه المحنة العظيمة التي امتحن اللَّه بها نبيه وصفيه يعقوب ﷺ، حيث قضى بالتفريق بينه وبين ابنه يوسف، الذي لا يقدر على فراقه ساعة واحدة، ويحزنه ذلك أشد الحزن، فحصل التفريق بينه وبينه مدة طويلة، لا تقصر عن ثلاثين سنة، ويعقوب لم يفارق الحزن قلبه في هذه المدة ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾، ثم ازداد به الأمر شدة، حين صار الفراق بينه وبين ابنه الثاني شقيق يوسف، هذا وهو صابر لأمر اللَّه محتسب الأجر من اللَّه، قد وعد من نفسه الصبر الجميل، ولا شك أنه وفى بما وعد به، ولا ينافي ذلك قوله: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾، فإن الشكوى إلى اللَّه لا تنافي الصبر، وإنما الذي ينافيه الشكوى إلى المخلوقين.

ومنها: أن الفرج مع الكرب؛ وأن مع العسر يسرا، فإنه لما طال الحزن على يعقوب واشتد به إلى أنهى ما يكون، ثم حصل الاضطرار لآل يعقوب ومسهم الضر؛ أذن اللَّه حينئذ بالفرج، فحصل التلاقي في أشد الأوقات إليه حاجة واضطرارا، فتم بذلك الأجر وحصل السرور، وعلم من ذلك أن اللَّه يبتلي أولياءه بالشدة والرخاء، والعسر واليسر؛ ليمتحن صبرهم وشكرهم، ويزداد -بذلك- إيمانهم ويقينهم وعرفانهم.

ومنها: جواز إخبار الإنسان بما يجد، وما هو فيه من مرض أو فقر ونحوهما، على غير وجه التسخط؛ لأن إخوة يوسف قالوا: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ﴾ ولم ينكر عليهم يوسف.

ومنها: فضيلة التقوى، وأن كل خير في الدنيا والآخرة؛ فمن آثار التقوى والصبر، وأن عاقبة أهلهما أحسن العواقب؛ لقوله: ﴿قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

ومنها: أنه ينبغي لمن أنعم اللَّه عليه بنعمة بعد شدة وفقر وسوء حال؛ أن يعترف بنعمة اللَّه عليه، وأن لا يزال ذاكرا حاله الأولى، ليحدث لذلك شكرا كلما ذكرها؛ لقول يوسف ﷺ: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾.

ومنها: لطف اللَّه العظيم بيوسف، حيث نقله في تلك الأحوال، وأوصل إليه

الشدائد والمحن، ليوصله بها إلى أعلى الغايات ورفيع الدرجات.

ومنها: أنه ينبغي للعبد أن يتملق إلى اللَّه دائما في تثبيت إيمانه، ويعمل الأسباب الموجبة لذلك، ويسأل اللَّه حسن الخاتمة، وتمام النعمة لقول يوسف عليه الصلاة والسلام: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

فهذا ما يسر اللَّه من الفوائد والعبر في هذه القصة المباركة، ولا بد أن يظهر للمتدبر المتفكر غير ذلك.

فنسأله تعالى علما نافعا وعملا متقبلا إنه جواد كريم»[1].

وقال القاسمي: «قال بعضهم: إن قصة يوسف الصديق جمة الفائدة، وجليلة العائدة، تحدو بكل امرئ أبيّ إلى الاقتداء بها؛ فإن من أطلق سوام الفكر في حياة يوسف عليه السلام؛ رآها رغيدة، وألفاها هنيئة، وما ذلك إلا لطيب سيرته، وحميد سريرته، وتمسكه بعرى التقوى والفضيلة، ولا سيما فضيلة العفة والطهارة، التي ترفع قدر صاحبها، وتنزله المنزلة السامية، فعلى المرء أن يقتفي أثر هذه الفضيلة الجليلة كيوسف، فيتسنم ذروة المجد في هذه الدنيا، وينال السعادة الدائمة في الآخرة. انتهى.

قال الإمام أبو جعفر بن الزبير: هذه السورة من جملة ما قص على النبي صلوات اللَّه عليه، من أنباء الرسل، وأخبار من تقدمه، مما فيه التثبت المشار إليه في قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ﴾[2] الآية. وإنما أفردت على حدتها، ولم تنسق على قصص الرسل، مع أنهم في سورة واحدة، لمفارقة مضمونها تلك القصص. ألا ترى أن تلك قصص إرسال من تقدم ذكرهم عليهم السلام، وكيفية تلقي قومهم لهم، وإهلاك مكذبيهم؟ أما هذه القصة، فحاصلها: فرج بعد شدة، وتعريف بحسن عاقبة الصبر؛ فإنه تعالى امتحن يعقوب عليه السلام بفقد ابنيه وبصره، وشتات بنيه، وامتحن يوسف عليه السلام بالجب والبيع، وامرأة العزيز وفقد الأب والإخوة والسجن، ثم امتحن جميعهم بشمول الضر، وقلة ذات اليد ﴿مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ﴾ الآية، ثم تداركهم اللَّه

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٤/٦٦-٨٣).

(٢) هود: الآية (١٢٠).

بإلفهم، وجمع شملهم، ورد بصر أبيهم، وائتلاف قلوبهم، ورفع ما نزغ به الشيطان، وخلاص يوسف ﷺ، وبكيد من كاده، واكتنافه بالعصمة، وبراءته عند الملك والنسوة، وكل ذلك مما أعقبه جميل الصبر، وجلالة اليقين، وحسن تلقي الأقدار بالتفويض والتسليم، على توالي الامتحان، وطول المدة. ثم انجر في أثناء هذه القصة الجليلة إنابة امرأة العزيز، ورجوعها إلى الحق، وشهادتها ليوسف ﷺ، بما منحه الله من النزاهة عن كل ما يشين. ثم استخلاص العزيز إياه إلى ما انجر في هذه القصة الجليلة من العجائب والعبر. فقد انفردت هذه القصة بنفسها، ولم تناسب ما ذكر من قصص نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى ﷺ، وما جرى في أممهم، فلهذا فصلت عنهم. وقد أشار في سورة برأسها إلى عاقبة من صبر ورضي وسلم؛ ليتنبه المؤمنون إلى ما في طي ذلك، وقد صرح لهم ما أجملته هذه السورة من الإشارة في قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾[1] إلى قوله: ﴿أَمْنًا﴾ وكانت قصة يوسف ﷺ بجملتها أشبه شيء بحال المؤمنين في مكابدتهم في أول الأمر وهجرهم، وتشققهم مع قومهم، وقلة ذات أيديهم، إلى أن جمع الله شملهم: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾[2]، وأورثهم الأرض، وأيدهم ونصرهم، وذلك بجليل إيمانهم، وعظيم صبرهم، فهذا ما أوجب تجرد هذه القصة عن تلك القصص والله أعلم.

ثم إن حال يعقوب ويوسف ﷺ في صبرهما، ورؤية حسن عاقبة الصبر في الدنيا، ما أعد لهما من عظيم الثواب؛ أنسب بحال نبينا ﷺ في مكابدة قريش، ومفارقة وطنه، ثم تعقيب ذلك بظفره بعدوه وإعزاز دينه، وإظهار كلمته، ورجوعه إلى بلده، على حالة قرت بها عيون المؤمنين، وما فتح الله عليه وعلى أصحابه، فتأمل ذلك! ويوضحه ختم السورة بقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾ الآية. فحاصل هذا كله الأمر بالصبر، وحسن عاقبة أولياء الله فيه -كذا في تفسير البرهان للبقاعي ملخصا-.

---

(١) النور: الآية (٥٥).

(٢) آل عمران: الآية (١٠٣).

وجاء في كتاب (النظام والإسلام) في بحث التربية والآداب في قصص القرآن ما مثاله: طال الأمر على أمتنا، فأهملت ما في غضون كتابها من أساس التربية والحكمة، وكيف تنتقي الرجال الأكفاء في مهام الأعمال. يا ليت شعري! ما الذي أصابها حتى غضت النظر عن القصص التي قصها، وأهملت أمرها، وظن أهلها أنها أمور تاريخية لاتفيد إلا المؤرخين. القصص في كل أمة عليها مقدار ارتقائها، سواء كانت وضعية أم حقيقية، على ألسنة الحيوان أو الإنسان أو الجماد، على هذا تبحث الأمم قديمها وحديثها. وناهيك بكتاب (كليلة ودمنة)، وما والاه من القصص الناسجة على منواله في الإسلام، ككتاب (فاكهة الخلفاء)، و(مقامات الحريري). جاء القرآن بقصص الأنبياء، وهي -لا جرم- أعلى منالا، وأشرف مزية، كيف لا وقد جمعت أحسن الأسلوب، واختيار المقامات المناسبة لما سيقت إليه، والقدوة الحسنة للكمل المخلصين من الأنبياء ومن والاهم، وتحققها في أنفسها، لوقوع مواردها، وإن حب التشبه طبيعة مرتكزة في الإنسان، لا سيما لمن يقتدى بهم.

فهذه خمس مزايا اختصت بها هذه القصص، ونقصت في سواها، أليس من العيب الفاضح أن نقرأ قصص القرآن، فلا نكاد نفهم إلا حكايات ذهبت مع الزمان، ومرت كأمس الدابر؟! ومالنا ولها إذن؟! تاللّٰه إن هذا لهو البوار! ولم يكن هذا إلا للجهل بالمقصود من قصصها، وأنها عبرة لمن اعتبر، وتذكرة لمن تفكر، وتبصرة لمن ازدجر. أما الرجوع إلى التاريخ، ومقارنته بما قصه المؤرخون في كتبهم، وما سطره الأقدمون على مباينتهم، وما يقوله القاصون في خرافتهم؛ فتلك سبيل حائد عن الجادة، يضل فيه الماهرون، يرشدك لذلك ما تسمعه من نبأ فتية الكهف، وكيف يقول: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾[1] فانظر كيف أسند العلم لله، ولم يعول على قول المؤرخين المختلفين ثم لم يبين الحقيقة، لئلا يكون ذريعة للطعن في التنزيل، فإن قال: خمسة، قالوا: ستة؛ وإن قال: أربعة، قالوا: سبعة، فكتب المؤرخين كثيرة الاختلاف في القصص، وما

---

(١) الكهف: الآية (٢٢).

المقصود منها إلا ليكون عبرة. وبالإجمال: فليس القصد من هذه القصص إلا منافعها، والعبر المبصرة للسامعين ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

ولسنا ممن يتبجح بالقول بلا بيان، فلا نعتمد إلا على البرهان. تأمل هذا القصص تجده لا يذكر إلا ما يناسب الإرشاد والنصح، ويعرض عن كثير من الوقائع، إذ لا لزوم لها، ولا معول عليها، فلا ترى قصة إلا وفيها توحيد وعلم ومكارم أخلاق، وحجج عقلية، وتبصرة وتذكرة، ومحاورات جميلة تلذ العقلاء. ولأقتصر من تلك القصص على ما حكاه عن يوسف الصديق ﷺ، وكيف جاوز فيها كل ما لا علاقة له بالأخلاق، من مدنية المصريين وأحوالهم، إلى الخلاصة والثمرة. ألا ترى كيف صدرت بحديث سجود الشمس والقمر والكواكب له في الرؤيا، دلالة على أن للطفل استعدادا يظهر على ملامحه، وأقواله وأفعاله ورؤياه؟ وهذا أعظم شيء اعتنى به قدماء الحكماء، من اليونان والفرس! كما ذكره المؤرخون وعلماء الأخلاق: كانوا يختبرون أبناءهم، ويتأملون ملامحهم؛ ليعرفوا ما استعدوا له من الصناعات والرئاسات والعلوم. ثم تأمل في قصة الإخوة، وحديث القميص والجب والذئب والدم، لتعلم ما نشاهده كل يوم من معاداة الأقران لمن ظهرت مبادئ الجمال النفسي، والخلق المرضي، والجلال الظاهر على ملامحه، فيعيبونه بما يشينه في نفسه أو عرضه أو خلقه، دلالة على أن هذه سنة في الكون لا تغادر نبيا ولا حكيما، ولا عالما مهما حسنت أخلاقه، وجمل ظاهره وباطنه..!

كل العداوات قد ترجى إزالتها إلا عداوة من عاداك من حسد

جرت تلك السنة في الأناسي؛ فإذا صبر الصالح فاز بالولاية عليهم، وأحبوه بعد العداوة ولو بعد حين، وعادوا من آذاه، ثم انظر في حديث قصة امرأة العزيز، وكيف عف مع الشباب، وكيف ساس نفسه وصدق ظن مولاه في الأمانة؛ وأرضى إلاهه، واتسم بالفضيلة، فتوازى جماله الباطني والظاهري..! ولنكتف بهذا القدر الآن، ولنشرع في الكلام على الآداب والأخلاق وتربية الأمراء والعفو والصفح، التي تضمنتها تلك القصة!.

فأما علم الأخلاق، وتربية رؤساء الأمم منها؛ فتأمل في كلام الحكماء -أولهم

وآخرهم- تجد إجماعهم على أن سياسة أخلاق النفس أولا فالمنزل فالمدينة، كل واحدة مقدمة للاحقتها ثمرة لسابقتها؛ إذ لا يعقل أن يسوس منزله من لم يسس نفسه، أو يسوس أمته من لم يدبر إدارة منزله!.

بايع الصحابة -عليهم رضوان الله- الخليفة الأول، فأخذ قماشا وذراعا وذهب إلى السوق في الغداة، فاستاء الصحابة ولاموه فقال: إذا أضعت أهلي، فأنا للمسلمين أضيع! ففرضوا له دريهمات من بيت المال، فقال: إذن أنظر في شؤنكم! لذلك، نجد الغربيين -إذا ولوا رجلا إدارة بلادهم- أكثروا السؤال عن قرينته وإدارة منزله، علما منهم أن منزله أقرب إليه من الأمة.

فانظر هذه الحقائق من سيرة النبي يوسف الصديق، كيف ذكرت في الكتب السماوية، ورتبت في القرآن ترتيبا محكما، ذكرت فيها السياسات الثلاث مرتبة هكذا: النفس فالمنزل فالمدينة، ترتيبا طبيعيا، تنبيها لبني الإسلام على معرفة هذا العلم، وانتقائهم الأكفاء للأعمال العامة. فأشير فيها لتربية الأخلاق الفاضلة بالعفة في عنفوان الشباب مع الصديق. وليت شعري! كيف حفظ أخلاق آبائه وقومه والأنبياء في وسط مدنية المصريين، وزخرفهم وجمالهم، وعبد الله وحده، ونسي ما يراه من أبي الهول وأبيس والأرباب المتفرقة..؟! يذكر هذا تبصرة لمن أحاطت بهم أمواج الحدثان من كل جانب، أن يحافظوا على أصول دينهم وقواعده، ثم ليفعلوا ما يشاءون في أمور دنياهم..!

ظهر صدق يوسف في أخلاقه الشخصية، فلم يكن ذلك كافيا لإدارة أموره العامة، فأودع السجن، وأحيط بالأحداث والجهلة من كل جانب، فأخذ يسوسهم كما يسوس الرجل أهل منزله، وبث عقيدته بينهم، ظاهرا بمظهر الكمال والإحسان والعطف عليهم: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ﴾ الآية. وأخذ يقص عليهم سيرة أسلافه، وحبه لمذهبهم، وبغضه لأصنام المصريين ونحوهم، فقال: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ الآية. ثم أخذ يذكرهم أن تفرق وجهة الأمة ضلال في السياسة، وأن توحيد وجهتها كياسة فيها، فقال: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ فتفريق الوجهة شتات الجامعة. لم تسد أمة في الوجود إلا برجال يوحدون وجهتها أيا كانت، فيؤمون مقصدا واحدا! والتفصيل لا يخفى على أولي الألباب..!

وفي (آراء أهل المدينة الفاضلة) للفارابي اثنتا عشرة جامعة بكل منهن قوم اتحدت بها : كاللغة، والوطن، والدين، والأخلاق، والجنس، والحكيم المرشد، والأب الأكبر، ونحو ذلك مما امتازت به أمة أو جماعة.

ولما تم له ﷺ الأمران: سياسة النفس والعشيرة؛ أخرج من السجن معظما مبجلا، وترقى من تعليم الصعلوك في السجن إلى تعليم الملوك على العروش، وأخذ يربيهم كيف يقتصدون الأموال، وعبر لهم السنبلات الخضر واليابسات والبقرات السمان والعجاف، وأرشدهم إلى خزن البر وسنابله لئلا يفسد، وغير ذلك من الأمور العامة، وهذه هي المرتبة الثالثة؛ سياسة الأمة بأجمعها بعد قطع تينك العقبتين.

والبراعة والكياسة في علوم العمران، وتدبير أمر الأمة؛ إما بوحي، وهذا خاص به وبأمثاله من الأنبياء ﷺ، وإما بتعليم وتدريب، وهو اللائق بسائر الناس.

ترشد هذه السيرة الشريفة إلى أن الأخلاق الفاضلة؛ ما تثبت عليها النفس مع الحقير والعظيم والصغير والكبير، وأن الإنسان لا يستحقر تعليم الأصاغر، فإنه لا بد يوما ما أن يصل إلى الأكابر، كما في حديث هرقل مع أبي سفيان[١]، وتعليم الصديق من في السجن، فبلغ صاحب السجن فرعون المصريين.

ابتلي هذا النبي بالسراء والضراء فلم تتغير أخلاقه، وكان نموذج الكمال في سعة بيت الملك والجلال، وموضع الثقة في ضيق قبر السجن وعشرة الأسافل التي تتغير بها الأخلاق، وتنسى بها أصول الأعراق، وتنزل الكامل من عروش الفضيلة إلى أسفل مقاعد الرذيلة، ومن أوج الكمال إلى حضيض النقص!.

وهذه قصة يوسف الذي تربى في مصر، ونشأ فيها ولم تبهجه زخارف تلك المدنية إلى الرذيلة؛ جاءت عبرة للناس كافة وإلى المصريين خاصة! بهذه الأخلاق اعتلى يوسف عرش العظمة والجلال، فساس مصر بعد أن كان مسوسا، وملك بعد أن كان مملوكا! ليس الجزاء على الأخلاق والكمال خاصا بالآخرة، بل في

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٢٦٢-٢٦٣) والبخاري (١/ ٤٢-٤٣/ ٧) ومسلم (٣/ ١٣٩٣-١٣٩٧/ ١٧٧٣) وأبو داود (٥/ ٣٤٨-٣٤٩/ ٥١٣٦) والترمذي (٥/ ٦٥/ ٢٧١٧) والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٠٩-٣١١/ ١١٠٦٤) عن ابن عباس ﷺ.

الدارين: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾.

هذه هي الأخلاق الفاضلة، ذكرت في التنزيل نموذجا، في غضون هذه السيرة، للأمم الإسلامية ليأخذوا ثمرتها، ولا يضيعوا الزمن في أصلها وموردها في التاريخ، كما يجمد المفسر على الإعراب أو الصرف أو البلاغة، وهذا غيض من فيض من حكم هذه القصة، وبها نفهم ما ذكر في أولها: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ دع قول الجاهلين، وفهم المتنسكين، وتجاوز خلط المؤرخين واختلافهم، واصغ إلى ما في هذه القصة من هيئة تربية الحكام والأمراء، كما أشرنا سابقا، ولنزدك بيانا!.

قال علماء الأخلاق والحكماء: لا ينتظم أمر الأمة إلا بمصلحين، ورجال أعمال قائمين، وفضلاء مرشدين هادين، لهم شروط معلومة، وأخلاق معهودة؛ فإن كان القائم بالأعمال نبيا؛ فله أربعون خصلة ذكروها، كلها آداب وفضائل بها يسوس أمته، وإن كان رئيسا فاضلا لمدينة فاضلة؛ اكتفوا من الشروط الأربعين ببعضها. وسيدنا يوسف ﷺ حاز من كمال المرسلين وجمال النبيين، ولقد جاء في سيرته هذه ما يتخذه عقلاء الأمم هدى لاختيار الأكفاء في مهام الأعمال، إذ قد حاز الملك والنبوة! ونحن لا قبل لنا بالنبوة لانقطاعها، وإنما نذكر ما يليق بمقام رئاسة المدينة الفاضلة، ولنذكر منها ثلاث عشرة خصلة؛ هي أهم خصال رئيس المدينة الفاضلة، لتكون ذكرى لمن يتفكر في القرآن، وتنبيها للمتعلمين -العاشقين للفضائل- على نفائس الكتاب العظيم، وحبا في نظرهم في القرآن، وليعلموا أن تلك القصص وقد أودعت ما لم يكن ليخطر على بال من سمعه للتغني به ومجرد اللهو واللعب!.

أهم ما شرطه الحكماء في رئيس المدينة الفاضلة:

١ - العفة عن الشهوات، ليضبط نفسه وتتوافر قوته النفسية ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾.

٢ - الحلم عند الغضب، ليضبط نفسه: ﴿قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾.

٣ - وضع اللين في موضعه والشدة في موضعها: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ۝٥٩ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ﴾، والصدر للين والعجز للشدة.

٤ - ثقته بنفسه ﴿ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾.

٥ - قوة الذاكرة ليمكنه تذكر ما غاب ومضى له سنون، ليضبط السياسات ويعرف للناس أعمالهم ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾.

٦ - جودة المصورة والقوة المخيلة، حتى تأتي بالأشياء تامة الوضوح ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾

٧ - استعداده للعلم وحبه له وتمكنه منه: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾، ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾.

٨ - شفقته على الضعفاء وتواضعه مع جلال قدره وعلو منصبه، فخاطب الفتيين المسجونين بالتواضع فقال: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ﴾ الآية، وحادثهما في أمور دينهما ودنياهما، فالأول بقوله: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ الآية، وشهدا له بقولهما: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

٩ - العفو مع القدرة ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

١٠ - إكرام العشيرة ﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

١١ - قوة البيان والفصاحة بتعبيره رؤيا الملك، واقتداره على الأخذ بأفئدة الراعي والرعية والسوقة، ما كان هذا إلا بالفصاحة المبنية على العلم والحكمة ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾.

١٢ - حسن التدبير ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ﴾ الآية.

ثم تأمل في اقتدار يوسف عليه السلام على سياسة الملك، وكيف اجتذب إليه القلوب بالإحسان ﴿وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ﴾ الآية، ودبر الحيلة العجيبة بمسألة الصواع، والاتهام بالسرقة ليضم أخاه إليه ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ﴾ الآية، وعامل المحكومين

بشرعهم ودينهم وملتهم وعادتهم، كما عليه جميع الأمم الشرقية الحية من الرفق بالأمة المحكومة لهم، فيسوسونهم بدينهم وعادتهم وشرعهم وأخلاقهم وأموالهم؛ اتباعا لما رسمته الشريعة الغراء، مما يناسب حكم سيدنا يوسف عليه السلام، وذلك أنه أمر أتباعه أن يسألوهم ﴿قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَـٰذِبِينَ﴾ الآية، فكانت شريعة بني يعقوب أن يستعبدوا السارق سنة عند صاحب المتاع، فعاملهم بما هم عليه، ولذلك يقول اللّه تعالى: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾، امتدح على حسن خطته في السياسة، ومراعاته عادة أولئك القوم. وهذه -وإن كانت مسألة بسيطة الظاهر- فهي أم السياسة ورأس علوم العمران، وأول ما يوصي به السواس والعقلاء!.

تالله! ما أجمل القرآن! وما أبهج العلم! وليت شعري كيف يقول اللّه بعدها ﴿نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾؟ ولولا ما فيها من مبدأ شريف وحكم عالية مع وضوحها وبساطتها لذوي النظر السطحي والبله الغفل؛ ما أعطاها هذا الجلال والإعظام ومدح العلم! فحيا اللّه العلم وأدام دولته!

ومن العجيب الغريب تدبير هذه الحيلة بإخفاء الصواع، ثم نظر أمتعتهم جميعًا ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ﴾ وهذه: -وايم اللّه- هي بعينها ما يصنعه ملوك الأرض قاطبة اليوم من السياسات والتلطف في الأمور الخفية، وإلباسها ألبسة مختلفة لسياسة بلادهم، وطلبا لحصول المقاصد النافعة، ودخولا للبيوت من أبوابها؛ ولكن بينهم وبين هذا النبي بون بعيد..! فانظر كيف تعطي هذه القصة هذه الأمور العجيبة!.

لعمري! إن من طالع ما أمليناه بإمعان عن هذه القصة؛ يتخيل عند تلاوتها أنه مشاهد أعمال الأمم الحاضرة والغابرة! وكأنما طالع آراء أهل المدينة الفاضلة، وعرف الحكماء وسواس الأمم، وشاهد جمال العلم والأدب والحكمة والموعظة الحسنة، حتى يعلم علم اليقين كيف قال اللّه في أول السورة ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَـٰفِلِينَ﴾، ويقول في آخرها: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ﴾ ويقول: ﴿قُلْ هَـٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ ثم ذكر أن الإنسان لا ينبغي له أن ييأس من روح اللّه فقال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾ الآية. ثم أفاد أن المقصود

هو العبر والنظر لتأثير القصص وثمراتها، لا مجرد تفسيرها؛ إذ مجرد التفسير أمر بسيط يقنع به البسطاء. وإنما المقصد هو الاتعاظ والاعتبار فقال: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾ الآية. وهذه ترشدك -إن كنت من ذوي الهمة العالية- أن تصبر نفسك مع الذين يتعلمون أمدا طويلا، ولا تعجل بالرآسة حتى يبلغ الكتاب أجله، وتنال حظا وافرا من الأخلاق والعلوم، فلا بأس بالوظائف ونفع الأمة مع دوام المثابرة على العلم والاستزادة منه! فلقد صبر هذا النبي ﷺ أياما وأياما، ولبس للحوادث أثوابا وأثوابا، حتى إذا غلب اليأس جاء الفرج والرفعة!.

فتأمل! كيف كانت هذه السورة يقرؤها القارئون، ويسمعها الجاهلون وهم عن آياتها معرضون! فإذا سمعوا صوتا حسنا ظنوا أن هذا هو جمال القرآن، فقالوا للقارئ: سبحان من أعطاك! وفرحوا بما عندهم من العلم بظواهر ورونق القراءة، أو مجرد التفسير ومعرفة القصة، ولم ينظروا إلى الحكم المودعة فيها! فقبح الجهل! يترك الرجل أعمى؛ وإن لبس الحلل وارتدى ثياب الفخار الكاذب، والسراب الخادع.. كم للإنسان من آيات وعبر في السموات والأرض فيعرض عنها! خلقت لنا الأبصار والأسماع والعقول لننظر ماذا في السموات والأرض مما ذرأ المبدع في الكون، وتلا القرآن -وهو كلام مبدع الكون- وتلطف في تصوير المعاني، وألبسها أجمل لباس، فأعرض العقلاء فضلا عن العامة! فما للعامة لا يتعلمون؟ وما لذوي البصائر لا ينصحون ولا يبينون؟ وما للناس لا يكادون يفقهون؟

ذكرنا نموذجا عن هذه السورة استنشاطا لهمم العقلاء، وحثا لمن لهم ذكاء وفطن وعقول راجحة؛ على الرجوع إلى كتابهم ونظرهم فيه، وإزالة لشبه من ارتاب في هذه القصص فأعرض! وجلي أن قصص القرآن جميعها مملوءة بالحكم كهذه القصة، وفي كل واحدة منها ما ليس في الأخرى، كأنها ثمرات مختلف لونها! أين من يفقه هذا ممن يقف مع ألفاظها، وهم عن آياتها معرضون؟ ولا عجب! فإن نفوس الأسافل تأخذ الحكمة فترجعها من أفق سمائها إلى أرض ضعتها، كما يصير الماء في شجرة الحنظل مرا. فيقصدها هذا للنغمات، وذلك لقصة بسيطة، وآخر تسلية وتضييعا للزمن، وآخر يقف عند الألفاظ وإعرابها وصرفها وبلاغتها! ولكن

هذا أرقى مما قبله؛ فقد سار في الطريق وهي الألفاظ، ولكن هيهات أن يصل للمقصود والثمرات؛ إلا إذا أعد تلك القواعد مقدمة للمقصود وبحث فيه! وآخرون يسمعون الآيات فيعرضونها على التاريخ، والمؤرخون مختلفون كما قدمنا. وما مثل هؤلاء في سيرهم إلا كمثل رجل أوتي آلة بخارية ليسقي بها الحرث من النهر؛ فجلس بجانبها وترك استعمالها وأخذ يتفكر: من أين هذا الحديد؟ ولم يجلب الماء؟ وإلى أي مسافة يرتفع، وما العلة فيه، ومن أين يأتي الفحم الحجري، وفي أي الطرق يسير إلى أن يصل إلينا؟. فيمر عليه شهر وشهران؛ فيذبل زرعه وتبور أرضه.! ذلك مثل من يقرأ القرآن ويجعل جل عنايته تطبيقه على كلام المؤرخين، أو قواعد النحويين أو الصرفيين، وعلماء البلاغة فحسب! اللهم إلا قدرا يسيرا للفهم! وهذا -لعمر الله- انتكاس على الرأس، واتخاذ الوسيلة مقصدا، كمثل من أراد الحج فجعل همته إعداد الذخائر سنين، فاختطفته المنون وفارق الحياة ولم يحج! ذلك مثلهم!! انتهى[1].

* * *

---

(١) محاسن التأويل (٩/ ٣٠٢-٣١٤).

فهرس الموضوعات

سورة يوسف

* * *